كنعان مكيّة

القسوة والصمت

الحرب والطغيان والانتفاضة في العالم العربي

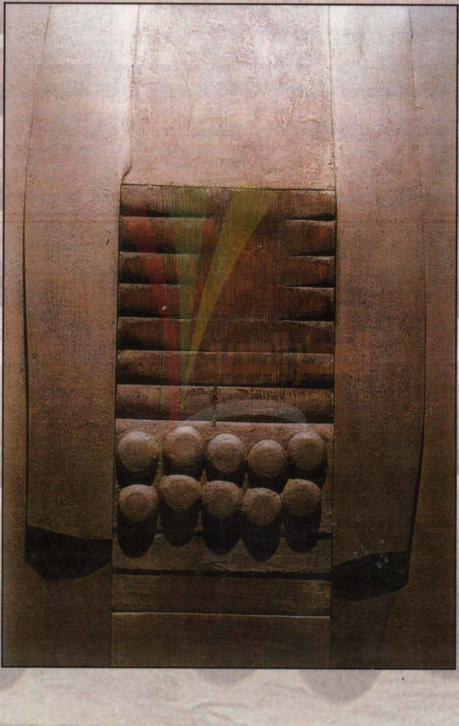

مكتبة
الفكر الجديد

منشورات الجمل

مكتبة
الفكر الجديد

كنعان مكية: القسوة والصمت

مكتبة الفكر الجديد

كنعان مكيّة: **القسوة والصمت**، الطبعة الأولى

جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس لهذه الطبعة

محفوظة لمنشورات الجمل، كولونيا – ألمانيا ٢٠٠٥

تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع دار الساقي ـ لندن

Kanan Makiya, *Cruelty and Silence*, Jonathan Cape, London

© Kanan Makiya, 1993

© *Al-Kamel Verlag 2005*

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany

Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763

E-Mail: KAlmaaly@aol.com

حقوق حقوق الطبع والنشر والاقتباس باللغة العربية

محفوظة لدار الساقي ١٩٩٤

مكتبة الفكر الجديد

كنعان مكيّة

القسوة والصمت

الحرب والطغيان والانتفاضة في العالم العربي

منشورات الجمل

مكتبة
الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

مقدّمة

في الثاني من آب/اغسطس ١٩٩٠، عندما سمعت أن صدام حسين اجتاح الكويت، غشاني المرض. انسقت، فطرياً، إلى الاعتقاد بأنه سينجو بفعلته. كان العالم العربي يعيش حالة سبات وانقسام، وصدام حسين يعرف عالمه، على الرغم من ضآلة ما كان يمكن أن يفقهه من أي عالم آخر لأناس آخرين. فلو سمح له بضم الكويت كلها أو جزء منها، لكان ما يمثله سياسياً عمّم في الخارج، مقولباً العالم العربي للأجيال القادمة.

تبدأ لدى الواحد منا اللحظات الأهم في السياسة مع ذلك الصنف من الشعور الخام الذي انتابني فيما كنت جالساً بغرفة الجلوس في بيتي مستمعاً إلى الأنباء. كلّ التحليلات المعقّدة ـ التي هي بضاعة الكاتب ـ تصير محكومة بإحساس كهذا، إحساس يُحوّل التفكير والكتابة مجرّد تطوّر للغريزة البدائية.

«ينبغي إيقاف صدام»، كتبت هذا في شهر آب/اغسطس ذاته، «والصدع الأهم في المسعى الذي قادته أميركا ضدّه هو أن الفرق المعدّة للإشتباك في الخطوط الأمامية لم تكن عربية. وهكذا فإن كل الصيغ القديمة القومية والمعادية للامبريالية قد تعود للظهور، محدثة صدمة عظيمة. ومن أجل مستقبل العالم العربي نفسه، على العربي أن يقاتل العربي فوق رمال السعودية لاسترجاع سيادة الكويت واستقلالها، وضدّ مبدأ العنف في حل المسائل الإنسانية وهو كلّ ما تقوم عليه سياسة البعث»[١].

في ١٧ كانون الثاني/يناير ١٩٩١ يوم بدأت القوات الحليفة تقصف العراق، كنت في القاهرة التي قدمت إليها لحضور معرض الكتاب العربي السنوي الثاني والعشرين. وفيما أنا أغادر سيارة الاجرة التي كانت اقلّتني من المطار إلى الفندق قبل أسبوع، ابصرت على بسطة فوق رصيف شارع طلعت حرب حشداً من الكتب الشعبية البخسة،

مكتبة الفكر الجديد

ومن بينها طبعة مقرصنة لكتاب «جمهورية الخلوف»، ادعى صديق مصري ان من طبعها كان رجلاً يعمل لوكالة الاستخبارات السعودية. وبينما رحت أقلّب نسخة كتابي المقرصنة، سألت البائع المتلهّف ان كان يعرف شيئاً عن كاتبها. قال: «كان سابقاً واحداً منهم، ثم تخاصم مع رفاقه قبل غزو الكويت تماماً وفضحهم». كان الكتاب محاطاً من الجانبين بكتابي مذكرات جاسوسية. احدهما كان «صياد الجواسيس» لبيتر رايت، والآخر لمسؤول سابق في الموساد بعنوان «عن طريق المخادعة». وهذان الكتابان كانا ظهرا بالعربية في الوقت المناسب ليحققا نجاحاً كبيراً في معرض الكتاب. فقصص التجسس لبيتر رايت، تحظى بشعبية كبيرة في مصر، ويبدو أنّ موزّعي الكتب المصريين اعتبروا «جمهورية الخوف» كتاباً من الصنف نفسه.

على الرصيف إياه في شارع طلعت حرب، خارج المدخل الأمامي لفندقي تماماً، كان مطروحاً واحد من الكتب الكثيرة، التهجمية البذيئة التي تتناول موضوع سلمان رشدي، والتي كان يمكن أن تجدها أنى توجهت في القاهرة. كان هذا الكتاب يعرض على غلافه الأمامي رسماً كاريكاتورياً شيطانياً لرشدي مع قرنين خارجين من رأسه على علو إنشين فوق أذنيه. في مكان آخر على الرصيف توزّعت مجموعة من كتب الغرام المصرية الأثيرة، ومعها الكتاب الأكثر انتشاراً في كلّ أنحاء مصر «نهاية العالم» لكاتبه الذي يعتبر بيلي غراهام مصر، وهو «الامام الشيخ» محمّد متولّي الشعراوي. فالسيناريوهات الرؤيوية، والأحداث السحرية، والتوقعات التنجيمية والمكائد التآمرية والسياسة التجسسية، كلها بدت تثير حماساً كبيراً في القاهرة عشية حرب الخليج في كانون الثاني/ يناير ١٩٩١.

وكانت هناك في المعرض أيضاً كتب تناقش مسألة فصل الدين عن الدولة بأقلام مفكرين إسلاميين عقلانيين مثل فؤاد زكريا، أو ليبراليين مدنيين مثل الكاتب فرج فوده. كنت محظوظاً بالفعل إذ تسنّى لي حضور محاضرة ألقاها فوده حول كتابه الأخير، وبعد المحاضرة ناقش بحماسة مئات الخصوم الغاضبين، واقتضى الدفاع عن العلمانية علناً بهذا الشكل جرأة عظيمة. لكن بسبب تلك الجرأة بالذات، وفي ٩ حزيران/يونيو ١٩٩٢، بعد أقل من أسبوع من انتقاد فوده العلني للرئيس حسني مبارك لتقييده الحريات المدنية في مصر، اغتيل بأيدي مسلمين متطرفين(٢).

هناك كتاب جديد آخر عن أزمة الخليج بعنوان «نفط ودماء»، موقع باسم مستعار ومكتوب ببلاغة معادية لصدام، يقدّم وثائق سرية مزعومة للنظام العراقي، بما في ذلك لوائح بأسماء كلّ اليهود الأعضاء في حزب البعث، وتقريراً عن «دورهم الفعلي

مكتبة الفكر الجديد

السياسة العراقية. تلك هي المنهجية التي يستخدمها البعثيون أنفسهم. ففي الثمانينات وضع فاضل البراك مدير عام الأمن الداخلي في العراق كتاباً كان هدفه أن يدعم بالوثائق كيف أن «قوى الاستعمار والشيطان» عملت على زرع جواسيس ومخرّبين من داخل المدارس العراقية، اليهودية والإيرانية[٣]. واللوائح التي قدّمها البرّاك في كتابه هي نفسها تلك التي كرّرها كتّاب «نفط ودماء» المجهولون.

تبدّلت حظوظ السيد البراك بعد حرب الخليج. أصبح مكروهاً من مستخدميه البعثيين واعترف تحت وطأة التعذيب بأنه جاسوس يعمل لحساب روسيا وألمانيا. وفي صيف ١٩٩٢ اعيدت جثته إلى عائلته في تكريت في صندوق مختوم بالشمع الأحمر[٤].

***

الزمن غير العادي يفعل بالكتاب أموراً عجيبة. «جمهورية الخوف» كان انتهى عام ١٩٨٦ واقتضى نشره زمناً طويلاً. قد يبدو ذلك غريباً الآن، إذ أنه منذ وقت قريب جداً كانت قلة ضئيلة من الناس فقط مستعدّة لأن تصدّق أن الأمور سيئة إلى هذا الحدّ داخل العراق. عدد كبير من القراء والناشرين وجد أن المخطوطة «متحيّزة ومن طرف واحد، غير علمية بشكل وافٍ ومثيرة للجدل على نحو مفرط». وما زلت اجفل حين أتذكّر رفض كتابي من قبل أحد الناشرين لأن واحداً من أبرز الاختصاصيين العرب في شؤون العراق الحديث في الولايات المتحدة كتب في تقريره ان الكتاب «يهين» الشعب العراقي. على أية حال، انتهى الأمر بالكتاب، بسبب صدّام حسين، لأن يقترب من أن يكون «الأكثر مبيعاً»، مع الأخذ في الاعتبار أنه، وإن كتب باللغة الإنكليزية، فإنه مختصّ بدولة شرق أوسطية واحدة (هي ليست إسرائيل).

احصيت خمسة عشر عنواناً جديداً عن أزمة الخليج في معرض القاهرة للكتاب، خمسة عشر كتاباً «فورياً» بحسب التعبير الشائع تجارياً، بينها طبعتان عربيتان مختلفتان للفصول الأربعة الأولى من كتاب «جمهورية الخوف». فما أظنه أن النصف الثاني من الكتاب اعتُبر مبالغاً في أكاديميته، ما لا داعي له لتحويل صدام إلى شيطان. وإحدى الطبعتين اصدرتها «دار الثقافة» وهي دار نشر صغيرة محترمة وعلمانية، والطبعة الثانية المقرصنة كانت تلك التي وجدتها على رصيف شارع طلعت حرب. لكنني اكتشفت لاحقاً ان طبعة أخرى مقرصنة للفصول الثمانية جميعها نشرتها «دار الزهراء» الإسلامية. وكلّ ذلك الاهتمام المفاجىء ينبغي مقارنته بموقف الناشرين العرب ممن لم يبد أي منهم استعداده لأن يمس المخطوطة ما بين اكتمالها وغزو الكويت[٥].

مكتبة الفكر الجديد

وعلى الرغم من الطابع الموتي والمخيف الذي طغى على تلك الظروف، كنت مسروراً بكل ما ناله الكتاب من اهتمام. ألا يثلج قلب أيّ كاتب أن يرى كتابه معروضاً على رصيف شارع طلعت حرب في القاهرة، وعلى الأخص إلى جانب كتيّب مزين بقلوب ملصقة على كامل غلافه، يعلّم كيفية كتابة الرسائل الغرامية؟

أما باقي الكتب التي صاحبت كتابي على الرصيف، فلم تثر فضولاً عندي. على سبيل المثال «الجزّار»، وهو كتاب فوري عن العراق، مع كاريكاتور يشع على الغلاف ويصوّر الرئيس العراقي يرتق خارطة الكويت ويلصقها بالعراق. ومن ضروب السخرية ان كتابي أصبح غير ضروري لتحقيق هدفه في الوقت ذاته الذي اصبح شعبياً. فأنا كنت أحاول لفت الانتباه إلى أهمية النظر إلى مسألة العنف البعثي بكثير من الجدية، غير أن أحداً لم يعد بحاجة إلى قراءة ٣٠٠ صفحة ليكتشف ذلك بعد الثاني من آب/اغسطس ١٩٩٠.

تنتاب المرء شكوك جدية بشأن معنى كل هذا الاهتمام حين يدرك ان كتابه، عندما ينشر ويوزّع بالطريقة التي وصفت، فإنه لن يؤخذ على محمل الجدّ من قبل بعض الأشخاص الذين كتب من أجلهم، وتحديداً أهل الفكر في مصر. فللكتب الفورية هناك السمعة نفسها التي لها في لندن أو في نيويورك، وإن اعتبرنا أن مناظرة «جمهورية الخوف» تحتوي على معانٍ تطال وضع السياسة العربية المعاصرة، بات من الراجح أن يتم تجاهل هذه المناظرة من خلال الربط بينها وبين كتاب «الحرب بين الإسلام والشيطان»، وهو رفيق مغبرّ آخر على رصيف شارع طلعت حرب، يصوّر غلافه صدام ينبثق من فمه نابان مثل نابي دراكولا وفي يده خنجر يقطر دماً موجّه نحو الكعبة. صحيح أن العديد من المثقفين العرب، المصريين والخليجيين، ينتقدون الآن النظام العراقي، لكن ذلك لم يصبح هكذا إلا بعد ٢ آب/اغسطس ١٩٩٠، وكان ميل الجميع في كانون الثاني/يناير ١٩٩١ متجهاً لتركيز كلّ اللوم إلى صدام حسين، كما لو انّ وحشية هذا الشخص تحتكر كلّ ما حلّ بالعالم العربي من كوارث في السنوات العشرين الماضية.

غير أن الكارثة الحقيقية لم تكن في المشهد الثقافي في مصر أو حال دور النشر المصرية، بل كانت في الذهنية التي اظهرتها النخبة في العالم العربي، خصوصاً أولئك الذين ينتمون إلى الدول الواقعة شرق مصر. فالتأييد لصدام حسين في أوساط المثقفين العرب الأكثر انفتاحاً وعلمانية وانغماساً في التجربة الغربية ـ وعلى الأخص المجموعة الأرفع ثقافة بينهم، وهم الفلسطينيون ـ كان عظيم الاتساع والعمق. فما نفهمه أن يخالج فلسطينياً في الأراضي المحتلة يتعرّض يومياً للذلّ على يد السلطات العسكرية

مكتبة الفكر الجديد

الإسرائيلية، نبض من التعاطف المفاجىء مع «الفارس الأسمر على فرسه الأبيض»، بحسب العبارة التي استخدمها ذلك الاستثناء الجميل، الكاتب الفلسطيني اميل حبيبي، في سياق هجائه صدام حسين. غير أن الأمر مختلف تماماً بالنسبة للعدد المتزايد من الصحافيين والكتّاب والأساتذة في الجامعات الغربية الذين يعتبرون أنفسهم «عرباً» أو «مناصرين للعرب» ويعبّرون عن مشاعر التأييد نفسها لطاغية وحشي، رغم معرفتهم التامة بما يفعله بصحبه العرب(٦). فخلال الفورة الأولى لأزمة الخليج، ظهرت بقوة عوارض ضيق ثقافي عربي، كان منذ سنوات طوال في طور التشكّل، واحتل هذا الضيق وسط المسرح السياسي العربي فكان انبثاق صدام حسين نفسه أفضل ما يرمز إليه.

مثل العديد من العراقيين، خصوصاً أولئك الناشطين من أجل القضية الفلسطينية، واجهت تجربة شخصية بغيضة جداً مع ردّة الفعل العربية هذه. هوجمت لكتابتي «جمهورية الخوف» تحت اسم مستعار. فقد رأى البعض في الاسم المستعار (سمير الخليل) تأكيداً على انني لا يمكن أن أكون غير عميل لـ «الموساد» أو «يهودياً عراقياً». غير أن الوقائع كانت أقلّ إثارة. فلا أنا ولا أي فرد من أفراد عائلتي تعرّض لأية اذيّة من البعثيين العراقيين، والكتابة باسم مستعار كانت أفضل وسيلة عملية من أجل استمرار الأمور على سابق حالها.

لقد أثير لغط كبير بشأن الاسماء المستعارة والمواقع السياسية بينما لم يرد سوى كلام ضئيل جداً عمّا كان يجري فعلياً داخل العراق. وحاول «جمهورية الخوف» طرح قضية قوامها وجوب عدم صرف النظر عن نظام البعث العراقي باعتباره مجرّد ديكتاتورية عادية شبيهة بنسخ هي على القدر ذاته من القذارة في جميع أنحاء العالم الثالث. فخلال السبعينات تحوّل العراق إلى دولة توتاليتارية، أكثر شبهاً بالاتحاد السوفياتي تحت حكم ستالين في الثلاثينات، وبألمانيا الهتلرية، منه بالأردن أو السعودية. فهل تؤكد الوقائع التي عرضها ذلك الكتاب استنتاجات كهذه؟ وبهذا المعنى، هل يؤكد حجم الوثائق الهائل الذي بات متوافراً وواسع الانتشار منذ حرب الخليج ذلك التصوير للنظام العراق المقدّم في كتاب «جمهورية الخوف»، أو أنه يدحضه؟ ما الذي حدث فعلياً في العراق خلال السنوات العشرين الماضية؟ إن الموافقة على مناظرة «جمهورية الخوف» بخطوطه العريضة إنما تنطوي على تضمينات تمتدّ إلى أبعد من العراق لتشمل العالم العربي بكليته. والمثقفون العرب أرادوا تحاشي تلك التضمينات إبان أزمة الخليج.

في ٧ آذار/مارس ١٩٩١ خلال الانتفاضة العراقية ضدّ صدام حسين، تخليت عن الاسم المستعار وألقيت كلمة في ندوة نظّمها مركز دراسات الشرق الأوسط في

مكتبة الفكر الجديد

هارفرد. في ذلك الاجتماع وفي محاضرات أخرى تلت، طالبت القوات المتحالفة أن تنهي الحرب وتستبدل النظام البعثي بحكومة انتقالية:

«إن ضخامة الهزيمة العراقية تحمل في طياتها فرصة تاريخية لبداية جديدة، قد ترسم سياسة المنطقة في أقلّ من جيل، لكن على القوات المتحالفة قبل ذلك أن تعترف علناً بالثوار العراقيين وتتعاون معهم... وتدخل بغداد.... المطلوب قفزة سياسية استراتيجية مساوية لضخامة الحرب نفسها. ماذا كان حصل لو انسحبت الولايات المتحدة في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية من غير أن تقدّم التزامات من أجل الديموقراطية وإعادة البناء الاقتصادي»[٧].

لم تكن الولايات المتحدة ملزمة بقطع مسافة نصف الكرة الأرضية مع ٤٤٣ ألف جندي من أجل حلّ مشاكل الشرق الأوسط. فصدام لم يكن يشكل تهديداً للمواطنين الأميركيين، وقد سبق للرؤساء الأميركيين أن تعاملوا معه وباستطاعتهم، بالتأكيد، التعامل معه مجدداً. وكان جورج بوش على الأخص مرتاحاً جداً في التعامل معه[٨]. لكن لحظة اختارت الولايات المتحدة أن تأخذ على عاتقها تلك المسؤولية، حين بدأ القتال، بات لزاماً عليها تجاه الشعب العراقي أن تنهي الأمور على نحو مختلف، وهو التزام لم يكن يقع على عاتقها قبل ارسالها كلّ أولئك الأميركيين ليقاتلوا في الخليج.

بعدما تحدثت علناً متخذاً هذا الموقف، تفاقمت ردّة فعل العرب غير العراقيين التي كانت قد واجهتني في وقت سابق. على سبيل المثال، قرّرت صحيفة «القدس العربي» نشر «عرض وتحليل لأفكار كنعان مكية» بعيد عرض في بريطانيا لفيلم وثائقي بعنوان «الطريق إلى الجحيم» قدّمتُ فيه تقريراً عن المقتلة الجماعية المنظمة لأكثر من مئة ألف كردي مدني بين شباط/فبراير وأيلول/سبتمبر ١٩٨٨ (انظر الفصلين ٤ و٥ من هذا الكتاب)[٩]. والمقالة التي كتبها السوري صبحي حديدي نشرت بعنوانين فرعيين هما «كيف أصبح كتاب 'جمهورية الخوف' أسطورة»؟ و«من اليأس ينبثق الجحيم الذهني»[١٠]. وكان هدف حديدي أن يظهر أن سمير الخليل، «النجم» الصاعد في المعارضة العراقية الذي دعا القوات المتحالفة إلى انهاء الحرب وإطاحة الدكتاتور العراقي، هو من اختراع وسائل الإعلام الغربية، كما ألمحت المقالة إلى أن ضوءه سيبهت ما أن تتضح حقيقة انتمائه الطائفي الشيعي.

وعلى الرغم من ان عنوان المقالة الرئيسي يعلن عنها بوصفها فضحاً للأفكار، غير أن الكاتب لم يتطرّق البتة إلى مناظرة «جمهورية الخوف». فقد كتب حديدي أن المقالة لا تتسع للغوص في ذلك. لكن يمكن قول أشياء كثيرة في صفحتين كاملتين من صحيفة

مكتبة الفكر الجديد

يومية (ما يقارب الـ ٣٢٠٠ كلمة)، كما يمكن للمرء أن يتساءل وهو محقّ في تساؤله، أي أمر آخر يمكن الكتابة حوله؟ أكثر من هذا، لم تتضمن مقالة حديدي، التي في حلقتين، كلمة واحدة عن الادعاءات الرهيبة المقدّمة في ذلك الفيلم الوثائقي. أليس من الأهمية بمكان أن يُشحن ما لا يقلّ عن مئة ألف عراقي بريء من الرجال والنساء والأطفال من قراهم ليقتلوا في فترة ستة أشهر من سنة ١٩٨٨؟ أوليس من الأهمية بمكان أنه منذ العام ١٩٧٥ قامت الحكومة العراقية بهدم ما لا يقلّ عن ٣٥٠٠ قرية كردية باسم العروبة؟

عند الضفة الأخرى من الأطلسي، انتقد ادوارد سعيد، وهو أستاذ في جامعة كولومبيا ولعلّه أبرز المثقفين العرب في العالم الغربي، «جمهورية الخوف»، واعتبره مشروعاً يهدف إلى «إعطاء دفع للنظرية القائلة إن النزاعات والعنف في الشرق الأوسط تعود، بتعبير نسبي، إلى أسباب ما قبل تاريخية، وهي مطبوعة في جينات أولئك الناس (العرب)». وقال، في مقابلة معه عن دور المثقفين خلال حرب الخليج، «إن سمير الخليل هو «خنزير غينيا»(*). وأنه يعمل كـ «مخبر ساذج» لخدمة مصالح صانعي السياسة الأميركية[١١].

هناك يأس وفقدان أمل مطموران في هذه الكلمات يفوقان كلّ ما تحتويه مكتبة كاملة من الكتب المختصة بوحشية الديكتاتوريات الشرق أوسطية والخسائر البشرية الرهيبة الناتجة عن حروبها. فأن تكون سياسياً، وأن ترغب في المطالبة بمعنى ما للعمل السياسي في العالم العربي، هو أن ترفض أن تصبح سجيناً لهذا النوع من الكلام. فقد أتاحت عقود من العنف المتصل في المنطقة للشك وللسخرية ولانعدام الثقة الكلّي، التفشي بشكل مخيف بيننا. وليس في المقدور أن نعرف ما كان سوف يحل لو ان ردّة فعل العالم العربي على غزو صدام حسين للكويت كانت «كما كان ينبغي أن تكون». وأن تتوقع الكثير (كما فعلت أنا في آب/اغسطس ١٩٩٠ حينما دعوت العرب إلى قيادة المعركة ضدّ عرب آخرين حول مسألة الكويت، ولم يفعل أحد ذلك، مفضّلين أن يتركوا الأمر للولايات المتحدة) هو أفضل من الوقوع في شرك المرارة واليأس.

من ناحية أخرى، فإن الاصرار على ما هو محق ـ انهاء الحرب والتخلّص من الطاغية ـ لا يساويه الاعتقاد بأن هذا الأمر سيحصل على أية حال. فالمسألة هي أن تنشر وتعكس موقفاً يلمح إلى الأمل، إذ لا ينبغي أن تكون الأمور سيئة مثلما هي في الواقع. فإن كنتُ مسكوناً بمسألتي القسوة والعنف اللتين تفاقمتا بشكل مخيف في العالم العربي، فهذا ينبع

(*) ملاحظة المترجم: خنزير يُستعمل وسيلة أو موضوعاً لإجراء التجارب.

مكتبة الفكر الجديد

من القناعة بأن ليس هناك من وسيلة أخرى لتقليص تلك القسوة وردّها عن حياتنا. ولأن ما من أحد يعرف ما سيجلبه الغد، فإن كلّ شيء واللاشيء يظلان دائماً احتمالين قائمين في أوقات الأزمات الكبرى. وموقفي السياسي هذا هو في العمق رفض التخلي عن العالم العربي الذي نشأت فيه، وهو رفض التخلي عن الغرب حيث اخترت أن أُقيم. فلا سياسة ولا مستقبل ولا أمل من دون هذين السلوكين، الاعتراف والرفض.

* * *

إن أزمة الخليج لم تكن مرّةً مجرّد مسألة تدخلات أجنبية أو رجل شرّير يلعب دوره الديماغوجي، بل كانت في الأساس فشلاً أخلاقياً عربياً ذا اتساق تاريخي، يجدر بكل من يهتم بمستقبل هذا الجزء من العالم أن يشعر حياله بمسؤولية شخصية. فهناك شيء ما في مكان ما من المسار العربي الحديث كان مخطئاً على نحو عميق، وصدام حسين لم يفعل سوى تجسيده وتمثيله. وفي هذا الكتاب لا أدعي أني استطعت أن أُفسّر الخلل، فهدفي هو الاعتراف به ووصفه. فوسط عاصفة العواطف التي أثارتها حرب الخليج، تراءى لي أن «القسوة والصمت» هما صياغة ذلك الواقع.

والقسوة والعنف يتقاطعان من غير أن يكونا واحداً. يمكن تبرير العنف، تبعاً للأهداف التي يسعىٰ إليها (مثلاً فعل الدفاع عن النفس). وقد يكون هناك عنف بين ندّين في المقابل. لكن لا يمكن البتة تبرير القسوة لأنها تقوم على تقصّد إلحاق الأذى الجسدي بأفراد هم في موقع الضعف. ذاك انه لتكون هناك قسوة، ينبغي أن يكون هناك شكل من الخضوع والعجز. والقسوة السيكولوجية والاجتماعية لا تدخل في حيّز ما يطرحه هذا الكتاب، ولكنها تتأتى إلى حدّ بعيد عن القسوة الجسدية، وتغذّيها. فالاعتداء على الجسد البشري بالقوة أو بواسطة أداة ما ينم عن خاصة غير عقلانية، متجذرة ولا يمكن اقتلاعها. إنها القاع الصخري القائم تحت كل طبقات الأمور الفظيعة التي يفعلها البشر بعضهم بالبعض الآخر.

والقسوة التي أنا بصددها لا علاقة لها البتة بـ «الجينات» أو «الأسباب ما قبل التاريخية»، بل ان مسبّبها سياسي وتأثيرها عالمي، ومجرّد حدوثها هو بمثابة إهانة لإنسانية الجميع، وهذا ما يجعلها تخترق الحساسيات والحدود الوطنية والدينية. لقد تفاقمت قسوة من هذا الصنف الكوني في أجزاء عديدة من العالم في السنوات الأخيرة، وبنسب تختلف سرعة وبطئاً (ينبغي أن نفكر في انقسام يوغوسلافيا وناقوس الموت اليومي في ساراييفو). وأحد الأسئلة الرئيسية المطروحة في القسم الثاني من هذا الكتاب هو: هل

مكتبة الفكر الجديد

تفاقمت القسوة في العالم العربي في العقدين الأخيرين؟ فإن كان الأمر كذلك، ما هي الأشكال التي اتخذتها؟

لقد تعاظمت بالتأكيد خلال الثمانينات في العراق. والدورة الأخيرة من الغزو والاحتلال والحرب والانتفاضة، التي اطلق صدام حسين عنانها في المنطقة، انتهت، فجائياً، ببقاء النظام العراقي في السلطة. فإبان الانتفاضة انتعشت آمال عراقية ثم ما لبثت أن تحطّمت. لكن لا يمكن أن يعود أي شيء إلى ما كان عليه. فقد انكشف أحد أكثر بلدان العالم انغلاقاً، وفي الواقع ولبرهة ضئيلة بات لدى كل عربي شيء ما ملحّ يقوله بشأن المسألة. إلاّ أن ما هو أهمّ، أن ضحايا القسوة بدأوا يتكلّمون، ويروون القصص كما لم يفعلوا قط من قبل. وقد أردت لكلّ تلك الكلمات الجديدة التي كانت تتدفق متعثرة أن تكتب هذا الكتاب نيابة عنّي. وبهذا المعنى فإن القسم الأوّل من الكتاب هو بالتأكيد القسم الأهم، انه رحلة إلى داخل تلك القسوة، مروية بكلمات الأشخاص الذين عاشوا تجربتها بالدرجة الأولى. أما دوري فكان تحويل كلمات أبطال هذا الكتاب ـ خليل، أبو حيدر، عمر، مصطفى وتيمور ـ إلى قصص وأخبار عن الأمور اللامعقولة التي في استطاعة الكائنات البشرية أن يفعلها بعضها ببعض.

خليل رجل كويتي متميّز بقي في الكويت خلال اجتياحها وتبدّل على أثر تلك التجربة التي، رغم أنها كانت مؤلمة، جعلته يكتشف من هو. لقد بحث عني حتى عثر عليّ في صيف ١٩٩٠، واكتشفنا رابطاً وثيقاً بيننا كانت حصيلته الفصل الأوّل من هذا الكتاب.

وأبو حيدر ضابط سابق في الجيش العراقي ولد في مدينة النجف المقدسة. في الأوّل من آذار/مارس ١٩٩٠ قرر أنه عانى ما فيه الكفاية فأمسك بزمام حياته وثار على صدام حسين. فقصته قصة انتفاضة مروية على شكل تركيب من مختلف الأصوات العراقية. فالثوار أيضاً كانوا شديدي القسوة مع معذّبيهم السابقين، يخبرون بأصواتهم الأفعال التي قاموا بها. لكنني، برغم ذلك، مقتنع بأنهم اطلقوا نفير الحرية الأوّل في العراق، وصبيحة فشلهم تعرضت مدينتا النجف وكربلاء لعملية تدمير ونهب لم تشهدها مدينة عراقية منذ الاجتياح المغولي لبغداد عام ١٢٥٨. وها هو حزب البعث يحاول إعادة بناء هاتين المدينتين، كما أعاد بناء بابل، على صورته الخاصة.

أما عمر، وهو مهندس مدني شاب من الأعظمية في بغداد، فأمضى ٤٩ يوماً في أحد سجون العاصمة العراقية، ورغم أنه لم يتعرّض للتعذيب، إلاّ أنه دخل عالماً من الرعب الذي يتعذّر وصفه، والذي بات نوعاً من القاعدة داخل العراق. وبدوره فإن مصطفى هو

مكتبة الفكر الجديد

من التقيته بكردستان العراق في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠، فاصطحبني لمشاهدة نصب تذكاري أقامه لذكرى مقتل ٦٨ من مواطنيه الأكراد في قرية غبتبه، قضوا في هجوم بالأسلحة الكيميائية عام ١٩٨٨. خمسة وعشرون منهم كانوا من أفراد عائلته.

كذلك شاهدت للمرّة الأولى الفتى الكردي تيمور على شريط فيديو تلقيته في آب/اغسطس ١٩٩١. كان يجلس مشبوك الساقين على الأرض، يخبر كيف أنه نجا من فرقة اعدام في آب/اغسطس ١٩٨٨، في حين لم يحالف الحظ والديه وشقيقاته الثلاث. ورغم أنّي بعد مرور ثلاثة أشهر على الاجتياح العراقي للكويت صرت، كالجميع، معتاداً روايات التعذيب البعثية، إلاّ أن تلك القصة كانت تنطوي على شيء خاص. وربما كان هذا وليد كدسة من الأوراق كنت قد تلقيتها قبل بضعة أيام على مشاهدة شريط الفيديو. كانت تلك صوراً عن وثائق رسمية وضع ثوار أكراد يدهم عليها خلال الانتفاضة العراقية في آذار/مارس ١٩٩١ إلاّ أن أهميتها كانت لا تزال حتى ذلك الوقت مجهولة. لقد ارتبطت الأوراق وشريط الفيديو في ذهني ارتباطاً غير قابل للانفصام، أما الرابط فاسمه: حملة الإبادة الجماعية التي قادها الجيش العراقي في الفترة ما بين شباط/فبراير وأيلول/سبتمبر ١٩٨٨[١٢].

بيد أنه كلّما عظمت الجريمة صَعُبَ اخفاء آثارها. فتيمور كان في مكان ما هناك في جبال كردستان على استعداد للإدلاء بشهادته. وذهبت إلى العراق في ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠ لغرض مقابلة تيمور والاطلاع على تلك الوثائق الرسمية، فعدت وبحوزتي عدد كبير من الشهادات والوقائع المروعة، تنقل بكاملها في قصص الجزء الأوّل من هذا الكتاب.

إن القسوة ممارسة خاصة تتجه إلى اجساد أفراد من البشر. انها شخصية بعمق في انعكاساتها على ما تبقى من حياة الضحية. وفي هذه الأيام يرتدي تيمور ثياباً تجعله يبدو اشبه بمقاتل كبير وشجاع يُستعرض أمام الصحافيين قاطبة لتُجرى معه المقابلات. إلاّ أنه لا يزال الفتى الصغير الذي كانه، في عمر ابنتي الآن، عندما انهار العالم كله على رأسه.

وأنا بدوري كاتب، لست مناضلاً من أجل حقوق الإنسان ولا أدّعي انني أديت لتلك الأمور الرهيبة، التي أصابت الأشخاص الذين تحتل اسماؤهم العناوين الأساسية في القسم الأوّل، ما تستحقه. ولئن كنت قد بذلت أقصى جهودي وكنت وفياً للوقائع إلى أقصى حدّ ممكن، إلاّ أنني أعلم أنه في ما يتعلق بالأشخاص الذين حاولت سرد رواياتهم، لن تكون الجهود كافية أبداً، حتى لو بلغت أقصاها. وكي استعيد خليل، وأبو حيدر، وعمر، ومصطفى وتيمور إلى مركز الاهتمام، كان عليّ أن أحولهم إلى صور مجازية

مكتبة الفكر الجديد

للعنف الفاضح. وبذلك تحتّم تحويل أشخاص حقيقيين من لحم ودم، بالكتابة، إلى نماذج عربية من طراز جديد.

* * *

في آخر تأملاته قبيل انتحاره، كتب بريمو ليفي عن الأشخاص الذين نجوا من أعمال عنف غير مبرّرة:

«معظم الذين نجوا (من المحرقة النازية) يذكرون شفهياً أو في مذكراتهم المكتوبة حلماً كان يراودهم باستمرار خلال ليالي احتجازهم، يختلف في تفاصيله، لكن جوهره واحد: إنهم عادوا إلى منازلهم يصفون لأحبائهم بانفعال وانفراج عذاباتهم الماضية، لكن هؤلاء لم يصدّقوهم، والحق أنهم لم ينصتوا إليهم. وفي الشكل الأكثر نمطية (والأكثر قسوة)، كان المستمع يستدير ويغادر بصمت»[١٣].

إن كانت القسوة مسألة خاصة وشخصية، فإن الصمت مسألة اجتماعية. إنه ينجم عن أفعال عدد من الأفراد يعملون، سواء عن وعي أو عن غير وعي، كمجموعة. ومواجهة الصمت كوسيلة للتعاطي مع ميراث القسوة تصبح بالضرورة عملاً جماعياً. وفي حين كانت الأعمال الوحشية المذكورة في الجزء الأول جارية على قدم وساق، كان المثقفون العرب يلزمون الصمت.

لكن، مثل القسوة نفسها، ليس صمت المثقفين العرب أمراً غير قابل للتغيير. فالعديد من العرب ذوي الحساسية يعون بعمق مدى التجذّر الذي بلغه القلق، بل المرض الفكري والثقافي داخل العالم العربي خلال الثمانينات. وسأرجع باستمرار إلى ما لديهم، غير أن النقطة الرئيسية في هذا الكتاب هي أن الصمت العربي الجماعي حيال أعمال القسوة والعنف، التي غالباً ما تنفّذ باسم جميع العرب، تنبع من سنوات عدّة من التفكير تبعاً لمنطق معيّن. وهذا ليس وضعاً جوهرياً لا يمكن تبديله، بل سياسة صمت. وقد اتخذت سياسة الصمت هذه خلال حرب الخليج صورة أسطورة صدام كمخلّص، والصورة المعكوسة لذلك، أي فكرة أن نشوب الأزمة والحرب هو نتيجة دسائس العنصرية أو الامبريالية الغربية.

في الماضي كان الغرب الواسع النفوذ يتلاعب في مصير العالم ويقرّره، وما زال ذلك قائماً إلى حدّ أو آخر اليوم. وهدف الجزء الثاني من هذا الكتاب لا يكمن في نفي ما يبدو جلياً، بل في اظهار كيف أن أهل الفكر في العالم العربي حوّلوا «التاريخ» إلى حالة ذهنية سياسية فاسدة كليّاً، تتعارض مع وضع العرب الحقيقي. والكثيرون من العرب

مكتبة الفكر الجديد

علموا أن خللاً ما فظيعاً حصل داخل العالم العربي، لكنهم قرروا عدم الجهر به، ولا سيما أمام جمهور غربي. وبذلك بات هذا النوع من المثقف جزءاً من المشكلة بدل أن يقف في رأس العاملين على حلّها. ففي زمن الأزمات الأخلاقية يتحوّل الصمت إلى موافقة، والتخلّي عن المسؤولية الفكرية أمر خطير بين المثقفين، وأكثر مما بين أولئك الذين لا يرون المشكلة أصلاً، إذ المثقفون يعرفون أكثر.

لقد اعتمدتُ سيل المقالات والتصريحات التي كتبها هؤلاء المثقفون خلال السنة ونصف السنة الأولين من الأزمة كمصدر رئيسي في وصف سياسة الصمت هذه. والتعميمات والآراء التجريدية التي تدّعي النظرة العلمية قد تخفي قدراً كبيراً من الخطايا، والصمت له لغته الصلبة الملموسة التي يتوجب التمثيل عليها، وفي مطلق الأحوال، فإنني بذكري اسماء ونقلي ما قيل وجال في الأذهان إنّما اكشف نفسي وأولئك الذين انتقدتهم على حد سواء. ولا شك أنّ البعض بدّل آراءه أو لطّفها بعد أن اتّضحت الهزيمة العسكرية العراقية الكاملة. والبعض الآخر يعبّر اليوم عن آراء متضاربة في وقت واحد، مما يشير إلى أن المشاعر والانفعالات التي أدّت في البدء إلى تلك المقالات والتصريحات لم تتبدّل دائماً. وهذا السبيل العاطفي هو الذي يتمحور نقدي عليه، لا الأفراد أنفسهم.

فالناس يتمتعون بالقدرة على تبديل آرائهم، وأنا أراهن على تلك القدرة لأنني رأيتها تعمل في اذهان العديد من الشبيبة العربية التي أكتب من أجلها. فهؤلاء الشبان من الشرق الأوسط هم في امسّ الحاجة إلى مخاصمة الأبطال الذين خذلوهم، إلى ابتكار لغة مختلفة يتقصون بواسطتها من هم وما يريدونه من هذا العالم.

والحقائق التي انقلها واعتمد عليها ليست محفورة في الصخر، بل هي نابعة من كائنات بشرية. إنها خيارات كان يمكن اختيار سواها بالسهولة ذاتها. فما من حقيقة عامة إلاّ وهي خاصة وفردية وهذا ما يؤلم أشد الألم. إلاّ أن القسوة ولغة أولئك المثقفين العرب الذين جهدوا لتبريرها يؤلمان أيضاً.

والجدل حول تحديد الحقيقة لن يصل إلى نهاية، لكن على الجميع أن يبددوا أية شكوك قد تساورهم حول تحديد القسوة. وهذا الكتاب مناظرة من أجل اطلاق الاسماء الصحيحة على الأشياء، من أجل الاقرار بالفشل وتحمّل مسؤوليته. فعلى خلاف الارتياح الذي شعرت به وأنا انقل قصص خليل وأبو حيدر وعمر ومصطفى وتيمور، لم أجد أية لذة في تحليل كتابات المثقفين العرب، لكنه كان أمراً لا بدّ منه. لقد تبدّلت الأمور كثيراً الآن ولم يعد من الممكن التحوّل عن الطريق التي شقّها صدام حسين بنفسه عندما اجتاح الكويت في ٢ آب/اغسطس ١٩٩٠. والرهانات كبيرة جداً لأن المعركة هي في النهاية

مكتبة الفكر الجديد

معركة حول المستقبل المنشود في العالم العربي، معركة حول ذلك السؤال المطروح باستمرار في العالم العربي «من هو العربي؟». إنني أسعى وسط هذه المعركة لأن أكون عادلاً، لكنني لا أدّعي عدم الانحياز. فهدفي ليس شخصياً، لكن أسلوبي هو كذلك. أُريد ادراك جذور المسألة، أُريد الوصول إلى قلب الأشياء بدل مجرّد التحديق من غير طائل في مرايا فكرية. وفي غضون ذلك، لا تزال قبور الموتى مفتوحة في العالم العربي.

لندن

كانون الأول/ديسمبر

١٩٩٢

مكتبة الفكر الجديد

الباب الأول

القسوة

مكتبة
الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

١ ـ خليل

الأهمية التي للإسم

ليت أمي لم تلدني لأرى عذاب هذا الزمان.

أبو حيدر/ ١٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٩١

خليل وهو شاب كويتي في مطلع ثلاثيناته، اكتشف هذه الكلمات على أحد جدران الغرفة الملحقة بصالون ما كان في السابق منزله العائلي الفخم. الكلمات كانت خطّتها بعناية، «بتزويق مائل الحروف»، كما أخبرني، يد جندي عراقي متمركز في الكويت المحتل كان يلقّب نفسه أبا حيدر[١]. كان خليل قد عاش طوال أشهر الاحتلال السبعة لبلاده مستخدماً اسماً مستعاراً، وكان يدخل منزله للمرة الأولى بعد مصادرة الجيش العراقي له. على جدار آخر وبعناية مماثلة كتب أبو حيدر: «إلى ابني وابنتي الأعز عندي من أي شيء في العالم». لم يُعرف شيء آخر عن أبي حيدر ولا حتى ان كان قد نجا ابان الاندفاع المجنون في الخروج من العاصمة الكويتية حينما صدر الأمر أخيراً من بغداد بالانسحاب مساء الاثنين في ٢٥ شباط/ فبراير ١٩٩١. أعتقد على أية حال انه ـ أو لربما يجدر ان أقول انه «كان» ـ رجلاً متعلماً ومثقفاً.

ألقى خليل بيته منهوباً. قال مقيم كويتي «أخذوا كل ما يمكّنهم من الخروج.. ان كانوا لا يملكون سيارة سرقوا واحدة. أرادوا المغادرة بأسرع وقت ممكن».[٢] غير ان عراقياً مجهولاً إستطاع قبل المغادرة ان يجد الوقت ليكتب على قفا صورة فوتوغرافية لشقيقة خليل: «ايتها الأخت الكويتية العزيزة، أرجو ان تسامحينا على ما فعلناه». هل كان هذا أبا حيدر نفسه؟. في الواقع كان يمكن لهذا ان يكون أيّاً من عديد الجنود المختلف. عدد كبير منهم كانوا قد أقاموا مؤقتاً في منزل خليل منذ أن صودر في ٢١ أيلول/سبتمبر ١٩٩٠.

مكتبة الفكر الجديد

إلى جانب الكتابة والصورة، وجد خليل نعجة مذبوحة على أرضية الصالون، تُرك نصفها من دون أن يؤكل. تبعثر جلدها وعظامها، وكان دمها منتقعاً على السجّادة البَلشَية(*). كان الحيوان قد ذبح في الطابق الثاني، ثم طُبخ وأُنزل إلى الطابق الأول ليؤكل هناك. وعلى الرغم من العدد الكبير من الحمامات في المنزل، كان الجنود من أمثال أبي حيدر، ولربما كان أبو حيدر أحدهم يتبرّزون على السجّادة حول الذبيحة التي استُهلك بعضها. كان المنزل برمته، كما يذكر خليل، ينضح رائحة عفن حقيقة.

«بعض هذه الذكريات مريع بالفعل. انه منفّر إلى حد ان اللاوعي لا يرغب إلا في طمسه. قبل أن أتعامل مع هذه الذكريات، احتاج إلى اجتراح طريقة أو نظام لإخراجها، كما لو اني أحتاج إلى إغراء هذه المعلومة كي تخرج عبر مخاطبة الذاكرة بالقول: «لا بأس إن خرجت. أستطيع ان أواجهك من جديد. أنت لست قادرة على إيذائي».

رجال مثل «أبو حيدر» عاشوا، أكلوا، وأفرغوا مثاناتهم في الغرفة نفسها، في الوقت نفسه، وربما هم فعلوا ذلك أمام بعضهم بعضاً، فعلوا ذلك محتلّين منزل شخص آخر في مدينة تخصّ آخرين. أي صنف من الرجال هم هؤلاء، تساءلت. لا بد ان خليل راودته الخاطرة نفسها لأنه نظر إليّ بحدّة جعلتني مرتبكاً غير مرتاح. قال «لقد فعلوا ذلك في طول الكويت وعرضها».

«كان الأمر برمته عنفاً من أجل العنف فقط، تدميراً من أجل التدمير وحسب، وقتلاً من أجل القتل. لقد سُدِّمَت(**) البلاد برمتها. ينبغي ابتكار كلمة جديدة تناسب ما جرى للكويت: «صُدِّمت». أجل لقد «صدّموا» الكويت.

تخيّلوا لوحة سوريالية رسمها سلفادور دالي عن الموت والعنف. نحن البشر نمتلك هذه الترسّبات الوحشية في عقولنا وهي تعود إلى عشرات الآلاف من السنين. ان قوى بدائية ترقد غير محسوسة هناك، وهي تسيطر علينا بين الحين والحين. فكيف يمكن لبشري ان يتخيل أشياء كهذه، هكذا أسأل نفسي أمام لوحات دالي. في وسع بعض الصور ان يشعرك بالتقيؤ، إذ بقدر ما هنالك إبداع، هنالك أيضاً تقزز. إبداع مقزز. أجل تلك كانت القوة التي راحت تعمل مطلقةً في الكويت أثناء الإحتلال».

(*) ملاحظة المترجم: نسيج ذو زئبر أطول من زئبر المخمل.

(**) ملاحظة المترجم: تقوم العبارة الإنكليزية هنا على تلاعب بين كلمتي Sodomized (أي، أحيلت إلى سدوم، وهي مدينة في فلسطين القديمة دمّرت من جراء انغماسها في الفساد، وقد آثرنا ترجمتها بـ «سدّمت»)، و Saddamized نسبة إلى الرئيس العراقي صدام حسين.

مكتبة الفكر الجديد

أذكر حين دخلت شقة لندنية لصديق ووجدت انها تعرضت للسطو ـ كانت محتويات معظم الجوارير مرمية فوق كل الأرضية، وكان وعاء بسعة خمسة غالونات إنكليزية من الدهان الأبيض مدلوقاً بأكمله وسط سجّادة الصالون. كان الدهان قد جفّ متحولاً إلى شكل حلزوني سميك... وأبيض شبيه بالروث. ثمة قضيب للتحريك كان منبزغاً بشكل شاذ إلى الأعلى. كيف حصل وبقي في ذلك الوضع بينما جفّ الدهان، سوف لن أفقه البتة.

وجد خليل منزله منتهكاً بشكل أفظع بكثير من شقة كينسينغتون. لا إحتلال طبيعياً، لكن بعض الاحتلالات يكون أقل طبيعية من البعض الآخر. فتحوّل غرفة استقبال عائلة إلى مسلخ جزّار وإلى مرحاض خارجي ليس بمسألة تحتمل تفسيراً بسيطاً. والأمر الغريب في لندن. ان منزل خليل لم يتعرض فقط لمجرد التخريب، مثل عدد كبير من البيوت في الكويت، فلقد احتُل وصودر ونهب. «لقد عاد الفرع إلى الأصل أو عاد الإبن المتمرّد إلى حضن عائلته. هكذا حلا للدعاية البعثية ان تفسر ما كان يفعله جيشها في الكويت. لكن ماذا عن الكلمات التي كتبها «أبو حيدر» على جدار غرفة الاستقبال في منزل خليل؟ أي نوع من الإحتلال كان هذا؟.

كلّما تعمّق المرء في هذه القصة الخاصة ـ من هو خليل وماذا حدث لأبي حيدر ـ ستبدو ظاهرة غزو الكويت وأزمة الخليج بكاملها أكثر تعقيداً. فمن الواضح ان ابا حيدر لم يكن يود ان يكون هناك. غير أنه، برغم ذلك، قام ببعض الأمور المريعة. وكان يعرف انه قام بها. وتلك المعرفة تحولت إلى القوة التي كانت وراء الانتفاضة ضد صدام حسين داخل العراق والتي بدأت بالضبط في اليوم التالي لاسترجاع خليل منزله. فالشرارة التي أشعلت فتيل تلك الانتفاضة أشعلها جنود عائدون مثل أبي حيدر. ورغم انهم كانوا شاهدوا رفاقهم يموتون ويمزّقون ويشرّدون بالآلاف تحت وابل القصف الأميركي الهائل، إختاروا ان يوجهوا جام غضبهم إلى الطاغية الذي كان أرسلهم بادىء ذي بدء إلى الكويت[٣].

وماذا عن الشاب خليل؟ لقد ترك الكويت للمرّة الأولى مع الإحتلال العراقي في صيف ١٩٩١ واستطاع العثور عليّ في لندن. اراد ان يلتقي كاتب «جمهورية الخوف». كنت في صدد تأليف كتاب عن الانتفاضة العراقية، ولم أكن أنوي البتة محاورة كويتيين أو إدخال رواياتهم في كتابي الجديد. لكن تبادل الحوار الاعتيادي تحول إلى حوار طويل رسمي، وانتهى إلى تبديل الطريقة التي كنت نويت بها ان أؤلف الكتاب. خلال الحديث

مكتبة الفكر الجديد

استطعت أن أدرك إلى أي حد يمكن لتجربة الاحتلال ان تبدِّل شخصاً. خليل لم يعد ابداً الرجل الذي كانه.

إن الاشتغال على قصص شخصية لأناس مثل خليل وأبي حيدر يعقّد المستقبل، جاعلاً إيّاه أكثر استعصاء على التعميم، وذلك لسبب واحد هو أن الغبار الذي أثير لم يهدأ بعد. لكن شيئاً لن يظل مثلما كان ابان إحتلال، أو خلال حرب، أو خلال إنتفاضة. وبدورها فإن آرائي الشخصية حول الإنتفاضة تبدلت إثر لقاءاتي ببعض الاشخاص الذين إشتركوا فيها، مغذّاة بعشرين سنة من الديكتاتورية المروّعة، انفجرت عبر العراق أحقاداً وآلاماً مكبوتة في عربدة من العنف عرفها آذار/ مارس ١٩٩١. ولدى التفكير في الوصف الوحشي الصريح للأمور الفظيعة التي أنزلها الناس بعضهم ببعض، غالباً ما أصاب بالغثيان، وحتى أني أراني غريباً عن انتفاضة كنت دفعت بنفسي في تشجيعها قلباً وروحاً فيما كانت قائمة. ذلك أن الضحايا قلّدوا النظام الذي كان أوجدهم وفشلت انتفاضتهم. هل ينبغي ان تكون الأمور على هذا النحو؟

بيد أني تسمّرت مذهولاً تحت وطأة الكلمات التي قالها المشاركون. كانت الكلمات هذه قاسية وفجة فجاجة ما كانت تصفه. أما المجازية المنهكة والعاطفية الميلودرامية الخاصة بالخطاب السياسي العربي فغابت عن ذلك. وفي محلّها ظهر نوع جديد من قول الحقيقة، وكان هذا ما أردت التماثل معه. كان عراقيون يعرّون أنفسهم ويتحدثون إليّ لأنهم كانوا يودّون أن يعلم العالم الخارجي حقيقة ما جرى. ولوهلة وجيزة كان الضحايا، هم انفسهم، رافضين ان يتقبّلوا تلك الحجة الميّتة القائلة ان كل المشاكل سببها الآلية الجهنمية للغرب وإسرائيل. وعوض ذلك، كما كنا رأينا في تلك الكلمات القليلة التي كتبها أبو حيدر على جدار صالون خليل، فإن بعض العراقيين انعطفوا إلى دواخلهم، ففي الظروف القصوى والمتطرفة يمكن ان تتداخل القذارة بالسموّ في السلوك البشري. لذلك يبرز أولئك الأفراد الذين يتسامون على التنميط الذي غالباً ما نصرّ على ربطهم به.

* * *

جنود مثل ابي حيدر هربوا من الكويت عبر الطريق الرئيسية نحو البصرة. على مقربة من تلّة المطلاع، وهي تلّة رملية ترتفع حوالي أربعمئة متر، وإلى مسافة ما يقارب العشرين ميلاً شمال غرب العاصمة الكويتية قرب بلدة الجهراء، قام المارينز الأميركيون من الفصيلة الثانية المدرّعة وفي لواء النمر المعروف باسم «كلاب الجحيم»، بمهاجمة الطابور المتراجع. مراسل مختصّ ملحق بلواء النمر روى: «معظم العراقيين استسلم للثوار أو حاول ذلك. كان مشهداً غريباً، أشبه بحفلة صيد عملاقة. إقتيد العراقيون أمامنا مثل

مكتبة الفكر الجديد

الحيوانات... بدا مثل مشاهدين وسط سباق تدمير». بعض الجنود ممن حاولوا الاحتماء إلى جانب الطريق دخلوا حقول الألغام خاصتهم. وفي ردة فعل يائسة أطلق بعض العراقيين نيرانهم على جنود من رفاقهم كانوا يصدّون طريقهم. لقد كان هدف القوات المتحالفة هو القبض على ما تبقى من الجيش العراقي والإحتفاظ به «مثل كلاب النفايات» كما فسّر أحد كبار الضباط الأميركيين. «كان الأمر مثل مباراة في رمي الديكة الرومية. واستمرت ساعات، ثم ساء وضع الطقس»، كما قال الجنرال الأميركي مايجور مور، وهو قائد المارينز الجوّي الجناح ٣. وبالنسبة للمخيّلة البريطانية الأكثر ريفية، فإن ما حدث في المطلاع كان يشبه «رعاية قطعان النعاج»(٤). هذه الجُمل تصف كيف تحوّل موكب متداع وهلع من السيارات المسروقة والباصات، والشاحنات والدبّابات والعربات المصفّحة، إلى إزدحام فظيع وخرافي للمعادن الخردة والركّاب المشويين، مالئًا خطوط السير الأربعة في جزء من إمتداد الـ ٦٠ ميلاً من الاوتوستراد بين الجهراء والحدود العراقية، وقد جرى تحريك العملية في الخفاء من على بعد نصف ميل، وكلّفت إصابة أميركية واحدة.

أثناء حرب الخليج جرى إختبار نوع من السلاح المتطور الذي يولّد حرارة غير معهودة، واستخدم ضد الجنود العراقيين على طول طريق المطلاع. كانت الحرارة الشديدة تذيب زجاج السيارات وغيرها محوّلة إياه إلى قطيرات من السيليكون، كما تسببت بإنفجار أدوات أخرى غير مؤذية، وإلى ذلك كانت تُحدث في الأجسام أموراً غريبة.

أحد الرجال بينما كان يحاول الفرار في شاحنة من طراز كاوازاكي، إنتهى بنصف جسم فقط «مقلوباً رأساً على عقب ومعلقاً خارج مقعده المكشوف، كان جانبه الأيسر والسفلي أيضاً ممزقين أشلاء، ورجله المتفحّمة مرمية على بعد ١٥ قدماً». تسعة رجال داخل «شاحنة عريضة للحمولة قضوا وإحترقوا بلحظة خاطفة حتى أنهم أصبحوا بقايا عارية مسلوخة ومتفحمة، وهم في الأوضاع ذاتها التي كانوا عليها لحظة الصدمة الأولى. أحد أجسام الرجال استلقى، ووجهه منحنٍ ومؤخرته مرتفعة في الهواء، كما لو انه كان يحاول التنقيب تحت صندوق الشاحنة. كانت ساقاه أصبحتا بقايا متفحمة ومرتعشة عند وسط الفخذ، وكان وجهه فتياً وجميلاً، بريئاً بعض الشيء، مع ذقن دقيقة. كان لا يزال في وسعك ان ترى ذلك رغم ان الرجل كان قد تحوّل إلى مومياء. رجل آخر فجّرته قنبلة، كانت فجوة جسمه كبيرة مفتوحة، وأحشاؤه وأمعاؤه لا تزال معلّقة في أمكنتها الصحيحة، غير انها كانت مشوية سوداء»(٥). وبدوره عندما زار الصحافي روبرت فيسك المكان بعد عدة أيام، شاهد كلاباً متوحشة تقضم بقايا الجنود العراقيين(٦).

مكتبة الفكر الجديد

أحد الكويتيين ممن توجهوا لمشاهدة ما حدث في المطلاع، بعد التحرير، شعر «بسعادة عارمة» امام المشهد وعبّر عن وجهة نظر كانت شائعة يومذاك بين الكويتيين، «أنا مسرور لمشاهدة هذا الموت والدمار لأنهم فعلوا أكثر من هذا بنا»[٧]. لكن من جانب آخر، كانت ردة فعل خليل مغايرة حين توجه إلى ممر المطلاع بعد أقل من اربع وعشرين ساعة من توقف القتل. كانت الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر والشمس على وشك المغيب. كأن توجه للبحث عن صديق الطفولة حمود، والذي إعتقل كرهينة من قبل الجيش العراقي قبل أربعة أيام من التحرير. خليل، مثل كثيرين من الكويتيين، كان لديه أكثر من سبب وجيه للخشية من أن كل ما تبقى من **حمود** يمكن ان يعثر عليه على تلك الطريق:

«أول شيء صدمني ما ان خرجت من السيّارة كان الرائحة. رائحة شبيهة برائحة **النابالم**، مثل الإحتراق. عضوية وغير عضوية في الوقت نفسه. طوال كل فترة الإحتلال، وحتى قبل إشعال حقول النفط، كانت ثمة رائحة كريهة تعمّ البلاد. أذكر انها كانت أشد قوة خلال شهري كانون الثاني/ يناير، وشباط/ فبراير، إلى درجة أني صرت استخدم على الدوام كميات كبيرة من عطر ما بعد الحلاقة لأتخلص منها. هنا في المطلاع كانت الرائحة هذه تصفع وجهك مثل موجة من حرارة. كانت مثل شيء فاسد ومتآكل، مزيجاً من الإطارات المحروقة والجثث المهترئة، نتانة يعجز الكلام عن وصفها.

يتوجب عليك إتخاذ كل الحيطة. الذخائر والأسلحة مبعثرة فوق المكان كله وأنا أشق طريقي بحذر شديد متنبهاً لكل خطوة. ثمة أوقات كنت أضطر فيها مرغماً إلى الخروج من الطريق أو التسلق فوق سيّارة، وفي النهاية قررّت ان أسير فوق الحاجز الاسمنتي المرتفع بعض الشيء والذي يفصل الخطيّن المتوجّهين شمالاً عن الآخرين الذاهبين باتجاه الجنوب، وهذا سهل عليّ الأمور بعض الشيء.

على الرغم من السكون كان في وسعك رؤية الاضطراب العظيم والاهتياج متجمدين، كما كانا لحظة حدوثهما في الخلاء والوقت نفسهما. إنها حالة من الرعب فاجأت هؤلاء الناس وأقصت كل شيء آخر.

كانوا مصعوقين بالرعب. ينبغي ان تفهم. السيارات كانت تملأ المكان كله متوجهة نحو كل ما هنالك من إتجاهات. أبواب أمامية وخلفية وأغطية محركات مفتوحة على كافة الزوايا. بعض الآليات كانت موجّهة نحو **الصبية**، أخرى بإتجاه الشرق، أو الشمال الشرقي أو الغرب، أو متسلقة على الحاجز الإسمنتي، أو هي

مكتبة الفكر الجديد

خارج الطريق كلياً. بعضها كان دار حول نفسه ١٨٠ درجة كاملة لينتهي متوجهاً إلى الوراء نحو العاصمة الكويتية. كل ذلك حدث بسرعة هائلة. مشيت قرب سيارات كانت لا تزال مذياعاتها وآلاتها المسجّلة مسموعة، حيث أصوات الموسيقى أو تقارير الطقس تسمع خافتة من بعيد.

كانت هنالك شاحنة إطفاء حمراء، تخص مديرية الإطفاء الكويتية، بسلالمها وخراطيمها الملفوفة. كانت قد اصطدمت وحطّمت باصاً مدنياً للركاب أبيض وأزرق، باصاً من النوع الذي كان من الممكن استخدامه لنقل **حمود** إلى العراق. لم يكن هناك. كان الباص فارغاً مثل شبح. كان خالياً من الناس. أذكر صهريجاً ضخماً، شاحنة صغيرة لتوزيع اللّبن. ثم هنالك أيضاً سيارة **التويوتا** كورونا متجمدة مصطدمة بدبّابة عسكرية. العديد من الدبابات. ليس في مقدوركم تصوّر غرابة هذين التداخل والاختلاط.

لكن في الواقع كان ما لا يمكن تصديقه موجوداً داخل هذه الآليات. كنت أظن أني أعرف العراق. إعتقدت أني أعرف شعبه. إنهم ليسوا مختلفين كثيراً عنّا، عن أي كان. يتوقع من الجنود أن يحاربوا ويموتوا، هذا يمكن ان يفهمه المرء. ولكن لماذا يسرق هذا الجندي صينية بلاستيكية مثلاً؟ أو علبة زبالة؟ أو أنابيب معجون للأسنان؟

دمى «باربي». هل تستطيعون التخيّل! لقد سرقوا **دمى «باربي»** ليس مجرد واحدة بل العديد منها. دمى ترتدي لباس العروس مع أشرطة بيضاء. ملابس نساء داخلية، روزنامات حائط، ساعات، علب سجائر، كدسات فوق كدسات من مجلة نسائية كويتية سخيفة تدعى «مرآة الأمة»، هذا ان إستثنينا صناديق البرتقال وأكياس الرز والبصل. عموماً أخذوا الأشياء الاسخف والأكثر عاديّة. كان المكان مثل سوق للخردة. الأشياء تتدلى من الحقائب المرمية داخل آليات نقل الجند المصفّحة وما أشبه ذلك. جنود عراقيون قضوا وسط أكداس وأكداس من الخردة المنهوبة. الأمر عجيب ويدفعك إلى التفكير بحياتك الخاصة، إلى التأمل بالأشياء المادّية وقيمتها. كان هناك ذهب وجواهر في المنازل الكويتية، بدل ذلك، أنظروا ماذا أخذ هؤلاء الرجال معهم بينما كانوا يفرّون للنجاة بحياتهم. ما الذي كان أثمن، إني اسألكم، حياتهم أم هذه الأشياء التافهة؟ يا لها من ميتة بشعة! بغض النظر عن اعتقادك ان كانت هذه الحرب محقة أم لا،فإن هؤلاء الرجال ماتوا كلصوص مبتذلين.

مكتبة الفكر الجديد

كانت كرّاسات حزب البعث وملفّات المخابرات مبعثرة في كل مكان داخل آلية عسكرية أخرى. جمعتها وحصلت على ٢٨ ملفاً منها. كانت ملفات خاصة بمنطقة الفروانية في الكويت، أذكر ان أحد التقارير ذكر انه تم العثور على آلة كاتبة في منزل أحد الأشخاص. ملفات أخرى كانت عن سيارات مسروقة أو مفقودة في المنطقة أعطيتها كلّها للمقاومة. تناولت قاموساً يدعى المورد (إنكليزي ـ عربي) كان مرمياً على الطريق الإسفلتية مع اسم مالكه مكتوباً على الصفحة الأولى الداخلية. أبقيته معي على أمل ان أجد صاحبه يوماً واعيده إليه. أود ان أعرف من هو. الاسم مصري...

على أية حال، فأكثر ما رسخ في ذاكرتي من كل تجربة السير في ممر المطلاع، هذا الجندي العراقي الوحيد. لن انساه أبداً طالما حييت. كان ميتاً بالطبع. كنت أمشي بإتجاه الشمال وكان ممدداً، وجهه على الطريق في زاوية عند إتساع إسفلتي صغير محاط بسيّارات متحطمة. كان جسمه باتجاه الشمال الشرقي، باتجاه الفاو كما أظن. كانت قبضتاه مطبقتين، وذراعاه متوازيين يشكّلان قوساً من حول جبينه. لم يكن بالوسع رؤية أي من ملامح وجهه، فقط مؤخر الرأس. بدا كأنه واحد على وشك تلقي رسالة، أو كأنه مستلق باستقامة على بطنه من أجل ان يدع الشمس تسمّر ظهره.

ثمة أمران بشأنه: أولاً، كان أسود كلياً، محروقاً، من دون بدلة عسكرية ولا شعر ـ قطعة فحم. من على مبعدة لم استطع تمييز الجسم عن الإسفلت لتشابه لونيهما. ثانياً، كان الجزء الأسفل من جسمه، من السرّة نزولاً غير موجود. حرفياً بدا وكأنه قد قُصّ بواسطة مقص عملاق شديد الحدّة. ولكن كان في المقدور ان نلاحظ ان هذا الرجل كان قوياً ومفتول العضلات، بكتفين كبيرتين وذراعين طويلتين.

شعرت انه التجأ إلى الإسفلت هرباً من ضراوة المعركة العاصفة التي قامت من حوله. لم يكن في وسعه مثلاً ان يجد أرضية أنعم ليخبىء وجهه. بدا مثل طفل تعرض للتوبيخ بعد ان قام بفعلة سيئة وانكفأ إلى غرفته، مغلقاً الباب بقوّة وراءه، وارتمى على السرير دافناً رأسه في المخدّة وكأنه يودّ إبقاء كل بؤسه، ومخاوفه وكربه لنفسه فقط ـ كان هذا الجندي يدفن رأسه في الأرض الصلبة لأنه لم يكن هناك أي مخرج آخر، ولم يتبقّ مكان ليهرب منه، ولا مكان ليتوجه إليه.

الطريقة التي يمكن أن يكون قضى فيها هذا الرجل، أعادت إلى ذهني أمراً لا

مكتبة الفكر الجديد

علاقة له بالمشهد. فقبل بدء الحرب مباشرة، في ٥ كانون الثاني/ يناير، مات قريب لي كان مصاباً بالصرع وفتياً جداً، في أواخر عشريناته. كان الأمر برمته متوقعاً. حوالى الساعة التاسعة صباحاً عجلت الخادمة إلى منزل عمتي حيثما كنت أقيم مغرورقة العينين بالدموع. لم تتوقف عن ترداد إسمه والطلب مني ان أتوجه لرؤيته. أدركت ان شيئاً ما لا بد انه حدث لأنه مصاب بالصرع ويخضع لعلاج متواصل مذ تعرّض لحادث سيّارة. فكرت انه ربما أصيب بنوبة. لذا عجّلت متوجهاً إلى هناك.

كان مدخناً مدمناً ولا بد انه حاول إفراغ رئتيه خلال الليل من دون ان ينهض من الفراش. ربما أنقلب إلى جنبه الأيسر محاولاً إدراك وعاء القمامة البيضوي المعدني إلى جنب السرير ليبصق فيه. وبينما كان يحاول القيام بهذا إنزلق عرضاً عن السرير وعلق رأسه داخل الوعاء. هكذا وجدوه.

كانت ردود فعل قريبي حادة جداً في مواجهته الأمور، كان صوته قوياً حين يتكلّم. لربما اصابته نوبة لحظة ان علق رأسه في الوعاء. لم يستطع تخليص نفسه وقطعت الافرازات التي كان سيبصقها تنفّسه. مات مختنقاً ورأسه داخل الوعاء. حاولت ان أقدّم له المساعدة الأولية نافخاً الهواء في رئتيه، لكن الجسم كان بارداً. شكل الحافة البيضوي كان ترك أثراً على عنقه. كان وجهه مزرقّاً ومرضوضاً، ولسانه أثخن من العادة ومتدلياً. يداه مثلجتان وفي الوضعية نفسها التي كانت للجثة التي وجدتها على الاسفلت في المطلاع. يا لهذه من طريقة مريعة في الموت، أذكر اني فكرت بذلك مراراً وتكراراً، وحيداً، تماماً مثل الجندي العراقي عند ممر المطلاع. آخر صورة أبصرها من هذا العالم كانت التطلع إلى قعر وعاء القمامة. هكذا قال وداعاً. ذلك جعلني أفكر في موتي أنا. أود ان أموت خلال ممارستي الحب، أو أثناء نومي، بطريقة جميلة ممتعة، وليس بالطريقة هذه».

تحامل

حين أعطيت الأشرطة المسجلة الخاصة بهذه المقابلة لمساعدتي فريال، كي تنقلها وتدوّنها، غضبت بشدّة. فهل أنا أنوي حقاً استخدام الكلمات «تماماً كما هي»؟ رأت انه ينبغي لها ان تبدّل فيها بطريقة ما. مشاعرها كعراقية تعرضت للأذى، وكان إنطباعي انها تطلب الإذن لتغييرها فيما هي تعمل. وبالطبع أصرّيت على ان لا يُتلاعب بها بأي طريقة. وعوض ذلك لماذا لا تكتب فريال مشاعرها، وهذا بالفعل ما فعلته. فما الذي أغضبها إلى هذا الحد في وصف خليل لسيره عبر ممر المطلاع؟

مكتبة الفكر الجديد

الرائحة. أثيرت فريال وأهينت بصمتٍ لأنها إعتبرت انه حتى «الاشخاص الكويتيون المهنيّون وذوو التعليم الرفيع، يتهموننا نحن العراقيين بأن رائحتنا بشعة». ذكرتني بالنسوة الكويتيات اللواتي كن يدعون إلى الـ «سبكتروم انترناشيونال» في المحطة الإذاعية العربية في لندن التي أقيمت بعد إحتلال الكويت. كانت النسوة يتحدثن بإسهاب عن «الرائحة العراقية الكريهة» التي كانت منتشرة في بلدهن، وان النتانة تصير أبشع مع إستمرار الاحتلال، ومصدرها «الغزاة العراقيون إياهم». كانت فريال مقتنعة بأن خليل لم يكن يتحدث فعلياً عن الجثث المهترئة أو الإطارات المحروقة، ولم يكن لمطلق شيء يمكن ان أقوله القدرة على تبديل رأيها. فهي أصرّت على انه كان يتحدث «عنّا»، محملقة فيّ. في الواقع كان يقول ان رائحتـ«ـنا» نتنة. فهل أنا على دراية بواقع ان الكويتيين كانوا منذ الأزل يعبرون الحدود للفوز بنساء عراقيات في البصرة؟ وأن هدفهم الأوحد من المجيء هو «العبث» مع النسوة العراقيات. مسائل كهذه راودت أذهان العديد من العراقيين إثر الغزو مباشرة، و شعر الرجال على الأخص ان شرفهم على المحك، وخصوصاً بعدما قال صدّام في أحد خطبه، مبرراً غزوه: «العراقية الماجدة صارت بدرهم للكويتي»[٨].

أذكر اني أحسست بالانزعاج نفسه الذي خالجني عندما كان خليل يخبرني عن الغائط البشري المنتشر حول النعجة الذبيحة نصف الملتهمة التي وجدها على سجّادة صالونه في اليوم التالي للتحرير. ففريال كانت عانت من حكم البعث العراقي، ولم تكن ترغب في التعليق مجدداً على الأفعال المخيفة التي راح رجاله يقومون بها. لكنها، رغم ذلك، أثارتها المقابلة. ومن الواضح ان أموراً كثيرة على المحك هنا، كثيرة إلى درجة أنها كبّدتها عناء التمحيص في ذاكرتها بحثاً عن تلك الأشياء التي جعلت أولئك النسوة الكويتيات يقلنها في البرنامج، وهي الإنطباعات التي تكرّست عندها بسبب ما سمعته من الأصدقاء. لقد غضبت فريال جداً من مقابلة خليل إلى درجة انه لم يعد في إستطاعتها إنجاز العمل فيها.

إن رواية خليل عن الفظاعات التي عايشها خلال أشهر الاحتلال السبعة، كشفت لي الرعب المريع الذي حل في العاصمة الكويتية على نحو لم تستطع أية صحيفة أو تحقيق تلفزيوني ان يفعله[٩]. لقد أخبرني، على سبيل المثال، قصة الأشقاء الثلاثة الذين إشتبه بكونهم أعضاء في المقاومة الكويتية بعد ان وجدت بحوزتهم تلفونات خلوية. أعدموا رمياً بالرصاص وتركوا في عرض الشارع مكدسين فوق بعضهم البعض ليكونوا عبرة للآخرين، وكنت سمعت قصصاً كهذه من قبل، لكن ليس بالطريقة التي كان خليل يرويها:

«صدمت أكثر ما صدمت بذاك الذي جاء موقعه فوق أخويه، كانت بشرته

مكتبة الفكر الجديد

شديدة السمرة، وقد غطت رأسه لطخة حمراء وبيضاء زهرية، غير انه لم يكن بوسعك ان تعرف بالتأكيد مصدرها. في نهاية الأمر أيقنت انها، لا بد، من نزف دماغه البطيء. المشكلة اني لم استطع ان أنزع من رأسي التباين بين الأبيض الزهري ولون البشرة الأسود تقريباً، ذكّرني بالخدود الوردية في لوحة لرينوار، وكيف انها تبدو باستمرار وكأنها سوف تقفز إليك من الخلفية. ولكن كيف في مقدوري ان أفكر بلوحة لرينوار في وقت كهذا! ربما فسّر ذلك أمراً مخيفاً بشأني. لست أعرف».

ثمة علامة خبث تفشّت خلال الإحتلال البعثي للكويت، وهذه كانت أسوأ من قتل الكويتيين ونهب المنازل، وبعض الانتهاكات كان يعزى في النهاية إليها. تخيّلوا الكويت وقد حل بها نوع من الطاعون الكريه، نوع لا يمكن رؤيته إلا أنه يفرز بخاراً يتأتّى عنه الموت. وهذا كان يتسرب طالعاً من تقرّحات مليئة بالقيح لم يكن أحد على علم بوجودها من قبل. والأمر الأكثر حقيقية في علامة الخبث هذه أنها كانت تنضح برائحة نتنة. فإحدى الروايات الإسرائيلية تتخيّل جندياً سابقاً في المناطق المحتلّة يعود من عمله ليجد أنه لا يستطيع ان يخلع عن نفسه الرائحة الكريهة التي كانت بدأت تنبعث من جسمه، لتصبح جزءاً متعذر الاستئصال من تكوينه. «الرائحة الكريهة كستنا مثل غيمة ثقيلة منقضّة على الحواس. كان من الصعب المكوث هناك... لربما هي جزاء القسوة»[١٠]. والحقيقة في رواية كهذه ان الإحتلال ـ إن كان في الضفة الغربية لنهر الأردن أو في الكويت ـ كريه الرائحة على الدوام.

حقيقة مشابهة لهذه توجد في ملاحظة تلك الرائحة النتنة الجديدة التي انتشرت في هواء الكويت بعد ٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠. كانت الرائحة بشعة بشاعة غير إعتيادية، ونافذة إلى كل شيء. ثم تفاقمت لتصبح غير محتملة أكثر فأكثر. النفايات في النهاية لم تكن تجمع، وكانت تتعفّن باعثة خليطاً من الروائح العضوية. جثث الكويتيين الذين قاوموا وألقي القبض عليهم ـ شأن الأخوة الثلاثة ـ كانت تترك مرمية على الطرقات، ولم يكن ثمة ما يمنع البكتيريا من العبث ببقايا أجسامهم، وهذا ما كان يبعث، بالطبع، رائحة كريهة. كان العراقيون والكويتيون على حد سواء يتصبّبون بشكل أغزر، وكانوا، من غير ذلك، يغتسلون أقل مما كانوا يفعلون قبلاً. كانت المياه في النهاية نادرة، والثياب الوسخة بقيت من دون غسل، فيما الكهرباء تأتي متقطعة، ومستويات الصيانة في منشآت تحلية المياه وتكريرها انخفضت كثيراً، بينما البترول الخام يضخّ إلى المحيط ويعود إلى المدينة عبر معابر غريبة. كانت الحياة البحرية تموت وتنحل.

مكتبة الفكر الجديد

إذن كان صحيحاً ان نتانة روائح النفايات، والأسماك الكريهة الرائحة، والمياه القذرة، والأجسام المتعرقة المتسخة المتعفنة، ملأت هواء الكويت برائحة منفّرة لاذعة، هذا ان لم نتحدث عن التأثيرات اللاحقة الناجمة عن احتراق ٦٠٠ حقل للنفط، والأطفال الذين لا يتوقفون اليوم عن السعال لاخراج المخاط الممزوج بالسخام. وحقيقة المسألة، إن كانت جسدية ماديّة أو متخيّلة وأدبية تبقى واحدة: ان الإحتلال يتسرب إلى داخل الجسم. كانت رائحة الكويت كريهة تحت الإحتلال العراقي، وربما لن تعود أبداً كما كانت من قبل.

والإحتلال والحرب والطغيان والتمرد تبقى كلّها أفكاراً مجرّدة ألى أن تعاش تجربتها. وهي يمكن ان تظل من غير تجسّد وإحساس إنساني حقيقي، حتى على الرغم من الإستذكارات الشديدة التأثير التي إستطاع خليل ان ينقلها بكلامه. فحقيقة الإحتلال العراقي الشاذة أربكتني أكثر ما أربكتني بعد ردة فعل فريال على مقابلة خليل، وأدركت ان صدق خليل المُكرَه، وإنشغال فريال المهتاج بتحامل الكويتيين، لم يبطل أحدهما الآخر. على العكس: فسر احدهما الآخر، وكانت الرائحة المفتاح.

فالرائحة الكريهة توحي أن ثمة ما هو متّسخ، وهذا يجعله غير طاهر في نظر المسلم الممارس. ذلك أن الوضوء قبل الصلاة أمر إلزامي، والإغتسال التطهيري مفروض بعد المضاجعة، وخلال العادة الشهرية والولادة، وبعد الموت لدى التحضير للدفن. والمسألة ليست مجرد عادة صحّية، بقدر ما هي حماية من الدنس. فحينما يرفض النظام العراقي ان يسمح بغسل اولئك الذين يعدمهم، بالطريقة الإسلامية، فإنه بذلك يلحق الخطيئة بتلك الأرواح في الابدية. ولربما كانت التلكيف، وهي أقلية عراقية مسيحية كلدانية دعيت كذلك تيمناً بقرية تلكيف، المجموعة الأكثر إحتقاراً في العراق. فهم يدعون «النزّاهين» «منظفي البوالي» إذ الربط بين مجموعة مسيحية والنتانة والعمل الوسخ ليست مجرد صدفة في الثقافة الإسلامية. ومن جهة أخرى فإن العطور الغربية وعلى الأخص العطور النفّاذة الشذى والبخور، المرغوبة جداً في الشرق، تخمد الرائحة البشعة، هكذا، لتوحي بالنظافة والطهارة والورع. وحسب عادات الضيافة عند العرب، يتوقّع من الضيوف ان يصدروا على طاولة الطعام أصواتاً تعكس إعجابهم وتقديرهم، وتفرح إلى حد بعيد مضيفيهم، في حين ان التجشّؤ يعتبر ذروة الفظاظة أثناء الجلوس إلى طاولة غداء إنكليزية رسمية. إلاّ ان أمراً واحداً لا يُسمح بأن يقوم به رجل عربي أمام الناس، فيما يعتبر هذا الشيء في الغرب غير متعمّد وقابلاً للمسامحة، وهو الضراط.

أبشع ما يمكن ان يفعله إفراز جسدي هو إصدار رائحة كريهة. كانت فريال تنظر عبر

مكتبة الفكر الجديد

الحيادية الظاهرة لبيولوجيا الجسم، وترى وراءها عالم المعاني الحضارية المعقد والدلالات الخفية. أما انا، من جهة أخرى، فكنت أصبحت غربي الأطوار إلى حد بعيد، وما عدت شديد الإعجاب بكامل اللغة الرمزية، القادرة على التمييز بدرجات عظيمة من الدقة، لتصل في النهاية إلى ربط أهمية الشيء بالرائحة التي تصدر عنه. ان ردات الفعل الجسمانية تجمع سلسلة كاملة من المشاعر المعقدّة التي تدمّر كل الخاضعين للإحتلال، وكل المحتلّين على حد سواء: التبريرات المحقّرة، الهويّات المهدّدة، الكرامة المجروحة، مشاعر الخجل والذنب، الرغبة في الثأر. وكلمات خليل المسجّلة أثارت تحاملات مرتبطة بهذه المشاعر، لا مجرد العامل البيولوجي الخاص بحاسة الشم.

شعر وتحامل

«بين كل المظاهرات التي كانت هزت (وسوف تهز) العالم العربي، لم يهتف شعار بعنف يفوق ذلك الذي يستهدف الملكيات والإمارات الخليجية». هذا ما كتبه **منصف المرزوقي** رئيس الرابطة التونسية لحقوق الإنسان. حتى حينما كانت الكويت تحت الإحتلال قال إن «٩٠ بالمئة من كل العرب، بمن فيهم المصريين، يكرهون بعمق هذه الأنظمة الديكتاتورية والرجعية التي بذّرت الثروات والشرف العربي، وعاملت المواطنين العرب بإستمرار كمتطفلين مكروهين. هذا الكره الشديد بالذات هو ما يفسر غزارة وشمولية المظاهرات المؤيدة للعراق، وعلى الأخص في المغرب العربي (المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا) ـ حيثما لا يفوق التهليل لصدام، الذمّ بفهد. ولدينا هنا أشد الأنظمة لا ديموقراطية ونكراناً لحقوق الإنسان، وتبتعد في ذلك إلى حد رفض حق المرأة بقيادة سيّارة، وهذه تقع على مبعدة ذراع من الديمقراطيات الغربية النبيلة...»[١١]. هذه الكلمات كتبها رئيس منظمة حقوق الإنسان الأكثر تطوراً والأجرأ والاقدم في العالم العربي، حيث بلغ عدد اعضائها ٤٠٠٠ عام ١٩٨٩ (كان العدد ١٠٠٠ عضو عام ١٩٨٢) وتضم ٤٠ دائرة فرعية[١٢].

بعيداً عن السياسة، كان إنعدام التعاطف عميقاً من قبل العديد من المثقفين العرب مع حالة الكويتيين خلال أزمة الخليج. «الكويت ليست مهمّة»، هذا ما كتبه **عبد الرحمن منيف** وهو روائي عربي مهم لعمله الشهير «مدن الملح» الذي تدور احداثه حول عرب الخليج بالذات، عرب الخليج غير المهمين برأيه[١٣]. آخرون دبجوا مقالات ليذكروا كيف ان الكويتيين كانوا «مبذّرين» و«فاسدين»، وان بلادهم «إختراع إمبريالي»، «رجعي»، وغير «شرعي تاريخياً»، على الرغم من ان هؤلاء الكويتيين بالذات ما كانوا بعد قد قتلوا تلك الاعداد الضخمة كما فعل العرب المعتبرون أكثر تحضراً في سوريا، العراق ولبنان

مكتبة الفكر الجديد

شهّر بالكويتيين وسُخر منهم كما لو ان كل واحد من البلدان العربية في المنطقة كان أكثر شرعية وأقل فساداً.

إن «التحامل» هي الكلمة الوحيدة المناسبة لوصف شعور العديد من العرب حيال الكويتيين حتى حين كانت بلادهم تتعرض للغزو وتنهب[١٤]. وجذور هذا النوع من التحامل قديمة جداً في التقاليد العربية، وربما كمن أحد سبل التفكير بشأن منابعه في أنه أسلوباً وخطاباً، يمكن ان يبدّل أهدافه من غير عناء بحسب الظروف. وأفضل الأمثلة عن هذا الأسلوب نجده في فن الهجاء، المخصص للطعن بشرف افراد أو جماعات إلى الأبد. وللهجاء، يفضّل استخدام الشعر دون النثر، إذ الهجاء يرافق الحرب، أو أي نوع من الصدوع بين فريقين، وهو كان مكرساً بشكل واسع كنوع شعري رفيع الشأن بين قبائل العرب منذ ما قبل الإسلام. فأبو الطيّب المتنبي (٩١٥ ـ ٩٦٥ ميلادية) والذي غالباً ما اعتبر أمير الشعر العربي، أعطى مثالاً شهيراً جداً في الهجاء في شكل هجوم قاس على كافور حاكم مصر الذي كان مرة عبداً، ثم أتبع ذلك بهجائية أخرى عن خنوع كافة المصريين. وعندما لم يهب الحاكم المصري الشاعر المفلس الذي ذهب يستعطي أمام بابه، ما كان يتوقعه، شهر المتنبي شعره ليحقق انتقامه، واضعاً، في اسلوبه أرفع مستويات النبل والنشأة التي يمثلها هو نفسه من غير انقطاع، في مقابل «الأسود المثقوب مشفره»، و«الأسود المخصي». فقد كان المخصيّ كافور حقيراً إلى درجة ان الموت ما كان ليكلّف نفسه عناء أخذ روحه «إلا وفي يده من نتنها عود. من كل رخو وكاء البطن منتفخ/ لا في الرجال ولا النسوان معدود»[١٥].

هذا التقليد الشعري، الذي يقوم على الازدراء والسخرية والإهانة والشتيمة، والذي يهدف إلى تحقير سمعة ضحاياه وتلويثها في أعين مناصري الشاعر، إستمر حياً في الخطاب الثقافي العربي الحديث، ومن ضمنه الشعر[١٦]. ولنأخذ مثلاً نتاج أكثر شعراء العالم العربي شعبية، نزار قباني، الذي هو ابن تاجر شاميّ ميسور، بدأ ينشر في أواخر الاربعينات مع النهضة الشعرية التي رافقت الحداثة في العالم العربي. لقد جهد قبّاني أكثر من معظم مجايليه لاستحضار اللغة الشعرية الكلاسيكية وتقريبها من العربية العامية، وأيضاً من العربية المكتوبة كما هي شائعة حالياً في الهلال الخصيب[١٧]. وقباني لديه الجمهور الأكبر بين جماهير الشعراء العرب، وهو يسعى إلى إحداث تأثير إنفعالي فوري في شعره، وغالباً ما يفلح في تحقيقه بطريقة ممتازة عبر اختيار الكلمات والجمل القصيرة والحادّة والقاطعة.

قبل سنة ونصف السنة من غزو الكويت، كتب قباني قصيدة بعنوان «أبو جهل

مكتبة الفكر الجديد

يشتري (فليت ستريت)». وتعبير «أبو جهل» يستحضر أيضاً «عصر الجاهلية»، عصر الجهل، وهي الجملة المستخدمة لوصف حالة شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام. فقد استهدف قباني في قصيدته «البدو» الذين كانوا «يتسلّلون إلى قصر بكنغهام»، ينامون «في سرير الملكة»، ويستبدلون جمالهم بتلك الباصات «الجميلة الحمراء» في لندن التي راحت تباعاً تختفي. والقصيدة تجمع ما بين اللغة السهلة والعبارات المألوفة والكلمات الإنكليزية المعرّبة وصور الإحتقار الساخر على طريقة أسلوب المتنبي أما الصور الشعرية فمثيرة للعواطف ومتوترة باستمرار (مهرّجون بدو في سوهو، أذناب دشداشاتهم الطويلة البيضاء تضرب مشمّرة في الإتجاهات بينما يرقصون الجاز ـ صورة مرسومة بخمس كلمات فقط). والصفحات الأربع في النقد الساخر واللاذع للعرب الخليجيين تختتم كالتالي:

أيا طويلَ العُمر:

يا من تشتري النساءَ بالأرطالْ..

وتشتري الأقلام بالأرطال...

لسنا نريدُ أي شيءٍ منكْ

فانكح جواريك كما تُريدْ..

واذبَحْ رعاياكَ كما تُريدْ..

وحاصِر الأمّة بالنار... بالحديدْ

لا أحد يُريدُ منكَ ملككَ السعيدْ

لا أحد يريدُ ان يسرق منك جبّة الخلافهْ

فاشربْ نبيذَ النفطِ عن آخره...

واترُك لنا الثقافهْ...(١٨)

إن الشعر هو الشكل الفنيّ الأكثر احتراماً وتطوّراً عند الشعوب العربية، وهو يحتلّ موقع الصدارة في التراث الأدبي الكلاسيكي، والذي، إلى جانب الإسلام، يقدّم الرابط الوحيد المستمر للعرب بماضيهم. وعلى الرغم من كل الصراعات القائمة حالياً بين العرب، فإن الإستحضارات الدائمة لهذه التقاليد في الأزمنة المعاصرة ـ إن أدبية أو دينية ـ أصبحت أساساً راسخاً في تأكيد الهوية العربية. فالجواب عن السؤال الذي ينتاب كل العرب ـ من أنا؟ ـ إتخذ شكل توجه نحو التراث ـ الإسلام ـ أو في حالة قبّاني، ثورة ضد

مكتبة الفكر الجديد

حقائق الواقع. فقباني يخبرنا أنه يكتب «كي أفجّرَ الأشياء»[١٩]. فهو يمتلك الحساسية المجروحة والغاضبة للشاعر البدائي المعاصر الذي يرى التاريخ عبارة عن تمرّد مستديم وخيبة موجعة للقلب. وشعره الذي ابتدأ متمرداً، ظل على الدوام نضالياً رافضاً ـ فهو تأكيد للوحدة عبر الرفض بواسطة القدح والذم. ونتيجة لذلك غالباً ما منع هذا الشعر في البلدان العربية واندفع صاحبه إلى تبنّي مواقف جريئة علنية أمام الجمهور، خصوصاً في مسألة الحرّيات الجنسية، ضدّ تعدد الزوجات، ولنصرة حقوق المرأة.

لكن نزار قباني، من جهة أخرى، هو إلى حد بعيد شاعر منبريّ ـ والمنبرية ظلت على الدوام أثيرة لدى العرب ـ يقذف جمهوره بالكلمات والأصوات لا بالمعاني. إنه موهوب بالأشكال الشعرية وبالإيقاعات، لا بالأفكار. وهذه المزية حين تتضخم تتحول لتصبح عيب الشاعر الأساسي، ولتصبح شائبة التقليد الثقافي ـ السياسي الحديث الذي يمثله على أوضح ما يكون. وهكذا يصبح قبّاني ضحيّة تقاليد لغته الخاصة، ومرآة لكل ما لم يعد يستأهل الحفظ من التراث، في رأيي. فهو، مثلاً، يعتقد انه ثائر، لكن كل ما يقوم به في الواقع قذف الشتائم في الريح، وإعلان غضبه من غير ان يقدم أيّة أسباب، أو تبريرات أو قرائن ثقافية. ففي زمن كان العرب يرغبون فيه بتسييس شعرائهم لينتقموا بهم وبشعرهم من العالم الخارجي، كان قبّاني يفي بالغرض بامتياز، فيكتب ضد السعوديين، في حين ينشر كتاباته في صحفهم.

والواقع أنّ ما يقوله لم يعد مهماً، لأن الموضوع لم يعد فعلياً: الصهيونية، الإمبريالية، المسألة الفلسطينية أو الملوك المقززين أو رؤساء العالم العربي. إنه السخط الدائم الذي لا تشوبه الأفكار للشاعر نفسه.

مشكلة الثقافة في العالم العربي كونها بقيت بين أيدي شعراء كنزار قبّاني. قابلوا أسلوبه برواية خليل عما شاهده وكيف كانت رائحته، وردة فعل فريال على كلماته، فالوصف الحادّ، الواضح والتأمليّ، وردات الفعل الشخصية المحددة الهدف لدى خليل وفريال، مفتقدة في الكثير من الشعر العربي المعاصر. بين الأسماء الشهيرة في الأدب العربي يندر الوقوع على من هو مستعدّ للقيام بهذه المهمّة، فيما لا تُعتبر التداعيات البصرية الدقيقة والدؤوبة مشروعاً شعرياً حقيقياً بالنسبة لشاعر حانق ورفضيّ مثل نزار قبّاني. أما الشتيمة، والتنميط والتعصب الأعمى، فحاضرة وجاهزة على الدوام لأن تكون كذلك[٢٠].

اللعين في الأمر ان ثمة على الدوام نصف ـ حقائق في أعمال التنميط. والأنكى ان الجميع يستخدمها. فالأميركيون السود استخدموها ضد الأميركيين الكوريين خلال

شغب لوس انجلوس، تماماً كما كان يفعل الأميركيون البيض بالسود طوال قرون. والعرب والإسرائيليون تراشقوا بها على الدوام. فواقع وجود أقصى طرفي الثراء والعوز، ونمط حياة حديثي الثراء المتهتك لدى العديد من العرب الخليجيين جعلهم هدفاً للاستياء.

لست أحاول إنكار البديهي الذي في جزء منه يساعد على تفسير سبب بقاء الظاهرة كما هي بالفعل. فما من مطلق عربي، وأنا واحد منهم، يرغب بالتحدث عن تلك الأمور البشعة مثل التمييز العنصري والعداء للسامية والسخرية من شعوب بأكملها. ومقارنة بالمشاكل الأخرى التي يعانيها هذا الجزء من العالم، يبدو الانشغال بهذه الأمور هامشياً وغير أساسي، غير ان المصداقية الأخلاقية العروبية ـ كيفما نُظر إلى معنى تلك الكلمة ـ والرغبة في قيام عالم عربي أقل عنفاً وأكثر تسامحاً هما على المحك.فزمام الظاهرة أفلت اليوم كلياً، كما تظهر ردة فعل أكثرية العرب ضد ما فعله صدّام في الكويت، والعرب مدعوّون اليوم قبل أي كان لاتخاذ موقف ضد القولبة العنصرية المتفشية في كل مكان بينهم، تماماً كما يجب ان يكون المثقفون السود في مقدّم النضال ضد العداء للسامية بين السود[٢١].

إن التعصّب الأعمى عند مثقفين عرب بارزين مثل قبّاني يعقلن ويبرّر الحسد الضيق الأفق، ويعمل على تحويله في النهاية إلى شيء ينذر بسوء أكبر. فهو يتغذى من قلق الأزمنة، ليهاجم مثل جرثومة قاتلة، الجسم السياسي كله، بالضبط عندما يكون هذا الجسم في أقصى حالات وهنه خلال الأزمات. فقد كان حجم التحامل الذي أطلقه صدّام حسين ضد الكويتيين ابان حملته في ٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٠ مخيفاً بالفعل، ويدل على تردٍّ حضاري عميق الجذور. ثم ان هذا هو ما يراه المرء في كل مكان من العالم العربي. فهو يستطيع ان يراه مثلاً معكوساً، في موقف الكويتين بعيد التحرير حيال الفلسطينيين، وعند اللبنانيين حيال السوريين، وعند السنّة العرب حيال الشيعة العرب إلخ. فقبّاني نفسه وقف مع شعب الكويت إبّان محنته (بخلاف أكثرية المثقفين العرب)، غير ان المواقف السياسية ليست ما أحاول تناوله هنا، على أن تتم العودة إليه في القسم الثاني من الكتاب.

فوقفة قبّاني السياسية النبيلة خلال الأزمة تلقي ضوءاً قوياً على المسألة التي أحاول التركيز عليها الآن بالذات: وهي واقع ان لغته ـ ميزات أسلوبه تحديداً ونوعية الصور التي أمضى حياته وهو يتقنها ـ قد خدمت في النهاية هدف تسعير نار تيار التعصب والتحامل في العالم العربي. وخفايا الأنواع الغريبة من الأهوال التي بعثها الإحتلال العراقي للكويت، وكما يدلّ مثال قبّاني، ترقد مختبئة في مكان ما داخل عالم الحساسيات الطيفي الذي صار يمثله داخل الثقافة حتى رجل كقبّاني.

خليل، من ناحية أخرى، واحد من اولئك العرب الخليجيين «غير المثقفين»، الافظاظ، الذين كتب قبّاني عنهم. انه لم يتحدث إليّ، باسم الثقافة والشعر. بل كان يخاطبني ككائن بشري عاديّ شديد الحساسية لتلك التفاصيل الميكروسكوبية التي ترسم مجرى الحياة وأحاسيسها. وعلى نحو ما تعاش حقّاً، أخبر قصّته كما جرت، والطريقة التي قصّها كانت موافقة لأحاسيسه الخاصة. فخليل وفريال، على حد سواء، أحسا العالم حولهما بكثافة وعمق، وتفاعلا معه بحسيّة عميقة. لقد شمّه كلاهما وأثرت فيهما رائحته النتنة. وربما تبادلا اللوم بشأن تلك الرائحة، ولكن تلك مسألة أخرى، غير أنهما على الأقل كانا يفقهان ما الذي كان مهماً، وما الذي لم يكن.

أما الشعراء من أمثال قبّاني فما عادوا على صلة بعالمهم بالطريقة هذه إيّاها. تأملوا هذا المقطع من قصيدة مكتوبة خلال فترة حرب الخليج بعنوان «لا بد ان أستأذن الوطن»:

اريدُ إن أراك يا سيّدتي
لكنني أخافُ أن أجرح إحساسَ الوطنْ
اريدُ ان أهتفَ كل ليلة، إليك يا سيدتي
لكنني أخاف ان تسمعني نوافذُ الوطنْ.
اريدُ ان امارسَ الحبَّ على طريقتي
لكنني... أخجل من حماقتي
أمام أحزان الوطنْ...[٢٢].

أختار هذه القصيدة بالذات بسبب غموضها إزاء ما يتعلق بمسألة الساعة، حرب الخليج، التي كانت تلوح بينما كانت تُكتب القصيدة. وليس في وسعك ان تحزر معتمداً على ما في القصيدة، إن كان قبّاني مع الحرب أو ضدها. فالقصيدة تنتقد الحالة العامة للأمور من غير ان تسمي تفاصيلها أو تعيّنها، فهي تتجاهل كل الحدود وكل القضايا المسبّبة فعلياً للشقاق والتي كانت تمزق العرب وتفككهم إبّان كتابة القصيدة. فموطنها هو العمومي لا الملموس. انها منشدّة إلى مزاج، إلى شعور بالقنوط، بالإجتثاث، بالتحطّم والقلق، وبالخسارة الشاملة. وهذه كانت كلها مهيمنة في ذلك الوقت. ثم تتطوّر النبرة لتصبح كرباً، يأساً وحتى إشمئزازاً، ليصل الشاعر، في النهاية، إلى هذا السؤال، «فهل نكونُ [نحن العرب] كذبة كبيرة؟»، والجواب الضمني لهذا الإستنتاج هو نعم، نحن كذلك. لماذا نحن كذبة كبيرة؟ لأننا تورّطنا في هذا المأزق، مأزق أزمة الخليج.

مكتبة الفكر الجديد

غير أني لست مهتماً بهذا الإستنتاج بدرجة إهتمامي بحقيقة لافتة، وهي ان الشاعر يتابع مفسحاً المجال لكذبة تملي عليه مصطلحات خطابه. وهو يأبى صرفها من ذهنه، إذ هي، في الواقع، تزوّده بأجنده فنيّة. وفي الإمكان الاستنتاج أيضاً ان الشاعر إختار الكذبة على الحياة ـ الحياة كما هي ممثلة بالمرأة التي يحبّها والتي يتوجه إليها في القصيدة. فهو ليس في مقدوره ان يرى هذه المرأة، أو أن يستنجد بها أو حتى يضاجعها، وهي لحم عواطفه ودمها، إذ ثمة شيء آخر، شيء خارق، يحوّم على الدوام فوقه، ممسكاً إياه، دافعاً به إلى الإرتباك. وذلك الشيء هو «الوطن»، أو كامل بلاد الشاعر العربية، التي ضاق ذرعاً هو نفسه بها، وهي التي ينتهي به الأمر قرفاً إلى تسميتها «الكذبة». وبرغم ذلك تبقى الكذبة ـ والقلق الناجم عن اضطراره لأن يعيش كذبة ـ في صدارة وعيه، ويصبح الأمر الأهم حقيقة ان الشاعر لا يستطيع أو لا يرغب في التخلّص من الكذبة. لقد أصبحت الكذبة جزءاً منه.

يرغب الشاعر في أن يرى، في أن يستنجد، في أن يمارس الحب مع السيدة التي يخاطبها في القصيدة، لكنه لم يعد يستطيع القيام بذلك. وبالفعل يتابع في القصيدة نواحه قائلاً: «هذا زمانُ النثر يا حبيبتي... فما به شعر. ولا حب. ولا غيم. ولا أمطار..» ومن ثم فالعالم «بلا رائحة» أيضاً في عرفه، لكن المشكلة بالطبع تكمنُ في ان للعالم رائحة وانه، هو، هارب منها. بيد أن خليل، وأبا حيدر وفريال يعرفون انها رائحة كريهة أحياناً، وكلماتهم ـ التي تقال نثراً ـ تشرح لنا أهميّة وجود الرائحة.

فالحياة الحقيقية كما عاشها على الأرض رجال مثل خليل وأبي حيدر، وكما ابصراها بعيونهما، وكما سمعاها، وإختبراها باللحم والدم، بكل مصائبها ومحنها، يضعها، كلها، قبّاني جانباً، وهو يفعل ذلك ليستأنف صراعه مع الفكرة المجرّدة «الوطن»، أو الموطن أو الأمّة العربية. ولكن وطن من هذا الذي نتحدث عنه؟ أهو وطن صدّام حسين، أم وطن أمير الكويت؟ أو لربما حتى حافظ الأسد أو حسني مبارك؟ قد يرتعب نزار قبّاني لمجرد فكرة ان أياً من هؤلاء الأشخاص يمكن ان يمثّل «وطنه». فـ «وطنه»ُ ليس العراق أو الكويت، ليس حتى سوريا، وهو ليس بالتأكيد مصر. ان «وطن» قبّاني فكرة رومانسية تقف جامدة بلا حراك تحلق فوق زعماء سياسيين يحكمون بثقلهم كله وابتذالهم كله. وتلك الرومنسية وذلك التعليق لواقع المرء الذاتي، هما منبع قسوة الشاعر تجاه المرأة التي يحبّها. وفي النهاية، فان تلك القسوة هي شائبة هذه القصيدة ومشكلتها. ففي آخر المطاف حتى لو كان قبّاني يرفض كل القذارة التي تحيط به، فهو لا يخاطب مشكلتي خليل وأبي حيدر. إنه، عوض ذلك، يقلّل من أهمية الحياة كما تعاش، بكل تناقضاتها المخيفة ومصائبها الكارثية، من أجل الكذبة الحلوة، من أجل اسطورته المطمئنة التي في «الوطن».

مكتبة الفكر الجديد

وسيرة قبّاني كشاعر تتناغم مع هذه القصيدة. انها تتناغم حتى مع قصيدة لاحقة كتبت في نيسان/ أبريل ١٩٩١ وهاجمت هذه المرّة، صدّام حسين مباشرة، بلغة ممعنة في سخريتها وقسوتها حتى أقصى حدود المتخيل. وقصيدة نيسان يحمل عنوانها «هوامش على دفتر الهزيمة»(٢٣) إشارة مباشرة إلى قصيدة أخرى مشهورة جداً ومؤثرة كان كتبها قبّاني بعد حرب ١٩٦٧، «هوامش على دفتر النكسة». لكن الأمور إزدادت سوءاً منذ ذلك الحين لأن النكسة تحوّلت إلى هزيمة. من نكسة في ١٩٦٧، إلى هزيمة كاملة في ١٩٩١. غير انه لم تتغير أمور كثيرة في غضون ذلك، وعلى الأخص أساليب الكتابة والتفكير العربية الخاصة بسنة ١٩٦٧، إذ القصيدتان تحل واحدتهما في زمن الأخرى، وفي هذا الواقع تتلخص اخفاقات جيل بأكمله.

في نيسان/ أبريل ١٩٨٤، كتب قبّاني رسالة مهمة إلى من ليس سوى صدّام حسين. الرسالة نشرت بخطّ يده شخصياً في المجلّة الدورية العراقية «ألف ـ باء». فقد كتب أكثر الشعراء شعبية في العالم العربي، وهو سوري غير مقيم في بغداد وليس لديه مطلق إلتزام تجاه النظام العراقي، هذه الكلمات:

«لقد جئت إلى بغداد مكسوراً... فإذا بصدّام حسين يلصق أجزائي... وجئت كافراً بممارسات العرب... فإذا بصدّام حسين... يردّ إليّ إيماني... ويشدّ أعصابي... وهكذا... أعود من بغداد وأنا ممتلىء بالشمس... والعافية... فشكراً لصدّام حسين... الذي قطّرَ في عيني اللون الأخضر...(٢٤)».

والأخضر بالطبع هو لون الإسلام.أما الرسالة التي يعود تاريخها إلى ٢٥ نيسان/ أبريل ١٩٨٤، فكُتبت حين كانت الحرب العراقية ـ الإيرانية قد دخلت سنتها الرابعة. كانت تلك الحرب وراء كل ما في زيارة قبّاني.

إن الناس، في أي حال، يبدلون آراءهم. هذا هو البرهان على حرّيتهم، وما من خطأ في ذلك. بيد أني أعتقد ان صدق نزار قباني عام ١٩٩١ كان موازياً لما كانه في ١٩٨٤، وأيضاً لما كانه في ١٩٦٧. ولست أحاول تسجيل نقاط مبتذلة بل أحاول إدراك قضيّة أكبر تنشأ من ملاحظة انه على الرغم من أن كل شيء يتبدّل، يبقى مع ذلك ثمة ما هو غير متبدل في القصائد نفسها، والمشكلة تكمن هنا، تكمن في ذلك الثابت في العمل إياه، لا في المواقف السياسية التي تتبدل كثيراً في الشرق الأوسط.

فحرّية قبّاني في شجب السلطة، في الشكوى من سقوط عالمه، تنتابها الأشباح. وهذه الأشباح تحضر في هيئة الصور التي يستخدمها، وليس في الأفكار التي يوافق عليها أو يرفضها. فالأفكار، مثل شؤون السياسية بشكل عام، تتقلّب باستمرار، غير ان الصور

مكتبة الفكر الجديد

المجازية وما تثيره في عقول القرّاء تبقى كما هي. المشكلة إذن في هذا الأسلوب، لا في الموقف الإيديولوجي. انها مسألة لغة، وأسلوب كتابة تلك اللغة التي تدل على طريقة تفكير ومن ثم على طريقة قراءة. فالمرء ينتابه شعور بأن قصائد قبّاني هي الإستماتة الأخيرة كي يسترجع، بواسطة الفن، ما سلّم بخسارته من غير إكراه في السياسة. فهي، إذن، تعمل بموجب القاعدة الإجرائية نفسها التي للسياسة المرفوضة من قبلها. إنها تطالب بالحرّية الجنسية وتحرير المرأة، ولكنها لا تتخاصم على سبيل المثال مع مبادىء التقاليد المسلّم بها كالشرف والعار، وما يؤلف السلوك الموصوف بالرجولة، أو الموصوف بالجبن. وهي، عوض ذلك، تعمل من خلال تلك المبادىء، ومن خلال الحنين إلى الماضي والغنائية المفرطة والرومنسية والرفضية. وقد كان هذا أسلوب الشاب **ميشيل عفلق**، المؤسس الأول لحزب البعث، في أواخر الثلاثينات والأربعينات. فعفلق رفض المنطق كأساس لعروبته، واستدعى بدل ذلك قوى «الإيمان» و«الحب». والغريب أنه مهما كان الغرض السياسي في قصيدة مثل «لا بد أن استأذن الوطن»، فإن اسلوبها الرومنسي المزدان بالزهور هو بالذات اسلوب البدايات البعثية.

الحق أن شعر قبّاني في التبجّح والتشاؤمية المأساوية التي تجد في القلق العميق تتويجها، يروق لجمهور غير متبلور ومتقلّب وغير واثق بنفسه. انه اسلوب يروق لـ«الجماهير العريضة» التي بلغت سنّ دخول السياسة بعد الحرب العالمية الثانية. فهذا ليس شعراً مضمناً من أجل جمهور عصريّ مثقف متفرد الشخصية، وليس مبنياً في موازاة ارستوقراطيات متنافسة ومتفاعلة ذوات ذائقات وحساسيات متطوّرة. فالحقيقة ان ارستوقراطية ثقافية من هذا النوع هي بالكاد موجودة كقوّة متماسكة في المشرق (مجموعة البلدان العربية شرقي مصر). إنها مسجونة في عزلة خانقة أو متشظية ومبعثرة في المنفى. وهذه النخبة المثقفة امّحت استقلاليتها في المشرق كله نتيجة إتحاد الطغيان والقبيلة والفساد، وهذا على الرغم من ان عدد المثقفين العرب الرفيعي الثقافة بات يفوق اليوم العدد الذي كان في الماضي، فيما يتوزع هؤلاء المثقفون العرب على سائر البلدان العربية.

وخليل من هذا الصنف من العرب. إنه كويتيّ لا تطابق حساسيّاته التنميط العام للعربي الخليجي، التنميط الذي لا يفارق أحاسيس مثقف عربي **كوزوموبوليتاني** ومتطلع إلى الغد مثل نزار قبّاني. فالأسلوب الرومنسي أو البطولي في الثقافة العربية المعاصرة، كما تمثّله قصائد قبّاني، هو محاولة لتوحيد ثقافة الفكر مع أحاسيس الجماهير، وليس مع أحاسيس عربي عصري مثل خليل. لكن في أعقاب جبل الجثث التي خلفتها الحرب الأهلية اللبنانية والثورة الإيرانية والحرب العراقية ـ الإيرانية وحرب الخليج، لم يعد ممكناً

مكتبة الفكر الجديد

وجود رومنسية أو بطولية زائفة في العالم العربي، فهنالك فقط ميراث من الألم وهذا ما ينبغي ان تتشبث به اللغة الجديدة، وبأسلوب جديد. إذن، فيما يكتب مثقفون مثل قبّاني أشعاراً ينوحون بها على رحيل الشعر من عالمهم، يتحدث إلينا أشخاص مثل خليل وأبو حيدر بلغة مندمجة بالعالم الذي حولهم محوّلين كلامهم إلى نوع جديد من الشعر.

من هو خليل؟

خليل شاب كويتي يقرأ بكثرة وسعة باللغتين العربية والإنكليزية. انه فضوليّ، حاد الملاحظة ومنفتح على العالم الخارجي انفتاحاً يصعب العثور على مثله بين مثقفي المشرق هذه الأيام. بدا واضحاً أثناء حديثنا ان علاقته بأحاسيسه أصبحت أكثر تطوّراً، وصار أشد إحساساً بذاته، في سياق الاحتلال العراقي. وهو، بالتعلّم، أجاد الرياضيّات، كما أنه فنان بالملكة. لكنه، مهنياً، مصرفي، تسنّى له، عبر تجربة الإحتلال، أن يتعرّف إلى جسده وطاقات هذا الجسد أفضل من أي وقت سابق.

«إنخفض وزني ١٥ كيلو غراماً خلال الأسابيع الأولى من الإحتلال. خلال الأشهر السبعة كانت تعتمل في داخلي أحاسيس عنيفة. الحاجة الجنسية تضاعفت عشر مرات ربما عمّا كانته من قبل. في ٢٦ شباط/ فبراير ١٩٩١ يوم تحرّرت الكويت خبرت، في وقت واحد وبدرجة متساوية ومرتفعة الحدّة، أحاسيس جديدة أخرى في: السعادة، الغضب، الإنتقام، الحزن، الكراهية، الخفة، البهجة الزائدة، ولا أعتقد انه سيحدث لي مستقبلاً، بما سأشهده من تجارب، أن أعيش لحظة تزخر باختلاف الأحاسيس وكثافتها، على نحو ما خالجني في ساحة العَلَم خلال ذلك اليوم، اليوم الذي لن انساه ما حييت».

إسمه الحقيقي هو **خالد ناصر الصبّاح** وليس خليل. خليل كان إسماً مستعاراً استخدمه خالد ابان الإحتلال، وهو عمل على تزييف أوراق هويّات عدة ليخفي حقيقة انه أحد أفراد العائلة الكويتية الحاكمة. وإذا حكمنا عليه انطلاقاً من إسمه الحقيقي، فإن خالد يمثل العربي الخليجي المثالي الذي نمّطه نزار قبّاني. إذ لا يوجد ما هو أثمن من فرد في العائلة الحاكمة يؤخذ رهينة عند النظام العراقي أثناء الاحتلال. وللمفارقة نجا خالد خلال الأيام التي أعقبت آب/ اغسطس، لتجنبه استخدام اسمه الكامل، مفضلاً ان يحمل أوراق هوية باسم **خالد ناصر** وليس **خالد ناصر الصبّاح**. «لأنني لم أرد إظهار ما يميزني»، كما قال لي.

ولكن كان في المسألة أكثر من ذلك. فخالد المناضل السياسي اليساري أثناء دراسته

مكتبة الفكر الجديد

الجامعية، نشأ مثل معظم أبناء جيلي، على أسس العواطف الرومنسية حيال منظمات حركة المقاومة الفلسطينية ما بعد ١٩٦٧. كان لديه الكثير من الأصدقاء الفلسطينيين الحميمين، وكان يعمل هكذا مع منظمات طلاّبية عربية في حملات التضامن مع الفلسطينيين بينما كان يدرس في الغرب، تماماً كما كنت أفعل قبل عشر سنوات. ولا يقوم المرء بهذا النوع من الأعمال في الوقت الذي يعلن فيه انتسابه، بالاسم، إلى عائلة مثل عائلة الصبّاح.

عام ١٩٨٣ حصل خالد/ خليل على نسخة من «جمهورية الخوف» وذلك بعد وقت قليل من نشره، فقرأ الكتاب ومرّره إلى أصدقائه مدركاً ان كاتبه عراقي يستخدم إسماً مستعاراً هو سمير الخليل. فقط حفنة من الأشخاص إهتّمت بالكتاب آنذاك. وعندما طافت دبابات النظام العراقي داخل مدينته في ٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠، أدرك، مثل آلاف آخرين، أن مسألة بقائه على قيد الحياة تتوقف على السرعة التي يمكن ان يزوّر بها هوية جديدة. كان يسهل اكتشاف هوية خالد. لذلك توجب عليه ان يفعل شيئاً بشأن إسمه. «لم أتوقف عن التفكير في الاسم الذي يجب ان اختاره. لم أكن بصدد استخدام أي اسم قديم. في النهاية قررت ان يكون خليل هو الاسم الأول. لم يكن بوسعي استخدام سمير الخليل بأكمله، رأيت ان ذلك سيكون لافتاً ومثيراً للاشتباه. ذلك كان بالنسبة لي علامة إحتجاج». إنني أعتزّ بإختيار خالد وأعتبره الإطراء الأهم الذي قد يوجه إليّ لشيء فعلته.

إن المثقفين العرب الذين يشهّرون في كتاباتهم وعواطفهم بـ «اقطاعية» و«رجعية» الخليجيين العرب أمثال خالد، وبالابتكارات «المصطنعة» «الإمبريالية» مثل الكويت، هم أنفسهم المسؤولون عن رفع «الفلسطنة» إلى الموضع الأسطوري للضحية في الثقافة العربية. فالفلسيطينيون لم يعودوا أناساً حقيقيين في المخيّلة العربية، لقد تحوّلوا إلى رموز للمعاناة العربية في كل أشكالها المتنوعة. فما من عربي آخر بلغت المعاناة به ذلك القدر، وهكذا تكون كل أنواع المعاناة الأخرى ـ العراقية، الكويتية، الكردية ـ في مرتبة أدنى. ولسوف أعود إلى ظروف هذا النوع من صناعة الاسطورة لاحقاً في هذا الكتاب. إلاّ أنه بعد ٢ آب/ اغسطس ١٩٩٠ وخلال الإحتلال على الأخص، عبّر الفلسطينيون في الأردن والضفة الغربية، فعلاً وسلوكاً، عن هذه الأسطورة، إذ وجدوا خلاصهم في شخص صدّام حسين، حتى ان بعضهم داخل الكويت تعاون مع النظام العراقي بهدف «تحريرهم». وهذا الحدث خلّف طبقات جديدة من التحامل والعداوات المكبوتة، لا يزال العديد من الناس وبخاصة الفلسطينيين، يدفعون ثمنها حتى الآن، إنه ثمن ولادة نوع جديد من التنميط: الفلسطيني كمتعاون.

مكتبة الفكر الجديد

لكن الحياة الحقيقية على أية حال أكثر تعقيداً دائماً.فقد أخبرني خالد ناصر الصبّاح هذه القصة عن سائق صهريج مياه فلسطينيّ لا يعرف إسمه، إلا أنه ربما أنقذ حياته. وكان الإحتلال في شهره الأخير وكانت حرب الخليج في مراحل تحولها الأخيرة:

«توجهت لأحضر بعض الماء. كان هناك نقص في الماء فظيع. كان سائق الصهريج فلسطينياً. بدا رجلاً ورعاً لأنه بدأ فجأة يصلّي وسط الطريق. كان ذلك قبل أسبوعين من التحرير. قال لي الرجل: «أرجوك عد إلى الداخل الآن فوراً. لا تخرج ابداً إلى الشارع». سألته لماذا يقول هذا. «سمعت ان الجيش العراقي تلقى أوامر بالقبض على كويتيين شبّان. انت ستناسب طلبهم. لا تخبر أحداً أني قلت هذا». اكتشفت لاحقاً ان ما قاله الرجل كان صحيحاً إذ ألقي القبض على صديقي حمّود نهار ٢١ شباط/ فبراير».

خالد، كما تذكرون كان قد توجه عابراً ذلك الممر الرهيب في المطلاع ليبحث عن صديق طفولته حمود.

أما حنان، وهي أيضاً فلسطينية، وشابة ولدت ونشأت في الكويت، فوقفت كذلك إلى جانب خالد، وحتى بطريقة أقوى. فأثناء الذعر الذي رافق بداية غزو صدّام حسين، لم تتوقف حنان عن تذكّر قصص جدتها في ١٩٤٨ وهي تتسلّق الهضاب في فلسطين، أو تنحدر عنها هرباً من «الهاغانا»، الجيش السرّي اليهودي ـ حاملة إبنتها أو والدة حنان[٢٥]. تلك القصص شدت من عزيمتها، لأنه عندما أراد خالد الذي كان مغرماً بها ان يعرف ان كانت ستهرب من الكويت، كانت أول فكرة خطرت لها هي: سوف لن يجبرني الجيش العراقيّ على الفرار. ومثل خالد، كانت حنان فلسطينية خارج كل أنواع التنميط، تزايد تعلّقها بالكويت، وبخالد، مع الإحتلال. «لأول مرة في حياتي، شعرت ان هذه بلادي. في أيام الاحتلال الأولى، كنت في حالة عشق خالص مع المكان. لم يكن ليخطر لخالد البتة ان يغادر، ويوماً بعد يوم كان في وسعي ان أراه يتحوّل إلى خليل. شعرت الفلسطينية التي في داخلي بتماهٍ عميق مع حال الأرض المغتصبة، وبحب خليل في الوقت نفسه. ذلك الحب جعلني قادرة على فعل كل شيء».

وفي ظل الإحتلال، تشارك الإثنان في كل شيء، ومزّقا حواجز التمييز المبنية على الجهل والإنعزال. قالت لي «كان مذهلاً ان نكتشف كم يجهل الكويتيون والفلسطينيون المقيمون في الكويت بعضهما بعضاً، على الرغم من اننا عشنا معاً طوال عقود. وجدت تفسيراً جريئاً لهذا في الشعور بالهوية القوي عند الفلسطينيين الذي يجعلهم يتمسكون

مكتبة الفكر الجديد

ويخلصون لـ «جنسهم» الخاص حيثما توجهوا في الشتات. وجدته أيضاً في واقع ان المجتمع الكويتي مغلق جداً. خلال الاحتلال، عندما تضاءل عدد السكان بسبب الهجرة الجماعية إلى خارج البلاد، كان لفقر الاتصالات وتجارة الشائعات أن جعلا الأمور أسوأ».

في تشرين الثاني/ نوفمبر غادرت عائلة حنان الكويت إلى غير رجعة. لم تعد الكويت موطن العائلة، لكن توجب على حنان العودة «مرة واحدة أخيرة» كما قالت، «كان قلبي هناك. كان عليّ ان أهرّب أقنعة واقية من الغاز لخليل وعائلته. إستطعت الحصول على أربعة، له، لعمّه أحمد، لعمته سارة، ولشقيقه عبدالله. خبأت الأقنعة تحت ثيابي وفي صندوق الثلج مع طعامي. وعندما طلب الجنديّ العراقي من الركاب الخروج من الباص والوقوف في صف للتفتيش، أصبت بالهلع، لكن لحسن الحظ لم يقوموا بتفتيش شامل». معرّضةً نفسها لمخاطر جسيمة، سافرت وحدها عبر الأردن وجنوب العراق الممزق بالحرب، ونجحت حنان في تهريب الأقنعة إلى داخل الكويت، «وأول ما فعلت كان الإتصال هاتفياً بخليل. لحظة سمع صوتي إنفجر ببهجة وإنفعالاً. لم يستطع ان يصدّق أني عدت. تبادلنا رسائل شفرية عبر الهاتف، كما كنا تعوّدنا ان نفعل من قبل. آخر مرّة رأيته فيها كانت في ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٠. قدم لي زهرة بقيت معي طوال طريق العودة إلى عائلتي، وما زلت احتفظ بها مضغوطة في كتاب».

لكن بعد تحرير الكويت، لم تعد الأمور هي نفسها بين خالد وحنان. كلاهما تبدّل أثناء الإحتلال، وهما ظلّا يتغيران من بعده. جعل واحدهما يلقي اللوم على الآخر في ما آلت إليه الأمور. تفاقم غضب خالد وسخطه تجاه أولئك المقيمين الفلسطينيين الذين شعر أنهم أيدوا الاحتلال العراقي وخانوا الكويتيين في ساعة الشدّة. لقد خانوه. حتى عند الأكثر تفهماً بين الكويتيين لم تعد هناك مطلق رومنسية في ان يكون المرء فلسطينياً. مشاعره في هذا الخصوص فاقت إلى حد بعيد تلك التي أظهرها تجاه العراقيين المحتلين السابقين لبلاده. تحدث عن أبي حيدر مثلاً (أياً كان يمكن ان يكون) بعاطفية وفضول حين رحّل الكويت بشكل مؤلم بقايا الفلسطينيين المقيمين فيها، إنتقاماً من تعاون بعضهم مع الجيش العراقي، اكتشفت حنان مجدداً، من جهتها جذورها الفلسطينية، ووصلت إلى إستنتاج مؤداه ان وطنها الوحيد والحقيقي يقع مستقبلاً في دولة فلسطينية.

«مع تحرير الكويت، والأمور المخيفة التي بدأ الكويتيون يفعلونها بالفلسطينيين، شعرت أن قصة خليل تصل إلى نهايتها بالنسبة لي. حين إتصل بي خالد في صيف ١٩٩١، تماماً بعيد مغادرته الكويت للمرّة الأولى، رأيت رجلاً اكثر

مكتبة الفكر الجديد

تصميماً على الإنتقام منه على الحب. وتولدت لديّ قناعة، صائبة كانت أم مغلوطة، بأن خالداً قتل خليلاً الذي أحببته بصدق».

بسبل مختلفة إكتشف كل من حنان وخالد/ خليل من كانا كنتيجة لما فعل صدّام حسين بالكويت. إكتسبا هذه المعرفة بشكل مؤلم، بوسائل عنيفة، والإثنان تأذيا في نهاية الأمر من جرّائها. لكنهما، في أي حال، إكتسباها، والمعرفة أعادت تشكيلهما من جديد.

كان خالد، لا خليل، من بحث عني في لندن لدى زيارته الأولى إلى الخارج بعد تحرير الكويت. كان النهار حاراً وتحدثنا طوال ساعات. بعدما انتهينا، طلب مني ان أوقع إهداء على نسخته من «جمهورية الخوف». كتبت بالعربية: «من خليل إلى خليل آخر، إلى خالد ناصر من كنعان مكيّة». قرأ الإهداء فيما كنا نتوجه نحو الباب. بدا جلياً انه مرتبك وغير مسرور بشأن شيء ما. كان الباب نصف مفتوح حين توقّف وسألني ان كنت لا أمانع بإسدائه خدمة صغيرة تافهة. «بالطبع لا» أجبته مطمئناً وقد فوجئت كلياً. سألني خالد ان كنت لا أمانع في إضافة «الصبّاح» على إسمه في الإهداء.

أدركت على الفور أنني ارتكبت غلطة فظيعة وحاولت مرتبكاً البحث عن قلم. غير اني لم استطع العثور على القلم الصحيح نفسه الذي كان استخدم للإهداء الأصلي. وعلى الرغم من إرتباكه، أصرّ خالد على القلم نفسه، إذ ينبغي ان يبدو خط اسمه على الإهداء واحداً. فهو أضحى شخصاً لا يخفي البتة هويته من جديد. وفي آخر الأمر عثرت على القلم المطلوب بعد بحث مضطرب، فيما كانت أفكاري تتسارع بحثاً عن مغزى الذي كان يجري. سوّي الخطأ الذي سوف لن يرتكب مجدداً. بيد ان السؤال المزعج يبقى جاثماً: أيّة روابط كنت أحاول، من غير وعي، ان أقطعها بإسقاط الصبّاح من اسم خالد؟

مكتبة الفكر الجديد

٢ ـ أبو حيدر

انتفاضة النجف

من هو أبو حيدر؟ كان هناك أبو حيدر ما في الجيش العراقي الذي عسكر مؤقتاً في منزل خليل. وحيدر يعني «أسد» في اللغة العربية، والاسم مرتبط بالتراث الإسلامي وبالخليفة الرابع في الإسلام علي ابن أبي طالب، ابن عم النبي محمّد وصهره وإمام الشيعة. هكذا نتعرّف إلى أبي حيدر على أنه، أو أنه كان مسلماً شيعياً عراقياً.

ونحن نعرف أحاسيس هذا الرجل في ١٧ كانون الأول/ يناير ١٩٩١ لأنه كتبها على حائط غرفة الاستقبال. فالشعور بالذنب (أو لعلّه الخزي؟)، دفع أيضاً شخصاً ما، ربما كان أبا حيدر، لأن يكتب على قفا صورة فوتوغرافية لشقيقة خليل: «أيتها الأخت الكويتية العزيزة، أرجو أن تسامحينا على ما فعلناه». كانت رائحة منزل خليل نتنة بعدما عاش فيه أناس مثل أبي حيدر طوال ١٥٤ يوماً. فالاحتلال ينشر روائح كريهة، لكنها روائح لا تروق، كما يبدو، لأبي حيدر.

ومثله مثل خليل تبدّل أبو حيدر إبان الاحتلال. بدأ يقرر هو بنفسه ما هو صواب وما هو خطأ. فهذا العراقي الشيعي المدعو أبو حيدر استطاع حتى أن يستجمع الشجاعة لإعلان مشاعره، مستخدماً جدران منزل خليل وصورة لشقيقته.

ولربما نشأ أبو حيدر على التنميطات نفسها التي تعتبر العرب الخليجيين فاسدين وأولادهم مبذّرين لا يصلحون لشيء، مثله مثل من في سائر العالم العربي. ولربما أيضاً تحرّق غيظاً من الحكّام البدو المغفلين الذين يقضون كل أوقاتهم في التردد على الكازينوهات، والنوم مع النساء العربيات من الهلال الخصيب اللواتي هن أكثر تحضّراً، مثله. لكنه، ولو لبرهة، استعاد احترامه لنفسه، وتعالى فوق التعصّب الأعمى، ليواجه بصدق ما قام به.

مكتبة الفكر الجديد

إننا نعرف كل هذه الأمور عن أبي حيدر، لكن تبقى حقيقة اننا لا نعرف كيف كان شكله، أو من هو حقيقة.

ففيما كان خليل يعبر ممرّ المطلاع، في اليوم التالي لـ «مباراة رمي الديكة الرومية» التي قام بها الحلفاء في ٢٥ شباط/ فبراير ١٩٩١، تعثر بدفتر يوميات لضابط شرطة عراقي كان قد عيّن في الكويت منذ اليوم الأول للغزو. عثر عليه بينما كان ينقب في كدسة من الأوراق نصف المحروقة كانت منثورة في أرجاء الباص الصغير المسروق حيثما كانت مستّفة. وكان آخر إضافة إلى اليوميات قد كُتب في وقت متأخر من ليل ٢١ شباط/ فبراير ١٩٩١. أما الكاتب فبعثي شيعي موال ظاهرياً للنظام، وأما أصله فمن منطقة **الأهوار** الواقعة في جنوبي العراق. وهذا كان نظم بعض الأبيات الشعرية عن مسقط رأسه، إلى جانب وصفه مهمته في الكويت، ومواضيع يومية روتينية، وذكريات مفعمة بالحنين عن قصة غرام حياته الكبير الفاشل. «في ١٩٨٩ قطعت علاقتي بها كلياً لأسباب لا يمكن كتابتها هنا»، غير ان التدوين في اليوميات يظهر بجلاء انه لا يزال يحبّها.

وتشكّل منطقة **الأهوار**، حيث ولد الضابط ونشأ، مثلثاً بين مدن البصرة والعمارة والناصرية. وعرب **الأهوار** هم من سلالة **السومريين** القدماء، أحد أقدم الشعوب في العالم، ويرجع استمرارهم، إلى حدّ بعيد، إلى طريقة عيشهم الفريدة، إذ هم متجذرون داخل بيئة خاصة بالمستنقعات ـ وهي منطقة شاسعة من الأهوار والجزر وأدغال القصب. وبدورها قضت سياسة الحكومة الرسمية بتجفيف **الأهوار** «لأسباب أمنية»[1]، إلاّ أن العملية جرى حجبها بستار من السرّية، لكن الدلائل تشير إلى أنها جارية منذ ١٩٨٩.

إن الأشعار الحزينة المكتوبة في دفتر مذكرات ضابط الشرطة تستغرق في تذكّر خسارة هذا العالم الفريد، والأوقات الرائعة عندما كان يصطاد الأسماك هناك فتياً بصحبة شقيقه. فالشاعر الهاوي هذا، والذي يقول إنه حارب وربما قتل مقاومين كويتيين أثناء تأديته واجبه، سجّل اسمه وعنوانه على دفتر اليوميات. وهو لم يكن أبا حيدر، غير أنه، مثل أبي حيدر، ربما قضى نحبه.

فجثة من تلك المجرّدة كلياً من جذعها الأعلى التي كان خليل قد شاهدها في المطلاع ممدّدة على وجهها ومعقودة الذراعين فوق الرأس، فيما القبضتان مطبقتان كما لو أنهما تحاولان حفر صفحة الإسفلت؟ هل كان ذاك كل ما تبقى من الشرطيّ ـ الشاعر الذي فارق دفتر يوميّاته؟ فإذا صحّ أن خليلاً هو فعلاً خالد ناصر الصبّاح، فلربما كانت القطعة السوداء من الفحم في المطلاع كل ما تبقى من أبي حيدر الذي كتب على جدار غرفة استقبال خليل «ليت أمي لم تلدني لأرى عذاب هذا الزمان».

مكتبة الفكر الجديد

دعونا نفترض ان أبا حيدر نجا من «مباراة رمي الديكة الرومية» في المطلاع. فهذا ما يجعله مرشحاً لأن ينتهي به الأمر في مدينة البصرة، جنوب العراق، مثله مثل مئات الألوف من الجنود العراقيين المنهكين والمتضورين جوعاً. لم يكن يود القتال في الكويت: «جعلنا نعدّ الساعات في انتظار رؤية قدوم الأميركيين»، هكذا قال أحد الضباط والدموع تنهمر على وجهه. جندي آخر من البصرة قال «لو أستطيع فقط البقاء حيّاً حتى وصولهم، ثم العيش فترة تكفيني لرؤية الجنود (الأميركيين) وجهاً لوجه. عندها سأعرف أني سأتمكن من رؤية عائلتي ثانية». ثم تغضّن وجهه ولم يعد يستطيع الكلام[٢].

وبسبب الوقوع بين فخّي الطبيعة وجنود القوات المتحالفة، تدفّق رجال يائسون ومنهكون مثل أبي حيدر إلى المدينة المدمّرة مع سيّاراتهم المسروقة وآلياتهم المدرّعة. وقد أخبرتني امرأة عجوز من البصرة انها رأت جيرانها المجندين يرجعون من الكويت «فارين حفاة في كل الجهات، وكانوا قد رموا كل أسلحتهم».

حبيب، وهو عراقيّ شاب مقرّب من القيادة البعثية العليا، أخبره أحد المقرّبين من عزت الدوري، وهو عضو بارز في مجلس قيادة الثورة، انه «حينما أعلن وقف النار، عاد العديد من الضباط والجنود من الكويت بملابسهم الداخلية. رموا كل شاراتهم العسكرية وثيابهم كي يبدوا كمدنيين. كانوا خجلين من كونهم جنوداً. سار الكثيرون منهم على الأقدام طوال خمسة أيام، من الكويت والبصرة إلى بغداد»[٣]. هؤلاء هم بالذات أولئك الجنود الذين أطلقوا الثورة العامة في العراق كله، والتي عُرفت بالانتفاضة.

الشرارة الأولى

بدأت الشرارة التي فجّرت الانتفاضة في مدينة البصرة ذات الأغلبية الشيعية، وأكبر المدن في جنوب العراق. ويبدو أنها نشبت في الوقت الذي أصبح مفعول وقف النار الرسمي في حرب الخليج نافذاً عند الساعة الخامسة من قبل ظهر ٢٨ شباط/ فبراير ١٩٩١. فقد اندفع رتل من الدبّابات الفارة من الكويت إلى ساحة سعد، وهي امتداد شاسع مستطيل ومكشوف في قلب البصرة، فأوقف القائد على رأس رتله آليته في موقع مواجه لجدارية عملاقة لصدّام حسين مقامة إلى جانب مبنى قيادة حزب البعث في الساحة، حيث يبدو صدّام في زي عسكري. لقد وقف القائد فوق هيكل آليته وخاطب الصورة بخطبة لاذعة تتهم الديكتاتور: «ما حل بنا يا صدّام من هزيمة وعار وخزي، هو نتيجة حماقاتك، وحساباتك الخاطئة، وتصرفاتك غير المسؤولة»[٤].

واحتشد ناس وأصبح الجو مشحوناً جداً. ثم قفز القائد عائداً إلى داخل دبّابته وأدار

مكتبة الفكر الجديد

برج المدفع ليصوّب باتجاه الصورة التمثال وأطلق عدة قذائف، فانفجر الحشد مهتاجاً يهتف مشجعاً ومنشداً «صدّام انتهى، كل الجيش مات». لم يتدخّل أي من الدبّابات أو الجنود الآخرين الذين في الساحة. والواقع أنهم سرعان ما انضمّوا إلى التظاهرة التي جعلت تكبر وتتسع. «كانوا جميعاً يطلقون النار في الهواء» كما يذكر **عبد الله البدران**، وهو كويتي في الرابعة والعشرين من عمره أُخذ رهينة وكان شاهداً على ما جرى[٥]. لقد وزّعت البنادق على أيد توّاقة إلى الإمساك بها واندفع الحشد بعنف نحو مركز قيادة حزب البعث. أحرقوا مقرّ قصر حاكم البصرة، وهاجموا مراكز الشرطة أينما استطاعوا إيجادها. نهبوا مكاتب الأمن وأتلفوا كل الملفّات، وانتشرت الانتفاضة مثل نار في الهشيم. وبعيد ساعات على تلك الطلقات الأولى في ساحة سعد، كان سكان البصرة المحليّون، والجنود العائدون من الكويت قد أقاموا متاريس على الطرقات وسيطروا على المدينة. كانت لحظة ثورية كلاسيكية.

سمعت القصة للمرة الأولى مع بعض التفصيل من السيد **محمّد بحر العلوم**، وهو مناوىء قديم للنظام العراقي، وذلك عندما تحدث في جامعة هارفرد في ٧ آذار/ مارس ١٩٩١. أفعمتني كلمته بالحماسة، ورحت أبحث عنده عن التفاصيل الصغيرة. والقصّة نفسها، بتنويعات مختلفة، كرّرها أيضاً لاجئون كانوا قد فرّوا إلى إيران، أو هي ترددت بشكل غير مباشر على أفواه مشاركين آخرين كانت قد تحركت مشاعرهم بالرغم من أنهم جاؤوا من مدن أخرى. بيد أنه من الواضح أن ما جرى كان صورة معبّرة عن كامل الانتفاضة.

لكن هل كان ذلك صحيحاً؟ خلال صيف ١٩٩١ بحثت عن شاهد عيان لتلك الساعات الأولى الحاسمة في البصرة، وحاولت إعادة تأليف سياق التسلسل الدقيق للأحداث منذ تلك الشرارة الأولى في **ساحة سعد**، وصولاً إلى الحريق الهائل والشامل في جنوب العراق وشماله، وفي النهاية بدا ذلك مستحيلاً. لم أستطع حتى أن أكتشف اسم القائد الذي قفز فوق الدبّابة وأطلق النار على صورة صدّام حسين. ولم أستطع أيضاً أن أثبت ما إن كان استطاع النجاة من انتقام الحكومة الشديد الذي تلا الانتفاضة. لكن رجلاً كهذا وُجد حقاً، وما حدث في البصرة في الساعات الأولى من ٢٨ شباط/ فبراير ١٩٩١ تحوّل إلى أسطورة عراقية بالفعل.

يروق لي الاعتقاد أن ذلك الرجل كان أبا حيدر إياه الذي كتب معبراً عن مشاعره على جدران منزل خليل، لكن الحقيقة أنني لا أعلم.

مكتبة الفكر الجديد

أخبار ما حدث في **ساحة سعد** تواترت إلى كردستان وأدركت إيران وسوريا ولندن. لكنها قبل أن تصل إلى الأمكنة البعيدة، أشعلت حريقاً في كل واحدة من مدن جنوب العراق. **كاظم الريسان**، وهو وجيه من بلدة **الناصرية**، روى لي أنه رأى أربعة عشر شاباً يحملون أسلحة خفيفة تشبه تلك التي توزّع على الجيش العراقي، رآهم يطلعون من منطقة الأهوار المحيطة متوجهين تواً نحو وسط البلدة(٦). أما السلطة فتلاشت ما ان دخلوا الناصرية هاتفين: «الله أكبر، الله أكبر». سرعان ما انضم إليهم المئات.

نزار الخزرجي، وهو رئيس أركان سابق في الجيش، حاصره القتال وهو في طريق العودة إلى بغداد من الكويت. لقد حوصر مع ستين أو سبعين من الموالين داخل مبنى للدولة. إستمر القتال محتدماً طوال ساعات، وقتل أفراد مجموعة **الجنرال الخزرجي** باستثنائه هو، حيث كان أصيب بجراح بالغة ونقله المنتفضون إلى مستشفى محليّ. أردت أن أعرف، لماذا أبقي على خزرجي. كانوا قد قتلوا، على الفور، عابرين آخرين أقل أهمية في نظر النظام، ولم يكن الريسان، الذي شارك في المعركة، يعرف. على أية حال فالخزرجي اختطف بعد بضعة أيام من أيدي الثوّار بواسطة طائرة طوّافة تابعة للحكومة تقلّ فرقة من المغاوير.

أتصوّر أن **كاظم الريسان**، مثل أبي حيدر، غير مؤدلج وغير طائفي ولا متعصب. قام في الأيام الأولى للانتفاضة بحماية **نعيم حدّاد**، العضو السابق في مجلس قيادة الثورة ورئيس مجلس النواب الوطني العراقي، من غضب الثوّار الشبان المهتاجين الذين يصعب ضبطهم. كان حداد وعائلته قد اختبأوا في منزل ريسان حتى عندما كان هذا الأخير يقاتل البعثيين في شوارع **الناصرية**، ويحاول إحلال شكل ما من النظام في الإدارة، وحماية مدينته من انتقام الحكومة الحتمي. ولئن تفاوض مع القبائل الشيعية المجاورة، محاولاً إقناعها بالانضمام إلى الانتفاضة، غير أنها رفضت المجازفة، مؤثرة انتظار ما ستؤول عليه الأمور. ان العديد من العرب السنّة شاركوا بالفعل في الانتفاضة. لكنه في نهاية الأمر فرّ مع عائلته ورجال قبيلته إلى السعودية، وهو يعيش في مخيّم رفحا للاّجئين، الذي يفوق عدد السنّة فيه عشرة بالمئة من مجموع قاطنيه. سألته لماذا اختار، وهو الوجيه الشيعي من **الناصرية**، الفرار إلى السعودية بينما كان في وسعه بسهولة أكبر الوصول إلى إيران. «ماذا سأفعل في إيران؟ إنها بلاد أجهل تكلّم لغتها، وليست لدي هناك معارف. بالطبع إنه بلد مسلم، لكننا حاربناه طوال ثماني سنوات».

أما **فاطمة** فامرأة تقية متدينة في بداية أربعيناتها، شهدت الانتفاضة في قريتها **السماوة**، الواقعة إزاء نهر الفرات على بعد يقارب الثلاثين ميلاً إلى الغرب من **الناصرية**.

مكتبة الفكر الجديد

وتزوجت فاطمة في ١٩٧٥ غير أنها لم تلتق زوجها **عبّاس** منذ ١٩٨٠، لأنه كان قد طرد من العراق لكونه من «أصل إيراني»[٧]. وفي الحقيقة كان **عبّاس** شيوعياً، أمضى سنوات عديدة في أحد أشهر سجون العراق، سجن **نقرة السلمان** وهو عبارة عن حفرة سوداء في الصحراء قرب الحدود العراقية ـ السعودية من المحتمل أن يكون قد دفن فيها عشرات آلاف الأكراد من ضحايا عمليات الأنفال العسكرية[٨]. وعندما تحدثت معها عن الساعات الأولى للانتفاضة كان اجتمع للتو شمل عباس وفاطمة، بعد اثنتي عشر سنة من الفراق:

«أول ما سمعته كان أصوات إطلاق نار حادة ارتفعت من سطوح المنازل. كانت ليلة خميس في رمضان. استمر إطلاق النار طوال الليل محدثاً صخباً غير معقول. ما كنت لتعرف أين مصدر الرصاص. صرخت: «يا إلهي ما هذا!» قالوا إن انتفاضة تحدث. «أي نوع من الأمور هي هذه الانتفاضة؟» أردت أن أعرف. قالوا إنها قادمة من **كربلاء**، من **النجف**، وان **العمارة** و**الناصرية** سقطتا للتو في أيدي شبابنا. قالوا ان الانتفاضة سوف تنتشر إلى كل الحاكميات، والآن دور **السماوة**.

كان كثير من البعثيين قد رحلوا بعدما دبّ الخوف في نفوسهم، وكانوا إما تلقوا الإذن بالمغادرة، أو فرّوا إلى بغداد. قلت لنفسي «يا إلهي ينبغي أن أخرج من هنا» وفعلت ذلك. كلنا فعلنا ذلك رجالاً ونساء. أول ما صادفته عند رأس شارعنا الجانبي كان ما يقارب العشرين من الشبان. كانوا في دشداشاتهم البيضاء متوجهين نحو مركز كبير للشرطة عند الجهة اليمنى. أؤكد لك أن الأكبر بينهم لم يكن يفوق عمره العشرين! كانوا كلهم فتياناً وكلّهم من الجوار. أعرف كل واحد منهم، حتى ابن عمّي كان بينهم. كان هؤلاء الفتيان قد سئموا حتى العظم التنقل من حرب إلى أخرى. لقد انفجرت نفوسهم من جراء الإحباط وحده»[٩].

كانت انتفاضة آذار/ مارس ١٩٩١ حداً فاصلاً في تاريخ العراق الحديث. ومعها، كما يحلو للعراقيين أن يقولوا، «حاجز الخوف إنكسر». الضابط الذي قفز إلى أعلى دبّابته في **ساحة سعد** هو نفسه من بدأ تهديم ذلك الحاجز. لا يهم من كان، أو أين يمكن أن يكون الآن. فمبادرة ذلك الضابط أشّرت إلى بداية المستقبل لبلد كان في الواقع «ميت الدماغ» يعيش تحت وطأة زمن من الديكتاتورية الاستبدادية. ذلك الزمن مضى الآن وكل العراقيين مدينون لضابط مجهول الاسم، هو بطل انتفاضتهم، بحقيقة أنهم صاروا يملكون احتمال المستقبل.

مكتبة الفكر الجديد

اليوم الأول في النجف

في آخر الأمر استطعت مقابلة ضابط فعلي في الجيش، هو أحد الذين انضمّوا إلى الانتفاضة وقادوا دفاع مدينة النجف ضد هجوم **الحرس الجمهوري** الضاري. وفيما كانت الدبّابات والطوّافات الحربية تضيّق الطوق على مدينته في أواسط آذار/ مارس، فرّ الضابط عبر خطوط المراقبة الفرنسية حاملاً رسالة من قيادة الانتفاضة في النجف إلى القوات المتحالفة، تلتمس المساعدة. لكنهم تجاهلوا أمره ولم يؤخذ على محمل الجد، وبعدها لم يعد من مجال للعودة. فالحلفاء لم يكونوا يثقون بالشيعة. ولما كانت عائلة الضابط ما زالت تقيم في العراق، بات ينبغي إعطاؤه اسماً مستعاراً.

لم يكن هو آمر الدبّابة في **ساحة سعد** ولم يكن اسمه أبا حيدر، غير أنني ارتأيت أن يُعطى هذا الاسم[١٠].

التقينا في خان لندني بائس. كان أبو حيدر في ما مضى بعثياً، انضمّ إلى الحزب، في الستينات، عن قناعة، بينما كان لا يزال في دراسته الثانوية في النجف. لكن «الحزب مات في ١٩٧٩. في خلايا الحزب أوقفنا تلقين المسائل السياسية. كل المناقشات راحت تدور حول شخص صدّام. وكراهيتي لصدّام تعود إلى زمن بعيد. لقد قتل أشخاصاً من عائلتي». كل ما كان تبقى من مثالية شبابه بعد ذلك القتل (الذي لم يرغب أبو حيدر في التحدث بشأنه) امحى بالطبع خلال سنوات الحرب العراقية الإيرانية الطاحنة الثماني، والتي قضاها جميعها في الخدمة على الخطوط الأمامية. وعندما سألته لماذا كان ضد غزو الكويت في ٢ آب/ أغسطس، أجاب بالقدرية التي تميز شيعة العراق: «لأنني واقعي. كان العالم يفرض شيئاً ما علينا، وأنا قبلت ما كان يفرضه. يتوجب على المرء قبول ما يفرضه الواقع. كان صدّام حسين يقول: «كل كويتي يخدمه خمسة أشخاص». ماذا عنك يا سيد صدّام، إني أسألك! كم عدد الأشخاص الذين يخدمونك؟ النظام برمّته يخدمه. الجميع يقوم بذلك. لم أعد أؤمن بالسياسة. أريد أن يترك الناس وشأنهم. بعد ١٧ كانون الثاني/ يناير كنت أنتظر فقط حصول هجوم الحلفاء».

بحذره الذي فرضه الاضطرار، لا المزاج، وبعينيه الزرقاوين الشاحبتين، وبدايات ظهور علامات العمر المتوسط على وجهه، بدا أبو حيدر رجلاً محترفاً وانضباطياً. في رأيه العسكري، كان الانسحاب العراقي من الكويت «هزيمة نكراء فاضحة وليس انسحاباً».

أما مدينة النجف التي ولد ونشأ فيها، فكبرت ونمت حول مقبرة الإمام علي بن أبي طالب، وبين كل المدن الشيعية المقدسة في العراق، تنفرد النجف بكونها الأهم دينياً، والأقل تأثراً بإيران.

مكتبة الفكر الجديد

لقد أنشيء البناء الأول في النجف فوق ما ترى الأكثرية العظمى من الشيعة أنه ضريح الإمام علي، بتكليف ورعاية من الخليفة العباسي **هارون الرشيد** في العصر الذهبي للحضارة الإسلامية. في قلب المدينة اليوم، حيث تم مسح ألف عام من التحولات، يقع مقام الإمام علي بقبّته الذهبية المهيبة التي شيدت في القرن السابع عشر والتي زادها بروزاً منظر المحيط المسطح وغير الناتيء، والممرّات الضيقة والأزقة الملتوية المتاخمة للمبنى المقنطر، مطوّقة سكون المقام. والبناء يرتفع محمياً من صخب الجوار وضجيجه وسط صحن شاسع، أو فناء مشرّع تحوطه ممرات مقنطرة من الغرف، وقد كان أبو حيدر شاهداً على تحوّل هذا المركز البصري والروحي للمدينة مركزاً لقيادة العمليات الثورية أثناء الانتفاضة.

تحدثنا لساعات عدة بشأن ما حدث هناك في ذلك اليوم الأول الحاسم. وبالنسبة لرجل مطلوب رأسه، ولا تزال وراءه عائلة كبيرة داخل العراق، بدا مرتاحاً وواقعياً في وصفه الأشياء التي كان رآها وقام بها.

«كان الوقت قرابة الظهيرة نهار الخميس (٢٨ شباط/ فبراير) عندما سمعت من الناس في الشارع عمّا جرى في **البصرة**. «أحسنت»، هذا ما أذكر اني خاطبت نفسي به وأنا أقصد عمل آمر الدبّابة الذي فجّر جدارية صدّام في ساحة سعد. «صدام هذا مجرم وقد قادنا جميعاً إلى الخراب».

في الواقع كانت لدي صورة معينة عن النجف، هذه المدينة التي ولدت ونشأت فيها. كنت أعرف هذه المدينة، إن من خلال تجربتي مع الحزب وأعضائه، أو من الأشخاص الذين عرفتهم عبر السنين. كنت أظن انه حتى لو كان ما جرى في البصرة نتيجة انفجار كامل للثورة في العراق، من الشمال إلى الجنوب، فإن مدينة النجف لن تثور أبداً. فالنجفيون سيرتعبون من الطريقة التي سوف ينتقم بها صدّام من هذه المدينة بالذات إن ثارت ضدّه. وفي مطلق الأحوال ثمة حقيقة مهمة هنا، فهذه مدينة المرجعية الشيعية، والدولة، بالطبع، تقوم بتدابير حيطة خاصة في مدينة كهذه. وتدابير الحيطة كانت تفوق أياً من مثيلاتها في المدن العراقية الأخرى. ولدى صدام نزعة إلى تضخيم الأمور، وأن تكون له السيطرة الكلّية على كل حادثة، بغض النظر عن ضآلتها. والمخابرات (بوليس حزب البعث السريّ وربما الشعبة الأشد رعباً في نظام الدولة الاستخباراتي) موجودة بأعداد تفوق التصوّر في النجف.

يجب أن تفهم أني، نظراً لكل هذه الأسباب، فوجئت فعلياً بالذي جرى.

مكتبة الفكر الجديد

كان قصف الحلفاء قد دمّر تقريباً ٦٠ بالمئة من قوة وحدات القدس الخاصة بالحرس الوطني التي كانت في ضواحي المدينة. معظم الأسلحة الثقيلة التي استخدمناها لاحقاً للدفاع عن المدينة كان من تلك التي خلّفوها وراءهم. كان الحلفاء قد قصفوا أيضاً منطقة **الأمير السكنية** بما يقارب الأربع عشرة قذيفة. دُمّرت كلياً ثلاثة منازل، وامّحت وسوّيت بالأرض. أصيب أربعة منازل أخرى إصابات جزئية، لكنها أصبحت بالطبع غير صالحة للسكن. عشرات البيوت تضررت من جراء ذلك، إلا أن الأماكن المقدسة لم تصب البتة. أما في ما يخص السكان، فإن ثلاثة عشر منهم قتلوا في منزل واحد فقط، وهو منزل **السيّد رحيم الحبوبي** وشقيقة **عزيز**. قذيفة واحدة قضت عليهم جميعاً. **السيد رحيم** نفسه هو الوحيد الذي نجا. قتل واحد من أسرة **زوين**، كما أذكر، وأربعة أشخاص مجهولين من ركّاب إحدى السيّارات، سيارة خارقة من طراز ١٩٩٠ كما أظن، وقتلوا جميعاً. آه، كان هنالك ثمة سوّاق لسيارة أجرة تناثر أشلاءً من جراء قذيفة. **ثلاث طائرات نفاثة من طراز ف ١٥ قصفت النجف، ما أعتقده، على الأقل، أنها** كانت من طراز ف ١٥. لقد دمرت المطار ومحطة الرادار وأصابت مصنع الغاز ومعمل الاسمنت أربع مرات.

صباح نهار الجمعة الأولى من آذار/مارس عدت أحمل معي حاجات اشتريتها. بدأت ألتقي الناس وأتحدث عن الوضع مع الأطباء والمهندسين والأساتذة. الجميع شاطرني إحساسي بأن شيئاً لن يحصل هنا في النجف. وصلت الأخبار بأن بعض الفتيان كانوا يخططون لتظاهرة ضد النظام في اليوم التالي وسط المدينة، في منطقة الميدان قرب السوق الكبير. مجرد فكرة القيام بتظاهرة أثّر فيّ بشكل عظيم، امتلأ قلبي بالحماسة وحتى بالرغبة في المشاركة.

في وقت متقدم من صباح اليوم التالي خرجت مستكشفاً لأرى ما كان يجري. أخبرني اثنان من الفتيان ان التظاهرة أرجئت إلى الساعة ٢,٣٠ من بعد ظهر اليوم التالي (أي ٣ آذار/ مارس). كان ذلك هو الوقت المقرر لتجمّع الناس. لماذا أجّلوا التظاهرة؟ كانت قوّات الأمن قد علمت بالاستعدادات الجارية. كان الجميع على علم بالتظاهرة. حزنت كثيراً حين سمعت أن الموعد قد تأجّل. وأكد ذلك قناعتي أن شيئاً لن يحدث في هذه المدينة. لكن حاجز الخوف كان يتداعى. كان بوسعك أن ترى ذلك في الشوارع. كيف ذلك؟. رأيت مثلاً سائق تاكسي يصرخ لاعناً صدّام من نافذة سيّارته. أمام حشد كبير من الناس بصق أحدهم على صورة لصدّام. كان ذلك مذهلاً، غير أني بقيت غير واثق. ينبغي تذكّر أن ثمن

مكتبة الفكر الجديد

الكيلوغرام الواحد من الطحين كان سبعة دنانير ونصف الدينار. من ذا يستطيع دفع أثمان كهذا؟ لقد بدا القيام بثورة وسط هذه الظروف أمراً يفوق التخيّل.

سمعت ان البصرة كانت كلياً تحت سيطرة الثوار وانهم كانوا تولّوا سلطة المدينة في اليوم السابق. كانت الإشاعة تردد أن التظاهرة في النجف سوف تبدأ انطلاقاً من النفق في ساحة الميدان وتسير نحو الاتجاه المواجه للسوق الكبير وصحن المقام المقدس. كنت هناك في تمام الساعة ٢,٣٠ بعيد ظهيرة الأحد في ٣ آذار/ مارس متحدثاً مع صديق من بغداد، وهذا ما رأيت:

شبان تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والرابعة والعشرين، لا أكثر. في الواقع كان ينبغي أن أقول إن أعمار أكثر المحتشدين كانت تتراوح بين الخمس عشرة والثماني عشرة سنة. شباب. قدموا مندفعين جماعاتٍ من الأزقة والشوارع الخلفية، من **عقد خانيّة** من **شارع الخورنق**، ومن **شارع السدير** الذي دمّر جزئياً. بعض المجموعات قدمت عدواً من شارع **الصادق** ومن **عقد عبد عبطان**. كانوا جميعاً يندفعون راكضين من كل هذه الأزقة الجانبية باتجاه الميدان. كانت كل مجموعة تتألف من حوالى مئة شخص في أكثر تقدير يحملون جميعهم الهراوات والسيوف «القامات». كان اثنان أو ثلاثة منهم يحملون مسدسات. أذكر ان أحدها كان من طراز «وبلي». جعلوا يهتفون منشدين، «صدّام شيل إيدك، شعب النجف ما يريدك». كما جعلوا يهتفون أيضاً، «ماكو ولي إلاّ علي، نريد حاكم جعفري»[١١].

كان رجال الأمن على مقربة من الصحن. بدأوا يطلقون الرصاص في الهواء من السوق الكبير باتجاه الميدان. هكذا إذن أخرجوا من الصحن، حيث اعتقدوا أساساً أن التظاهرة ستتجه إلى هناك. وأول من قُتل من رجال الأمن كان حزبياً يدعى **راضي عبد الشهيد**. أطلقت عليه النار بواسطة مسدس. في **شارع الرسول** قتل الضابط **علي الحسين**، كما قتل خمسة أو ستة متظاهرين. غير أن توافد الشبان استمر. فجأة انعطفوا نحو شارعي **زين العابدين والصادق**، وهذا ما لم يكن يتوقعه رجال الأمن. من مئة تضخّم العدد إلى ألف. كانوا كلهم نجفيين، شبّاناً من عائلات مرموقة ثرية ومرفّهة. كان آباؤهم تجاراً، صاغة، بائعي سجّاد، أو أصحاب معارض للسيارات وما يشبه ذلك. لم يكونوا من الموظفين الحكوميين. كان في مقدوري رؤية علامات السعادة مكتوبة على وجوههم.

اتجهت التظاهرة بعد ذلك نحو صحن المقام المقدس. كان يرابط هناك عدد

مكتبة الفكر الجديد

كبير من رجال الأمن، آلاف منهم، إلا أن معظمهم كان يراقب فقط، منتظراً ما ستؤول إليه الأمور. توجه الشبّان في هذا الحين بأقدام ثابتة مباشرة نحو «الصحن». عندما رأى رجال الأمن هذا لاذوا بالفرار. جرى عراك عند بوّابة مدخل الصحن الرئيسية وقتل عدد من رجال الأمن. أول الذين قُتلوا قُدَّ حلقه، أمسكه أحدهم من الخلف فيما كان يطلق الرصاص. قتل العديد من المتمردين الشبّان عند البوّابة. حين تمت لهم السيطرة على «الصحن» كان قد سقط منهم ما بين العشرين والثلاثين شاباً، وعدد آخر من رجال الأمن. قرابة المغيب كان المقام وفناؤه قد أصبحا كلياً تحت سيطرة المنتفضين.

كنت مهتاجاً جداً في أثناء ذلك، غير أني بقيت غير مقتنع بأن هذا الأمر سيلقى النجاح. مع انطلاق الرصاص كان الأمر يجنح إلى أن يمسي خطيراً. لذلك قررت أن أعود أدراجي إلى عائلتي. إنهم يدعونها الانتفاضة. لكنني أؤكد لك ان المسألة برمتها كانت تظاهرة عفوية. إن رفاق صدام مسؤولون عن تحويلها إلى شيء آخر».

ما أن انتهت معركة السيطرة على أقدس الجوامع الشيعية، حتى تحوّل اهتمام الثوار إلى مبنى مركز قيادة الشرطة الرئيسي. هناك استمر القتال طوال الليل. كان شباب النجف يقصفون المبنى مستخدمين مدافع من عيار ٨٢ ملم كانت خلّفتها وحدات القدس التابعة للحرس الجمهوري. وحوالى الساعة الرابعة والنصف من صباح الاثنين ٤ آذار/مارس، انهارت كل مقاومة الشرطة داخل المبنى، واندفعت حشود الثوار إلى الداخل وأحرقت الأوراق والملفات كلها. جرت محاولة لإيقاف التخريب، «لكن»، كما يذكر أبو حيدر، «كانت عديمة الفائدة. دمّر كل شيء: سجلّات السيارات وصكوك الأملاك وملفات الشرطة ومحاضر الدعاوى القضائية».

رواية أبي حيدر عن بداية الانتفاضة في النجف يوافقه عليها مشاركون آخرون. انطلقت مجموعة واحدة من النجفيين الذكور، وكان عددها حوالى الستين شاباً من الجنود السابقين أو الفارّين من الجندية. كانوا كلهم من الأقارب أو الأصدقاء الحميمين ومن الحيّ نفسه. ازداد الستون وأصبحوا ستمئة في غضون ساعات بعد اندلاع القتال حول الصحن. كانوا يتصرفون من دون أي مرجعية. اقتحمت كرة الثلج هذه ستة مراكز للشرطة وللبعثيين موقعة بهم عدداً كبيراً من الإصابات. ويبدو أنهم قتلوا كل الذين قاوموهم ولم يعفوا إلاّ عن الجنود والشرطيين الذين استسلموا من غير قتال، أو الذين أعلنوا تبديل ولائهم. أحد المشاركين الأساسيين وصف المعركة التي استعرت طوال

مكتبة الفكر الجديد

ساعتين حول مدرسة ثانوية: «لو كان فقط في مقدورك أن تشاهد المنظر. أؤكد لك وأقسم بالقرآن، انه لم يجر شيء كهذا منذ أيام الثورة الإسلامية في إيران. كانوا يمطروننا بالرصاص. نفدت قنابلنا اليدوية وبدأنا نصرخ، «قناني البنزين! أحضروا قناني البنزين!». حضّرت لنا النسوة مزيج قنابل المولوتوف داخل قنينات البيبسي كولا. وضعت خطة جماعية قيد العمل، وكانت النسوة يزغردن ويعتنين بالجرحى، وينقلنهم إلى البيوت المجاورة. في نهاية الأمر اقتحمنا المكان، تسلقنا الجدران كالديدان، وهجمنا من كل حدب وصوب»[١٢].

بعد انهيار كل مقاومة الشرطة داخل النجف، انتقلت المعركة إلى ضواحي المدينة حيث كانت بقايا وحدات الجيش. هؤلاء الجنود بالكاد قاتلوا قبل أن يولّوا الإدبار تاركين الطريق مشرّعة نحو الكوفة، ثاني أقدس مدن الشيعة. والنموذج نفسه تكرّر، إذ جرت معركة عنيفة خارج مبنى القيادة العامة للأمن في الكوفة، واستمرت حتى ارتفع علم الاستسلام الأبيض. حوكم يونس الشمّري، وهو أحد قادة الشرطة الأمنية، لإصداره الأمر بالمقاومة. قيل له إنه يمكن الإبقاء على حياته في مقابل إدلائه بمعلومات عن المواقع والمخابىء السرّية للأسلحة والذخائر. رفض الشمّري. سمع أبو حيدر توبيخه الجريء للثوّار تماماً قبيل إعدامه بالضبط: «لقد عشت بعثياً طوال حياتي وسأموت بعثياً».

عدد القادة البعثيين الذين ماتوا بهذه الطريقة لم يكن كبيراً. معظمهم لاذ بالفرار. وكيل قيادة الأمن في النجف، العقيد علي، فعل ذلك متنكراً بزي امرأة (عباءة سوداء تكسو الجسم من دون الوجه)، ولف وجهه بيوشيه (قماشة قطنية رقيقة تحجب كامل وجه الأنثى كي لا تُشاهد بشرتها البتة). كان قد ترك وراءه رجالاً مثل الملازم أول محمود ليكونوا كبش محرقة لسخط الناس. عثر متمرّد شاب نجفي بالصدفة على الملازم الأول محمود، من الرمادي، وكان يعرفه تمام المعرفة، كانت قدما محمود وركبتاه مخروقة كلياً بالرصاص، بعد أن زحف ليختبىء في مكبّ نفايات. كان الشاب عائداً إلى المنزل ليتناول بعض الطعام فاستوقفه أنين شخص كان يتألم بشدّة. التمس محمود منه الحفاظ على حياته. لسوء الحظ كان يعرف عن الملازم الأول أنه كان يحتسي الكحول داخل الصحن المقدس لمقام الإمام علي حيث كان يخدم، ولذلك لم تكن لديه أية فرصة للنجاة. «هذا الرجل يريد تشويه سمعة الإمام عليّ وشيعة العراق. حين يحضر زائر عاديّ إلى الصحن ويشاهد كحولاً هناك، لن يقول إن هذه فعلة الملازم أول محمود، سيقول لا بد أن خدم الحرم (الأراضي المقدسة التي تحتوي المقام) ورجال دين النجف مشاركون في هذا الفساد الأخلاقي». كان هذا هو التبرير الذي قدّمه الثائر الشاب لعدد من أصدقائه لقيامه بإعدام محمود الذي تركت جثته تتعفّن في المكب[١٣].

مكتبة الفكر الجديد

بين الذين أعدموا «رسمياً» في النجف خلال الانتفاضة، إلى جانب **يونس الشمّري**، كان هناك كل من **نوري فرهود**، **خالد الكرعاوي**، ومسؤول بعثي رفيع يدعى **بلبلي**، والشاعر الشهير **فلاح عسكر** الذي كان يعمل شرطي سير متواضعاً في منطقة الحلّة. ويختصر أحد الشبان ما حدث بجملة واحدة: «لم يكن في وسعنا منع المنتفضين من الانقضاض عليهم». أما مصادر المنتفضين فتقول إن عدد البعثيين الذين قتلوا خلال الساعات الأربع والعشرين التي استغرقتها معركة السيطرة على النجف، يفوق الأربعمئة.

من هم هؤلاء الأشخاص؟ قسم منهم كان من رجال التعذيب ومسؤولين كباراً في حزب البعث مثل **الشمري**. غير أن العديد بينهم كانوا أشخاصاً عاديين وشيعة مثلهم. بين هؤلاء على سبيل المثال **فلاح عسكر** الذي سبق له أن لفت انتباه حزب البعث لامتلاكه موهبة صياغة القوافي الحزينة والثورية. وأصبح **عسكر** مشهوراً نتيجة ألحان مثل «كل الشعب شدّة ورد والريحة بعثية». أو «بالروح، بالدمّ نفديك يا صدّام». وتبعاً للسائد في التقاليد العربية، يمكن غناء أو إلقاء سطور كهذه بأسلوب شديد الانفعالية، حتى لو كانت قد كتبت من دون اقتناع، أو جاءت فارغة فعلياً من أي محتوى. ففي الشعر الشعبي العربي، يثير الشكل العواطف أكثر ممّا يثير المحتوى، وكان **عسكر** بارعاً في هذا.

وموهبة عسكر في الشعر القصصي الصالح للغناء مستلهمة إلى حد كبير من المنطقة الشيعية في العراق، وتستمد منابعها من «التعزية» و«اللطمية» وهي الشعائر التي تقام كل سنة، وتعبّر بصورة مسرحية عن الحوادث المأسوية التي أحاطت بمقتل الحسين في سهول كربلاء عام ٦٨٠ بعد المسيح. وقد نشأ شعراء موهوبون مثل **فلاح عسكر ورضا الفحّام وكريم العراقي** وحسن **عمارة** على هذه القصص ثم كبروا وارتبطوا بالسياسات اليسارية. وبعد انهيار الحزب الشيوعي العراقي في أواخر السبعينات تملّقهم حزب البعث بتودّد، وباتوا في الثمانينات مرادفي **عزيز علي** وهو الشاعر الشعبي الساحر الكبير والناقد الاجتماعي للأربعينات[١٤].

تقول الرواية إنه عندما كان حسن عمارة (وهو اسم مستعار) يحيي يوم زفافه، انقضت مجموعة من زعران بوليس الأمن ووضعت حداً للحفل. ضربوا العروس، وأيضاً ضربوا والدها بخشونة أفظع وحطّموا المكان كله. وفي اليوم التالي تلقى ذاك المكتئب الذي كان سيصير عريساً، اتصالاً هاتفياً من صدّام عشيّة تعيينه رئيساً. قال صدّام لعمارة انه علم بما حصل وأنه يودّ أن يعقد صفقة مع الشاعر، صفقة كان يدرك انه لن يرفضها. وعد صدام بمعاقبة المسؤولين إذا قام عمارة في المقابل، بإظهار عرفان الجميل من خلال

مكتبة الفكر الجديد

كتابة بعض الأشعار عن إنجازات الثورة البعثية العظيمة. وهكذا انطلقت على طريقة أسلوب فيلم «العرّاب» سيرة فنية جديدة ولامعة في الموسيقى الشعبية العراقية.

لقد كان الشعراء الشعبيون مثل فلاح عسكر ورضا الفحّام وحسن عمارة مستهدفين خلال الانتفاضة، على الرغم من أنهم كانوا على العموم رجالاً محطّمين، ومثل معظم العراقيين الذين يعيشون منذ عشرين عاماً تحت حكم حزب البعث، لم يعد لديهم مطلق التزام بأي شيء. منهم من كانوا تحوّلوا عن الشيوعية وارتبطوا بالحركة الشيعية الإسلامية السياسية السرّية. والبعض الآخر تحوّل إلى كتابة الأشعار البعثية، مثل حسن عمارة، لأنهم كانوا يخافون ألاّ يفعلوا ذلك. كانوا يفعلون ما كان الناس العاديون ومعظم أفراد النخبة العراقية يفعلونه على نحو منتظم، وبالضبط للأسباب نفسها، فالبعث العراقي الحديث كان أنشىء فوق حلقات من التواطؤ والمشاركة لم يفلت منها أي فرد.

تبقى حكاية مقتل فلاح عسكر نموذجية. فقد احتجز طوال الليل داخل صحن مقام الإمام عليّ في انتظار «محاكمته» مع حوالى خمسمئة مسجون آخرين. وروى أحد المتمردين، وكان مسؤولاً عن أولئك المحتجزين، ماذا حدث تلك الليلة: «كما تعرف، كل هؤلاء الشعراء الشعبيين غيّروا انتماءاتهم. أذكر أن فلاح عسكر ذاك نظم خمس قصائد خلال ليلة احتجازنا له في الصحن ممجداً فيها سيّدنا الحسين والإمام علي، كرم الله وجهه، وأيضاً الإمام الخميني. جعل كل المساجين ينشدون «اللطمية» ويلطمون صدورهم متحولين عن صدام. عندها قلت لفلاح: «أين عقيدتك وقناعاتك، أنت الذي كنت تقول كل تلك الأمور عن صدّام؟»، أجابني: «إن ذلك الرجل مجرم، كان خدعني»[١٥].

عسكر المسكين خانه حظّه. كف عن أن يؤمن بصدام أو بأي شيء آخر. لكن لم يعد في وسع موهبته الكلامية التي وضعته أصلاً في هذا المأزق، أن تنقذه. وليس واضحاً كم هو عدد الأشخاص الذين أعدموا على طريقة فلاح عسكر من قبل المنتفضين، لكن بالتأكيد لا يمكن تصديق أي من معلومات الحكومة في هذا الخصوص.

في الواقع هم لم يقتلوا الجميع. في قرية قرب السماوة ألقى الثوار القبض على رسّام وجوه محليّ كان يكسب رزقه، مثله مثل مئات آخرين، من رسم صور القائد العظيم. وصف الصحافي طوني هورفيتز مراسل صحيفة «ذي وال ستريت جورنال» الواقعة كالآتي: «كان الرجل يتوسّلهم الرحمة معتبراً أن المتمردين سوف يقتلونه. عوض ذلك غرّموه بمبلغ خمسين ديناراً وأجبروه أن يقول إن صدام حسين «ابن كلب»»[١٦].

لقد أعفي عن العديد من البعثيين أو المعروفين بأنهم بعثيون ممن توسّط لهم وجهاء من

مكتبة الفكر الجديد

أقاربهم، أو أعلنوا توبتهم[١٧]. على سبيل المثال كان ألقي القبض على **فاتك الصافي** الذي كانت بعثياً رفيع الشأن في الخمسينات، وفرّ إلى سوريا مع صدّام حسين عام ١٩٥٩ إثر محاولة فاشلة لاغتيال رئيس البلاد، لكن **الصافي** أطلقه الثوار بعد احتجازه أثناء الانتفاضة لتوافر الشروط المذكورة أعلاه. كذلك أطلق سراح رجال كانوا كسبوا الكثير من النفوذ والمال أثناء حكم البعث، بينما قُتل آخرون من أمثال فلاح عسكر. أطلق أيضاً سراح رجلي دين شيعيين، كلاهما من السيّاد (من سلالة النبي) وكانا برزا في الماضي كمناصرين ناشطين للبعث وعلى رأس المهلّلين له.

لقد اتهم أحد المنتفضين واحداً من السيدين بأنه «أميّ يدّعي دراسة الفقه»، معلناً ندمه على اطلاقه. في أي حال كان قد قبض على السيّد وفي حوزته مسدس وقنبلتان يدويتان كما كان يحارب ضدّ الانتفاضة. لكن إطلاق سراحه جاء بسبب تدخل رجال دين آخرين، وأعتقد أنهم لم يفعلوا ذلك حباً بالرجل، أو لأنهم يؤمنون بمبدأ عدم قتل المتعاونين. أغلب الظن أنهم كانوا لا يريدون حصول سابقة إعدام رجل دين، خوفاً من أن ترتد يوماً ما عليهم[١٨].

من أين حصل النجفيون على أسلحتهم؟ يبدو أن حكومة صدّام أدخلت في حسبانها احتمال إنزال مظليين من الجنود الأميركيين داخل المدن العراقية. هكذا تحولت مراكز الشرطة ومباني حزب البعث في كل المدن العراقية إلى نقاط لتوزيع الأسلحة الخفيفة. وطلع أحد كبار أعضاء حزب البعث بفكرة عجيبة تقضي بتحويل الجماهير العراقية قوة ميليشيا مدينية قادرة على أن تكبد قوات التحالف خسائر جسيمة. وأخبرتني **فاطمة من السماوة** أن كل ما كان يتوجب على فتى في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة أن يفعل للحصول على بندقية هو التوجه إلى هناك والقول إنه يريد محاربة الأميركيين عندما يبدأون الهبوط من السماء[١٩]. وقال أحد المتمردين النجفيين: «كان صدّام مزهواً جداً بنفسه، كان واثقاً جداً من نجاحه في معركته مع الحلفاء، وضع أسلحة في كل المدارس لتستخدم في حال هبط الأميركيون علينا». رجل أكبر سناً كان يستمع إلى الشاب شرع يخبر هذه القصة عن مصير هذه الأسلحة عشية الانتفاضة: «سألني يوماً بحذر «سيّد» معروف إن كنت أستطيع أن أحضر له بندقية أوتوماتيكية ومسدساً أو مسدسين لأنه يحتاج إليها في منزله. فعلت ذلك وحملتها إليه، داخل حقيبة. هناك لاحظت أنه يمتلك مجموعة من الأسلحة، وتساءلت، ما الذي يجري. وقدم شخص آخر لزيارته بينما كنت لا أزال هناك، فسأل رجل الدين زائره: «أين هي الأسلحة التي وعدتني بها؟»، مع أنه كان حصل على بندقيتين أخريين وبضعة مسدسات. عندها سألت السيّد ماذا ينوي أن يفعل بكل تلك الأسلحة، فتمتم قائلاً: «سوف تستخدم، سوف تستخدم»[٢٠].

مكتبة الفكر الجديد

لم يكن سادة النجف كلهم حذرين ومعدّين ليصبحوا مثل هذا الرجل مقاتلي ميليشيا مدينيين ضد النظام. سيّد آخر لعب دوراً رئيسياً في الانتفاضة، ولكن بتردّد ومن موقع مختلف كلياً. ولسوء الحظ ينبغي التكتم على هويته لأنه «اقترف» القيام بتمثيل دور المتعاطف مع بعثي، وهو ما يقتضي ضمنياً شجاعة شخصية. وهذا أمر لا يزال ممكناً استخدامه ضده بسبب جو الكراهية والطائفية الذي ساد بعد الانتفاضة.

«تورطت في الانتفاضة لأن ابن جارتي، البالغ من العمر ثماني سنوات، كان قد فُقد. كان **أحمد** قد أرسل إلى السوق للتبضع قبل أن يدرك أحد أن شيئاً ما يحدث في المدينة. لم يكن قد عاد عندما بدأ إطلاق الرصاص. كادت والدة **أحمد** أن تفقد عقلها وجعلت تناشدني للبحث عنه. قعدت في وسط داري تصرخ وتشدّ شعرها. وهكذا انطلقنا أنا ومجموعة من الأصدقاء في سيارتين بعد ظهيرة نهار ٣ آذار/ مارس. شقّينا طريقنا ببطء وبحذر باتجاه منطقة الميدان في قلب المدينة. كانت المدينة تحت سيطرة متمردين شبان من مناطق الجوار أقاموا المتاريس في كل الأمكنة. كانت الأجساد والجثث منتشرة أينما كان. وصلنا إلى نقطة ما عادت السيارة قادرة على التقدم فيها بسبب الحشود والفوضى العارمة، وهكذا انعطفنا إلى داخل شارع فرعي. كان ثمة منزل لصديق يقع على مقربة.

قرب المكان حيث أوقفنا السيّارة، وهذا ما قد لا تصدّقه، كان يختبىء ضابط جريح من المخابرات البعثية سبق لي أن عرفته. كان مصاباً بسبع رصاصات، إضافة إلى فجوة واسعة في راحة يده كانت تنزف فوق أرجاء المكان. أخبرني انه كان استطاع إطلاق رصاصة واحدة قبل أن يمزّق جسمه وابل من الرصاص. توسل إلي أن أنقذه. ماذا كان يمكن أن أفعل؟ ألبسته عباءة امرأة، كسوته بها وأدخلته في السيّارة ثم نقلناه إلى المستشفى. كان يريدني أن أبقى معه لأن المستشفى سقط في أيدي المنتفضين، غير أني لم أستطع. لست أعرف ماذا حدث له في النهاية. في آخر الأمر وجدنا الصبيّ الصغير وأعدناه إلى أمّه[٢١]».

دور آية الله الخوئي

كان آية الله أبو القاسم الخوئي، وهو أعلى سلطة روحية شيعية في العالم، يعيش في النجف إبان الانتفاضة. ولد عام ١٨٩٩ في بلدة **خوي** بـ **أذربيجان** الإيرانية، وقدم إلى النجف وهو في الثانية عشرة من العمر ليدرس في جامعتها الدينية. وفي النجف درّس الإمام الخوئي، الذي هو مرجع الشيعة الأوّل، طوال السبعين سنة، ووضع أكثر من أربعين مجلداً في التشريع الإسلامي، وهو الرئيس الروحي لمؤسسة وقفية عالمية تحمل اسمه ولها دعم كبير في شبه القارة الهندية. ولقد عارض الخوئي تورط فقهاء الشيعة بالسياسة قبل

مكتبة الفكر الجديد

وقت طويل من تحوّل هذا إلى مسألة أساسية إثر نجاح الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ (بالفعل كان الخميني قد صاغ تعاليمه الخاصة بـ «ولاية الفقيه» في النجف كسلسلة من المحاضرات ألقاها في ١٩٧٠ بهدف معاكسة تعاليم الخوئي السابقة)، وقد فعل ذلك انطلاقاً من قناعته بأن هذا الأمر يفرض مساومات غير مقبولة من شأنها أن تؤدي في النهاية إلى تلطيخ سمعة السلطة الدينية والنيل من مكانتها.

وطوال الحرب العراقية الإيرانية نجح الخوئي في مهمته الهرقلية بالبقاء بعيداً عن التأثيرات السياسية، سواء كان مصدرها بغداد أو طهران. ولكن بعد كارثة حرب الخليج، أدركته أخيراً مأساة العراق. ففي ٥ آذار/ مارس وبتأثير الضغط الذي تلقاه من عدد كبير من الوجهاء النجفيين الذين تدفقوا عليه، قام آية الله بإصدار فتوى وكان ذلك في اليوم الثالث من الانتفاضة. والفتوى هي رأي شرعي يصدره فقيه في الدين، فقيه كان يمكن أن يتولّى في زمن العثمانيين مهمة مستشار في البلاط. لكن مع حلول الدولة العربية الحديثة، انخفضت أهمية الفتوى، لتعود وتنتعش فقط في السنوات الأخيرة مع موجة تسييس الإسلام. وفي النجف، أقدس مدن الشيعة، اتخذت آراء الخوئي منزلة القانون الوحيد المتوافر طوال الأيام التسعة التي عاشتها المدينة تحت سيطرة المنتفضين.

صدرت فتوى الخوئي بتردد وتحت تأثير ضغط الأحداث. كانت المدينة تتعرض للنهب وكانت جثث رجال الأمن والمسؤولين التي لا يطالب بها أحد، مرمية في كل الأرجاء. وفي الوقت الذي صدرت الفتوى، كان صحن مقام الإمام علي محاطاً بالدبابات التي استولى عليها المنتفضون، وكان يحتشد فيه آلاف المتمردين المدججين بالسلاح والمهتاجين وقد احتجزوا المئات من الأسرى في الداخل. وهؤلاء الأسرى مثل فلاح عسكر، كانوا يحاكمون ويعدمون. لقد عمّ السلب والنهب معظم المدينة وكان كل شيء تقريباً خارج السيطرة وفي فوضى عارمة.

حميد وهو معلّم مدرسة كان يعمل على زيادة دخله الضئيل بالعمل سائقاً لسيارة تاكسي برتقالية وبيضاء بالية، سمع عن الانتفاضة للمرة الأولى عبر إذاعة صوت أميركا، «عندما تحدثوا عمّا جرى في البصرة». انضم حميد إلى التظاهرة عند مقام الإمام علي، وكانت وظيفته خلال الانتفاضة الاستماع إلى نشرات الأخبار الأجنبية وترجمتها لأنه، كما يقول، «لا قبل لي بالأسلحة النارية». في البداية رفض أن يصدّق ما كان يسمعه، غير أنه ما لبث أن امتلأ حماسة ومزّق شهادة أستاذ التعليم التي يحملها، «لأن المدرسة حيث أعلّم تحمل اسم صدّام حسين». ويصرّ حميد على أنها لم تكن ثورة دينية. كانت ثورة ضد معاملة صدّام حسين لنا. في البداية كان الخبل يسيطر علينا. كنا نعتقد مثلاً أن

مكتبة الفكر الجديد

شارات السير الضوئية تمثل صدّام حسين، لذلك حطمناها. اقتحم الناس المدارس التي كان الجيش يستخدمها كمخازن للأسلحة، ثم جرى توزيع الأسلحة. حوالى الساعة التاسعة من تلك الليلة سيطر المنتفضون على وسط المدينة. بعض الأشخاص من الذين قتل آباؤهم أثناء الحرب مع إيران شاهدوا الرسميين الذين ساقوهم إلى الحرب. أعدم العديد من الرسميين شنقاً في الدور السفلي من المدرسة الإسلامية المتاخمة للجامع. جرّ الناسُ الرسميين إلى الشارع وأطلقوا عليهم النار. كانوا ساخطين إلى أقصى الحدود فقطّعوهم إرباً وأحرقوهم. اقترب آخرون وكانوا يبصقون على جثثهم»[٢٢].

هذه هي ظروف الفوضى العارمة التي ظهرت تحت وطأتها فتوى الخوئي. وكما يقضي التقليد، كانت الوثيقة ممهورة بختم آية الله ومخطوطة باليد بالخط النقشي، وبالتأكيد فإن كاتبها رجل دين يجيد مهنته. قرأ الفتوى للعيان **ماجد الخوئي** أحد أبناء آية الله، وكان يومها في اليوم الثالث من الانتفاضة، فخاطب حشداً من النجفيين المجتمعين في الامتداد الشاسع والمسوّر داخل «الصحن»، مستخدماً مكبراً للصوت. ومن على سطح الجامع، قرأ **ماجد الخوئي** الفتوى التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

أبنائي الأعزاء المؤمنين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله على نعمه وآلائه والصلاة والسلام على أفضل أنبياءه محمد وعترته الاطهار.

وبعد: لا شك في أن الحفاظ على بيضة الإسلام، ومراعاة مقدساته أمرٌ واجب على كل مسلم، وانني بدوري إذ أدعو الله تبارك وتعالى أن يوفقكم لما فيه صلاح الأمة الإسلامية.

أهيب بكم أن تكونوا مثالاً صالحاً للقيم الإسلامية الرفيعة برعاية الأحكام الشرعية رعاية دقيقة في كل أعمالكم وتصرفاتكم، وجعل الله تبارك وتعالى نصب أعينكم في كل ما يصدر منكم، فعليكم الحفاظ على ممتلكات الناس وأموالهم وأعراضهم، وكذلك جميع المؤسسات العامة لأنها ملك الجميع، والحرمان منها حرمان للجميع.

كما أهيب بكم بدفن جميع الجثث الملقاة في الشوارع ووفق الموازين الشرعية،

مكتبة الفكر الجديد

وعدم المثلة بأحد، فإنها ليست من أخلاقنا الإسلامية وعدم التسرع في اتخاذ القرارات الفردية غير المدروسة والتي تتنافى والأحكام الشرعية والمصالح العامة.

حفظكم الله ورعاكم ووفقكم لما يُحبّ ويرضى، إنه سميع مجيب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في ١٨ شعبان ١٤١١[٢٣].

كان هدف الفتوى الأساسي الحض على الرأفة والخشية من الفوضى وإعادة النظام إلى أمور المدينة. وأن يشعر آية الله انه يتوجب عليه إصدارها فهذا دليل ساطع على مدى الخطورة التي بلغها الوضع. ففي ٨ آذار/ مارس صدرت فتوى ثانية عيّنت «لجنة عليا» للقيام برعاية شؤون «المصلحة العامة»، وكانت اللجنة تتألف من تسعة مجتهدين (فقهاء شيعة) معظمهم رؤساء لمعاهد فقهية في النجف، وأعطيت اللجنة صلاحية التصرف باسم آية الله الخوئي في كافة الأمور. كانوا في ما يتعلق بأمور تنظيم الحياة جميعها بمثابة حكومة. ولكن حكومة ماذا؟ هل كانت لجنة لإدارة طوارىء مؤقتة ومحدودة لمدينة النجف المقدسة، أم كانت جنيناً لحكومة بديلة لكل العراق؟ لم يطرح هذا السؤال إبان الانتفاضة.

آية الله الذي تصرّف من خلال أولاده وحاشيته نجح إلى حد كبير في تحقيق غايته. وما لا يقبل الشك أبداً أن هذا التدخّل الشخصي أنقذ العديد من الأرواح العراقية وكبح الميل الذي كان لدى شبّان الانتفاضة للقيام بمجازر مجنونة كانت متجذّرة في الأحقاد المكبوتة وفي الرغبة بالانتقام. لنأخذ على سبيل المثال قضية السجناء الخمسمئة داخل الصحن: صدر الأمر من آية الله بإخراجهم سالمين من هناك ونقلهم إلى «دار الحكمة»، وهو معهد فقه إسلامي على بعد ٣٠٠ متر ويخص عائلة الحكيم. وأشرف أحد أبناء الخوئي على تشكيل مجموعة مخلصة قوامها خمسة وعشرون رجلاً بكامل أسلحتهم، ثم أخرج السجناء المذعورون «تحت أنظار المجاهدين الملتمعة كراهية ووحشية»، كما وصفها أحد أعضاء تلك المجموعة المختارة. «كانت قلوب المقاتلين الذين يدورون حول الصحن وهم يشاهدون هذه العملية»، كما تابع وأضاف، «مثل جمرات حمراء ملتهبة مملوءة بالغضب من هؤلاء البعثيين الذين أذوا، وأعدموا واغتصبوا أناساً. جرت مواكبة المعتقلين الذين كانوا يُنقلون مشياً على الأقدام، كما نقل بعضهم على حمّالات، وكان ذلك في مجموعات صغيرة. وقد استمرت العملية طوال الليل وحتى ساعات الصباح الأولى. قال الرجل الذي كان مسؤولاً عن العملية: «طلب منّا السيّد مقاتلة المجاهدين الموجودين في الصحن إن اضطررنا إلى ذلك»[٢٤].

مكتبة الفكر الجديد

وشكّلت اللجنة العليا لجاناً فرعية أيضاً من أجل تنظيم توزيع الطعام، وإعادة فتح كل مراكز الخدمات الضرورية والأساسية في المدينة. وقدمت كذلك ضمانات تؤكد لموظفي القطاع العام والأطباء والمهندسين، حفظ سلامتهم، وطلب منهم بإلحاح معاودة أعمالهم. وعملت اللجان الفرعية بضعة أيام قبل أن تسقط المدينة في أيدي قوات الحرس الجمهوري. كذلك جرى تعيين لجنة فرعية عسكرية تتألف من ستة ضبّاط، وكانت وظيفة هذه اللجنة تنظيم دفاع النجف والتنسيق مع المدن الأخرى المحرّرة.

أحد الضباط الستة، والذي كان قد عيّن بتعليمات مباشرة من آية الله الخوئي، وأرسل من قبله عبر الخطوط الفرنسية لالتماس مساعدة الحلفاء، كان أبا حيدر. «عندما طلب مني الانضمام قلت لزوجتي «أنا ذاهب يا امرأة، أنا ذاهب إلى حتفي». وكما ترى لم أكن أتوقع البتة نجاح الانتفاضة. لكن ما أضاء لي بصيص الأمل هو أن النجف، المدينة التي ولدت فيها ونشأت، والتي لم أكن أحسب أنها قد تنتفض وتثور، انتفضت ضد الطغيان. كان هذا ما دفعني إلى المشاركة».

المشهد من بغداد

حتى بداية حرب الخليج، كان حبيب يعيش مع عائلته في منطقة ثرية وآمنة جداً في بغداد. كمتخرّج جامعي شاب يطمح إلى تطوير تجارة العائلة، كانت حياة حبيب المهنية مليئة بالوعود. غير أن عالمه المطمئن والمستريح تحطّم في تمام الثانية والنصف من فجر ١٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٩١. «كنت على وشك النوم عندما اندلعت الحرب. أصبحت السماء حمراء ساطعة، وكانت تخترقها شعاعات ملتمعة من الضوء. اندلع ضجيج الطيران عالياً في الليل. ليس بمقدوري أن أجد الكلمات المناسبة لوصف صخب انفجارات القصف. كان ذلك أشبه بنهاية العالم. أدرت المذياع وسمعت صدّام يلقي خطاباً: «إن الأميركيين يهاجموننا...» ولم يكن في مقدور أحد تصديق ما كان يحدث. حتى صدام حسين نفسه لم يصدّق ذلك. عندما توجه عبر الإذاعة إلى الشعب، كان صوته واهناً وبدا كما لو أن عوداً قد حُشر فيه»[٢٥].

بينما كان الراديو يبث أغنيات عاطفيّة للمغنية ماجدة الرومي، كان أكثر من مليون من سكانها الأربعة ملايين يفرّون مذعورين من بغداد. وهذا الاندفاع المسعور، لدى بداية الحرب، للخروج من المدن، كبّد الناس مشقات جسدية فورية ومباشرة فاقت حملة القصف نفسها (التي أنجزت في بغداد بالدقة ذاتها التي أعلنها الحلفاء). وما أن أدرك ان القصف لم يكن عشوائياً، حتى عاد حبيب، مثل معظم الناس، ليعنى بمنزله وعمله، واستطاع عبر أصدقائه التكريتيين العديدين والرفيعي الشأن في حزب البعث، أن يزور

مكتبة الفكر الجديد

ملجأ عميرية الشهير، قبل اصابته بصاروخ القوات المتحالفة الذي قتل ما يقارب الأربعمئة مدنيّ، وبعد ذلك.

«كانت عائلات أعضاء حزب البعث تلتجىء هناك. جميع أفراد عائلة جميل شنشل احترقوا أحياء. لكن هناك عائلات أخرى تسكن في الجوار كانت التجأت إليه أيضاً. زرت مسرح الحادثة يوم تعرضه للقصف وقبل أن يقفلوا المكان كله نهائياً. أخبرني أصدقائي ان الحكومة سارعت إلى إخراج صناديق الوثائق المهمة قبل أن تهتم بالناس الموجودين في الداخل. كان بعض الجثث قد تفحّم والبعض الآخر بدا وكأنه ذاب أو انصهر مندمجاً ببعضه البعض. الأذرع والسيقان بدت مثل جذوع مقطعة. في الواقع، لم يبق من مشهد الأشلاء أصلها البشري. وضعت البقايا داخل شاحنات ولم يقم أحد بسعى للتعرف إلى هويات أصحابها. في مطلق الأحوال كان ذلك مستحيلاً. ما زال بوسعي أن أرى تلك المشاهد تامة، وغالباً ما توقظني في منتصف الليل. مهما قلت، لن يكون بمقدورك أن تتخيّل ذلك ما لم تمر بما مررنا به».

تعكس مشاعر حبيب حيال حرب الخليج بشكل دقيق مشاعر المجموعة السنّية في بغداد، وكذلك حاله النفسية عشية الانتفاضة التي بدأت مباشرة بعد انتهاء الحرب. إنها مخاوف أقليّة محاصرة على رغم أنها كانت لا تؤيد الديكتاتور، وهي احتشدت حوله خلال الانتفاضة لأنها شعرت بأن وجودها بالذات كان مهدداً من جراء الوضع المتزايد الانفلات. وبغض النظر عمّا إذا كانت تلك المخاوف مبررة أم لا، فإن كلام حبيب يوضح بجلاء أن المسألة كانت، في ما يتعلّق به على الأقل، مسألة حياة، لا مسألة حفاظ على امتيازات.

«سمعنا عن الانتفاضة في الجنوب عبر الإذاعات الغربية. هل تدرك أن ثمن بطّارية صغيرة لراديو نقّال كان عشرة دنانير في بغداد؟ ولم يكن في مقدورك أن تجد واحدة حتى بهذا السعرا. لم يعد هنالك بالطبع تلفزيون. كان عليّ أن أدير راديو سيارتي لأستمع إلى نشرات الأخبار وإلى الخطب المهمة. كانت هناك محطات جديدة من كل الأنواع، بعضها لم أكن سمعت به إطلاقاً من قبل. الحكومة لم تطلق عليها تسمية انتفاضة بل دعتها الفتنة. كانوا يصفون المنتفضين بالغوغائيين. بدأوا فقط يتحدثون عما حدث في الجنوب بعد أن أحكمت فرق الجيش الحكومية سيطرتها على المدن من جديد. لم تكن هناك أية أخبار رسمية عن الانتفاضة الشيعية عندما بدأت. لكن الخبر سرعان ما انتشر.

مكتبة الفكر الجديد

لقد أخبروني عن قائد شيعي لوحدة عسكرية تتألف من حوالى أربعة آلاف جندي أدركت ضواحي النجف وكربلاء. أحد السيّاد رحّب بالقائد وقدّم لرجاله الطعام مجاناً. كانت إيران مصدر كل هذه الأطعمة. وفي تلك الأثناء كنا في بغداد، نتضوّر جوعاً. السيد والقائد عملا معاً على تغيير حاكميتي كل من النجف وكربلاء إلى جمهورية إسلامية. وقد عاد إلى كربلاء والنجف كل العراقيين الذين طردوا من البلاد أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية، لكي يشتركوا بالقتال. كان الناس يهتفون في الشوارع، «ماكو ولي إلاّ علي، نريد حاكم جعفري».

كنا خائفين لأن الشيعة كادوا يدركون بغداد. العراقيون موهوبون بالنهب، إنهم خبراء في الفرهود (نهب المنازل والمتاجر اليهودية خلال مذبحة ١٩٤١ كان دعي بالفرهود، والمصطلح هذا استخدم بشكل واسع في كل أرجاء العراق إبان الانتفاضة). أؤكد لك لو أن تمرّد الشيعة أدرك بغداد، لكان الذبح أصبح بفلس. كانوا بالتأكيد سيقتحمون كل المنازل، وعندما يعرفون هوية الساكنين، ينهبون كل المحتويات ويذبحوننا جميعاً. ما كان سيعرف أحد مَن قتل مَن. كان المسيحيون خائفين جداً وقد هرب العديد منهم من البلاد. فمن ذا الذي كان يوقع نفسه في الوسط ويكون كبش المحرقة عندما تكون مسألة مسلمين شيعة ومسلمين سنّة، والطرفان عرب؟ هذا إن تغاضينا عن مسألة السنّة الأكراد الذين سيقتلون السنّة العرب! بالطبع سيكون الضحية المسيحيين واليهود.

دعني أقصّ عليك حادثة جرت. كان أناس يصطفّون في أحد الأيام من أجل الحصول على الطعام، عندما قرّرت إحدى النسوة المسلمات تجاوز دورها لتقف أمام امرأة مسيحية. دفعتها جانباً قائلة: «أنت ابنة بوش، إذهبي إليه، هو سوف يعطيك طعاماً». التقطت الامرأة المسيحية خفّها وضربت به المرأة المسلمة وهي تصيح بها قائلة: «كان زوجي في الجبهة يدافع عن بلدنا مثل كل العراقيين الآخرين. شقيقي قُتل في الحرب العراقية الإيرانية. كيف تجرئين على نعتي بأني ابنة بوش!»؟ عراكات كثيرة من هذا النوع جرت في بغداد. كان المسيحيون يعتبرون حلفاء للبريطانيين والأميركيين، لأن أميركا، وهي البلد المسيحي، كانت تقصف العراق. أؤكد لك أنه ليس هنالك مطلق ودّ مفقود بين العراقيين، لأن الجميع يكره الجميع.

أرسلت الحكومة قوّات خاصة لمعالجة الوضع في الجنوب، قوات شرسة جداً وبالغة البأس، كلّها من السنّة. كان هؤلاء الجنود من مناطق الرمادي وهيت

مكتبة الفكر الجديد

وسامراء والموصل وتكريت وهم أزالوا من الوجود المدينتين وحتى المدافن، أزالوا كل شيء. محوا المكان كلياً. كانت الكلاب تأكل جثث الناس في الشوارع.

هناك الآن عداوة ضارية بين الشيعة والسنّة، ولن تصطلح الأمور أبداً مهما حصل لأن الكراهية مستشرية. لم تكن المسألة قط كذلك، إذ بات الانتقام منتشراً بين الناس العراقيين العاديين. ووسط معمعة الاضطرابات انكشفت العداوة والكراهية بين عدد كبير من الناس. كان ذلك هو الوقت المناسب للانتقام.

عندما بدأ الأكراد انتفاضتهم، جاءت امرأة تعيش في جوارنا من حيث كانت في الشمال، بمعيّة أولادها، وأخبرتنا عن الفظاعات التي ارتكبت. قتل الأكراد زوجها الذي كان عضواً في الحزب وقالوا لها: «نحن لسنا كالعرب. سنقتل فقط زوجك، خذي أولادك وعودي إلى ديارك». قالت إنه عندما سيطر الأكراد على المنطقة ألقوا القبض على البعثيين وعرضوهم في البلدة وطلبوا من الناس أن يشير كل منهم إلى كل من ألحق الأذى به. راح كل شخص يروي قصّته، كيف أن أحد المحتجزين تعدى عليه، وكيف سبب هذا الأذية لذاك وإلخ. وعندما وافق رئيس المجموعة التي كانت تحتجز السجناء على تنفيذ الإعدام، كان الناس ينقضّون على السجين بالخناجر حتى قبل أن يتسنى تنفيذ العقوبة. قطعت رؤوس عدد من الأشخاص، وكانت جثثهم تقطّع إرباً. كان كل ذلك انتقامات وتصفية حسابات، وبدا الأمر عبارة عن مجزرة. قتل الأكراد الآلاف من البعثيين، غير أنهم لم يقتلوا عشوائياً. قتلوا فقط بعثيين ومتعاونين مع النظام. وبينما كان الأكراد يسيطرون على كركوك منع بعض العراقيين من دخول المدينة. قيل لهم إن هذه هي كردستان. كان الأمر كما لو أنك تحتاج إلى تأشيرة «فيزا» للدخول إلى بلدك بالذات».

يمتلك حبيب حساً بالمزاح. لقد جعل يروي ماذا حدث عندما زار صدّام حسين النجف وكربلاء بعدما تم له سحق الانتفاضة. انتزع الرئيس مسدسه وأفرغ رصاصاته في الهواء، وذلك بحسب تقاليد النصر عند العرب. «في اليوم التالي سمعنا عبر راديو مونتي كارلو ان هذا الأمر اعتبر بمثابة خرق لاتفاقية وقف إطلاق النار، وغُرّم صدّام بمبلغ ألف دولار أضيف إلى فاتورة التعويضات».

على أية حال لم يكن حبيب سنياً عربياً بل يهودياً بغدادياً. ولد ونشأ في عراق صدّام حسين، وغالباً ما يخطىء الناس فيه فيحسبونه بعثياً «بسبب شاربيّ ولأني داكن الاسمرار. ولهذا السبب طلب مني عدة مرات الانضمام إلى حزب البعث. كنت

مكتبة الفكر الجديد

انضممت بالفعل عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، لكنني طردت لأنهم خافوا أن يرتفع شأني في الحزب فأنقل من موقعي ذاك معلومات لإسرائيل». كلما كان يحضر وفد غربيّ إلى بغداد، كان يطلب زيارة **كنيس حبيب**.

«في أحد الأيام كان فريق أميركي يصوّرنا، وهو مثار، داخل الكنيس، كما لو كنا بقايا يهودية مفقودة من أيام بابل القديمة، راح المصوّر يركّز على كتاب التوراة خاصتي، مصوّراً إيّاه وأنا معه من كل الزوايا. كنت أجهد فاعلاً كل ما بوسعي للظهور جدّياً وورعاً، مركزاً نظري بانكباب على الصفحة أمامي كما لو أنها أهم شيء في الكون. كان من الصعب جداً عدم تحريك وجهي. في مرحلة ما اضطررت أن أستدير لأسأل رجلاً يهودياً عجوزاً كان قربي إن كنت أفتح الصفحة الصحيحة. نظر إلى توراتي ثم نظر إليّ وقال: «أنت تحمل التوراة رأساً على عقب». بصراحة أعترف أني لا أجيد قراءة العبرية».

اليهود ليسوا فقط إحدى أقدم الأقليات في العراق، بل انهم تحوّلوا كذلك إلى إحدى أصغرها. بضع مئات من الأشخاص فقط. إنهم أكثر الناس معرفة بماذا يعني العيش تحت تهديد الاضطهاد. عندما وصل حزب البعث إلى السلطة عام ١٩٦٨ سعى إلى دعم شرعيته عبر إثارة حملة معادية لليهود - بما في ذلك شنقهم علناً - وهذه كانت الضربة الأولى على وتر حملة عامة وشاملة من الرعب أصابت في النهاية كل فرد عراقي. لقد ثارت ردة فعل مزعجة بين بعض العرب على كتابي «جمهورية الخوف» وكان أصحابها يقولون: «لماذا أفسحت كل هذه المساحة لمأزق حفنة من اليهود في العام ١٩٦٨؟ أولم تصب المعاناة كل العراقيين؟». لكن، في الحقيقة، بدأ اضطهاد سلطة حزب البعث لكل فرد من العراقيين منطلقاً من الأضعف بينهم. وهذا يتحدث **حبيب** بلسان مخاوف الأقليات في العراق وبأفضل طريقة ممكنة، لأنه يتحدث انطلاقاً من عمق تجربة مغروسة في داخله عن معنى أن يكون المرء مضطهداً من قبل حضارة الأكثرية الساحقة. وهو يتحدث بشكل خاص عن المخاوف الجديدة للمجموعة الأكثر امتيازاً تاريخياً في العراق، وحكم السنّة العرب في بغداد.

وجه الانتفاضة الآخر

غالباً ما تنتشر إشاعات عن مشاهدة غرباء خلال كل انتفاضة. **حميد**، أستاذ المدرسة الذي ورد اسمه سابقاً، كان شاهداً على عملية الاستيلاء على «صحن» مقام عليّ في النجف. نهار الأحد ٢ آذار/ مارس سمع أشخاصاً يهمسون لبعضهم البعض بأن «عدداً كبيراً من القوات كان يتدفق من إيران». ثم رأى ما يقارب الخمسة عشر أو العشرين

مكتبة الفكر الجديد

رجلاً ممن يدعون أنفسهم «مجاهدين»، يخرجون من الجامع الرئيسي وهم يهتفون «الله أكبر»، وكانوا يحملون أسلحة خفيفة. كانوا ينشدون «لا شرقية، لا غربية، جمهورية إسلامية»، وهو شعار مرتبط بالثورة الإسلامية الإيرانية.

«كانوا يهتفون أيضاً، «الإسلام ديننا، والحكيم قائدنا»[٢٦]. لم أستطع التعرّف على واحد كان بينهم. بدا وجهه لي غير مألوف. كان مرخياً لحية إسلامية ولافّاً رأسه بعصبة خضراء. قال بعض الأشخاص إن هؤلاء الرجال أجهزوا على رجال المخابرات داخل المسجد. اجتمع الناس عند المسجد ليستمعوا إلى التوجيهات عبر المكبّرات. كانوا يوزّعون المأكولات ويطلبون الأدوية. انتشرت شائعة تقول إنه جرى تسميم الطعام. أحد الصيادلة الأثرياء، والذي فرّ لاحقاً إلى السعودية، شرّع أبواب مخزنه للجميع. كانوا يطلبون رجالاً يحسنون قيادة الدبابات أو تشغيل صواريخ ستريلاً. مكبرات الصوت في المسجد حذّرت الناس من أنواع معيّنة من السيارات، ومن الأشخاص الذين قد يكونون من المخابرات. وللتعريف بأنفسنا عند حواجز المراقبة على الطرقات كنا نضع صورة للإمام علي أو لآية الله الخوئي فوق لوحة أجهزة القيادة (التابلوه)، أو نضع علماً أخضر اللون معلقاً على هوائيّ السيارة. كانت الإشاعات منتشرة في كل مكان، بأننا سوف نتحد والأكراد في بغداد، وبأن المعارضة العراقية كانت ستلتقي **دان كوايل**»[٢٧].

رواية **حميد** لما جرى تُدخل عناصر جديدة تتعارض مع جزمه شخصياً بأن «هذه لم تكن انتفاضة دينية». النظام وعدد كبير من المنتمين إلى الشرائح العليا في الطبقة السنّية الوسطى لديهم اعتقاد راسخ بأن كل الذي جرى كان من فعل «دخلاء». والتفسير الآخر للانتفاضة، الذي يتناغم مع مسألة وجود غرباء في مدينة النجف، يعتبر أنها لم تكن حركة عفوية إنما معدّة ومخطط لها من قبل. كان هذا هو رأي قائد رفيع المستوى في الجبهة الكردستانية، قاد أولى هجمات الـ «بشمرغا» المنظمة على مواقع الجيش العراقي، ولعب دوراً أساسياً داخل شمال العراق إبان الانتفاضة.

«نحن صنعنا الأخبار داخل العراق. ربما كانت الانتفاضة حدثاً عفوياً في بعض الأماكن، لكنها داخل المنطقة الكردية كانت منظّمة ومعدّة من قبل الجبهة الكردستانية. أشعلنا نار الانتفاضة، التي بدأت في قرية رانيّة قرب الحدود العراقية الإيرانية والمنشآت السكنية الموصولة بها. لم يكن ثمة ما هو عفوي فيها. تماماً بعد الغزو العراقي للكويت، جرت، خلال عدة اجتماعات، مناقشة سيناريوهات مختلفة لاحتمالات ما سيحدث، وقد حدث ذلك داخل قيادة الجبهة الكردستانية

مكتبة الفكر الجديد

كلها وقيادة المجلس الإسلامي الأعلى. كنا توصلنا إلى شكل من التناسق بين الحركة الكردية والمعارضة الشيعية في العراق، وتوافقنا على عدد من المبادىء من بينها التنسيق السياسي والعسكري. وعد إخواننا الشيعة بعدم إعلان رغبتهم في إنشاء جمهورية إسلامية في العراق، لأن هذا ينعكس على الفور عدائية على المستويين الإقليمي والعالمي ضد الانتفاضة».

ـ كنعان مكيّة: لكن ظهرت إبان الانتفاضة شعارات تدعو إلى قيام جمهورية إسلامية؟

ـ أجل، وكان هذا أحد الأسباب الرئيسية في هزيمتها. لو لم تتعرض تلك الوعود للهزيمة، ولو لم تنتشر الشعارات التي ذكرت، لما كانت الانتفاضة أدركت النهاية المأساوية التي حلّت بها.

أدرك انه ليس من مصلحة الشعب العراقي، ولا من مصلحة المعارضة العراقية القول إن هذه الانتفاضة جرت بالتناسق بين الحركة الكردية والمجلس الإسلامي الأعلي طوال عدد من الأشهر وخلال العديد من اللقاءات التي جرى الإعداد لها مسبقاً. ولكن هذه اللقاءات جرت بشكل مستمر عبر لجنة تنسيق كان مركزها في بختران. كانت ثمة لقاءات تعقد كذلك في طهران، وكانت بيننا لجان فرعية عسكرية وسياسية ولجنة للعلاقات العامة. الإيرانيون كانوا شهوداً على كل هذا. كانوا يسجّلون الجلسات على أشرطة كما يسجّلون الملاحظات أثناء اللقاءات، ويجب أن تتذكر أن اللجنة العليا للثورة الإسلامية في العراق تملك قوة ضخمة اسمها لواء بدر قوامها ما يقارب العشرة آلاف رجل. الحركة الكردية لديها أيضاً قوات مسلّحة. كانت هذه القوات جميعها موزّعة بحسب ترتيبات متفق عليها في شمال البلاد وجنوبها.

ـ كنعان مكيّة: لكن أهي صحيحة قصة آمر الدبابة في ساحة سعد؟

ـ أجل إنها صحيحة.

ـ كنعان مكيّة: ما اسمه؟

ـ لسوء الحظ، لا أعرف[٢٨].

ليس لدي أي مبرّر للشك في صحّة مسألة حصول لقاءات من النوع الذي ذكره القائد الكردي، وحضرها ممثلون رسميون عن الحكومة الإيرانية. فيبدو أن الإيرانيين كانوا قد ضغطوا على الجبهة الكردستانية وأجبروها على الحضور، وكانت لقاءات طهران تجري

مكتبة الفكر الجديد

على أرفع مستويات التمثيل السياسي لدى كل من الطرفين، الجبهة والمجلس الإسلامي الأعلى. أما جدوى تلك اللقاءات فهي، في أي حال، مسألة أخرى.

ويرى الأكراد غير المنضوين حزبياً أن الانتفاضة كانت عفوية في الجنوب مثلما كانت في الشمال، وان الأحزاب الكردية دخلت على الخط فقط بعدما بدأ مواطنون أكراد عاديون داخل العراق يمسكون زمام الأمور. عند صبيحة ٣ آذار/ مارس، في منطقة **خبات**، وفي مجمّع سكنيّ بني لإيواء أكراد هجّرتهم الحكومة عنوة خلال الثمانينات، قام، على سبيل المثال، تلامذة مدرسة ثانوية بمجابهة وحدة من قوات الطوارىء كانت تبحث عن جنود فارّين. اندلع القتال وسقط العديد من القتلى، لكن الحادث جرى احتواؤه[٢٩].

نهار ٦ آذار/ مارس صدرت تعليمات وأوامر خاصة إلى مخابرات منطقة **دهوك** من مديرية الأمن المركزية في بغداد، تقضي بقمع التظاهرات الشعبية. والوثيقة التي وقعت في قبضة الثوار أثناء الانتفاضة، كانت تتصدرها البسملة الإسلامية التقليدية «بسم الله الرحمن الرحيم»، وهي تركّز كلياً على «التظاهرات المعادية»، وأيضاً الإجراءات التي ينبغي تنفيذها، «بغلق كافة المنافذ والطرق»، وتجري «السيطرة على المناطق المرتفعة التي تشرف عليها». أمّا البند الرابع فهو الأشد حسماً: «بعد اتخاذ الإجراءات أعلاه وحصر العناصر المعادية، يتم استخدام القوة المسلحة وحسب التوجيهات المركزية بقتل ٩٥ بالمئة منهم وإبقاء الآخرين لغرض التحقيق»[٣٠].

سروار، عامل كهربائي، شهد سقوط **دهوك** على الرغم من كل هذه التعليمات الاستثنائية. «كان التركيز على مكاتب الأجهزة الأمنية، وهذه قاومت بضراوة حتى السادسة والنصف من صباح يوم ١٧ آذار/ مارس ١٩٩١. كان الحاكم هناك في الداخل يقدم التعليمات ويشجّع رجاله على الاستمرار في القتال. كان يقول لهم، «لا تخافوا.. هؤلاء ليسوا من **البشمرغا**». كان محقاً. فالمئة والخمسون شخصاً، أو ما يقارب هذا العدد، الذين يهاجمون المبنى، كانوا من الناس العاديين ومن المرشدين الأكراد. حين غادرت منزلي رأيت بالفعل بعض المرشدين يرتدون زيّ **البشمرغا** على الرغم من أنهم لم يكونوا في الواقع من البشمرغا». في اليوم التالي، كما يروي **سروار**، وصلت فرقة من ستّين مقاتلاً من **البشمرغا** إلى **دهوك**، بعدما كانت البلدة تحرّرت كلياً بواسطة سكّانها وأولئك الذين كان يطلق عليهم سابقاً اسم **المستشارين**»[٣١].

و**المستشارون** أكراد نافذون، وهم في الأغلب رؤساء قبائل يحصلون على مبالغ طائلة من بغداد مقابل تهدئة الأكراد وتنظيمهم داخل وحدات عسكرية يرأسونها وترتبط

مكتبة الفكر الجديد

بالجيش العراقي. وهؤلاء المستشارون المعروفون محلياً **بالجحوش** (وهي جمع عامي لكلمة **جحش**). يقومون بقيادة كل الوحدات الكردية التي تتفاوت أعدادها بين بضع مئات وبضعة آلاف من الرجال. في أواخر الثمانينات كان هناك ما بين الـ ٣٠٠ و٣٥٠ وحدة من هذا النوع، مؤلفة ما يزيد في مجموعه عن ربع مليون من الجنود الأكراد غير النظاميين. ولم تتدخّل منظمات الجبهة الكردية في الشمال إلاّ بعد ارتداد عدة مئات من هؤلاء المستشارين المزعومين. والإنشقاق عن الدولة الذي حصل في وقت واحد، من قبل الجحوش الأكراد ضباطاً ومستشارين والرجال التابعين لإمرتهم، جاء متوازياً مع ما كان يحدث في الجنوب. ويبدو أن الردّات أو التخلي شرعت تظهر بعد عدة أيام من اندلاع الانتفاضة في البصرة، على الرغم من أن قاعدة خاصة بهم كانت وضعت في وقت سابق، بشكل قرار مشترك اتخذته كل المنظمات الكردية السياسية. وبدوره كان هذا القرار يمنح العفو العام لكل المتعاونين مع حزب البعث، وهو ما جرى إبلاغه إلى «المستشارين» عبر اتصالات سرّية ورسائل إذاعية لاسلكية عبر العراق في شتاء ١٩٩٠. والردّة التي نشأت نتيجة لذلك وفّرت لحزبين كرديين رئيسيين ـ الحزب الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني لكردستان ـ الحافز للتصرف عسكرياً.

نهار ٦ آذار/ مارس أصبحت قرية **رانيّة** القريبة من الحدود الإيرانية، الموقع الذي دخلت منه قوات **البشمرغا** الكردية، والتي انتشرت بعدئذ في المناطق الأخرى. وبالتناسق مع الخلايا المسلّحة والوحدات التي كانت وضعت سابقاً في القرى والمدن، هاجمت قوّات الجبهة على الفور مراكز مخابرات حزب البعث. قرى مثل **دهوك والعمادية وزاخو وعقرة** كان حررها ضباط من **«الجحوش»** من دون أية مساعدة من **بشمرغا** الجبهة الكردستانية. ولم تأت المقاومة الأشرس لتقدّم قوّات المتمردين المتدفقة من إيران من الجيش العراقي، بل من مجاهدي الشعب، وهم جماعة دينية إسلامية إيرانية مناهضة للخميني وتتمركز في العراق بقيادة **مسعود رجوي**[٣٢]، مستخدمة دبّابات ومدفعية كانت زوّدتها بها الحكومة العراقية. فقد استطاعت قوّات **رجوي** أن توقف التقدم الكردي باتجاه **السليمانية** طوال يومين، لكن مع تحرير **كركوك** في ٢٠ آذار/ مارس، بات معظم شمال العراق تحت السيطرة الكردية لأول مرة في تاريخ العراق.

إن عفوية الانتفاضة في الشمال هي مسألة بحث وتقصٍ بقدر ما هي حقيقة واقعة. في مطلق الأحوال فالدليل ساطع على أن منابع الانتفاضة كحدث شامل بدأت في الجيش العراقي وأطلق شرارتها الأولى ضابط رفيع الشأن، فاجأ نفسه هو بالذات ربما، حينما قفز على رأس الدبّابة وشجب النظام. المؤكّد أنه فاجأ المعارضة العراقية المتمركزة في إيران ـ الشيعية والكردية ـ وأخذها على حين غرّة. فالمثال الذي قدّمه هذا الضابط

مكتبة الفكر الجديد

انتشر كالنار في الهشيم، لكن النار هذه اشتعلت في شمال البلاد بشكل مخالف كلياً عما كانته في الجنوب.

فدعم الانتفاضة حتى بين الأكراد لم يكن بالصلابة التي ادّعاها الكثيرون في المعارضة العراقية منذ ذلك الحين. فعلى سبيل المثال، لم ينفصل عن السلطة جميع القادة الأكراد من (الجحوش). وأحد الملاّكين الأثرياء، وهو أيضاً رئيس قبيلة ولديه ارتباطات تجارية وصفقات في كل أنحاء العراق، حارب بمعيّة النظام ضد أقاربه بالذات طوال الانتفاضة، إلاّ أنه بدّل موقفه بعد أن انتهى كل شيء. لقد كان بحسب وصفه لنفسه: «صديقاً حميماً لعائلة صدّام» وكانت لديه علاقات وثيقة مع أعضاء بارزين في قيادة حزب البعث طوال سنوات عدة. هذه العلاقات بدأت في وقت ما من أواسط الثمانينات عندما، «توجهت أنا ومجموعة من الأشخاص لتُمنح ميداليات الشجاعة تلك. كنا حوالى العشرين شخصاً. توجهنا ودخلنا القصر الرئاسي وعندما أطلّ صدّام لم يصفّق له أي منّا. كنّا رؤساء قبائل وخجلنا من أن نصفّق مثل الأطفال». غير أن شيئاً ما حدث، لأنه حين توجه ثانية هو ورؤساء قبائل آخرون للقيام بزيارتهم الثانية، «اتفقنا على التصفيق لصدّام لأننا أدركنا أنه يحب هذا النوع من الاحتفاء». وهذه التبريرات الصريحة واللافتة التي قدّمها هذا «الجحش» القائد لتفسير تصرّفه إبان الانتفاضة يمكن، مع تعديلات مناسبة، أن تطبّق على كل أولئك العراقيين الذين استفادوا مادياً خلال فترة الثمانينات:

«أجل، لقد آزرتهم عام ١٩٧٥ عندما قمعوا الأكراد. عام ١٩٨٨ عندما استُخدمتْ الأسلحة الكيميائية ضد الأكراد ناصرتهم أيضاً. في ١٩٩١ عندما أجبروا الأكراد على الهرب إلى الجبال حيث قتل منهم الآلاف، ناصرت البعثيين كذلك. كيف استطعت أن أفعل كل هذا؟ الأمر لا يتعدى انني لم أكن أثق بقوى المعارضة في ذلك الوقت. أنا والمستشارون الآخرون كنا نشأنا في المدن والعواصم. إننا معتادون على نمط عيش معين. لدينا أراض وأقرباء. إني أمتلك حوالى السبعة آلاف دونم من الأراضي وراء الجبال **هناك**. صادرها كلها صدّام، وبدل ذلك اشترى ولائي بمبلغ مئة ألف دينار تدفع كل شهر. بعض أقربائي تعرّض للاضطهاد... أعرف ذلك. ولكن كما قلت من قبل، لم نكن نثق بقوى المعارضة خلال فترة الانتفاضة.

رأينا ان المسألة الكردية مرتبطة بالإيرانيين. ولكن كلما كان الإيرانيون يقدّمون شيئاً للعراقيين، كانوا يخذلون الأكراد. لو ان أميركا أو بريطانيا أو فرنسا تبنت

مكتبة الفكر الجديد

القضية الكردية، كنا انضممنا إلى الثورة الكردية. ولكن كما يجب أن أكرر مجدداً، لم نكن نثق بقوى المعارضة. لهذا بقينا على ولائنا للنظام.

أجبرت على العودة مع الجيش لاسترداد بلدتي. وحين أتينا، وجدنا ان أقرباءنا كانوا يحاربون ضدّنا وقد سدّوا طريق الدخول في وجوهنا. قبل ثلاثة أيام من نجاحنا في استرداد البلدة، تقدمنا نحو بلدة مجاورة. استولينا عليها وألقينا القبض على ثلاثة مسلّحين من **البشمرغا**. وحين هبط الليل أطلقت سراحهم طالباً منهم أن يذهبوا ويخبروا الناس عمّا رأوه بأعينهم. ليخبروهم أن الجيش سوف يأتي ثانية.

حتى عندما أصبت، كنت مسروراً لكون الأكراد يقاومون. أردتهم أن يستمروا في الدفاع عن البلدة. أخي وابن عمي وأقرباء آخرون كانوا يقاتلون في الجبال المحيطة. أصابوني بجراح... لكني كنت مسروراً. ورغم اني كنت مصاباً، رفضت الذهاب إلى المستشفى. السبب الذي دعاني للبقاء مع الجيش هو رغبتي في الحؤول دون أذية الناس أو إلحاق الدمار بالبلدة. بعد ذلك توجهنا إلى البلدة التالية التي وجدناها مهجورة. أدركت آنئذ ان الأكراد أصبحوا عقلاء يعون مصلحتهم، وأنهم سوف يحققون في وقت قريب أهدافهم.

السؤال المطروح الآن، هو، ما الذي سيحدث عندما يغادر الحلفاء. منذ عشرة أيام [أيار/ مايو ١٩٩١] استدعاني عِزّت الدوري مع وجهاء آخرين لم ينضموا إلى الانتفاضة. كان قد جهّز لكل منا حقيبة مليئة بالمال. قال لنا: «إنكم قلقون... تشعرون بالخوف لأننا على وشك القيام بتسوية مع الأكراد». أجبنا بأننا لسنا خائفين لأن كل أقاربنا وكل مقتنياتنا أصبحوا في الجبال. كنا متروكين وحدنا. قال إنهم قد يهبونا مقاطعة **دهوك**. قلنا: حتى أولادنا ما عادوا يوافقوننا هذه الأيام. أجاب: «حسناً، تعلمون ان لديكم نفوذاً، وفي مقدورنا تعيينكم ممثلين عن الحكومة في **دهوك**». قلت، «إن جميع الأكراد لن يوافقوا الآن على تعييننا ممثلين لهم». قال الدوري عندئذ: «إننا نسالم الأكراد أحياناً، وأحياناً نحاربهم. الآن وقت المفاوضات. ولكن حين ينتهي هذا وينسحب الأميركيون، ستكون ثلاثة أيام كافية لمعالجة المشكلة الكردية.

كان يعني بكلمة «معالجة» شن الحرب على الأكراد. الفرق هذه المرّة أن الجيش لن يضطر إلى القيام بهجوم واسع. سوف يستخدم صدّام وسائل أخرى. لن يزعجه البتة أن يعمل على اغتيالي، ثم التوجه إلى الأكراد واتهامهم بالقيام بهذه

مكتبة الفكر الجديد

الفعلة، طالباً الانتقام لدمي المغدور. إنه يراهن على مسألة الوقت. لذلك سوف يحتفظ بنا إلى أن يوقع اتفاقية مع المعارضة. بعدئذ سوف يسلّمنا إليهم. ويحرّض أكراداً آخرين على القيام بقتلنا.

أظن أن الوقت بات مناسباً لتبديل المواقع. لقد ربطت الآن مصيري بمصير شعبي. إننا نثق بوقوف أميركا إلى جانبنا، لحمايتنا. صحيح أن الأميركيين باعوا الأكراد في ١٩٧٥، لكن الوضع بات مختلفاً، لأن مصداقية الولايات المتحدة هي الآن على المحك. سواء تعلق الأمر بأسباب إنسانية، أو بكون الأكراد محظوظين، فإن أميركا في الحالين وقعت في الفخ. إنها تواجه وضعاً قائماً بمطلق الأحوال طالما المسألة الكردية قائمة. لست أظن أن عالماً متحضراً مثل الغرب وأميركا، وهو المدافع عن حقوق الإنسان في كل أنحاء العالم، يمكن أن يقدم الأمل للأكراد،ثم يتخلى عنهم ليواجهوا عدواً مثل صدّام. لولا غلطة صدام المميتة في غزو الكويت، لكان استمر العرب في كرههم الأكراد، ولكانت المسألة الكردية بقيت مجهولة في العالم»[٣٣].

من البهجة إلى المسخرة

إن كانت الثورة نوعاً من المسرح، كان الحدث الأكثر مسرحية والأعمق رمزية خلال أيام الانتفاضة الأوائل، والذي مُثّل في كل مدينة وقرية في جنوب البلاد وشمالها، هو تمزيق وتحطيم صور صدّام حسين. هناء (وهو اسم مستعار)، مهندسة وأم لطفلين، وصفت المشهد كما جرى في السليمانية:

«حين سمعنا ان المعركة داخل مبنى قيادة المخابرات المركزية قد انتهت، خرج الجميع إلى الشوارع. أقبل ما يقارب الخمسة أولاد تتراوح أعمارهم بين الخمس سنوات والسبع راكضين باتجاه مجموعة من الرجال والنساء كانوا يقفون أمام صورة خشبية لصدّام حسين ملصقة على بلاطة اسمنتية. راح الأولاد يرجمونها بالحجارة، ثم انقضّوا عليها بالسكاكين وبأدوات أخرى. كان الأشخاص الأكبر سناً يشاهدون بهدوء. لا أخفيك الحقيقة، كنّا خائفين. ثم جمع الأولاد القطع الخشبية الصغيرة. كانت امرأة كردية عابرة تحمل وعاءً مليئاً بالوقود، اقتربت وصبّت الوقود على كدسة الأخشاب وأضرمت فيها النار. التهبت النار في وجه صدّام، وبدأ الجميع يصفّق. تجمّع الناس حول الأولاد والمرأة ليروا النار تلتهب ملتهمة فعلياً صورة صدّام.

مكتبة الفكر الجديد

بعدما احترقت كلياً، توجه الناس نحو أحد الشعارات المعلّقة في الشارع. ولمّا كان مرتفعاً جداً، قذفوه بالحجارة، لكنه لم يسقط. عندها توجهوا نحو مركز مدينة **السليمانية**، حيث كانت هناك صور أخرى لصدّام. لم أرافقهم، لكننا في اليوم التالي ذهبنا سيراً على الأقدام وشاهدنا الصور محروقة، ملطخة بالدماء، في كل أرجاء المكان، حقاً كانت هذه لحظات مؤثرة جداً. لقد كسروا حاجز الخوف»(٣٤).

بخلاف ما جرى في جنوب العراق، اتخذت سريعاً تدابير لإعادة النظام والانضباط وفرضهما في المدن والقرى العراقية التي سقطت في أيدي الجبهة الكردستانية. وفي خطوة سياسية شديدة الأهمية، أعلنت الجبهة في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٠ عفواً عاماً عن كل المتعاونين مع نظام صدّام (وكان يشمل بالطبع **الجحوش**). ومنذ أن أذيع العفو للمرة الأولى عبر الراديو، جرى التقيد به بشكل صارم واستمر ذلك إلى هذا اليوم بالذات. لقد أعاد العفو الطمأنينة إلى نفوس معظم «**الجحوش**»، وقدم صورة واضحة وموحّدة الهدف لردة الفعل أو الجواب الكردي. ففي خطاب مثير ألقي في اجتماع حاشد في بلدة كوي سنجاك في أوج الانتفاضة الكردية، استطاع **مسعود البرزاني**، ابن القائد الوطني الأسطوري الملاّ **مصطفى البرزاني**، وقائد الحزب الديمقراطي الكردستاني، اختصار حال الفرح بين الأكراد بالكلمات التالية:

«إن ثانية واحدة من هذا النهار تساوي كل ثروات العالم. مضى واحد وسبعون عاماً على نشوء الدولة العراقية... فقدنا الشهيد تلو الآخر، وأحرقت القرى الواحدة تلو الأخرى، وكل ذلك من أجل تحرير الأكراد وكردستان. لكن، لأننا كنا نفتقد الوحدة، لم نتمكن طوال واحد وسبعين عاماً من تحقيق آمالنا. إننا اليوم متحدون. خلال أسبوع واحد حررنا هذه الأرض من **زاخو** حتى **خانقين**. استولت قوات **البشمرغا** والشعب على القواعد العسكرية بسهولة كما لو أنهم كانوا خارجين في نزهة»(٣٥).

غير أنه لا ينبغي المبالغة في درجة السيطرة التي استطاعت المنظمات الكردية أن تفرضها على الوضع. في قرية **رانيّة** جرّ حشد من الناس بالقوة رجالاً من الشرطة ومسؤولين بعثيين كانوا محتجزين داخل مسجد المدينة، إلى سطح فندق محليّ. هناك قُرئت أسماؤهم بصوت مرتفع. كان الرجال الذين أمسكوا بالبعثيين يهتفون إلى الحشد في الأسفل سائلينه: «هل نرميهم أم لا؟». أصدر الحشد الكبير الملتئم في الأسفل حكمه، ودفعوا بالواحد تلو الآخر من على سطح طوابق البناء الثلاثة. حشد غاضب بينه فتيات

مكتبة الفكر الجديد

شابات، انقض على الجثث المحطمة ومزّق بالسكاكين ما كان تبقى منها. حاول رجل عجوز روّعه المشهد إيقافهم، استدارت نحوه امرأة بعينيها الملتهبتين وقالت: «إنهم يستحقّون أكثر من هذا»، فتراجع الرجل العجوز. وفي نهاية الأمر تدخل رجال البشمرغا ليردّوا الناس عن الجثث المسحوقة[٣٦].

رسالة غير عادية، كتبها شاب سنّي من بغداد إلى شقيقه **عمر** (اسم مستعار) يصف فيها المشهد الذي لا يمكن نسيانه في مبنى الأمن المركزي في **السليمانية**، في ٨ آذار/ مارس ١٩٩١. ولأن الرسالة كتبت بعد وقت قصير من حدوث الفظاعات التي تسردها، فإن كاتبها يثير انطباعاً بأنه لا يزال في حال الصدمة:

«أخي الحبيب عمر... ٢٤ نيسان/ ابريل

... لا أعرف كيف أبدأ بسرد الأحداث المؤلمة التي مرت بنا والنكبات التي حلت بشعبنا الطيب بعربه وأكراده. لقد كانت محناً حقيقية ولا بالأفلام ولا بالقصص توجد. الموت، الموت، الموت في كل مكان. أمامك لا ترى غير الدمار والانتقام والموت والحقد.

سافرت مع عائلتي إلى السليمانية... وبعد أيام من مكوثنا في السليمانية تطورت الأوضاع سريعاً وبسرعة مذهلة. فقد كان الوضع الأمني في السليمانية جيداً ورجال صدام مسيطرين ولا أحد يتوقع ما حدث أبداً. في ليلة ٦/٧ آذار تم توجيه نداء إلى الشعب الكردي من خلال إذاعة (الاتحاد الوطني لكردستان) للقيام بمظاهرات شعبية. وفي صباح ٨ آذار خرج الشعب في السليمانية وهجم على مقرات الأمن والمخابرات والشرطة. وتم الاستيلاء على الأسلحة الموجودة في هذه الأماكن. لم يكن في السليمانية كلها غير ٢٠٠ مقاتل من البيشمرغا والباقي من جميع فئات الشعب. لقد كانت ثورة شعبية حقيقية!.

تم تمزيق أجساد الأمن والمخابرات والرفاق الحزبيين والانتقام للمجازر الصدامية مثل حلبجة وغيرها. ولقد كان بكاء الجبناء يسمع في السماء ولكن لا رحمة أبداً للحقراء الشاذين. إنها ملحمة رائعة سوف لن ينساها إنسان أبداً.

المعركة الحقيقية كانت عند دائرة الأمن في السليمانية، فقد قاومت هذه الدائرة ٤٨ ساعة وكانت محصنة جيداً مثل القلعة وجميع المسؤولين الكبار التجأوا إلى هذه القلعة لحماية أنفسهم من غضب الجماهير. وفي النهاية سقط الحصن المنيع ودخلت الناس لكي تحطم وتقتل كل شيء أمامها. وكانت غرف التعذيب التي

مكتبة الفكر الجديد

لم أرى في حياتي وأسمع مثلها وآلات القمع والإرهاب. وكنا نمشي فوق الجثث حيث قتل واحترق ٧٠٠ شخص من الأمن والمسؤولين في هذه الدائرة والأحياء منهم تمت محاكمتهم وإعدامهم من قبل الشعب بالمناشير الحديدية والسكاكين وهم يصرخون ويبكون»[٣٧].

لم تكن لدى أي من منظمات الجنوب لا المصداقية ولا النضج لتأمين حتى المستوى الأدنى من القيادة السياسية الموجودة بين الأكراد. حكمت الفوضى الأرض. دخل البلاد خلال اليوم الثاني أو الثالث من الانتفاضة عبر **الأهوار** المحيطة بالبصرة، ما بين الخمسة آلاف والعشرة آلاف مسلّح شيعي كانوا منظمين في مجموعات صغيرة ومتطوّعين ممن طردهم نظام البعث خلال أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات. كانوا وحدات من **لواء بدر** الذي أنشأه المجلس الإسلامي الأعلى الذي يرأسه السيد **محمد باقر الحكيم** (لواء بدر) سمي كذلك تيمناً بمعركة الإسلام الأولى. ويبدو أن أول ما قام به أولئك الشبان الغاضبون المتدفقون من إيران كان اقتحام فندق **شيراتون** وإحراق بارات مدينة البصرة وكازينوهاتها. ثم بعدئذ أعلنوا قيام جمهورية إسلامية شيعية في المدينة[٣٨]. قاموا بإعدام أفراد الجيش المستسلمين والمحتجزين، وأحياناً بعد «محاكمات» كان يشرف عليها رجال دين، وكانت تلك الأحكام تطبّق على أناس يعتبرهم المتمردون «أعداء الله» و(نظرية «أعداء الله» على الرغم من كونها نظرية قديمة، جرى إحياؤها إبان الثورة الإيرانية وشاع استخدامها في السجال السياسي في عموم الشرق الأوسط، وفي طريقة استعمالها الحديث تبدو موازية في المعنى للقول البعثي «خائن الأمة العربية»). شعارات مثل «أقتلوا خونة الإسلام!» و«الموت لصدّام الكافر!»، كانت تُهتف في الشوارع، أو تكتب على الجدران في مدن جنوب العراق.

أفكار الكفر والخيانة وعدو الداخل، كانت شائعة جداً إبان الانتفاضة. أُعتُبِرَ النظام البعثي برمته كافراً، وأصبحوا كفّاراً كل أولئك الذين تابعوا القيام بوظائفهم السابقة ولأي سبب كان، أو الذين لم يعلنوا توبتهم، أو بكل بساطة من لم يصدّق المنتفضون انهم عادوا إلى «الصراط المستقيم» حتى لو أعلنوا توبتهم. «هذا ما حدث مع **فلاح عسكر**». فالكفر في الشريعة الإسلامية إثم أسوأ بكثير من مفهوم الهرطقة في المسيحية، لأن الإسلام حسب بعض التفاسير يعتبر نفسه مجتمعاً سياسياً، وليس فقط مجرد مجتمع ديني، ويتبع ذلك ان الكفر يعتبر شكلاً من الخيانة لركن أساسي من هوية المجتمع بأكمله، وجزاء هذا، الموت[٣٩].

هذا العنف الذي بُرر باسم الإسلام، وكان باعثه في أغلب الأحيان رغبة في الانتقام،

مكتبة الفكر الجديد

وضع بشكل سريع حداً لحياة الانتفاضة، ووضع حداً كذلك لتدفق المرتدين من الجيش. وهو يفسّر كيف استطاع النظام إعادة تجميع قواته المشتتة والقيام بهجوم مضاد. فقد رأينا كيف جرت في النجف محاولات لكبح الفوضى بالتقوى، وذلك بواسطة وجهاء مقيمين وعلماء كانوا يتصرفون من خلال هيبة السيد آية الله الخوئي ومقامه. لكن في البصرة وكربلاء وجد من العراقيين من بين القياديين، من سبق لهم أن أقاموا في طهران. وهاتان المدينتان بالذات كانتا أيضاً مسرحاً لأبشع تجاوزات المنتفضين. فبحسب ما قالته أم حسين، وهي ربة منزل شيعية تقليدية محجبة من البصرة، كان المخطط الذي ينفّذ في كل أبنية الحكومة هو نفسه: أقتلوا أيّ رسمي يقع بين أيديكم، انهبوا كل ما في الداخل، صبوا بعض الكيروسين حول المبنى، أشعِلوا ولاّعة، واهربوا من المكان بسرعة. «لم تكن هناك أية محاكم. مجرد عصابات جوّالة. على سبيل المثال لديَّ قريب كان عضواً في الحزب جاؤوا يبحثون عنه في منزل عائلته، وكانوا يقولون: «أخرجوا لنا هذا الكذا والكذا، نريد أن نقتله»، أخرج بعض الأشخاص وقتلوا. لكن قريبي قفز من المنزل إلى المنزل المجاور ثم قطع الشارع وتمكن من الفرار. إلاّ أن رجلين اثنين من أقربائي قتلا بهذه الطريقة في الناصرية. كانوا يقتلون كل الضباط». غير أن ما أثار حفيظة أم حسين أكثر من أي شيء آخر هو وجهة نظر الحكومة في المسألة. «إن ما تقوله الحكومة تجديف في الإسلام، لأن أولئك الذين جاؤوا من الخارج كانوا أشخاصاً سيئين، دمّروا وأحرقوا وهدموا، قتلوا وهربوا. أهكذا هو الإسلام؟»[٤٠].

لقد ربط أعضاء شرطة الأمن ورجال وحدة مكافحة الجرائم في البصرة عصبات خضراء حول رؤوسهم وانضموا إلى الانتفاضة. ورأى شقيق أم حسين بالصدفة اثنين من هؤلاء وهما يلعبان النرد خلف حائط حديقته. فلما سألهما عمّا كان يجري، أجاب أحدهما «إنها الجمهورية الإسلامية - إنها الحريّة». تذكرت أم حسين بعد ذلك قصّة قنّاص كان جاثماً فوق سطح بناء قريب، أمضى أسبوعاً بأكمله يطلق النار على كل شيء كان يتحرك ضمن مجال ناره، وكانت هي أحد أهدافه.

«كنت جالسة في الحديقة، بعد وقت قليل من انتهاء الحرب. انحنيت لأتناول هذا الكوب المعدني من على الطاولة. كنت أمسكه بهذا الشكل بين يدي. أزّت الرصاصة من فوق كتفي. كانت مصوّبة إليّ. لم أر أحداً ولم أسمع صوت انطلاق الرصاصة ولا أي شيء. في البداية لم أعرف حتى إن كانت رصاصة. كان الأولاد يلعبون في الشارع ثم أقبلوا نحوي راكضين. سألتهم: «ما الذي قذفتموني به؟». كما ترى، كنت ظننت انهم رموني ببصلة أو بشيء ما أسقط الكوب من يدي. أجابوا: «يا جدتي لماذا تقولين أننا قذفناك ببصلة؟ هذه ليست

مكتبة الفكر الجديد

بصلة، إنها رصاصة». طرحني هذا أرضاً، ثم تساءلت من أين جاءت الرصاصة؟ بحث الأولاد عن الكوب ووجدوه. لقد جلبته معي لأني أردت أن أريه لابني في لندن».

(رفعت الكوب المعدني مع فجوتي دخول وخروج الرصاصة منه لتريني إيّاه كدليل).

«بينما كانت عمليات النهب جارية في البصرة، خرجت شقيقتي في عربة وعادت إلى منزلها جالبة جهازاً مكيّفاً للهواء. سألتها: «من أين أحضرت هذا؟ أجابتني ان الفرهود قائم في كل مكان». استخدمت عبارة **فرهود** بدل النهب والسلب. (كان **حبيب** قد استخدم أيضاً عبارة **فرهود** التي تعني النهب الذي كان حلّ بممتلكات اليهود العراقيين إبان المذبحة عام ١٩٤١). ثم رأيت في الشارع تلك الامرأة التي كانت أعرف وسألتها: «أين صهرك؟» وأجابتني بهدوء تام «أخذوه». قالت فقط «أخذوه»، وتابعت بهدوء قيامها بسلب الغنائم كما لو أن شيئاً لم يحدث! كانت الشرطة، أو الجيش، أو أي قوات حكومية أخرى قد اعتقلت صهرها وكل ما قالته في ذلك الخصوص انهم «أخذوه» وعادت مجدداً إلى متابعة السرقة. هذا هو في الواقع المستوى الذي هبط إليه الناس في العراق»[٤١].

كل الطاقة التي كان يحتاجها المنتفضون لتنظيم أنفسهم تكرّست للسرقة. وصل مستوى النهب إلى درجة لا تدانيها أية مبالغة، وهي تلخص، للأسف، عمق التردي الذي بلغته الأخلاق العامة داخل العراق. وإذا كانت هذه الظاهرة تستأهل فعلاً دراسة سوسيولوجية خاصة بها، فإن نذيرها الرسمي بالطبع كان سياسة الدولة تجاه الكويت. هذا الجزء من المسألة مفهوم على الأقل، غير أن الحافز الشخصي كان له أثره المهم. أخبرتني **فاطمة** انه أقيمت في **السماوة** محطّة سيارات أجرة (تاكسيات) تتجه إلى «المحافظة التاسعة عشرة» المحتلة، ولهدف وحيد هو تحميل الغنائم الكويتية وجلبها. كان الناس يذهبون فارغي الأيدي، ثم يؤخذون في جولة على المتاجر والبيوت الكويتية مقابل عشرة دنانير فقط في الاتجاه الواحد وكانوا يعودون بغنائمهم من التلفزيونات ومسجّلات الفيديو والثياب والشوكولا والحلوى الأخرى. وأصبح الوضع أسوأ إبان الانتفاضة. فقد شوهد رجل ينقل جهازاً لغسل الكلي سرقه من مستشفى **السليمانية**. وشوهد آخر كان يسير فوق طريق إسفلتية وسيّارته محملة حتى سطحها وجنباتها بالأغراض، وكان محزّماً مؤخرتها بفرن منزلي يطلق شرارات بفعل احتكاكه بالطريق فيما السيارة تتقدّم. كانت

مكتبة الفكر الجديد

أسرّة المستشفيات المعدنية المتحركة على دواليب مطلوبة جداً، لأنها تُجرّ على الطرقات وهي محمّلة بالمسروقات، فكانت بذلك أشبه بعربات سوبرماركت عملاقة. «هل تعرف ماذا فعلوا داخل مستشفى عسكري؟»، سألني **سامان**، وهو مهندس مدني من **السليمانية** قبل أن يجيب بنفسه «سرقوا سريراً كان يرقد فيه مريض جعل يصرخ: «أنا مريض! أنا مريض!» لكنهم استمروا بدفع السرير كما لو أن الرجل لم يكن موجوداً. كانوا يريدون السرير، هل ترى؟»[٤٢].

كان الدافع العدمي في قاعدة الشخصية هو نفسه في شمال البلاد وجنوبها. غير أنه انتشر غير مكبوح في الجنوب. فبعض المتنفضين مهّدوا الطريق إذ كانوا يعتقدون حقيقة ان النهب هدف الثورة الأول والأخير. ومهما كان منطق الأمور، فإن الوضع سرعان ما غرق تماماً في الفلتان. لقد تعرضت للنهب والحرق كل أنواع الأبنية العامة بما في ذلك المتاحف. وبدورها رفضت السيّدة الشجاعة المسؤولة عن متحف الناصرية التزحزح من متحفها، وظلّت هكذا إلى أن نجحت أخيراً في تسوية المسألة وإقناع الناهبين بالعدول عن قرارهم[٤٣]. لكن اناساً من هذا النوع كانوا نادرين. ففي بلدة مثل السماوة انعدمت السلطة كلياً. **ناجي حميد السرّاج** وهو سفّاح بعثي من البلدة كان مسؤولاً عن اعتقال ابن شقيقته المراهق بتهمة انتسابه إلى حزب الدعوة الإسلامي السرّيّ، وقد صُلب الأخير على جدران الحسينية المحلية في سماوة[٤٤]، ثم بتروا ذراعيه ورجليه وقطعوا رأسه، وبقيت أعضاؤه مرمية فوق مزبلة المدينة حتى أصبحت رائحتها لا تطاق[٤٥]. في المدن والأحياء التي سيطرت عليها عصابات الشبّان المسلحين، كان كل بعثي أو سنّي، بغض النظر عمّا إذا كان مع الانتفاضة أو ضدها، معرضاً لخطر القتل.

رجال مثل أبي حيدر و**كاظم الريسان** و**حميد** معلّم المدرسة، الذين عاشوا طوال سنوات حكم البعث داخل العراق، لم يكونوا إيديولوجيين ولا متعصبين، وقد أظهر هؤلاء وبدرجات متفاوتة وجهاً آخر أكثر إنسانية. بيد أن رجالاً من هذا الصنف توجهوا إلى القوات المتحالفة طالبين المساعدة إبان الانتفاضة.

كان ثمة العديد من أمثال أبي حيدر في البداية، ولكن بما إن قدوم المساعدة من الحلفاء لم يكن وشيكاً، انتهى بهم الأمر متمرغين في وحول الميليشياويين المتدفقين من إيران ومؤيديهم في داخل العراق. لقد قدم هؤلاء حاملين معهم ثلاث شاحنات محمّلة بصور ملوّنة للخميني وعلي خامنئي ومحمد باقر الحكيم. فالفكرة التي بدأت تسود كانت تكرار تجربة الثورة الإيرانية وربط حماسة العصيان المسلح داخل العراق برموز جديدة. أما المفتاح الرئيسي في الثورية الشيعية، فكان فكرة «الإمام المنتظر»، الذي،

مكتبة الفكر الجديد

بحسب أقوال منسوبة للنبي، سوف يعود في اللحظة المناسبة «ليملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً»[٤٦]. وفي آذار/ مارس ١٩٩١ كان العراق بحاجة لإمام خميني خاص به، فإن لم يكن موجوداً، انبغى ابتكاره بواسطة إلصاق عدد كبير من الصور الطازجة المصنّعة حديثاً في طهران خصيصاً لشوارع المدن العراقية. وهذه، للصدفة، طريقة صدام وأسلوبه. وبالسرعة نفسها التي انقض فيها مواطنون عاديون داخل العراق ممزقين صور صدّام، كمثل الذين شاهدتهم هناء، كان ميليشياويون إسلاميون مؤدلجون يتدفقون من إيران، رافعين صوراً بديلة.

لا يبدو ان الإيرانيين أنفسهم دخلوا البلاد خلال الانتفاضة ـ وهذا بخلاف ما ادعى النظام العراقي ـ باستثناء واحد أستطيع أن أؤكده: فريق سينمائي من وزارة الإعلام الإيرانية، شوهد في سيّارة دوريّة من نوع تويوتا تجول شوارع النجف بينما كانت الانتفاضة في عزّ زخمها[٤٧]. ولسوء حظ العراقيين لم يكن الغرض من وراء قدوم هؤلاء أن يسجّلوا للأجيال القادمة وللعالم الخارجي هذه الفترة التاريخية من محنة العراق، بل انهم قدموا ليصوّروا المنزل الذي سكن فيه آية الله الخميني في شارع الرسول طوال خمس عشرة سنة قبل سفره إلى باريس. فلدى الإيرانيين الآن دولتهم الإسلامية الخاصة وجهاز موظفين وإداريين لوسائل إعلامهم، ووظيفة هؤلاء الأشخاص، الشبيهة بوظيفة نظرائهم البعثيين العراقيين، إعادة ابتكار وتعزيز رموزهم الخاصة وتهويماتهم عن ماضيهم من خلال التلفزيون. حقاً أن الثورة نوع من المسرح. بيد أن الشكل الذي تتخذه يبعث على الهزل أحياناً.

لكن أي صنف من الرجال كان أولئك العراقيون الذين تدفقوا من إيران؟ ثمة قصة تتناول أحد الشخصيات الميليشياوية. كان مراهقاً أمياً يطلق على نفسه لقب «ثائر»، قصته كتبت بخط اليد بعد أن أمليت على كاتب، علماً أن قصصاً كثيرة شبيهة بها ابتكرها لاجئون عراقيون في إيران بعد انهيار الانتفاضة. وغالباً ما تكون هذه الوثائق كرّاسات إيديولوجية عسيرة الهضم ولا تحظى بأية قيمة ثبوتية. ومغامرات «ثائر» تشبه إلى حد بعيد ما كان يمكن أن يكتبه **فؤاد مطر** عن صدّام حسين[٤٨]. إلاّ أنه بينما ترشح سيرة مطر التقديسية نفاقاً، فإن شهادة ثائر تقرأ كحكاية روح فقيرة مرتبكة وأرضية. فهو في الواقع لم يقتل أحداً البتة وربما لم يطلق النار أبداً من بندقيته. لقد كانت لديه الرغبة في فعل ذلك بالتأكيد، ولكن الروح، في أغلب الظن، كانت ضعيفة، وتدخلت بعدئذ مصادفات الحياة لينتج عنها مشروع «الثوري» هذا، والذي سوف يهيم في العراق لأسابيع مثل ولد متشرّد، ثم ينجو في النهاية بطريقة عجائبية من الفوضى والعنف اللذين يعصفان حوله[٤٩].

مكتبة الفكر الجديد

يدعي **ثائر** ان وحدته المؤلفة من ١٧ رجلاً مسلحاً، بقي منها خمسة على قيد الحياة، كانت أول وحدة دخلت العراق من إيران. قبل الدخول، يقول **ثائر**، «وقد تحزمت أنا ومجموعتي بحزام ناسف». كان هدفه تفجير نفسه، وقتل أكبر عدد ممكن من البعثيين في حال ألقي القبض عليه حيّاً. يقول **ثائر** إن وحدته تولت القيام ببعض المهمّات ونجحت في إقامة الارتباط مع متمردين من الداخل. اختبأوا داخل بناء في **البصرة**، وأرسل **ثائر** لإحضار بعض الذخيرة إذ أن مخزون ذخيرتهم كان قد بدأ ينفد. حين عاد، وجد أن وحدته تتعرض لهجوم شرس من قبل قوات السلطة وانه قُضي عليها عملياً. «نجوت بأعجوبة، بعدما صَلّيت وتلوت آيات من القرآن». بعد ذلك نزع عن وسطه حزام المتفجرات، «لأنهم كانوا سيعدمونني ميدانياً إن لم يمثّلوا بي وأنا شادّ حزاماً ناسفاً». زحف الفتى المذعور ناشداً السلامة طوال الليل ليدرك في نهاية الأمر مكاناً بدا له أشبه ببركة ماء. هناك اغتسل وشرب، ليكتشف في الصباح انه كان عند مخرج مجرور وسخ قذر.

«خرجت من هناك ولعنت الزمن إلى أن أخذني أبناء القرية وغسلوا رجليّ وأعطوني دشداشة قصيرة لرجل سمين، كما أعطوني شيئاً من الخبز لجوعي الشديد. كان هذا كأنه ألذ وجبة طعام في حياتي لأنه أعاد إليّ حياتي ثانية، وصرت أبكي لأني تذكرت مجموعتي وماذا يمكن أن يكون حلّ بها. بعد ذلك قررت أن أعبر النهر وأتجه صوب بغداد حيث تقيم أختي. قالوا لا تستطيع لأنها عملية انتحارية، لكنني فعلتها وزحفت على بطني وصرت كأني في عالم آخر، والحمد لله أنني وصلت إلى الطرف الثاني وصرت أمشي بقدميّ الحافيتين نحو بغداد من البصرة.

بالتأكيد كانت هناك ١٥٠ نقطة تفتيش على الطريق. أحياناً كنت أعبر مدّعياً أنني متسوّل، وأحياناً أخرى مدّعياً أنني مجنون. ومرة قلت إن بيتي قد دمّر في البصرة وأنني ذاهب إلى شقيقتي في بغداد. ومضت الأيام على هذا النحو».

طيلة هذه الأيام لم يوجد معه فلس واحد. كان ثائر يعيش بحذاقته يوماً بيوم، وأخيراً وصل إلى بيت واحدة من شقيقاته. «إبنها، وهو صديق الطفولة، فتح لي الباب. وعندما قلت من أنا بدأ يضحك عليّ. كان من حقّه أن يضحك فأنا كنت في حالة لا تُصدّق».

غادر ثائر العراق قبل ١٢ سنة، ومع هذا فالاتحاد مع أسرته لم يدم طويلاً. إغتسل وأعطوه ثياباً و٤٠٠ دينار، ثم أرسلوه سريعاً ليكمل طريقه. فمجرد وجوده كان تهديداً بالموت لكل فرد من أفراد البيت. وهكذا، بعد المزيد من المغامرات، وصل ثائر، في آخر

مكتبة الفكر الجديد

المطاف، إلى منطقة صفوان، ومن هناك تم تسفيره سليماً إلى إيران على متن طائرة كندية تابعة لقوات التحالف.

آثار الكارثة

تركت القوات المتحالفة أربع فرق من الحرس الجمهوري سليمة لم تمس خلال حرب الخليج. وهذه الفرق الأربع كانت العمود الفقري للقوة التي أرسلها صدّام لقمع الانتفاضة في الجنوب. وعندما اقتحمت هذه الفرق، مدعومة بوحدات من الدبابات والمدفعية، مدينة النجف من ثلاثة محاور صبيحة يوم الأربعاء في ٢٠ آذار/ مارس ١٩٩١ كان قد خطّ على الدبابات: «لا شيعة بعد اليوم»[٥٠].

قبل الاقتحام قصفت المناطق السكنية بقنابل النابالم والقنابل العنقودية، وأطلق على المدينة ما يزيد عن ٣٥ صاروخاً من نوع سكود لإضعاف مقاومتها[٥١]. هذه الصواريخ الباليستية غير الدقيقة والتي كانت أطلقت من مسافة بعيدة سقطت عشوائياً ومن غير إنذار. وبين كثيرين آخرين قتلوا، قتلت الصواريخ كلاً من السيد **أبو التناير** وكل أفراد عائلته من دون استثناء، وزوجة **حسن كمّونة** وابنته، وزوجة **طلال كاشوش** وولديه وكنّته.

هذه الصواريخ التي سبق لصدام حسين نفسه أن ادعى أن هدفها «تدمير نصف إسرائيل»، دمّرت منازل كلٍّ من **أبي حميد الشكري وسالم هاشم وسيّد يوسف وسيّد سلمان وكاظم الندّاف** وغيرهم...[٥٢]. كان الهدف من القصف بالمدافع والصواريخ الباليستية والقذائف زرع الرعب، وجعل كل نجفي يفهم أن لدى النظام الوسائل والرغبة في تدمير المدينة بكاملها وقتل كل من فيها من دون استثناء إن اضطرّه الأمر.

الهجوم الأرضي كان يدعمه سرب من الطوّافات المدمّرة، التي كانت بدأت عملياتها بتطويق المنطقة السكنية حيث يسكن آية الله الخوئي وقصف البيوت المجاورة له. اجتمع المئات حول المنزل لحماية الخوئي وقد قُتل العديد منهم. أما المنطقة المجاورة فدمّرت إلى حد أنها سُوّيت بالأرض. ثم هبطت وحدة من كوماندوس الطوّافات فوق منزل آية الله واختطفته مع صحبه. وبعد أن عبر من فوق جثث المدافعين التي كانت تكسو محيط المنزل، أُدخل أكبر مرجع روحي شيعي مع جميع أنسبائه وصحبه إلى الطوّافات ونقلوا إلى مركز احتجاز أعدّ خصيصاً لهم في بغداد[٥٣]. قال أحد شهود العيان «لقد أجبروا الإمام على السير من دون مساعدة، وبما أنه كان لا يستطيع ذلك، سقط على الأرض، فساعده ابنه على النهوض ثم أخذوا الجميع»[٥٤].

مكتبة الفكر الجديد

الإمام البالغ من العمر ٩٢ سنة، والذي عمل أكثر من الجميع على كبح جموح رجال الانتفاضة، ظهر في اليوم التالي على شاشة التلفزيون مع صدّام، وقد زُعم أنه «سعى» بنفسه إلى أن يظهر هناك لكي يتسنى له شجب الانتفاضة. شريط الفيديو المسجل أظهر رجلاً عجوزاً مرتدياً رداء صوفياً بنياً متهدلاً، ومعتمراً عمامة سوداء، وهو الزي الذي يشترك رجال الدين الأسياد في ارتدائه. كانت لحيته طويلة بيضاء، ووجهه مستديراً بعض الشيء، وكانت ثمة بقع بنّية على صدغيه. بدا لطيف التصرف وإن نمّت هيئته عن حزن مقيم. أما صوته فواهن إذ يكاد يهمسه همساً.

بعد ظهوره أبقي تحت الإقامة الجبرية في **الكوفة** طوال السبعة عشر أشهر التالية، وفي ٨ آب/ أغسطس ١٩٩٢ توفي آية الله الخوئي (مجسّد تاريخ الشيعة من أيام العثمانيين مروراً بنظام حزب البعث) في **الكوفة** بالعراق[٥٥].

يبدو أن الجنود الذين استخدموا في الهجوم على النجف (وعلى جنوب العراق بشكل عام) اختيروا من مدن سنّية هي **هيت والموصل والشرقاط وبيجي** ومن الطائفة اليزيدية، وهي طائفة صغيرة في شمال العراق لها تاريخ من الصراع مع المسلمين الشيعة[٥٦]. الجنود العراقيون الذين استطاعوا الفرار من هذه الوحدات والوصول إلى مركز المراقبة والتفتيش الأميركي الرقم ٥ رووا أنهم كانوا وُعدوا بمكافآت تبلغ قيمتها ٢٥٠ ديناراً مقابل قتل كل امرأة أو طفل، وحوالى الخمسة آلاف دينار مقابل قتل كل رجل بالغ[٥٧]. إلا أنه كان يحق لكل جندي المطالبة بمكافأة قصوى هي ثمن قتل مئة رجل في اليوم الواحد. ولم يكن الشعار المكتوب على دبابات الحرس الجمهوري «لا شيعة بعد اليوم» مجرد مبادرة محلّية. لقد كان، كما هو واضح، سياسة رسمية.

أثناء دخولها المدينة، استخدمت فرق الجيش النساء والأطفال بمثابة دروع بشرية، مجبرة إيّاهم على السير أمام عربات المشاة والدبابات لكي لا يعود بوسع المنتفضين إطلاق النار من دون إصابة مدنيين أبرياء[٥٨]. أجبر الجنود النساء والأطفال كذلك على البقاء في الأبنية التي حوّلها الجيش إلى نقاط تمركز معزّزة. وكان أولئك الرهائن يوضعون أحياناً فوق سطوح الأبنية مكشوفين كلياً، ليدرك المنتفضون ان أي هجوم على المبنى سيؤدي إلى مقتل الرهائن جميعهم[٥٩]. المدنيون الذين نجوا من القصف التمهيدي، ومن ثم القصف الجوّي، وجدوا أنفسهم مهددين بخطر أعظم من جرّاء تقدم الحرس الجمهوري والمخابرات التي دخلت في أعقابه. وكان تكتيك الجيش المفضل إرسال طوّافة مجهّزة بمكبرات للصوت فوق منطقة ما من المدينة لتعلن أنه سيفسح المجال للمواطنين بالمغادرة قبل أن يبدأ الجيش هجومه. كذلك كانت ترمى وريقات تحتوي تهديدات

مكتبة الفكر الجديد

باستخدام الأسلحة الكيمائية، ولكن تنصح السكّان بالمغادرة عبر طرقات آمنة حددت لهم. وفي كربلاء على سبيل المثال نُصح الناس بالمغادرة من طريق **الهندية**، على طول هذه الطريق ولمسافة كيلومترات اصطفّ رتل من المدنيين اليائسين طلباً للنجاة من القتال القائم. لكن سرعان ما انقضت عليهم طوافات عسكرية وجعلت تقصفهم بمدافعها الرشاشة، فنجمت عن ذلك مشاهد مريعة قام بوصفها بعدئذ عدد كبير من شهود العيان. وفي ظروف أخرى، أطلق الجيش نيران المدفعية على حشود من اللاجئين الفارّين[٦٠].

لقد تعرضت القوات الحكومية بشكل خاص لأولئك الأطباء الذين أبقوا مستشفياتهم مفتوحة إبان الانتفاضة. ورويت حكايات كثيرة عمّا حلّ بالجسم الطبّي. أحد الأطباء، وقد استطاع الفرار إلى الخطوط الأميركية، روى ان رجال المخابرات رموا بزوجته وأولاده وشقيقه من الطوّافة عقاباً له لمعالجته جرحى المنتفضين. وروى طبيب جرّاح آخر أنهم أعدموا خمسة عشر طبيباً داخل المستشفى الجمهوري في البصرة، ثم أطلقوا النار باتجاه البناء على الرغم من أن أربعة آلاف مدني ـ هم المرضى وعائلاتهم ـ كانوا لا يزالون محتجزين في الداخل[٦١]. أخبرتني **أم حسين** أنهم أطلقوا النار على أحد الأطباء وجعلوا جسمه «كالمنخل» على مرأى من جميع الموظفين العاملين في المستشفى المركزي في البصرة، وكان هؤلاء قد أجبروا على الاجتماع في دائرة كبيرة لمشاهدة الإعدام[٦٢]. داخل مستشفى صدام في النجف تحرش الجنود بالطبيبات وذبحوا الأطباء بالخناجر ورموا عدداً من المرضى المصابين من النوافذ. وبدوره عُرض الطبيب **محمد الخلخالي** على شاشة التلفزيون ليكون عبرة لغيره ثم اختفى أثره. ومن ناحية أخرى كان الطبيبان **محمد علي قريدي**، **وقيس هلال الجلاوي** من بين أولئك الذين أعدموا علناً على أيدي فرق إعدام[٦٣].

أفراد عائلات المنتفضين، والمشتبه بأنهم من المنتفضين، لقوا بشكل خاص مصائر شنيعة. كانت المخابرات تقتل على نحو مستمر أقرباء المنتفضين لتنتقم منهم. وفي إحدى الحالات، تعرّفت قوات الأمن التي كانت تطوّق مقام الإمام علي على أحد المقاتلين في الداخل. عندها قامت فرقة بالإغارة على منزل الرجل و«ألقت القبض» على ابنه «الطفل»، ثم عادت إلى المقام مصطحبة الصبي. لكن ما أن ظهر الوالد، حتى رموا الطفل باتجاه المقام حيث مات على الفور بفعل الإرتطام. وفي حادثة أخرى رواها أحد اللاجئين في إيران، ان فرق الجيش التي كانت تطوّق مقام الإمام علي جعلت ترمي أطرافاً بشرية تم التمثيل بها على المقاتلين المعتصمين بالداخل[٦٤].

الأولاد الذين كانوا يمتنعون عن إفشاء أسماء أهلهم للجنود كانوا يغطّسون بالبنزين

مكتبة الفكر الجديد

ويحرقون. رُبط البعض الآخر على الدبابات المتقدّمة لكي يحجم القناصة من المنتفضين عن إطلاق رصاصهم. كذلك أحرقت قوات الأمن عائلات برمّتها داخل منازلها عندما كانت هذه ترفض الإفصاح عن مكان وجود رأس العائلة، أو تقول إنها لا تعرف أين هو. ألقي ١٥٠ شخصاً في النهر في العمارة بعد أن ربطوا بأقدامهم كتلاً إسمنتية، وثلاثون آخرون لقوا المصير نفسه في البصرة.

لقد استخدم الجيش بشكل واسع أسلوب «القِلادة»، وهو نوع من العقاب اشتهر في أفريقيا الجنوبية. في حادث واحد تعرّض له ثلاثة أولاد من عائلة طرفي، كان عمر أكبرهم تسع سنوات. فقد قام الجنود بتغطيس إطارات في البنزين، ثم وضعها حول أعناق الأولاد وإضرام النار فيها. وأجبر عدد من المنتفضين، كما زعم البعض، على شرب البنزين قبل إطلاق النار عليهم. ويبدو أن الضحية عوض أن تنهار وتتحوّل إلى كومة معدومة الحياة وعديمة الدراميّة، كانت تنفجر وتضيء لفترة قصيرة كما لو أنها مشعل. وكان لإعدامات من هذا النوع تأثير أكبر على المشاهدين، يفوق ذلك الذي كان يثيره فيهم تأثير صفّ الناس بمواجهة جدار ورميهم بالرصاص[٦٥].

ارتكب المزيد من الفظاعات بما في ذلك الإعدام الفوري لأي رجل يلقى القبض عليه ملثماً. أما العائلات التي عادت إلى منازلها بعد انتهاء القتال فتعرضت كذلك لمصير مماثل، إذ تلك «التي كانت فرّت من جراء القتال مع أولادها، أوقفت صفوفاً وأعدمت بأكملها»[٦٦]. وفي حال تعرّض دورية من الجيش لإطلاق نار من أحد المنازل، كانت المنطقة بكاملها تُعتبر مسؤولة. في إحدى الحالات قتل قناص كان يتمركز فوق فندق في شارع زين العابدين أحد الجنود، وانتقاماً لذلك أفرغ الجنود كل منازل الشوارع المحيطة، وجمعوا السكان كلّهم، وطلبوا منهم تسليم القنّاص. وعندما لم يستطيعوا القيام بذلك، فرّق الجيش النساء عن الرجال، ثم جرى الإفراج عن النساء بعد يوم من الاحتجاز المقيت، واختفى الرجال جميعاً[٦٧].

بعد دخول قوات الهجوم العسكرية، تبعتها وحدات من شرطة الأمن، ومن المخابرات، ومن الأمن الخاص، وقوة الشرطة المحلية، وصولاً إلى شرطة السير. هذه القوّات طافت في أرجاء المدينة وجعلت تختطف الشبّان وتخضعهم للاستجواب، وتعتقل من تشتبه بأنهم قادة المعارضة. كانوا يفتشون البيوت بيتاً بيتاً وقد ترتب على ذلك مستويات أخرى من الاعتداءات. فبحسب مقابلات أجرتها منظمة حقوق الإنسان في العراق، كانت القوات الموجهة بعمليات التمشيط تستخدم طريقة عمل ثابتة: كانوا يفتشون كل البيوت القائمة في منطقة معينة، مصادرين كل ما يمكن أن يكون سلاحاً، ويعتقلون كل ذكر سليم

مكتبة الفكر الجديد

الجسم. وعندما لم تكن فرقة التمشيط تجد أحداً في المنزل، كان المنزل يُسرق ويُنهب. أما النسوة الباقيات في البيوت فكن غالباً يتعرضن للأذية، وللاغتصاب، وكن يمنعن من وضع خمارهن. على أثر إحدى عمليات التمشيط تلك قام، في ١٥ آذار/ مارس ١٩٩١، **محمد علي الرماحي**، وهو رجل في الخامسة والخمسين من عمره من النجف، بإضرام النار وإحراق نفسه بعدما أجبر على أن يشهد بعينيه اغتصاب جنود الحرس الجمهوري لبناته الثلاث[٦٨].

لم يكن لدى الرجال أو الفتيان الذين اعتقلوا إبان عمليات التمشيط تلك أي فرصة للنجاة. اللاجئون العراقيون الذين وصلوا إلى إيران في أوائل نيسان/ أبريل رووا أنه جرى إعدام ما يزيد عن الأربعة آلاف شخص خلال الأيام العشرة الفائتة في النجف[٦٩]. كانت الاعتقالات العشوائية والإعدامات هي الحالة السائدة. أحد الناجين قال في مقابلة أجرتها معه صحيفة «ميدل إيست واتش» ان «الجيش كان يغلق بإحكام المنطقة تلو الأخرى، بحثاً عن رجال. كل الذين عُثر عليهم - من الفتيان والرجال والغرباء - حُملوا إلى داخل مدرجات ملاعب الرياضة، ومن هناك نقلوا في قوافل كبيرة إلى بغداد. هذه العمليات استمرت حتى [١٠ نيسان/ أبريل]... ولا نعرف ماذا حلّ بهم منذ ذلك الوقت»[٧٠].

مقاومة المنتفضين المنظّمة انهارت أولاً في البصرة في وقت ما بين ٧ و٩ آذار/ مارس. غير ان عصابات من المنتفضين لم تتوقف عن القيام بعمليات كرّ وفرّ ضد القوات الحكومية، لكن المدينة لم تفلت البتة من سيطرة الحكومة. استطاعت **السماوة** الصمود أطول فترة قياساً ببقية المدن، وهي سقطت أخيراً في ٢٩ آذار/ مارس، بعدما غيّر قادة القبائل المحليون تحالفهم، وتحالفوا مرّة جديدة مع النظام.

سقطت النجف في قرابة ١٦ آذار/ مارس ١٩٩١ وتبعتها كربلاء سريعاً بعد وقت قصير. مسؤول كبير في حزب البعث قال للمراسل الأجنبي **جون سمبسون** من شبكة الـ بي.بي.سي انه يعتقد أن عدد الأشخاص الذين قتلوا من جراء الانتفاضة يفوق أربع مرّات عدد أولئك الذين قتلوا من جراء قصف القوات المتحالفة[٧١]. وفي حوالى منتصف نيسان/ أبريل ١٩٩١، جرى اعتقال ما يقارب الخمسة آلاف من علماء الفقه الإسلامي وتلامذته في النجف وحدها. وبما أن كل تلامذة النجف وهيئة التدريس والإدارة فيها باتوا معتقلين لدى الشرطة، أقفلت المدارس الدينية أبوابها[٧٢].

لقد اختفت عائلات برمتها بين أيدي النظام. السيّد **محمد بحر العلوم** الذي كان أول من أخبرني قصة آمر الدبابة في ساحة **سعد**، قُتل عشرات الأشخاص من أفراد عائلته

مكتبة الفكر الجديد

الكبيرة، كانوا اعتقلوا إبان حملة تمشيط للجيش في ٢٢ آذار/ مارس. جميعهم مفقودون ويفترض أنهم ماتوا. اعتقلت قوات الأمن أو قتلت كل علماء الفقه في النجف الذين لم يفرّوا من البلاد. وبحسب قول أحد أفراد عائلة بحر العلوم الذي استطاع النجاة من الموت أو الاعتقال: «كل من لبس عمامة قتل أو اعتقل»[٧٣].

لأول مرة في تاريخ العراق الحديث، أصبح مستهدفاً كل ما يميّز الشيعة أو يكرّس هويتهم. في النجف دمّرت كلياً أربعة مساجد هي مسجد الإمام علي في منطقة **الأمير**، مسجد **البقيعة** ومسجد الإمام **الصادق** في شارع المدينة، ومسجد **مراد** في شارع **الطوسي**. جرفت جرّافات الدولة أقساماً من مساحة مدافن النجف الشاسعة مع شواهد ونصب قبور العائلات الأثرية، والتي يعود تاريخ بعضها إلى مئات السنين. لقد قاموا بذلك بقصد تغطيتها بالاسمنت[٧٤].

كان حوالى الألف وخمسمائة نجفيّ التجأوا إلى الدهاليز الواسعة الواقعة تحت هذه المقابر، آملين بالنجاة من قنابل النابالم. ودُفن العديد منهم أحياء حينما انهارت عليهم الأنفاق. أحد الناجين استطاع الوصول إلى السعودية وروى هذه القصة[٧٥].

خلال الانتفاضة أصيبت قبّة مقام الإمام علي الذهبية بعدد من قذائف المدفعية المباشرة، ودمّر المدخل الرئيسي، وتعرض داخله للتخريب. ومقام الحسين في كربلاء أصيب بأضرار أفدح بكثير. بيد أن هجوم الحكومة الثقافيّ ضد الأماكن المقدسة، والأبنية الدينية، والمعاهد الدينية، استمر وقتاً طويلاً بعد انتهاء القتال في المدن[٧٦]. وجرى قطع كل شجرات النخيل المحيطة بكربلاء، وهدم كل وسط المدينة المحيط بالمقامين، وفي المرحلة الأولى من المشروع الذي تزعم الحكومة المفلسة أنه برنامج ضخم لإعادة تأهيل مدينة كربلاء، نهبت أو نقلت إلى بغداد كنوز قديمة استمرت غير ممسوسة طوال عصور كاملة. لم يبقَ أي شيء من «الجواهر والذهب والمخطوطات القيّمة» التي كانت موضوعة داخل مقام الإمام علي في النجف وتمثل «هدايا قدّمت منذ أكثر من ألف سنة من الأمراء والملوك». كذلك اختفت ماسة ضخمة كان السلطان العثماني **مراد الأول** أهداها إلى المقام عام ١٦٣٤[٧٧].

التدمير المادي يمكن على الأقل إصلاحه. لكن ليس في الوسع قول الشيء نفسه بالنسبة لإحراق مكتبات المدارس الدينية والمعاهد الفقهية في النجف و**الكوفة** وكربلاء، والتي تحتوي على مخطوطات قديمة لم تجر بعد دراستها بدقة، أو أرشفتها بالطرق العصرية. مكتبة دار الحكمة التي أنشأها آية الله الراحل السيد **محسن الحكيم**، والمكتبة العامة التي تديرها عائلة الحكيم في شارع الرسول (تحوي قرابة الستين ألف كتاب

مكتبة الفكر الجديد

وعشرين ألف مخطوطة) أحرقتا ونهبتا معاً. وهذا ما حلَّ أيضاً بمكتبة دار العلم التي كان يملكها آية الله الخوئي، والتي قدرت محتوياتها بما يقارب ٣٨ ألف كتاب، و٧٥٠٠ مخطوطة. وقد لا يمكن أبداً استرجاع قائمة دقيقة بهذه الكنوز التي لا تقدر بثمن، إذ أن معظم الأشخاص الذين كانوا مسؤولين عنها إما أنهم قتلوا أو أنهم الآن معتقلون. والخطر الحقيقي يكمن في أن الحجم والطابع المنظم لهذا الهجوم الذي شنّه النظام في بغداد، وضعا حداً نهائياً لتقليد عمره ألف سنة من تدريس وتعلّم الفقه في النجف، مع ما يتبع ذلك من تبعات مستقبلية ليس بالوسع توقعها.

بغية تقديم جرذة حسابات بهذا كله، قامت صحيفة «الثورة»، وهي الناطق الرسمي باسم حزب البعث، بنشر سلسلة من ست مقالات رئيسية غير موقعة في نيسان/ أبريل ١٩٩١[٧٨]. وهذه المقالات تظهر تحوّلاً جذرياً في موقف بغداد الرسمي تجاه مواطنيها الشيعة. لكن كما كان متوقعاً، وصف النظام الانتفاضة في الجنوب بأنها «مؤامرة أجنبية قذرة».

كان الجديد هو في فكرة ان المعتدين لم يكونوا فقط «غرباء بمقتضى هويتهم وجنسيتهم»، بل كانوا «غرباء عن العراق بمقتضى ذهنيتهم، وضميرهم وشعورهم». وعوض أن يكونوا عراقيين مخلصين، يعملون لمصلحة الثورة البعثية والأمة العربية، وهذا ما كانت الدعاية الرسمية تمجده طوال سنوات الحرب العراقية ـ الإيرانية، أصبحوا سفلة منحطّين، يطيعون ديانة وضيعة لا تحتوي أي مبدأ أخلاقي. وهذا النوع من الخطاب لم يسبق له أن استخدم في الصحف البعثية من قبل، وقد تبعته مجموعة كبيرة من المقالات في الصحافة العراقية وأخبار عن «أطروحات دكتوراه» طوال صيف ١٩٩٢، تشوّه جميعها سمعة الشيعة وديانتهم.

بذلت مقالات «الثورة» جهداً عظيماً «لإثبات» أن الشيعة العراقيين هم في الواقع «غير عراقيين». فالتأثير الإيراني على جنوب العراق، كما زعمت المقالات، حط من قَدر ثقافة الشيعة، وأيضاً، وعلى وجه أخص، من ديانتهم. لقد فقدوا احترام الذات والفهم العميق للإسلام وهما ميزتا العربي الحقيقي. وتم تقديم الشيعة كأناس بدائيين يؤمنون بالخرافات، يعبدون سلالة النبي ـ الملقّبين بالسيّاد ـ وذلك بهيام متزلّف يثير في العربي الحقيقي القرف. وتزعم جريدة «الثورة» ان هذا التزلّف يصل أحياناً إلى درجة وضيعة «إذ يقوم بعض الناس بتقبيل أقدام أو آثار أقدام السيّاد على الأرض...». والعادات هذه التي أدخلها رجال الدين الإيرانيون إلى العراق أشبه بالهرطقة و«تكشف كيف أن الغرباء يحاولون

مكتبة الفكر الجديد

تحقير العراقيين و... إخضاعهم لإرادتهم هم من خلال ممارسات يزعمون نفاقاً انها دينية». فالعرب الحقيقيون ليسوا معتادين «على الانحناء أمام الآخرين».

وتتابع المقالات مهاجمة عرب الأهوار مستعرضة عوزهم وتخلّفهم وفجورهم. وهي تعتبرهم أشراراً بالسليقة وقذرين ووسخين، وانهم من سلالة العبيد الهنود وليسوا البتة عرباً حقيقيين. أما ممارساتهم الجنسية فمثيرة للقرف، ونساؤهم عاهرات غير محتشمات، وعنهم «يسمع المرء أحياناً قصص شذوذ مقرفة تثير الغثيان»، كما جاء في «الثورة». وعلى الرغم من ذلك وكما يختم الكاتب غير المسمّى، فإن صدام حسين يعامل هؤلاء الناس «بإنسانية، وحسب... التقاليد العربية المحض، والمبادىء الإسلامية اللائقة. وبينما يتجنب السيد الاختلاط بأتباعه، إلا في المناسبات الكبرى، بقصد الحفاظ على سلطته وتأثيره على الناس الأميين، فإن صدام حسين يختلط بالناس العاديين في الأهوار من دون زخارف السلطة، ينام ويأكل معهم ويشاطرهم أفراحهم وأحزانهم».

* * *

لقد تجاهل المثقفون ورجال الدين والرأي الرسمي العربي ما كان يجري في العراق خلال آذار/ مارس ونيسان/ أبريل ١٩٩١. لم يقم أي واحد من المثقفين الذين سوف أتعرّض للنقد بآرائهم في القسم الثاني من هذا الكتاب، أو الذين شجبوا بعنف تورّط الغرب في مسألة الكويت، بالكتابة أو التحدث جهاراً دفاعاً عن شعب استجمع أخيراً الشجاعة لأن يثور ضد نظام قصفه بالنابالم، وبقنابل الغاز، وعذّبه طوال ٢٣ سنة. كان أساتذة جامعيون مميّزون يجلسون إلى موائد عشاء في الغرب مستعرضين تكهّناتهم التي تعتبر أن مصير العراقيين سيكون أفضل بكثير إن استطاع صدّام البقاء في السلطة. مثقفون آخرون كانوا يقيمون حلقات نقاش مع مشترعي وراسمي السياسة الأميركية، طالبين منهم بإلحاح عدم التدخل في مسألة القتل الجماعي العديم الشفقة القائم والممارس ضد العراقيين، معلّلين ذلك ظاهرياً بالعواقب الرهيبة التي يمكن أن تحل بالمنطقة من جراء التدخل[٧٩]. ردات فعل من هذا النوع دليل إفلاس أخلاقي. والمحزن في الأمر، ان ردات الفعل هذه لا تقوم حتى على أساس من الجهد. بل تبنى في الواقع على انعدام كلي للتعاطف مع معاناة إخوان لهم في الإنسانية، إخوان يصادف ـ في هذه الحالة ـ أنهم عرب مثلهم.

ليس بوسعي أن أنهي هذا الفصل بطريقة أفضل من تلك التي قدمها **مصطفى جمال الدين**، وهو شاعر وكاتب من النجف، جاء كلامه رداً على صمت معظم العالم العربي ـ الإسلامي حيال ما جرى من أحداث في جنوب العراق:

مكتبة الفكر الجديد

«لنفترض ان الانتفاضة شيعية جنوبية، وليست عراقية عامة، ولنفترض أن الشيعة مشكوك بإسلاميتهم ـ كما يحلو ذلك لبعض المتطرفين من إخواننا أهل السنة ـ ولكن: أليست هذه العتبات المقدسة مشاهد ومساجد إسلامية، أليس فيها مرقد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) ومراقد أبنائه من أهل البيت (رضي الله عنهم)؟ ألا يستحق قصفها بصواريخ (سكود) وإهدار كرامتها وحرمتها، منشوراً واحداً، أو بياناً استنكارياً مقتضباً يصدر من جهة عربية أو إسلامية ـ ولو كانت غير حكومية ـ كالأزهر مثلاً في مصر، وجامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في المغرب، ورابطة العالم الإسلامي في السعودية، أو من أية جامعة، أو منتدى، أو أي حزب إسلامي، أو فئة إسلامية، أو أي عالم ديني....

أتكون حرمة هذه العتبات المقدسة مهدورة لأن الشيعة يسكنون بجوارها؟

أنا لست طائفياً، وليس في تاريخي الأدبي أو السياسي ما يدل على ذلك، بل كنت ولا أزال أدعو إلى إسلام حقيقي خالٍ من التطرف المذهبي والقومي، وكنت أؤكد على جهلنا نحن المسلمين بروح الإسلام الكريمة، وتغليب العصبية المذهبية على تسامح هذا الدين وإنسانيته، كما كنت أؤكد على جهلنا ـ نحن العرب ـ بتسامح عروبتنا وإنسانيتها، والانحراف بها إلى روح من العصبية والشوفينية.

هذه هي عقيدتي في الإسلام والعروبة، وتتركز في أن أهم أمراض المسلمين في الوقت الحاضر هي الطائفية، والعنصرية، وهما في رأيي، ورأي كل المخلصين في الوطن العربي، سرّ تأخر هذا الشعب العربي المسلم، وبخاصة في العراق..

هذه الملاحظات، أو هذه الهوامش، التي أوردتها بهذه الصراحة ـ الجارحة أحياناً ـ هي التي يجب أن تكون أساس التفاهم بين سنّة العراق وشيعته، وهي الأساس الثابت لحل المشكلة العراقية. نحن لا نريد من السنّة أن يكونوا شيعة، كما لا نريد لهم أن يجعلوا الشيعة سنّة، فهذه مذاهب فقهية، وعقائدية، لا تؤثر في الواقع السياسي والاجتماعي لمواطني البلد الواحد....

ونحن جميعاً عرب، لأننا نعيش في هذا الجزء من الوطن العربي نشعر بشعور العرب في كل مكان ونتحدث بلغتهم، ونحسّ بأحاسيسهم، ويجمعنا وإياهم مصير واحد، وليست العروبة دماً يجري في عروق بعض الناس دون بعض، بل هي هذه المشاعر الواحدة، والأعراف المتشابهة، والمصائر المشتركة»[٨٠].

مكتبة الفكر الجديد

٣ ـ عمر

داخل سجن في بغداد

عمر شاب مرح، حسن التنشئة، وطموح في مطلع ثلاثينياته، احتجز ٤٢ يوماً داخل مبنى لجهاز الاستخبارات العسكرية، يقع قرب النافورات في منطقة الكاظمية ببغداد، وقد دمّر خلال حرب الخليج[١].

إلتقينا لأول مرة لأن شقيقه، باسل، كان في السليمانية إبان الإنتفاضة، وكتب له من هناك رسالة شخصية تحتوي وصفاً مسهباً للأحداث التي جرت. سمح لي عمر باستخدام مقاطع من رسالة باسل التي كتبها لاجئاً في إيران ومعانياً من الصدمة التي خلّفها العنف المريع الذي وقع أسيره دون سابق إنذار[٢].

إلاّ أنني، على أية حال، اكتشفت خلال حديثنا أن لدى عمر، كذلك، قصة لا تصدّق. قصة احتجازه في بغداد تسبق ما عاناه شقيقه في آذار/مارس ١٩٩١ بما يزيد على السنتين، وتبدو ظاهرياً كما لو أنها غير متصلة بها. لكن قصة عمر غير قابلة للتصديق ـ برغم كونها ضرورية لفهم ما الذي حدث لباسل ـ لأنها تبدو مألوفة جداً. فالسجن الذي احتجز فيه عمر هو بمثابة عالم صغير إزاء السجن الأكبر بكثير الذي يدعى العراق البعثي.

ثمة آلاف القصص المماثلة لقصة عمر عانى فيها العراقيون، إبان الثمانينات، ما عاناه عمر. ليس بالضرورة أن يكون أبطال القصص هؤلاء قد فعلوا شيئاً، وليس مهماً السؤال من كان هؤلاء وماذا كانوا.

عمر سنّي عربيّ من الأعظمية، وشى به رجل كردي، وتولّى التحقيق معه ضابط شيعي. كان محظوظاً لكونه اعتبر بريئاً بحسب مقاييس البعث واعتباراته. ولم يتعرّض أيضاً للتعذيب بالمعنى التقني للعبارة. إلاّ أن عنف إنتفاضة أبي حيدر كان وليد تلك

مكتبة الفكر الجديد

العادية ذاتها التي خبرها عمر.

إنه الإبن الأصغر لعائلة مؤلفة من ثلاثة أشقّاء وثلاث شقيقات، غادر العراق منذ أن رفع الحظر عن السفر عام ١٩٩٠ ووصل إلى الولايات المتحدة في شهر حزيران/يونيو. إلتقينا لأول مرّة في كامبردج بولاية ماساشوستس، وكان هناك أيضاً صديقان عراقيان، وتحادثنا طوال ساعات الصباح الأولى. وعمر حكواتي بالفطرة ويمتلك عيناً ثاقبة في التقاط التفاصيل وذاكرة خارقة يستدعي بها أحداثاً من فترة احتجازه. وكانت لديه موهبة رؤية الجانب المضحك من القسوة، وسوف لن أنسى أبداً ذلك الأسلوب الصاخب المرح الذي وصف به إطلاق سراحه. كانت الساعة الثالثة صباحاً وكنا قضينا ساعات مستمعين إلى تلك التفاصيل المغيظة. راح الجميع يضحكُ بطريقة مجنونة، وفجأة، إثر تلميح تخاطري(*) من عمر بالذات، انفجرنا جميعاً بالبكاء دفعة واحدة. وباستعادة ما كان جرى ادركت أنه كان من الضروري أن نضحك ونقهقه على نحو ما فعلنا، لكي نتمكن جميعاً من البكاء بطريقة ما بكينا.

لقد حوّرت، بموافقة عمر، ما جرى في ساعات الحوارات والتذكارات تلك (وساعات غيرها في جلسات لاحقة) إلى صيغة أنا المتكلم. فالأسماء والتواريخ والأعداد جرى تبديلها كلها من أجل حماية كل أولئك المتورطين، من الشرطيّ إلى السجّان والمعذِّب والمستجوب والمخبر، وكذلك السجناء. والأسماء البديلة تعود إلى المصادر الإثنية أو الطائفية نفسها التي ينتمي إليها الأشخاص: كردي، عربي،سنّي، أو شيعي. وهكذا احتفظنا بالأسلوب الديموقراطي الذي تمارس فيه السجون العراقية، ومثلها الجيش العراقي، العنف[٣].

* * *

«ولدت في منطقة الأعظمية في بغداد، معقل القومية العربية في الأيام الخوالي. كان والدي مهندساً في البحرية العراقية أيام كانت تدعى «قوّة النهرية»[٤]. وسبق لوالدي أن شارك في إنقلاب رشيد عالي عام ١٩٤١ ضد البريطانيين، هذا الإنقلاب الذي يعتبره حزب البعث أول ثورة عربية. وهو، طوال فترة الخمسينات، كان يتخذ من شاربي هتلر طرازاً لشاربيه.

في ٢ أيلول/سبتمبر ١٩٧٩، تماماً بعد تخرّجي من جامعة بغداد كمهندس مدنيّ،

(*) ملاحظة المترجم: أو Telepathic، التعبير الذي يصف اتصال عقل بآخر بطريقة تخرج عن العاديّ والمألوف.

مكتبة الفكر الجديد

استدعيت لأداء خدمتي الاجبارية في الجيش العراقي.و سرّحت في ٧ نيسان/أبريل ١٩٨٥ يوم ذكرى تأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم، وكنت أمضيت في الخدمة خمس سنوات وسبعة أشهر وخمسة أيام.

لدينا أنا ووالدي بعض الأشياء الغريبة المتشابهة في حياتينا ـ وأيضاً بعض الإختلافات. كلانا مهندس، ولكن بينما كنت أنا جندياً إبان الحرب العراقية الإيرانية التي كرهت كل لحظة فيها، كان هو ضابطاً قومياً متفانياً شارك في إنقلاب فاشل. والثمن الذي دفعه والدي لقاء شغفه بالسياسة كان صرفه من الخدمة العسكرية وسجنه لمدة أربع سنوات. أما الثمن الذي دفعته أنا لكوني فتى من النوع التواكلي، سهل الانقياد والذي لا يهوى إلاّ قضاء أوقات طيبة، فكان قضاء ٤٢ يوماً داخل سجن عراقي. والمسألة بالتحديد هي أن الـ ٤٢ يوماً التي قضيتها في ذلك المكان البغيض، وسنواته الأربع، عالمان كاملان ومختلفان.

عملت مهندس موقع في مشروع بناء مجمّع للضيوف تابع للحكومة. كان هذا بناءً مهماً جداً. ونتيجة لذلك استطعت إقامة علاقات ممتازة مع الأسماء الكبيرة فعلياً في حزب البعث. كنت أتقاسم الشرب والمودة مع أولادهم في الحفلات وفي النوادي، ليس لأنني اخترت ذلك، أنت تفهمني، ولكن بحكم الضرورة ـ مثل الجميع.

في ليلة شتاء باردة من سنة ١٩٨٧، وهي آخر سنة في الحرب العراقية ـ الإيرانية، بقيت حتى وقت متأخر أراجع بعض الحسابات المتعلقة بمواد المشروع الأولية. انهكني العمل وشعرت بحاجة ماسة إلى الشراب بعد ١٦ ساعة من العمل. كانت الساعة حوالى الواحدة بعد منتصف الليل عندما وصلت إلى المنزل وأوقفت السيّارة في المرآب. ولحظة نهضت عن مقعد القيادة إنقضّ عليّ أربعة رجال مثل وحوش كاسرة، فزعق أحدهم نابحاً: «هل أنت عمر الذي يعمل في مشروع الدولة للضيوف»؟

أُصبت بالهلع. كان اثنان منهما يصوّبان مسدسيهما باتجاهي. كانت العتمة مطبقة، ولم استطع أن اتبيّن شيئاً بوضوح، أم تراني كنت في حلم؟ هممت بأن أتناول أوراق هويتي، التي كانت داخل محفظتي في صندوقة القفاز في السيّارة، فزعق بي الرجل: «توقف! توقف! لا تمدّ يدك!، لا تتحرك!». لا بد انهم اعتقدوا أني كنت سأتناول مسدساً. سحبوني إلى الخارج بعنف. وأوضح ما أذكره أنهم كانوا عصبيي المزاج إلى حد الهستيريا.

لم يظهر أي منهم بطاقة تعريف. وطوال الوقت جعلوا يصرخون مما زاد في ارتباكي. سألت «ماذا في الأمر»؟ فزعقوا بي: «أصمت. ولا كلمة. استدر». دام ذلك حوالى

مكتبة الفكر الجديد

العشر ثوانٍ، في هذه الأثناء كانت أُمّي قد خرجت إلى المرآب آتية عبر الحديقة. كان وجهها شاحباً وأذكر أني لاحظت أنها بدت متعبة جداً. كانت حاسرة الرأس وهذا نادراً ما يحدث. صرخت: «عمرا عمرا إنتبه لقد أخذوا أخاك». لم أعرف عمّا كانت تتكلم. لحظة ادركتنا أُمّي، إنقضّ أحد الأربعة، وكان ابن زانية بشعاً، وطويل القامة، وخدّاه مكسوّان بندبات الجدري المجوّفة، ودفعها دفعة قويّة. فقدت توازنها وكادت تقع على أرض المرآب. صرخ بها أن تصمت بصوت غليظ أجشّ، وجعل بعدها، ومن دون أي سبب واضح، يكيل لها الشتائم.

فكرت في نفسي: «هل مثل هذا حقيقيّ؟». خارج المرآب قيّدوا يديّ بالأغلال وراء ظهري. سمعت صراخ أمّي وبكاءها وهي تقول: «أتوسل إليكم لا تؤذوه، أرجوكم أرجوكم». وفجأة ظهرت من لا مكان سيّارة تويوتا لاند كروزر بيضاء اللون تحمل رقم تسجيل مدنياً. هذا طراز خاصّ بكافة سلك الاستخبارات والشرطة السرّية. رموني في الداخل، ووقفت أُمّي في الخارج تصرخ قائلة: «انتبهوا، أرجوك لا تؤذوه، الله يحميك. والله إن ولدي لم يفعل أي سوء!». دفعها الرجال بقوة إلى داخل المنزل وأغلقوا الباب بعنف في وجهها.

قبل الدخول إلى السيّارة نزعوا عني كنزتي - وكان البرد قارصاً تلك الليلة - واستخدموها لعصب عينيّ. وبما أن الكنزة كانت مصنوعة من الصوف، كان بوسعي الرؤية عبر قطبها المشدودة من خلال الثقوب. رأيت أخي مكوّماً فوق المقعد الخلفي في اللاند كروزر. تراجعت السيّارة ثم أقلعت، كانت تلحق بنا سيّارة لاندكروزر ثانية.

كانوا قد كمنوا حول المنزل، كما إتضح لي في ما بعد، طوال ساعات ثلاث، بانتظار وصولي. افترضوا أني رجل خطير جداً. مدّ أخي يده من الخلف وأمسك يدي ضاغطاً عليها كما لو أنه يقول لي «إن وقعتنا وخيمة جداً».

داخل السيّارة بدأوا الصراخ بي. «أين كنت؟ يا كلب يا ابن الكلب أين كنت؟ أننا ننتظر هنا منذ ساعات. ألا تعتقد أن لدينا أموراً أفضل نفعلها؟ هل كنت مع صديقك كفاح؟». هذا صحيح. لديّ صديق يدعى كفاح كان يعيش في الجوار. انهم يعرفون اسمه. كيف عرفوا؟

سألت «من هو كفاح»؟ محاولاً التجاهل. كانوا يحاولون خداعي ودفعي إلى الإجابة بنعم، كي يستطيعوا السعي وراءه واعتقاله. استدار أحد رجال الأمن نحو أخي وسأل: «هل كان يتردد على كفاح؟»، أجاب أخي «من هو كفاح؟». في ذلك الوقت على الأقل بدا انهم يميلون إلى تصديق أن كفاح صديقي لم يكن متورطاً. لكنه غير متورط في ماذا؟

مكتبة الفكر الجديد

كنت ما زلت لا أملك أية فكرة. لو سلّمت بأني كنت أعمل معه، لكان كفاح اليوم في عداد الأموات. كان كفاح في الواقع ضابطاً في الجيش، وهؤلاء يُعاملون عادة بقسوة بالغة.

بين الحين والآخر كانت السيارتان تتوقفان لاعتقال أشخاص آخرين. عندما أدخلت السيّارة لاحظت وجود شخص ما ممدداً في مؤخرتها ومغطى كلياً ببطّانية. اكتشفت لاحقاً انه كان المخبر المسؤول عن اعتقالنا وأنه هو من دلّهم إلى منزلي. في البداية أخفوا عنا، أنا وشقيقي، هويته. كان الرجل قد بدا الآن، غير أني لم أستطع التعرّف إلى صوته على الرغم من شعوري بأني كنت سمعته من قبل. كنت في حال من الذهول، غير قادر على التفكير بوضوح، مسحوقاً بحجم الكارثة التي بدا لي كما لو أنها لو هوت على رأسي. تابعوا يعتقلون أشخاصاً. المزيد المزيد من الأشخاص الذين كانوا يحشرون داخل سيارتي اللاند كروزر.

ما يزال في وسعي تذكّر الموسيقى التي كانت تصدح في السيّارة من شريط سُجّل لأم كلثوم. كان الرجال يغنّون ويصفّقون لها، وكانوا يصرخون في الوقت نفسه. أخبر أحدهم الآخر: «لقد خرجت مع صديقتي البارحة»، كان الأمر وكأننا غير موجودين. ثم توقف فجأة عن الحديث مع صديقه واستدار متوجهاً إليّ» «هل تعرف الحلاّق رياض؟» أجبته أني لا أعرف أحداً بهذا الاسم. هذه المرة كنت أقول الحقيقة. «أيها القوّاد، يا ابن العاهرة! أنت ترفض الاعتراف. انتظر حتى نوصلك إلى هناك. سوف نرغمك على الاعتراف». كنت ارتجف خوفاً. لم تكن لديّ أية فكرة عن سبب اعتقالهم لي. ثم اعتقلوا شخصاً آخر. في إحدى المرّات كان علينا أن ننتظر ساعة كاملة أمام منزل أحدهم. سمعت صراخاً وعبر فجوات عقد كنزتي استطعت رؤية مسدسات مصوّبة.

السيّارتان اللتان كانتا متوقفتين خارج منزلي أصبحتا تغصّان بالمعتقلين. في البداية لم يكن في السيارة إلاّ أنا وشقيقي، إضافة إلى المُخبر. كان ثلاثة رجال من الأمن بمن فيهم السائق، جالسين في المقدّمة. ثم أضيف إلينا، في المقعد الخلفي، شخص واحد. وهكذا أضحت سيارتنا مليئة بالكامل.

ظلّت السيّارة تتقدم لوقت حسبته ساعات، ثم بدأت تصعد متمهلة فوق ما أدركت انه جسر. شممت رائحة النهر على الرغم من برد الخارج القارس والنوافذ المقفلة، وبعد أن عبرنا الجسر أبطأت السيّارة تتوقف أمام حاجز. ارتفعت أصوات بالصراخ: «قف!». رُفع الحاجز وسمعت الحرّاس والسائق يتبادلون التحيّة، ثم دخلنا.

عندما توقفت السيّارة وأُطفىء محرّكها وجدتني أُصلّي كما لم أفعل أبداً من قبل. «يا

مكتبة الفكر الجديد

ساتر يا حافظ». أمرونا عندها بالخروج. كنا كأشخاص عميان، يتعلّق أحدنا بالآخر مثل قاطرات القطار. وفيما كنا نساق إلى الداخل مدّ أحد الحرّاس رجله قصداً فتعثّرت بها وسقطت على الأرض. وجدوا ذلك مضحكاً جداً. كان باستطاعتي سماع ضجيج الأجهزة اللاسلكية بينما كنّا نتلمّس طريقنا عبر العتمة. «موت اللي كرفك! طاح حظّك»، جعلوا يزعقون فيما كنت أجهد لاستعادة توازني. بين الوقت والآخر كانوا يشتموننا أو يبصقون علينا. تقدمنا بضع خطوات ثم طلبوا منّا أن نعتلي، درجة، درجتين، ثلاث درجات. ما زال باستطاعي تذكر الرقم بالتحديد. اعتلينا الدرجات وظللنا بعدها متقاطرين واحدنا في أثر الآخر، وفي حال من العمى الكلّي.

أن نكون عمياناً مسألة مهمة جداً بالنسبة إليهم. لست أعرف السبب تماماً. كانوا لا يريدوننا أن نعرف أين نحن، لأسباب نفسية ربما. عندما لا يعرف المرء أين هو يشعر أنه منسيّ، غارق في الخوف، وأكثر قابلية للاعتراف بما يرغبون في الاعتراف به. الخوف من المجهول أعظم خوف على الإطلاق. كانوا اتخذوا كل الاحتياطات لكي لا نعرف أين نحن، ومن هم هؤلاء الأشخاص المحيطون بنا. حتى بعد أن عرفت في أي مكان أنا، احتفظت بمعرفتي هذه لنفسي وحدها. أولئك الذين صفعوني وضربوني وصرخوا فيّ وهم يطرحون عليّ الأسئلة، كشفوا لي أسماءهم: عباس، حسين الخ... لكن هذه الأسماء كانت مزيّفة بالطبع. وهذا عادي(٥).

جعلوا يدفعوننا بأيديهم ويعنّفوننا فيما هم يوقفوننا مصطفّين واحداً وراء الآخر، وكان البرد قارصاً. بعد ذلك فكوا الأغلال ونزعوا عن أعيننا العصبات. ثم أمرنا بأن نفتح أعيننا. كنّا داخل بناء مربّع في وسطه فناء، وبدت النوافذ جميعها تطلّ على الفناء، إذ لا نوافذ تطل على الخارج. تصوّروا مربعاً داخل مربع أكبر. المربع الداخلي عبارة عن ساحة إسمنتية تحيط بها النوافذ، وما تبقّى كان كله غرفاً. لقد بدا المكان أشبه بفندق.

وقع نظري أولاً على مكان كأنه قاعة، أرضيّته ونوافذه فسيفسائية. كان ثمة ثلاثة أبواب خشبية، إلى ناحية اليسار، أما إلى اليمين فليس إلاّ ساحة الفناء، ولم يكن منظر تلك الأبواب مخيفاً. جرّونا كالقطيع إلى داخل غرفة استجواب كان يجلس في وسطها موظف وراء مكتبه، أمرنا بخلع ملابسنا. «أنتم!! إخلعوا ملابسكم». بدا أشبه بذلك النوع من الحمقى الذين تراهم في الدوائر الحكومية كما يقول المثل «زمال الله بأرض الله» [الزمال يعنى الحمار في اللهجة الدارجة العراقية].

خلعت قميصي ثم بنطالي وانتظرت أن يقول لي «هذا يكفي». كنت خائفاً جداً أن أسأل إلى أي حد يريدني أن أتعرّى. وبما أنه لم يقل شيئاً، تابعنا حتى أصبحنا نحن

مكتبة الفكر الجديد

الخمسة عراة كلياً. كانت النوافذ قد تركت مشرّعة عمداً، برغم البرد الجليدي القارس. وكان جميع الحرّاس متدثّرين دافئين في ستراتهم العسكرية السميكة. ليست لديك أية فكرة كم كانت درجة البرد، لكن أحدهم زعق بي: «لماذا ترتجف أيها الجبان؟ ماذا تفعل هنا إن كنت لا تستطيع التحمل»؟ هكذا، كما لو أني جئت إلى هنا بمحض إرادتي.

أُعتقل خمسة أشخاص في تلك الليلة، بمن فيهم جعفر وهو صديق سابق لي، ولاعب كرة قدم من الدرجة الأولى كان يسكن في مدينة الثورة[٦]. الشخصان الآخران لم يسبق لي أن رأيتهما من قبل. كنا أنا وشقيقي وجعفر ننظر إلى بعضنا البعض بين وقت وآخر. ساروا بنا عبر رواق طويل، جاعلينا نقف في صف مستقيم مثل ماكينات صغيرة، وكل واحد منا بمواجهة باب زنزانة مختلفة ولكل باب نافذة ذات قضبان حديدية رفيعة. سمعت طقطقة بدا لي صوتها صوت مئة قفل، وفتح الباب الحديدي، ودفعت بعنف إلى الداخل بركلة على قفاي.

ما كنت لأرى منظراً كهذا حتى في أبشع كوابيسي. أشخاص ناحلون إلى درجة مخيفة بعيون مجوّفة سوداء وبشرات مبيضّة وملطّخة ببقع زرقاء كامدة وصفراء. كانو مثل الزومبي[*]. كانت رؤوسهم محلوقة ويرتدون دشداشات ممزقة. وأحدهم كان يرتدي نصف دشداشة بالتمام، فيما ارتدى آخر مزقة منها بالكاد تغطّي نصف مؤخرته. دخلت عارياً. لم ينبس أي منهم بحرف. حدّقوا بي وهم فاغرو الأفواه كما لو انه لم يسبق لهم أن شاهدوا آدمياً من قبل. كان الأمر كما لو أني أتيت من كوكب آخر، وبدأوا يتحسسونني ويلمسونني بأيديهم. فكرت أنهم لم يعودوا آدميين بالمعنى الذي أعرفه للكلمة، طوال خمس دقائق كاملة لم يوجّه إليّ أحدهم كلمة. كنت مذعوراً كلياً.

قال أحدهم أخيراً وهو يلهث بعمق: «الله كم هي رائعة رائحة العرق»[٧]. كان ذلك أول شيء سمعته منهم. «تعال إجلس هنا»، قال لي أوسمهم، بنبرة متوددة، وبدا كما لو انه أجنبي السمات: أقرب إلى أن يكون أميركياً: أشقر، موشوم الذراع، ويرتدي أنظف دشداشة بين دشدشات المجموعة.

سألني: «ما إسمك»؟

«عمر».

«ما الذي فعلته»؟

«والله لست أدري».

(*) ملاحظة المترجم: شكل عجائبي أو ميّت أعيد الى الحياة من غير أن يستعيد إرادته وقدرته على الكلام.

«لا تدّعي البراءة. إن كنت ارتكبت ذنباً، قل ذلك. استطيع أن أُساعدك. استطيع أن أُلقنك ماذا ينبغي أن تقوله إن جاؤوا وطلبوك للإستجواب».

وأنا أستيعد ذلك الآن يخالجني شعور بالإمتنان لذاك الرجل. آنذاك، ارتبت منه بطبيعة الحال. لماذا كان، على خلافهم، نظيفاً ومرتباً؟ لقد دعاني إلى الجلوس والإستلقاء إلى جانبه. كانت لديهم في الزنزانة قماشة، هي دشداشة في الأصل، يستخدمونها لتنظيف الأرض ولمسح القيء. نتنة الرائحة ومكسوّة بالبراغيث. أعطاني الرجل الأشقر إياها لأكسو جسمي بها. وعلى الرغم من النتانة والقمل رأيت أنها أفضل من لا شيء. ارتديتها، إذ كيف لي أن أرفض؟ فأولئك الرجال أعلى مني رتبةً، وشعرت أنه يتوجب عليّ إطاعتهم.

ثم انكسر حاجز الصمت، وبدأت الأسئلة تنهال عليّ من كل الجهات، ودائماً حول الموضوع نفسه. ما سبب وجودي هنا؟ ما الذي فعلته؟ كم عدد المتورطين في المسألة؟ أو هل كنت أحتسي الشراب في الشيراتون؟ ولم اتوقف أنا عن القسم لهم بالقرآن بأني لا أعرف شيئاً. لم يصدقوني، أو على الأصح بعضهم صدّق والبعض الآخر لم يصدّق. يجب أن تفهم، أولئك الرجال ما كانوا متخلّفين عقلياً أو ما يشبه ذلك، على العكس، اكتشفت شيئاً فشيئاً انهم كانوا جميعاً أذكياء جداً - أكثر ذكاء ممّا يمكن أن يراودك حين تنظر إليهم للمرة الأولى. كانوا بكل بساطة قد تأقلموا، مثل الحيوانات، مع محيطهم الجديد.

حدست أن الأشقر كان الأحذق والأوسع تجربة بينهم. بدأ يتحدث إليّ بهدف أن يتصوّر السبب الذي جعلهم يعتقلونني.

«هل كنت تجتمع مع كثيرين على الشراب أو اللهو أو ما شابه»؟

أجبت: «أجل».

«أي نوع من الأشخاص كنت تعاشر»؟

أخبرته.

«حسناً، الآن أعرف لماذا أنت هنا».

«لماذا؟»، سألت، «أنا نفسي لا أعرف».

«لا بد أنك قلت شيئاً ما».

قال لي ان اسمه سعد السامرائي، «إن رويت لك قصتي لن تصدّقها».

سألته: «ما قصتك»؟

«أنا إسباني».

«ماذا؟ صحت متفاجئاً.

مكتبة الفكر الجديد

«تزوجت من إسبانية وأصبحت بذلك مواطناً إسبانياً. كنت ناشطاً مع المعارضة في إسبانيا»، وأضاف، «في أحد الأيام تلقيت اتصالاً هاتفياً من السفارة وطلبوا مني أن أعرّج عليهم. ذهبت إلى هناك وقدموا لي كوباً من الشاي. حين فتحت عينيّ مجدداً وجدت نفسي في هذا المكان».

هذا هو بالتمام ما أخبرني إيّاه الرجل. لا أعلم إن كان يقول الحقيقة أم لا. كان مسجوناً منذ سنتين وهو في أواخر ثلاثيناته.

قال إنه سوف يلقنني عدداً من القوانين والإجراءات الضرورية من أجل البقاء على قيد الحياة في هذا المكان. كان سيخبرني بشأن تلك الأمور شئت ذلك أم أبيت، ففي كل زنزانة هناك نزيل يطلق عليه اسم «الأقدم» كان السجّانون أنفسهم يعيّنونه، ولم يكن ذلك لأقدميته، بل لإمتلاكه مواصفات القائد، وهو لم يُختر للتجسس على من هم معه، بل من أجل تنظيم أمورهم وتسويتها. مثلاً لم يكن الحرس على استعداد لإضاعة وقته بإفهامي أن أدعو واحدهم «سيّدي». تركوا ذلك لسعد الذي علّمني ماذا أقول، وأيضاً بالنبرة المناسبة التي يجب أن أقول بها ذلك.

علّمني أيضاً إجراءات المرحاض. حين يأتي دور إحدى الزنزانات، يُفتح الباب، ويجثم الجميع بانتظار الإشارة، ثم... ركضاً إلى هناك. حين يصل العدّ إلى رقم العشرة يتوجب عليك أن تكون انتهيت من كل شيء وعدت إلى الزنزانة، فإن تجاوزت العشرة أشبعوك ركلاً وصفعاً. أذكر ذلك الرجل العجوز الذي فشل مرّة في ذلك. وجعل يبكي. كان للضعف البشري القدرة على إثارة اهتياج الحراس جميعهم. عرّوا الرجل من ثيابه ومدّدوه على بطنه. كانت الأرضية كما أذكر مبلّلة وكان الصقيع فظيعاً. ثم داس عليه الحارس وجعل يمشي فوقه ذهاباً وإياباً. كان جسم العجوز يرتجف كلّه وجعل يبكي كالطفل. وحينما روى الحارس غليله قال له: «لقد سامحتك هذه المرّة. إنهض وأذهب»!

لم يكن يُسمح لك كذلك بالركض إلى المرحاض بطريقة طبيعية، أي على قدمين. كان على كل نزيل أن يركض منحنياً شبه جاثم مدلياً يديه لتلامسا الأرضية. كانوا يسمّونها «ركضة القرود»، وكان ذلك يجري ثلاث مرّات في اليوم، بعد كل من الفطور والغداء والعشاء (في أثناء ذلك كان يتوجب أن تشطف الوعاء الذي كانوا أحضروا فيه لك الطعام). كنا كلنا نركض إلى المرحاض بهذه الطريقة مخفّضين أنظارنا نحو الأسفل، غير ملتفتين إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولا إلى الوجوه على نحو أخص. لم يكن المرحاض بيت خلاء لائقاً، بل أشبه ببِرِيكة في الأرض تقضي فيها حاجتك.

لقنني سعد كل تلك الأمور الروتينية الأساسية من غير أن أطلب منه ذلك، وكانت

مكتبة الفكر الجديد

كلها ضرورية بكل ما في الكلمة من معنى، من أجل أن لا تتعرّض للضرب.

لاحقاً استطعت بنفسي اكتشاف التفاصيل الحسّاسة والأساسية. كان في المقدور إيجاد سبيل لتجاوز القوانين، وكان ذلك يتوقف على الحارس، أو على درجة التوتر الظاهرية في السجن. كان بعض الحرّاس أكثر تساهلاً من البعض الآخر. بعض الأوغاد منهم كانوا يجدون متعة حقيقية في الاستعجال بالعدّ، أو في العد بشكل متقطّع، كي لا يتسنى لك أن تعرف أبداً كم تبقّى لك من الوقت. كان آخرون يكرهون ما يفعلونه، ويجرون العدّ ببطء. والقيام بالعد على وتيرة بطيئة كان أمراً بطولياً بين زملاء من ذاك الصنف، فليس بالضرورة أن يكون الرجل وحشاً لمجرد انه يعمل في مكان كهذا.

وهو حضّرني كذلك لمواجهة استجوابي، الذي كان سيبدأ في الصباح. أدرك كم كنت خائفاً، وكان يتكلم بهدوء وبتمهل من غير أن يتوقع مني أية ردة فعل.

«أولاً سوف يعصبون عينيك ويجعلونك تنتظر طوال ساعات قبل أن تمثل أمام المسؤول عن استجوابك. سوف تصاب بالهلع. سوف تسمع زعيقاً وصراخاً ـ لا تهتم لذلك.

ثانياً عندما ينزعون عُصبتك سترى آلة تسجيل. سترى أيضاً حبالاً وسلاسل وهراوات وأسلاك جَلْد. إنها موضوعة هناك لترويعك. سوف يقولون لك ان هناك حديثاً لك مسجّلاً داخل آلة التسجيل. سوف يقولون لك إنهم سيدلّونك من السقف معلقاً برجليك وسيضربونك بالهراوات. لا تصدّق ذلك. لا تجزع. كل ذلك ليس سوى تمثيلية. أهم ما في الأمر أن لا تعترف أبداً بشيء لم تقم به.

الأهم من كل هذا أن لا تذكر عدداً كبيراً من الاسماء أو أحداثاً معيّنة. حتى لو أملوا عليك أسماء حاول ان لا تصادق عليها. لا تضف أية تفاصيل على ما يروونه. كلما أكثرت من الاسماء طال استجوابك، وكلما طال استجوابك ازددت تأذياً».

إن قول تلك الأشياء أسهل من القيام بها! كان يقدّم لي صورة داخليّة عن حيل رجال الأمن. لم يكن لديه ما يخسره، كما يقال، وكانت لديّ، في البداية، بالتأكيد شكوك بشأن سعد. وهذه الشكوك دامت إلى أن تأكدت من صحة ما قاله، وأدركت أنه لا يمكن أن يكون عميلاً لرجال الأمن. كان سعد رجلاً طيباً ونقياً. وهذا كان أسلوبه في النضال ضد النظام.

قال: «إن انقاذ أي عراقي هو بمثابة خدمة تقدمها للبلاد». ماذا كان سيكسب من قول شيء كهذا لي أنا؟

مكتبة الفكر الجديد

بقيت في زنزانة سعد السامرائي يوماً واحداً فقط، ولم أرَ ذلك الرجل مجدداً بعد ذلك على الإطلاق، لكنني سأبقى ممتناً له إلى الأبد.

ومن بين الرجال الآخرين الذين كانوا معي في الزنزانة، ما زلت أذكر ذاك الشاب الهزيل إلى حد لا يصدّق. عمره ٢٤ أو ٢٥ سنة وكان يجلس وحيداً في الزاوية. كان يعتقد، من غير أن يكون متأكداً، انه ربما مضت عليه قرابة الأربع سنوات في تلك الغرفة بالذات، في تلك الزاوية بالذات، وكان متهماً بجمع التبرعات من أجل حزب معارض، إبان فترة خدمته الإجبارية في الجيش العراقي.

آخرون في الغرفة لم يكن صدر بعد أي حكم عليهم، ولا هم استُجوبوا. كانت أُرجئت مسألتهم وكأنما إلى الوقت الملائم، كما لو أنهم رهائن. على سبيل المثال رأيت رجلاً عجوزاً لا علاقة له بالسياسة لا من قريب ولا من بعيد، فرّ أولاده الناشطون سياسياً وأُلقي القبض عليه في انتظار أن يسلّموا أنفسهم، أو يلقى القبض عليهم.

احتشد في زنزانتنا التي تبلغ مساحتها ٢,٥ متر طولاً و٢,٥ عرضاً ثمانية عشر شخصاً وكنت أنا الرقم ١٩. الجميع ينام على جنبه لا على بطنه أو ظهره. كانوا ينظّمون أنفسهم في صفّين: مجموعتان من الرؤوس تتتالى كلّ مجموعة منها لصق حائط، ومجموعتان من الاقدام تتجهان متعاكستين نحو الوسط. كانت الاقدام تتشابك والأشخاص يركل بعضهم البعض أثناء النوم من غير أن يفيق النائمون، علماً أن تلك الركلات كانت عنيفة أيضاً!. مرة قام أحدهم بقلب دلو، ثم جلس عليه ونام متكئاً على الباب.

وكان الضوء يترك مشتعلاً طوال الليل، وكل عشر أو عشرين دقيقة يطل رأس ليتلصص على نومنا. أنا، في تلك الليلة الأولى، عُصرت في الوسط، وعانيت من التنفس، إذ كان أنفي محشوراً في ظهر زميل لي أمامي. كنت الوحيد في الغرفة الذي لم يستطع النوم أبداً طوال ما تبقى من الليل، إذ الجميع كانوا قد اعتادوا على ذلك الوضع.

عند الصباح، رجّت الباب ركلة عنيفة، إذ لا أحد يقرع الباب في هذا المكان. انفتح بعنف وهتف الحارس الواقف أمام الباب بإسمي. عصبوا عيني وكان هذا حقاً أكثر ما كرهت. إنها عصبة متقنة الصنع هذه المرّة.

أمرني الحارس بالتقدم، ثم بالتوقف، ثم بالمتابعة ثم بالتحوّل يساراً إلخ. وفي النهاية أمرني بالجلوس. كان ذلك يعني الإقعاء لأن الجلوس على الكراسي ممنوع. كان ينبغي أن

مكتبة الفكر الجديد

نُقعي حين يأمرنا الحارس بالجلوس. جلست معمياً كخفّاش، مواجهاً الحائط طوال خمس ساعات على الأقل.

لم أعرف أين كنت. اعتقدت أني داخل رواق أو ممرّ ما، لكن ليس في وسعي الجزم بذلك. كان حارسي قد وضعني مباشرة بمواجهة نافذة مفتوحة، وقد تقصّد ذلك، أنا متأكد من هذا. الهواء الجليدي كان يصفع بقسوة جسدي العاري، ولم أكن ارتدي إلاّ تلك الدشداشة الممزقة والبالية. كنت عملياً عارياً ومعصوب العينين ومواجهاً الحائط، وجاثماً عاري القدمين على بلاط الأرض، وذلك في شهر كانون الأول/ديسمبر ـ حاولوا أن تتخيّلوا كيف كان الأمر! الهواء البارد يخترقني كسكّين. كان البرد أسوأ ما في الأمر. من غرفة مجاورة تناهى إلى سمعي صخب استجواب. متى سيحين دوري؟

لم يكن يجري أي تعذيب خلال الاستجواب. مجرد كلام يتخلله ضرب بين الحين والآخر ـ لكن ليس تعذيباً. ثمة فرق بين الصفع والركل واللكم وحتى الجَلْد وبين التعذيب الفعلي. إني أسمّي كل هذه الأشياء ضرباً. كان الحرّاس يهتفون: «محمدْ»، «علي»، «مهدي». عرفت أسماء الأشخاص الذين اعتقلوا معي أو الذين كنت أعرفهم. لا بد أنهم كانوا قد بدأوا الاستجواب الخاص بقضيتنا، كائنة ما كانت القضيّة ـ كانوا يطرحون الأسئلة، يركلون المؤخرات، يصفعون الوجوه، يزعقون بالأوامر، ويجلدون الظهور. سمعت هذا كلّه.

شعرت كما لو اني وحدي داخل ذلك الرواق، وكان ثمة أناس يجيئون ويذهبون، وأبواب تفتح وتغلق. هل كان هناك حارس يراقبني طوال الوقت؟ لست أعرف حتى هذا. لا بد أنه كان هناك سجناء آخرون جاثمين على مقربة، غير أني لم أكن أعلم ذلك. هذا ما يخيف المرء المعصوب العينين.

بين الحين والآخر كنت أتلقى صفعة على رأسي أو ركلة أو لكمة تأتيني من أحد جانبي، وفي أثناء ذلك كان من غير المسموح الوقوف أو القيام بحركة، أو أنني كنت أسمع: «أنت يا ابن العاهرة!» من دون أن أتأكد إن كنت أنا المقصود بذلك.

ثم نادى صوت من الداخل على الحرّاس: «أدخلوا أياد»: وأياد هو شقيقي. كنت استطيع سماع صوت المحقق بوضوح كل مرّة كان يفتح الباب. ثم سمعت المحقق يقول؛ «أهلاً، من ذا لدينا هنا، أبو ريا»، وريا اسم ابنة شقيقي. كان يريده أن يدرك أنه يعرف أن له ابنة تدعى ريا، ولهذا تأثير كبير على نفسية من يُحقق معه. «كيف حالك يا أبا ريا؟

مكتبة الفكر الجديد

أخبرنا»، ثم أُقفل الباب وما عدت استطيع سماع ما يقال. بتّ لا أسمع إلاّ أصواتاً مكبوتة كأنها آتية من مكان بعيد. كان قد مضى بالتأكيد أكثر من ساعة على ادخال أخي حين استدعوني أخيراً.

غرفة الاستجواب مفروشة بالسجاد ودافئة، وفيها جهاز تدفئة مشتعل. أمروني بالإقعاء: «كيف حالك يا عمر؟» سألني صوت خفيض آتياً من مكان ما أمامي. «أخبرني كيف نظّمتم أنتم الفتيان لقاءاتكم السياسية»؟.

فوجئت تماماً بذلك ولم أجب. كان هذا أحد الأسئلة التي لم تراودني طوال تلك الساعات التي قضيتها مقعياً معصوب العينين، محاولاً تصوّر ما سيحدث لاحقاً. خطر لي أن أفضل طريقة لاستيعاب الوضع هي البقاء صامتاً. لربما كنت متوتراً جداً وكان توتري يمنعني من قول أي شيء. كانت مقاومة رغبتي بالموافقة أو نفي الأمر ستمنحني الوقت لتنظيم أفكاري. وبمطلق الأحوال، لم تكن لديّ فكرة عما كان الرجل يتحدث عنه، لذلك لم أنبس بكلمة.

ثم تابع، «أنت مضادّ للحزب وللثورة». كانت هذه التهمة الأكثر نموذجية. «أنت حاقد على النظام كما أنك شتمت صدّام». لم يستخدم عبارة «سيدي الرئيس» التي كان يتوجب على أكبر الرؤوس في النظام استخدامها عند ذكر اسم صدّام، ولكن ذلك لا ينطبق على هذا المكان. كان لهذا الرجل الامتياز الكبير الذي يجعله يقول صدّام وحسب. ذُعرت لدلالة ذلك، وهي أن الرجل عظيم السلطة. كان ذعري إذ ذاك مخيفاً ولم أعرف له مثيلاً طوال حياتي. رحت أرتجف كلياً وكان في مقدوره أن يرى ارتعاش كل عضلة في جسمي.

أجبت: «أنا لم أقل تلك الأشياء يا سيدي».

صرخ فجأة بعنف: «بل إنك قلت ذلك»، ولدينا شريط مسجّل. انزع العصبة عن عينيك!». وجهدت عبثاً لأرفع الرباط اللعين، فاستشاط غضباً مني: «انزع العصبة يا حمار»، وكان يزعق هذه المرّة. فيم شرع صوتان أو ثلاثة يأمرونني مرة واحدة وفي الوقت نفسه.

«انزع القسم الأمامي أولاً».
«ارفعها إلى الأعلى قليلاً».
«عجّل، ليس لدينا النهار كله»!

كنت مرتبكاً كلياً. وحين أفلحت في نهاية الأمر في نزعها لم استطع تصديق عينيّ.

مكتبة الفكر الجديد

أهذا هو المحقق! بعد ان سمعته يزعق ويطلق الشتائم، كوّنت انطباعاً مغلوطاً كلياً عن شكله الخارجي. ما كان ليخطر لك انه محقق لو رأيته في الشارع. لم يكن لديه شاربان - أنت تتوقع من رجل في هذا الموقع أن يكون له شاربان على طراز شاربي صدّام!. كان شعره قصيراً من الأمام وطويلاً من الخلف. يرتدي بنطال جينز وسترة ملوّنة فوق قميص تي شيرت بلون واحد، وكان عمره أقل بكثير مما يمكن أن تتوقع. كانت لهجته مزيجاً من عربية الصحف الفصحى ومن العامية المحكيّة بلكنة شيعة جنوب العراق. كان من المستحيل أن تصدّق أن شخصاً بمظهره اللطيف ذاك يمكن أن يمتلك ذلك الصوت المريع. أول ما رأيته حين فتحت عينيّ هو ذلك الرجل، محققي، جالساً وراء طاولة وأصابعه فوق أزرار مسجّلة موضوعة أمامه.

بدا الأمر غير قابل للتصديق - كان كل شيء يجري تماماً كما قال. غير اني كنت مقتنعاً أن في حوزته وفي مكان خفيّ شريطاً للتسجيل. لقد كان، في النهاية، هو السلطة. فهل يمكن للمرء أن يأخذ بكلام سجين زميل ويكذّب هذا الرجل؟ لم يكن هناك أي شك في المسألة، فما قاله لي سعد بقي في ذهني وأثبت لاحقاً أنه مفيد جداً. نصائحه جعلتني أمتنع عن الإجابة بسرعة عن أقوال المحقق، ولو لم أحذّر سابقاً لكنت أفشيت أشياء ندمت عليها لاحقاً، وكيف كان سيتسنى لي أن افلت بعدها من تلك الورطة! فما يفصل بين الحياة والموت في مكان كهذا عرض شعرة، كان سعد قد جعلني أمسك بأحد طرفيها.

استمهلت نفسي ثانية ثم قلت: «لا يا سيدي أنا لم أقل شيئاً».

«لدينا هنا الشخص الذي سجّل ما قلته».

لكنه لم يشغّل آلة التسجيل. لو كان يقول الحقيقة لكان شغّلها. انه يكذب.

«من هو يا سيدي»؟

طوال ذلك الوقت كنت أنظر مباشرة إلى الأمام وإلى الأعلى باتجاه المحقق، من غير أن أُدير رأسي أبداً ولا حتى مقدار ذرّة. كان هذا ما يريده مني. لكن الرجل أمرني «أدر وجهك إلى اليسار».

إلى يساري، فجأة، لاح وجه صديقي نبيل. كان حليق الذقن، يرتدي بأناقة شديدة البذلة الزرقاء العسكرية الخاصة بسلاح القوة الجوية. حتى وأنا اتحدث إليكم الآن، في مقدوري أن أتصوّر القبعة الزرقاء خاصته، كيف كانت مثبّتة وزاهية فوق أحد جانبي رأسه. اقشعر بدني. ماذا أفعل بمواجهة ذلك؟ نبيل عميلهم وقد وشى بي. هل كان يعني الأمر غير ذلك؟

مكتبة الفكر الجديد

عند هذه النقطة الحساسة، وبالكاد واعياً ما كنت أفعله، قمت بخطوة ذكيّة جداً، أظن أنها هي ما انقذني. بدل أن أنكر معرفتي بنبيل أو أغضب، أو أظهر أي نوع من الضغينة حياله، ابتسمت له بلطف.

«مرحبا نبيل، كيف حالك»؟

إنبرى المحقق بصوت مرتفع «إذاً أنت تعرفه».

«بالطبع أعرفه. نبيل صديقي».

شعرت أن نبيل ارتبك كلياً.

تدخل المستجوب بغلظة سائلاً إيّاه: «ماذا لديك لتقوله يا نبيل. هل شتم صدّام أم لا».

«نعم سيدي، لقد فعل ذلك، لقد تحدث». أجاب نبيل بنبرة خانعة، وبابتسامة مصطنعة مقيتة ارتسمت فوق كل وجهه، غير أن لونه كان امتقع كلياً. لقد تبدّلت الأمور. تابعت نافياً قولي ذلك لكن من دون أن أُهاجم نبيل بأي شكل من الأشكال. لكني كنت أغلي من الداخل كراهية، خصوصاً بعدما اكتشفت انه روى للمحقق كل أنواع التفاصيل الشخصية بشأن صديقتي.

«قل لي يا عمر هل تضاجعها داخل منزل أبيها؟ أُريد أن أعرف كيف يمكنك أن تفعل ذلك. تكلّم! في الواقع كنا نراقبك تلك المرة حين فعلتها في السيّارة. لقد سجّلنا ذلك على شريط»!

لم أجب بشيء، ثم بدأ يهاجم أبي شبه المشلول بسبب جلطة دماغية أصابته بالصدفة خلال إحدى المعارك في الحرب العراقية ـ الإيرانية، حين كان أخي في الجبهة والعائلة كلها في قلق عليه. قال الطبيب آنذاك إن الضغط النفسي كان أحد أسباب الجلطة، ومذ ذاك نشأت بيني وبين والدي علاقة مميّزة. كنت أنا من يحلق له ذقنه. وكنت من يحمله إلى المرحاض وينظفه كل يوم. كما كنت الوحيد الذي يفهم كلماته بعدما أصبح صوته غير مفهوم بفعل الشلل.

«من الواضح أن أباك ابن حرام لعين لكي يجلب إلى العالم أولاداً مثلك ومثل أخيك. إنه يستحق المعاقبة».

حتى هذه الكلمة كان المحقق ما يزال يتحدث بصوت خفيض. ثم صرخ فجأة بصوت زاعق كاد يهوي معه سقف الغرفة.

مكتبة الفكر الجديد

«سوف أجلبه هذه اللحظة وأشنقه هنا. يا حراس! أحضروا الوالد. أحضروا والده أبن الحرام».

كادت دموعي تنهمر عندما قال ذلك. لم يعد في مقدوري رؤية أي شيء، وشعرت أني منحط لكوني سببت كل ذلك الألم لرجل أنشأني وربّاني.

«سيدي، حماك الله، أرجوك سيدي، إن أبي مشلول. لقد كان أحد ضباط العراق القوميين عام ١٩٤١، انه رجل مريض. أرجوك يا سيدي، حماك الله ورعاك. إنه قومي عربي كبير».

بدا كما لو أن انهياري ومناشدتي بالقومية أثرا في المحقق وشعرت كأنه احترمني لكوني أحاول حماية والدي. ربما لم يكن قد عرف أن أبي كان أمضى أربع سنوات في سجون النظام الملكي السابق بسبب الدور الذي لعبه في ١٩٤١. ولانقلاب رشيد عالي مكانة مهمة في نظر البعثيين.

أمر الحرّاس بالإنصراف وكانت تلك نهاية أول استجواب لي. أُرسلت إلى زنزانة أخرى كانت تضم سجينين آخرين فقط. في اليوم التالي، إبان قيامي بركضة القرد إلى المرحاض، رأيت نبيل، نصف عار مرتدياً اسمالاً متسخة مثله مثل الآخرين. كان نبيل يلعب دورِ المخبر في تمثيلية كبيرة كانت نظّمت من أجلي. كان واقعاً في المأزق مثلي! بل كان وضعه أسوأ من وضعي. في نهاية الأمر أمضيت ٤٢ يوماً في السجن ثم حكم عليّ بالبراءة، بينما حكم عليه هو، ذاك التعس، بالسجن مدى الحياة.

لست أدّعي القداسة، فالقديسون يموتون في العراق. الأفضل أن تكون حاذقاً وتعرف كيف تتأقلم مع الأمور. سبق لهم أن وضعوني في موقف كموقف نبيل، وذلك قبل اعتقالي بوقت طويل. الأمر كان يتعلق بصديق لي، **هاشم**، الذي كان من مدينة العمارة. وكان هو الآخر شيعياً من الجنوب، مثل المحقق الذي استجوبني. كان في وحدتي في الجيش وكان معجباً جداً بالخميني شأنه شأن الكثير من العراقيين في أوائل الثمانينات. ولسوء حظه لم يكن ذكياً ولا حذراً. كان يتحدث بطلاقة عن الثورات الإسلامية، وان لم يقم بأي نشاط في هذا السياق. كان يتكلّم وحسب.

في يوم من الأيام استدعاني ضابط الاستخبارات في وحدتنا إلى غرفته، وما أن دخلت حتى أقفل الباب ورائي. كان هناك ثلاثة رجال في الغرفة وعلى الفور بدأوا يغمرونني بالمديح. «أنت رجل طيب، ومن عائلة محترمة»، وكل ذلك النوع من الهراء. كان رجال مخابرات من يمتدحونني، وبالطبع خفت. حدستُ بمشكلة ما، ولم يكن من

مكتبة الفكر الجديد

مجال للتهرب، فأولاد الزانية كانوا يحيطون بي. ماذا كان في المسألة؟ كنت أتساءل. وفجأة ألمحوا إلى شيء ما، وسط الثرثرة والبربرة، يتصل بـ «صديقي» **هاشم**. كانوا يريدون النيل منه.

«آه، هو» أجبتهم قبل أن تتسنى لهم فرصة قول ما كانوا يريدون طوله. «إنه ليس في الواقع صديقاً».. الأمر لا يتعدى كوني أقلّه معي بين وقت وآخر». إن رفضت العمل معهم سأصبح مشبوهاً على الفور. وبما يشبه الإلهام، تابعت بالوتيرة ذاتها، «لماذا بحق الله لم تطلبوا مني أن أتجسس عليه من قبل؟»، سألني الضابط الأعلى «ماذا تعني؟» أجبت: «في الواقع، لقد مدحت الحكومة أمام **هاشم** أكثر من مرّة، ولا بد أن لديه الآن انطباعاً راسخاً بأني بعثي ملتزم. أنا واثق من أنه ما عاد يثق بي». كانت تلك خطوة ذكية من ناحيتي، حتى لو كنت أنا من يقول ذلك. لن تصدّقوا ماذا جرى بعدها! جعل أولئك الأغبياء يلقون اللوم على بعضهم البعض لأنهم لم يطلبوا مني أن أتجسس عليه في وقت سابق. لكنهم بعد وقت قليل استطاعوا النيل منه عبر شخص آخر.

تلك المرّة استطعت الإفلات بسرعة. ولكن في هذه الورطة أدركت أنه لم يكن بوسعي الإفلات بسهولة. خضعت لعدة جلسات استجواب إضافية بعد تلك الجلسة الأوليّة، ثم تُركت وشأني في النهاية. كانوا منشغلين جداً بفرز مجموعات جديدة من الناس كانوا يُعتقلون بالتهمة نفسها. ماذا كان الهدف من كل ذلك؟ تمثيليات وألعاب! صدقوني هذا كل ما في الأمر، وكل ما تهدف إليه الاعتقالات برمتها. انتهى بي الأمر في تلك الجلسات إلى أن وشيت بصديقين لي، وقد كان كلاهما متورطاً.

الشخص الأول كان **حسين حلبوص**، وهو الذي تسبب بذلك الكابوس كله.

كان **حسين** ممثلاً تلفزيونياً فاشلاً من الدرجة الثانية، لا يتوقف عن إعداد الخطط للهرب من العراق. كان ساذجاً إلى درجة غير معقولة، وسكيراً من الدرجة الأولى يندب باستمرار أيامه في الخدمة العسكرية وحظّه في عمله. لم تكن لديّ أدنى فكرة بشأن تخطيطه للفرار. ولكن هل يمكنك أن تلومه؟ فكل الشبان العراقيين الذين أعرفهم يفكرون في هذا. كان **حسين** قد أقنع نفسه بالهرب عبر المناطق الكردية إلى إيران. وكان يزعم أنه يميل إلى نظام **الخميني** الإسلامي على الرغم من انه كان يحتسي قنينة عرق كل يوم. سبق له أن تعرّف صدفة إلى كردي وعده بالقيام بكل الترتيبات، وطلب منه الكردي أن يكتب بعض الرسائل لإقناع الإيرانيين بصدق نواياه، وقد أهّله غباؤه للقيام بكتابة تلك الرسائل. هل تستطيع تصوّر ذلك؟ وطبعاً اتضح ان الكردي عميل للمخابرات العسكرية.

مكتبة الفكر الجديد

بعد وقت قليل تلقى حسين اتصالاً هاتفياً من إمرأة بدأت تغازله، زاعمة انها معجبة به. اهتاج ذلك الأحمق البائس. قبل ذلك كان يسكن مع ابن عمّه وكان هذا الأخير ملازماً أولاً في الجيش. كان رجلاً طيباً وصموتاً لم يورّط نفسه البتة بأية مشكلة. قالت له المتّصلة انها معجبة به وان شقيقتها معجبة بابن عمّه. حدّدا موعداً للّقاء قرب جامعة المستنصرية، وظهر في النهاية ان الموعد لم يكن غير فخّ نصبته لهما المخابرات العسكرية. وأُلقي القبض على حسين وابن عمّه معاً.

لم يعرف أي واحد منّا شيئاً عن كل ذلك. كل ما في الأمر أن حسين لم يعد يحضر لقاءاتنا المسائية الأسبوعية. عذّبوه شر تعذيب، معتقدين ربما انه عميل إيراني. وهو بالطبع جعل يغذّيهم بالأسماء، وكلما أفاض بذلك غرق أكثر في الوحل. رأيته مرة واحدة فقط، خلال منتصف فترة اعتقالي. كان نحيلاً كمذراة ومحدودباً كما لو أنه مشوّه البنية، يعرج نحو المرحاض مكبّل اليدين والقدمين بالسلاسل. كان حسين قد استخدم للوشاية بأخي أبان استجوابه. أخبرني أخي أيضاً أنهم جرّوا ابن عمّه التعس واجبروه على ضرب حسين على رأسه بالحذاء أمامه وأمام المحقق. هل بوسعكم أن تتصوروا التحقير والمذلة والتدمير الذي يلحق بالإنسان من جراء ذلك؟

اعترف حسين بكل ما يمكن أن يخطر ببال. ورّطني أنا وشقيقي ونبيل وكثيرين آخرين. كان هو الواشي المستلقي على أرضية سيّارة التويوتا اللاند كروز، والمغطى ببطانية. تلك الأسماء التي ورّطها، ورّطت بدورها أسماء جديدة وهكذا دواليك.

تصوّر كرة ضخمة من الخيوط كيف تنحلّ حين يبين طرفها السائب، وحسين كان ذاك الطرف السائب. وقد جرى في النهاية توريط ٤٥ شخصاً في تلك القضية وحدها، كنت أعرف ثمانية منهم. وحين وشيت بحسين، كان كل ما قلته في الواقع انه «مضاد للحزب» و«مضادّ للثورة»، وكان ذلك ما أرادوا سماعه.

مضت أشهر قبل أن يعدموهما هو وابن عمّه، ويسلّموا جثتيهما المحطمتين إلى عائلتيهما في صندوقين مختومين بالشمع الأحمر. إنه بالطبع مخالف للقانون في العراق أن يُفتح كفن يجري تسليمه في أحوال مشابهة، من أجل القيام بغسل الميت وتحضيره للدفن حسب تقاليد الإسلام وشريعته. ليس مسموحاً أيضاً أن تعلن العائلة الدفن، كما هي العادة في العراق، أو أن تعدّ للجنازة بالطريقة التقليدية. ينبغي أن يكون كل شيء سرّياً. حتى التابوت ينبغي أن يؤخذ إلى مكان معيّن مخصص «للخونة». كذلك تكتب إضافة إلى ذلك، بجلافة وطلاء يسيل على الجنبات، كلمة «جبان».

وإلى السرّية هناك أيضاً الكذب. كانت تتردد في السجن نكتة تتعلق بجماعة من

مكتبة الفكر الجديد

السجناء كانوا يدعون «جماعة العفو». كانت الحكومة العراقية، كما يعرف الجميع، تصدر بشكل مستمر عفواً خاصاً عن الهاربين من الجندية أو عن أشخاص فروا إلى خارج البلاد. بعض الحمقى البائسين وقعوا بالفعل في الفخّ وعادوا لتسليم أنفسهم. باستثناء مجموعة قليلة لا يزيد عددها عن عدد أصابع اليد، ممن كانوا يعرضون على التلفزيون، فإن من تبقّى من أولئك «المعفيّ عنهم»، كانوا موجودين معنا في السجن بانتظار إعدامهم.

لماذا برأيكم عوقب **نبيل** بالسجن مدى الحياة؟ لأنه كان ضعيفاً وتكلّم أكثر من اللزوم. صدّقهم حين قالوا له إن الأمور ستكون أسهل بالنسبة إليه إن هو قدّم لهم أكبر قدر من المعلومات. فالأمور لا تجري على هذا المنوال في السجن العراقي، وحزب البعث يكره الضعف عند الأشخاص، ويسحقهم بشراسة أشد حين يظهر ذلك بجلاء.

أخي الأكبر **أياد** حكم عليه بالسجن خمس سنوات لأنه ورّط نفسه، والغلطة التي ارتكبها **أياد** أنه حاول إرضاء مستجوبه معترفاً بأنه كان يعلم ان **حسيناً** هارب من الجيش. أنا اعترفت ببساطة أن رجلين كنت أعرفهما يكرهان النظام. وعندما لم يستطيعوا الحصول على أية تفاصيل إضافية مني، افترضوا، بما أثبتُّ ولائي، أني لا أعرف أي شيء آخر. كان استجوابي بنتيجة ذلك أقصر مدة وأقل أذيّة، تماماً كما قال لي **سعد** انه سيكون. يا إلهي كم أنا مدين لذلك الرجل!

لقد سبق لشقيقي **أياد** أن كان بعثياً منشقاً. شقيقي الآخر كان يسارياً نشأ في الخمسينات. لم نكن كلنا متأثرين بقومية والدي. أولئك الذين كبروا في الستينات أصبحوا بعثيين. الناس ينسون، لكن أن يكون المرء بعثياً آنذاك بدا من أكثر الأمور اعتيادية، والشيعة كانوا يفعلون ذلك بالتساوي مع السنّة. أنا أصغر سناً من شقيقيّ وحين بلغت سن الرشد في السبعينات كان الحكم لحزب البعث. بحسب وجهة نظري في رؤية الأمور، لا فرق كبيراً بين أن يكون المرء بعثياً أو شيوعياً أو قومياً عربياً، أو أن يكون، في أيامنا هذه، إسلامياً. يعتقد المرء انهم مختلفون؟ هراء! لكل ايديولوجياته الخاصة. إني لا أكره حتى ما يمثّله حزب البعث بالرغم من كل ما فعلوه بي. إنهم يريدون الوحدة العربية. حسناً. لا مشكلة. أنت حر في أن تفكر كما تشاء. لكن عليك ألا تؤذي شخصاً آخر وأنت تفعل ذلك. هذا كل ما أريده من الحياة هذه الأيام. غير أن الناس في العراق يؤمنون بالأشياء بشراسة حتى الموت... حتى موت الآخرين طبعاً. وهم يظلون على إيمانهم هذا بالرغم من حقيقة أن كل شيء يعتمد على العمر الذي كنت فيه حين تسيّست.

مكتبة الفكر الجديد

المحقق، الذي بدا رجلاً متديناً، كان يُظهر كرهاً حقيقياً لأياد. تسنى لي أن أعرف ذلك من معاملته له حين كنا نمثل سوياً أمامه: كان يقول باستمرار أشياء مثل «قسماً بصلواتي، بمقدساتي، إلاّ أخليكم تحكون» وبينما هو يتكلم بهدوء، يبدأ فجأة بالصراخ على نحو يكاد يخرجك من جلدك، ثم يبدأ بالضرب على الطاولة فيما هو يصرخ حتى لتخال انه يتعرض لنوبة عصبية. كان الحرّاس يأتون متدافعين ما أن يسمعوه، وكان خوفهم منه يضاهي خوفنا. فذلك المحقق كان يفرض سلطة هائلة من خلال صوته الرهيب. يأمرهم بضرب أياد (وقد فعل ذلك بنفسه مرة أو مرتين)، فينهالون على أخي وينقضّون عليه راكلين ضلوعه بأقدامهم ومشبعين وجهه ضرباً باللكمات. أولئك الحرّاس، من أجل محاكاة رئيسهم، كانوا يتحوّلون إلى حيوانات ضارية، إذ كلّهم توق وحماسة إلى ارضائه. ثم يأمر فجأة: «توقفوا، أخرجوا»، فيتفرقون وينفضون كما لو أنهم مجرد حثالة. وفجأة يتحول إلى شخص آخر من جديد، ويصير مخلّصك، فتبدأ تشعر نحوه بمودة حقيقية. كان رجلاً في غاية الغرابة.

أنت تكره فظاظته بالطبع، لأنك تدرك انه يتلاعب بك مستغلاً ضعفك. ولكن خلال الاستجواب تشعر انه قادر على أن يكون لطيفاً، واستدراج تلك اللطافة هو شأنك ومهمتك. لكن على الرغم من غرابة أطواره كان قديراً جداً ومتمكناً من مهنته. كان عليه أن يستقصي موضوعه من خلال ٤٥ شخصاً، متقصياً المعلومات ومحققاً مراراً وتكراراً مع معتقلين مختلفين. وكان عليه في النهاية أن يقدّم تقريراً متكاملاً يربط فيه العناصر المتفرقة ويجمع بينها. ثم كانوا سيحكمون عليه من خلال ذلك التقرير. فهل مقدوره أن يستنتج أن حسين حلبوص كان مجرد متسكّع؟ وان كل الجهد الذي بذل في اعتقال ٤٥ شخصاً واستجوابهم كان تافهاً وغير ذي نفع؟ بالطبع لا. فالاستجواب في العراق لم يعد مجرد معلومات استخلصها زعران يستخدمون حُزم الأسلاك أو ينهالون على المستجوبين بقبضاتهم[٨]. إنه مسألة بسيكولوجية، ولعب مسرح. والجميع يلعب ويقوم بأداء أدوار.

نلت حصتي المناسبة من الصفعات والركلات واللكمات، ولكنها ليست مما يمكن أن أدعوه تعذيباً. كان التعذيب الحقيقي يبدأ قرابة منتصف الليل. لا استطيع أن أُحدد الوقت تماماً. لكني كنت اسمع الصراخ كل ليلة. أخبرني شقيقي عن غرفة خاصة، أكبر بقليل من الزنزانة العادية، كانت تتدلى من سطحها الحبال. لست أدّعي أن أحداً علّقني رأساً على عقب وجلدني بواسطة أدوات عجيبة أو ما شابه، لكني في إحدى الليالي أفقت مذعوراً على خبط متتابع على ما بدا لي أنه بوابة حديد. تلصصت من النافذة المطلّة على الرواق فرأيت أربعة يمسكون رجلاً مرتدياً بيجاما، ويطرقون رأسه على بوّابة الزنزانة كما

مكتبة الفكر الجديد

لو انه كان كبشاً. كانوا احضروه للتوّ. لقد بات منذ تلك اللحظة في عداد المفقودين من العالم. فترة الـ ٤٢ يوماً التي قضيتها معتقلاً ليست شيئاً إن قورنت بما تعرّض له ذلك الرجل.

لكن، برغم ذلك، ينبغي أن أقصّ عليك كل ذكرياتي، كل ما شاهدت خلال تلك الأيام. أريدك أن تعرف. كما أريدك أن تصدق حين أروي لك كل هذه القصص، لرغبتي في أن يعرف الجميع كيف كان ما في داخلي يحترق مثل فولاذ حار وملتهب. لا أتوقع حقيقة أن يفهم أحد ما أتحدث عنه. لقد رأيت كيف يتبدّل العراقيون الذين يعيشون فترة طويلة في الغرب. يصبحون رقيقين ويصيرون غير قادرين عل رؤية البشاعات حتى على التلفزيون. رأيتهم يشيحون بأنظارهم عن مشاهد لعراقيين آخرين كانوا ضربوا ونجوا من نيران طوّافات صدّام خلال الإنتفاضة وكان يعرضون جروحهم الواسعة والمفتوحة على الشاشات. وفيما أشاحوا بوجوههم عن الصور مشمئزين، كنت أنا استشيط غضباً في داخلي. كيف لهم أن يفهموا ما يعانيه العراقيون إن كانوا لا يستطيعون مشاهدة أشياء كهذه؟ ربما هناك شيء ما غير سويّ فيّ. لم أعد أعرف.

في السجن هناك طريقة واحدة للاتصال بالعالم الخارجي، ألا وهي: سماع الأذان. كنا نسمعها تؤدّى مرتين في اليوم الواحد: مرة باللهجة السنية وأخرى باللهجة الشيعية. وعلى جدار زنزانتي، كانت تنتاب السجناء الرغبة في الاتصال بالله أو بث الشكاوى. وقد تسأل، بواسطة ماذا؟ كانوا يستعملون أقلام الرصاص التي كانت توزّع عليهم ليكتبوا فيها اعترافاتهم. كانوا يكتبون أشياء مثل «يا إلهي» أو «يا علي، يا حسين نجّني!»، أو أشياء أخرى مثل: «سوف أعدم في اليوم كذا وكذا. أرجوكم أنتم يا من ستقرأون هذا أعلموا عائلتي».

بكيت كثيراً في الزنزانة. أحد الحرّاس كان ابن عاهرة لئيماً يضمر لأخي كرهاً شديداً. تذرّع في أحد الأيام بعدم قيام أخي بغسل وعائه بالطريقة المناسبة، فبسطوا ذراعيه ورجليه بمواجهة جدار وجلدوه بالأسلاك. كان في مقدوري سماع صراخه من غير أن استطيع رؤيته. ورحت أخبط الجدار برأسي، لكن رفاقي المساجين أوقفوني عن ذلك. غير انني لم استطع التوقف عن البكاء طوال ما تبقى من اليوم. إكتفيت بأن أقعيت في إحدى الزوايا ورحت أجهش بالبكاء.

إحدى نوبات بكائي سببها حارسان كانا يتعلّمان الإنكليزية معاً. سأل احدهما رفيقه، وكان ينظر في كتاب، عن معنى كلمة «سكول» (مدرسة). أجابه صديقه: «لا أعرف». كانت قد انقضت عليّ ساعات وأنا معصوب العينين، غير أنني استطعت

مكتبة الفكر الجديد

سماعهما يتحدثان في المكان. فجأة قال أحدهما: «دعنا نسأل هذا الوغد. انه يبدو متعلماً». أجبتهما بما اعتقدت انها تعني. صرخ بي الحارس «أنت، قل أنت حقاً مهندس؟» أجبت بنعم. قال: «طاح حظك، يا أبله». أجبته: «نعم يا سيّدي، أنا أبله».

تلك الكلمات أثّرت بي أكثر من كل الضرب والصفعات التي كنت قد أصبحت معتاداً عليها. وفجأت عزّت عليّ نفسي. عندما تكون داخل مكان كهذا، تنسى العالم الخارجي. ذلك الحارس ذكّرني بأني كنت مهندساً، واني كنت متعلماً. ولماذا؟ لمجرد أني فسّرت كلمة إنكليزية. وعلى الرغم من ذلك ها أنذا في هذا المكان جاثم معصوب العينين أواجه الجدار، أنتظر فقط الصفعة التالية. كان حظّي ينفد منّي. شعرت بشفقة عاتية على نفسي وجعلت أبكي. لقد سبق لي أن بكيت من قبل ولكن ليس بتلك الطريقة. لا تعتقدوا أني ضعيف فالكثيرون من السجناء كانوا يبكون باستمرار. أحد زملائي في السجن كان يبدأ في البكاء من غير سبب واضح ثم ينتفض لاطماً رأسه بيديه من دون توقف. ولأن كل أولئك الحرّاس كانوا في ذعر دائم من قيام أحد ما بالانتحار، ما كنت لتصدّق الجلبة والاهتياج الذي كان يحدث حين كان يفقد أحدهم شفرة حلاقة.

إلى جانب الشفقة على النفس هناك الكراهية. أثناء احتجازي كنت أشعر أن الجميع نسيني بمن في ذلك أُمّي. بكت حين اخبرتها ذلك بعد خروجي. لكن بدل أن أحقد على صدّام، بدأت أحقد على كل الناس الذين كانوا يستمتعون بحياتهم فيما أنا أتعفّن هناك. كنت أشعر كما لو أنهم مسؤولون عن ورطتي وكان يحق لي أن أحقد عليهم. لست أعرف لماذا ألقيت اللوم على المجتمع برمته، إلاّ أن هذا ما فعلته. هذه هي الحقيقة.

ورجال الاستخبارات يعون هذه الأنانية لدى كل البشر ـ تلك النزعة إلى كره آخرين أبرياء مثلك، وهم يعملون على تقويتها بالامعان في إذلالك. فالحرس كانوا يدورون في الأروقة أو يجلسون في الردهات واضعين أقنعة على وجوههم وقفازات في أيديهم. مرض الجرب، إضافة إلى عديد من الأمراض الأخرى، كان مستشرياً، وانه لمنظر مؤثر ان تشاهد رجلاً نصف عار جاثماً على وركيه أمام حارس بكامل ثيابه يقوم بجلده بسلك حديدي. بين الحين والآخر كان يسقط أحدهم ضحيّة مرض من الأمراض. كان هذا سبب ارتدائهم الأقنعة والقفازات لا حرصهم على أن يكون عملهم نموذجياً. حراسنا كانوا على الدوم رجالاً نحيلين، بوجوه صفراء مرَضية تنضح أذيّة. لقد عاشوا وعملوا في ذاك المكان لفترة طويلة جداً انتنت حياتهم.

أصبت بالجرب وبدأت أحك جلدي حتى نزف. غير أني، وأنا في السجن، لم أعرف

مكتبة الفكر الجديد

ان اسمه جرب. القمل كان منتشراً جداً. وكان الحراس يكرهون أن يلمسهم السجناء بأي شكلٍ من الأشكال، لكن أحدهم طلب مرّة من زميل لي في الزنزانة أن يحلق له الشعر الذي تحت ابطيه وحول عضوه التناسلي. وهل تدركون كم هذا مذلّ؟ تشعر أنك حقير وتكره نفسك في النهاية، لكن هذا بالطبع ما يريدون.

عندما أرادوا حلق شعر رأسي، جعلوني أخرج من الزنزانة دابّاً «على الأربع» مثل كلب. أمرت بأن أحشر رأسي بين ساقي ذاك الحارس الجالس على كرسيّ، حاملاً آلة حلاقة كهربائية. وطوال ذاك الوقت خطر لي انهم يحضرونني للإعدام. حين رآني أخي أقرع لا أصلع كلياً، جعل يبكي طوال أيام، وكونه فقد الأمل هو نفسه بخروجه، راح يأمل أن أستطيع أنا ذلك. لكن بعدما انتشر الجرب بشكل كبير، أحلّوا إجراءات جديدة للإغتسال وللحلاقة. صار الحراس يحلقون ذقوننا بشفرات قديمة، فأصبحت وجوه الجميع متقاطعة بالجروح.

كان يجري غالباً رمي طعامنا إلى داخل الزنزانة بواسطة مساجين معتوهين يرافقون الحرّاس. كان هناك الكثير من الأشخاص المعتوهين والمجانين داخل السجن. حين تسمع صوت انفتاح القفل، تستعد وتنقضّ على الطعام الموضوع خارج الباب بالطريقة نفسها التي تهرع بها إلى المرحاض، دابّاً على قدميك ويديك. عليك أن تسحب الطعام إلى داخل الزنزانة بأسرع ما يمكن قبل أن تتلقى ركلة. وفيما أنت تأكل لا يتوقف الحرّاس عن التلصص عليك. فإن امتنعت عن الأكل أجبروك على ذلك.

يمشي السجناء المعتوهون أمام الحرّاس موزّعين الخبز ودلو حساء العدس أو أي نوع آخر من اليخنة، فيما يتبختر وراءهم الحرّاس ملوّحين بأسلاك الجَلْد. في الصباح كانوا يرمون لكل منّا بيضة مسلوقة وقطعة من الخبز عبر النافذة ذات القضبان الحديدية الرفيعة، وكان الجميع يندفعون بسرعة في الأرجاء كي يلتقطوها قبل أن تصطدم بالأرض.

لم يكن كل الحرّاس مثل ذاك الذي جلد أخي. أحدهم، وكان مسؤولاً عن دورة المرحاض، أمسك بي مرّة وأنا أحاول التلصص إلى زنزانة أخي. سألني «من ذا الذي تبحث عنه في الزنزانة؟». خفت أن أجيب كي لا يساء تفسير ذلك. في الواقع لم يكن أي من الحرّاس يعرف أن **أياد** أخي. لكن ذلك الرجل تحدّث بلطافة، «يا **عمر** أنت ولد طيّب، إني أريد مساعدتك»، أخبرته: «إني أبحث عن شقيقي». تلك الليلة بالذات أيقظني فاتحاً الباب بحذر. كان بادي القلق من جراء المخاطر التي يقوم بها، وهو يقودني إلى زنزانة **أياد** المجاورة. كنت منفعلاً ببهجتي إلى أقصى الحدود، فلم استطع أن أتصوّر

مكتبة الفكر الجديد

أن يبادرني أحد بصنيع مثل هذا. ولو سمح لي بتقبيل حذائه للتعبير عن إمتناني، لكنت فعلت ذلك بسرور.

منذ أن وقعت عيناي على ذلك الرجل شعرت أنه مختلف. كانت ثمة نظرة بعيدة في عينيه. ابتعد قليلاً إلى الوراء مفسحاً لي أن أختلي بشقيقي. تمسكت بيد أياد عبر النافذة الحديدية الصغيرة لبوّابة الزنزانة ورحت أُقبلها كلّها. كلانا فعل ذلك. لم يتكلم أي منا. في النهاية كان علي أن أقول للحارس «أرجعني يا سيّدي ما عدت استطيع تحمّل هذا». سرّه اني استطعت رؤية شقيقي، وفجأة أفشى إليّ بعفوية: ««هذه الوظيفة حقيرة. لا يقوم بها سوى الكلاب، أنا كلب». وخفت أن يسمعه أحد ما فيلقي باللوم عليّ.

وشيت أيضاً برجل آخر. سبق أن قلت ذلك من قبل ـ رجل من صنف مختلف تماماً عن حسين حلبوص. هل كنت أحاول أن أتهرّب من إخبارك بذلك؟ ربّما.

كنا مجموعة نتلاقى معاً ونتسلّى. نشرب كثيراً ونعزف على العود ونبتكر أغنيات ونتحادث. أنا وحسين حلبوص ونبيل وشقيقي وعدد كبير من الأشخاص الآخرين، كنا نؤلف تلك المجموعة. كان للخمر الدور الأكبر في اطلاق سجيّة الألسنة إبان تلك الحفلات. العراقيون اعتادوا على الشراب بإسراف، وعلى الأخص الجنود منهم الذين كانوا يقضون معظم أوقات مأذونياتهم، إبان الحرب العراقية الإيرانية، وهم يعاقرونه. كان لدى العديد من الجنود مشاكل عائلية وجنسية. العجز الجنسي، أو عدم القدرة الكاملة على القيام بالفعل الجنسي، كان شائعاً. كنا نتحدث عن أمور كهذه أثناء حفلاتنا، عن تلك القصص التي هي إما حزينة جداً وإما مضحكة جداً. وإقبال الرجال على الشراب كان سبيلاً للهرب من مشاكلهم. كنا نشرب كثيراً خلال لقاءاتنا الليلية ـ أما حافزنا الأساسي فتمضية وقت جميل ونسيان الحياة اليومية.

والسياسة حتماً كانت معنا. فلا مناص من ذلك. ماذا أعني بالسياسة؟ تبادل الأخبار والشائعات. كانت الفضائح موضوعنا المفضّل. «هل سمعت آخر خبر؟ كان من المفترض أن يتوجه صدّام إلى مكان ما، لكنه أرسل شبيهه، فأفسد ذاك الأحمق الأمر... ها ها! أوليس ذلك مضحكاً؟»، كنا نتبادل كلاماً من هذا النوع. بين الفينة والفينة كنّا نتداول بجدّية في ما ينبغي أو لا ينبغي أن يحدث، وكم ستكون الحياة رائعة لو لم تكن هناك ديكتاتورية. ينبغي إفساح المجال لأن يتبوأ الرجل الأفضل المراكز الأفضل، هذا كان شعورنا. كان الجيش معين النكات التي لا تنضب. فلدى جميع العراقيين الرغبة في زوال تلك المؤسسة، وقد تخطّى الأمر الكراهية، إذ كلمة «جيش» باتت لا تطاق عند أولئك الشبّان الذين خبروا تجربة الثمانينات. ما هي المنفعة التي أتى الجيش بها للبلاد؟ حتى ثورة

مكتبة الفكر الجديد

١٩٤١ تلك، التي اشترك فيها والدي والتي يفخر بها كثيراً الجيش العراقي، كانت مدعومة من ألمانيا النازية.

كان صديق أخي، وهو رجل في بداية اربعيناته يدعى علي الناصري، هو روح تلك اللقاءات وحياتها. كان يضم إلى الحلقة أناساً جدداً على الدوام ولا يتوقف عن حث المتخلفين على التنفيس عن احباطاتهم. بعدما فشلوا في إلقاء القبض عليه دون البقية، ارتبت للأمر. ظننت أنه هو من وشى بنا للسلطات. ألقوا القبض عليه بعدنا ببضعة أيام، وبعدما اعتقلوا علياً خفّت الحدّة في استجوابي بطريقة دراماتيكية. يجب أن تنتبه إلى أن أياً منا لم يكن يعلم ما حدث **لحسين حلبوص** في تلك الفترة، كما لم يعلم أحد بأنه وشى بنا جميعنا.

لا أحد يعرف الكثير عن **علي**. إنه شيوعي سابق يكتنفه الغموض ولديه تاريخ سياسي طويل. تعرفت به عن طريق أخي. كان **علي** قد أُصيب بجرح في الجبهة في عزّ صعود الإسلاميين مطالع الثمانينات. الرصاصة اتلفت جزءاً من عظم جمجمته وكاد يموت. حين التقيته دعاني إلى أن أتحسس الفجوة التي يغطّيها الجلد. كان يقود سيارته الرسمية من نوع تويوتا بيضاء لاند كروزر، متوجهاً إلى منزله في **مدينة الثورة**. القصة الرسمية تقول إن ميليشياويين من حزب الدعوة الإسلامي افترضوا أنه عميل للمخابرات لمجرد قيادته ذلك النوع من السيّارات، فحاولوا اغتياله. سألته مرّة: «هل صحيح أن حزب الدعوة هو من أطلق النار عليك؟»، فضحك كأنما ليوحي أن القصة أكثر تعقيداً من ذلك، لكنه لم يقل شيئاً. في العراق لا يصرّ الناس عموماً على استيضاح أمر ما حساس. وهذا ما يقي للقصة إضافة غير معلنة. أما الاشاعة فتقول إن صدام اتصل شخصياً بـ **علي** في المستشفى ودفع من ثم تكاليف ارساله إلى ألمانيا للمعالجة. **فعلي** كان موظفاً رسمياً في سفارة بالخارج قبل حادثة اطلاق النار، ثم عمل بعدئذ في وكالة أسسها للتصدير والاستيراد، وهذا العمل يعتبر امتيازاً في العراق. فهم لا يعطون أياً كان رخصة للقيام بذلك. وكان شريكه في الأعمال ضابطاً رفيع الشأن في المخابرات.

توقف **علي** عن أي نشاط سياسي، أو هذا ما أعرفه أنا على الأقل. لكنه، مثل أي متعلّم عراقي، كان يتحدث وينتقد الحكومة. كان رجلاً رفيع الثقافة، ومغنياً رائعاً، وموهوباً جداً في إحياء الجلسات.

أُمّي وزوجة أخي بقيتا مسمّرتين أمام باب بيتنا طوال الأيام الثلاثة التي أعقبت اعتقالنا، وحين مرّ **علي** بمنزلنا أخبرته أُمّي بما جرى. وهي تذكر أنه ضحك وقال لها: «سيأتون إليّ إذن، من الأفضل أن أستعد لذلك». وكان مرةً روى لي كيف أن الشرطة،

مكتبة الفكر الجديد

أيام دراسته، كانت في انتظاره بينما هو يجري في الداخل امتحاناته لشهادة البكالوريا، وبعدما انتهى توجّه إليهم بهدوء، فنزعوا القلم من يده وزجّوه في السجن.

بعدما سمع باعتقالنا توجّه **علي** إلى **النجف** و**كربلاء** للصلاة، ثم عاد إلى منزله في بغداد، لعلمه أن لا أمل في الفرار. هناك سبعة حواجز تفتيش في مسافة السبعين كيلومتراً بين بغداد ومدينة **الفلوجة**. وإن اختبأت في منزل شخص ما، فسوف يؤذون كل من في المنزل بقدر اذيتهم لك. لم يكن **علي** ليعرّض أياً من أصدقائه لورطة كهذه. والعراق بأكمله عبارة عن سجن. لهذا عاد إلى منزله، فحلق ذقنه ارتدى دشداشة لطيفة وبدأ يشرب. إنه رجل مميّز، بأعصاب من حديد. وعلى هذه الحال وجدوه حين قدموا.

أحضروا **علياً** إلى داخل غرفة تحقيق صغيرة، معصوب العينين بالطبع. كان المحقق جالساً وراء الطاولة. أمروه بالاقعاء على الأرض بدشداشته النظيفة. كنا أنا و**أياد** واقفين في الزاوية، صامتين تماماً بعدما أُمرنا بذلك.

«أنت لا تزال شيوعياً»، أليس كذلك؟

أجاب **علي** بالنفي. كان الرجلان شيعيين إذ تكلّما معاً باللكنة الجنوبية، وتولّد لديّ انطباع بأن علياً يعامل معاملة خاصة. كما لو أن المحقق حدس بأنه مفتاح القضية برمتها.

«أريد أن أعرف كل شيء بشأن بنية منظمتكم، من هو رأسها»؟

علي أبقى ظهره مستقيماً، ورأسه مرفوعاً كما لو انه يستطيع الرؤية عبر العصبة، وكان يتحدث بعادية. لم تبد عليه أدنى علامات الخوف. بينما كنت أنا أرتعد كلياً ومن غير سيطرة على ذلك.

فجأة قال **علي**: «أريد سيجارة» والسجارة أمر مهمّ جداً في السجن، فحين يعطونك واحدة يكون نهارك عظيماً. وضع له المحقق واحدة في فمه وأشعلها.

قال المحقق بصوت يقطر تهكماً: «الآن اعطيناك سيجارة، هل ترغب بشيء آخر»؟

«بعض الماء».

كانت تلك أول مرة أرى فيها محققاً يجهد للسيطرة على إنفعاله. كان **علي** قد أثار أعصابه، لكنه أمر الحارس باحضار بعض الماء.

«كنت توجّه الانتقادات للحكومة».

«ليس لدينا أية علاقة بالسياسة. أنا رجل يحب اللهو وإضاعة الوقت».

مكتبة الفكر الجديد

قالها بطريقة مضحكة وشجاعة جعلتني، حتى وأنا في حالتي المثيرة للشفقة تلك، أشعر بضحكة تكاد تصعد من داخلي. كان الرجل بارداً كخيارة، كما لو انه يفعل هذا النوع من الأمور كل يوم. لكن المحقق فقد إذ ذاك أعصابه كلياً، وقفز من على كرسيه وطرح **عليّاً** أرضاً بركلة على صدره.

نال **علي** من الشتيمة والصفعات والدفاع والتعنيف نصيباً غير قليل، لكنهم، على العموم، عاملوه معاملة حسنة ولم يستطيعوا أن يستخلصوا منه أي شيء مما يجهلونه عنه. وفي النهاية وجّه الأمر لـ **علي** بنزع عصبته والتطلّع إلى ناحيتنا: «هذان هما الشخصان اللذان وشيا بك».

استوعب المسألة بهدوء تام، وأكد أننا كنا صديقين له، ونفى كل شيء مجدداً. لكنني استطعت رؤية الغضب في عينيه. «**فعلي** لم يش بي البتة، وبحسب ما أعلم، لم يش بأحد أبداً. واكتشفت لاحقاً أنه امتدحني أمام المحقق وأنكر وجودي في الجلسات التي كان يدور فيها الكلام المعادي للحكومة. حاولت، لكن دون أن أفلح، أن أقوم بزيارته في السجن وقد حكم عليه بأن يقضي فيه، مثل أخي أياد، خمس سنوات كاملة. لكن ضابط المخابرات الذي كان شريكه في الأعمال تمكن من اخراجه بعد أقل من سنة.

علي يظل بالنسبة لي شخصاً غامضاً. إني احترمه إلى حد كبير لا أعرف ما هو.

في اليوم الثاني والأربعين من اعتقالي، أدخل الحراس خمسة منا إلى غرفة ونزعوا عصباتنا. قال أحدهم «سوف تخرجون». وعلى الفور بدأنا خمستنا نبكي كما لو أننا في مأتم. وجعلنا نقبّل ونهنيء بعضنا البعض.

ثم توجّه بنا حارس إلى غرفة تكومت في وسطها كدسة كبيرة من الثياب مثل تلة. انتزعت من الكدسة بنطالاً ممزقاً، وقميصاً خالياً من الأزرار ونعالاً ممزقاً. ربما كان صاحبها قد أُعدم للتو، لا أحد يعلم. الخاتم والقلادة اللذان كنت ارتديهما يوم اعتقالي أُعيدا إليّ رسمياً.

ثم القيت علينا محاضرة سمعناها واقفين نحن الخمسة. كان الرسميون كلهم مبتسمين، فيما أنا أمسك بنطالي الواسع بيد وباليد الأخرى القميص الخالي من الأزرار. أمرنا رجل بدا رفيع الشأن بأن نقول لكل من سيسألنا أننا كنا في عطلة، وأضاف: «إن سئلتم أن كنتم قد رأيتم **جمال** أو **محمّد** أو **عدنان**، أجيبوا بالنفي. أحد الخمسة، وكنت لا أعرفه، سأل بأقصى ما يمكن أن تتصوّر من مذلّة: «سيدي أنا موظف في الحكومة، هل أحتاج إلى ورقة أُقدمها لإدارتي؟. كان يمكنك أن تحزر من الابتسامات أن طرح أسئلة من

هذا النوع لا يشكل خطراً. لقد تبدلت الأمور. قيل له إنه جرى الاهتمام بكل شيء ولا حاجة به لأية أوراق. والآن يتوجب على الجميع أن يتوجهوا إلى أعمالهم ويستأنفوها كما لو أن شيئاً لم يكن.

ثم جاء الحرّاس لمصافحتنا الواحد تلو الآخر. أحدهم قال: «آمل أننا لم نزعجكم أو نؤذِكم؟» أذكر بشكل خاص رئيس الحرّاس. كان يرتدي بذلة لطيفة حمراء اللون، وأخذ على محمل الجدّ مسألة المصالحة إذ جعل يعانق كلاً منا كما لو أننا أصدقاء له نتهيأ للذهاب في رحلة. استجمعت الشجاعة لأسال أحد الحرّاس إن كان بوسعي رؤية أخي. وافق، لكن بشرطٍ أن لا أنبس بحرف.

ثارت عاطفتي حين رأيت **أياد**. سمح لي الحارس بالدخول إلى الزنزانة، وجعل **أياد** يقبّل يديّ. همست له أنهم أطلقوا سراحي. وبدأ كلانا يبكي. ثم هتف للحارس: «سيّدي، سيّدي، ماذا فعلت أنا لأبقى هنا؟». كان يتوسّل كرجل محطّم. والكلام يعجز عن وصف شعور الذنب الذي انتابني عندها. كنت أغادر تاركاً إياه. وقد بدا نحيلاً إلى درجة غير معقولة ومتأذياً فعلاً. شعرت كما لو أن أخي على شفير الإنهيار العصبي.

ثم عصبوا أعيُننا مرة جديدة. وضعونا في سيارة لاند كروزر وأمرونا أن نبقي رؤوسنا منخفضة بين أرجلنا، إذ كان من غير المفترض أن نشاهد إلى أين نحن متوجهون. لم تكن السيّارة قد تقدمت أكثر من نصف كيلومتر حين سمعنا فجأة الأمر الأخير: «افتحو عيونكم». حتى مماتي لن أنسى تلك اللحظة. مرة واحدة، كمثل رجل واحد قلنا خمستنا «شمس! الشمس!». الحارس الذي كان جالساً في الأمام قال «وماذا هنالك، لا تعظّموا الأمر». كانت الشمس في غاية السطوع. لم أكن قد رأيتها من ٤٢ يوماً.

أنزلونا قرب مستشفى الكاظمية، إزاء أقرب موقف للتاكسي. رئيس الحرّاس الذي كان قبّل كل واحد منّا في السجن سألنا: «هل تحتاجون إلى المال؟»، أجبت «لا يا سيّدي». كان يعرف بالطبع أن أياً منا لم يكن يملك فلساً، ولم يأخذ أي من الخمسة درهماً واحداً منه.

التاكسيات التي اوقفناها كانت تكمل سيرها لحظة تقع عيون سائقيها علينا. وفي النهاية توقفت لنا سيارة خاصة. ركب ثلاثة منا. كان قلبي يحترق شوقاً، فكل ما أردته الوصول إلى البيت. في الطريق رأيت فتاة أعرفها من أيام الدراسة. لم تتعرّف إليّ. عدوت إلى باب المنزل. كنت اشتقت على وجه أخص إلى رؤية والدتي التي لم تكن هناك. اندفع إليّ ابن أخي، وجعلنا نبكي ونتعانق ونتبادل القبل. دخلت الرواق وهناك

كان والدي في كرسيه. جعل يقبّل يديّ وأنا أرتمي بين ذراعيه، كان قد فقد الكثير من وزنه. لقد مات بعد خمسة أشهر.

قيل لي إن والدتي ستعود في العشيّة. تناولت الهاتف الذي شعرت كما لو أنه شيء من العالم الآخر. كنت كأني أستخدمه للمرة الأولى. اتصلت بصديقي الأثير فأجابت شقيقته. سقطت سماعة الهاتف من يدها ورحت أسمع صرخات البهجة داخل منزلهم. ثم اندفعوا قادمين بملابس النوم وبأقدام عارية، على الرغم من أن منزلهم كان يبعد سبعة بيوت عن منزلنا. ظنوا أني متّ. راحوا يبكون جميعهم فيما هم يوزعون الحلوى.

اتصلت بالهاتف طالباً بعض الكحول، وحين أتوني بها شربت الويسكي وأكلت بعضاً من السَلَطة.

نظرت إلى نفسي في المرآة. كنت أقرع الرأس مزرق البشرة وخشن الشارين. كنت مزرقّاً لا أصفر شاحباً، وحول عيني دائرتان سوداوان. كنت نحيلاً كعود متيبّس. صدمت لرؤية منظري. استحممت وارتديت ثياباً لائقة، وشعرت إذ ذاك أني ملك.

وصلت أمّي مع إحدى شقيقاتي، وخرجتُ إلى الباحة الخارجية كي يتسنّى لي رؤيتها. لم ترني في البداية «أمّاه هذا عمرا». لم تستطع تصديق ذلك وسقطت غائبة عن وعيها على أرض المرآب. ظننت أنها ماتت. اندفعت إليها ورحت أُقبّل كل وجهها. ثم نهضت إليّ من على الأرض معانقة إياي وهي تبكي وترتجف. لم يكن بوسعها أن تنظر إليّ دون أن ترتجف. خرجت أختي من السيّارة. عرفتها وناديتها لكن الوقت كان ليلاً. بدت محتارة، إذ كنتُ قد تغيّرت: أصلع ونحيلاً كالعود. ثم حين أدركت من أنا، انهارت هي الأخرى. اندفعت إليها فيما هي تصرخ بملء صوتها: «عمر، عمر، أهذا أنت؟ أهذا حقيقة أنت؟». كذلك حصل مع زوجة أخي. كنت أركض في الاتجاهات بينهن مثل مجنون.

ما كان الداعي لاعتقالنا؟ ماذا اقترفنا نحن الخمسة والأربعين، ليعتبرنا رجال المخابرات خطرين إلى ذلك الحد؟ كنت اخبرتك عن ورطة **حسين حلبوص** التي بها بدأت المسألة كلها، وعن لغز **علي الناصري**، الروح الموجّهة لكامل مجموعتنا. أعدموا **حسين حلبوص** وثلاثة آخرين. أحد الثلاثة الذين أعدموا كان صديقي **جعفر** الذي اعتقل معي في تلك الليلة وفي سيارة اللاند كروزر ذاتها. كان لاعباً في منتخب فريق كرة القدم العراقي.

مكتبة الفكر الجديد

لفترة أقمنا معاً في زنزانة واحدة، في الزنزانة نفسها. كان متزوجاً من إمرأتين وكان هائماً حباً بهما معاً. كان رب عائلة حقيقياً. إذ ذاك كان يبكي كل ليلة متذكراً إبنته البالغة من العمر أربع سنوات، وهو شديد التعلّق بها. كان واثقاً من خروجه، لأنه لم يفعل شيئاً. كانت في ذهنه أمور كثيرة يسلّي بها نفسه ويسخر مما حوله، ولم تكن الحكومة وصدام حسين إلاّ في آخر اهتماماته. لكنه أُعدم. لماذا، لست أعرف. المسألة اعتباطية برمتها. لم يكن هناك أي تطابق أو أي منطق لأي شيء.

في أي حال كان **جعفر**، مثل **علي الناصري**، مقيماً في **مدينة الثورة**. لكن هذه ليست أبداً إشارة حسنة. فللضواحي تاريخ طويل من النضال السياسي وهي تعجّ بالناس. قد يكون هذا ما أوقع به في النهاية. من يعرف؟

ثلاثة أشخاص، أنا من ضمنهم، لم يدانوا بحكم وأطلق سراحهم. غير أنه حُكم على الباقين بعقوبات تتراوح بين التسعة أشهر ومدى الحياة. إذن، ماذا كان في تلك المسألة كلها؟

بدا واضحاً إبان استجوابي، ان الاستخبارات العراقية، رأت بطريقة ما، ان حفلاتنا تلك الصاخبة بالشرب والغناء والثرثرة والنكات كانت في الواقع اجتماعات لحزب سرّي جديد معاد للحكومة. لذلك كان أول سؤال طرحه عليّ المحقق، وعلى **عليّ** في ما بعد، «كيف كنتم أيّها الشباب تنظّمون اجتماعاتكم؟». كان يتحدث عن اجتماعات سرّية لمنظمة سرّية لم تكن موجودة البتة. اعتُبرتْ القضية متعلقة بأمن الدولة، وعلى أعلى المستويات، ولهذا جرى إيكالها إلى الشعبة السادسة عشرة في الاستخبارات العسكرية. إلاّ أنهم، بنهاية التحقيقات، استنتجوا ان الأمر لا علاقة له بالأحزاب، ولهذا لم يعدموا إلاّ أربعة فقط واطلقوا سراح خمسة.

في العراق يمكن للكلمات أن تقتل. الكلمات هي التي أودت بنا في النهاية، لا الأفعال. أعرف إمرأة كانت تسعى إلى الطلاق، وكان زوجها أحمق حقيقياً رفض أن يمنحها إيّاه. ما كان منها إلاّ أن سجلت صوته بالسر وهو يلعن صدام، فأُعدم. ورثت كل أملاكه وهي تعيش حالياً في جوار منزلي في الأعظمية. تلك هي قوّة الكلمات. لنفترض، من جهة أخرى، أني شربت كثيراً من الخمرة وعوض أن أردد نكتة عن الحرب العراقية ـ الإيرانية صدمت عابر سبيل وقتلته إبان عودتي إلى المنزل. هذه لن تكون مسألة مهمة. لا تسيئوا فهمي. إن السوّاقين الثملين يعتقلون في العراق مثلما يعتقلون في أي مكان آخر في العالم، ولكن بعد إجراء الاتصالات اللازمة، يُطلق سراحهم بكفالة ويحاكمون لاحقاً محاكمة قضائية عادية يحضرها محام يختارونه هم. ومع محام

مكتبة الفكر الجديد

حاذق، وقليل من الحظ وبعض العلاقات، يستطيع المرء النفاذ نظيفاً من المسألة برمّتها، مثلما يحدث في أي مكان من العالم. لكن الكلام أمر مختلف كلياً. الكلام في العراق قادر على اسقاطك في مهاو لا يرميك فيها أي شيء آخر.

لسبت أعرف بالتمام ماذا قال **حسين حلبوص** أننا قلنا حين بدأوا يعذّبونه. لكنني أعرف انه، لا بد، روى كل أنواع الأشياء والأمور التي كانت تقال في حفلاتنا. إلاّ أني واثق أن أكثر ما أثار غيظهم كان نكتة أخبرها أحدهم إبان إحدى حفلات المرح واللهو التي كان يقيمها علي. حسين روى لهم النكتة، على الرغم من أنهم كانوا لا يملكون أي تسجيل أو أي دليل آخر على أنها كانت رويت: سطر من أغنية بالكاد أستطيع أنا تذكّره. قبيل وقت قصير من إطلاق سراحي وبحضور ضابط مسؤول شديد الأناقة لم أكن رأيته من قبل، استطعت رؤية السطر مكتوباً بدقة داخل ملفي وقد سطّر تحته ووضع بين قوسين. لست أذكر من ألّف الأغنية، ولكنها كانت تتحدث عن **مدينة الفاو** التي احتلها الإيرانيون وتمسكوا بها متكبدين خسائر كبيرة بالأرواح. كانت القذائف تمطر على **الفاو**، لكن على الرغم من ذلك لم يتزحزح الإيرانيون حتى أُلقيت عليهم قنابل الغاز، وكان ذلك نهاية الأمر. كانوا فخورين جداً بإحتلال **الفاو** إلى درجة انهم علّقوا شارة عند مدخل المدينة المدمّرة خطوا عليها: «لقد استشهد على هذه الأرض ٥٣,٠٠٠ عراقي»، وحين أُلقي القبض علينا كانت **الفاو** قضية كبيرة في العراق.

في المعنى الضمني للسطر المأخوذ من الأغنية أن **الفاو** لن تعود للعراق. لم يكن ثمة ما يثير اهتياج مستنطقي أكثر من ذلك السطر. كان يستشيط غضباً مرة تلو الأخرى. ولم أكن أتوقف عن القول له أني أؤمن حقيقة أن **الفاو** ستعود إلى العراق، وينبغي أن تعود إلى العراق، وانها جزء مكمل للبلاد إلخ... في مطلق الأحوال كان كل هذا مسألة جانبية لأن **الفاو** استعيدت في نهاية الأمر. لست أذكر الآن كامل الأغنية، كنا ثملين جداً عندما ألّفناها. لكن السطر الذي كان مكتوباً ومسطراً تحته في ملفّي كان صحيحاً: «راحت **الفاو**. من طيزي ترجع».

٤ ـ مصطفى

بناء نصب تذكاري

عبدالله عبد القادر العسكري ووالده العجوز يعيشان في **السليمانية** مع ابن عم **عبدالله، مصطفى العسكري**. التقيتهما في منزل **مصطفى** خلال رحلة إلى كردستان في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١. ومثل قصة **عمر** التي كانت محاطة بالكتمان، لم يكن في الوسع القيام بتلك الرحلة لولا إنتفاضة آذار/مارس ١٩٩١ التي أعقبت الدمار الذي خلّفته حرب الخليج، تلك الإنتفاضة التي شرّعت أسرار العراق لتفحّص لم يكن ممكناً طوال ثلاث وعشرين سنة. وبدورها فالزيارة كانت الأولى لي لمسقط رأسي بعد عدد مماثل من السنوات. يعيش **عبدالله** حالياً في **السليمانية** بسبب الهجوم الكيميائي على قريته **غبطابة**، والذي كان قد شهده[1].

* * *

«مساء يوم ٣ أيار/مايو ١٩٨٨ كان الوضع في قريتي **غبطابة** غير طبيعي. سمعنا أن النظام يعدّ لهجوم بالأسلحة الكيميائية، لكننا لم نكن نعرف متى ستكون الضربة. شعرت بما يمكن أن يكون مناورات عسكريةغير اعتيادية. في وقت متأخر ما بعد الظهيرة قمت بمعيّة صهري وإثنين من الأصدقاء وهما معلّمان مثلي ـ بالانتقال من مزرعتنا التي تقع في أرض منخفضة، إلى أعلى نقطة في القرية. كنا نريد أن نعرف ماذا يجري.

حلّقت طائرتا استكشاف فوق المنطقة، ثم قامتا برمي قنابل ضوئية لتحديد إتجاه الريح. بعد ذلك جاءت مجموعة أخرى من الطائرات، قدّرنا أن عددها ثماني عشرة. كانت هذه مقسّمة ثلاث مجموعات توجّهت إحداها نحو قريتنا

مكتبة الفكر الجديد

غبطابة، والثانية نحو قرية **عسكر** المجاورة، أما القسم الثالث منها **فتوجّه** نحو منطقة كان يقيم فيها **البشمرغا**. حصة غبطاطة كانت ثماني طائرات، حلّقت فوق القرية مرتين ثم عادت في المرة الثالثة لترمي قنابلها.

لم تكن أصوات الانفجارات مرتفعة جداً، وهذا ما جعلني أحزر أن القنابل كيميائية. حين رفعنا رؤوسنا، أبصرنا غيوماً رملية بنّية ورمادية تتصاعد كتلاً إلى الأعلى. ومما أعرفه كصيدليّ أدركت أن ذلك كان هجوماً كيميائياً.

تابعنا الصعود إلى أعلى نقطة ممكنة على الرغم من أن الريح كانت تحمل الغازات بعيداً إلى الجهة المقابلة. من هناك صرخت إلى الأسفل محذراً سكان القرية: «هذا هجوم كيميائي، حاولوا أن تهربوا! اصعدوا إلى التلة، تعالوا إلى هنا!». كثيرون من الناس وصلوا بالفعل إلى حيث كنا ونجوا. لكن كثيرين أيضاً ظلّوا في المناطق التي أصابتها الكيميائيات.

تبادلنا الآراء حول ما ينبغي فعله. فكّرت أنه كان ينبغي أن ننتظر عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة ثم ننزل إلى هناك. إن نزلنا على الفور، قد نتعرض نحن أيضاً للخطر ولن نستطيع مساعدة الآخرين. لكن أصدقائي أبوا الاصغاء إليّ. وهكذا نزلنا إلى قفا القرية حيث لم تكن اخترقته الغازات، وهناك اجتمع حشد من الناس. كان بعضهم قلقاً جداً، وقد صرخ في وجهي أحدهم: «لقد فقدتَ الجميع لقد قتلوا كلّهم، كانوا يقصفون منزلكم». اقلقني كلامه وأخافني، أردت العودة إلى المنزل لكننا لم نكن قد انتظرنا الوقت اللازم. لم تمض إلاّ ثلاث دقائق فقط من الوقت الذي حددته في رأسي كحدّ أدنى. وعلى الرغم من ذلك انطلقنا على الفور في الاتجاه المؤدي إلى منزلي: صهري و**ديار** و**فايق** وأنا.

قبل أن ننطلق قلت لهم إنه ينبغي أن يبلّلوا أحزمتهم أو عماماتهم ويستخدمونها لتغطية وجوههم كي يخفّفوا من تأثير الغازات الكيميائية. كان صهري يضع كل أسلحته على حزامه ولذلك لم يستطع فكّه. طلبت منه أن يستخدم عمامته عوض ذلك، لكنه رفض ـ قام فقط بغسل وجهه بقليل من الماء. **ديار** كذلك لم يجهّز نفسه جيداً. كان منزعجاً جداً، ولا أظن أنه قام حتى بوضع محرمة مبلّلة فوق وجهه. ثم توجهنا نحو النهر الذي يجري عبر قريتنا، ومرة جديدة قلت **لفايق**: «بلل حزامك!». غطّست حزامي في النهر وغطّيت وجهي لأحمي عيني كذلك. ثم توجهت عائداً نحو منزلي، وتوجّه الآخرون إلى منازلهم.

مكتبة الفكر الجديد

عوض أن يمشوا بمحاذاة النهر، كما يجدر بهم أن يفعلوا، وجد كل من ديار وفايق نفسه داخل حقل من نبات الفاصولياء المرتفع. وفيما كانا يمشيان عبر النبات هب هواء السمّ الراكن بين الأوراق على وجهيهما وصرخا طالبين النجدة. لكن لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً ـ كنت في غاية الاضطراب وبعيداً جداً عنهما. صرخ فايق هاتفاً: «يا عبدالله اني أموت، ساعدني!». كان في مقدوري أن أراه واضعاً الحزام حول خصره فصرخت به بغضب «لكني قلت لك أن تربطه حول رأسك». فعل ذلك، ولكن بعد فوات الأوان.

كل ما استطعت أن افعله كان جرّه برجليه إلى خارج المنطقة الملوّثة. في طريقنا التقينا صبياً في السابعة أو الثامنة من عمره كان ممدداً على الأرض وجسمه يرتعد. قال لي أيضاً: «يا عبدالله ماذا تستطيع أن تفعل من أجلي!». طلبت من فايق أن يمسك بإحكام رجلي الصبي فيما أنا أجرّه. جعلنا نتقدّم كقطار حتى أدركنا ساقية صغيرة حيث استطعنا أن نغسل وجوهنا ووجه الصبي. رفعناه قليلاً لكن قواه خارت وسقط على الأرض. لم يتسنّ لي في ذلك الحين أن أعرف إن كان قد نجا أم لا. إلاّ أني اكتشفت لاحقاً أنه لا يزال على قيد الحياة، لأن فرقة من «الجحوش» أتت في اليوم التالي وانقذته إضافة إلى آخرين انقذتهم معه.

اصطحبت فايق إلى مكان أبعد وحقنته بدواء حقنتين (كنت منذ مقتلة حلبجة [في آذار ١٩٨٨]، خبّأت بعضاً منه). كنت أعرف انه فعّال ضدّ ذلك النوع من الغاز الذي يؤثر في الدماغ والجهاز العصبي. جعل يصرخ «أتركني وشأني». كان واضحاً أن الغاز أثّر على جهازه العصبي، فما أظنه أن السمّ الذي استخدم في غبطابة لم يكن بسيطاً، بل مركباً من مجموعة من الغازات. كانت التركيبة تؤثر على العضلات، جاعلة إياها صلبة وغير قابلة للإسترخاء، لذا يمكن للمرء أن يموت خلال دقيقتين. بعد إجراء الحقن، وجدت سيّارة لنقل فايق، فسلّمته لأصدقائي وقلت لهم إنني متوجّه إلى منزلي.

أخيراً استطعت الركض إلى منزلي. كان الوقت قبل المغيب بعشرين دقيقة، وحين وصلت إلى هناك كانت العتمة قد حلّت كلياً، لكنني استطعت العثور على مشعل كهربائي صغير. وضعت أولاً قناعاً للغاز لأحمي نفسي، ثم توجهت إلى الملجأ الذي كنت قد جهّزته لهذا النوع من الاحتمالات. كانت زوجتي تعرف أن على العائلة أن تختبىء هناك في حال حصول هجوم كيميائي. لم يكن هناك أحد. أُصبت فعلياً بالذعر ـ مقتنعاً أن أحداً لم ينج. تسلقت من الملجأ إلى كهف قريب، ظاناً انهم ربما لجأوا إلى هناك. لكن أحداً لم يكن هناك أيضاً. وحين

مكتبة الفكر الجديد

توجهت إلى نهر صغير قريب من المنزل، وجدت أمي. كانت قد سقطت قرب النهر، وكان فمها منزرعاً في ضفته الموحلة.

كل أفراد عائلتي ركضوا باتجاه النهر، لأني قلت لهم إن الماء مفيد للوقاية من الأسلحة الكيميائية. إبان الوقت الذي أدركوا فيه النهر، كان عدد كبير منهم فقد وعيه وسقط في الماء. غرق معظمهم. قلبت أمّي على ظهرها، كانت ميتة. وددت تقبيلها لكنني كنت أعرف أني لو فعلت، تنتقل السموم إليّ. ما أزال إلى الآن نادماً من كل قلبي على امتناعي عن تقبيل أُمّي الحبيبة.

تابعت في النهر. وجدت جثة إبنتي البالغة من العمر تسع سنوات معانقة ابن عمها، الذي كان هو أيضاً قد اختنق حتى الموت في الماء. وجدت أيضاً جثة إحدى بنات أخي وكانت مع والدها. وتابعت في الخط نفسه فوجدت إمرأة من غير عائلتنا وسمعت طفلاً يئن تحتها. قلبت المرأة ووجدت الطفل، وكانت المياه بدأت تدركه. خلعت ثياب الطفل عنه، وحملته إلى الداخل ولففته بثياب أُخرى.

جلت حول المنزل. في مساحة تتراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ متر مربع رأيت عشرات الأشخاص من عائلتي وكان من بينهم أولادي وأشقائي ووالدي وأبناء أشقائي وبناتهم. كان بعضهم لا يزال حياً، غير أني لم استطع التمييز بينهم. كنت أحاول أن أرى إن كان الأولاد قد ماتوا. في ذلك الوقت كنت فاقداً كل أحاسيسي. لم أعرف على من أبكي ولم أعرف إلى من اتوجّه أولاً. كنت وحيداً في الليل.

رأيت أحد أشقائي، وكان رأسه مائلاً إلى منحدر، وكانت زوجتي لا تزال حيّة إلى جانبه، وكان أخي الأكبر عند الجهة الأخرى. وكانت إبنتاي، وإحداهما في السادسة والأخرى طفلة في الرابعة من عمرها، إلى جانبي زوجتي وكانتا ميتتين، وكانتا كلتاهما ميتتين. حاولت أن أُحرّكهما، أن أهزّهما. لم تصدرا أية ردة فعل. كانتا ميتتين، وأنا أدركت ذلك.

كان الدم والقيء يخرجان من أنوف شقيقيّ وزوجتي وأفواههم. كانت رؤوسهم منحنية إلى ناحية واحدة، وكانوا يئنّون. لم أستطع أن أفعل الكثير من أجلهم، جعلت فقط أمسح الدم والقيء عن أنوفهم وأفواههم وأحاول بكل الطرق أن أجعلهم يتنفسون من جديد. أجريت لهم تنفساً اصطناعياً وحقنت كلاً منهم حقنتين. قمت أيضاً بمسح زوجتي وشقيقي بالمرهم بعدما حقنتهم. خالجني شعور بأنهم سيعيشون.

مكتبة الفكر الجديد

تتألف عائلتي من أربعين فرداً. أعني أنها كانت كذلك. والآن لم يتبق من تلك العائلة الكبيرة غير خمسة عشر. مات خمسة وعشرون من أفراد عائلتي الأحبّاء، وكان من بينهم أولادي الخمسة. كانوا صبيين، **توانا عبدالله عبد القادر** في السادسة عشرة من عمره، **وتيشكو عبدالله عبد القادر** في السادسة من عمره، وثلاث فتيات، الكبيرة **طابان**، تسع سنوات، **وتقفة** ٤ سنوات، **وشوخان** ذات الستة أشهر. كانت هذه عائلتي المباشرة. ولكن من عائلتي الموسّعة ماتت أُمّي **عيشة عبد الكريم**، وإبنة عمي التي كانت زوجة شقيقي، وزوجتا شقيقي: **عطية عبد الرحمن وبروين سيّد أحمد**، وأيضاً زوجة السيد **لاطي** الذي كان معلماً في المدرسة. إنهم جميعهم أموات اليوم، فارقوا الحياة. أعني أن ٢٥ شخصاً من عائلتي قتلوا.

الآن، وأنا أُخبرك هذا، لا أعرف ما ينبغي أن أقول، فأحاسيسي لم تمت، لكننا لم نعد قادرين على الحزن لما حدث في ذلك الحين. لم تتبقّ لدينا أية دموع. حزنا كثيراً وذرفنا دموعاً كثيرة. لم نعد قادرين على الشعور بأي شيء».

عبدالله الذي هو الآن في ثلاثيناته، وقد قضت به الظروف أن يعمل مدرساً ثانوياً في السليمانية، هو، صيدلي كفوء. كان متلهفاً بصورة خاصة للتحدث عن كيمياء الهجوم في ذلك النهار. فبعد الهجوم الكيميائي الأول على قرية كردية في **شيخ وسان** عام ١٩٨٧، وخصوصاً بعد قصف **حلبجة** في نيسان/أبريل ١٩٨٨، بدأ **عبدالله** يستخدم اختصاصه في الكيمياء ويجري أبحاثاً على أنواع مختلفة من الغازات السامة التي هي جزء من الصناعة الحربية البعثية. ويخامره الشك في أن الغاز الذي قصفت به **غبطابة** لم يكن غازاً بسيطاً بل مركباً، وقد ضمّ هذا المركّب بعض المواد الكيمائية الغريبة جداً، بحسب اعتقاده. لماذا؟ لأن أجساد بعض الأطفال التي رآها كانت زرقاء اللون. لا بد ان ذلك كان بتأثير السيانيد. ذلك لأن آثار الدخان الذي تصاعد بطيئاً فوق القرية كان يحتوي على ظل ما بنّي فيه، وهذا اللون لا يمكن ربطه سوى بالسمّ. كان قد جمع ما اعتقد انه دواء شاف من تلك الغازات، وخبأه في منزل عائلته في **غبطابة**. حصل على ما يزيد على العشرين ترياقاً عبر علاقاته في **السليمانية**، إضافة إلى المراهم، وأملاح الشمّ. وقد أعطى لزوجته ولأشقائه تعليمات أساسية بشأن ما ينبغي القيام به، ولكن من دون طائل.

كانت كلمات **عبدالله** تتدفق كفيضان عاصفة هوجاء. لم ينظر إليّ فيما هو يستفيض متحدثاً عن مواصفات الغازات السامة وترياقها. كانت تلك الجمل تخرج

مكتبة الفكر الجديد

كخلطة كبيرة من التفاصيل الصغرى. تحدّث بطريقة متقطعة وغير مترابطة. وكان خدّاه المجوّفان يصقان الكلمات بصقاً. تكلم كرجل ممسوس لا يرى نصب عينيه ظلاً لأي غد، وأنا لم استطع أن أطرح عليه أي سؤال.

تعرضت لتجربة معاكسة تماماً وذلك حين تسنّت لي مقابلة كردي آخر ناج هو الصبي تيمور[٢]. تحدث تيمور بكلمات لطيفة، هادئة، كما لو أن شيئاً لم يحدث خارج النطاق الاعتيادي. وبخلاف عبدالله، امتنع عن ذكر التفاصيل التي كان ينبغي نبشها من داخله بأسئلة موجعة كنت أطرحها الواحد تلو الآخر. تحدث لأنه كان عليه أن يفعل ذلك، لا لأنه يرغب فيه. كان تيمور يسعى إلى استئصال تلك الذكريات من داخله، لا إلى عيشها من جديد. فأولئك الذين أرعدتهم وحشية من ذلك النوع، بدوا وكأنهم سقطوا في أحد الطرفين اللذين يمثلهما كل من عبدالله وتيمور، ولن أنسى ما حييت الطريقتين المختلفتين اللتين تحدث بهما كل من هذين الناجيين عما حدث لهما.

والد عبدالله الذي نجا أيضاً من هجوم غبطابة، رجل نحيل هزيل ذو عينين كبيرتين بارزتين، وكان ينبغي تلقينه الكلام قبل أن يقوله. كان عبدالله حين لا يكون الكلام جارياً عما حدث في عشية ٣ أيار/مايو ١٩٨٨، يصمت كلياً، ويختفي في الأرجاء. كان يجلب الشاي على صينية فضيّة، ويقفز في الاتجاهات منجزاً مهمات بيتية صغيرة، أو أنه ينطوي خجلاً، ناظراً أغلب الوقت في الأرض بلا سبب ظاهر. وكان مصطفى، وهو رجل متفاخر أكبر سناً، وذو وجه مستدير شبيه بوجه بومة، يعامله بشيء من الإزدراء. ويرى أن ابن عمه عبدالله لم يتعاط مع ما حدث على ما ينبغي لرجل كردي أن يفعل. فهو يعيش في الماضي، ويتصرف كخادم، ولا يعود إلى الحياة إلاّ حيث يتحدث عمّا جرى في غبطابة. لقد إنهار كل مستقبله في محنة من بضع ساعات انقضت منذ ما يزيد على الثلاث سنوات، وأضحت الآن محور حياته. لقد أمسى عبدالله رجلاً مصاباً، ولم يعد مقاتلاً كردياً قاسي الشكيمة ومنافحاً عن قضية شعبه الكبرى. ومصطفى لا يستطيع أن يتحمل ما آلت إليه حال عبدالله.

التاريخ كذاكرة

مصطفى، بخلاف عبدالله، مثقف تشرّب عميقاً حس التاريخ الكردي. كان قد ولد في قرية عسكر، وهو مؤلف لكتاب باللغة الكردية عن حركة حقّة، وهي مدرسة صوفية في القرن العشرين، تعود جذورها إلى النقشبندية ذات الجذور الكردية التي ترجع إلى قرون خلت[٣].

مكتبة الفكر الجديد

وحركة **الحقّة**، كما في كتاب **مصطفى**، بدأت في العشرينات بمنطقة **زورداشت**، التي تقع فيها كذلك قريتا **غبطابة وعسكر**. ومؤسس الحركة هو والد جد **مصطفى**، **الشيخ عبد الكريم** الحاج **شيخ مصطفى**، ابن **رضا العسكري** الذي كان فقيهاً وأديباً يجيد بطلاقة العربية والفارسية، إلى جانب التركية والكردية. وكان الشيخ **عبد الكريم** ناقداً حاداً للمؤسسة العراقية الدينية والسياسية في عصره، كما كان المستشار البريطاني في وزارة الداخلية **السيد إدمولدز**، يضطر إلى القيام بزيارته في محاولات عقيمة لإقناعه، أو رشوته، أو تهديده، ليتوقف عن معارضته. كان **عبد الكريم** الكردي العراقي يمثّل شيئاً شبيهاً بما مثّله الخميني إبان النصف الأول من القرن العشرين، وذلك حتى اعتقاله عام ١٩٣٤ وإقامته إقامة جبرية في مدينة **كركوك** طوال ستة أشهر. لقد أراد العودة إلى جذور الشريعة الإسلامية، معارضاً الإكتفاء بتطبيقها السطحي والطقوسي. ويشتق اسم حركة الحقّة من كلمة الحقّ، وكان الاتباع يلتقون في مراكز للصلاة، هي أصلاً بيوت، وتعرف باسم «التقيّة». كانوا يجلسون متربّعين على الأرض، مؤرجحين أجسادهم بتمهل إلى الأمام والخلف وهم ينشدون: «آه الحق، آه الحق. نؤمن بالحق. نبحث عن الحق. طريقنا الحق...».

لكن أتباع الشيخ انقسموا بعد موته، كما هو مصير الأتباع على الدوام. بيد أن الأغلبية تبعت شقيقه **مام رضا** (العم رضا)، الذي أدخل في الصوفية الأصلية أفكاراً وطنية واجتماعية، بما في ذلك الفكرة الثورية الداعية إلى مساواة المرأة بالرجل. واشترك أتباع رضا كذلك في تأسيس جمهورية **ماهاباد** الكردية عام ١٩٤٦ التي لم تعمر طويلاً، لكنها كانت حدثاً مهماً في التاريخ الوطني الكردي، كما أحلّت قائد المتمردين الشهير الملاّ **مصطفى البرزاني** في طليعة الساسة الأكراد العراقيين. لقد فعلوا ذلك من طريق ارسالهم «الإخوان المسافرين»، كما كانوا يعرفون بين الحقّة، إلى القرى الكردية لجمع الأنصار. وبعد حلولهم في مكان جديد، كان يطلق على أولئك المبشّرين تسمية «الموثوقين». وكان القرويون الأكراد يعتقدون غالباً أن الحقّة ملحدون لأنهم لا يقومون بأية طقوس دينية تتعلق بالصلاة أو الصوم، غير أن **مصطفى** الذي كان يحترمهم جداً، لا يوافق على ذلك، مشيراً إلى أنهم كانوا مؤمنين بالله وبالنبي ولكن من خلال إيمان آخر، وكتابه إنما هو رحلة داخل الحركة الكردية الوطنية من وجهة نظر الدور البالغ الأهمية لعائلة العسكري في ذلك التاريخ.

إسم العائلة مشتق من إسم قرية أسلافهم «عسكر». وهناك ثلاث شخصيات بارزة ومحورية في تاريخ العراق الحديث ولدوا هناك. وقد روى مصطفى هذه الحكاية عن أحدهم، وهو **جعفر العسكري** الذي أسس الجيش العراقي عام ١٩٢١:

مكتبة الفكر الجديد

«أخبرني والدي أن **جعفر العسكري** جاء في ١٩٣٤ أو ١٩٣٥، إلى **عسكر** وقال له: «أريد أن أخدمك وأخدم هذه القرية». أجابه والدي «الله كان رحيماً معنا، لسنا بحاجة إلى أي شيء». لكن **جعفر** أصرّ: «أريد أن أفعل شيئاً لقريتي»، عندها قال والدي: «حسناً ابنِ لنا مدرسة». وهكذا بنى **جعفر** أول مدرسة ابتدائية، كانت تتألف من غرفة طويلة واسعة، وغرفة أخرى صغيرة للمعلّم إضافة إلى فناء صغير. بهذا حصلت عسكر على مدرستها الأولى».

لكن عسكر كانت أيضاً مسقط رأس **بكر صدقي**، وهو ابن عم جعفر، الذي قاد المذبحة ضد الأشوريين عام ١٩٣٣، وبذلك أصبح صدقي بطلاً وطنياً عراقياً. لقد أتبع انتصاره ضد القرويّين الأشوريين العزّل في بلدة صومايل، بقيامه باغتيال ابن عمّه الذائع الشهرة في ١٩٣٦، ليكون أول من قام بانقلاب عسكري في العالم العربي. وتمتع صدقي بحكم العراق فعلياً طوال تسعة أشهر قبل أن يُقتل هو أيضاً بدوره.

قمت بزيارة قريتي **غبطابة** وعسكر بمعية **مصطفى** وابن أخيه **شالاو**، وهو شاب نحيل ورشيق في بداية عشريناته، وذو ملامح دقيقة حادّة، وأنف أشبه بمنقار الصقر. لقد كان نسخة أصلية عن والده الجذّاب، البطل الكردي علي العسكري، الذي تزيّن صورته منزل **مصطفى**. كذلك ترتفع صورة جدارية ضخمة لـ **علي** داخل إطار اسمنتي (٤ أقدام عرضاً و٦ طولاً)، في شارع **السليمانية** الرئيسي حيثما كانت مرّة صورة صدام حسين. لكن علي العسكري الذي كان جدّه مام **رضا** قائد حركة حقّة بعد الشيخ **عبد الكريم**، لم يكن صوفياً مثل أجداده. كان صنفاً آخر من الزعماء: مقاتلاً مناوشاً تحاك حوله الأساطير حتى قبل أن يقتل في ١٩٧٧ خلال صراع داخلي بين الأكراد. وقد قامت عائلة **شالاو** إثر ذلك بخطوة إحترازية فارسلت الصبيّ الصغير إلى السويد حيث عاش عدة سنوات، لم يعد بعدها إلى كردستان إلاّ بعد بدء المفاوضات بين الأكراد والحكومة العراقية في أيار/مايو ١٩٩١.

سافرت إلى عسكر بصحبة مجموعة كبيرة من مقاتلي **البشمرغا** في قافلة من سيارات التويوتا لاند كروزر، تزوّد رجالها بأسلحة «الآر بي جي .R.P.G» والكلاشينكوفات والبنادق الاوتوماتيكية المتينة التي تكفي، كما بدا لي، لإيقاف زحف فرقة كاملة من الجيش العراقي. لماذا كل تلك الحماية؟ فسّر لي **شالاو** أهمية عدم إفساح المجال لتجدد النزاعات القديمة. كانت الحماية من أجله، إذ قد تكون هناك يد تريد اشعال فتيل نزاع ما بين المنظمات السياسية الكردية، وقد تراودهم فكرة انهم قد يستطيعون ذلك عبر اغتيال ابن **علي** العسكري. و**شالاو** كان بدوره يسافر متنقلاً مع جيش مصغّر كي يثنيهم عن عزمهم.

مكتبة الفكر الجديد

أشار **مصطفى** نحو المقابر التي كانت تعجّ بها التلال القريبة حول عسكر. كان ذلك مكاناً قديماً ذا تاريخ مصوّر يعود إلى أيام خوال كانت فيها القرية نقطة مهمة في الطريق التجارية بين بغداد وإيران. كان مسجد القرية الشهير قد خرّج عدداً كبيراً من الملاّيات المشهورين. كذلك عرف عن عسكر تطورها غير الاعتيادي، فإضافة إلى المدرسة التي كان بناها **جعفر**، احتوت على مجموعة متنوّعة من المتاجر، وكان فيها نجّار مقيم وحدّاد ومجموعة من الحرفيين المختلفي المهن. وكانت القرية التي تغطي مساحة واسعة، مركزاً زراعياً مخصصاً بزراعة الشيليم، أو نبتة الزؤان.

غير أن قرية عسكر كانت إسماً على مسمّى، وصورة لا مثيل لها في مطابقة الشيء لإسمه. فالإسم ربما اختير إجلالاً للتقاليد العسكرية في ذلك المكان، لكن الأمر لم يعد مهماً في مطلق الأحوال. إنه مجرد تسمية لأن عسكر لم تعد موجودة بالمعنى الحرفي للكلمة. لا يزال بالوسع رؤية معابر وممرّات ضيقة ملتوية وملامح وأسيجة غير منتظمة كانت مرّة غرفاً لبشر يأكلون ويعملون ويصلّون ويلعبون في داخلها. والآن الخراب كامل: فمن المنازل المئتين التي كانت قائمة هناك، لم يبقَ سوى الأساسات وبعض جدران. ذلك أن البعثيين لا يتركون شيئاً للصدفة.

بين أطلال عسكر، قرب النهر الذي كان منذ ثلاث سنوات فقط مركزاً لجماعة أحسنت تنظيم حياتها، تناولنا غداء متقناً من الدجاج والأرز.

دور الجحوش

تحدث **مصطفى** عن عسكر وعن قصفها في ٣ أيار/مايو ١٩٨٨. كان الناس قد فرّوا من القصف الجوّي الذي لم تستخدم فيه إلاّ أسلحة تقليدية. فرّوا تاركين بيوتهم وكل ما فيها، متوجهين مباشرة إلى منحدرات الجبال القريبة والغابات. لم ألتق أحداً لم يكن فقد قريباً له في قصف عسكر بالذات. ومن جهة أخرى، قتل في **غبطابة** ١٥٠ شخصاً إبان الهجوم الأول، وقد أثبت ذلك، في ما يتعلق بتلك المنطقة، ان الأسلحة الكيميائية تناسب بصورة أفضل بكثير أهداف حزب البعث.

لم يكن هناك فرق كبير في النهاية. فالجيش العراقي قد أحاط بالقرويين الفارين، وبدأ يتمركز في المناطق الاستراتيجية المشرفة منذ الأول من أيار/مايو ١٩٨٨. كانوا قد احتلوا مراكز فوق سلسلة الجبال التي تحيط بعسكر **وبغبطابة** ومجموعة أخرى من القرى الكردية المستكينة في الأرض المنخفضة، ثم سارعوا إلى ارسال وحدات من **الجحوش**، بقيادة من كانت تدعوهم الحكومة العراقية «المستشارين» الأكراد[٤]. أرسلت تلك

مكتبة الفكر الجديد

الوحدات من المراكز المرتفعة لتهدئة القرويين، أو لتطويق الفارين منهم، ومن ثم إصطحابهم إلى حصون ضخمة بنيت على طراز قلاع القرون الوسطى، خلال الحرب العراقية - الإيرانية، من أجل إيواء وحدات من الجيش يصل عددها إلى عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف جندي(٥). وإستطاع بعض القرويين الإفلات وتوجهوا سيراً على الأقدام إلى إيران (كما توجب لاحقاً على **مصطفى** وملايين آخرين من الأكراد أن يفعلوا مجدداً بعد إندلاع إنتفاضة آذار/مارس ١٩٩١ وفشلها). لكن هذه المرّة لم يستطع معظمهم القيام بذلك، إذ أن حزب البعث كان فعّالاً جداً آنذاك.

لم يكن **مصطفى** موجوداً يوم الهجوم بالذات، لكنه تسلّل في اليوم التالي إلى عسكر و**غبطابة** بمساعدة وحدات **الجحوش** نفسها التي استخدمها الجيش العراقي لتطويق أهل قريته، وزوّدها أوامر صارمة بمنع دخول أشخاص مثله. يصف **مصطفى** ما جرى هناك:

«للحقيقة ما كنت لأصل البتة إلى قريتي لو لم تساعدني مجموعة من **الجحوش**. جاؤوا معي من **السليمانية** وأحضروني إلى هنا. كانت حواجز الجيش تمنع الجميع من الوصول إلى المنطقة. حين وصلت، لم اكن أُريد التحدث إليهم (**الجحوش**) لأن موقفهم كان واضحاً. لكنهم جاؤوا معي. معاً رأينا **غبطابة**: كان حوالى الـ ١٥٠ شخصاً مدفونين قرب النفايات من غير أضرحة أو أي شيء من هذا القبيل. قتلتهم القنابل الكيميائية، وكان قد أهيل عليهم بعض التراب لتلافي الرائحة والبكتيريا. عندما شاهدوا ذلك بدأ **الجحوش** الذين كانوا معي يبكون، وصاروا يلعنون أنفسهم.

كنا في شهر رمضان. بعضهم اهتاجوا إلى درجة أنهم جعلوا يقولون: «بعد هذا لن نصوم ولن نصلّي، لأن الله سمح بأن تحل هذه الكارثة بشعبنا وبأقربائنا وأُمتنا». كانوا يبكون فيما هم يساعدونني في حمل الجثث. لم يكن في المستطاع حملها إلى القرية، لذلك وضعناها في حفرة، وغُطّيت بالأعشاب وبالملابس القديمة التي كانت مرمية هناك. كل الأشياء القيّمة استولى عليها «الفرسان»، وقوات «الدفاع الوطني». (اسماء لفرق **الجحوش** كانت تستخدمها الدولة). لم يكن أولئك الأشخاص أنفسهم الذين هاجموا القرية، ولكنهم بالطبع من الصنف نفسه. كان الجيش مسيطراً على المنطقة، وعلى مسافة عشرة كيلومترات من القرية وإلى الجهتين، كان **الجحوش** هناك يساعدون الجيش على إحكام السيطرة».

إلى جانب ما قام به البعث في قرى مثل عسكر و**غبطابة**، فإن دور **الجحوش** ربما كان الأكثر إنفعالية، وتعقيداً، والأقل قابلية للحل بين قضايا كردستان العراقية. الملاّك

مكتبة الفكر الجديد

الثري ورئيس القبيلة الذي كنا قابلناه في وقت سابق (في الفصل ٢)، والذي كان قاتل مع النظام ضدّ أقاربه خلال الإنتفاضة، كانت لديه أسباب كافية جداً لتبرير ما فعله: «كنت اشتركت في حملة الأنفال في ٨ آب/اغسطس ١٩٨٨»، قال لنيل كونان، وأضاف: «اعتقل ١٢ ألف كردي داخل مخيّم عسكري في الموصل. كل الذين كانت أعمارهم من ١٨ سنة وما فوق أخذوا إلى جهة مجهولة. أحد أصدقائي الحميمين أخبرني أنهم أجبروا على حفر خنادق، وقد قتل الأثنا عشر ألفاً جميعهم. أطلقوا عليهم النار واحداً واحداً بالمسدسات. وسواء مات واحدهم أم لا، فإنهم كانوا يطمرونه بالتراب». ثم يأتي ذلك الإعتراف اللامعقول، والذي يجعل ذلك الحدث محتملاً:

«كان جهاز المخابرات قد اعتقل أحد أصدقائي، ثم أرسلوا لي رسالة تقول إنه يمكن إطلاق سراحه، إن ضمنت أنا ولاءه. أُطلق سراحه في نهاية الأمر بكفالة. وبما أنه أُطلق سراحه نتيجة كفالتي الشخصية، أراد فجأة أن يطرح سؤالاً بشأن أولئك الإثني عشر ألف كردي الذين اعتقلوا. لم يكن يعرف أنهم قتلوا. كان يعرف فقط أنهم اختفوا، ورغب بالحصول على معلومات أكيدة. رئيس جهاز الاستخبارات، وهو يناولني أوراق إطلاق سراح صديقي، إستدار إليّ، ثم ابتسم وقال لصديقي: «من الأفضل أن تسأل هذا الرجل عن مصيرهم. سوف يخبرك». وحتى الآن لم أخبر صديقي ماذا جرى. في الواقع أن ستين رجلاً من أولئك الاثني عشر ألفاً المفقودين كانوا أقرباء له، وكان بينهم أشقاؤه وأولاد عمّه وأولاد أشقّائه... لم أرغب في أن أحطم قلبه»[٦].

خلال الإنتفاضة، اصدرت أحزاب الجبهة الكردستانية الثمانية عفواً عاماً عن كل قادة فرق الجحوش الأكراد، مثل ذلك الملاّك الثري، فإنهارت سلطة البعث في شمال العراق مثل بيت من ورق. غير أن الماضي لم يُنسَ، والمشاعر بين الأكراد حيال موضوع الجحوش ما تزال ساخنة. وفي مرحلة ما خلال رحلتنا إلى عسكر، جرى تبادل هذا الحديث مع سائق سيارتنا اللاند كروزر:

- إن الجحوش يعيشون بين البشمرغا الآن، كيف تشعر حيالهم؟

- بالبؤس.

- أُريد شعورك الحقيقي.

- إني أكرههم جداً.

- لماذا تكرههم؟

مكتبة الفكر الجديد

ـ لأنهم شاركوا الحكومة العراقية في عملية الأنفال.

ـ كم كان عدد الجحوش في جيش صدّام؟

ـ إنهم كثيرون.

ـ هل بإمكانك أن تثق بهم؟

ـ لا، لن أفعل حتى آخر يوم من حياتي. إن جرت عملية أنفال جديدة، سوف يشاركون فيها مجدداً...

ـ أتعتقد أنهم ما زالوا يعملون لصالح صدّام حسين، أو أنهم قد ينقلبون إليه مرة أخرى؟

ـ أعتقد هذا.

في تلك اللحظة ردّ كردي آخر كان يجلس إلى جانب المتحدث قائلاً: «إنه يعتقد ذلك، أما أنا فمتأكد تماماً منه».

المزيد من الذكريات الكردية

عادت إلى قرية عسكر مجموعة صغيرة من العائلات، وجعلت تعيد بناء أكواخ جديدة بواسطة دبش الحجارة القديمة. حول القرية، بين المقابر ووراءها، نُظّفت الحقول ورسمت حدودها بالحجارة التي كان ينبغي إقتلاعها من الأرض كالأسنان. كانت هناك خطوط واهنة من الخضرة فوق جنبات التلال، وبضع نبتات أبذرت نفسها بنفسها بعد ثلاث سنوات من زيارة الجيش العراقي لقرية عسكر. غير أنه لم يكن هناك أي بيّنة من كل التاريخ الذي كان مصطفى متحمساً له جداً. فتلك القرية المتعلقة بسرّة تأسيس العراق الحديث ـ وعلى حد سواء بكردستان ـ أُزيلت وامّحت من الخارطة العراقية في ٣ أيار/مايو ١٩٨٨، لتضيف ميراثاً آخر من المرارة إلى آلام البلاد. هذا هو جوهر السلوك البعثي حيال التاريخ كله: إقتلاع حقيقته وكتابته في الشكل الذي يراه البعثيون مناسباً. فعلوا ذلك في مدينة بابل محوّلين ومحوّرين آثار الأساسات والكتل الحجرية، وهو كل ما تبقّى من البناء الحقيقي، ليصبح مجمعاً من الفناءات ومئات من الغرف، واقتضى استخدام ألف عامل سوداني ليعملوا طوال ثلاث سنوات، بمعدل سبعة أيام في الأسبوع. إذاً ما الذي يمنعهم من القيام بما قاموا به في عسكر؟

مكتبة الفكر الجديد

هل كان هناك أبداً مكان يدعى **عسكر**؟ حين سيموت **مصطفى** سوف ينسى عدد كبير من الناس وجود عسكر.

بعد الغداء اصطحبنا **مصطفى** إلى **غبطابة**، وكانت على مسافة قريبة. كانت مساحة القرية قرابة عشري الميل المربّع، وما يقارب الألفي شخص كانوا يعيشون هنا في ثلاثمئة منزل تقريباً. كان في المقدور أن تقطعها من أوّلها إلى آخرها في عشر دقائق، ومن أصل الثلاثمئة منزل التي كانت موجودة أصلاً لم يتبق أي شيء، حتى الأساسات الأوّلية أو حيطان الدعم التي كنت رأيتها في عسكر، زالت. خبراء المتفجرات والجرافات دخلوافي أعقاب **الجحوش** والجيش وكان هؤلاء أكثر فعالية في **غبطابة**، فتدميرهم بدا شاملاً إذ أن ما ينبغي إخفاؤه كان أكثر بكثير.

ما تبقى من الأغلفة الخارجية للقنابل الكيميائية داخل الدبش، يظهر أن حجمها يضاهي عرض الأقدام الثلاثة التي كانت لحفرة سقوطها. فهذا الصنف من القنابل لا ينفجر محدثاً صوتاً مرتفعاً، ولا يتشظّى في عدد لامتناه من الأجزاء المتطايرة، إنه يصدر لدى انفجاره صوتاً شبيهاً بالفرقعة، ممّا يسمح للمادتين الكيميائيتين اللّتين يحتويهما الأنبوب (ويفصلهما عن بعضهما غلاف داخلي) أن تمتزجا. الغلاف الداخلي يظل محافظاً على شكله وينفصل ليصبح قطعة غليظة من المعدن. ومن شأن انفجار كبير أن يحوّل الغازات فوراً إلى سوائل ويمنع تفاعلها. أما سماكة الغلاف الداخلي فتقارب عُشر الإنش ، وأما الخارجي فيبلغ على الأقل ثُمن الإنش.

خمسة وعشرون فرداً من أفراد عائلة **مصطفى** و**عبدالله** و**شالاو**، كما تذكرون، كانوا مرتمين في هذا المكان يوم ٣ أيار/مايو، وقد تسمّموا بالغازات الكيميائية التي ينشرها هذا النوع من القنابل. ولئن رأى **عبدالله** ذلك كله، فإن **مصطفى** جاء في اليوم التالي بصحبة **الجحوش** من أجل معالجة بقايا الكارثة.

ويوم زرت **عسكر** و**غبطابة** كان قد مرّ على كل ذلك التدمير ثلاث سنوات ونصف السنة بالتمام. وإبان ذلك الوقت كان **مصطفى** قد عاش تجربة جحيميّة أخرى وصفها في رسالة من تسع عشرة صفحة ارسلها إلى ابنته. وقبل أن يودّعني أعطاني نسخة عن تلك الرسالة الخارقة والمكتوبة باللغة الكردية، والتي تصف تجربته وما كان رآه خلال الهجرة الجماعية لما يقارب المليوني شخص في أعقاب سحق إنتفاضة آذار/مارس ١٩٩١. والرسالة كتبت من مكان لجوئه المؤقت في إيران فور وقوع الأحداث التي تصفها.

مكتبة الفكر الجديد

أما المقاطع الأشد تأثيراً فتلك التي تصف حالة **مصطفى** النفسية والذهنية. كان «مصدوماً» و«مسحوقاً» «بالطوفان المريع الذي أزال كل شيء». كانت مدافع طوافات صدّام حسين الرشاشة تقصف بعنف ضواحي مدينة **السليمانية**، «وكان الناس في المدينة يصرخون مذعورين ويتركون بيوتهم. الأولاد كانوا ينشدون النشيد الوطني الكردي، ونحن لم نستطع أن نصدّق أن المدافع والطوافات كانت ستنقض على مدينتنا هكذا. الناس كلهم توجّهوا نحو الجبال... كل ما خطر لي كان الخوف فقط، إذ هل كان في الوسع القيام بعمل آخر لحماية **السليمانية**؟ أضاف يقول: لم يكن في المستطاع إسكات وإيقاف المدفعية الثقيلة «بواسطة الحجارة والسيارات المحطّمة»، وهو يخالجه الشعور بأنه يهلوس: فما الذي جرى فجأة للربيع الجميل؟ هو الأمر مجرد تخييل؟ لماذا الغيوم قاتمة والمطر أسود؟ هل هذا صحيح أم متخيّل؟ لماذا ليس لدينا سد لمواجهة هذا الفيضان؟ منذ ساعات فقط كانت الحال مختلفة كليّاً».

تصف الرسالة مشاهد من المسيرة الإضطرارية عبر البرد القارص، وإنهمارات المطر والبَرَد المتواصلة والتي كانت «تهبط وكأنّما من مطرات ملآنة»: إمرأة تقعد على كرسي سيّار يدفعها إبنها. «كانت تلك ثالث مرة أراها فيها على الطريق». رجل عجوز جاثم إلى جانب الطريق ومن حوله أربعة أولاد يبدون «كفراشات».

خلال اليوم الثالث كان الناس يموتون حول **مصطفى**: «رأيت شخصاً يحمل طفله بين ذراعيه، كان الطفل ميتاً غير أن الأب لم يدرك ذلك». لم يكن أحد يتوقف من أجل أحد. في أحد المخيّمات «لم يكن هناك مكان للجلوس وعندما بدأوا يوزعون الخبز كان آلاف من الناس يتعاركون من أجله». صحيح ما كانوا يقولون: «الجياع يفقدون عقولهم».

يكتب **مصطفى** ويستفيض، مسكوناً، مثل **عبدالله**، بما كان أبصره، ولا تنتهي الرسالة إلاّ بفعل الإنهاك وحده. «هذه القصة لا تنتهي. سوف احتفظ بها لمرّة أخرى. سوف تصبح يوماً كتاباً. يتوجب عليّ أن أكتبها لأنه ليس بوسع أحد غيري أن يفعل ذلك. سوف أكتبها في وقت آخر، على كرسيي أنا في منزلي، إلى طاولتي وبين كتبي. لكنهم يقولون لي إنهم نهبوا طاولتي وكرسيي في **السليمانية**».

لا ينفع الوقت العادي الكرونولوجي لقياس الهوّة التي تفصل الرجل الذي كانه **مصطفى** خلال حملة الحكومة العراقية العسكرية ضد **عسكر وغبطابة** عام ١٩٨٨، عن الرجل الذي أصبحه اليوم. فقد تلا الانتصار على إيران حال من اليأس المدمّر، وإحساس بعدم جدوى أي شيء. وتلك المشاعر إستحوذت على العديد من الأكراد بين ١٩٨٩

مكتبة الفكر الجديد

و١٩٩٠، ثم جاء الغزو والإحتلال والنهب وضمّ الكويت، وتبعته حرب عالمية تُركت تجرجر بطريقة معيبة، هذا إذا لم نذكر أحاسيس الإنتفاضة الحيّة التي سحقت بوحشية بعد ثلاثة أسابيع فقط. لقد كانت صدمة انهيار الآمال كبيرة على ما يصف **مصطفى**، هذا ما يميّز الكائن الإنساني. ومن بوتقة ذلك النمط من الأزمنة البسيكولوجية، تتحجّر ذكريات جديدة في الذات، ولربما أيضاً ينبعث سلوك مغاير لمفهوم الذاكرة نفسه.

نصب مصطفى التذكاري

بعد عودته من إيران في نيسان/أبريل ١٩٩١ راودت **مصطفى** فكرة إنشاء نصب تذكاري في **غبطابة** إحياء لذكرى أولئك الذين ماتوا هناك في ٤ أيار/مايو ١٩٨٨. النصب لم يكتمل بعد، وهو يقع في أعلى ذروة التلّة، في موقع كان من قبل قلعة، تبعاً لما يرويه المحلي. القلعة، أو القصر إن كان وجد من قبل، اختفى منذ زمن طويل. أما النصب التذكاري فيطلّ على مشهد مهيب من الجبال الملتوية والمتّجهة نحو الأفق الذي لا تحدّه العين. وأمام إطار مشهد الجبال يمتد واد نهري أخضر وخصب.

نصب **مصطفى** أول شيء تراه وأنت تقترب من القرية. مبنيّ من الكتل الإسمنتية، وهي المادة المستخدمة على نطاق واسع في الشرق الأوسط كله، وهو يبدو أشبه بحافتي جملون(*) غير منجزتين في منزل غير مسقوف، ويبرز منها قوسان مستدقّان.

ينوي **مصطفى** تخشين صفحة القشرة الإسمنتية في القوسين وطليها باللون الأبيض. فالقوسان يثبتان فوق منصة عالية إسمنتية توصل إلى المساحة المسطّحة وفيها أربع درجات، ومن هنالك ينبثق القوسان. وذلك البناء غير اللافت إلى حد بعيد يقع داخل منطقة فارغة بيضوية الشكل، يحوطها جدار سميك داعم يحدد جهات كل النصب من الأرض المحيطة. وداخل المنطقة البيضوية إلى جهة منه ثمة مقبرة محفورة وبسيطة، أما الجزء الآخر من النصب فمكتمل ومرصوف بالحجارة، ويفترض أن يكون مكاناً لاجتماعات الأعراس والاحتفال السنوي بإحياء ذكرى موتى **غبطابة**.

كي يقيموا المقبرة قام **مصطفى** مع أفراد آخرين من العائلة بحمل ٨٦ جثة ونقلها إلى أعلى التلّة. كان الأمر كما لو أن الموقع الطبيعي الخلاّب الذي اختاره **مصطفى**، بمثابة مكافأة لهم على طريقة موتهم. أولاد **عبدالله** موجودون كلهم هناك، وكذلك ابنة ابن عم **شالاو**. أما بقية الـ ١٥٠ شخصاً الذين قتلوا هناك في ٣ أيار/مايو ١٩٨٨، فلا تزال

(*) ملاحظة المترجم: أو gable، أي الجزء الأعلى، المثلث الزوايا، من جدار يكتنفه سطحان منحدران.

مكتبة الفكر الجديد

في مكان ما في الأسفل إلى جهة التلة الأخرى تحت حجارة **غبطابة** ودبشها. فالمقبرة بحسب التقاليد الكردية ينبغي أن تكون على شكل كومة ترابية. و**مصطفى** أقام بدوره نظاماً بسيطاً، كانت شواهد القبور عبارة عن بلاطة من الصخر بسماكة إنشين مشغولة ومصقولة لتكون خشنة الملمس.

«الشهيد الرقم ٥٦» هو **تشكو عبدالله عبد القادر**، ٦ سنوات. «الشهيد الرقم ٣٥» فتاة في الرابعة من عمرها وتدعى **ديمان حسّان**. «الشهيد الرقم ٣٢» هي **شانام رشيد** وعمرها ٥٤ سنة. وهكذا دواليك. ومن المقرر أيضاً أن يزرع صف من الأشجار في خط مستقيم وسط المكان، وكذلك سوف يحيط حزام من الازهار بالجهة الداخلية للجدار الداعم.

لدى **شالاو** أفكاره الخاصة بشأن طريقة إنهاء النصب. فهو يرى انه ينبغي سقف القوسين ووضع تمثال بالحجم الطبيعي تحتهما لإمرأة كردية بالزي الوطني. فمثل الفرنسيين، غالباً ما يعبّر الأكراد عن حسّهم الوطني الجماعي بشكل المرأة. وفي رسم كنت رأيته في بلدة **شقلاوة**، كان غراب ينتزع العين اليمنى لإمرأة كان رأسها ملقياً إلى الخلف. لقد بدا الرسم وكأنه مشهد من فيلم **هيتشكوك** «الطيور». المرافق الصغير الذي رسمه فسّر لي أن الغراب كان الطاغية النهم الذي لا يرتوي عطشه البتة من الدموع الكردية. والكردية بدورها تتمثّل بفتاة شابة، يسترسل شعرها الأسود إلى الوراء ويبدو وجهها محتجباً بالرفرفة المتثاقلة لريش الغراب الأسود.

من الواضح أن الرمز البطولي الفرنسي، **ماريان**، المندفعة إلى المعركة رافعة العلم المثلث الألوان، ليس مناسباً للعراق حالياً. وربما لهذا يريد **شالاو** أن تكون **ماريانه** على شكل هيكل عظمي لإمرأة تقوم بإرضاع طفلها، وان يكون الثدي وحده مكسوّاً باللحم، ومعنى هذا التفصيل الأخير «ان كردستان سوف تحيا من جديد».

لا شيء يزعج إنسانيتنا أكثر من خاطر إلتحام الرعب والجمال بطريقة غير قابلة للإنفصام، كما هي حالتهما في **غبطابة**. فالنصب التذكاري الذي يؤرخ ما جرى هناك في ٣ أيار/مايو ١٩٨٨، يقع فوق التلة نفسها التي كان يقف فوقها **عبدالله** وصهره وصديقان معلّمان ـ **ديار وفايق**، وهم يشاهدون الطائرات العراقية وهي تنقضّ وترمي القنابل الكيميائية على قريتهم. إنها تطل كذلك على ضفة النهر الرائعة ذاتها حيث عثر **عبدالله** على أمّه وكان فمها منزرعاً في وحل الضفّة.

مكتبة الفكر الجديد

٥ ـ تيمور

«عمليات الأنفال البطولية»

حصن كوراتو كان بناء ضخماً من الاسمنت المسلح، سوفياتي التصميم بني على شاكلة العديد من القواعد العسكرية الأمامية التي أقيمت في كل مكان من شمالي العراق خلال الثمانينات طوال حرب العراق ـ إيران الكارثية والطويلة. جرى تفجير الحصن في ٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٩١ من قبل فرق الجيش العراقي التي كانت حصّنته، وكانت تلك مهمتها الأخيرة قبل ان تنسحب إلى جبهة جديدة «تماماً فوق تلك التلّة»، بحسب قائد المقاتلين الأكراد المسؤول عن رحلتنا. انا لم أرهم البتة، لكن **تيمور**، الصبي الذي سافرت قاطعاً ثلاثة آلاف ميل لأقابله، كان أحضر إلى هناك في آب/ أغسطس ١٩٨٨. إنه في الثانية عشرة من عمره[1] كان قد جاء مع أمّه وأبيه واخواته الثلاث وكل سكان قرية **كالالتشو**، حاملين أي شيء إستطاعوا حمله من ممتلكاتهم، وقد واكبتهم مجموعة من **الجحوش** طوال الخمسة عشر ميلاً التي استغرقتها الرحلة للوصول إلى الحصن.

وسط الدمار والدبش ما تزال هناك متاهة وعرة من الأروقة والغرف. وداخل غرفة تكسوها قطع غليظة من الاسمنت رأيت كتابة وقّعها جندي عراقي يدعى **يوسف**. وإلى جانب إسمه خربش أشعاراً من أغنية حب عربية شهيرة: **«ألهواك، واتمنى لو أنساك، وانسى روحي وياك»**. إلى جانب ذلك ترك أحدهم نَدْباً لحظّه غير موقّع: **«التدريب، التدريب، ثم التدريب»**.

لا يزال غير واضح السبب الذي دعا فرق الجنود العراقية إلى الإنسحاب من **حصن كوراتو** في صيف ١٩٩١. الأكيد ان من أخرجهم من هناك ليس أمواج فرق المشاة الإيرانية، كما لم يحاصر **الحصن** مقاتلو رجال حرب العصابات الأكراد الملقبين بالـ

مكتبة الفكر الجديد

«بشمرغا» (وهي تعني، الذين يواجهون الموت). بيد ان مواكبتي إلى **الحصن** تألفت من فرقة مدججة بالسلاح قوامها ثمانية مقاتلين من **البشمرغا**، وكان ذلك في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١.

الحصن يقع قرب الحدود العراقية ـ الإيرانية عند الطرف الجنوبي الشرقي لمنطقة كردستان العراقية، وكان غرض **البشمرغا** من اصطحابي ابانة الدليل عن السبب الذي أقيم الحصن لأجله فيما الحرب العراقية الإيرانية تتراجع حدتها في ١٩٨٨ والدليل حملة عراقية واسعة النطاق، خطط لها ونفذت بعناية، لإبادة قسم كبير من الأقلية الكردية في العراق.

كنت أعرف مسبقاً ان حملة الإبادة حملت إسم: **«الأنفال»**، من خلال قراءتي لوثائق سرية خاصة بالحكومة العراقية كان إستولى عليها الأكراد في آذار/ مارس ١٩٩١ ـ أثناء قيام قوات **البشمرغا**، في أعقاب نهاية حرب الخليج، بشق طريقها بالقوة إلى داخل كل المدن الكردية الرئيسية في الشمال، والسيطرة لفترة وجيزة على كل الأبنية الحكومية والمنشآت العسكرية ـ عرفت أيضاً وسائل الحملة الأساسية، وهي وسائل كان قد أجاد استخدامها في هذا القرن رجال مثل **هتلر وبول بوت**: دكّ القرى، نقاط التجميع، الغازات السامة، فرق الإعدام، القبور الجماعية. وبين الوثائق الرسمية التي لا تحصى التي استولى عليها الأكراد ـ يتحدث القادة الأكراد عن أطنان منها، وحمولة شاحنات ـ ثمة وثائق تستعرض بالتفصيل، ومعظمها مكتوب بخط اليد، لوائح «بقرى أزيلت من الوجود»، كان سكانها قد طوّقوا واختفوا كلياً. الأكراد جمعوا بعناية أيضاً لوائح خاصة بأولئك الأشخاص، الذين كان معظمهم، إنما ليس كلهم على وجه الحصر، رجالاً وفتياناً من القرى الريفية اعتُقلوا، ويفترض انهم باتوا من عداد الأموات.

قبل أسبوعين من وصولي إلى **حصن كوراتو**، قمت بزيارة حصن يقع خارج مدينة **دهوك** حيث روى لي شاهد عيان أنهم أحضروا إلى هناك ثمانية آلاف رجل وفتى في ١٩٨٨، إختفوا بعدها كلياً. ليس في المستطاع تحديد رقم دقيق لعدد الأكراد الذين قتلوا إبان حملة الأنفال، لكن الأدلة الصادرة من أعلى المستويات في النظام بالذات تشير إلى ان الرقم لا يقل عن مئة ألف قتيل، بينما يقدّر الزعماء الأكراد الرقم بأكثر من ١٨٠ ألفاً.

ما يعرف من زمن بعيد ان الأكراد الذين يسكنون شمال العراق ـ يقدر عددهم اليوم بـ ٣,٥ مليون نسمة يتوزعون في منطقة تبلغ مساحتها ١٥ ألف ميل مربع ـ قاسوا المرارات من مختلف الأنظمة التي تعاقبت على بغداد[٢]. فهناك نمط دموي كان قد توطّد منذ البدء وإستمر بعد نيل العراق إستقلاله من بريطانيا في ١٩٣٢، وأصبح أشد رعباً منذ تولّي حزب البعث السلطة[٣].

مكتبة الفكر الجديد

شوريش رسول، وهو مناضل كردي يعيش حالياً خارج العراق، كان في الخامسة من عمره حين إعتقل الحرس الوطني الخاص بحزب البعث ثلاثة عشر رجلاً من بلدته **كوي سينجاك**، في صيف ١٩٦٣. قاموا بربطهم على أعمدة في وسط البلدة، وأحضر بعدها سكان البلدة ليشاهدوا إعدامهم. كان والد صديق **شوريش** أحد أولئك الثلاثة عشر، وكلّما أضحى **شوريش** وصديقه يمرّان قرب الأعمدة، كان صديقه يشير إلى ذلك العمود المحزّم بالرصاص حيثما كان والده موثقاً. لقد بقيت تلك الأعمدة مكسوّة بثقوب الرصاص حتى أواخر السبعينات(٤).

منذ ١٩٦٨ إلى الآن لا تزال قصة الأكراد في العراق، في قسم كبير منها، مجرد تنازلات ورقية من قبل الحكومة (وعود بنسبة أكبر من التمثيل، وإتفاقيات على المزيد من الحكم الذاتي) ليتبعها جرجرة وتراجع وخيانات، ومن ثم «إعادة توطين» و«تعريب» و«ترحيل»، وكلها كانت تلي إجراءات إعادة رسم الحدود المتواصلة، ومحو المدن والقرى. ويندر من لا يستطيع من بين رجال «**البشمرغا**» ان يخبرك بالتفاصيل عمّا فعلته فرق الجيش العراقي بسكان قرية **داكان** في ٨ آب/ أغسطس ١٩٦٩، وعن درجة الدمار التي حلت ببلدات **زاخو**، والهجوم الجوّي على **قلعة دزه** في آذار/ مارس ١٩٧٤ (أدى إلى نزوح عن المدن كان نذيراً لما جرى في آذار ١٩٩١)، وعمّا حلّ بعشيرة **البرزاني** في آذار ١٩٧٥، عندما قطعت الذخائر التي كانت ترسلها الولايات المتحدة إلى المقاومة الكردية عن طريق إيران، وذلك بعد ان حصل **الشاه** على المنطقة التي كان يطالب بغداد بها، ووقع هو وصدّام **إتفاق الجزائر**. ويندر من لا يخبرك عن الهجوم الكيميائي على قرية حلبجة في آذار ١٩٨٨ والذي أدى إلى مصرع ما يقارب الخمسة آلاف كردي ما بين رجال ونساء وأطفال. ومن الضروري الآن ان نضيف إلى هذه اللائحة الإبادة الجماعية لرجال ونسوة من المدنيين في المناطق الكردية الريفية بين شباط/ فبراير، وأيلول/ سبتمبر ١٩٨٨.

ولئن صح ان طرح الهوية الكردية الخاصة في العراق وبأي شكل من الأشكال، إبتداء من اوائل السبعينات، هو ما اعتبره النظام العراقي حضا على «**الانقسام**» و«**الشوفينية**» و«**العنصرية**» ـ وهو بالتالي فعل اجرامي وخياني، فقد كان من المسلم به لدى الجيش والاستخبارات ان من ينزع إلى إعلان كرديته في سلوكه (أو من تلفق ضده هذه التهمة) عليه أن ينال جزاء قاسياً من الحكومة.

ويمكن إلقاء القبض على كردي لانتمائه إلى أحد الاحزاب السياسية الكردية، أو لأن مخبراً سمعه ينتقد الرئيس العراقي صدّام حسين، أو لمساعدته العدو خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية (وكانت هذه التهمة الملفّقة الأكثر تفصيلاً وشيوعاً).

مكتبة الفكر الجديد

كان يمكن إبتداء من أواسط السبعينات «إعادة توطين» أي كردي بمجرد إنذار فوري ـ كانوا في البداية يدفعون بدلاً مالياً، لكنهم ما لبثوا ان توقفوا عن ذلك ـ إذا ما صدف وقوع قريته قرب الحدود العراقية الإيرانية، وشقّة الحدود تلك كانت تتسع تدريجياً، ثم تطاولت لتشتمل على الحدود التركية.

مع أواسط الثمانينات لم يتوقف ذلك الإجراء على قرى المناطق الحدودية، بل شمل أيضاً تلك التي تقع قرب المناطق المنتجة للنفط في قلب شمال العراق، حيث جرت إزالة تلك القرى و«إعادة توطين» سكانها. ومع حملة **الأنفال** في ١٩٨٨ أدركت كل هذه السوابق ذروتها: فمجرد العيش في منطقة «محظّرة لأسباب أمنية» (وهذه المناطق اتسعت الآن لتشمل كل المناطق الريفية في شمال العراق، كما شملت، بحكم تكوين المناطق، أراضي يسكنها الأشوريون المسيحيون الذين ليسوا أكراداً)، هو في حد ذاته بمثابة حكم على النفس بالاعدام.

وعلى الطريق الطويلة الوعرة إلى **حصن كوراتو**، فيما كنا متوجهين جنوباً من مدينة **السليمانية** بسيارتي تويوتا ولاندروفر، لمحت من خلال ضوء الفجر الضعيف قرية **حلبجة الجديدة**، التي كانت شيدتها الدولة لإعادة توطين من بقي حيا من سكان **حلبجة القديمة**، التي هدمت بعد قصفها بالقنابل الكيميائية. هذه الناحية، ومعها المنطقة كلها حتى الشمال، هي الآن تحت سيطرة الأكراد ـ إنها «الملاذ الآمن Safe Havern» الذي انشأته في نيسان/ أبريل ١٩٩١ القوات المشتركة من بريطانيا وفرنسا وهولندا والولايات المتحدة، وخفرته من الجو لفترة طائرات مقاتلة كانت تقلع من القاعدة الأميركية في إنشيرليك بتركيا.

ابان المعركة التي شنها لقمع الإنتفاضة ضد صدّام، إستعاد الجيش العراقي، في مطالع نيسان/ابريل، عدداً من المدن الأساسية وإستغلّ الفرصة لإتلاف وثائق إستخباراتية سرّية، كان العديد منها بالتأكيد متعلقاً بعملية **الأنفال**، ولم يتسنّ للأكراد حملها معهم. بقيت أعداد كبيرة من فرق الجيش العراقية في السهل الغربي من كردستان العراقية، وانتشرت على طول خط التماس الممتد ٢٥٠ ميلاً، لتستمر مسيطرة على مدينتي الشمال **الموصل وكركوك**. وقبل أسابيع من قيامي برحلتي إلى شمال العراق، بدأت هذه الفرق بفرض حصار إقتصادي مُحكم على المنطقة الواقعة تحت السيطرة الكردية، حصار جعل شمال العراق يعاني نقصاً خطيراً في الغذاء والوقود طوال فصل الشتاء القاسي.

الطريق التي إختيرت، أبقتنا بمحاذاة الحدود العراقية ـ الإيرانية معظم الوقت. إلى يساري الاستحكام المرتفع إلى علو ستة اقدام، والذي بناه الجيش العراقي خلال حرب

مكتبة الفكر الجديد

الثماني سنوات مع قوات آية الله الخميني، وكان هذا يحجب عني منظر الجهة الإيرانية طوال أميال بدون إنقطاع، وظهرت إلى الجانب العراقي لفّات غير مستخدمة من الشريط الشائك، وخردة كانت في السابق آليات عراقية، كما تبعثرت أيضاً اغلفة قذائف وحفر قنابل من مختلف الأحجام، وكذلك فجوات مستطيلة كانت قد حفرت بفجاجة في جنبات التلال، حيث كانت تطلع منها في ما مضى دبابات ومدافع. لقد قلبت جرافات ورفوش آلية تلك الأرض وأعادت تشكيلها محوّلة إياها إلى منظر قمري من الحرب والخراب، فكان المشهد كئيباً، لأرض خراب من النوع الذي تتخيله مطوقاً خنادق الحرب العالمية الأولى، ولم يكن ينقص سوى الجثث.

ولم نكن لنجد جثثاً في **حصن كوراتو**. غير انه لم يكن من الصعب ان نتخيل ماذا حلّ بآلاف الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا قد أحضروا من قراهم إلى هناك. هل كانوا يعرفون ماذا كان ينتظرهم؟ ربما لا، ففي أكثر الحالات كانت وحدات **الجحوش** من يقنعونهم بإخلاء البيوت لا الجنود العراقيون ـ وكان يبلغ تعداد هذه الوحدات حوالى ربع مليون رجل.

مشيت عبر ما تبقى من تلك الأروقة البالغة ستة أقدام عرضا، حيث كانت وحدات **الجحوش** تقود اولئك القرويين وتحتجزهم كحيوانات مزروبة لأيام طويلة، فهناك كانوا، من غير بدّ، يتوقعون الأسوأ دائماً. إنسحقت الأرض تحت قدميّ: فوق الأرضية الاسمنتية تيبست طبقة سميكة جافة من الغائط البشري.

وفيما أسير حول محيط **الحصن** المزروع بالألغام (كان الجيش العراقي قد زرع ألغاماً في كل مكان من شمال العراق، ففي قرية **بنجوين** وحدها، تقدّر منظمة **«ميدإير»** السويسرية للإسعاف ان خمسمئة إصابة تقع كل شهر بسبب تلك الألغام، وان معظم الضحايا هم من الأطفال الذين تنفجر بهم الألغام فيما هم يلهون في المكان)، وأتحسس طريقي بحذر، رأيت إلى الجانب المواجه للحدود الإيرانية أربعين أو ربما خمسين عربة من النوع الذي يعلّقه المزارعون الأكراد في مؤخر جراراتهم الزراعية وهم ينقلون العلف أو المواشي. لا شك في ان المزارعين أولئك نقلوا إلى الحصن داخل تلك العربات. كانت كدسات من الأثواب الباهتة والشراويل التقليدية الكردية، ساقطة ومبعثرة قرب تلك العربات أو مرمية ومتعفنة داخل التراب والعشب والأجمات الصفراء. كانت مبعثرة أيضاً في الأرجاء نعال بلاستيكية هي ما تبقى من آلاف الأحذية.

والقرويون أنفسهم؟ الوثائق الرسمية تشير إليهم بتعبير **«المفقودين في الأنفال»**. إنهم يعتبرون على نحو شبه مؤكد في عداد الموتى ـ قتلوا رمياً بالرصاص ودُفنوا، كما توحي

مكتبة الفكر الجديد

الدلائل، في مقابر جماعية عميقة حفرت في جنوب غرب العراق، في الصحراء قرب الحدود العراقية المتاخمة للسعودية. كان القرويون الذين أحضروا إلى حصون مثل **حصن كوراتو** ذاك، قد «نُقِلوا» إلى ذلك المكان القصيّ من البلاد، حيث أعدمتهم فرق إعدام داخل الحفر ذاتها التي استخدمت كمقابر لهم.

خلال سيري حول بقايا كتل المعدن المتشابكة وركام ودبش الإسمنت في **حصن كوراتو**، وعند مسافة أقل من عشرين قدماً من حيث وجدت خربشات الجندي العراقي **يوسف**، عثرت على دفتر مدرسي، كان يحتوي تدوينات من علم الجبر بالعربية والكردية، وكذلك تفسيراً مخطوطاً بشكل جميل وبالكردية لآية من القرآن، وأيضاً وجدت نسخة من رواية للكاتب **مقداد رحيم** بعنوان **«ليس هناك غير الحب»**. كانت ثمة فراشة كبيرة مطبوعة على الغلاف الخارجي الأحمر اللون.

وبينما رحت أتحسس سبيلي ببطء، وبفعل أشبه بفعل الإنبهار، تذكرت على نحو ما أني كنت بالتأكيد قد عبرت في هذا المكان، وتحديداً خلال شتاء ١٩٦٥. آنذاك لم يكن هناك أي حصن بل كانت القرية وحدها، **قرية كوراتو**. كنت في السادسة عشرة وبمعيّة أمي وأبي إبان رحلة لثلاثة أسابيع، ذهبنا في طريقنا من بغداد لنقوم بزيارة الأمكنة الأثرية في إيران. والآن خلال زيارتي الأولى إلى العراق بعد أكثر من عشرين سنة، رحت أعاين صنفاً آخر من الآثار، متفحصاً بقايا حملة ضخمة من الإبادة الجماعية وصنيعها واطلالها.

ماذا في إسم؟

الأمر الأشد إثارة للإنتباه بشأن القسوة هو الحافز الذي وراءها. في كل الأمكنة التي زرتها خلال رحلتي التي دامت ثلاثة أسابيع في شمال العراق في تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي ـ بدءاً من المدن الكبيرة وحتى أصغر القرى ـ لم اتوقف عن سماع كلمة **«الأنفال»**. وثائق الإستخبارات السريّة كانت تشير على الدوم إلى **«عمليات الأنفال** البطولية»، وكنت قرأت في نسخ البلاغات العسكرية العراقية الرسمية إشارات إلى عمليات **الأنفال** «الأولى»، «الثانية»، و«الثالثة»، كما قرأت أيضاً في وثائق تعود إلى وقت لاحق في ١٩٨٨ عبارة **«خاتمة الانفال»**. كانت تلك التسمية قد بدأت تنحلّ بشكل سوريالي بعد إنجاز الحملة في ١٩٨٨. كذلك استخدمت كلمة **الأنفال** كاسم لأحد أكبر حقول الغاز في العراق سنة ١٩٨٩. وفي **السليمانية** زرت مبنى عاماً كان قد دعي، حتى إنتفاضة الربيع الماضي على الأقل، بـ **«تجمع الأنفال»**. أما الشارة الخارجية الكبيرة

مكتبة الفكر الجديد

التي تتصدّره والتي تحمل إسمه فكانِ الأكراد قد مزّقوها، عندما سيطروا كلياً على المدينة في تموز/ يوليو ١٩٩١، غير اني شاهدت شارة خشبية محفورة بتفنّن، كانت معلّقة في أحد الأروقة وكانت تشير الى: «مكتب بريد **الأنفال**»(٥).

إن توسلاً مستمرّاً لاسم ما، وإستخدامه في بيئات وسياقات مختلفة، يساعدان على تصحيح معناه وتنظيفه في أذهاننا، ويساعدان بالتالي على حجب الأهداف التي سبّبته في البداية. فقبل حملة الحكومة التي حملت ذاك الاسم، لم يكن في وسع سوى قلّة من العرب والأكراد معرفة ماذا تعني كلمة **الأنفال**. إلاّ ان هذا الاسم يكشف مفتاح اللغز الأول لحافز حزب البعث.

لقد دخلت كلمة **الأنفال** اللغة العربية الحديثة من السورة الثامنة بين سور القرآن، وهي سورة «**الأنفال**» التي تنزلت على النبي محمد بعد وقعة بدر (سنة ٦٢٣ م)، وكانت مجموعة صغيرة من المسلمين قد ألحقت هزيمة نكراء بمشركي مكة الأكثر عدداً بكثير. واعتبرت تلك المعركة بمثابة تعزيز للدين الجديد تكرس بتأييد الله للمسلمين وإرساله ألف ملاك للقتال إلى جانبهم:

«إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبّتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق وأضربوا منهم كلّ بنان. ذاك بأنهم شاقوا الله ورسوله، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب. ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار». (٨: ١٢ ـ ١٣).

هل انتقل ذلك بعد ١٣٦٤ سنة إلى فكرة قوامها ان الصبي **تيمور** كافر تذيقه ملائكة حزب البعث عقاب النار؟ **ميشيل عفلق** مؤسس حزب البعث، كان وضع نظرية منذ خمسين سنة، تعتبر ان ثورة حزب البعث العربية هي إستعادة معاصرة للثورة الإسلامية، وبرهانه على ذلك أن نزول القرآن بالعربية لم يكن صدفة، وكذلك ليس صدفة أنه تنزّل على عربي. **تيمور** ليس عربياً، إنه كردي لم يكن يتكلم العربية عندما أخذوه من قريته سنة ١٩٨٨. وفي مطلق الأحوال ليست هذه كل القصة. «يسألونك عن **الأنفال** قل **الأنفال** لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين».(٨:١). فـ **الأنفال** تعني الغنائم في الحرب، وقد كان الهدف الأصلي لمحمد من وقعة بدر مهاجمة قافلة يقودها ابو **سفيان** ابن حرب سيّد **بني أميّة**، والتي كانت في طريق العودة إلى مكّة من سورية وهي محمّلة بالبضائع الثمينة. وتنزلت سورة «**الأنفال**» لإرساء القوانين التي ينبغي بحسبها توزيع غنائم الحرب من هذا النوع بين المسلمين، الذين صودرت ممتلكات عدد كبير منهم في ملّة لالتحاقهم بالديانة الجديدة. وكان غرض

مكتبة الفكر الجديد

محمد تحاشي الخلافات والتساؤلات التي تثيرها مسألة الغنيمة بين المقاتلين المسلمين، وهكذا جرت إعادة تنظيم التقاليد العربية القبلية الخاصة بالغزو، وقدمت لها تبريرات جديدة:

«تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم.
لولا كتبٌ من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم.
فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله ان الله غفور رحيم» (٨:٦٧ - ٦٩).

وبحسب تأويل حزب البعث للسورة الثامنة من القرآن، فإن القرية التي جاء منها **تيمور** والمواشي التي ربّتها عائلته، ومؤونة الحبوب التي كانوا خزّنوها، وكل ممتلكاتهم هي، بكليتها، بتصرف الحكومة المركزية في بغداد. لكن حكم القرآن، وحكم ما بعده، في شأن الغنيمة، يطبّق فقط في حالة الجهاد وحتى في تلك الحالة فإنه لا يجيز للمنتصر حرّية من هذا النوع. بيد ان استخدام حزب البعث لذاك الحكم قصد إلى إعتبار ان كل ما هو داخل المنطقة التي تغطّيها «عمليات **الأنفال** البطولية» جائز ومحلل دينياً، أي أنه «حلال» للجيش العراقي. فهل كانت أيضاً أرواح الرجال والنساء والأطفال الأكراد في القرى «المستولى عليها»، هي أيضاً حلال للجنود والضباط العراقيين؟[٦].

كنت قد سمعت بعض القصص الغريبة قبل دخولي شمال العراق. سمعت مثلاً عن نسوة كرديات كن يبعن في أسواق النخاسة المنتشرة في المنطقة حتى الخليج. كردي أعرفه تلقى رسالة في نيسان/ أبريل ١٩٨٩ من صديق له كان يقود شاحنة بضائع بين عمّان وبغداد. أثناء قيامه باحدى رحلاته، تعطّلت شاحنته قرب بلدة الرمادي، وبينما كان ينتظر إصلاح عطلها، إقتربت منه إمرأتان وإلتمستا نقلهما إلى السليمانية. ولإدراكه أنهما كرديتان مثله، جعل يحادثهما ليكتشف أنهما إعتقلتا أثناء عمليات «**الأنفال**» سنة ١٩٨٨، وباعهما ضابط في الجيش غير رفيع الرتبة،، إلى شيخ قبيلة محلية في محافظة الأنبار. السائق رفض طلبهما، وكتب الرسالة لأنه كان يشعر بالخجل من نفسه[٧].

وبين وثائق الإستخبارات، حصلت على نسخ بينها لائحة بأسماء أشخاص جرى إعدامهم بين الأول من شباط/ فبراير و٢٤ آب/ أغسطس ١٩٨٩. فقد جرى إعدام خمسة أشخاص في ٤ آذار/ مارس، و٢٤ شخصاً في ٣٠ أيار/ مايو، إلخ. وكان يُرفق كل إسم بملخص لقضيته. لا شيء في الظاهر غير إعتيادي بشأن ذلك. كانت اللائحة مغلّفة برسالة تغطيها، تحمل إشارة «سرّي وخاص»، وهي مؤرّخة في ٢٤ آب/أغسطس ١٩٨٩ وصادرة عن مكتب رئيس جمهورية العراق. في رأس الصفحة خُطّت البسملة بحروف كوفية متقنة. وقد لفت انتباهي اسم دلشاد محمد أمين فتاح وهو كاتب ومثقف

مكتبة الفكر الجديد

كردي، جاء ترتيبه الخامس والثلاثين في اللائحة. أما ملخص قضيته فالآتي: «إن هذا المجرم المسمى هنا كان معلماً في ثانوية شوربش للفتيان بالسليمانية، وكان يعلّم اللغة الكردية وبالاحرف اللاتينية، مستخدماً الأفكار الشوفينية والإنفصالية التي يؤمن بها». دلشاد فتّاح كان يعلّم الكردية (وهذا مقبول) ولكن بالأحرف اللاتينية (وهذا غير مقبول لأنه كان ينبغي ان يستخدم الحرف العربي). لهذا السبب أعدم رمياً بالرصاص. لكن كان هنالك على الأقل ثمة سبب لإعدامه، إذ ان مجرد وقوع ذلك تحت إسم **«الأنفال»** كان يلغي الحاجة إلى إيجاد أسباب من هذا النوع.

من جهة أخرى، فهامش المعنى الذي يكتسبه إسم ما، منوط بما تتيحه له الثقافة السائدة. فالأسماء لا تكتسب معاني من ذاتها، ولهذا فإسباغ المعنى يستدعي مشاركة الكثيرين من الناس في ذلك.

والامرأتان اللتان ذكرتا في الرسالة التي أشرنا إليها سابقاً، كان قد باعهما ضابط إلى شيخ لم تكن لديه مطلق علاقة بالجيش. وخلال السنوات الثلاث التي أعقبت حملة **الأنفال**، تداول على هاتين المرأتين، من غير شكّ، عدد كبير من الرجال، وربما ذلك أيضاً عبر قوّادين. فهذا كان ما لا بد منه لتصل النساء الكرديات إلى «حريم» القرن العشرين، عند الحكّام أصحاب الثراء الفاحش. المسألة لا تتعلق هنا بمسألتي الفساد المخيف والإجرام فحسب، بل تتعلق باستخدام سلطة الماضي المستعادة للتصرف بمصائر الناس في الحاضر. وهذا أمسى كثير الشيوع في القومية العربية أو السياسات الإسلامية للقرن العشرين.

كان الإيديولوجيون البعثيون الشطّار قد قاموا «بفرضهم المدرسي» حين إختاروا **الأنفال**، كاسم شيفرة لعملياتهم في كردستان العراقية عام ١٩٨٨. «فليشهد عليّ الله، ان ما جرى (احتلال الكويت) هو من مشيئة الله، لا مشيئتنا نحن»، هكذا قال صدّام حسين محضّراً قادته العسكريين في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٠ «لأم المعارك». «أحد الأمور المضحكة والتي ينبغي ان تعرفوها، أمر كنت اكتشفته فقط نهار أول من أمس، وهو ان شعار حزب بوش هو الفيل. «ألم ترَ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟»، أعني عندما سمعت هذا...»، وخَفَتَ بيطء صوت صدّام ليصمت كلياً وكأنما أذهلته إلى أقصى الحدود التضمينات الرائعة للآية القرآنية التي كان إستشهد بها. تبع ذلك خمس عشرة دقيقة من الصمت وكان أحد أكبر القادة العسكريين في العراق يتمتم في الخلفية آيات من القرآن بصوت بالكاد مسموع. قال قائد آخر بصوت مرتفع «إنها مشيئة الله». وتستمر التمتمة في نبرة من العجب والذهول[8]. بقيّة السورة ١٠٥ من القرآن والتي لم يكن على صدّام ان يستشهد بها كلها، لأنها كانت معروفة جداً لدى كل المجتمعين، تروي ما حلّ بأصحاب الفيل:

مكتبة الفكر الجديد

«ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجّيل، فجعلهم كعصف مأكول». (١٠٥:٢ - ٥).

قبل مجيء الإسلام، وفي يوم مولد النبي محمد، أُنقذت مكّة بمعجزة من غزو الأحباش. فالطيور الأبابيل المرسلة من عند الله افتتهم، وهم الذين أتوها راكبين الفيلة، بحجارة من سجيل كانت ترسلها من مناقيرها. جورج بوش وجيشه المؤلف من ٥٠٠ ألف أميركي كانوا سيلقون المصير نفسه، هكذا كان صدّام يقول لقادة جيشه في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٠ لكن المحزن في الأمر هو نجاح ذلك النوع من التخييل والصور في التأثير على أكثرية العرب خلال أزمة الخليج، وضعف مقاومة هذه الأخيلة والصور من قبل المثقفين الذين يعرفون أكثر[٩]. ففي الشرق الأوسط نادراً ما يكون الماضي مجرد ماضٍ. إنه معلق كحجر الرّحى حول أعناق الجميع، على شكل حافز وأداة تشريع تجيز الحاضر.

كيف تتصاعد القسوة

إن حملة **الأنفال** لم تطلع هكذا من لا مكان. لقد كانت حصيلة لسياسات متّبعة حيال الشعب الكردي في العراق، يعود تاريخها إلى إتفاقية الجزائر في ١٩٧٥، وحصيلة لتعيين موقع أول مساحة من الأرض كان «سيحظّر» فيها مطلق وجود بشري، في سنة ١٩٧٦، وقد جرى بموافقة إيرانية، إخلاء نطاق يتراوح عرضه بين الخمسة والعشرة أميال وعلى طول الحدود العراقية - الإيرانية. ودُمرّ جميع القرى الواقعة داخل ذلك النطاق بلا إستثناء، كما جرت إلى ذلك إعادة توطين سكان القرى في «مجمّعات سكنية» صممتها الدولة، وتقع في ضواحي المدن الكبرى (وكانت كلمة مجمّع شائعة بين الأكراد الذين لا يعرفون العربية)، إلا ان التعويضات كانت تدفع غالباً ابان تلك المرحلة، لربما تحسنت ظروف عيش بعض العائلات بنتيجة ذلك. كانت تعقد أحياناً لجان تخمين ليجري تقييم أسعار الممتلكات المصادرة وتحديد التعويضات، وكانت نسبة المبلغ المدفوع، كما أخبرني الأكراد، تتوقف على الموقع السياسي لكل من العائلات. لكنَ هذا لم يكن يطبّق بطرق فورية وجليّة. كان يمكن على سبيل المثال ان يكون التعويض المدفوع لعائلة تملك منزلاً مع بستان فاكهة، خمسة آلاف دينار. ولكن إن عُرف عن عائلة ما تعاطفها مع الحركة الوطنية الكردية، ارتفع السعر ليصل أحياناً إلى خمسين الف دينار. كان النظام يحاول في الواقع رشوة أولئك الأشخاص كي يتخلوا عن ولاءاتهم السياسية، وفي مرحلة الدفع كانت كل عائلة تحصل على حصتها، لكن رئيس القبيلة كان ينال حصّة الأسد. (إستخدمت وسائل شبيهة وبنجاح مع رؤساء القبائل الشيعية في جنوب العراق خلال

مكتبة الفكر الجديد

الحرب العراقية ـ الإيرانية). علاوة على ذلك فإن سياسات الإخلاء لم تختبر فقط اولئك الأكراد الذين حاربوا ضد الحكومة، أو أولئك المتعاطفين مع المعارضة الكردية، بل شملت أيضاً قرى زعماء قبائل «الجحوش» الذين سبق لهم ان قاتلوا إلى جانب النظام ضد الأكراد خلال ثورة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥.

وبين الأشكال الأخرى لأساليب الإقناع التي استخدمها النظام، إرسال شخصيات كردية مرموقة للتحدث نيابة عنه فوزير الشؤون الإجتماعية الكردي، وهو أصلاً من قالاديزا، كان كما يبدو رجلاً محبوباً جداً، وكانت السلطة ترسله ليقنع الناس بترك قراهم، خلال النصف الثاني من السبعينات. كان يخاطب الناس قائلاً: «سوف يحاربونكم ان امتنعتم عن المغادرة، وسوف تتعرضون للأذية. وإن بقيتم في قراكم، فسوف ينتهي بكم الأمر متخلفين عشر سنوات عن الزمن». كان هذا الوجيه المهم واحداً من الأكراد الكثيرين المؤيدين للحكومة، والذين كانوا يرسلون لغرض إقناع الناس بالتخلي عن بيوتهم. كانوا يرسلون أيضاً من أجل القيام بتلك المهمات شيوخاً، وأنماطاً أخرى من الزعماء الأكراد.

بعد هزيمة تمرّد ١٩٧٥، لم تعد لدى الأكراد خيارات كثيرة، لكن الجهود التي بذلها النظام أساساً لإعادة توطين الأكراد، جديرة بالذكر، حتى في تلك الظروف، وتحديداً بسبب التبدل الذي سيطرأ على أحوالهم خلال الثمانينات. فمن ترسلهم الحكومة لاقناع الناس كانوا يقضون عدداً من الأسابيع محاولين التملق، وكان الجيش يدخل فقط بعد إنتهاء مهمتهم. وهذا مختلف تماماً عمّا حلّ بقرية عبدالله العسكري، غبطابة في نيسان/ أبريل ١٩٨٨.

ليس في المقدور إعتماد أرقام يُعوّل عليها، في ما يختص بعدد الأشخاص الذين تعرضوا لإعادة التوطين أو الترحيل بالقوّة خلال السبعينات، لكن صحيفة الحكومة العراقية الرسمية «الثورة»، إعترفت في العام ١٩٧٨ بإنه جرى ترحيل ١٥٠ الف شخص خلال فترة شهرين[١٠].

الحالة الكلاسيكية في مسألة إعادة التوطين الجبرية خلال تلك الفترة، هي قضيّة عشيرة برزاني في منطقة بابينان في شمال العراق. فالبعث لم يحاول حتى ان يرشيها للخروج، بل إختار بدل ذلك ان يجعلها مثالاً. كان البرزانيون قد أعيد توطينهم في ظروف يرثى لها، ظروف شبيهة بالتي تعرفها غيتوات الأقليات في المدن، والغيتو، هذه المرة، في ١٩٧٦، كان في جنوب العراق.

مكثوا هناك حتى ١٩٨١، السنة التي نقلوا فيها من جديد ليوطّنوا في معسكر خارج

مكتبة الفكر الجديد

أربيل يدعى **غشتابا**. ومن بين العدد الأصلي للعشيرة والبالغ خمسين ألفاً لم يبق إلاّ عشرون ألفاً أو ثلاثون. وعام ١٩٨٣ قام **برازان التكريتي**، وهو ممثل العراق لدى الأمم المتحدة (والذي شارك في لقاءات مع لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان) **بمعيّة وطبان** شقيق صدام من أبيه، بقيادة فرقة من المخابرات ووحدات خاصة من الجيش وجمعوا عدة آلاف من رجال المعسكر، ومن الفتيان الذين تفوق أعمارهم الـ ١٢ سنة. لقد روى لي شاهد عيان، أنهم إقتادوا أولئك الرجال باتجاه الجنوب في قافلة من الشاحنات شوهدت للمرة الأخيرة في ضواحي بغداد، ثم «إختفوا» رسمياً. آلاف عدة من الأسماء أودعت أدراج الأمم المتحدة، وهي لا تزال، منذ عدة سنوات، على هذا النحو.

لكن الساعات القلائل التي قضيتها في **غشتابا** خلال رحلتي في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١ تركت في داخلي شعوراً بأن المأساة الحقيقية في ما حدث هناك تكمن في مصير الأحياء، وليس الأموات. لقد جرى تطويق المخيم بالأسلاك الشائكة بعد فترة قصيرة من إعتقال الرجال، وأصبح سكانه يتعرضون لإهانات يومية من وحدات الجيش التي تحيط بهم. قطعت أيضاً الكهرباء، ومنع أي إتصال بالعالم الخارجي، وبات ينبغي حمل الماء ونقله في صفائح رخيصة متداعية تحمل على الرأس بالطريقة التقليدية. وكان الجنود يسددون عن قرب طلقاتهم نحو تلك الصفائح، بحسب ما ذكرته إحدى النساء، أو يدلقون عامدين محتوى الصفيحة بعدما تكون المرأة أنجزت كامل الرحلة ذهاباً وإياباً.

كان الجيش والحزبيون ينتهكون كل القواعد والأصول. كانوا يغتصبون النساء ويجبرونهن بالقوة على ان يصبحن خليلاتهن. أحد الرجال قال لي: «إنهن يفضّلن الانتحار على التحدث بشأن تلك الأمور». كان هناك أطفال صغار وأولاد دون التاسعة يجوبون المكان، لكن بدا من غير المعقول ان يكون آباؤهم أكراداً. الروابط الأخلاقية بدأت تتحطم داخل العائلات، التي كانت قد فقدت كل رجالها. بعض الذكور الذين نجوا بحياتهم من العمليات (لأنهم كانوا في الخارج مسافرين أو كانوا في التلال) قرروا التنكّر لأواصر القربى التي تربطهم بسكّان **غشتابا**. جعلوا مثلاً يتوقفون عن إرتداء غطاء الرأس البرزاني الأحمر المميّز، مستبدلينه بالنسخة السوداء الأكثر وقاراً.

أولئك الرجال لحق بهم العار، وقد جعل عارهم ضحايا حزب البعث منبوذين أكثر وأكثر، وأصبحت غشتابا مصدراً للبغايا يذرعن شوارع أربيل، وحتى بغداد، ممارسات مهنتهن. هكذا اكتمل إنتقام حزب البعث من عشيرة البرزاني التي قادت حركة التحرير الكردية الوطنية.

حين تمشيت حول المخيّم، بعد ان إنتشر الخبر بأننا أتينا لنعاين ما جرى هناك، بدأت

مكتبة الفكر الجديد

النساء والاولاد يتدفقون من منازلهم. جاؤوا حاملين صوراً عن آباء مفقودين، وإخوة وأعمام وأولاد عم. وفي تلك اللحظة، وفيما الحشود من حولي تتدافع، شعرت بخجل عميق وغير قابل للتفسير، خجلت من أني ولدت في العراق.

وأهمية **غشتابا** تكمن في انها كانت ثوب تمرين لما سيجري لعدد أكبر بكثير من الأكراد، وذلك منذ بدء التحرك حتى حملة **الأنفال** في ١٩٨٨. فالوحشية المتعاظمة في المجتمع العراقي بأكمله والتي سبّبتها الحرب العراقية الإيرانية، يمكن رؤيتها في تحوّل سياسة الحكومة العراقية تجاه سكّانها الأكراد خلال الثمانينات. ففي ١٩٨٢ بدأ النظام يرحّل الناس بالقوّة من مناطق خارج الطوق الأمني المرتبط بإتفاقية الجزائر (وبات على الناس إخلاء القرى والبلدات وحتى «المجّمعات السكنية» المبنية في السبعينات). وحتى لو كانت تدفع لهم التعويضات، وكان هذا نادراً، فقد بدت المبالغ المدفوعة ضئيلة. والظاهر ان فكرة الحكومة كانت العمل على التقليل من فعالية أي مكسب جغرافي تحققه إيران داخل العراق وتقليصه إلى الحد الأدنى. من هنا، وعلى سبيل المثال، إن استطاعت إيران إحتلال شوارتا بعد تفريغها، فسوف لن تكون العواقب السياسية والسيكولوجية الناتجة عن ذلك وخيمة جداً.

المستوطنات الجديدة بدت، بدورها، أشبه بأبنية ضخمة إسمنتية، وكانت في الأغلب متاخمة لقواعد عسكرية، ولم تكن تحتوي أي سبب من أسباب الراحة. لقد قُطع الأكراد عن كل ما يمت بصلة إلى أسلوب حياتهم ولم يكونوا راغبين في الإنتقال إلى هناك، وغالباً ما كانوا ينسلّون عائدين إلى قراهم ليبدأوا بناءها من جديد.

السابقة الفورية الأقرب إلى **الأنفال**، بحسب وثائق الشرطة السرّية التي إستولت عليها المنظمات الكردية خلال إنتفاضة آذار/ مارس ١٩٩١، هي إزالة القرى الكردية التي كانت قد بدأت جدياً عام ١٩٨٦. ففي واحدة من تلك الوثائق المؤرخة في ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦، جهّزت الإستخبارات في السليمانية، انطلاقاً من أمر تلقته من وزارة الداخلية في بغداد، لائحة بـ ٦٦٣ قرية «محظورة أمنياً». وهذه كانت أيضاً الفكرة من وراء إنشاء طوق أمني بعرض يتراوح بين الخمسة والعشرة أميال على طول الحدود مع إيران في عام ١٩٧٧. بيد أن مساحة الأرض التي شملها الحظر تعاظمت إلى حد كبير. ويشير التقرير الخارجي المرفق باللائحة كيف انه جرى قطع الكهرباء عن تلك القرى، وأبعدت كل المواشي، ومنعت كلياً كل عمليات التبادل التجارية داخل القرى المحظّرة وما بينها. إلا ان كاتب التقرير أشار أيضاً إلى أن ذلك لم يكن كافياً: «على الرغم من فرض الحظر الاقتصادي، إلا ان بعض أنواع الطعام الضروري كانت تصل، إذ ان

مكتبة الفكر الجديد

الطرقات المؤدية إلى تلك القرى ليست مراقبة بشكل فعّال. وبالنظر إلى طبيعة الأرض، فإن هناك أكثر من طريق ثانوية، وهذه الطرقات عملياً مفتوحة». ويقترح التقرير تضييق الحصار وتعزيزه.

مع بداية ١٩٨٧ بدا واضحاً ان الحكومة كانت تقوم بأكثر من تضييق الحصار. كنت تفحصت دفتراً حصلت عليه من بناء كان سابقاً مديرية الأمن المركزية في السليمانية. كان حجم الدفتر عادياً، وكان مغلفاً بعناية بورق تغليف زهري اللون، وعلى ورق الغلاف تصوير كاريكاتوري لوردة البتونيا باللون الأبيض. تغليف الكتب على هذا النحو، كان من ضمن الأمور التي كنا نحب ان نفعلها ونحن تلامذة صغار في بغداد، بهدف «شخصنة» كتبنا ودفاترنا. ولربما خالج الموظف الذي احتفظ بهذا الدفتر الشعور نفسه، فهو إختار أيضاً قلماً قرمزياً، وأسلوباً في الخط مناسباً، لتمييز محتويات دفتره التي أوجزها على ورقة بيضاء مربعة ألصقها على الغلاف: «سجل القرى المزالة».

كان مجموع القرى المذكورة في لوائح الدفتر ٣٩٩ قرية. وكانت التواريخ التي تحدد زمن إزالة تلك القرى - كلها في ١٩٨٧ - مخطوطة بعناية إلى جانب كل إسم، وإلى جانب كل تاريخ كانت هناك إحداثيات من الخارطة تشير بالتحديد إلى موقع كل قرية. والقرى جميعها تقع في المقاطعات الشرقية الأربع في شمال العراق.

كان يبدو ان ذلك السجل هو واحد من سلسلة، كل جزء فيها مخصص لبقعة جغرافية مختلفة من كردستان، ولم يكن أي من القرى المذكورة في الدفتر الزهري المزيّن بالورود ضمن لائحة ١٩٨٦ التي تتضمن أسماء القرى «المحظورة أمنياً». غير اني مقتنع، من مجموع الدلائل، ان تلك القرى «المزالة» كانت بالفعل قد اعتبرت من قبل «محظّرة». (هناك برقيّات وملفات ومخطوطات وأوراق أخرى تؤلف وثائق حملة الأنفال لا تزال بحاجة إلى تجميع وتفحّص على نحو دقيق وصحيح، وحتى ذلك الوقت، لم يكن في المقدور درسها بتعمّق ومنهجية. كنت رأيت لأول مرّة بعض الوثائق في لندن في آب/ أغسطس ١٩٩١. في شمال العراق، لدى كل من المجموعات الثماني الرئيسية التي تؤلف الجبهة الكردستانية، ممتلكاتها الخاصة من هذه الوثائق، ومجرد القيام بالمرور على كل تلك الدلائل، يستلزم سنوات، هذا ان إفترضنا انه في الوسع جمعها وأرشفتها من أجل الدراسات العلمية، وفي مناخ أكاديمي لا تشوبه مطلق إعتبارات سياسية آنية. وانطلاقاً من فرصة مؤاتية وجديرة برعاية كهذه، أعتقد أنه، في يوم من الأيام، لن يكتب فقط تاريخ فريد واستثنائي، بل أيضاً دراسة شاملة في أساليب عمل دولة بوليسية عصرية).

مكتبة الفكر الجديد

خلال إقامتي في العراق لم استطع العثور على أية وثيقة تعلن عن بداية حملة **الأنفال**. لكن توجد في حوزتي نسخة عن قرار موقّع من صدّام حسين، يقدّم الأساس القانوني لتلك العملية. وقد يكون هذا القرار كافياً، إن جرت في مطلق يوم من الأيام محاكمة القيادة العليا لحزب البعث، تهمة القيام بجرائم ضد الإنسانية.

القرار مؤرخ في ٢٩ آذار/ مارس ١٩٨٧، وكان قد صدر عن مجلس قيادة الثورة وهو المصدر الأعلى للقرارات في هيكلية النظام، ويسيطر عليه صدّام بإحكام، فيما قراراته تنفّذ فوريا. والقرار يمنح ابن عم صدّام، وعضو مجلس قيادة الثورة **علي حسن المجيد** - أصبح في وقت لاحق وزير الدفاع العراقي - السيطرة الكليّة على شمال العراق، إضافة إلى كردستان العراقية. وتلك السيطرة تشمل كل المؤسسات «المدنية والعسكرية والأمنية»، وتستطيع تعليق كل القوانين التي يمكن ان تتعارض مع مضمون هذا القرار، «حتى إشعار آخر»[١١].

مستخدماً السلطات التي منحه إياها القرار، بدأ **علي حسن المجيد** بإزالة القرى، تلك المعروفة بنضاليتها، وعلى الأخص تلك التي كانت في السابق ملجأ لرجال **البشمرغا**. وأول قرية كردية تعرضت لهجوم بالأسلحة الكيميائية (ان إستثنينا النابالم) كانت قرية **شيخ وسان** في وادي **باليسان**. فقد قصفت في نيسان/إبريل ١٩٨٧، وشاهدت بنفسي بقايا عليبات الغاز الكيميائي الصدئة حين زرتها في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩١، وتحدثت مع القرويين في ما حدث. الدكتور **جعفر** وهو طبيب كردي كان يعمل آنذاك في الإستخبارات العسكرية في المستشفى الجمهوري بأربيل، كان شاهداً على ما حلّ بالناجين الجرحى من ذلك الهجوم بالذات.

> «كانوا أحضرو أناساً من المنطقة إلى المستشفى الجمهوري بسيّارات خاصة. عدد المصابين فاق الـ ٣٨٠ بينهم عجائز ونساء وأطفال، وكانوا كلهم قد أصيبوا بالأسلحة الكيميائية. وضعوهم داخل جناح كبير وأمرت الدولة الأطباء بالامتناع عن معالجتهم. أبقوهم فقط تحت المراقبة ومنعوا أياً كان من الإقتراب منهم. أبقوهم يوماً واحداً في ذلك المستشفى، وفي الليلة التالية نقلوا إلى السجن، وهو بناء آخر كبير في أربيل. ظلّوا هناك بضعة أيام حملوا بعدها إلى مكان مجهول. كان ثمة شخص يعيش قريباً من السجن، قال انه رآهم يخرجون أولئك الأشخاص ليلاً ويدفنونهم أحياء»[١٢].

حمأة كاملة من الهجمات المتزايدة الوحشية - كانت تستخدم في بعضها الأسلحة الكيميائية وفي البعض الآخر قنابل إعتيادية - تتالت في وقت لاحق من تلك السنة

مكتبة الفكر الجديد

بالذات. هرب الأكراد إلى المدن، وفروا أيضاً إلى إيران، غير أنه لم يكن قد جرى بعد تطويقهم بشكل منظّم لينقلوا إلى حصون كانوا يبادون فيها. هذا حدث لاحقاً. كانت لا تزال هذه فترة إختبار وتجارب لإستراتيجيات مختلفة. ولكن لم يُعر العالم العربي أي إهتمام لمعرفة ماذا كان يُفعل باسمه، فإن بعض الدبلوماسيين الغربيين كانوا يعرفون بالتأكيد، وعلى رغم ذلك لم تقم حكوماتهم بأية خطوة البتة لإعلام بقيّة العالم. أحد الدبلوماسيين الغربيين، الذي كان زار شمال العراق في صيف ١٩٨٧، أعلن ان هناك عملية جارية لإزالة القرى وإعادة توطين مئات الآلاف من الأكراد: «ثورة ديموغرافية جرت أمام أعيننا في الأشهر الستة الماضية». [١٣]. أما الدور الذي لعبه علي حسن المجيد في كردستان أواخر الثمانينات فيمكن ان نستدل إليه على أحسن ما يكون بالألقاب التي راح يطلقها عليه الأكراد فيما بينهم. لقّبوه أولاً «علي الكيميائي»، ولاحقاً إشتهر أكثر بلقبه الآخر «علي أنفال».

لا يبدو ان لقب **«الأنفال»** إستخدم كتسمية لأي من عمليات علي حسن المجيد في شمال العراق قبل شباط/ فبراير ١٩٨٨. وأعتقد ان القرار الرئيسي بمضاعفة حدّة العنف المستخدم ضد القرى الكردية، كان اتخذ في وقت ما بين أواخر ١٩٨٧ وبدايات ١٩٨٨. فيما أطلق على قرار التصعيد اسم شفري هو **«الأنفال»**.

لم يكن ثمة ما هو سرّي في ان شيئاً ما جديداً يجري، لأنه طوال ١٩٨٨ كان العراقيون يسمعون، مراراً وتكراراً وفي كل وسائل الإعلام الرئيسية الواقعة تحت سيطرة الدولة، كلاماً عن «عمليات الأنفال البطولية». شوريش رسول الذي امضى في دراسة حملة **الأنفال** وقتاً يزيد عمّا أمضاه أي شخص آخر أعرفه، يعتقد ان عملية **الأنفال** الأولى بدأت في الثانية من ليل ٢٢ ـ ٢٣ شباط/ فبراير ١٩٨٨ في قرية ياخ سيما قرب السليمانية، وتوالت الهجمات طوال صيف ١٩٨٨، لتنتهي في أواخر آب/أغسطس أو بداية أيلول/سبتمبر. وفي أذهان معظم العراقيين، بمن فيهم الجنود السابقون الذين كنت تحدثت إليهم، أن عمليات **الأنفال** قادها الفيلقان الأول والخامس في الجيش العراقي، مصحوبين بمئات الآلاف من وحدات «الجحوش» الكردية المساعدة. وبحسب الإعتقاد الغالب، كانت جزءاً من المجهود الحربي العام ضد إيران. ولكن في الواقع كان ما يجري حملة ضخمة ومنفصلة ـ حملة كانت موجهة كلياً ضد الأكراد المسالمين، وكان بعض الناس يعرفون بالتأكيد ما يجري تحديداً.

بعد وقت قليل من انتهاء حرب الخليج أمضى **جمال** (اسم مستعار) بصحبة زوجته، وجمال اختصاصي بغدادي من عائلة مرموقة وفي مطلع ثلاثيناته، عشية مع صديق

مكتبة الفكر الجديد

حميم هو طارق (وهذا مستعار أيضاً) وزوجته. وسرعان ما بدأ الأربعة يتحدثون عن النظام. وفجأة شرع طارق يتحدث عن أمر رهيب كان إبن عمّه الضابط في أمن الدولة متورطاً فيه. كان الضابط هذا قد عمل لأمن الدولة في المنطقة الشمالية طوال عشر سنوات، قضى معظمها في مدينة الموصل. وتبعاً للثقة بينهم، روى طارق كيف ان إبن عمه عزيز علم بأمر حكومي قضى بقتل ٢٢ ألف كردي. كان واضحاً، بسبب ضخامة العدد، أنه كان ينبغي القيام بعملية القتل تلك بطريقة خاصة. ومما رواه عزيز، أنه عندما نفذت السلطات عملية الإبادة تلك، وضعت الضحايا في حفر ثم غطت الجثث وطمرتها.

كان عزيز نفسه قد قام بقتل أشخاص، على الرغم من ان عدد من قتلهم، أو دوره بالتحديد في تلك العملية بالذات، لم يجر التحدث بشأنهما. كذلك روى طارق حادثة كان أخبره بها عزيز، وهي أن جندياً إرتجفت يداه ورفض إطلاق النار على الأكراد، فقام الضابط آمره بتهديده أولاً، ثم طلب من جندي آخر ان يطلق النار على زميله المعاند. وبدوره رفض الجندي الثاني الأمر. وبعد التشاور مع قيادته، أطلق الضابط المسؤول النار على الرجلين وقتلهما هو بنفسه.(١٤).

في حصيلتها، تسببت حملة ١٩٨٨، حملة **الأنفال**، بتدمير ١٢٧٦ قرية، حسب تحليلي للمصادر الكردية. وينبغي مقارنة هذا بالقرى التي يقل عددها عن اثنتي عشرة، والتي أزيلت بين ١٩٦٩ و١٩٧٤، وهو عدد تفاقم ليصبح ١١٨٩ خلال السنوات الخمس التالية. وفي المجموع وحسب هذه المصادر، جرى تدمير حوالى الـ ٣٥٠٠ قرية منذ ١٩٦٨ (تقريباً ٨٠ بالمئة من كامل مجموع القرى الريفية في كردستان العراقية).

كيف يمكن ان يفهم المرء أرقاماً كهذه؟ فإسرائيل داخل حدودها ما قبل عام ١٩٦٧، كانت أنشئت على آلام الفلسطينيين ممن «أزيلت» لهم ٣٦٩ قرية. إذن كم حجم الألم الجماعي حين تكون النسبة أكبر عشرات مرات؟ لا أعرف الجواب. وبالفعل ليس هناك جواب عن سؤال كهذا. فالألم، شأن القسوة، ليس أبداً نسبياً، وليس بالإمكان قياسه بالكميّة.

على أية حال يتوجب على أولئك العراقيين والعرب الذي ظلّوا صامتين، بينما كان يجري كل ذلك، التزام عهد أخلاقي بالتأمل طويلاً في ما يعنيه كل هذا.

غير أن السمة المميّزة في حملة **الأنفال**، لم تكن إزالة القرى، إذ ان ذلك كان يجري منذ وقت طويل في العراق، كما حاولت ان أظهر. السمة المميزة هي في التنظيم البيروقراطي والإدارة التقليدية الروتينية لعمليات الإبادة الجماعية لسكان القرى، وليس

مكتبة الفكر الجديد

لسبب سوى مصادفة أنهم يعيشون في منطقة كانت صنّفت آنذاك «محظورة أمنياً». ومنطق البيروقراطية هنا يميّز بين حملة مثل الأنفال، وجريمة حرب مثل حلبجة، أو إعدام كردي كمعارض سياسيّ للنظام، كائناً ما كان تفسير ذلك (في هذه الحالة بالذات، ليس مهماً ما إذا كان المتهم مناضلاً سياسياً، أو لا). فبحسب ما أعلم لم توجد في تاريخ العراق الحديث إبادة جماعية نظاميّة ومنظّمة من هذا النوع، قبلاً.

ولربما كان أفضل وصف لعملية الأنفال النموذجية ما يقدمه النظام بالذات. تقول رسالة كانت طبعت بالآلة الكاتبة، صادرة من قبل الرئاسة وعليها شارة «سرّي وخاص»، انه ألقي القبض على ٢٥٣٢ شخصاً و١٨٦٩ عائلة، خلال «حملة الأنفال البطولية»، وأرسلوا إلى «مخيّم»، لم يذكر موقعه. أمّا بالنسبة إلى مصير أولئك الذين اعتقلوا وسجنوا، فإني أنقل هنا عن تسجيل صوتي لمحضر إجتماع بين قياديين عسكريين ومسؤولين بعثيين وضباط من الإستخبارات كان عقد في ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٨٩ في كركوك، وهي المدينة الكردية في شمال العراق. والشريط المسجّل الذي كنت إستمعت إليه بينما كنت لا أزال في العراق، ينقل كلام **علي حسن المجيد** وهو يتحدث بلهجة تكريتية فجّة (وهو مثل صدّام من بلدة تكريت) عن الأكراد الذين انتهى بهم الأمر في حصون كحصن **كوراتو**:

> «الاهتمام بهم يعني دفنهم بالجرافات، هذا ما تعنيه كلمة الاهتمام بهم... هؤلاء الأشخاص سلّموا أنفسهم. هل يعني ذلك ان عليّ ان أبقيهم أحياء؟ أين سأضع هؤلاء الناس، إنهم كثيرون؟ لذلك بدأت بتوزيعهم على المقاطعات. ومن هناك جعلت الجرّافات تروح وتجيء بلا توقف».

كم كان عدد الأكراد الذين قتلوا ودفنت جثثهم في مقابر جماعية؟ خلال إقامتي التي دامت ثلاثة أسابيع في كردستان، كان يبدو ان لدى كل شخص قصة عن فرد ما من عائلته «فقد» في الأنفال. ولديّ لائحة بما يقارب الـ ١١,٠٠٠ اسم كانت أعطيت لي بين لوائح كثيرة أخرى. ان الرقم الذي قدّمه الزعماء الأكراد وهو ١٨٢ الف قتيل فلا تدعمه لوائح ولكنه يقوم على تقديرات إستقرائية مصدرها القرى الريفية التي جرى تدميرها. وعندما سألت **محمود عثمان** زعيم الحزب الإشتراكي في كردستان عما يعتقد انه يمكن ان يكونه مجموع عدد الأموات والمفقودين، أخبرني عن لقاء حضره في أواخر ربيع ١٩٩١، وضم زعماء أكراد مع مسؤولين حكوميين حيث جرى التفاوض مرة أخرى ـ هذه المرة كان الإجتماع في أعقاب نهاية حرب الخليج والإنتفاضة التي تبعت

مكتبة الفكر الجديد

ذلك تواً ـ حول مسألة الحكم الذاتي الكردي. إبان ذلك اللقاء كما يذكر عثمان، طرح المندوبون الأكراد مسألة الأكراد المفقودين: لربما كانوا لا يزالون على قيد الحياة في مخيّمات، في مكان ما من الجنوب؟

كان علي حسن المجيد حاضراً في الإجتماع، وبحسب ما ذكره عثمان أعلن المجيد عن استيائه لدى طرح موضوع محاصرة الأكراد خلال حملة الأنفال. فهو «إستشاط غضباً، وأغلق الملف أمامه بعنف وكأنما لينفدع خارجاً من الغرفة». ثم وكأنما بهدف وضع حد لكل الكلام بشأن الحملة، صرخ المجيد: «ما هذه المبالغة في القول ان الرقم يبلغ ١٨٢ ألفاً؟ العدد لا يتعدى المئة ألف».

اللقاء الأول مع الأنفال

وصلت إلى فندق بغداد في زاخو من الحدود التركية حوالى الثامنة والنصف من صباح ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١. زاخو بلدة حدودية بكل معنى الكلمة. والولاء في هذه البلدة التي يبلغ عدد سكانها ١٢٥ الف شخص لن يكون علنياً البتة، وقد جرى تعميم النصح بأخذ الحيطة. وفيما كان يمكن ان ترتفع حمى المنافسة بين الأحزاب الكردية، كان العملاء السرّيون العراقيون بين الأكراد مندسين في كل مكان. وبعيد وقت قصير على مغادرتي البلدة قام مسلح مجهول بإطلاق النار على سيارة عميل سابق مرتدّ وقتل حرّاسه الثلاثة. كانت البلدة قد تحولت إلى جنة مهرّبين: بندقية الكلاشينكوف تباع مثلاً بـ ١٥٠ دولاراً، ومسدس الماغنوم ٣٥٧ بمبلغ ٣٠٠ دولار. قبل ذلك قتل ثلاثة صحافيين من شبكة البي بي سي البريطانية والقيت جثثهم في وهدة جبلية غير بعيدة من البلدة. لقد حدث ذلك في أوائل السنة، وكان هؤلاء إختاروا المرشد الخطأ ليعبروا الحدود إلى العراق.

كان الفندق مواجهاً لتقاطع طرق مزدحم تنبثق من وسطه مظلّة إسمنتية مخصّصة لشرطي السير. وحول المظلة كتب الشعار التالي: «نريد ان يكون ضمير كل عراقيّ حارسه». في الزاوية كانت هناك لافتة تحمل اسم مصبغة وتضيء الشارع: «مكوى غرناطة». كانت آلات الكيّ البالغة الضخامة تبعث صوتاً خافتاً، وبخارها يتجمع في الأرجاء. وفيما أنا أتمشّى عبر الفناء القذر، شاهدت وردة ضخمة مرسومة على الجدار، وأمامها شارة تعلن عن «ورشة أحمد الفنيّة». أحمد، الذي كلّف أحدهم بإنجاز الرسم، كان يصلح أجهزة التلفزيون. وفي زقاق قريب مسدود يدعى «الأحرار»، كان ثمة ملصق يمجد الأكراد شعراً بالكتابة التالية: «إن سألتني فهذا طريقي: الحريّة للأكراد، والوحدة لكردستان». أيضاً كانت لافتة في ردهة الإستقبال إلى جانب غرفتي في الفندق، تقول:

مكتبة الفكر الجديد

«يتوجب على كل الضيوف وضع كل حاجاتهم القيّمة في عهدة إدارة الفندق وإستلام إيصال موقّع بالمقابل. الإدارة غير مسؤولة عن فقدان الممتلكات».

في الصباح التالي تناولت فطوراً مؤلفاً من الخبز والشاي و«القيمر»، وهي قشطة محضّرة من حليب الجاموس. الشيعة العرب في مناطق الاهواز جنوب العراق يصنعون القيمر، وكانت هناك جماعة منهم تسكن في أطراف المدينة، حيث جرى توطينها هناك منذ سنوات طويلة كجزء من مشروع «تعريب». وفي رحلتي تلك قيّض لي أن أعبر مرات عدة بمحاذاة أكواخهم الطينية التقليدية، ولكن غالباً، وليس دائماً، بدت القرى تلك مهجورة. كان كلما أحضر القيمر مع الفطور، يُعرف ان مجموعة من العرب الموزّعين لا تزال موجودة هناك. سائق التاكسي الذي أحضرني إلى الفندق من الحدود كانت مواهبه تتعدد في الصباح حيث يحضّر الفطور ويعمل نادلاً. لقد تباهى مقدماً لي نوعين من الخبز لأتناول بهما القيمر. قال: «انه خبز صدّام» مشيراً إلى الأرغفة المستديرة البنّية والمسطّحة، «وهذا خبز كردي» مشيراً إلى كدسة من الأرغفة البيضوية الشكل المصنوعة من الطحين الأبيض. أكلت خبز صدّام.

كانت الخطة الأساسية هي ان ننسلّ خفية إلى داخل زاخو، ونتوجه من هناك عبر الطرق الجبلية مع إندلاع الفجر في الصباح التالي، ثم نعبر **العمادية** ونتوجه مباشرة إلى منطقة أكثر أماناً في **شقلاوة**. ولدي ذكريات عزيزة عن قيامي، في الستينات، بجولة صعوداً في الجبال حول العمادية على ظهر بغل، وكنت تواقاً لرؤية البلدة مجدداً. وتلك ستكون المحطة الوحيدة خلال رحلة الساعات السبع في سيارة اللاندروفر وصولاً إلى شقلاوة. غير ان الأمور لم تجر كما كان مقرراً، إذ انتهى بي الأمر نائماً في فندق بغداد لليلة ثانية، وكان ذلك بسبب رجل يدعى **صبحي فرمان** إلتقيته بالصدفة بعد ان انتهيت من تناول فطوري العراقي الأول منذ ثلاث وعشرين سنة.

وصبحي مهندس كردي لطيف الحديث في أوائل أربعيناته كان يعمل سابقاً في بغداد، وهو الآن يعمل مسعفاً إجتماعياً بدوام كامل في زاخو. لكن ما بدّل أموره يكمن في الأشياء التي كان يفعلها في أوقات فراغه. ولفترة راح صبحي يلاحظ نسوة من دون أزواج، يسرن مصطحبات أولادهن، ويخبرن قصصاً عجيبة. وليس هناك من أخذ تلك النسوة على محمل الجدّ، إذ كن غريبات عن البلدة يقمن في أي زاوية صغيرة يمكنهن العثور عليها.

- إلتقيت إحدى تلك الأرامل. كان لديها ولدان، مات كلاهما. أحدهما قضى في السجن في السليمانية قرب الموصل، والآخر في بحركا. سألتها عمّا

مكتبة الفكر الجديد

تريد ان تفعله في المستقبل. أجابت انها ترغب بالعمل في مؤسسة إنسانية تهتم بالأطفال، مثل دار حضانة أو مستشفى للأطفال، وأشياء من ذلك القبيل، لأنها فقدت ولديها. إنها الآن وحيدة وهي لا تصدّق ان زوجها قد قتل. إنها في إنتظاره. أخبرتني أنهما كانا مغرمين واحدهما بالآخر... أموز من هذا القبيل، ثم تزوجا وهي في انتظاره الآن.

ـ كنعان مكيّة: هل هنالك العديد من النساء ممن يمتلكن قصصاً من هذا النوع في زاخو؟

ـ أجل، أجل، هناك عدد كبير منهن. تستطيع العثور عليهن في كل مكان.

كان صبحي يعتقد ان المشكلة تكمن في ان «أحداً لم يكن يهتم»، «لم تكن هناك منظمات إنسانية تهتمّ، ولم يبدر إهتمام من الأحزاب الكردية. لم يقدّم أحد العون لهن، ولم يبق لهن إلا المدن التي تبتلعهن. إنهن يعشن في أمكنة بائسة جداً. على سبيل المثال إلتقيت بعضاً منهن وكن مقيمات في بناء لم ينته العمل به، بلا نوافذ ولا أبواب. لم تكن هناك أي وسيلة للتدفئة. وبينهن أطفال كما تعرف. هكذا هم الناجون».

كان هؤلاء الناس من بقي من حملات الأنفال في ١٩٨٨. في أوقات فراغه، جعل صبحي يجمع أسماءهم. كان انقضى شهران على عمله على إنجاز اللائحة عندما التقيت به، وكان يملك لوائح وسجلات عن خمسمائة عائلة كل منها فقدت شخصاً أو اثنين من أفرادها. كم عدد الأشخاص الذين كانوا يساعدونه على إنجاز ذلك المشروع؟ «في الواقع انا أقوم بذلك وحدي»، ردد لي هذا بضحكة إرتباك خافتة، «غير أني قمت لاحقاً بإستخدام شخصين من أجل الدخول في الميدان. جمعنا المعلومات من أحزاب مختلفة في المنطقة، ثم أرسلنا شخصين إلى زاخو لجمع المعلومات والحصول على صور فوتوغرافية من كل عائلة، والحصول أيضاً على قصة مفصّلة عمّا جرى لكل واحدة بمفردها إبان ١٩٨٨».

سألته، من اين يتوافر له المال لإستخدام أولئك الأشخاص، فأجاب: «لقد تلقينا بعض الإعتمادات المالية من منظمة الإغاثة الدولية. وهبتنا مبلغ خمسمائة دولار». ويوم ٩ تشرين الثاني/نوفمبر، أي قبل أربعة أيام من وصولنا إلى زاخو، بدأ صبحي يضع المعلومات التي سبق له ان جمعها، في أشكال حسنة الطباعة بالآلة الكاتبة، وكان ينوي الإستمرار في ذلك حتى نفاد مبلغه الكبير البالغ خمسمائة دولار.

ـ كنعان مكية: هل صممت الاستمارات بمفردك.

مكتبة الفكر الجديد

ـ أجل لقد فعلت ذلك. كنت قد تشاورت مع أصدقائي بشأن إختيار نوع المعلومات التي ينبغي ضمّها إلى الملف. صممتها بنفسي ثم بدلت فيها إثر نصائح تلقيتها من بعض الأشخاص. هكذا تجري الأمور. هل استطيع ان اسمع رأيك بهذا الشأن؟.

كانت لائحة صبحي تحمل عنوان «المفقودون في الأنفال». وكان يكرس صفحة كاملة لكل شخص مفقود. وفي حال توفرها، كانت تُثبّت صورة للشخص فوق الزاوية اليسرى. كانت كل صفحة تحمل الاسم الثلاثي، وتاريخ الولادة، والمستوى المعيشي، والحالة العائلية، والمهنة، وعنوان العائلة السابق والحالي، ومكان الاختفاء وتاريخه. وكانت تتضمن أيضاً لائحة بعدد أفراد العائلة الناجين الذين جُمعت منهم المعلومات، ومكان وجودهم حالياً، وملاحظات حول الناجين وماذا يرغبون بأن يفعلوا بحياتهم. على سبيل المثال: «الأرمل ترغب بالعمل على آلة للخياطة..» أو، «هذه العائلة ترغب بالحصول على وظيفة لابنها توفيق، وهو شقيق القتيل...»، وهكذا دواليك.

في الأسبوع التالي أعطيت لي لائحة ثانية قام بإعدادها شخص آخر، وكانت تحتوي على ١٠,٦٦٦ إسماً، لكنها لم تكن البتة منظمة مثل لائحة صبحي. على أنني بدوري سأحمل معي كل تلك الأسماء في طريق عودتي إلى لندن، نظراً لأهمية إعداد اللوائح، غير اني ما زلت لا أعرف ما الذي سأفعله بالأسماء التي في حوزتي. فمجرد وجودها يعني ان الأنفال مسألة حاضر، لا مسألة من الماضي. إنها تختص بذكريات سوف لن تغيب أبداً عن الأذهان، ذكريات مريعة سوف تشكل مستقبل العراق، شئنا ذلك أم أبينا.

في المكتب حيث يعمل صبحي، تصفّحت بسرعة الإستمارات المتراكمة التي وضعها أمامي، وإنتقيت إسماً كيفما اتفق: عائلة **عبّوش** من قرية **كريبيت علي**. كان واحد وعشرون شخصاً قد إختفوا من هذه القرية، وكان ١٨ آخرون اختفوا أيضاً من قرية مجاورة لها تدعى **كريبيت تيمور**. عشرة أولاد من عائلة **عبّوش** أخذوا مع كل سكان **كريبيت علي** في شهر آب/ أغسطس ١٩٨٨. ومنذ أول أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨ لم يُر أحد من أفراد عائلة عبّوش العشرة. **سعيد عبوش** مولود في ١٩٤٢، و**حميد عبوش** في ١٩٥١، و**طفّار عبوش** في ١٩٥٢، و**سليم عبوش** في ١٩٦٣، و**يونس عبوش** في ١٩٥٧، و**تحسين عبوش** في ١٩٧٢، و**جنكير عبوش** في ١٩٦٥، و**مصلح عبوش** في ١٩٧٤، و**رباح سعيد عبوش** في ١٩٧٥.

أدى ذلك إلى ان تذهب كل خططنا السابقة، للتسلّل بسرعة وخفية، من زاخو، ادراج الرياح. سألت ان كان في الوسع مقابلة من تبقى من عائلة عبوش. فالرجل الوحيد

مكتبة الفكر الجديد

الذي بقي على قيد الحياة، ويدعى إسماعيل، مقاتل مع رجال حرب العصابات، كان ينتمي إلى مقاتلي البشمرغا وهو إنضم إليهم منذ عشرين سنة، ثم هرب إلى تركيا تماماً قبل وصول الجيش. إذاً لم ير إسماعيل بعينيه كل ما جرى لعائلته، لكنه كان يعيش مع أمّه وأولاد أشقائه. وجميعهم شاهدوا ما جرى. وهذه المجموعة التي لا يزال أفرادها يعيشون قيد الحياة، يعيشون على بعد عشر دقائق بالسيارة من المكتب الذي تحدثت فيه مع صبحي.

وفي جمعنا أجزاء القصة ممّا رواه كل من إسماعيل وأمّه والمعلومات الإضافية التي قدّمها صبحي، تحصّل لنا الآتي: عند صباح ٢٦ آب/ أغسطس ١٩٨٨، وفي أعقاب الهجوم الكيميائي على قرية توكا والذي كان خلف ثلاثة عشر قتيلاً في اليوم السابق، تركت عائلة عبوش قريتها كريبت. كانت الطرقات تغصّ بقرويين آخرين فارّين، وكان الجيش قد قطع الطرقات وحاصر المنطقة. لم يستطع أحد ان يقدم لي أية فكرة عن عدد القرى التي حوصرت ابان تلك العملية بالذات، ولكنها كانت كثيرة. في ٢٧ آب/ أغسطس نجح شخصان من عائلة عبوش بالتسلل عبر خطوط الجيش إلى الطريق الرئيسية في القسم الشمالي من زاخو، وفرّوا في نهاية الأمر إلى تركيا، لكن جميع الآخرين وقعوا في الحصار ولم يكن لديهم أي خيار سوى «الإستسلام»، مثلهم مثل الآلاف من العوائل الأخرى.

ـ كنعان مكية: لماذا تقولون «إستسلموا»، أما كانوا يحاربون؟

ـ إن الأنفال تعاملت مع الجميع، بمن فيهم الأطفال، كمحاربين.

بعد الإستسلام ساقوا الجميع في قافلة من الآليات شقت طريقها عبر زاخو بإتجاه حصن كان قد بني في الثمانينات ويدعى نزاركه، ويقع خارج مدينة دهوك تماماً. كانت تسيطر على حصن نزاركه المخابرات، لا الجيش. ومع نهاية آب/أغسطس ١٩٨٨ كان ما يقارب العشرة آلاف عائلة محتجزاً هناك. في الحصن جرى إطلاق سراح بعض الأشخاص، حسبما أخبر إسماعيل، الذي أضاف ان الأكثرية أبقيت محتجزة.

وفي ما يشبه الوعي، وهو يتدفق عشواء، فيخلط ويختلط فيه كل تعاقب زمني متسلسل، أخبرتنا أم إسماعيل بما حدث لها:

ـ قال ثلاثة اخوة: «سوف نسلّم انفسنا لهم». نحن بقينا إلى ان رأينا النجوم، وقال الحاج محمد: «سوف أتوجه إليهم وأسلّم نفسي». بعد ذلك وضع أشياء في جرّار زراعي، ووضع فيه بعض أولاده وتوجهنا نحن النسوة إلى الطريق. كنا

مكتبة الفكر الجديد

متفرقين. كانت العائلات الكثيرة منفصل بعضها عن بعضها الآخر، ونحن بقينا حتى اليوم التالي مساءً، جائعين وعطشى. هؤلاء الأطفال كانوا معنا (وتشير إلى مجموعة أولاد صغار كانوا يجلسون حولها). هذا كان مولوداً لتوه. وكان أولاد رشيد معنا أيضاً. كنا في حالة مزرية مثل الكلاب. وقال البعض: «تعالوا نهرب في العتمة» قال البعض الآخر لا. وقال البعض: «تعالوا نذهب في هذا الإتجاه»، وقال البعض: «يوجد أشخاص جرحى هنا». وقفنا هناك على الطريق حتى الليل.

كان هناك العديد من الفتيات والعجائز والنساء. أخذوا كل هؤلاء معاً، وأخذوا الشبان في مجموعة أخرى. شبّان أعمارهم من السبع سنوات وما فوق. كانوا يضربونهم أمامنا وسط الطريق. قتلوا رجالاً أمامنا قبل ان يتوجهوا بالرجال الآخرين إلى السجن، ثم أخذونا لاحقاً إلى مكان آخر.

ـ ماذا فعلوا بالناس داخل حصن نزاركه؟

ـ كل ما تستطيع تصوّره، فعلوه. كانوا يضربوننا بحجارة الطوب، وبالأسلاك وبالأحذية. أعادوا بعض الرجال ممن رحت أنا أساعدهم، غير أنهم كانوا لا يستطيعون الحراك. كانوا كباراً جداً في السن ومنهكين. بعضهم عاد والبعض الآخر لم يعد.

ـ هل ضربوا أحداً أمامك؟

ـ أجل، حتى الأطفال. ضربوا ولديّ، وكل واحد كان يتكلم كانوا يضربونه.

ـ هل ذُكرت كلمة «أنفال»؟

ـ لا، ولم يكن في مقدورنا ان نسأل عن شيء، لأننا لو فعلنا ذلك كانوا سيضربوننا ويرموننا بحجارة الطوب على ظهورنا.

ـ هل كان بينهم رجال من وحدات الجحوش؟

ـ لم يكن هناك أي جحش داخل قلعة نزاركه، كانوا كلهم مخابرات ومن قوّات الأمن. كان من يقوم بعمليات الضرب رجالاً يرتدون ثياباً مدنية وقمصانهم قصيرة الأكمام.

ـ هل ان بعضاً من الأولاد الذين أراهم هنا هم نفسهم أولئك الذين كانوا معك داخل حصن نزاركه في ذلك الوقت؟ ماذا عن ذلك الولد الصغير هناك مثلاً؟

مكتبة الفكر الجديد

- كان عمره آنذاك ثلاثة أشهر. وذلك الصغير، وذاك الصغير أيضاً كانا معنا.
لم نكن نعرف شيئاً حين توجهنا إلى هناك. لم نكن نعرف شيئاً... لم نكن نعرف! ظننّا ان العالم كان ينقلب رأساً على عقب.

بعد مكوثهم بضعة أيام في حصن نزاركه، هتف رجال المخابرات بأسماء الذكور المتبقين، وإنفصلت عائلة عبوش للمرّة الأخيرة. تسعة من أشقاء إسماعيل وإبن شقيق واحد، إضافة إلى أحد عشر رجلاً من قريته، جرى فصلهم عن الآخرين. جُمّع ما بين الخمسة آلاف والثمانية آلاف ذكر ونقلوا إلى مكان آخر جميعاً. شوهدوا للمرّة الأخيرة، بحسب والدة إسماعيل، عند حاجز للجيش في آخر مدينة الموصل.

إقتيدت جمهرة النساء والأطفال إلى سجن مركزي في الموصل يدعى السلامية. إحتجزوا هناك حوالى الأسبوعين، ثم نقلوا لاحقاً إلى مخيّم لإعادة التوطين يدعى بحركا، ويقع في منطقة السهول عند تخوم منطقة أربيل. في بحركا جرى توزيع حصص من الأرض على العائلات، فنالت كل عائلة بين ١٦٠ و٢٢٠ متراً مربعاً لتبني عليها منزلها.

لم تكن هناك أية أبنية في المخيّم، ولا تمديدات مياه، ولا كهرباء، ولا ظلّ، ولا أي وسيلة للوقاية من أي نوع. وكل ذلك جرى ابان ذروة الحر في الصيف. وفي البداية لم يسمح لسكّان أربيل بالإتصال بالمحتجزين في بحركا أو بإمدادهم بأي مساعدة من الخارج، إذ كان المخيّم محاصراً من قبل الجيش.

جرى بالطبع تهريب أشياء إلى الداخل. لكن الجيش استرخى لاحقاً عندما تعاظم عدد السكان، وبدأت تنتشر الخيام، والأبنية الإسمنتية. كان ثمة أطفال يموتون يومياً، وقد أُخبرت انه لم يتبق في بعض الأمكنة سوى الأطفال الذين تفوق أعمارهم الخمس سنوات. نساء عائلة عبوش بقيت هناك مع الأولاد طوال سنتين، إلى ان عادوا وانتقلوا مجدداً إلى زاخو. سألت والدة إسماعيل كيف كانت ظروف العيش في بحركا: «أحضرونا جميعاً ورمونا كلنا معاً. لم يكن لدينا أي معين لمدة ثلاثة أيام، ولم يكن لدينا أي شيء. كان المكان كالجحيم».

كانت كربيت علي قرية عائلة عبّوش، تبعد فقط مسافة نصف ساعة، هكذا قيل لنا. لذلك قررنا الذهاب إليها مصطحبين معنا إسماعيل. انتقلنا إلى هناك داخل سيارة تويوتا لاند كروزر عبر أسوأ وأقسى طريق ترابي وصخري رأيته في حياتي. كانت السيارة تتقافز مثل أرنب، متوجهة نحو المكان المقصود، والذي يبعد، في الحقيقة، مسافة ساعتين.

مكتبة الفكر الجديد

كان هناك في ما مضى قرية جاثمة على تلة مطلّة على واد أخضر. كان يمكن مشاهدة نهر خابور ملتوياً في الأسفل عند مسافة بعيدة. بدت الشمس على وشك المغيب، والسماء تقتم متحوّلة إلى أزرق داكن بعد ان كانت برتقالية قانية. وكانت تلك الفترة من أواخر بعد الظهيرة لنهار منقشع واضح، ظهرت فيها جليّة ظلال الألوان كلها جلية وفي ذروة تحوّلاتها.

كانت كل الأبنية في القرية مدمّرة كلياً. فقد جُرفت حتى سُوّيت بالأرض، وتحولت إلى مَعْلَم أثري، وبات من الممكن أن يستعاد التاريخ فقط عبر الحفر والتنقيب. لم يكن ممكناً البتة ان تعرف ان قرية مؤلفة من أربعين منزلاً كانت تقع هناك، إلا ان كنتَ جاهداً بالبحث عنها. كانت قطع من الملابس تحت الدبش، ابيضّت ألوانها بفعل الشمس، وهي التي كانت يوماً قانية ولماعة. لكنه كان ينبغي ان تبحث عنها منقباً.

لقد كانوا صبّوا نبع المياه بالأسمنت وأغلقوه كلياً. الزراعة وتربية المواشي ـ وكانتا الدعامتين الأساسيتين لإقتصاد القرية ـ لم يكن ممكناً ان تنطلق من جديد. المدرسة، وقد كانت البناء الإسمنتي الوحيد في الأرجاء، جرى تدميرها كلياً بالديناميت، إذ هوى سقفها فوق الأرضية التي سبق له ان حماها في يوم من الأيام، ولم تتبعثر الأنقاض بعيداً عن حدود الأساسات. وأخبرني إسماعيل انه في ١٩٧٧، إشتغل عاملاً مياوماً لدى السلطات البلدية الخاصة بمقاطعة زاخو الكبرى، وفي بناء تلك المدرسة بالذات.

أي نوع من الذهنية تلك التي تدمّر الأشياء نفسها التي شيّدتها هي بالذات؟ لا بد ان قوة غامضة إستولت على المخيلة البشرية لتهندس إرسال آلاف المسلحين إلى هذا المكان الجميل. قدموا عبر طريق الكارثة ذاتها التي قدمت عبرها. وكانوا قد تخبطوا في حاملات الجند المصفّحة والشاحنات ناقلين جرافات، وحاملين مدافع وديناميت. لماذا؟

عندما سألت صبحي عما كانت تعني بالنسبة إليه كلمة «أنفال»، أجاب بتعثّر أول الأمر: «إنها عملية سيئة».

ـ متى سمعت بكلمة الأنفال أول مرة؟

ـ كان ذلك في ١٩٨٨ عندما بدأوا ذلك الشيء المدعو «الأنفال». قبل ١٩٨٨ لم يكن هنالك ما يسمّى بالأنفال.

ـ عندما كنت تعدّ تلك الإستمارات واللوائح، هل كنت تفكر في الأنفال. أليس هذا ما تمثله الأنفال؟ أليس كذلك؟

ـ أجل.

مكتبة الفكر الجديد

- هل الأنفال مختلفة عما كان جرى في حلبجة.

- حلبجة ليست الأنفال. حلبجة مسألة مختلفة.

- ماذا قال حزب البعث انه كان يفعل؟ لماذا قاموا، من وجهة نظرهم، بترحيل تلك العائلات من قراها؟

- كي يخرجوا الأسماك من مياهها.

اللقاء الثاني مع الأنفال

الطريق الجبلية بين زاخو والعمادية تمر عبر مناظر طبيعية آخاذة. لم يكن ثمة ما يمكن ان يحضرني نفسياً بشكل أفضل، لإلقاء نظرة أولى على العمادية من مسافة تقارب الخمسة وعشرين ميلاً. كان ذلك اليوم صافياً نقياً لطيف الهواء، مشمساً، وكريستالي الإنقشاع. والمدينة كانت كما أذكرها مستديرة تكللها قمم الجبال كما لو انها كانت وضعت في مكانها اللائق.

جبل العمادية يشكّل مخروطاً متناسقاً مع قمته المقصوصة التي تبدو كأنها إنجاز فذ ومرعب للهندسة القديمة، ومماثل لذاك الذي رفع منصّة هيرودوس الحجرية العظيمة في أورشليم، والتي يقع فوقها حالياً الحرم الشريف. الفرق انه لا يتوجب في العمادية على أحد أن يقوم ببناء النجد المستدير الذي ترتفع فوقه جدران ابنية المدينة الحجرية، وكأنما هو تكملة عادية للمنحدرات الحادّة في الأسفل. هذه هبة الطبيعة للعراق.

كان يرافقني فريق، وهو أحد حارسي البشمرغا اللذين عيّنا لمرافقتنا في زاخو، عندما توقفت لإلتقاط صورة فوتوغرافية. بشاربيه الرفيعين الشبيهين بالقلم، وسترته الجلدية التركية الأنيقة، وقصّة شعره العصرية الطراز، كان فريق مأخوذاً على الدوام بعمله، يؤديه بجدية قصوى. عمره ٢١ سنة، وكان قد انتمى إلى البشمرغا منذ أن فرّ من الخدمة العسكرية الإلزامية بناء على نصيحة والده في ١٩٨٧. وكلما كنت أخرج من السيّارة لإلتقاط صورة، كان فريق على مقربة مني يراقبني بإنتباه شديد. فريق جندي مثالي، ما كان يعتبر على الإطلاق انه يؤدي خدمة لي. كان يظن ما يفعله واجباً، ابن عمه، وكان شاباً سلبياً تسيطر على وجهه باستمرار نظرة متحفظة، سبق أن اعتقله الجيش عند أحد الحواجز وسلّمه إلى المخابرات، وبقي في قبضتها طوال شهر كامل. كان هو عنصر البشمرغا الثاني الذي رافقنا ولم يكن يهوى عمله هذا.

لقد كان فريق مرشدنا، وكان يفعل ذلك متقصياً الألغام الأرضية على رغم أن ما

مكتبة الفكر الجديد

كنت أفعله لم يكن يتعدى التقدم بضعة ياردات من أجل الحصول على زاوية أفضل للصورة.

الطريق إلى المدينة ترتفع ببطء صاعدة نحو علو شاهق مريع. أول بناء تصادفه في العمادية محطة للوقود مسدودة بسيارات تنتظر دورها للحصول على حصتها من الوقود. كان صهريج قد وصل للتوّ وانتشر الخبر بسرعة. مقاتل من البشمرغا يرتدي الزي الكردي الفولكلوري وقف منتصباً ومتنبّهاً، وراح يدوّن أشياء على كدسة أوراق يحملها، فيما الناس يتحركون ويتدافقون مرحين من حوله، منتظرين أن يأتي دورهم فيتزوّدون بالوقود ثم تُشطب أسماؤهم من اللائحة. فهل هذا الرجل هو البيروقراطي المستقبلي للدولة الكردية؟

في زاخو بدأت أفهم كيف ان الأنفال لم تكن عملية بسيطة حصل فيها للجميع الأمر نفسه. لقد جرى اتباع أنماط في السلوك مختلفة تبعاً لاختلاف الظروف المحلية. **الأشوريون الذين كانوا يقيمون في المناطق المحظّرة اختفوا كذلك، وكان مصيرهم مشابهاً** لمصير الأكراد. وفي منطقة **سيندي** اختفى الرجال فقط، أما في منطقة **دوسكي** قرب **دهوك**، وفي قرية تدعى **كورفيل**، فأعدم ضابط من الجيش، رمياً بالرصاص، ٣٥ شخصاً ما بين رجال ونساء وأطفال داخل القرية نفسها. لماذا؟ ليست لديّ فكرة، لكن روي ان الضابط المسؤول صاح بهم:«هذه هي الأنفال ويجب أن تقتلوا». كان هناك شاهدا عيان سعيت إلى مقابلتهما، فقيل لنا إننا نستطيع العثور على **كمال** في المبنى المحلي لقيادة الحزب الديمقراطي الكردستاني بالعمادية. ويبدو أن كمال كان تلقى برقية من زاخو تطلب منه العثور على **سيّد نايف وسعيد شلكي**، شاهدي العيان، وكلاهما يعيش في العمادية.

إلاّ أنه لم ينجح في العثور عليهما. وفي النهاية بات يتوجب علينا ان نبقى في العمادية يوماً بأكمله، وبدا الأمر مستحيلاً، فأجريت مع **كمال** عوض الحديث الآتي:

- متى سمعت للمرة الأولى بكلمة الأنفال؟

- عام ١٩٨٨ بالطبع. قالوا، سوف نبدأ الأنفال الأولى، الأنفال الثانية، الأنفال الثالثة...

- هل وصلت الأنفال إلى العمادية؟

- لم تحصل أية أنفال في العمادية، لأن الجيش كان أصلاً هنا، متمركزاً في المدينة.

مكتبة الفكر الجديد

في خلال رحلتنا، أصبح واضحاً أكثر فأكثر ان المدن الكردية الكبيرة مثل السليمانية وأربيل وكركوك والبلدات الواسعة مثل دهوك وزاخو والعمادية، لم تتأثر بحملة الأنفال. لقد كانت بالتحديد عملية ريفية مقتصرة على القرى الكردية. كانت العائلات تجمع من القرى المحيطة وتُجلب إلى البلدة في غضون الحملة، ثم تقسّم وتفرّق تماماً بحسب الطريقة التي وصفتها أم إسماعيل عبوش، وها هو كمال يكررها لي لآن:

ـ قسمت الناس ثلاث مجموعات. فرّ بعضهم إلى إيران مع عائلاتهم. آخرون إختبأوا في الجبال بين الصخور والأشجار، وآخرون ظلوا في القرى، قرى مثل سبيندال وغيزه وكفناماجية وهيجة. عندما وصل الجنود إنقضوا عليهم وإعتقلوهم جميعهم. أحضروهم إلى هنا في العمادية وفصلوا الرجال عن النساء والأطفال. بعد ذلك، نقلوهم إلى قلعة السلمية بالموصل. بقيت النساء ١٥ يوماً في السلمية، وبعد ذلك جرى نقلهن إلى مخيّم كبير في أربيل يدعى بحركا.

ـ هل فصلوا الرجال عن النساء والأطفال في العمادية؟

ـ بالطبع.

ـ ماذا حلّ بالرجال؟

ـ لسنا نعرف أي شيء عنهم.

ـ في أي بناء شوهدوا آخر مرّة؟

(أشار كمال إلى بناء يقع وراءه تماماً، البناء الذي خرج منه لإجراء هذا الحديث).

ـ لا!

ـ أجل. أجل. هذا البناء. كان في ما مضى مبنى إتحاد المعلمين.

لقد أصبح البناء الآن مركز قيادة فرع العمادية للحزب الديمقراطي الكردستاني. وفيما كان الوقت يمضي رحت أعتاد أكثر وأكثر على ذاك التحاور الغريب بين الأشياء، مما يتميّز به الوضع في شمال العراق.

ـ ماذا تعني بالنسبة إليك كلمة «الأنفال»؟

ـ إقتلاع، إبادة، قتل كل شيء...

مكتبة الفكر الجديد

لقاء تيمور

بحسب ما نعلم فإن **تيمور عبدالله**، من قرية **كالاتشو**، هو المخلوق البشري الوحيد الذي عاش مباشرة وحقيقةً تجربة حملة الأنفال في أعمق وأفظع أحداثها وأفعالها، وبقي على قيد الحياة ليخبر عنها. هذا ما كنت عرفته وأنا في لندن، على الرغم من اني لم اكن أفقه بعد ماذا تعني حملة الأنفال، ولا كنت أعرف ما إذا كان يمكن تصديق روايته، تلك التي رأيتها جافة ومتكلّفة على شريط فيديو. كانت الأنفال آنذاك مجرد إسم بالنسبة إليّ، إسم كان يتوالى أمامي في نسخ وثائق الإستخبارات، التي أعطيت لي لغرض يتعلق بعدد الأكراد الضخم الذين إختفوا في ١٩٨٨. العديد من الناجين، مثل عبدالله العسكري، شهدوا الهجومات على قراهم، كما شهدوا عمليات محاصرة وتطويق قرى أخرى داخل شمال العراق. لكن شخصاً واحداً فقط «اختفى»، ثم «ظهر مجدداً» بفعل أعجوبة ليخبرنا ماذا جرى له.

جرى لقاؤنا داخل ثكنة مهجورة للجيش تبعد مسافة نصف ساعة بالسيارة في الجبال المحيطة بالسليمانية. كانت الأبنية المفجّرة بنوافذها المسودّة تجثم على جبل منكشف الرؤية من كل الجهات. كان الموقع الطبيعي مميزاً بقدر ما كانت القاعدة بشعة، تحيط بها الجدران من كل الجهات، والأسلاك الشائكة والحواجز الأمنية. وحياة تيمور منذ إنتفاضة آذار تمحورت حول واقع انه كان ولا يزال هدفاً رئيسياً للإغتيال من قبل عملاء صدّام. فقد أصبح واضحاً ان الفتى تحوّل إلى رمز، إلى خادم للقضية، لقد أصبح نصباً حياً لمعاناة الشعب الكردي.(١٥).

كان تيمور هادئاً جداً منغلقاً على نفسه طوال الوقت. طوال الـ ١٦ ساعة التي قضيتها بمعيّته، لم يبادر هو إلى الكلام. وحين كان يُسأل عن أمر كان دائماً يجيب بتهذيب، ولكن بكلمات متقطّعة حيادية، غير مظهر أيّاً من العواطف. هل كان يكبت كل شيء تحت تأثير الصدمة؟ أو هل كان يريد لنفسه أن يتصرف كبطل، والأبطال لا يكون؟ ربما كان الحوار معه في ذلك المحيط غير المألوف، ومن قبل شخص غريب، حائلاً دون إظهار المشاعر، وهو، في أي حال، كان ما يزال مجرد صبي ألبسوه ثياباً يبدو فيها كنسخة مصغّرة عن مقاتل بشمرغا كردي. ولكل من المنظمات الكردية نطاق مميز يُلبس حول الخصر، ولكل منها خياطوها المفضّلون، وطراز الملابس التي تعتمدها.

الحميمية التي كنت بحاجة ماسة إليها كان توافرها مستحيلاً هناك، لذلك توجب عليّ ان أتوجه عائداً مع تيمور ومجموعة كبيرة من المرافقين المسلّحين إلى السليمانية. وصلنا إلى منزل وسط المدينة، وبعد القيام بواجبات الضيافة التقليدية واكواب الشاي

مكتبة الفكر الجديد

اللامتناهية، أعدّت لنا في وقت متأخر من العشية غرفة خاصة، وبدأت أخيراً المقابلة، لكن الكهرباء إنقطعت في السليمانية كلّها. راحت تعود ثم تغيب طوال ما تبقى من الليل، وكل ما يمكن ان يتعطل اصابه العطل في ذلك اليوم.

نتيجة لذلك، كنت عصبياً ومستاء. فمن ذا يتوّقع وجود كل هؤلاء الأشخاص حولنا؟ كانت الفكرة، ببساطة، ان أجلس مع تيمور وآلة تسجيل، وما كنت لأتوقع تعقيدات كهذه[١٦]. أشير إلى ذلك لأن التوتر الذي تفاقم في داخلي ربما قد أثر على المقابلة. كنت أتوقّع الكثير منه، راغباً في كل تفصيل صغير عمّا جرى. ولعّلي كنت قاسياً جداً مع الفتى.

بدأت المقابلة بإخباره أني ولدت في بغداد، ولكني عشت في الخارج، وأني قطعت آلاف الأميال من أجل التحدث إليه. قلت له إني أريد ان أسمع كل شيء، بما في ذلك الذكريات التي لا يزال يعيش معها. «لا تظنّ ان هناك أي تفصيل لا يستحق التحدث عنه». أذكر اني قلت له ذلك أكثر من مرّة. قلت كل هذا تماماً قبل بدء المقابلة كما لو انه لا رغبة لديه سوى ان يستعيد، ويعيش مجدداً وبتفصيل لا متناهي الدقة، ما كان عاناه وعاشه. لا بد ان كل ذلك أسهم مجتمعاً في إخافة الفتى. لا بد أنه تساءل، من هو هذا الرجل؟ ما الذي يريده مني؟ ما الذي سأجنيه من كل هذا؟ ما الذي يجعل قصتي مهمة بالنسبة إليه؟ ما الذي سيجنيه منها؟ طوال العشاء، والفطور في اليوم التالي، رأيته يسترق النظرات إليّ. وكلما كنت أستدير لابتسم له بالمقابل، أو لأتبين تعبير وجهه، كان يدير وجهه إلى الجهة الأخرى، كما لو انه لم يكن ينظر أصلاً. كانت لدى تيمور الأسباب الكافية لتمنعه من الوثوق بمطلق كائن حي مرة أخرى، وإلى الأبد.

أظن ان الفتى لم يكن راغباً في التحدث إليّ. كانت الظروف قد أقحمته داخل ذلك العالم الكابوسي والوحشي، وهو ربما لم يعرف البتة طفولة حقيقية. لكنهم قالوا له انه يتوجب عليه ان يتحدث مع هذا الغريب الذي قدم من مكان بعيد، وذلك مفيد لقضية شعبه. كانت قد جرت تهيئته للمناسبة وربما أجروا له تمريناً نهائياً قبل يوم واحد مكررين له ما ينبغي قوله وما لا ينبغي. لم يكن يريد الكلام، ولكنهم كانوا يتوقعون منه ذلك، وهذه ثقافة يفعل فيها الجميع ما يُنتظر منهم ان يفعلوه ودروس كهذه يعلّمونها للأولاد من صغرهم الباكر.

بدأ تيمور يتلفّظ مخبراً قصته في تدفّق مفاجىء وقصير، غير مضيف أي شيء على ما كنت أعرفه سابقاً من شريط الفيديو الذي شاهدته في آب/ أغسطس. لم اكن قد قطعت كل تلك المسافة لأسمع خطاباً معلباً. ولشعوري بالتوتر الذي بدأ يتفاقم في داخلي،

مكتبة الفكر الجديد

عدت وبدأت من جديد، منقباً عن التفاصيل بنفسي مستخدماً أسئلة قصيرة، بسيطة ومحدّدة، وما عدت معتمداً على الفتى. بعد فترة توصلنا إلى حال من التناغم، وشعرت اننا نكاد ننجح في الوصول إلى شيء ما. لكن كيف كان هو يشعر؟ لست أعرف. أظن ان تيمور لم يكن يتوقع شيئاً أبعد من المحادثة المباشرة. هل التمعت عيناه؟ أعتقد انه قال مرّة أو مرتين أموراً لم يكن يرغب في قولها. لا يزال التفكر في تلك المسألة يشغلني، وأذكر انني كنت ألحّ عليه دونما شفقة وبإلحاح، ولا أتوقف إلا بسبب تلك الكهرباء اللعينة التي لم تكف عن الإنقطاع في السليمانية بأكملها.

ما يلي هو النسخة الكاملة للمقابلة، حاذفاً فقط الترداد، والكلام المعلّب الأوّلي، إضافة إلى بعض الإستطرادات. قمت كذلك بتبديل بعض الكلمات الشاذة، وموقع بعض مقاطع الأسئلة الصغيرة هنا وهناك، وذلك فقط لجعل ما قاله تيمور أوضح لقارئه:

- النهار الذي أخذك فيه الجيش من قريتك، هل تذكره جيداً؟

- نعم

- ماذا كنت تفعل عندها؟

- قبل وصول الجيش؟

- أجل قبل وصول الجيش. ماذا كنت تفعل؟

- الجيش لم يأت إلى قريتنا.

[وحدات كردية من الجحوش كان يستخدمها الجيش العراقي، هي التي دخلت إلى قرية تيمور، لا الجيش العراقي].

- على من ألقوا القبض؟

- على الجميع، الرجال والنساء والأطفال.

- هل جرى أي قتال هناك؟

- لا.

إعتقلت وحدات الجحوش تيمور ووالده، وأمه وأخواته الثلاث، إضافة إلى كل من كان هناك في القرية، وأخذوهم إلى حصن كوراتو، عبوراً بقرية ميلاسورا.

كان الهدف من وراء أسئلتي تلك هو كشف كيف كان يعيش تيمور يومه العادي، قبل دخول الأنفال إلى حياته. لكنه إما لم يفهمني، أو أنه كان لا يرغب في الإجابة.

مكتبة الفكر الجديد

وحتى تلك المرحلة من المقابلة، كنا نتحدث بالعربية، وبعد وقت طويل إنتقلنا إلى الكردية نتيجة طلب منه، وكنا نفعل ذلك مستعينين بمترجم، لأن ذلك أسهل عليه، كما قال. كانت الإجابات تترجم من لغتها ذاتها، وليس من خلال غربلة المترجم.

ـ ماذا جرى؟

ـ قال الجحوش إنهم سوف يواكبوننا إلى قرية كالار، لكنهم كذبوا، وأخذونا بدل ذلك إلى [حصن] كوراتو. بقينا هناك عشرة أيام أرسلونا في نهايتها إلى سجن توبزاوه في كركوك.

ـ كيف أرسلوكم إلى هناك؟

ـ داخل شاحنات عسكرية كبيرة. تلك التي تدعى «إيفا» IVA [«ايفا» هو المصطلح المحلي، الذي يطلق على الشاحنات وآليات النقل ذات الصنع الألماني الشرقي، وهي مستخدمة بكثافة لدى الجيش العراقي].

ـ كم كان عدد الشاحنات؟

ـ كثير.

ـ عشرة؟

ـ لا. لا. كثير. حوالى الثلاثين أو الأربعين.

ـ هل كانت هناك دبابات؟

ـ لا.

ـ بأية طريقة أخذوكم؟

ـ رمونا في الشاحنات وأخذونا.

ـ هل كانت توجّه إليكم الأوامر؟ هل كان هناك مثلاً ضابط يصيح بأوامر ما، أو كان يدعو الناس للحضور ودخول الشاحنة؟ أشياء من هذا القبيل، هل تذكر أي شيء مما قيل؟

ـ لا.

ـ ألم يقولوا شيئاً!

ـ لا.

مكتبة الفكر الجديد

- كيف عرفتم ما كان يتوجب عليكم ان تفعلوه؟
- كان الشيء الوحيد الذي قالوه هو «أدخلوا الشاحنة».
- هل قالوا لكم لماذا ينبغي ان تدخلوا الشاحنة؟
- لا.
- هل قدّموا لكم أي سبب يفسر ما كان يجري.
- لا.
- حسناً. قالوا لكم، «هيّا، إصعدوا إلى الشاحنة». ثم ماذا حدث بعدئذ؟
- صعدنا إلى الشاحنة.
- كيف؟ هل صعدتم عائلة تلو العائلة؟
- أجل، العائلة تلو الأخرى.
- هل فرّقوا أفراد العائلات؟
- لا.
- كم كان عدد الأشخاص في كل شاحنة؟
- لا أعرف.
- كم كان عددكم في الشاحنة؟
- كانت مليئة.
- هل كنتم واقفين أم جالسين؟
- كنا جالسين.
- ماذا جرى للأغراض، للمفروشات، والمواشي والعربات التي كنتم قد جلبتموها معكم؟
- لقد استولت عليها الحكومة.

العربات والملابس التي رأيتها في حصن كوراتو خلال زيارتي إلى هناك في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر، كانت ما تبقى من المقتنيات الشخصية للقرويين الأكراد التي لم يصادرها الجيش أو يسرقها جنود منفردون. وربما مشيت في كوراتو بين الآثار الخاصة بعائلة تيمور بالذات.

- ماذا أخذت معك إلى سجن توبزاوه في كركوك؟
- لا شيء، ما عدا الثياب التي كنت أرتديها.

مكتبة الفكر الجديد

- هل أخذت مالاً؟

- لا، لم يكن معنا أي مال؟

- هل استولى الجيش على المال؟

- نعم.

- هل كنت قد سمعت كلمة «أنفال» من قبل؟ بينما كنتم تنقّلون في الأرجاء من مكان لآخر، هل قام أحدهم بذكر كلمة «أنفال»؟

- لا.

- ألم تسمع هذه الكلمة ابداً من قبل؟

- لا.

- ألم يقل أحد من الضباط، «هذه عملية الأنفال»؟

- لا.

- كيف كنت تشعر وانت في الشاحنة، فيما كانت تنقلك أنت وعائلتك؟

- لم أكن أشعر بشيء، ماذا تتوقع أنت؟

- هل كنت خائفاً؟

- نعم.

- هل رأيت الخوف في وجه والدك، أو أخواتك؟ هل كانوا يبكون؟

- نعم.

- ماذا عن أمك؟

- لا.

- حين وصلتم إلى المكان المقصود، هل أبقوا العائلة مجتمعة؟

- نعم.

- ماذا تذكر عن الآخرين الذين كانوا معكم؟ هل تتذكر ماذا كان الناس يقولون؟

- كانوا لا يقولون شيئاً. كان هناك نساء وأطفال يبكون.

مكتبة الفكر الجديد

ـ هل كنت تعرف ماذا سيحدث لك؟

ـ لا.

ـ هل حزر الأشخاص الآخرون ماذا سيحل بهم؟

ـ لا.

ـ كانت المسألة كسرّ كبير، لم يكن لديكم مطلق فكرة!

ـ لا، لكن عندما قدم الجحوش قالوا لنا «سوف نجعلكم أيضاً «جحوشاً»، سوف نأخذكم إلى كالار، هذا كل ما قالوه لنا.

ـ إذا لقد كذب عليكم الجحوش.

ـ نعم.

كذبوا، **لأنهم أخذوه إلى حصن كوراتو لا إلى قرية كالار. لم يكن القيام بالرحلة** إلى كالار مسألة غريبة بالنسبة إلى قروي كردي. فغالباً ما كان الجحوش في الماضي ينقلون القرويين من مكان إلى آخر. لكن في نهاية الأمر كان القرويون يتسلّون عائدين إلى قراهم الأصلية. كان هذا الأمر يجري طوال فترة الثمانينات، وكان وجود الجحوش يعكس إطمئناناً وهدوءاً لدى القرويين، ولهذا كانت الحكومة العراقية تستخدمهم.

بيد انه، هذه المرّة، جرى التخطيط لعملية مختلفة. كان حصن كوراتو مركزاً إنتقالياً يستخدم لتجميع وفرز أولئك الأكراد الذين كانوا سيقتلون. ومن الصعب إثبات إلى أي حدّ كان الجحوش مشاركين ومتواطئين مع الخطط الجديدة، أو إلى أي حدّ كانوا إعتقدوا ببساطة انها كانت هي نفسها لعبة التأرجح القديمة ما بين الحكومة المركزية والقرويين، والتي كانت مسألة اعتيادية طوال الثمانينات.

ـ عندما كان يتسنى لكم ان تنفردوا بانفسكم من دون ان يراقبكم أي جحش أو ضابط عسكري، ماذا كان الناس يقولون لبعضهم البعض؟

ـ كانوا لا يقولون شيئاً.

ـ بعدما غادرتم **كوراتو**، هل قالوا لكم إلى أين سيأخذونكم؟

ـ أجل، عندما وصلنا إلى الشاحنات، قالوا، «سوف نأخذكم إلى **توبزاوه**، السجن الذي في شمال كركوك».

ـ هل تعرضت أي من النسوة للأذية خلال الفترة التي قضيتموها في حصن كوراتو؟

ـ لا، ولكن قبل وصولنا [إلى توبزاوه]، فصلوا النساء العجائز وأعادوهن إلى كالار.

ـ إذاً النسوة العجائز لم يقتلن؟

ـ لا.

ـ ولكن ماذا بشأن أمك وأخواتك، هل بقين معك؟

ـ نعم.

ـ صف لي توبزاوه.

ـ كان بشعاً جداً.

ـ كيف ذلك؟

ـ كانت الحجرات شديدة الحرارة.

ـ كم كان عدد الأشخاص في حجرتك؟

ـ كانت الحجرة مليئة.

ـ كم كان عدد الأشخاص؟

ـ لم أعدّهم، لكنها كانت مليئة.

ـ وماذا كانوا يطعمونكم؟

ـ كانت حصة كل واحد في اليوم قطعة خبز واحدة.

ـ كم من الوقت بقيتم في توبزاوه؟

ـ بقينا شهراً بأكمله في مركز إحتجاز توبزاوه، إلى ان أرسلونا إلى مكان القتل.

ـ في تلك المرحلة الثانية من الرحلة حين توجهتم من حصن كوراتو إلى توبزاوه، هل حدث أي شيء لا تزال تذكره بوضوح؟

ـ الأمر الذي أذكره هو انه لم يكن هناك أي جحش، كان هناك جنود فقط.

ـ ماذا حدث عندما وصلتم إلى سجن توبزاوه في كركوك؟

ـ حين وصلنا إلى توبزاوه، وضعوا النساء والأطفال في قاعة، والرجال في قاعة أخرى.

مكتبة الفكر الجديد

ـ مع أي مجموعة وضعوك؟

ـ كنت مع أمي وشقيقاتي.

ـ هل رأيت والدك مجدداً بعدما فصلوكم؟

ـ رأيته مرة واحدة أخيرة في توبزاوه، ثم لم أره البتة بعدها.

ـ ماذا كان يحدث حين رأيته؟

ـ كانوا يخلعون عنه ثيابه باستثناء ثيابه الداخلية. قيّدوا يديه بالأغلال، ووضعوا كل الرجال في شاحنات وإنطلقوا بهم.

ـ ألم تر أبداً والدك بعد ذلك؟

ـ لا.

ـ إلى ان حدث ذلك، أريد ان أعرف ان كان هناك أمر تذكره بقوّة، تذكره أكثر من أي شيء آخر، ولن تنساه البتة؟

ـ حسناً، لن أعرف ماذا أقول.

ـ ما الذي أخافك أكثر من أي شيء آخر؟

ـ كنت خائفاً من أنهم سوف يقتلوننا.

ـ هل كان هناك شيء ما أخافك بشكل خاص؟

ـ لا، كنت خائفاً فقط من ان يقتلوني.

ـ ما الذي جعلك تعتقد انهم سيقتلونك؟ انت لم تكن تعرف شيئاً عن الأنفال؟ إذاً ما الذي دفعك إلى الإعتقاد بانهم سوف يقتلونك؟

ـ كنت خائفاً وحسب.

ـ هل كنت تتوقع باستمرار ان يطلق عليك الجنود العراقيون النار ويقتلونك؟

ـ لا.

ـ حسناً. دعنا نعد إلى آخر مرة رأيت فيها والدك. بعدما فصلوا الرجال عن النساء والأطفال، قلت إنهم كبّلوا الرجال بالأغلال؟

ـ نعم.

مكتبة الفكر الجديد

ـ هل فعلوا ذلك أمامك؟

ـ نعم.

ـ وهل كبّلوا أيدي النساء والأطفال؟

ـ لا.

ـ ماذا فعلوا أيضاً بوالدك؟

ـ لا شيء آخر.

ـ ألم يضربوه؟

ـ لا.

ـ هل قيّدوا الرجال بعضهم بالبعض الآخر؟

ـ أجل، كلهم ببعضهم البعض.

ـ في صفّ واحد طويل؟

ـ نعم.

ـ ومن كان يحرسهم؟

ـ جنود عراقيون.

ـ من كان يدير سجن توبزاوه، الجيش أم المخابرات؟

ـ كان هناك جنود ومخابرات، لكن رجال المخابرات كانوا بعيدين بعض الشيء، وكان الجنود داخل السجن.

ـ الشاحنة التي نقلت والدك، هل كانت توجهها وتنظمها المخابرات أم الجيش؟

ـ الجيش.

ـ إذاً كان الجيش هو من نقل الرجال. هل رأيتهم وهم يغادرون مبتعدين عنك؟

ـ نعم.

ـ ما عدد الرجال الذين كانوا بمعيّة والدك، بالتقريب؟

ـ كان هناك العديد منهم.

مكتبة الفكر الجديد

- مئة؟

- نعم.

- أين وضعوهم؟

- وضعوهم داخل شاحنات الـ «إيفا IVA».

- طوال الوقت الذي كانوا يضعون فيه الرجال داخل شاحنات الـ «ايفا» ، هل كنت تشاهدهم؟

- كنت أقف بالتمام أمام باب السجن الذي كان مقفلاً، وكان هناك ثقب كنت أنظر منه.

- هل كان هناك أشخاص آخرون ينظرون عبر الثقب؟

- نعم.

- من؟

- كانت النسوة والعائلات تطل أيضاً.

- هل كان الجميع يحتشدون محاولين التحديق عبر الثقب؟

- نعم.

- ماذا فكرت انهم سيفعلون بوالدك؟

- كنا نعرف انهم سوف يقتلونه.

- إذاً كنت قد أدركت في ذلك الوقت وللمرة الأولى انهم كانوا سوف يقتلون والدك؟

- نعم.

- وهل إعتراك خوف شديد في تلك اللحظة بالذات؟

- نعم

- كنت خائفاً أكثر من أي وقت مضى؟

- في ذلك الوقت، أجل.

- ماذا عن الناس من حولك؟

مكتبة الفكر الجديد

ـ كان هناك نسوة وكن يبكين أيضاً.

ـ ماذا كانت تقول النسوة؟ لا بد أنهن كن يصرخن قائلات شيئاً ما؟

ـ كن يصرخن ويلطمن أنفسهن.

ـ هل كن يمزقن ثيابهن؟

ـ النسوة؟ أجل.

ـ هل كن يشددن شعورهن؟

ـ نعم.

ـ هل رمين بأنفسهن على الأرض؟

ـ لا.

ـ ماذا عن الأولاد؟

ـ هؤلاء لم يبكوا، كانوا فقط ينظرون.

ـ ثم إنطلقت الشاحنة بوالدك. هل تذكر انك رأيت ذلك؟

ـ أجل، كان هناك باب كبير [داخل جدار مركّب].

ـ كم عدد الشاحنات التي خرجت من البوّابة، هل تذكر؟

ـ لم أعدّها، لكن كان هناك ربما حوالى العشرين، وربما أكثر.

ـ كل الرجال الذي كانوا في الشاحنات هل جاؤوا من قريتك، ومن القرى التي تقع في منطقتك، هل كانوا كلّهم من دفعة الأشخاص نفسها التي كانت إعتقلت معكم في البداية؟

ـ كان هناك أناس آخرون أيضاً.

ـ أناس جدد من مناطق مختلفة؟

ـ كان هناك العديد من القرويين، جمعوهم في هذا المكان وشحنوهم مع بعضهم البعض...

عند تلك النقطة من المقابلة بدت كلمات الفتى وكأنها تشتّ وتبتعد عن مسارها، وأشاح بوجهه كما لو انه فقد تسلسل أفكاره ولم يعد يعرف ماذا يقول. بعض الإجابات

مكتبة الفكر الجديد

التي كان يعطيني إياها لا تحتوي على أي معنى إن استعدناها وتأملنا فيها. مثلاً، كيف يعقل ان الأطفال ظلّوا هادئين فيما الهستيريا تلفّ أمهاتهم حزناً وخوفاً؟ يخالجني شعور بأنه لا ينبغي إعتبار كل إجاباته ذات قيمة حقيقية. كنا أدركنا ابان المقابلة مرحلة كان تيمور يعيش فيها مجدداً إنفصاله الأخير عن والده. كان يجدر بي ان أتوقف هناك، أو أقوم باستراحة. عوض ذلك تابعت ملحاً بإصرار، فتحولت الإجابات لتصبح آلية. بدأت أفقد الفتى. ربما كان لا يزال هناك مع والده محتشداً مع الجميع حول الثقب، يعيش مجدداً تلك اللحظة الرهيبة.

- كيف تشعر، هل أنت على ما يرام؟

- نعم.

- بعد ان غادر والدك، كم من الوقت بقيت أنت وأمك وأخواتك، وبقية النساء والأطفال في توبزاوه؟

- عشرة أيام.

- هل نقلوكم من توبزاوه في شاحنات عسكرية شبيهة بتلك التي أخذوا فيها والدك؟

- لا، كانت سيّارات بيضاء مقفلة.

(هذا سؤال محيّر ليس لدي بخصوصه أي تفسير. لسوء الحظ انا لم أتابع سلسلة الأسئلة تلك. ومن هنا فصاعداً سوف نشير، انا وتيمور، إلى تلك السيّارات مستخدمين كلمة شاحنات).

- هل تعرف من كان الرجال المسؤولون؟

- لا.

- كم كان عدد الأشخاص في كل شاحنة عندما انتقلتم من توبزاو إلى المكان حيث كانوا يطلقون النار ويعدمون الأشخاص؟

- أعتقد انه كان هناك مئة شخص في كل شاحنة.

- هل كانوا كلّهم نساء وأطفالاً؟

- نعم.

- كم ساعة استغرقت الرحلة؟

مكتبة الفكر الجديد

- من تويزاوه توجهوا بنا إلى الحدود السعودية. كانوا إنطلقوا بنا حوال السادسة صباحاً، ووصلنا إلى مكان الإعدام في وقت متأخر.

- كان الوقت متأخراً؟

- وصلنا في الليل.

[لكن كان لا يزال هناك ضوء، لأن الوقت كان صيفاً والشمس تغيب في وقت متأخر جداً في آب/ أغسطس].

- هل توقفتم خلال الطريق؟

- لا.

- أين تناولتم طعام الغداء؟

- لم نتناول أي غداء.

- وهل أساؤوا معاملتكم بأي شكل من الأشكال داخل الشاحنات؟

- لم يكن هناك أي جندي في الداخل، ولكن الحرارة كانت شديدة. كان ثمة أناس يموتون من العطش. لم يقدموا لنا ماء في الطريق.

- هل مات أشخاص داخل الشاحنة؟

- مات ثلاثة أطفال.

- كم يوماً بقيتم من دون ماء؟

- يوماً واحداً فقط. عندما أدخلونا في الشاحنة، لم يعطونا أي ماء.

- أخبرني شيئاً عن الأطفال الذين ماتوا؟

- الطفل الصغير مات عطشاً، وفتاة صغيرة ماتت في سيّارتنا من العطش وإختناقاً.

- هل يمكنك ان تصفها لي؟

- كانت عيناها قد غابتا من محجريهما، وكانت رقبتها زرقاء. لم تكن الفتيات من قريتي. كنّ من مكان آخر. لست أعرف من أين.

- كم كانت أعمارهن؟

- أصغر منّي.

مكتبة الفكر الجديد

- ماذا فعل الأشخاص الذين كانوا في الشاحنة بأولئك الأطفال الموتى؟
- لم نفعل شيئاً.
- هل غطّيتموهم؟
- لا.
- هل أزاحتهم النسوة الكبيرات على الأقل إلى جانب الشاحنة؟
- لا.
- كن ممدّدات وحسب على الأرض؟
- نعم.
- كيف كنت تشعر حيال ذلك؟
- لم يكن هناك مطلق شعور، أي شعور؟

هل أساء تيمور فهمي هنا؟ أو انه فوجىء فقط بغباء سؤال كان لا يمكن ان تعبر الكلمات عن جوابه.

- هل كانت أمّك معك؟
- نعم.
- وأخواتك؟
- نعم.
- ماذا إعتقدت انه سوف يحدث لك آنذاك؟
- كنت أفكر أنهم سوف يرموننا بالرصاص.
- ألم يقل لكم أحد أي شيء عمّا سيحلّ بكم؟
- لا.
- من قبل كذب عليكم الجحوش. هذه المرة لم يزعج أحد نفسه حتى بالكذب عليكم؟
- لا، الجحوش الذين كذبوا علينا، لم يحضروا إلى مكان الإعدام.
- هل كانت ملابس الضباط الذين رافقوكم مختلفة عن ملابس الجنود؟
- نعم، كانوا يرتدون زياً مختلفاً.

مكتبة الفكر الجديد

- كاكي؟

- الجنود، أجل.

- ماذا كان الضباط يرتدون؟

- قبعات خضراء.

- هل تذكر كم كان عدد نجوم الضابط الأعلى في الوحدة التي كانت مسؤولة عنكم؟

- نجمتان.

- بما أنه لم يكن هناك جنود في الشاحنة، لماذا لم تهربوا؟

- كانت الشاحنة مقفلة. كان فيها بوابتان.

- لم يكن هناك أي سبيل للهرب.

- بوابتان حديديتان؟

- نعم.

- والسقف أيضاً كان كذلك معدنياً وليس من القماش، أليس كذلك؟

- نعم.

- لم تكن هناك أي نوافذ؟

- فقط نافذة صغيرة.

- هل كانت الحرارة مرتفعة جداً في الداخل؟

- نعم.

- كان ذلك في شهر آب/ أغسطس، أشد الأشهر حراً؟

- كان ذلك في رمضان، لست أذكر الشهر.

- الآن وصلتم إلى مكان الإعدام. ماذا حدث بعدئذٍ؟

- تماماً قبل الوصول إلى مكان القتل، أنزلونا أولاً من الشاحنات وعصبوا اعيننا وقدموا لنا جرعة من الماء. ثم جعلونا نعود مجدداً إلى داخل الشاحنات. عندما وصلنا، فتحوا الباب، وأنا تمكنت من إزاحة عصبتي. واستطعت ان أرى هذه الحفرة في الأرض، وكان يحيط بها الجنود.

مكتبة الفكر الجديد

- هل كانت يداك مربوطتين؟

- لا.

- عندما فتحوا بوابة الشاحنة، أي شيء رأيته أولاً؟

- الشيء الأول الذي رأيته كان الحفر، كانت محفورة وجاهزة.

شرح لي تيمور في وقت آخر أنه ازاح العصبة قليلاً لكي يستطيع الرؤية من غير ان ينتبه الجنود لذلك. كانت الأيدي بالطبع ضرورية من أجل التسلق والنزول من الشاحنات والنزول إلى الحفر بفعالية. ووضع العصبة فوق العينين أسلوب كلاسيكي لعزل الضحايا نفسياً عن بعضهم البعض، وهكذا يقلّلون من فرص القيام بمجهود جماعي والهجوم على الحرّاس أو الفرار والنجاة بانفسهم. رأى تيمور الحفر لحظة فتحت بوابتا الشاحنة. كان لا يزال على أرضية الشاحنة في ذلك الوقت.

- كم كان عدد الحفر التي رأيتها؟

- كان الوقت ليلاً، غير انه كان هناك العديد منها حولنا.

- خمس أو ست حفر؟

- لا، لا، أكثر من ذلك.

- أكثر من خمس، ست، سبع حفر؟

- نعم، نعم.

- صف لي حفرتك.

- كانت أشبه بمخبأ دبّابة. وضعونا في حفر من هذا النوع.

- هل دفعوكم مباشرة من الشاحنة إلى داخل الحفر؟

- نعم.

- كم كان إرتفاعها؟ متراً واحداً؟ مترين؟ هل كان باستطاعتك الوقوف في داخلها؟

- كانت مرتفعة.

- كم كان إرتفاعها؟

- حتى مستوى خاصرة الرجل.

مكتبة الفكر الجديد

ـ كم وضع من الأشخاص في داخلها؟

ـ كانت هناك حفرة لكل شاحنة.

ـ وكم كان عدد الأشخاص في الشاحنة؟

ـ قرابة المئة شخص.

ـ هل كانت حفرة كبيرة؟

ـ كانت مستطيلة الشكل.

ـ هل حفرت بدقة بواسطة آلة؟

ـ بواسطة الجرّفات، كما الحفر التي توضع فيها الدبابات.

قرية تيمور تقع قرب الحدود الإيرانية. فمخابىء الدبّابات منتشرة في المنطقة حول قريته. كان يعرفها جيداً، على الرغم من انه لم ير، ربما، باصاً طوال حياته. أما الجرّافات المصمّمة لحفر مخابىء الدبابات بسرعة وبدقّة فكانت كثيرة وتستخدم من دون إنقطاع طوال سنوات الحرب العراقية ـ الإيرانية الثماني. كانت تلك هي «الجرّافات»، التي ذكرها علي حسن المجيد وكان يتذمّر من إضطراره إلى إرسالها ذهاباً وإياباً لطمر و«دفن» أناس مثل تيمور في ١٩٨٨. المقطع العرضي لتلك الحفر كان يبلغ عمقه حوالى الياردة الواحدة. أما المقطع الطولي فتفاوت علوه، مع حافة ترتفع في أحد طرفيه ليقف فوقها الجنود، وانحناءة عند الطرف الآخر، إلى الجهة حيث تتدحرج الجرّافة دخولاً وخروجاً لكي تنجز الحفرة.

ـ هل كان الجنود يحيطون بكل جهات القبر؟

ـ نعم.

ـ أي نوع من الأسلحة كانوا يحملون؟

ـ كلاشينكوفات فقط.

ـ وماذا كانوا يضعون فوق رؤوسهم؟

ـ أسود على رؤوسهم.

ـ كانوا يرتدون قبعات سوداً؟

ـ نعم.

- إذن لم يكونوا جنوداً عاديين؟

- بل كانوا كذلك.

- هل سبق لك ان رأيت جنوداً يرتدون ذلك النوع من البذلات؟

- لا.

- هل كانوا يضعون شيئاً على أعينهم، مثل النظارات الواقية؟

- لا.

- هل كانت لديهم شارات على اكتافهم؟

- لا.

- هل كانت ثيابهم كاكية؟

- لا، خضراء.

- بذلات خضراء مع قبعات سود، مثل الكوماندوس، أو القوات الخاصة...

- نعم.

- هل شاهدت القوات الخاصة من قبل؟

- لا.

- كم كان عدد الرجال المحيطين بالمقبرة؟

- كانوا يحيطونها من كل الجهات، ولكن من أطلق النار جنديان فقط.

- هل بدأ إطلاق النار بعدما أدخلتم جميعاً إلى القبر؟

- نعم.

- هل يمكن ان تصف لي ما جرى؟

- إطلاق النار... كان هناك جنديان يقفان هنا وهناك [يدل على موقعهما على الأرض، وكأنهما كانا في زاويتين متواجهتين من الحفرة] وجعلا يطلقان علينا الرصاص.

- هل أعطى أحدهم أوامر بذلك؟

- نعم.

مكتبة الفكر الجديد

ـ أريد ان أعرف بالتحديد، ماذا قال؟

ـ لم أكن أعرف العربية أبداً آنذاك. لا أعرف ماذا قال.

ـ هل كان خطاباً قصيراً أو طويلاً.

ـ قصيراً جداً.

ـ الأشخاص الذين كانوا معك في الحفرة، هل قالوا شيئاً؟

ـ لا شيء

ـ هل كانت النسوة يبكين؟ هل كان الأطفال يبكون؟ ما الذي كان يحدث؟

ـ كان الأمر عادياً. كنت هناك. هل كان في وسعي ان أفكر بـ...

ـ أو لم تكن تتوقع ان تموت؟

ـ كنت أعرف اني سوف أقتل.

ـ هل كان أي واحد يحتج؟ هل صرخ أحد أو هل حاول أحد الفرار، أو القيام بأي شيء ضد الجنود؟

ـ لا. كنا إنطلقنا باكراً في الصباح، وعندما وصلنا كان الوقت ليلاً، كان الشيء الوحيد الذي يرغب به الناس هو الخروج من الشاحنة. لا، لم يفعل أحد شيئاً.

ـ هل كنت تريد فقط الموت والإنتهاء من الأمر؟

ـ أجل.

أتصوّر ان حالة غير اعتيادية وجماعية من انعدام الحس إستحوذت على جميع من في الحفرة. وهي تذكّر بردة فعل اليهود وهم يساقون إلى غرف الغاز على ما وصف في روايات المحرقة والإبادة الجماعية. لم يحتج أحد لأنهم كانوا مستسلمين كلياً لواقع أنهم سيموتون. ثم بدأت الطلقات تنصب من إتجاهين. ظاهرياً كان هناك رجلان فقط يقومان بإطلاق الرصاص.. أصابت رصاصة تيمور في كتفه اليسرى. إنه جرح في اللحم. نظر إلى الأعلى ورأى ان من أطلق عليه النار كان الجندي الواقف مباشرة أمامه، هذا الذي بدأ تيمور يركض نحوه.

ـ هل أدركت فعلياً الجندي؟

ـ نعم.

مكتبة الفكر الجديد

ـ هل تمسّكت به حقاً؟

ـ تمسّكت بيده، ثم...

ـ يده أو رجله؟

ـ يده.

ـ لكنك كنت داخل الحفرة؟

ـ لا، خرجت منها وركضت.

ـ خرجت راكضاً من الحفرة وتمسّكت بالجندي. هل هذا ما حدث؟

ـ نعم.

ـ هل قلت له أي شيء؟

ـ لم أقل شيئاً. أمسكت يده. ثم صرخ جندي آخر بالجندي الذي كنت امسكه وطلب منه ان يقذفني مجدداً إلى الحفرة.

ركض تيمور خارجاً من الحفرة من جهتها المنحنية والتي على أية حال إستخدمتها الجرّافة لإنجاز الحفرة. كان هناك طوق من الجنود عند تلك الحافة، إضافة إلى أحد الاثنين اللذين كانا يقومان بإطلاق الرصاص. كان الجندي الآخر بالتأكيد من الجهة المعاكسة، يطلق النار داخل الحفرة على طول خط الانحناءة. ولا بد أن تيمور، مدركاً قمة الحفرة بأعجوبة، فعل أكثر من مجرّد إمساك يد الجندي الذي سيقتله. لا بد انه كان قد تعلّق به، متوسلاً إيّاه بوجهه، وربما حتى بصوته. ربما ليس هناك أي دليل على ما خطر لتيمور من كلمات في تلك اللحظة الانفعالية غير الاعتيادية.

ـ هل نظرت إلى وجه الجندي؟

ـ نعم.

ـ هل رأيت عينيه؟

ـ نعم.

ـ ماذا رأيت؟ ماذا استطعت ان تقرأ في عينيه، في تعابير وجهه؟

ـ كان على وشك البكاء، ولكن الآخر صرخ به وأمره ان يرميني مجدداً في الحفرة. كان مجبراً على رميي من جديد.

مكتبة الفكر الجديد

- هل بكى؟

- كان على وشك البكاء.

- كم كان يبعد الضابط الذي كان يصرخ؟

- كان قريباً منه.

- الجندي الذي دفع بك مجدداً إلى الحفرة، هل كان هو نفسه من أطلق النار عليك مرة ثانية؟

- نعم. ذلك الجندي أطلق النار عليّ مجدداً بعدما تلقى الأمر من الضابط الذي كان يقف إلى جانبه في الحفرة. عندما أطلق عليّ النار مرة ثانية أصبت هنا [وأشار إلى الموضع].

أطلق رصاصة ثانية فيما كان تيمور يُدفع إلى داخل الحفرة، فاستقرت في أسفل ظهره، لكن بدا ان الرصاصتين لم تحدثا إلا إصابتين طفيفتين، وفي اللحم فقط، على الرغم من أنه، في نهاية محنته، نزف كمية كبيرة من الدم.

- ذاك نفسه الذي كاد يبكي، هو من أطلق عليك النار مجدداً؟

- نعم، لقد أجبر على ذلك، كان الآخر قد أمره.

- - هل سقطت مجدداً في الحفرة.

- نعم.

- هل كانت الرصاصات تنصبّ في تدفّق متواصل، أو بشكل متقطع فقط؟

- كانوا يتوقفون ثم يبدأون من جديد، ومن جديد مرة أخرى.

- ما الذي كان يحدث للناس من حولك فيما كان يجري إطلاق الرصاص؟ هل هتف أي منهم أو صرخ أو زعق، أو قال شيئاً ما لا تزال تذكره؟

- لم يكن الناس يصرخون.

- ألم يقل أحد شيئاً؟

- لا.

- ألم يهرب أحد آخر من الحفرة؟

- لا.

مكتبة الفكر الجديد

ـ ألم يحاول أحد ما غيرك مهاجمة الجنود؟

ـ لا، كانوا عديمي القوة.

ـ وكم كان عدد الرجال الذين كانوا واقفين حول الحفرة يطلقون النار؟

ـ كان هناك إثنان فقط يطلقان النار، وكان الآخرون واقفين.

ـ ماذا كانوا يفعلون؟ هل كانوا يشاهدون؟

ـ نعم.

ـ هل ما كانوا يرتدونه مختلفاً عن زي الرجلين اللذين كانا يطلقان النار؟

ـ نعم.

ـ كيف ذلك؟

ـ كان الرجال الواقفون للمساندة يرتدون زيّاً أخضر اللون، اما اللذان كانا يطلقان النار فكانا يرتديان زيّاً عسكرياً.

ـ ومن الذي كان يرتدي قبعات سوداء؟

ـ أولئك الذين كانوا يراقبون.

ـ هل بدا ان هناك قائداً بينهم، رجلاً واحداً يعطي الأوامر؟ أم انه كان هناك أكثر من واحد؟

ـ كان هناك عديدون. واحد لكل حفرة.

ـ ماذا جرى بعدما توقف إطلاق النار؟

ـ غادر الجنود وكانوا يتحدثون مع بعضهم البعض. كان الوقت ليلاً.

لقد كانوا يدورون بغير نظام حول الحافة الترابية، بإنتظار وصول الجرّافات لتطمر الحفر، وتغطي الجثث الساقطة. مضت دقائق على ذلك وتيمور منكمش مرتعد بين الجثث ومتظاهر بالموت. ثم يقول إنه تسلق بجهد إلى خارج الحفرة وألقى نظرة أخيرة إلى داخلها.

ـ خرجت من الحفرة ونظرت إلى داخلها. رأيت شيئاً ما يتحرك. كانت فتاة. قلت لها «انهضي، تعالي نذهب»، فأجابتني «أنا خائفة من الجنود، لا أستطيع المجيء».

ـ أخبرني المزيد عنها.

مكتبة الفكر الجديد

ـ كنا جالسين في الحفرة. كانت إلى جانبي وقد أصيبت برصاصة في يدها.

ـ هل كانت أصغر منك؟

ـ كانت فتاة صغيرة جداً.

ـ ماذا كانت ترتدي؟

ـ ملابس كردية.

ـ كانت أصيبت برصاصة في يدها... هل قالت أي شيء آخر؟

ـ لا.

ـ ماذا عن بقية الأشخاص، هل كانوا كلهم أمواتاً؟

ـ لم يكن يصدر منهم أي صوت.

عندما تحدث تيمور مع الفتاة الصغيرة، كانت قد مضت بضع دقائق على توقف إطلاق الرصاص. إبان تلك النظرة الأخيرة التي ألقاها على الحفرة رأى أمّه سارة وشقيقاته الثلاث، غيلاس وليلى وسروا. رأى كذلك ثلاثاً من عمّاته إضافة إلى حفصة التي لم يكن لديها أطفال، ومعصومة التي لها ثمانية أطفال. بعدئذٍ فيما كان الجنود غير منتبهين، ركض متجهاً إلى حفرة قريبة فارغة وقفز إلى داخلها. وبواسطة قطعة معدنية حفر حفرة داخل الرمل والتفّ في داخلها تحت ستار العتمة. بقي هناك لفترة مراقباً، بينما الجرّافات تهيل التراب على الحفر. كانت الآليات تتحرك وتدور. بعد وقت غادروا فيما فقد هو وعيه أو استغرق في النوم. بعدما إستعاد وعيه وتأكد من مغادرة الجميع، خرج تيمور من الحفرة وبدأ يمشي بإتجاه الصحراء. كان الوقت متأخراً في الليل. ويذكر أنه وصل إلى تقاطع طريقين «واحدة قديمة وواحدة جديدة». إنطلق في الطريق الجديدة، بعدما سار قرابة الساعتين، إلى ان اندفعت كلاب نابحة من العتمة وهاجمته. كان تعثر بخيمة من خيام البدو، وأطلّ رجل من الخيمة وسلط في عينيه مصباحاً كشافاً. أدخله إلى داخل الخيمة. كانت والدة الرجل وزوجته وشقيقته يعشن كلهن هناك. قدموا للفتى الطعام والماء، ونزعوا عنه ثيابه الكردية، وألبسوه دشداشة عربية. كانت العائلة قد سمعت صوت إطلاق الرصاص.

بقي تيمور مع تلك العائلة البدوية طوال ثلاثة أيام. أخفوه عن بقية العائلات في الخيام القريبة. وفي اليوم الرابع أخذوه إلى منزل قريب لهم في مدينة السماوة، وهناك جرت معالجته سراً بواسطة أدوية وأدوات أحضرت من المستشفى المحليّ.

مكتبة الفكر الجديد

بقي تيمور مع تلك العائلة قرابة السنتين، تعلّم خلالهما التكلّم بالعربية. انه اليوم يتكلّم العربية بلكنة شيعية جنوبية. أصبح قريباً جداً من الناس الذين أنقذوه ورفض بعناد ان يقدم لي أية معلومات إضافية عنهم.

في نهاية الأمر إستطاع تيمور العودة إلى كردستان. إبن عائلة السماوة كان جندياً وكان لديه صديق كردي في الجندية. وذلك الكردي سجل أسماء أقارب تيمور كلهم، وإستطاع العثور على عمّة أخرى من عمّات تيمور، رافقت بدورها الجندي الكردي إلى منزل عمّ له كان نجا من العملية ويعيش في منطقة كالار. قدم العمّ إلى السماوة بمهمّة سرّية لإرجاع الصبي، وبعد بضعة أشهر، أحسّوا ان تيمور لم يكن يحسّ بأمان حتى مع عمه، إذ ربما اكتشفت السلطات العراقية أمر فراره. هكذا هرّبوه بطريقة خفيّة مجدداً إلى منطقة جرميان، حيث عاش مع راع حتى انتفاضة آذار/ مارس ١٩٩١.

وأنا أنظر مجدداً إلى مخطوطة مقابلتي مع تيمور، أدرك ان أسئلتي لم تظهر التعاطف الكافي مع ما كان هو يشعر به. كانت أسئلة قاسية، وواقعية، ومن النوع الصحافي، على الرغم من اني كنت في ذلك الوقت عاطفياً جداً. لا بد أني كنت منطوياً على نفسي، على نحو ما كان تيمور إذ بدا هادئاً مسترخياً ومتماسكاً، بينما هو يتحدث عن ذروة الرعب الذي يمكن ان يعيشه كائن حيّ، لا سيما فتى في الثانية عشرة من العمر طبعاً.

قرابة انتهاء مقابلتنا، إستخدم تيمور فجأة كلمة «أنفال» للمرّة الأولى.

- استخدمت الآن كلمة «الأنفال». سابقاً عندما سألتك لأول مرّة، قلت لي أنك لم تسمع أبداً هذه الكلمة تُستخدم من قبل، متى كانت أول مرة سمعت فيها عن الأنفال؟

- عندما عدت من سماوه، سمعتها في كردستان للمرّة الأولى.

- ماذا تعتقد ان الأنفال تعني؟

- أنفال تعني كافر.

- لماذا تعتقد ان الحكومة العراقية دعت الذي فعلته بكم الأنفال؟

- لست أدري.

- ماذا تشعر حيال العرب؟

- جيّدون.

مكتبة الفكر الجديد

ـ من فعل بكم كل تلك الأمور الفظيعة؟

ـ العرب.

ـ إذاً كيف تشعر حيالهم؟

ـ لا أقول كل العرب. انا أقول فقط ذلك...

ـ هل لقّنك أحدهم هذه الأشياء لتقولها؟ أريد ان أعرف كيف تشعر. لست أهتم بماذا قال لك أي واحد لتقوله لي. أريد ان أعرف شعورك من الداخل. من فعل هذا بك، الحكومة أو العرب؟

ـ الحكومة.

ـ إن كنت تستطيع الإختيار، فماذا تريد ان تفعل بحياتك الآن؟

ـ لست أعرف بما يتعلق بي.

ـ هل هناك شيء ترغب فيه أكثر من شيء آخر؟

ـ أجل.

ـ ماذا؟

ـ ان أصبح شخصاً مشهوراً.

ـ شخصاً مشهوراً؟

ـ أجل.

ـ مشهوراً بماذا؟

ـ بالأنفال.

ـ هل تريد ان تكون مشهوراً أكثر بالأنفال، أو في ان تصبح من البشمرغا؟

ـ بالأنفال.

ـ ما الذي تعنيه «مشهوراً بالأنفال»؟

ـ أريد ان يعلم العالم ما الذي جرى لي.

مكتبة الفكر الجديد

٦ ـ تذكّر القسوة

اعتقدت، حتى وقت قريب، أن «الأنفال» اسم لسورة قرآنية. عندما أطلق صدّام حسين عملية عسكرية ضخمة في جنوب العراق في حزيران/يونيو ١٩٩١، مطلقاً عليها أيضاً اسماً شفرياً هو «الأنفال»، لم يكن لدى أي منا، نحن العراقيين الذين اندفعنا في كل الأمكنة لإيصال الخبر إلى وسائل الإعلام، أية فكرة عن المعنى الضمني الكامل لإختياره تلك العبارة. هرب اللاجئون من إنتقام النظام في أعقاب عمليات الثأر التي تلت إنتفاضة آذار/مارس ١٩٩١ الفاشلة، ودمّرت مجمّعات سكنية بأكملها مع كل الجوار في مدن جنوبية. طوال أسابيع كان كل ذكر شيعي يفوق عمره الإثني عشرة سنة معرضاً للإعدام بالرصاص، وللجرف داخل مقابر جماعية بالجرّافات. كل تلامذة الفقه الذين استطاع النظام إلقاء القبض عليهم أُعدموا. أُناس مثل أبي حيدر هم من الذين فرّوا هاربين من كل ذلك، لكنهم، إذ لم يستطيعوا الفرار من البلاد، لجأوا إلى منطقة الأهوار ما بين دجلة والفرات في جنوب العراق. في حزيران/يونيو بدأ الجيش حصاره لهم وقطع عنهم المواد الغذائية والوقود والأدوية. وفقط عبر تذكّر إستعادي للأحداث، استطعت أن أُدرك ان تلك ليست إلاّ استعادة للسابقة الكردية الرهيبة في ١٩٨٨.

سوف يستمر البشر في مناقشة مسألة جوهر الحقيقة حتى نهاية الأزمنة. لكنه لن يكون هناك أي نقاش حول ماهية القسوة. منذ الآن فصاعداً ستحمل عبارة «الأنفال»، إلى الأبد ولدى كل عربي، معنى جديداً أعطاه لها حزب البعث العراقي وهو: الإبادة الجماعية المقررة رسمياً في العام ١٩٨٨، لما لا يقل عن مئة ألف كردي.

وهذا المعنى الجديد هو بداية اعتراف بمسؤولية ما جرى في ١٩٨٨. فلن يكون ثمة مستقبل طبيعي للعراق من دون ذلك الإعتراف. الماضي لا يزول هكذا كأن لم يكن، ينبغي مواجهته قبل أن يوضع جانباً.

مكتبة الفكر الجديد

إن بلداً وثقافة خبرا تجربة كالأنفال، أو ما عاشه كل العراقيين في تجربة العام ١٩٩١ لا يمكن أن يعودا إطلاقاً إلى الحياة «كما كانت من قبل». هل باستطاعة تيمور أن يعود مجرد طفل كردي صغير مرة ثانية؟ تذكارات ما جرى في ١٩٨٨ و١٩٩١ ليست إلاّ بعضاً من الميراث الضخم المرير الذي تركه صدام حسين، هذا الميراث الذي سيعيش معه الشعب العراقي زمناً طويلاً بعد ذهابه.

لكن من هو المسؤول عمّا جرى في ١٩٨٨؟

لم أعرف بشأن عمليات الأنفال حتى تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١. هل يعني هذا أنني لست مسؤولاً؟ كان العالم يعرف بالتأكيد، وعلى الأقل منذ ١٩٧٥، انه كان يجري إعادة توطين الأكراد. عدد كبير من الناس كان يعرف أن المئات ان لم نقل الآلاف من القرى أزيلت من الوجود. كانت الأنفال هي الذروة المنطقية جداً للوحشية المتصاعدة التي كانت تمارس منذ سنوات داخل العراق، وبمعرفة تامة من جميع الحكومات الغربية والمثقفين العرب: الأولى سلّحت الطاغية والآخرون (المثقفون) دعموه سياسياً. والآن، مسّت الوحشية الجميع.

المسؤولية عن الموتى الأكراد في الأنفال تتعدى النظام البعثي في بغداد. هل يعني هذا أن كل عراقي عربي مسؤول أيضاً؟ ومن جهة أخرى، هناك عدد كبير من الأكراد ما كان ليلاقي حتفه لو لم يَشُقه أكراد آخرون إلى خارج قراه ويذهب به إلى حتفه. هل يعني هذا ان الأكراد مسؤولون أيضاً؟

إن كل عربي مسؤول؟ كتبت ملايين الكلمات والسطور عن تدمير مئات من القرى الفلسطينية إبان قيام دولة إسرائيل. وهذا أمر محق. إلاّ أن العديد من المثقفين الذين كتبوا تلك الكلمات، اختاروا الصمت عندما تعلّق الأمر بإزالة آلاف القرى الكردية من قبل دولة عربية. يبدو اننا لا نعرف إلاّ الأمور التي نريد معرفتها.

ربما تقع المسؤولية أيضاً على الحكومات المتحالفة التي دمّرت العراق لإجبار صدّام حسين على الخروج من الكويت. العديد من العراقيين يتذكرون انه في الماضي، في العام ١٩٨٨، كان صدّام حسين صديق الجميع. جورج بوش، الذي كان آنذاك نائب رئيس الولايات المتحدة، تدخّل شخصياً لمصلحة نظام البعث في مناسبات عديدة، لجعل بلاده «ترجّح» كفة العراق خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية[١]. إنهم يذكرون تلك الأيام غير البعيدة، يذكرون بأية طريقة جرت الحرب في الخليج، ويرون أن صدّام تُرك في السلطة ليشفي غضبه دماراً وخراباً بشعبه، وقالوا: هل كان رئيس الولايات المتحدة قد تلقى معلومات استخباراتية بشأن عمليات الأنفال، وهل تجاهل عمداً تلك المعلومات

مكتبة الفكر الجديد

واستخباراته؟[٢]. في ذات يوم، أعتقد أننا سوف نعثر على قبور جماعية من ذلك النوع الذي وصفه تيمور، في الصحراء غربي السماوة قرب الحدود السعودية. وقد حدث بالصدفة انه بينما كانت تسحق الإنتفاضة العراقية في آذار/مارس ١٩٩١، كانت القوات المتحالفة تعسكر بين السماوة والحدود العراقية - السعودية، وربما بالضبط فوق تلك القبور، وتشاهد حدوث تلك المذبحة. هل كان أحد يعرف في أروقة السلطة في واشنطن، فوق ماذا يجلس جنودهم؟

تذكّر حرب الخليج

الحرب جحيم، لكن ليست كل الحروب جحيماً من النوع نفسه. لقد تبين أن الطريقة التي انهت بها الولايات المتحدة حرب الخليج أشدّ أذى لشعب العراق، وقد أوقعت ضحايا يفوق عددها ما قد توقعه حرب مباشرة. مع بداية صيف ١٩٩١ كان العراق قد تحوّل من بلد معاصر يمتلك جهازاً طبياً متطوراً، وشبكات مياه، ومجارير، ونظام طاقة كهربائية، إلى «أحد أكثر بلدان العالم فقراً». كان هذا استنتاج فريق دراسة عالمي مؤلف من ٨٧ باحثاً أكاديمياً ومختصاً. لقد زاروا العراق في أيلول/سبتمبر ١٩٩١، ليدرسوا تأثير الحرب عموماً على صحّة المدنيين ورفاههم[٣]. كان ما يزيد عن نصف عدد السكان ما زالوا معرّضين للتلوّث بالمجاري، إذ اختلطت أوساخها بمياه الشفة التي كانوا يشربونها طوال الأشهر السبعة التي أعقبت وقف إطلاق النار. ثلث أطفال العراق كانوا يعانون من سوء التغذية، وارتفعت أسعار المواد الغذائية بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ بالمئة فيما تدنت قيمة الأجور ما دون الـ ٧ بالمئة قياساً لما قبل الحرب. الأمراض المنتقلة بالماء تضاعفت مئة مرة ومنها التيفوئيد والأمراض المعوية والكوليرا، وكثرت إلتهابات الكبد وانتشر مرض إلتهاب السحايا في جنوب العراق، وانبعثت في كل مكان أمراض لم تعد مألوفة مثل شلل الأطفال والحصبة والكزاز[٤].

إبان حرب الخليج، وعلى الرغم من الـ ١٢٠ طلعة التي قامت بها طائرات التحالف، لم يكن التدمير والأضرار التي لحقت بالمناطق السكنية واسعاً وشاملاً، ولم يجر البتة ما يمكن أن ندعوه بحملة قصف جوي عشوائي نموذجية. كذلك لم يكن عدد الضحايا المدنيين مساوياً لما يمكن أن يتوقعه المرء من حملة بتلك الضخامة، كان عدد الموتى المدنيين يتراوح بين ٣ آلاف و٥ آلاف)[٥]. والتقديرات المتعلقة بعدد الجنود العراقيين الذين قتلوا في المعارك تتراوح ما بين ٣٠ ألفاً ومئة ألف قتيل، لكن ثمة إجماعاً متزايداً على أن تلك الأرقام تحتاج إلى إعادة نظر وتعديل نحو الأقل[٦].

مكتبة الفكر الجديد

بيث دابونت ديموغرافية تعمل في مكتب الإحصاءات السكانية الرسمية في الولايات المتحدة، تقدّر انه سقط ٥٣ ألف قتيل بسبب الحرب مباشرة في كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير، في مقابل ١٠٥ آلاف عراقي قتلوا بنتيجة الإنتفاضة ضد صدّام حسين وبنتيجة أمراض وبائية شائعة، وأمراض منقولة بالماء نتجت عن الدمار الحربي للبنية التحتية للبلاد[٧]. ويبدو أنها اسقطت من حساباتها عدد القتلى بين اللاجئين الأكراد والشيعة الذين هربوا إلى الجبال بعد فشل الإنتفاضة. فخلال الهجرة الجماعية التاريخية لأكثر من مليوني كردي - أغلبيتهم الساحقة من الأحداث - كانوا يموتون بمعدل يتراوح بين ٤٥٠ و٧٥٠ يومياً بسبب الإسهال، والأمراض التنفسية المعوية والمبرحة، والجروح. وفي المجموع مات ما بين ٢٥ ألفاً و٣٠ ألف كردي[٨]. غير أن الشيعة العراقيين تكبّدوا القسط الأعظم من إنتقام صدّام حسين بعد أنتهاء الحرب، ولا أحد يعرف كم من عشرات الآلاف قتل منهم.

الطابع المتطور تكنولوجياً للحرب استطاع إنهاء وجود العراق كدولة حديثة بعد بضع ساعات على بدء المعركة. وطن بأكمله ترك «ميت الدماغ»، بحسب وصف ريتشارد ريد من صندوق الأمم المتحدة للأطفال. قال إن «بغداد بدت مدينة، غير مخدوشة بشكل أساسي، وجسداً لم يمسّ جلده بشكل جوهري، فيما كل عظمة أساسية فيه محطّمة وكل مفاصله وأوتاره مقطوعة»[٩]. فريق دراسات من هارفرد زار إحدى عشرة مدينة وبلدة عراقية رئيسية من ٢٧ نيسان/أبريل حتى ٦ أيار/مايو استنتج التالي: «على الرغم من أن قصف التحالف الجوي قد ألحق خسائر قليلة نسبياً بين السكان المدنيين، إلاّ أن تدمير البنية التحتية نتجت عنه عواقب طويلة الأمد ومدمّرة على الصعيد الصحّي. نعتبر عادة أن الضحايا المدنيين هم فقط الذين قتلوا كنتيجة مباشرة لإصابتهم خلال الحرب، غير أن هذا التفسير بحاجة إلى إعادة نظر»[١٠].

إن الضحايا الحقيقيين للبراعة التكنولوجية الأميركية كانوا أطفال العراق. توصّلت دراسة معمّقة قامت بها مدرسة هارفرد للصحة العامة، وكانت ارتكزت على دراسة عينة سكانية من ١٦,٠٧٦ طفلاً عراقياً، إلى أن «نسبة وفيات الأطفال ازدادت ثلاثة أضعاف على الأقل بنتيجة حرب الخليج، والإنتفاضة المدنية التي تلتها، وإستمرار العقوبات الاقتصادية. هذه الزيادة تتطابق مع زيادة تبلغ قرابة ٤٦٨٩٧ من الوفيات بين الأطفال العراقيين الذين تقل أعمارهم عن الخمس سنوات ما بين كانون الثاني/يناير وآب/أغسطس ١٩٩١»[١١]. دراسة أخرى ركّزت على مدينة البصرة، حيث يعيش حوالى الـ ١٧٥ ألف طفل، واستنتجت من خلال عينة سكانية تتألف من ٧٢٣ طفلاً، كانت الأغلبية بينهم تتراوح أعمارها بين يوم واحد و٣٦ شهراً، ان ٨ بالمئة كانوا بحكم

مكتبة الفكر الجديد

«المصابين بالهزال» طبياً، و٢٤ بالمئة «متوقفين عن النمو» كلياً، و٢٠ بالمئة «يعانون أشكالاً معتدلة أو متطرفة من سوء التغذية»[١٢]. تلك الدراسات تثبت أن الرابط بين حرب الخليج وأمراض الأطفال ووفياتهم كانت أقوى في شمال العراق وجنوبه منها في المناطق الوسطية. وبكلام آخر، مات نسبياً عدد أكبر من الأطفال الأكراد والشيعة كنتيجة مباشرة للقرار الأميركي باستهداف محطات الطاقة في البلاد، ومن ثم التنصل من العراق، وتركها من دون إصلاح. وبالنسبة إلى الشرق الأوسط ككل، يقدّر رسميون من الأمم المتحدة أن ما يقارب الخمسة ملايين معرّضون لخطر أن يقضوا سنوات تكوينهم في ظروف العدم نتيجة لحرب الخليج. «نستطيع أن نتحدث بثقة مرعبة وخطيرة عن جيل ضائع»، هذا ما قاله ريتشارد ريد[١٣].

تأثيرات حرب الخليج سوف تبقى داخل أولئك الأطفال الذين نجوا من القصف الجوي، وإنتقام النظام، وكوارث الأمراض وسوء التغذية. عالمان نفسيّان كانا من بين أعضاء فريق الأبحاث الدولي الآنف الذكر، وهما متخصصان في مجال صدمات الأطفال النفسية، أجريا مقابلات مستفيضة مع ٢١٤ طفلاً عراقياً في أعمار الصفوف الابتدائية، وتوصلا إلى استنتاج مذهل وهو ان «الصدمة النفسية التي يعيشها أطفال العراق من جراء الحرب، تفوق أية صدمة تعرّض لها الأطفال من جراء الحروب عبر التاريخ». كما اكتشفا مستويات من الحصر النفسي والقلق، والضغط النفسي، والسلوك المرضي لم يسبق لها مثيل عبر سنوات أبحاثهما الميدانية الخمس عشرة في بلاد ممزّقة بالحرب مثل الموزامبيق، أو اوغندا أو السودان. فقد تراوحت الأعراض التي وصفاها في تقريرهما ما بين «الكآبة العميقة» و«الافتقار إلى الحياة». كان الأطفال مشوّهين من الداخل بالكآبة والحزن والخوف المريع. ثمانون بالمئة من الذين أُجريت معهم الأحاديث يعيشون خوفاً يومياً من احتمال فقدان عائلاتهم بالموت أو الإنفصال، ثلثاهما تقريباً يعتقدون أنهم لن يبقوا أحياء حتى بلوغهم سن النضوج. وينتهي التقدير بالإستنتاج التالي: حتى في المناطق الأكثر تمزقاً وتأثراً بالحرب في الموزامبيق، كان الأطفال لا يزالون يلعبون ويتصرفون كالأطفال. الأطفال في العراق ذكروا كاتبين بوصف «الموتى الأحياء» الذي ظهر بعد إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما[١٤].

في أوائل خريف ١٩٩١، تلقيت رسالة من صديق قديم للعائلة، يدعى أبو علي (اسم مستعار)، وهو رجل من جيل والدي كنت أجلّه واحترمه أيام المراهقة في العراق. رسالته تستعرض اليأس الذي استولى على جميع العراقيين طوال الأشهر التي تلت الحرب. أبو علي استطاع الخروج من بغداد مع عائلته وكان يكتب إليّ من عمّان. كان قد علم للتوّ انني أعد وثيقة تحمل عنوان «ميثاق ٩١»، وهي حملة جمع تواقيع بين العراقيين، غايتها

مكتبة الفكر الجديد

الربط بين حقوق الإنسان وقيام تصوّر سياسي مبني على التسامح الديني والسياسي[١٥]. نص الميثاق كان قد نشر في إحدى الصحف اليومية العربية المتوافرة في الأردن، وكان أبو علي يكتب ليوبّخني على مثاليتي العديمة الفائدة، وعلى كوني غريباً عما يجري داخل العراق. تختصر رسالته، بلغة أفضل مما يسعني أن ابتكر، اليأس والقنوط اللذين يشعر بهما العديد من العراقيين.

«عزيزي الأخ كنعان

... لا أدري هل سينقل لك هذا الورق الأزرق البريء بعض ما أحس به والقليل مما يضيق به قلبي من هموم مجتمعنا.

الذي أراه ـ واسمح لي بقول ذلك ـ إن آراء وأفكار الأبراج العاجية العالية التي صعدت للسموات حتى لم نعد نراها إلا بالكاد أو بمجرد السماع عنها وأعتقد أن مجتمعنا أصبح اليوم مثل مجتمع «١٩٨٤»[*] وليس هناك من يتذكر أو حتى أن يتجاسر بتذكر معاني كلمات «الحرية» و«الديمقراطية» و«الأخوة» و«الإنسانية». ولم يعودوا يعرفوا ما هي «حقوق الإنسان» وما لهم وما عليهم. صار واجبهم اليوم أن يصفقوا ويهتفوا للأخ الأكبر Big Brother: «بالروح... بالدم... نفديك يا صدام»...

وصار همهم اليوم أن يعيشوا.. مجرد أن يعيشو كالأغنام.. ومجرد أن يحافظوا على رؤوسهم قائمة على أكتافهم.. أو أن يملأوا بعض بطونهم الجائعة ليبقوا أحياء.. أو أن يحافظوا على القليل الذي لديهم خوفاً من سرقته من قبل جلاوزة الحزب أو شرطته أو الجائعين المشردين.. أو أن يحافظوا على ألسنتهم خوفاً من أن تصدر كلمات لا يرتضيها أمن صدام أو مخابراتهم وتأخذ بهم إلى المشنقة...

أسمع لي يا كنعان... فهل تتوقع من مثل هذا الفرد أن يثور. نعم ثار البعض ولكن لأسباب قومية أو اقليمية أو طائفية.. ثم لحق بهم المتذمرون.. ومن ثم ماذا كانت نتيجة ثورتهم فالذين قتلوا في الثوار ضعف من قتلوا في حرب الخليج.. وبعد ذلك عوملوا هم وعائلهم وأملاكهم وممتلكاتهم.. بل حتى مقدساتهم أسوأ معاملة وبأقسى أسلوب ولا يكاد أن يصدق.. فهل تتوقع بعد ذلك أن يثور الشعب وهناك جيش جمهوري وأمن وحماية ومخابرات نزعت منهم كل القيم

(*) ملاحظة المترجم: اسم رواية الأديب الانكليزي جورج أورويل الشهيرة التي تصف المجمع التوتاليتاري.

مكتبة الفكر الجديد

الإنسانية وأصبحوا وحوشاً لا رحمة في قلوبهم لطفل أو شيخ أو امرأة أو مريض أو عالم أو... أو... وليس هناك من يحاسبهم (ولا أقول يعاقبهم) على كل ما يقترفوه من أعمال وحشية إنسانية.

وبعد كل هذا لنعود إلى ميثاق ٩١ والدعوة لجمهورية التسامح فهي موجهة لمن؟ للشعب العراقي؟.. لا.. انها موجهة للمثقفين القابعين في أبراجهم العاجية في بلدان الحرية والنعيم والرخاء وهم آمنون وليس هناك من مخابرات تراقبهم أو تكمم أفواههم... بل وتفكيرهم... وكل ما لديهم هي هواية معارضة الحكم الديكتاتوري في العراق والتحريض على الثورة عليه... دون أن يرفع أي منهم ولا حجارة يرميها في وجه هذا الحكم... ويسمع «بعض» الناس في العراق أخبار هذه المعارضة.. وقد ملّ الناس.. انهم يريدون عملاً.. انهم يريدون من ينقذهم من براثن هذه الجور الطاغي...

بعد كل هذا الا ترى أن الوضع في بلدنا الآن أصبح ميؤوس منه؟... فالشعب العراقي كله يائس وأصبح يلوم القوى الخارجية (وخصوصاً امريكا) على ما يعانوه من بؤس وتسلط وجور وطغيان ويرفعون أيديهم إلى السماء ذارعين أن يهدي الله امريكا أو بوش أو أي من المدعين بالإنسانية والديمقراطية وحقوق الإنسان أن يأتوا لينقذوهم مما هم فيه من آلام».

حين يُكتب في كتب التاريخ هذا النوع من الكلام الحقيقي والصادق الذي كتبه أبو علي سوف يتساءلون أي نوع من الحروب كانت تلك الحرب؟

* * *

في تموز/ يوليو ١٩٩١ تلقيت اتصالاً هاتفياً غريباً من منتج تلفزيوني كان مهتماً بإنتاج برنامج فكرته إنشاء نصب تذكاري لعملية «عاصفة الصحراء». كان قد رشح أن ثمة في مكان ما من واشنطن من يفكّر بإقامة نصب من هذا النوع. لربما كانت الفكرة قد دغدغت مخيلة البيروقراطيين بعد أن قام المحافظ دايفيد هيكيز بإطلاق «أم الاستعراضات» في ١٠ حزيران/يونيو بمدينة نيويورك. حوالى الخمسة ملايين شخص، وهو أكبر حشد اجتمع في مناسبة واحدة عبر تاريخ المدينة، اصطفوا على طول ميل من الطريق الممتدة بين حديقة باتيري پارك وورث ستريت. كانت تلك فرصة سانحة للمدينة، كي «تعبّر عن إمتنانها لأولئك الذين ضحّوا بأنفسهم وماتوا من أجل البلاد، وان تتباهى برجالها الجنود، على الرغم من الأزمة المالية والركود الاقتصادي»، كان هذا ما

مكتبة الفكر الجديد

كتبته صحيفة **النيويورك تايمز** مباركة الاحتفال. هل كان في ذهن الكاتب أولئك الجنود الـ ١٤٦ الذين قتلوا في المعركة، والعدد الأكبر منهم ذهب «برصاص صديق»؟ ربما كان يجول في باله ما قاله جورج بوش في الأول من آذار/مارس بعد يوم واحد من إعلانه وقف إطلاق النار، وبعد يوم كامل من بدء الإنتفاضة العراقية ضدّ صدّام حسين. قال بوش: «إنه يوم فخر للأميركيين، وبحقّ الله لقد ركلنا عقدة فييتنام مرة وإلى الأبد»[١٦]. السؤال بقي غير مطروح وغيرمجاب عليه وسط زخّات الأشرطة الورقية والقصاصات الاحتفالية التي تكدست سميكة، والتي قال عنها المقال: «كانت السماء في بعض الأحايين تعتم»[١٧].

أيّا كان مطلق فكرة النصب التذكاري لحرب الخليج، فإن المنتج التلفزيوني كان يدرك أنها فكرة حسنة. كانت تقوم على استباق النقاش الوطني الذي لا بد أن ينشأ وتفريغه. كان قد جرى الاتصال بعميد كلية يال للهندسة، وقد أبدى استعداده لتنظيم تجربة تصاميم بين الطلاّب تتيح المجال لإختيار مخططات ورسوم. وبدت مناقشة متلفزة لتلك المخطوطات المفترضة، مفيدة لتركيز الإنتباه إلى المسائل الأخلاقية المرتبطة بالأمر، وبطريقة تعجز لجنة واشنطن عن القيام بها. **مايا لين** التي صمّمت نصب حرب ڤييتنام التذكاري، كانت تلميذة في يال عندما فازت بالمسابقة الخاصة بذلك النصب في ١٩٨١، وكان على البرنامج أن يناقش الآراء المختلفة التي قامت حول إنجازها العظيم، كما يتخذ، في الوقت نفسه، كنقطة إنطلاق لسلوك جيل جديد نحو نوع مختلف جداً من الحروب.

لسوء الحظ كانت تلك المكالمة التلفونية بلا أية نتيجة. غير أن الفكرة من ورائها تطرح السؤال التالي على الأميركي: ما الذي يستحق أن نحفظه في الذاكرة من حرب الخليج؟

نصب حرب ڤييتنام التذكاري حقق غرضه كونه تحاشى ذكر الروح الوطنية واكتفى باعلان وفائه للذين قضوا ـ فردياً أو جماعياً ـ بوصفهم القيمة الوحيدة الجديرة برفع أي نوع من النصب لتذكار تلك الحرب بالتحديد. جدار لين الغرانيتي المعلّق والخفيض والمستدق الأطراف، والمحفورة عليه أسماء الـ ٥٨١٣٢ قتيلاً أميركياً يعبّر عن شعورين مترافقين وهما خجل الأمة، وحنوّها على أولئك الذين فقدوا. إن واجهة النصب العاكسة تثير التأمل، وتحوّل النظارة إلى مشاركين متخيّلين، متورّطين في الحرب التي يصار إلى تذكّرها كلائحة بسيطة من الأسماء الإفرادية مرتبة بحسب تواريخ الأيام التي ماتوا فيها. فضلاً عن كون النصب مغروزاً في الأرض لا مرتفعاً فوقها على نحو ما تقف عادة النصب التذكارية التقليدية. كذلك أطلق على نصب لين التذكاري اسم «جرح العار البليغ»، فيما الجدار الغرانيتي الأسود المنخفض والذي يتوجّب الهبوط إليه، يقف على

مكتبة الفكر الجديد

طرف تناقض حاد مع المسلّة الرخامية البيضاء لنصب واشنطن التذكاري. وهذا، بكل تفصيل فيه، يصرخ ضدّ تمجيد الحرب، أو تأليه القوّة. في تلك النقطة تكمن بلاغته.

والآن لنفترض انه ينبغي إقامة نصب تذكاري لحرب الخليج، فعمّا ينبغي أن يعبّر؟

أفكر بكل أولئك العراقيين، أمثال أبي حيدر وحميد، الذين انتفضوا ضد نظام البعث في آذار/مارس ١٩٩١. إن رئيس الولايات المتحدة سمح لطاغية العراق الكبير بتقطيعهم إرباً بمدافع أسلحته الرشاشة. لم يكن من المفترض أن يموت العديد منهم. أفكر بكل مراكز الطاقة الكهربائية تلك التي كان بوسع فيالق الجيش الهندسية أن تعيد بسرعة تشغيلها بشكل مؤقت (كما جرى في الكويت). أفكر بكل أولئك اللاجئين أمثال مصطفى الذين ما كانوا ليهربوا إلى الجبال والمستنقعات. أفكر بكل أولئك الأطفال الذين ماتوا جزافاً بالأمراض وسوء التغذية. أفكر بالعراقيين العاديين، مثل عمر، والذين يتعرضون بشكل روتيني لوحشية تفوق التصوّر. وأخيراً وليس آخراً أفكّر بتلك الرسالة من عمّان، المرسلة من شخص كان خسر، شأن جميع العراقيين في داخل البلاد، أهم شيء في الحياة بعد الحياة، وأثمن ما يمكن أن يملكه كائن بشري، ألا وهو الأمل. إن الحقائق التي كتبها هي كلمات نقش ضريح الحرب التي لم تكتمل لجورج بوش.

ما كان ينبغي أن تنتهي الأمور على هذا النحو، وهذه الحقيقة توفّر الإطار الأخلاقي المناسب الذي ينبغي أن تعمل من خلاله كل مايا لين مستقبلية، مرسّخة عبر فنّها، ومن أجل الذاكرة الأميركية، هذا المعنى لحرب ١٩٩١ ضد العراق. فحرب ڤييتنام وحرب الخليج مرتبطتان ارتباطاً غير قابل للإنفصام في الضمير الشعبي الأميركي، غير أن عدد القتلى بالكاد يكفي لإقامة نصب تذكاري لحرب الخليج. هناك فقط عدد ضخم من القتلى العراقيين. فإن قرروا يوماً بناء نصب تذكاري لحرب الخليج في واشنطن، فإن دعامته الأخلاقية لن تكون بعد الآن خجل الأمة، بل فقدانها الإحساس بالرحمة.

تذكّر الأنفال

إن سنة ١٩٨٨، سنة الأنفال، ينبغي أن تدخل كتب التاريخ العربية كمثال مميّز عن وحشية تفوق الوصف. إنها مميزة إلى درجة أن صدّام حسين بالذات إختار أن يحفظ ذكراها. أزيح الستار عن «قوس نصر» في بغداد بمناسبة الذكرى الأولى لنهاية حرب العراق مع إيران، وصدف أيضاً انه في آب/اغسطس ١٩٨٨ كانت تجري «خاتمة الأنفال». كانت فكرة صدّام إقامة قوس بعثي مواز في ارتفاعه لقوس النصر الفرنسي

مكتبة الفكر الجديد

«أرك دو تريومف» (ارتفاعه ٥٤ قدماً) الواقع عند نهاية شارع الشانزيليزيه في باريس. كانت بطاقة الدعوة التي تدعو السفراء الغربيين وشخصيات مرموقة من أنحاء العالم إلى حفل الإفتتاح، تصف نصب صدام التذكاري كـ «أحد أضخم الأعمال الفنية في العالم». وفي ذلك النهار، عبر الرئيس تحت قوسه ممتطياً حصاناً أبيض هو الرمز العربي للنقاء والزهو الرجولي.

الحدث الأهم بشأن النصب والذي جاء الناس بقصد رؤيته، هو كون رئيس العراق نفسه من تصوّر النصب، لا كمجرد تصميم نظري، بل كرسم تخطيطي فعلي. لم يخطر في بال أحد من قبل أن صدّام حسين كان فنّاناً. كان نموذج النصب المصغر قد صُبّ بقالبين من الجص لذراعي الرئيس بالذات، ثم جرى تكبيرهما إلى طول يقارب الـ ٥٤ قدماً. وهاتان الذراعان كانتا تنبعثان من الأرض مثل جذعي شجرة برونزيين وترتفعان حاملتين في كل قبضة سيفاً يبلغ طوله ستة وستين قدماً. يتقاطع السيفان ليشكلا قمة القوس عند نقطة ترتفع ما يقارب الـ ١٣٠ قدماً عن سطح الأرض، وكل من الذراعين مع القبضتين، مع الإطار الفولاذي الذي أثبتت فيه القبضة والذراع، يزن ٤٠ طناً. وكان كل من السيفين المصنوعين من الفولاذ غير القابل للصدأ، يزن ٢٤ طناً. وذلك الفولاذ، كما تقول بطاقة الدعوة صيغ من أسلحة «الشهداء» أنفسهم بعد صهرها وتذويبها. مخلّفات من الحرب متمثّلة بخمسة آلاف خوذة إيرانية حقيقية كانت قد جمعت من أرض المعركة، وجمعت في شبكتين (٢٥٠٠ خوذة في كل شبكة). وهذان الكيسان المنتفخان تمزقا إرباً عند القاعدة، لتنتشر الخوذات على الأرض حول الذراعين المنبثقتين من الأرض. أن تنظر إلى الخوذات عارفاً أن خدوشها وانبعاجاتها وثقوب الرصاص حقيقية، وان رؤوساً بشرية كانت بالتأكيد قد انفجرت في داخلها، معرفة تخطف الأنفاس، كمثل معرفة ان ذينك الذراعين لم تكونا أي ذراعين بل نسختين عن ذراعي الرئيس بالذات، بأصغر تفاصيل نتوءاتها وخربشاتها.

تطرقت في مكان آخر إلى الأساليب المتعددة التي يرمز فيها ابتكار صدام إلى عالم حزب البعث الذي أنتجه، على أكمل وجه[١٨]. انه شنيع، ولكن ليس بطريقة عاديّة، انه شنيع بطريقة تخطف الأنفاس، وهو سوقيّ إلى درجة منقطعة النظير... خذلتني الكلمات آنذاك وها هي تخذلني الآن أيضاً. قوس النصر المثبّت في وسط المدينة التي ولدت فيها ونشأت، يتميّز بخاصية من البشاعة منتشرة في كل تفصيل فيه، وهي تفوق بشاعة مطلق نصب عام آخر أعرفه، إلاّ أنها في النهاية غير قابلة للتفسير.

في مقابل ذلك، فإن نصب مصطفى العسكري التذكاري لما جرى في قرية غبطابة

مكتبة الفكر الجديد

في ٣ أيار/مايو ١٩٨٨، عادي بقدر ما هو نصب صدّام حسين استثنائي[١٩]. إنه عادي إلى درجة أنه، كشكل، غير مثير للإهتمام. قوسان إسمنتيان مثبّتان على منصة عالية تبدو وكأنها إطار غير مكتمل لمنزل مائل السطح. ليست هناك أية مرجعيات رمزية أو بصرية لتلك الظروف الإستثنائية والمريعة التي دفعت إلى إنشاء ذلك الابتكار. هنا لا يوجد أي «تناسق» ملفت ين الشكل المتجسّد، والمقصود الرمزي، كما الحال وبوضوح في قوس نصر صدّام حسين. غير اني أعتقد أن المدفن أفلح في التعبير عما كان يريد مصطفى بناءه.

فما الذي يعنيه جثوّك فوق تلّة، كما فعل عبدالله في ٣ أيار/مايو، ومشاهدة الطائرات وهي تقصف قريتك بالأسلحة الكيميائية، ثم تعجّل منحدراً إلى النهر الذي كنت عرفته طوال حياتك، لتجد كل أولادك أمواتاً وأمك ممددة في المياه الضحلة وفمها «منكبّ على وحل الضفّة»؟

اصطحبتكم معي في رحلة لنعيش مجدداً آلام العراق. أني أفكر بشكل منطقي الآن، غير أني لم أكن استطيع ذلك من قبل وأنا هناك. مستمعاً إلى عبدالله وتيمور بداخل العراق، شعرت كما لو أنني أدركت نقطة النهاية ولحظة إنزال الستارة، لينتهي كل شيء بعد ذلك إلى خاتمته المأساوية. وقسوة من هذا الصنف تهديد للمنطق. إنها تتحدى التأمل والتحليل[٢٠]. لهذا ندير لها غالباً ظهورنا ونتحاشاها، لا بفعل إنعدام التعاطف، لكن إنطلاقاً من عجزنا تحت تأثيرها عن التواصل. القسوة تبعث على الصمت وتعدم الكلام. ربما لذلك السبب تولّت كلمات الضحايا وضع نهاية كتابي هذا.

لكن أليس هنا، في محنة عبدالله ومعاناته، وفي لحظات عجزي عن الكلام، ولد معنى ما كان قد قام به مصطفى؟ أليس هنا بالذات، حيثما تمّت غلبة الحضارة على البربرية، نشأت فكرة النُصُب؟ العراقيون بناة نصب تذكارية عظماء، أو هكذا يحب المؤرخون أن يقولوا لنا، وفي الوسع أيضاً أن تجادل في أن فكرة النصب نفسها ولدت في بلاد ما بين النهرين القديمة. فهناك بدأ أول إحتشاد لجنسنا داخل منشآت مدينية في مدن قديمة مثل سومر وبابل وإيريدو. وربما ترك ذلك التاريخ بصماته على قادة مثل صدّام، وعراقيين عاديين مثل مصطفى.

عندما أقام مصطفى تلك المقبرة وبنى قوسيه، كان يفكر ويتصرف مثل أول بنّاء أسطوري في العالم، والذي شعر أو شعرت، انه كان يتوجب عليه أو عليها إقامة معلم فوق أرضنا هذه ـ معلم لا غرض مادياً له كالالتجاء أو العمل أو البقاء. فالهندسة، بالمقارنة مع البناء، بدأت مع معالم من ذلك الصنف. ومصطفى يشبه ذاك المهندس الأول.

مكتبة الفكر الجديد

أما نحن الذين نتعاطى الكتابة والقراءة والكلام، نعاني أحياناً من خطورة نسيان ينابيع الأحاسيس العميقة، وتعقيدات الأحاسيس ـ أكانت غريبة نافرة أم سامية، تلك التي تقوم في خلفية صنيع كمثل قوس نصر صدّام حسين، أو نصب مصطفى التذكاري. يمكن أن نكره تلك الأحاسيس أو أن نعجب بها، فهذا لا علاقة له بالمسألة. ويمكن أن يقوم النصب وينجح بغض النظر عمّا إذا كنّا نحبّ أو نكره ما يرمز إليه.

في مواجهة كل من نصبي مصطفى العسكري وصدّام حسين، نجد أنفسنا أمام نشأة الأشياء الأولى، متحسسين الحياة، والموت، والشقف الخام في لحظاته الأشد حساسيّة، لنسبر أغوار المعاني في تلك الزوايا القاتمة من الروح البشرية حيث تبدأ المعاني الجديدة. فالنصب التذكارية في جوهرها الأعمق، ومن خلال لا جدواها، أكثر من أشياء فنية جمالية. إنها تمثّل ذكريات قديمة وتضعنا بمواجهتها، ذكريات يمكن أن تكون مؤلمة إلى حدّ تمزيق كل ما هنالك إرباً، ذكريات لا يمكن محوها، وينتهي بها الأمر إلى تشكيل جوهر هوية الجماعة، أو انعدامه. وعلى الرغم من عاديّته ـ أو ربما حتى بسببها ـ فإن نصب مصطفى التذكاري لموتى غبطابة يوضح للعراقيين من كافة المجموعات الإثنية، والقومية، والدينية، والطائفية، ان السؤال الوجودي الحقيقي بالنسبة إليهم لم يعد صدّام حسين. بل هو كيفية بناء مستقبل لأنفسهم في ظروف يتوجب على الجميع فيها ـ عرباً، أكراداً، شيعة وسنّة ـ أن يواجهوا أنواعاً مختلفة من ميراث الآلام القاسية.

ومرور الوقت يساعد كثيراً على محو البدايات الأوّليّة التي كان لها التأثير الأكبر على مصطفى، إذ المعاني تتعرّض للمسخ بدورها. ونزع القشور المتراكمة للمعاني أمر بلا شك نموذجي رائع. فهناك لبّ تحت كل تلك القشور مصنوع في أقل المقادير من شيء بسيط الانبناء يفسرّ كيف جاء هذا الشيء إلى العالم. ولن نستطيع البتة أن ندرك أعمال كل منهما لأنهما ببساطة شيئان بالغا التعقيد، مطموران بعمق في الأزمنة السحيقة.

هذه هي الحال مع نصب قديمة مثل الاهرامات و«أبو الهول». غير أن البحث عن ذلك اللبّ، وعلى الرغم من الوقت الذي يمضي، يضع المشكلة في منظورها المناسب. فالمفارقة في كل من النصبين ـ نصب صدّام حسين ونصب مصطفى العسكري ـ واللذين يحيي كلاهما ذكرى أحداث جرت في ١٩٨٨، هي في أنه لم ينقض وقت قليل على إنشائهما. إن الإنعدام في المسافة الزمنية هذا هو دليل ساطع على تأرجح العراق الآن على شفا مخاطر جديدة، مخاطر لم تعد تنبعث من شخص صدّام حسين أو نظامه.

فميراث صدّام حسين سوف يبقى طويلاً حتى بعد غيابه عن الساحة. إن هاجمت أي امرىء لكونه كردياً أو شيعياً، فإن رد الفعل سيكون مزيداً من التأكيد على أن «هذا»

مكتبة الفكر الجديد

هو الأمر الذي يهاجم المرء من أجله. إن هجمات من هذا النوع خلال سنوات الحرب في أوروبا سيّست الوعي الذاتي اليهودي وزادته إرهافاً، وسهلت قيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨. ثم جرى تأصيل الهوية الفلسطينية كردة فعل على إنكار الصهيونية العنيف لها. والمغزى من وراء قصة خليل أن الهويّة الكويتية، والتي لم يعرها أي منا الإنتباه في الماضي (بمن فينا خليل بالذات)، باتت موجودة لتبقى أبداً.

إذن، ما الذي سيحلّ بالعراق غداً؟ إن القومية الكردية هي أقوى وأشد عدوانية الآن مما كانت في أي وقت مضى، وقد الهبت نارها الإدراك المتعاظم لما قامت به دولة عربية ضد الشعب الكردي. وقد يختار غداً العديد من الأكراد الإنفصال وإقامة دولتهم الخاصة، وهذا فيما الكراهية المتبادلة بين السنّة والشيعة هي اليوم المنبع المحتمل والأشد سمّاً للعنف الجديد.

هذه القوى هي ميراث صدّام حسين لكل العراقيين. والسؤال المطروح هو هل يمتلك العراقيون من الحكمة ما يجعلهم يحوّلون ذلك الميراث إلى قوّة جمع وإعادة بناء، بدل ان ينصبّ في عنف أفظع.

إن ماهية النُصبُ تكمن في مصيره. ما الذي سنفعله إذاً في مواجهة واقع أن نصب مصطفى التذكاري لم يكتمل حتى بعد إنشائه، بينما جرى إفتتاح نصب صدّام في صيف ١٩٨٩؟ بحسب مجلة «نيوزويك»، ان قوس النصر قدّر له النجاة من حرب الخليج، بعدما قام وزير الدفاع الأميركي بشطبه عن لائحة البنتاغون للأهداف المقترحة في بغداد[٢١]. ربما لم يكن ريتشارد تشيني يريد أن يُنظر إليه وكأنه يشن حرباً على الثقافة العراقية. فتدمير مصانع توليد الطاقة الكهربائية في البلاد بدا أمراً عادلاً، غير أن تدمير مأثرة صدام حسين للفنون البصرية لم يكن كذلك. أظنها ملاحظة مناسبة على نتائج حرب الخليج، لكن السؤال الأهم هو: هل سينجو قوس النصر من غضب الشعب العراقي عندما يحل، أخيراً، يوم حساب الطاغية؟ أو هل سيظهر آخرون كثيرون مثل مصطفى؟

لا أحد يعرف الأجوبة عن هذه الأسئلة. ولكن باستطاعتنا على الأقل أن نتخذ موقفاً من القضايا المرتبطة بها. يمكننا على الأقل تقديم رأي أو حكم. فهل ينبغي أن يحطّم نصب صدّام حسين التذكاري يوم الإطاحة به؟ وهل ينبغي أن يتبع العِراقيون مثال مصطفى؟

ليس في المقدور استئصال الماضي بالسهولة نفسها التي نستأصل فيها نصباً تذكارياً. إنه يترك آثاراً ينبغي مواجهتها. وأهمية العام ١٩٨٨ سوف تكبر مع الوقت فيما تتضح

مكتبة الفكر الجديد

بشكل أفضل رؤية شاملة لما قد حدث أمام عدد أكبر من العراقيين. انها سنة سوف يذكرها أُناس مختلفون ولأسباب مختلفة.

لقد استمر حكم حزب البعث أكثر من أي حكم آخر في تاريخ العراق الحديث. ما فعلوه وطريقة حكمهم أمور لن يدركها النسيان أبداً، فهي، مثل سيف ديموقليت، إذ سيبقى سيفا صدّام معلّقين طويلاً فوق كل العراقيين. حتى لو مات الطاغية، سيظل الشعب العراقي مجبراً على المرور من تحت ذينك السيفين اتقاء لجبروته. ثمة تذكارات لا يستطيع الناس الوقوف أمامها غير مروّعين، فاقدي القدرة على النطق. وإن كان قوس نصر صدام حسين هو الأخير بين مجموعة من النصب التذكارية العراقية ـ تلك التي شيّدت في الثمانينات وغيّرت معالم بغداد كلياً ـ فلنأمل أن يكون نصب مصطفى، الأول في جنس جديد من النصب العراقية التذكارية، وان بناءها يمكن أن يبدأ يوم إطاحة الطاغية بالذات.

هل ثمة دروس يستخلصها العراقيون من عمل مايا لين العظيم المهيمن بالحزن على الذاكرة؟ ليس في مقدور أي نصب تذكاري يقام لذكرى حرب الخليج في واشنطن أن يطغى على عملها، وذلك لسبب بسيط ما كنت قلته سابقاً، وهو انه لم يقتل أي أميركي على يد عراقي. بيد أن الحرب كشفت الستار عن العراق للمرّة الأولى، وأتاحت لنا أن نعرف أموراً مثل المئة ألف قتيل أو ما يدانيهم في عمليات الأنفال، و٣٥٠٠ قرية مثل غبطابة.

دعنا نفترض أن نظاماً جديداً سوف يحل مكان هذا الذي يتعفّن ببطء ويهترىء في بغداد. ولنفترض أن ذلك النظام الجديد سوف يقوم على نوع من الحكمة المستعدّة للاعتراف بما ارتكب بحق الشعب الكردي في العراق. دعنا نفترض أن القيام بإنشاء نصب تذكاري وطني في وسط بغداد، يكون بمثابة وسيلة صغيرة لإعلان ذلك الإعتراف. عندها يصير لا مفرّ من ضرورة البحث والتنقيب عن أسماء كل قتلى الأنفال والقرى التي كانوا أتوا منها. إنهم معنى النصب وغايته. كيف يمكن أن يكون شكل نصب تذكاري كهذا لضحايا الأنفال في ١٩٨٨ وفي عمق بغداد؟ أين ينبغي أن يوضع؟ من أي المصادر ينبغي أن يستقي جيل الفنانين العراقيين الجديد إلهامه؟

اني استمتع بفكرة تقوم بالكامل على الافتراض وحده، وهي أن يقام النصب التذكاري الجديد تماماً في جوار قوس نصر صدّام حسين الذي لا ينبغي أن يحطّم، وأن يبنى النصب الجديد بروحية عمل مايا لين العظيم في العاصمة الأميركية واشنطن.

مكتبة الفكر الجديد

العراق إلى أين؟

مكتبة
الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

يهوى العراقيون أن يتخيّلوا السلام والأمن مثل حمامة عظيمة بيضاء ستهبط عليهم في يوم من الأيام. ولكن هل ستفعل؟ هذا هو السؤال الرئيسي للسياسة العراقية الآن، ولا شيء يضاهيه في الأهمية. فحزب البعث وصدام حسين أصبحا بالتأكيد ينتميان للماضي، وهما في طريقهما إلى الخروج والإنتهاء. ولكن ماذا سيأتي من بعد؟ لا ينبغي أن يفترض أي عراقي أن الأمور لا يمكن أن تزداد سوءاً. أنا لا أقول إنها ستصبح كذلك بالضرورة، ولكن ذلك يمكن أن يحصل. فكل شيء يتوقف على ما سيستخلص العراقيون من قوى الذاكرة المخيفة، والتي تسعى على الدوام إلى زرع أسنان التنين في هيئات الأطفال والناجين من موتهم.

بدأت فكرة هذا الكتاب بقصد وضع تاريخ شفوي للإنتفاضة، وهي حدث يمكن إعتباره بمثابة تمرين إختباري لعراق المستقبل. كان أُعد وصمّم لمناهضة سجل تأييد صدّام المعيب من قبل المثقفين العرب والرأي العام خلال أزمة الخليج[1]. غير أني تخليت عن تلك الفكرة. كانت مصادري من هنا وهناك. لكن الناس كانوا ما يزالون خائفين، والبعض الآخر لم يكن صريحاً إلى درجة كافية. عندها، ومجدداً، وجدت نفسي أميلَ إلى المادة الموثّقة. وأهم من كل ذلك، استطعت أن أدرك من حيث كنت قد وصلت على الأقل، ان الإنتفاضة ظاهرة معقدة جداً ومشحونة سياسياً إلى درجة يصعب هضمها منطقياً في تلك المرحلة: شعب بأكمله قد ذاق طعم الحريّة، وفي الوقت نفسه كانت ذروة جديدة من القسوة البشرية قد سُطّرت لتضاف إلى سجل التاريخ. وبمنطق فولاذي، بدت الإنتفاضة التي تضامنتُ كلياً معها، كمرآة للطغيان التي سعت جاهدة لتخليص العراق منه. وانفتح جحيم من جهنم بشرية ـ قتل، وغدر وخيانة، وجرائم إنتقام، ونهب، وكراهية، وإبادة جماعية، وعبث بالمقدّسات وتدنيسها ـ وكل ذلك ترافق مع أفعال من

مكتبة الفكر الجديد

التضحية بالذات، والشجاعة، ومراعاة الغير، والتعاطف، وهي من أنقى ما يمكن أن يكون. في الفصل الذي يحمل عنوان «أبو حيدر» حاولت أن أكتب ذلك كله، مدركاً حقيقة أن السرد الأول لما جرى في العراق ما بعد الحرب سيكون حتماً ناقصاً. إلاّ أن الأمر الأكيد في مطلق الأحوال، أن موازنة حسنات إنتفاضة أبي حيدر بسيئاتها، وكيف تلقاها العرب الآخرون، تظهر لنا: إن ربع قرن من الإنحطاط السياسي والأخلاقي أرعب الكثير من القلوب العربية. ومجرّد الكتابة عن ذلك كله سوف يحرقني.

إن استثنينا التصرفات الفردية، فإن كلاً من المجموعات تصرفت بأقصى ما يمكن من أنانية عند البشر. الثوار الشيعة في الجنوب قتلوا فردياً من أجل الإنتقام وباسم الإسلام، بينما قتل البعثيون جماعياً من أجل البقاء والإستمرار باسم العروبة. أما سنّة الطبقات الوسطى البغدادية المثقّفة، والذين كان يمكنهم التمييز بين الأمور، فلم يؤدوا هذا الدور. بل انهم جلسوا على حدة وجعلوا يتشدقون بتبريرات طائفية متعصّبة جديدة نشرها النظام، أو بتبريرات قومية قديمة نشرها بعض أبرز الصحافيين والكتّاب المعارضين في العالم العربي. الأكراد لم يثقوا البتة بمطلق شخص، وعلى الأخص بحلفائهم الشيعة في الجنوب (وكان الشعور متبادلاً). قدّم لهم الغرب ملاذاً آمناً، وبدأوا التفاوض مع صدّام، غير آبهين بالجميع. وبالطبع لم يثقوا البتة بالإيرانيين.

أود لو ألتقي مناضلاً سياسياً كردياً عراقياً، لا يؤمن بأن الإيرانيين كذّابون بالفطرة. المنظمات الكردية والشيعية أجبرت رغماً عنها على العمل معاً تحت الوصاية الإيرانية أثناء استفحال حرب الخليج، إلاّ أن معظم العراقيين يدركون أن تورط الإيرانيين في كل ما هو مرتبط بالشؤون العراقية هو بمثابة «قبلة الموت». وفي حين يقر معظم العراقيين أن صدام هو من بدأ حرب الثماني سنوات مع إيران، يشعر الجميع وبحق أن الخميني هو من جعلها تستمر، مزوّداً إياها بالوقود إلى الأبد بواسطة الطينة الخاصة لتعصبه. قد يكون تقياً، قد يكون روحاً ورعة زاهدة تخاف الله، وغير قابلة للفساد، لكنه كان كذلك روحاً قاسية، بالغة القسوة. وقد ارسل جيلاً بكامله من الشبان الإيرانيين إلى حتفه بلا ضرورة. فقسوة الخميني مثل قسوة صدّام حسين هي كل ما يهمّ في النهاية. كلاهما خلف ندوباً نفسية عميقة يلزمها أجيال بأكملها لتندمل.

في وقت سابق كنت دعوت بالبطل ضابط الجيش الذي اعتلى برج الدبّابة في ساحة سعد ومزّق حاجز الخوف في العراق. لقد قدّم لكل العراقيين بمن فيهم أنا نفسي، إحتمال مستقبل. في ٨ آذار/مارس ١٩٩١، بجامعة هارفرد استطاع كاتب ومؤلف «جمهورية الخوف» أن يظهر أمام الجمهور نتيجة لما كان ـ بدأه ذلك الرجل ـ لنسمّه أبا حيدر ـ

مكتبة الفكر الجديد

بالبصرة في ٢٨ شباط/ فبراير. مذ ذاك تعدلت حياتي، وحياة كل العراقيين كلياً. فالعراقيون اليوم يتكلمون ويلتقون ويكتبون وينظّمون ويصدرون صحفاً (أكثر من خمسين منذ الإنتفاضة). لكن أبا حيدر فتح أيضاً صندوق باندورا(*)، وهو صندوق كان ينبغي أن يفتح إن قدّر للعراق أن يكون له أي مستقبل. لكن أي نوع من المستقبل؟ فإذا ما نظر إليه من خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية، وحرب الخليج، وإنتفاضة آذار/مارس ١٩٩١، فإن مستقبل العراق يتوقف على جواب السؤال الأساسي والضمني المطروح في فصل «أبو حيدر»، وربما حتى في كامل القسم الأول من هذا الكتاب: من هو أبو حيدر؟ وبخصوص تلك المسألة، هل يعرف حتى أبو حيدر بالذات من هو؟

أبو حيدر ذاك الذي كنت أجريت حديثاً معه في خان لندن، والذي أجريت على قصته الفصل الثاني، كان في السابق بعثياً «إلى أن قتل صدّام أفراداً من عائلتي». بدأ صدّام التقتيل بأبناء الكثير من العائلات الشيعية بعد ١٩٧٩. عند ذاك بدأ إضطهاد أكثرية الـ ٥٥ بالمئة وما فوق من السكان يصبح القضية الرئيسية في السياسة العراقية. ففي أواخر السبعينات، وبشكل متكافىء مع نمو الوعي الشيعي الذاتي في العقد السابق (والذي كان بالطبع مقموعاً)، بدأت الحكومة العراقية تطرد مئات الآلاف من الشيعة العراقيين إلى إيران بحجة أنهم «من أصل إيراني» وغير موالين. بقيّة الشيعة استخدموا في ماكينة الحرب العراقية ـ الإيرانية، حيث بقوا، حاربوا وماتوا بأعداد ضخمة. أمر طبيعي أن يفقد أبو حيدر كل أوهامه السابقة بمشاريع حزب البعث العروبية الشاملة والموهومة. لقد خاب أمله بالسياسة الإيديولوجية، وحارب الإيرانيين طوال ثماني سنوات لأنه رجل محترف ولأن الحرب كانت الأمر الذي تدرب كجندي على القيام به. غير أنهم تابعوا يطردون ويقتلون أصدقاءه وأقرباءه ويسوقونهم إلى القتال في حروب بلا معنى. وقد تعلّم شيئاً فشيئاً أن يكره أولئك المتسببين بكل آلامه. كان عليه أن يتحول إلى مكان آخر بحثاً عن تفسير ما. لم تكن تولد أية أفكار جديدة داخل حزب البعث العراقي، وبدا له ان المعيار الأكثر جوهرية لهويّة المجموعة والولاء الذي كان قد تركه ـ إسلامه وشيعيته ـ كانا الهدفين الأساسيين لحملات صدّام حسين. لم يذهب أبعد من ذلك، إذ لم يستطع الذهاب. فالميزة الإسلامية الشيعية المتشددة للإنتفاضة في جنوب العراق يمكن تفسيرها إنطلاقاً من اعتبارات أولية كهذه.

(*) ملاحظة المترجم: من الميثولوجيا اليونانية، والمقصود كمية لا حدود لها من الشر التي تخرج من الصندوق حال فتحه.

مكتبة الفكر الجديد

المشكلة هي في أن غرائز أبي حيدر السياسية تقوم على الأحاسيس، وليس على فهم تاريخي واسع الأفق لماهية حزب البعث كإبتكار سياسي عربي حديث. وعلى عكس ما يميل العديد من العراقيين إلى الاعتقاد به حالياً، فإن حزب البعث لم يقم البتة دولة سنّية طائفية في العراق، (دولة منظّمة مؤسساتياً على أساس الطوائف كالدولة اللبنانية). ولم يقيموا كذلك حكماً معارضاً إيديولوجياً للشيعية في حد ذاتها. الذي جعلهم يعتقدون ذلك أساسه الخطأ الشائع القائم على تفسير الآلام الحاضرة بأسباب ووقائع جرت في الماضي. والباعث على السخرية أن حزب البعث لو أقام دولة طائفية في العراق، لما كانت الأمور سيئة إلى هذا الحدّ الذي يعيشه حالياً الشيعة في العراق. عندها كانت الشيعية ستحظى بنوع من نظام حماية، إنطلاقاً من واقع تميّزها عن السنّية أو الكردية أو المسيحية، عن «الآخر» الذي كان قد جرى الاعتراف به بطريقة أو بأخرى، ولو بشكل غير عادل.

هكذا كانت تجري الأمور إبان سيطرة الامبراطورية العثمانية، وهكذا جرت في لبنان. غير أن الأمور لم تجر على هذا المنوال في العراق. فحزب البعث قتل من الأكراد أكثر مما سبق لأي كان أن فعل. غير أنه لا يمكن القول إن حزب البعث معاد إيديولوجياً للأكراد، كما هم النازيون، على سبيل المثال، معادون للسامية.

لا شيء أهم بالنسبة لمستقبل العراق من تفهّم واضح جداً لماضيه. فالدولة التي بناها حزب البعث في العراق، أسوأ بكثير من دولة تقام على مقاييس طائفية وإثْنية خالصة. إنها أسوأ لأنها تساوي بشكل ثابت في عدائها بين كل ما هو غيرها. وحزب البعث يطلب ملحاً من كل العراقيين إنسجاماً مطلقاً مع نظرته المشحونة بالعنف والتآمرية لعالم هو في حرب مستديمة مع نفسه[٢]. يخترع صدّام حسين ويعيد إختراع أعدائه من مادة الجماهير البشرية الواقعة تحت تصرّفه، وينمو ويزدهر في الإرتياب، والشك، والتآمرية التي يزرعها نظامه عملياً في أذهان الجميع، وهو يسعى إلى إشاعة الكره والعطش إلى الثأر في قلوب السنّة والشيعة على حد سواء. فنتيجة للهجمات التي يتعرض لها من كل النواحي، إنهار المجتمع المدني عملياً العراق. كل عراقيّ ـ كردي أو عربي، سنّي أو شيعي ـ جعله حزب البعث مشاركاً في مشروعه وتحوّل في الوقت نفسه إلى ضحيّة. كل عراقيّ أصبح يحمل في أعماقه علامات الضحية. وإنطلاقاً من تلك الظروف فإن لجوء أبي حيدر اليائس إلى إسلامه أو شيعيته (أو كذلك لجوء العراقيين الآخرين إلى العصبية السنّية، أو القومية الكردية) ليس تفسيراً، ولا حلاً لمأزق البلاد، إنه الملاذ الأخير، وبرهان على الإنهيار الاجتماعي التام الذي وصلت إليه الأمور داخل العراق.

في شكل النظام الذي أقامه حزب البعث في العراق، عانى الأكراد أكثر من سواهم،

مكتبة الفكر الجديد

لا لمجرد انهم أكراد، بل لأنهم قاوموا وناضلوا بشراسة. وما أن بدأ الشيعة يصرّون على حقوقهم حتى أصبحوا كالأكراد يهاجمون على أساس أنهم شيعة. غير أن هناك أيضاً أخصاماً للنظام من الآشوريين والمسيحيين، والتركمانيين والسنّة، وكل أولئك عانوا بالتساوي مع أي فرد شيعي أو كردي. بين ربيع ١٩٨٧ وشباط/فبراير ١٩٨٨ دمرت الحكومة العراقية ٣١ قرية آشورية، بما في ذلك ٢٥ ديراً وكنيسة[٣]. وواقع أن العراقين يتنافسون الآن مع بعضهم البعض على من منهم تكبّد معاناة أكبر، دليل على أنه، بغض النظر عن وجود صدام أو عدم وجوده، فإن ما يمثّله يعيش داخل كل القلوب العراقية. وهنا تكمن الخطورة الأعظم التي تهدد مستقبل البلاد.

إن الأشباح الصادرة عن هذا التوحش كله ـ كثائر الميليشيا على سبيل المثال الذي عاش في إيران طوال السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة من حياته، والمرشد الكردي الذي قاتل مع صدّام ضد عائلته بالذات ـ تلك الأشباح سوف تعود باستمرار لتسرح فوق العراق. فجمهورية إيران الإسلامية أنشأت حزب الله العراقي التابع لها، وهو منظمة شقيقة لأخرى في لبنان، ويجري تسريب العديد من مقاتليها إلى الداخل الآن، أثناء كتابتي هذه السطور. وفي الوقت نفسه تمنع الحكومة الإيرانية المجموعات المعارضة المستقلة ـ إسلامية وغير إسلامية ـ من الدخول إلى النصف الجنوبي المحاصر من البلاد، بالإضافة إلى الصحافة الأجنبية ومنظمات الإسعاف الدولية.

الله، والمال، والدول المجاورة القريبة هي الثالوث الفعال والقوي في سياسة الشرق الأوسط. ولكن مع إيران أو من دونها، فإن شباناً جهلة، ويائسين ربيبي سلاح، مثل ثائر، يعيشون تحت وطأة ظروف تهجير ولجوء بائسة، من المرجّح أن يصبحوا فاعلين كرجال حرب عصابات مأجورين، يقاتلون تحت لواء الإسلام.

عندما انتفض أبو حيدر في آذار/مارس ١٩٩١، انضمّ ثوار شبان مثل ثائر إلى الإنتفاضة، حاملين معهم إحساسهم بكونهم ضحايا على شكل ضرب من الإسلام، ضارٍ وحقود، ساعٍ إلى الإنتقام، ومتعصّب بعمق. ومسلحين بهذه المشاعر، اندفعوا في ثورة قتل، وضعضعوا الإنتفاضة، منفّرين أولئك الذين كان من الممكن أن يقدّموا لهم الدعم، وأولئك الذين كانوا بحاجة إلى دعمهم. بروحية «أم حسين» من البصرة أتساءل: أي نوع من الإسلام هو هذا؟ ليس هذا الإسلام، إنه الصورة المعكوسة للنظام البعثي.

كل العراقيين يدفعون اليوم ثمن فشل انتفاضة آذار/مارس ١٩٩١. ولكن، هذه المرة، بات الشيعة يدفعون أكثر من كل الآخرين. كان الشيعة العراقيون يعتقدون انهم خبروا الآلام، لكنهم لم يعرفوا خلال تاريخهم الحديث بأكمله آلاماً كهذه.

مكتبة الفكر الجديد

لقد استخدمت في قمع الإنتفاضة درجة من العنف لم تستخدم سابقاً إلاّ ضد الأكراد. وبات نوع جديد من الحرب المذهبية العنيفة والصريحة، التي تستهدف الأشخاص لمجرد كونهم من الشيعة، جزءاً لا يتجزأ من إرث صدّام. وبذلك فإن ما هو على المحك اليوم، هو ضعف النظام بعد حرب الخليج، لا قوّته. والفرصة الوحيدة أمام البعض للتشبث بالسلطة في حصن بغداد، كانت إضرام الكراهية بين الشيعة والسنّة، ونجاح هذه الاستراتيجية لا يعود إلى أن الأميركيين لم يدعموا الإنتفاضة (وهم لم يفعلوا ذلك بالطبع)، وبالتأكيد لا يعود إلى أنهم أرادوا فعلياً أن يستمر صدّام في السلطة (كانوا يفضلون أن يستبدل برجل ما قويّ من الجيش، أو من داخل الدائرة البعثية). ونجاح استراتيجية صدّام في زرع الطائفية بين العراقيين، لا يعود أيضاً إلى سلاحه وعتاده المتفوّق، بل السبب الوحيد هو فشل القيادة السياسية الشيعية.

فالمشكلة انه ينبغي أن يتحدث أحد ما باسم كل العراقيين، لكن شيعة العراق مرتبكون. أبو حيدر مرتبك. بات عليه كالعديد من العرب الآخرين أن يبدأ التفكير بشكل أكثر جدّية من الماضي، ولكنه لا يزال يجهل من هو، أو حتى من يريد أن يكون. هل هو عربي؟ هل هو عراقي؟ هل هو مسلم شيعي؟ شيعي عراقي قوميّ، أو ربما مجرد مسلم من العالم؟ وإن كان تركيبة من كل هذه الأشياء، فأي منها ستكون له الأوّلية في نظرته السياسية لنفسه؟ الأهم من كل شيء أين ستجد إنسانيتنا المشتركة (على شكل حقوق الجميع المتساوية) مكانها المناسب؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة سوف تحدد حتى إن كان الجيل العراقي الجديد سيحظى بمستقبل أم لا، وعلى الأقل أي نوع من المستقبل. فلم يعد صدّام حسين المسألة الرئيسية في السياسة العراقية، غير أن إرثه هو كذلك، وسوف تبقى المسألة الرئيسية طوال سنوات قادمة.

يراوح الشيعة العراقيون حالياً على حافة أهم الأسئلة التي واجهتهم طوال تاريخهم وهو: ماذا يمثّلون سياسياً؟ ومن هم؟ فطوال معظم تاريخهم، تحاشى الشيعة العراقيون ذلك السؤال. بدأوا يتحاشونه منذ مصرع الحسين وأتباعه وحيدين في سهل كربلاء عام ٦٨٠ بعد الميلاد، إذ لم يدافع عنه من دعوه لأن يكون حاكمهم (وهو أمر سارع الخميني الذي لم يكن مترفعاً البتة عن التزمت الإيراني، لاستغلاله خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية)[٤]. واندمجت الشيعية العراقية بعمق مع تلك اللحظة المأساوية لنشأتها، مع اعتبارها انها ولدت في لحظة إخفاق، لحظة تحييها سنوياً في إحتفالات حداد تعرف «بالتعزية»، وهي مرتبطة بذلك الحدث التاريخي الشديد الأهمية. في هذا تتميّز الشيعية

مكتبة الفكر الجديد

العراقية عن نظيرتها الإيرانية، بكونها لم تحكم نفسها بنفسها البتة، ولم تعرف سوى لغة المعارضة والرفض. والواقع أن الشيعية العراقية لم تأخذ البتة مسألة الحكم على محمل الجد، وحتى على الصعيد الفردي فإن الشيعة ينفرون تقليدياً من كل ما يمت إلى الحكم بصلة. إنهم يتحاشون الخدمة العسكرية ويحجمون عن الانخراط في وظائف الدولة العامة ومصالحها. وما أن تلوح لهم نصف فرصة حتى يؤثروا أن يصيروا تجاراً، ومتخصصين مستقلّين، وثواراً، ومصلحين، وصوفيين، وفنّانين، وليس البتة رجال دولة أو دبلوماسيين. والمجموعات العراقية الإسلامية المعارضة المختلفة السبع عشرة - ومعظمها شيعية في الأساس في تركيباتها وروحيتها - لم تضع كلها بعد أية نظرية سياسية واضحة للحكم في العراق. وهذا يعني بالتالي، انه إذا كان أبو حيدر لا يعرف إلى الآن إن كان مسلماً، أو عربياً، أو عراقياً، فهو أيضاً لا يعرف إلى الآن من يريد أن يحكمه - رجال الدين، أو العلمانيون أو السياسيون المحترفون. ومن جديد، باسم من سوف يحكم هؤلاء المجهولون: باسم الله، أو الشعب، أو اتحاد الاثنين معاً؟ وفوق أية مقاطعة؟ كل هذه الأسئلة لا تزال من دون إجابة بين الشيعة حالياً، حتى فيما النظام ببغداد يتآكل ببطء ويعيش بالتأكيد آخر أيامه.

وإلى أن اختارت ثورة الخميني الإسلامية الحكم الجمهوري في إيران، كان العديد من المناضلين العراقيين الإسلاميين لا يزالون يتحدثون عن إعادة تأسيس الخلافة الإسلامية. لقد ترك في الواقع كل ما هو مهم للسياسة مشرعاً على كل الإحتمالات داخل الحركة الإسلامية العراقية - وهي صيغة ممهدة لكارثة أشد بالنسبة إلى مستقبل الديمقراطية. فجميع العراقيين يفكرون اليوم بالديمقراطية وحقوق الإنسان، غير أن الحركة الإسلامية تاريخياً، كانت تشكلت من الستينات وحتى منتصف الثمانينات، على فكرة أن الديمقراطية سلعة غربية وغريبة عن الإسلام، ومعظم الأحزاب العراقية الإسلامية قضى السنوات العشر معتبراً نفسه جزءاً من الحركة الإسلامية العالمية التي تشكل إيران مركزها. إنهم اليوم مستاؤون جداً من ذلك، غير أنهم لا يملكون شيئاً آخر لوضعه في مكانه. ويوماً بعد يوم يتضح لهم أن القوة الإيرانية لا تستخدم مطلقاً لأمر يتعلق بالمصلحة العراقية. فقد عومل اللاجئون العراقيون الشيعة، والمناضلون الإسلاميون، بشكل مقيت داخل إيران بدءاً من أواخر السبعينات. أمن العجب إذاً أن يشعر أبو حيدر بالضياع؟

وما يهب هذه المواضيع تلك الأهمية المتّقدة هو واقع أساسي جديد لا مفر منه في السياسة العراقية: فشيعة العراق هم وحدهم في موضع من يستطيع منع صدّام من انتزاع النصر من فكّي موته بالذات، وذلك من خلال تصعيد العنف الطائفي والإتني لسنوات وسنوات. وإنطلاقاً من أكثريتهم العددية، يتحملون مسؤولية تاريخية تجاه المستقبل، وهي

مكتبة الفكر الجديد

أكبر من مسؤولية أية مجموعة أخرى إتنية أو طائفية في العراق. صحيح ان مواهب سياسية جديدة عربياً شرعت تظهر في صفوفهم، لكن على رغم ذلك لم يثبت أي سياسي شيعي متبرعم بعد جدارة الإجابة عن هذه الأسئلة. فالأكثر ليبرالية بينهم، يتحدثون عن رغبتهم في تقسيم البلاد إلى ثلاثة أجزاء، ويتذمرون في الوقت نفسه من أن وسائل الإعلام الغربية تهتم إلى درجة كبيرة بالأكراد[٥]. بعض المفكرين المنفردين من داخل الحركة الإسلامية يقومون بعمل هام محاولين المواءمة بين الأفكار الغربية عن الديمقرطية والخطاب الإسلامي[٦]، غير أن الأغلبية تنوء تحت أثقال المعتقدات وهي مشوشة الأفكار كلياً فيما يتعلق بمعظم الأسئلة البديهية في السياسة.

«البشر يتمتعون بحقوق بسبب كونهم بشراً وليس لأي سبب آخر»، هذه تظهر كبند أول في ميثاق ٩١. بعض أفضل العناصر في المعارضة العراقية الديمقراطية، وهم شيعيون ليبراليون خرجوا من صفوف المعارضة الإسلامية، وجدوا أنفسهم عاجزين عن الموافقة على حجر الأساس هذا في أي سياسة قائمة على حقوق الإنسان. بكلام آخر، انهم يجدون أنفسهم غير قادرين على أن تشمل الحقوق الجميع دونما استثناء، بصرف النظر عن أي اعتبار آخر. هل للمرتد حقوق؟ أو هل ترتفع الصيغة الإنسانية فوق إرادة الله؟

وتشير الدلائل إلى أن الشيعة قد تأذوا كثيراً نتيجة مأساتهم الخاصة، إلى درجة أن قدرتهم على التفكير والتصرّف كعراقيين باتت في تضاؤل مستمر. عندما تستأصل أحاسيس من هذا النوع كل فكر عقلاني، كما هي الحال بين العديد من العراقيين الشيعة حالياً، فإن التعصب ـ ومعه العنف ـ هو ما سينتج في المستقبل. كل الكلام عن حقوق الإنسان، الذي هو موضة رائجة بين العراقيين حالياً، يمكن أن يُنحّى بسرعة إلى حافة الطريق، ويمكن أن يتحوّل بسهولة إلى لا شيء سوى دعاية رخيصة لفكرة عالمية جبّارة، ولأهداف لا يتعدى الغرض منها جذب انتباه الغرب. «كما تعرف إنهم (أعضاء الهيئة التشريعية الأميركية) يحبّون هذه الكلمات (حقوق الإنسان)»، هكذا قال لي مناضل شيعي يدير منظمة لحقوق الإنسان في الغرب. إن بذور كارثة تقع على العراق تكمن في هذا النوع من الرياء.

لنفترض أن أبا حيدر قرر أن تكون ولاءاته الأولية لجمهورية إسلامية ـ مهما كانت مجلببة بحشو كلام ديمقراطي. فذلك القرار سوف يتطلب مواجهة واقع أن السنة العرب تستحوذ عليهم حالياً برحاء الخوف من مجرد ذكر أي شيء يتعلق بالإسلام السياسي. ويشكو باستمرار الجيل الجديد الصاعد من السياسيون الشيعة العراقيين من مبالغة الغرب بمسألة التهديد الشيعي «الإسلامي» في العراق ـ وهذا من وقع أصداء الثورة الإيرانية

مكتبة الفكر الجديد

والخمينية في العقول الغربية، لكن الأمر الوحيد الذي لا يتحدث عنه هؤلاء السياسيون بالذات هو المخاوف المشروعة والحقيقية لدى السنّة العراقيين. فما الذي سيراود السنّي العراقي عندما يرى أنه حتى أكثر المثقفين الشيعة ليبرالية يشاركون في إعادة كتابة تاريخ العراق الحديث على نحو يقصد منه «إثبات» أن كل سياسي سني معاصر كان في سره طائفياً؟ (حتى أني سمعت أقوالاً من نوع أن كامل الجادرجي، وهو السياسي الديمقراطي الكبير، كان طائفياً. أحد أشهر الكتّاب السياسيين الشيعة المعاصرين، وكان يعمل سابقاً وكيلاً للإعلام في الحكومة العراقية، قال لي في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٢، أن الشيعة هم «شعب العراق الحقيقي»، فيما السنّة هم مجرد طائفة تطفلت وفرضت بالقسر على البلاد. وأضاف انه لم يعرف البتة سنيّاً لم يكن في أعماقه طائفياً. برأيي الشخصي، ليس هذا إلاّ نسخة معكوسة عن معدل التفكير البعثي).

والمخاوف السنّية مما قد يفعله بهم الشيعة العراقيون إن وصلوا إلى السلطة، قائمة على أسس أعمق بكثير من إفتراضات بعض القادة الغربيين الساذجة، وهي لا علاقة لها بالإسلام كإسلام إلاّ بقدر ما ان تبنّي الشيعة للإسلام السياسي ستكون له عواقب على حرية المعتقد الديني. ليس المعتقد ما هو على المحك في الصراع المستقبلي بين المجموعتين السنّية والشيعية في العراق، بل البقاء والإستمرار. وبعد رحيل صدّام، سوف تصبح حياة الناس، وحياة أعزّائهم وكأنما على وَضَم الجزّار، وستصبح مخاوف السنّة من إحتمال ما يمكن أن يفعله الشيعة بهم باسم الإسلام قوة رئيسية في السياسة العراقية. وكلما عمل الشيعة العراقيون على فرض وتأكيد هويتهم الشيعية، ازدادت في المقابل نزعة الأقلية السنّية العراقية إلى أن تقاوم وبعنف، وحتى النهاية، كل ما يمكن أن يشي بقيام جمهورية إسلامية في العراق. إنهم يرون في دولة كهذه ـ بغض النظر عما إذا كان ما يرونه صواباً أو خطأً ـ إلغاءً لوجودهم، وفي ذلك سوف يدعمهم الأكراد (هذا إن لم يكن قد أصبح لديهم دولتهم الخاصة عند ذلك الوقت).

إن معادلات كاذبة مثل «كلّنا مسلمون»، لن تعني شيئاً، تماماً كما لم يعنِ شعار منظمة التحرير الفلسطينية «فلسطين ديمقراطية علمانية»، أي شيء للإسرائيليين.

المشكلة ليست مع الإسلام بذاته أكثر مما هي مع الوحدة العربية كفكرة طيّبة ستتحقق في وقت ما في المستقبل. وقد يستطيع الإيرانيون والجزائريون وربما المصريون أيضاً أن يستنبطوا ديمقراطية في دولة إسلامية، لسبب بسيط، هو أن الشعب يمكنه، بالرحمة، أن يصبح ليّناً قابلاً للتكيّف حتى حيال معتقداته العزيزة جداً عليه.

والنقطة الأساسية هي أن الأوضاع العراقية بشكل خاص تقصي الخيار الإسلامي

مكتبة الفكر الجديد

هناك. فالعراق أقل تجانساً من تلك البلدان التي ذكرتها، وقد سبق أن دمّره هذا النوع أو ذاك من «سياسة العقيدة» (البعثية تقوم إيديولوجياً على فكرة الإيمان، إيماناً أعمى ومطلقاً بالعروبة). كما أن نظاماً جديداً غير عنيف لن يبنى بالتأكيد على نمط جديد من هذه السياسة(٧).

إن الدول البوليسية والإرهابية لا بدّ أن تقوم بعيد نجاح السكان في أن ينقلوا إلى مركز الحياة العامة، ما يتمسكون به ويعتبرونه أعزّ ما لديهم، أي جوهر نظامهم المعتقدي. وإذا أصرّ شيعة العراق على وضع الشيعية في المرتبة الأولى في السياسة، أو إذا هم أصرّوا على وضع الهويّة الإسلامية في المكانة الأولى، فسيستنزف ذلك جيلاً آخر في العراق. وشارات التحذير هي منذ الآن مسلّطة علينا.

دعوني أقدّم إليكم مثالاً من تجربة مؤلمة وشخصية. عندما سافرت إلى شمال العراق في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١ لمقابلة الفتى الناجي تيمور، وتقصّي ملفات الشرطة السرّية التي كان استولى عليها الأكراد خلال الإنتفاضة، واجهتني الشكوك التي يبديها الشيعة المقيمون في الغرب. فمن بين أكثر أعضاء المعارضة العراقية تنوّراً مَنْ تذمّر قائلاً: «لماذا لا تكتب عما فعله صدّام بأبناء جلدتك، شيعة العراق؟ إننا نتعذّب أيضاً». عدت من زيارتي لأسمع تدفقاً مستمراً من الشكاوى، في أوروبا والولايات المتحدة، بأنني تخليت عن «القضية العراقية»، أو «القضيّة الشيعية» من أجل «القضية الكردية». وسأل الأشوريون، «ماذا بشأننا؟ نحن كنا ضحايا عمليات الأنفال أيضاً». ولا يزال عراقيون من كل الأنواع يثيرون تلك المسألة معي بطريقة ماكرة أو بأخرى، وبعد انقضاء سنة كاملة من عرض شبكة تلفزيون البي بي سي الفيلم الوثائقي عن حملة الإبادة الجماعية الرسمية تلك. المشكلة في العراق في أن الجميع كان ضحيّة، ومعظم الناس، وبوجه أخص الأكثرية الشيعية، لا تعرف سوى التفكير والتصرف كضحية.

لقد انتشر على نطاق فردي بين العراقيين السنّة المقيمين في لندن، أن كنعان مكّية يقوم بتشكيل تحالف جديد من فقهاء الشيعة وزعماء القبائل الكردية، واعتبروا انهم هم هدفه الأساسي. وأكثر من ذلك، قد اتضح جلياً انه يعمل بالخفاء مع الأميركيين (على الرغم من ان أولئك الأشخاص بالذات كانوا يعتقدون أيضاً أن الولايات المتحدة تريد أن يبقى صدّام في السلطة). وفي النهاية عندما نقلت الوثائق العراقية التي كان استحوذ عليها الأكراد إلى مكان آمن في الغرب، عبر جهود قامت بها منظمة «هيومان رايتز واتش» التابعة لمنظمة حقوق الإنسان، عارض بعض القوميين الأكراد أن يعمل مكّية عليها، على الرغم من جهوده التي كان يقوم بها لكشف عمليات الأنفال وإعلانها

مكتبة الفكر الجديد

للعيان. كانوا يريدون، لأسباب سياسية، شخصاً أميركياً، لا عراقياً مثلهم، كي يخبر العالم ماذا حل بهم، وهكذا توضحت كل التباسات المناورة تلك.

هذه هي المادة البشرية المجروحة التي سينبثق منها ويتشكل النظام الجديد. فكلّ من سمّ الطائفية السنّية ـ الشيعية، والعداوة العربية ـ الكردية، يكفي بمفرده لقتل العراق، وهما يعملان اليوم سويّة على تمزيق البلاد. وتقسيمها قد أصبح الآن قائماً فعلياً في قلوب العراقيين قبل أن ينفّذ على الأرض وتدفع ثمنه أعداد جديدة وكبيرة منهم. فلم يعد أي عراقي محصّناً بل الجميع باتوا معوقين. والانفعالات القومية والطائفية الخبيثة متفشية الآن في العراق أكثر من أي وقت مضى. إنها القوى الموجّهة للتغيير، حتى لو كانت أفضل عناصر المعارضة العراقية تدّعي غير ذلك. فإلى أين سنصل نحن العراقيين إن كان هذا منطلقنا؟

دعونا نبدأ من حقيقة أن الجميع تواطأ وقبل بتسوية مذلّة مع الديكتاتورية (بغض النظر عمّا إذا كان ذلك بمحض إرادته أم لا)، وان الذين بقيت أكفّهم نظيفة من الداخل أو الخارج ليسوا كثيرين. فتلك الملفات الاستخباراتية السرّية التي نقلت إلى الغرب، تكشف كيف أن العديد من الأكراد وبدرجات متفاوتة، كانوا متورطين في ما حلّ بأكراد آخرين سنة ١٩٨٨. والسنّة والشيعة، بدورهم، كانوا ممثّلين في كل أجهزة الدولة العراقية، وفي الجيش، والبوليس، والاستخبارات. أما قصة عمر (الفصل الثالث)، فهي قصة عربي وشى به كردي، وحقق معه سني واستجوبه شيعي. فالمنافسة على احتكار صفة «الضحية» طريق لا تؤدي إلاّ إلى الكارثة. وبما أن طبيعة النظام في بغداد كانت من النوع الذي يترك الجميع مع حسابات عالقة، فربما كان من الأفضل تسوية بعض منها بحسب ما تجيزه الطبيعة الإنسانية والسياسيون من ذوي الحكمة[٨].

إن عفواً عاماً شاملاً واسع النظرة والأفق هو السبيل الأوحد لرد حمّام الدم الهائل بعد سقوط النظام.

والاعتراف الهام الثاني، هو إدراك الشيعة العراقيين ـ وهم الذين تقع على عاتقهم وبشكل أساسي مسؤولية مستقبل العراق ـ أن مخاوف السنّة صحيحة ومشروعة. وينبغي على الجيل الجديد من القادة العراقيين أن يواجه سياسياً تلك المخاوف بصفتها ذروة الأولويات، وينبغي كذلك إيجاد صيغ في الحكم، تؤمن ضمانات صارمة ضد «طغيان الأكثرية». فحياة الآلاف من العراقيين في المستقبل سوف تتوقف على الجدّية التي ستقوم عليها تلك الضمانات. وتقع على عاتق الشيعة مسؤولية سياسية أخلاقية، تلزمهم إدراك تلك الصيغ. فلا يستطيع المرء أن يتوقع القيادة من أقليّة تشعر منذ البداية بأنها في موقف دفاع عن الذات، أنها محاصرة، فيما الجميع يشير إليها بإصبع اللوم والإتهام.

مكتبة الفكر الجديد

إن تفكّك العراق والمزيد من الفوضى وإراقة الدم اللذين سيحلاّن به في ما بعد صدّام، سيعودان بدرجة رئيسية إلى فشل القيادة الشيعية السياسية في الارتفاع إلى مستوى تلك الفرصة التاريخية، والمسؤوليات التي تفرضها عليها جماعتها بالذات.

أما ثالث أكبر المهمّات التي ينبغي أن تأخذها على عاتقها معارضة عراقية مسؤولة فهي إعتناق الفدرالية كحل للمسألة الكردية، وضمن إطار دولة عراقية موحّدة، وقد اتخذت الخطوة الأولى في هذا الاتجاه في لقاء صلاح الدين في شمال العراق بين ٢٧ و٣١ تشرين الأول/أوكتوبر ١٩٩٢، عندما التقت مختلف منظمات المعارضة العراقية، تحت مظلة المؤتمر الوطني العراقي. وكنت قد منحت إمتياز حضور ذلك اللقاء التاريخي، والتوجّه إلى المؤتمر لطرح هذه المسألة بالذات. فالفدرالية ليست تنازلاً نمنّ نحن العرب على الأكراد به، إنها السبيل الوحيد للحفاظ على وحدة العراق. وكردستان العراقية عاشت تجربة خاصة بعد نهاية حرب الخليج، ليس فقط من غير الجائز التراجع عنها، بل ينبغي أن يبنى على أساسها مستقبل العراق.

لقد قامت ثورة فعلية فوق ٢٠ بالمئة من الأرض العراقية منذ حرب الخليج، وجاءت بشكل انتخابات شملت ٢٠ بالمئة من الشعب العراقي، وبرلمان كردي فاعل إلى حد ما. كانت تلك إنتفاضة من دون شعارات حربية طنّانة، وسياسات راديكالية رفضية. فإما أن نعمّم تلك التجربة لتشمل كل العراق، أو نخسرها كلياً، ونتقدّم بمنطق التقسيم. وحين يسود ذلك المنطق الرهيب فإنه، كما أتوقع، لن يتوقف عن متابعة طريقه لينتهي الأمر بأن يقتل العرب العرب، ويقتل الشيعة إخوانهم الشيعة، وحتى الأكراد سوف ينقلبون ضد بعضهم البعض. فذلك البلد التعيس المدعو العراق، الذي ورثناه مع تقسيمات الامبراطورية العثمانية، قد لا يكون بالشيء الهام، ولكن المجازر التي رافقت تمزّق بعض الدول (الهند سنة ١٩٤٧ ويوغوسلافيا منذ سنة ١٩٩١) أظهرت انه يمكن أن يكون أفضل ألف مرّة من بدائله المطروحة.

فما من مرارة أو فكرة أو عقيدة أو دين أو معتقد أو إله، يستحق أن يدافع عنه إن كان ذلك يستلزم القضاء على حياة عراقية أخرى. وإذا أراد الأكراد، بالرغم من كل شيء، دولة خاصة بهم، بعد فشل محاولات اقناعهم بأن هذا الاختيار قد لا يكون أفضل لمصلحتهم، فسيكون أمراً ملزماً على كل العراقيين أن يناصروهم كلياً، ويتمنوا لهم النجاح في المغامرة العظيمة الجديدة لبناء دولة. إن تلك الطريق بالذات محفوفة بالمخاطر، وأنا شخصياً أتمنى بالتأكيد أن لا يختار الشعب الكردي اجتيازها. أقول هذا ليس فقط من أجلهم، ولكن لأني أعرف أن ذهابهم خسارة لي. ولسوء الحظ، ان ذلك الاختيار بالذات ليس متوافراً لشيعة العراق وسنّته. وهنا تكمن بالذات مشاكل المستقبل الحقيقية.

مكتبة الفكر الجديد

إن هاتين المجموعتين الطائفيتين، متمازجتان متوائمتان في العراق، واتحادهما غير قابل للإنفصال، ان كان هنالك اتحاد أصلاً. فإما أن يتقاتلا ويقتل قطيع منهما القطيع الآخر، وينتصر بهذا كلياً عليه! أو أن يجدا سبيلاً للعيش معاً، وليس هناك أي خيار ثالث.

لقد بدأ يربكني، وأنا أُراجع أحداث الإنتفاضة وما تبعها من دموية، إدراكي لطبيعة الإرث الذي حمّل حزب البعث العراق أعباءه. وجدت أن التأثير المتراكم للقصص يفوق طاقة الإحتمال، وهو يعدم كل منطق ويهددني حتى في سلامتي العقلية. تلك التجربة الشخصية غير المباشرة سوف تتكرر غداً داخل العراق وبشكل أضخم، وذلك عندما تكشف فظائع الماضي، حتى لو كانت تتبعها فظائع جديدة إضافية، وعندها يمكن أن يتحول شيئاً فشيئاً إدراك الجميع إلى لامبالاة جماعية. فالقدرة على إمتلاك أي نوع من الشعور تجاه مخلوق بشري آخر قابلة هي الأخرى لأن تموت. إلاّ أنه ينبغي فتح صندوق باندورا، وعراقيون مثل أبي حيدر امتلكوا ما يكفي من الشجاعة للقيام بالخطوة الأولى. هذا هو فحوى ما جرى في آذار/ مارس ١٩٩١. إلى أي درجة ستتسع في المستقبل فتحة صندوق باندورا؟ إن من سيقرر هذا هو الحكمة السياسية عند الجيل الجديد من الزعماء السياسيين في العراق. وكل شيء يتوقف عليهم. فالتشاؤم بشأن مستقبل العراق، فضلاً عن حقيقة أن العراقيين يملكون الآن ولأول مرة احتمال مستقبل، هما كلاهما إرث إنتفاضة أبي حيدر.

كتب إليوت: «ماذا كان يمكن أن يكون وماذا جرى حقاً، يشيران إلى نهاية واحدة هي دائماً حاضرة»[٩]. وإنتفاضة آذار/مارس ١٩٩١ في العراق، إن جرت دراستها بصدق، ومن دون ممنوعات ومعوقات، ومن دون مراعاة لشعور أحد، هي أشبه بعدسة تلوح خلالها وتطوف أشباح من الماضي، فيما خيارات المستقبل يمكن بالكاد رؤيتها. لقد تعبت من النظر عبر تلك العدسة، ربما لأنني لم أعد قادراً أو راغباً في تحمّل كل ذلك القدر من الواقع. إذاً سوف أدع حميد، الشاب النجفي غير الطائفي الذي استشهدت به في الفصل الثاني لينهي رحلة القسوة هذه.

> «نحن في العراق ليس لدينا مستقبل. عمري ٢٨ سنة. حياتي انتهت. لكن ربما لن يعاني أولادي مثلما عانيت. أني أُحب ولديّ الصغيرين ـ الصبي عمره سنتان، وعمر الفتاة سبعة أشهر فقط. حين أشعر باليأس أقول للصبي «ربما عندما تكبر ستقاتل في حرب ضدّ سوريا، أو ضد الأردن». الكلمات الوحيدة التي يعرفها هي «ماما»، «بابا» و«صدّام».

مكتبة الفكر الجديد

لست أعرف ما الذي سأفعله. ربما سأذهب إلى الأردن لأجد عملاً هناك. عليّ أن أرتدي الثياب نفسها كل يوم، لأن القميص يكلّف الآن ٣٠ ديناراً. لم نذق طعم اللحم منذ شهر. إننا نحلم بأطعمة مختلفة، غير أننا لا نستطيع أن نأكلها. معظم المال الذي أكسبه ندفعه ثمناً لحليب الطفلة، فثمن العلبة يبلغ ١٥ ديناراً. اضطررنا إلى بيع مجوهرات زوجتي لنشتري سيارة التاكسي تلك البالغة عشر سنوات من العمر والتي أقودها الآن. عندما ابتعتها رحت أقودها، في البداية، بين أربع ساعات وست يومياً، والآن أقودها بين الثماني ساعات والعشر يومياً. أحلم بالتوقف عن التدخين لأن العلبة تكلّف دينارين، أنا الآن أُدخن أكثر.

أحب المسرحيات الإنكليزية والشعر. إنها تجعلني سعيداً. أصبحت مولعاً بها بعدما درست الإنكليزية في المركز البريطاني ببغداد. أُحب مسرحية شكسبير «الليلة الثانية عشرة»: «إن كانت الموسيقى هي طعام الحب، هيا أعزف»! أظن أن القراءة ثورة، انها تجعلنا نفكر ونتساءل. لكن في صفوف المدرسة، كان عليّ أن أقرأ قصائد تمجّد صدّام، وكان على التلامذة أن يحفظوها غيباً. كان ينبغي أن تكون مواضيع الإنشاء التي يكتبونها عن أمور مثل تمجيد صدّام. لقد قتلوا التفكير الحرّ. لماذا ينبغي أن يدرس تلامذتي؟ إنهم ينظرون إليّ - ١١٠ دنانير في الشهر وأقود سيّارة تاكسي خلال الصيف - ويخالجهم: «سوف أخرج من المدرسة، وأتوجّه تواً إلى الجندية».

إن مسرحيتي المفضلة هي «موت بائع متجوّل»، لأن ويلي لومان بطل المسرحية يتمسك بأحلامه ويضحّي بنفسه من أجل أولاده. أحب [مسرحية] «بانتظار غودو» أيضاً، اني أقرأها لأمي. غودو يمثّل الأمل. من أين ومتى سيأتي؟ لسنا نعرف. لكن غودو سيأتي. ليس في مقدورنا وحدنا أن نفعل أي شيء. كان على ويلي لومان أن يضحي بحياته من أجل أولاده. لذلك ينبغي أن نظل هنا، منتظرين. نحن في انتظار غودو»(١٠).

مكتبة الفكر الجديد

الباب الثاني

الصمت

مكتبة
الفكر الجديد

٧ ــ من أنا؟

«هل فكّرت (سمير الخليل) في زيارة بلدك الأصلي العراق بجواز سفرك الأميركي في المستقبل عندما يكون جيشك الأميركي هناك... أنت لا يحقّ لك الكلام عن العراق ومن يسكن في العراق. العراق وأبناء العراق يتبرأون منك براءة الذئب من دم يوسف. أنت جالس في النعيم وبيدك القلم والقرطاس هذا كلّ ما تملك أما الحسّ والعطف على البلد لا وجود له. كان يجب عليك أن تدين الهجوم الذي أرجع العراق إلى القرن الثاني عشر، بدل أن تطلب من البرابرة أن يكملوا ما بدأوه واحتلال بغداد.

لا أريد أن أتجاوز عليك ولكن أرجو أن تراجع نفسك وتتوجّه إلى الله العلي القدير وأنت في هذه الأيام المباركة (رمضان) وأن تستغفر يجلي عنك خطاياك إنه سميع مجيب».

تعليق في صحيفة «العرب»[١].

ما العلاقة بين جواز السفر الذي يحمله المرء، وبين الآراء التي يعبّر عنها، والكتب التي يؤلفها، ومشاعره العميقة ومعتقداته الخاصة، وهي بالطبع ما يشكّل هويته؟ في الواقع لست أملك جواز سفر أميركياً، ولم يكن لدي واحد في أي وقت مضى. لكنه قدّر لي، بعد سنوات من السعي الحثيث، التحرّر من القيود التي كانت قد فرضتها عليّ لعنة تلك السنوات الأربع عشرة من حياتي كراشد، تلك القيود التي كانت تكبّل حريتي، وهي بالتحديد جواز سفريَ العراقي. يوم تسلمت الرسالة التي أبلغتني خبر منحي الجنسية البريطانية عام ١٩٨٢ كان ذلك أجمل أيام حياتي. وعلى رغم انني كنت محظوظاً بما فيه الكفاية لأعرف ما هي الحرية بطرق شتى، إلاّ أنني، في ذلك اليوم بالذات، ذقت طعمها. فبات بوسعي عندها السفر من دون قيود، سواء تلك التي تفرضها الحكومة

مكتبة الفكر الجديد

العراقية برغم كوني مقيماً في الخارج، أو تلك التي تضعها سياسات الهجرة المتشددة، أو يواجهني بها ضابط عنصري قد أصادفه في مطار غربي[٢]. لن أضطرّ بعدها إلى ارتياد سفارة عراقية، واضعاً أصدقاء لي عند زاوية الشارع للتأكد من خروجي منها. فالعديد من العراقيين والفلسطينيين والسوريين واللبنانيين ممن يعيشون مشتتين أو منفيين، سواء قسراً أو اختياراً، يشاطرونني هذه المشاعر وهذه التجربة الشخصية.

إلاّ أن هناك قاعدة غير مكتوبة سائدة، بيننا نحن العرب، تقضي بعدم التحدّث أو الكتابة عن أمور كتلك التي أكتب عنها الآن. أمر مخزٍ أن يبدل أحدنا جواز سفره. فهو بذلك يقدم على خيانة من نوع ما. هذا ما عناه كاتب المقطع الوارد في مطلع الفصل عندما شدّد على عبارات «جواز سفرك الأميركي... جيشك الأميركي».

إن مفاهيم الخيانة ذاتها دخلت النظام القانوني العراقي منذ زمن طويل. فهذا النظام يربط صراحة الجنسية بالمعتقدات الخاصة، وقد حرص القانون الذي أصلح النظام القانوني عام ١٩٧٧ على حرمان «كل الأشخاص الذين يتخذون موقفاً سياسياً، اقتصادياً أو فكرياً، معادياً للثورة وبرنامجها» من الجنسية العراقية[٣]. لم يكن ذلك شذوذاً بل تجسيداً لكل نظريات حزب البعث عن الهوية العربية منذ الأربعينات في سوريا والعراق، وفي كلّ مكان كان له وجود فيه.

إنني في الواقع خائن ولست مواطناً في نظر الجمهورية العراقية. فالمواطن المخلص هو الذي يفكر بنهج معيّن، والانحراف يظهر في «الأفكار السيئة» قبل أن يتجسّد في التصرف. والدولة لن تجدّد جواز سفري العراقي كما أن لديها قوانين أخرى تشرّع استخدام العنف ضدّ شخصي بسبب تفكيري غير البعثي، وهي حقيقة تثبتها كتبي.

في هذا السياق تتجذّر مشاعر العار المرافقة لتبديل جواز السفر، بوعي أو بلا وعي في مفاهيم كهذه حول الهوية. وبما أن هذه المفاهيم في صراع مفتوح مع متطلّبات العمل والنفي السياسي وحتى الخيارات المتعلّقة بنمط العيش، فلا بدّ من الاستمرار في كذبة كبيرة وهي نفي أن يعني التغيير شيئاً. العديد من العرب يتمتعون بالمكاسب التي ينكرون أنهم عملوا لها يائسين فيما كانوا يسعون للحصول على جوازات سفر أميركية أو بريطانية أو فرنسية. وعن خداع الذات هذا نجم المقطع الذي أوردته من صحيفة عربية صادرة في لندن، حيث أخذ علي المحرّر حيازة جواز سفر لا أحمله في الواقع، وخلص ساخراً إلى أنه كان من المعجبين بكتاب «جمهورية الخوف» إلى أن «زال القناع» عن وجه كاتبه، واتضحت المواقف السياسية التي اتخذها خلال حرب الخليج.

مكتبة الفكر الجديد

من هو المثقف العربي؟

عندما اجتاح صدام حسين الكويت في ٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠، خضع النموذج الذي كان يسود هذا الخطاب العربي الخاص بالهوية لأفظع اختيار يمكن أن يواجهه. وجدت مشاعر القومية العربية المتجذرة في ذاكرة من الظلم التاريخي العميق ـ رسم خارطة العالم العربي بعد الحرب العالمية الأولى وقيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ ـ نفسها وجهاً لوجه أمام بشاعة النظام الذي كان يعتبر رأس حربة العروبة عام ١٩٩١، ألا وهو العراق البعثي. ذُهل العالم العربي برمّته مما فعله صدام حسين. إلاّ أنه خلال الأيام الأولى التي تلت الاجتياح، ما كان يمكن لقارىء يقتصر اطلاعه على ما في الصحافة العربية أن يعلم حتى بهذا الحدث، لأن الصحف العربية إما كانت تلتزم رقابة ذاتية، أو أنها كانت تنتظر قراراً من مموّليها حول ما يجوز كتابته. كان عليك أن تعرف ما كان يجري من خلال الصحافة الغربية.

إلاّ أنّ الغالبية العظمى ممن يعتبرون أنفسهم مثقفين عرباً أو مناصرين للعرب لم تكن تأبه للأمر. فباستثناء من في دول الخليج ومصر (التي كانت تعيش حياة ثقافية معزولة منذ اتفاقية كمب ديفيد) لا علم لي بوجود أية مجموعة من المثقفين العرب، ولو صغيرة، ميّزت تمييزاً ذا مغزى بين مصالح شعب العراق المعذب الذي أضاع جيلاً كاملاً خلال ثماني سنوات من الحرب الضارية مع إيران، والطاغية الذي كان يضحي به على مذبح مغامرة جديدة[٤]. في الوقت ذاته بات من الصعب بالنسبة لبعض العرب (أولئك المعنيين مباشرة، وغالبيتهم الساحقة من الكويتيين والعراقيين) الامتناع عن إبداء أية ردة فعل إزاء هذه الأزمة الأخيرة التي حلّت بالشرق الأوسط، نظراً لما كانت الكويت تعانيه في ظلّ الاحتلال، ولما كان يجري داخل العراق خلال السنوات العشرين الأخيرة. وبدأت حساسية جديدة تقوم على النقد الذاتي بالدخول إلى السياسات العربية. لكنها شأنها شأن أي جديد يولد في محيط معاد لفكرة النقد الذاتي، لا تزال هشة للغاية[٥].

فالعادات القديمة لا تموت إلاّ ببطء. وأصعب ما يكون ذلك بين الأشخاص الذين اعتبروا واجباً عليهم أن يوقظوا الاعتزاز والحس بالهوية الجماعية عبر إلقاء مسؤولية المحن والاضطرابات على عاتق طرف «آخر» ـ وكالة أجنبية أو ثقافة «غربية» من خارج المجتمع الذي يحاول أن يمجّده، وغالباً ما تكون هذه الوكالة أو الثقافة أكثر نفوذاً وديناميكية. والمؤلم في الأمر هو النبرة العالية الحادة لأهل الفكر العرب في محاولتهم تحميل الغرب أو إسرائيل مسؤولية أية أزمة. ويزداد الخطاب العربي هستيرية واستبعاداً للواقع ومحاكمة للذات فيما العالم العربي في الواقع يزداد عجزاً عن تحقيق نفسه سياسياً وثقافياً في الأزمنة الحديثة[٦].

مكتبة الفكر الجديد

إليكم على سبيل المثال هذه الحادثة الاعتيادية. **أحمد** شاب مثقف من الطبقة المتوسطة البورجوازية، ولد ونشأ في بغداد. يحتقر السياسة، مثل غالبية العراقيين المتعلمين من جيله، الذين نشأوا في ظلّ نظام صدام حسين. كلّ أصدقائه، في الولايات المتحدة التي قصدها مؤخراً بهدف الدراسة، من العرب. بعد عدة أشهر من الهزيمة العراقية في حرب الخليج، وخلال حفلة ليلية، كان لأحمد حوار مع **مازن**، وهو أردني متعلّم مثله يدرس إدارة الأعمال في شيكاغو. اعتبر مازن أن صدام حسين هو «الرجل الحقيقي» الوحيد في العالم العربي الذي وقف في وجه الغرب. وعندما أراد أحمد أن يعرف ما حققته هذه الوقفة، أجاب مازن «لا شيء، لكنه أثبت للغرب أننا نحن العرب ينبغي أن يحسب لنا حساب». كذلك لم يقرّ مازن بأن اجتياح الكويت كان خطأً. وما زال أحمد يذكر الحديث:

ـ لقد شنّ الحرب قبل الأوان. كان عليه الحصول على القنبلة أولاً.

ـ أليقع عندها بضعة ملايين من القتلى عوضاً عن مئات الآلاف؟

ـ لكننا كنا استطعنا عندها مواجهة إسرائيل.

ـ السبيل الوحيد لمواجهة إسرائيل هو المصافحة.

ـ لكن هذه خيانة!

ـ الخيانة هي أن تقتل شعبك، أن تجرّه إلى حرب طويلة منهكة ثم تقول له أن يسترد الكويت.

ـ على أية حال أنت كردي، ولن تحبّه[٧].

لكأن المرء يشعر في أعماقه أنه فاشل في الحاضر، في العالم الذي يعرفه والذي نشأ فيه، لكنه يضطر يائساً إلى تأكيد تفوّقه، أولاً من طريق تذكيره المتواصل بعظمة أجداده وأمجادهم، وثانياً من طريق تضخيم صورة دخلاء على الأمة ذوي نفوذ مطلق يعملون دائماً على إقصائه جانباً في أية مواجهة حقيقية أو متخيّلة. هذان العاملان يتداخلان ليؤديا إلى تبرير أيديولوجي لعجزه: إن شعبه كان ليكون مجيداً، ودولته كانت لتكون واسعة النفوذ، لولا دسائس الامبرياليين (أو الشيطان الأكبر، مما يعني الشيء ذاته). ما حصل الآن هو أن هوية هذا الشخص بنيت بطريقة سلبية تماماً: فهو على ما هو عليه بسبب ما يكره، وليس بسبب ما يحبّ أو يؤيد[٨].

ثمة طريقة أخرى لبناء الهوية، تكمن في النظر إلى الداخل نظرة نقد ذاتي، عوضاً عن

مكتبة الفكر الجديد

النظر إلى الخارج. لكن المثقفين العرب لم يعتمدوا ذلك طريقة لمواجهة الأزمة التي حلّت بعالمهم بعد ١٩٦٧ ـ عالم كان ينتقل، ويتهوّر، من كارثة إلى أخرى ولمدة هي أطول من أن يكترث أي منا للتأمل فيها. وقد كرّس عدد كبير من الأشخاص جزءاً كبيراً من حياتهم لبناء هذا النموذج «الرفضي» والدفاع عنه، وهو بات اليوم بمثابة طبيعة ثانية لجيل جديد من العرب مثل مازن. ومن المفارقة بالتالي أن يكمن التهديد الأكبر الذي تواجهه الحساسية الجديدة القائمة على نقد الذات، في الأشخاص ذاتهم الذين يفترض بهم أن يغذوها، ألا وهم تلك المجموعة من المثقفين العرب الذين نصّبوا أنفسهم «مناصرين للعرب».

ما هو المثقف «المناصر للعرب»؟ لماذا لا نسمع بمثقفين «مناصرين للفرنسيين» أو «مناصرين للأميركيين اللاتينيين»؟ لأنهم غير موجودين. يعتبر بورخيس وماركيز أنهما كاتبان من الأرجنتين وكولومبيا. أن نقرأهما أو لا نقرأهما أمر يتوقف على أسلوبهما في الكتابة، وليس على جنسيتهما أو الآراء التي يعبران عنها. ثم هناك اختصاصيون بنتاج أدباء كهؤلاء، يهتمون بالبحث عن نقاط ترابط واهتمامات مشتركة، لكنهم لا يمكن في أي من الأحوال أن يعتبروا أنفسهم «مناصرين» أو «مناهضين» لأميركا اللاتينية. ذلك لا ينطبق على الكتّاب من الشرق الأوسط أو من حوله، الذين غالباً ما يعرّفون نتاجهم وأنفسهم بأنهم «عرب» أو «فلسطينيون» أو «مناصرون للعرب»، مع كلّ ما تتضمنه تلك الألقاب من دلالات سياسية.

صديق فلسطيني قديم كان يتنقل باستمرار من محاضرة إلى أخرى قال لي مرة: «لقد تحوّلت إلى فلسطيني محترف». كان هو يعي المشكلة في حين أن معظم الكتاب العرب و«المناصرين للعرب» لا يعونها. والمضحك في المسألة هو أن كون الكاتب «فلسطينياً» أو «مناصراً» أو حتى «مناهضاً» للعرب إنما هو استراتيجية فعالة للفت الأنظار إلى نفسه وإلى قضيته، وأكثر ما يكون ذلك فعالاً في الولايات المتحدة.

فمجرّد وجود ألقاب كهذه يشير إلى درجة الانحطاط التي أدركها المناخ الثقافي من الجدل حول الشرق الأوسط في كلا العالم العربي والغرب. فكروا في الأجواء المسمومة داخل دوائر الدراسات حول الشرق الأوسط في بعض الجامعات، خصوصاً في الولايات المتحدة، حيث يستعاد غالباً النزاع العربي الإسرائيلي بأوسخ الأشكال. فحتى الحياة الأكاديمية والنوادي شبه المهنيّة والشبكات الإذاعية والتلفزيونية غير الرسمية، أو خصوصاً فيها، ظهر ما هو «نصير للعرب» وما هو «نصير لإسرائيل»، ولكل منها مقدّساته ومحرّماته الصبيانية. وخلقت جزر السأم هذه في خطها الفكري الخالي من المفاجآت

مكتبة الفكر الجديد

أنماطاً أكثر فاعلية من وسائل الإعلام الغربية التي لا تفعل في أسوأ الأحوال إلا تكرار ما يصدر عنها.

من هو المثقف العربي؟ إن الإجابة عن هذا السؤال أصعب ممّا يمكن أن نظنّ لأنه لم تعد هناك أية معايير مترابطة تجمع بين مزايا كون شخص ما عربياً (وليس مصرياً مثلاً) وانتمائه إلى جماعة فكرية متفاعلة كتلك التي يمكن إيجادها في دولة مثل مصر. يتساءل اسماعيل الأمين في صحيفة «العرب» التي ساندت النظام العراقي خلال حرب الخليج «مثقفون عرب أم مثقفون من العرب»؟ وهذا سؤال جيّد، إلا أنه يجيب عنه إجابة فقيرة إذ يقول «كيف يمكن أن يكون ذلك الكاتب مثقفاً عربياً يحمل ثقافة عربية طالما يذيّل مقالته أو دراسته أو كتابه بمراجع لا تمتّ إلى العربية، لغة وثقافة وفكراً، بأية صلة؟»[٩].

خلف سؤال كهذا يكمن ادّعاء شديد التعصّب منتشر بين عرب يفوقون الأمين ذكاء وتقرّباً من نمط الحياة الغربي، مفاده أنّ هناك رابطاً مقفلاً بإحكام، عربياً صرفاً، يربط كيف يفكّر المرء بمن هو، وهو الرابط ذاته الذي رأيناه في مطلع هذا الفصل. أنا لست الشخص الذي أظن انني هو، بل انني أتحدد بكيف أفكّر. يعتقد الأمين انه حتى العرب الذين يكتبون بالعربية قد لا «يكونون» عرباً، لأنهم لا يعتمدون مصادر عربية حصراً. النقطة الرئيسية التي يشدّد عليها ليست حتى المقاربة القومية الكلاسيكية التي تعتمد اللغة معياراً للهوية، بل انها تركّز على «كون» المرء عربياً لأنه يتصرّف أو يفكّر مثل عربي، مهما عنى ذلك[١٠].

إن مصرياً ينشر باللغة العربية في مصر ليس مثقفاً عربياً «صالحاً» أو مثقفاً من الطراز الصالح، إن اعتبر نفسه مصرياً وكان مصنفاً في حلقة من الناشرين والنقاد والقراء تقتصر نشاطاتها على مصر. حتى كونه عربياً يمسي موضع تشكيك إن لم يتخذ الموقف المناسب خلال حرب الخليج أو من زيارة السادات القدس. من جهة أخرى، ليست هناك أية شكوك حول عروبة أستاذ من أصل فلسطيني، يعلّم في جامعة أميركية ويعبّر عن رفضه الولايات المتحدة بلغة إنكليزية بليغة، لأنه «يفكّر» كعربيّ، ولأن «قضيته» قضيّة العرب أجمعين. ماذا لو كان أحد يحتلّ موقعاً في مكان ما بين هذين الطرفين، مثل تلك المجموعة الواسعة وغير المتجانسة من المنفيين من كلّ أنحاء الهلال الخصيب الذين يقيمون في باريس ولندن ويكتبون بالعربية لصحف ومجلاّت ومطبوعات توزع في الوقت ذاته في أكشاك عدد من عواصم العالم؟

وقع العرب في كلّ مكان في اشراك عقد أثاروها حول هذا النوع من المسائل. أحياناً يسألني العراقيون، وحتى أولئك الذين يكنّون لي حسن نية: «لمن تكتب؟» يريدون أن

يعرفوا إن كنت أكتب لأرضي جمهوراً غربياً أو انني أكتب بصفتي عراقياً، «باسم شعب العراق». استاء العديد عندما زرت شمال العراق لجمع المعلومات حول عمليات الانفال التي أدت إلى سقوط ما لا يقلّ عن مئة ألف ضحية من الأكراد المدنيين. وكان السؤال الضمني «ألست شيعياً؟ لماذا لا تكتب عنا؟». مرّة جديدة يكون الافتراض بأن المرء هو من يكتب المرء لحسابه، وانه يكتب فقط لمن هو. كان أحد معارفي الأقلّ اطّلاعاً، وهو رجل أعمال عراقي، مقتنعاً في الواقع بأني نقلت كلّ ما حلّ باليهود العراقيين عام ١٩٦٩ في كتابي «جمهورية الخوف» فقط لبيع عدد أكبر من النسخ. تلك الخطة التسويقية التي اتبعتها، نالت، في نظره، تأييده لأنه يكره صدام حسين كرهاً كبيراً. أي شيء كان يمكن أن أفعله من أجل «قضيتنا» كان يناسبه. ذلك هو أسلوب أكثر تعاطفاً يعبّر بشكل جوهري عن التفكير ذاته الذي عبّر عنه أولئك العرب الأميركيون غير العراقيين الذين اعتبروا سمير الخليل خلال ١٩٩١ «عربياً كارهاً للنفس»، انتقد العالم العربي في كتاباته ليتملّق الناشرين والنقاد في الغرب.

وعلى المنوال نفسه انتقد إدوارد سعيد كتاباتي آخذاً عليها «عدم تعاطفها» مع العرب، وأنها قدّمت نظرية تقول إن العنف في الشرق الأوسط مطبوع في الجينات العربية. وفي المقابلة ذاتها عن المثقفين وحرب الخليج، وافق سعيد، مؤيداً، على وجود مصدر شعبي للتآمرية في العالم العربي، تتساءل عن كلّ كتابة «من هم في الحقيقة أولئك الذين يتحدّث هذا الشخص باسمهم؟ أو كما يقولون بالعربية: مين وراه؟»[١١]. ويمكن اختصار نقطة الخلاف الأساسية بيني وبين سعيد بالتالي: بينما أنا أرفض مجرّد طرح أسئلة كهذه على أي كائن بشري، يوافق هو على طرحها.

«أكتب لنفسي، حالي حال كل كاتب آخر»، هذا هو الردّ المربك الذي أوجّهه إلى كلّ هؤلاء النقّاد. وبالتالي، إن صادف أن سمير الخليل يفضّل الكتابة بالإنكليزية، وأنه عاش السنوات العشرين الأخيرة في الغرب، وناشد القوات المتحالفة أن تطيح الطاغية قناعة منه بأن ذلك سيكون في مصلحة جميع العراقيين، فهل كان يتصرّف كعربي أصيل، خصوصاً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار نقطة تزيد الأمور تعقيداً وهي أن الغالبية العظمى من العراقيين كانوا يفكرون ويشعرون بالطريقة ذاتها؟ من دواعي السخرية أنه في حين كان سعيد وصحف عربية مثل «العرب» مذعورين من الفكرة الداعية إلى مزيد من تدخل القوات المتحالفة، كان بعض البيروقراطيين البعثيين يعتقد أن حرب الخليج علّقت من دون حسم:

«كانت مجموعة من المسؤولين الذين عرفتهم عاملين خنوعين وأولياء للحكومة

مكتبة الفكر الجديد

واقفة في حلقة مستديرة. قال أحدهم بصوت عال «إن الجنرال شوارزكوف لم يتقدّم بما فيه الكفاية. كان يجدر به القدوم إلى بغداد وإنهاء العملية». هزّ الآخرون رؤوسهم بالموافقة. ولم يبد أنهم يكترثون بما إذا كان قد سمعهم أحد»[١٢].

هناك دائماً توتّر صعب بين الدفع الداخلي الذي هو أساس فعل الكتابة ومغزى النتيجة النهائية. عندما أجريت المقابلة مع الفتى الكردي تيمور، لم يكن يريد التحدث معي (الفصل الخامس). علّموه الكلام الجاهز الذي كان عليه أن يردّده. لكنني لم آت من أجل ذلك. كنت، بصفتي كاتباً، أريد منه المزيد. أجلست الفتى لمدّة ساعتين وأرغمته في الحقيقة على أن يعيش ثانية، وبالتفاصيل الدقيقة، كل لحظة من مأساته.

أي حق كان لي بذلك؟ هل أصبح تيمور أفضل حالاً بعدها؟ بعد المقابلة بات هدفاً رئيسياً معرضاً للاغتيال. مع هذا فإن ما فعلته ينال تأييد الوطنيين العراقيين والأكراد الذين يكرهون صدّام حسين، إذ يرون فيه الربط الضروري لمصلحة الفرد بالمصلحة العامة لجميع العراقيين. من جهة أخرى، قد يفكّر قومي عربي أو فلسطيني أن إسرائيل والغرب سيستغلاّن فضح حملة ١٩٨٨ لإبادة الأكراد من أجل شنّ هجوم على جميع العرب، وذلك سيء بالنسبة لسمعة العرب. هكذا تكون دوافع المرء موضع تشكيك منذ البداية.

أنا أحتقر الأسلوبين معاً في طرح المعضلات الإنسانية الحقيقية الكامنة في مسائل كهذه. إن فضيلة ما فعلته بتيمور عرضة لجميع أنواع التفسيرات، وأهمها لا علاقة له بالسؤال باسم من أكتب أو حتى من أنا. إن المسائل الأخلاقية الحقيقية والصحيحة الوحيدة تنجم عن كوني أكتب لنفسي وليس لأي كان. فالحياة كانت لتكون أسهل لو كان في مقدوري أن أستدير وأقول «إنني أكتب باسم الشعب العراقي، أو لفضح جرائم صدام». ذلك ليس الحقيقة.

لا يمكن فهم النموذج القومي السائد بين المثقفين العرب والذي خضع لاختبار قاسٍ إبان العملية التي نفذها صدام حسين في ٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠، بمعزل عن الهاجس الملح حول مسألة تحديد من هو عربي. لقد استشهدت حتى الآن لتصوير هذا الهاجس بمقالات من صحيفة عربية نموذجية غير معروفة بقيمتها الصحافية، وهي صحيفة «العرب». إلا أن الهاجس نفسه موجود في كل الخطاب المناهض للغرب الصادر عن العالم العربي. العديد من العرب أمثال مازن رأوا في صدام حسين المخلّص القادم على صهوة جواد كأنما هو آتٍ من ماضٍ بطولي للذود عن «الشرف العربي» وتضميد جراح قديمة من الكبت والعجز.

مكتبة الفكر الجديد

لكن تجدر الإشارة إلى أن انتقاد الخطاب السياسي العربي لا يعني التخلّي عن أولئك الرازحين تحت نير القمع السوري أو الذين يعانون من الذل المتواصل والاحتلال الوحشي في الضفة الغربية. لن أنسى أبداً التجربة التي عشتها في سيّارة أجرة فلسطينية كانت تنقلني من بيرزيت إلى القدس وهي تسير خلف سيارة جيب محمّلة بجنود إسرائيليين كانوا يومئون بفظاظة وسخرية لركاب سيارة الأجرة العرب الستة، بوجوههم الخالية من أية تعابير. كذلك لن يغيب عن ذاكرتي مشهد في القدس عند باب الخليل، بوّابة يافا، حيث قام شرطيان إسرائيليان يمتطيان جوادين جامحين بتفتيش صبي فلسطيني مذعور لا يتعدّى عمره الثماني أو التسع سنوات، فأرغماه على قلب حقيبته المدرسية وإفراغ كلّ محتوياتها على الأرض. (رأيت هذه المشاهد في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٠ أثناء زيارة للقدس والضفة الغربية تمكنت من القيام بها بعد أن حصلت على جواز سفر بريطاني). فكرت انني لو كنت في وضع ذلك الصبي، أقلّب التراب بحثاً عن ممحاتي، ومبراتي وأوراقي المبعثرة، بعد أن غادر الجنود، لكنت أنا أيضاً رأيت في صدام حسين مخلّصاً. فعندما يقترن اليأس والحرمان من الحقوق المشروعة بسوء المعاملة والإذلال، فإن ذلك يولّد دائماً آمالاً خادعة ومعتقدات خرافية لدى أي شعب كان. وليس في هذا الكتاب ما يمكن النظر إليه كانتقاد للعرب الذين تتعرّض كرامتهم وهويتهم نفسها ككائنات بشرية للإهانة يومياً بفعل السياسات الإسرائيلية في الضفة الغربية.

لغة القسوة

هنا، في القسم الثاني، سأركّز بصورة خاصة على وجهات نظر أولئك المثقفين العرب و«المناصرين» للعرب المنفتحين على الثقافات الأخرى والمتبعين نمط تفكير غربياً، وهم يقيمون بغالبيتهم الكبرى في الغرب ويتمتعون بوضع يسمح لهم أن يكتبوا ويقولوا ما يشاؤون. هؤلاء الأشخاص، بموجب الحريات المتاحة لهم، في موقع يمكّنهم من القيام بعمل إيجابي من أجل العرب الذين أطبق عليهم الفخّ داخل دول الشرق الأوسط القمعية. إلاّ أن معظمهم اختار، سواء مباشرة أو غير مباشرة، إما أن يجد الأعذار للمشروع السياسي للديكتاتور العراقي، أو أن يسانده بشكل فعال. ولم يكن هذا الخيار مجرّد هفوة عابرة، بل جاء تأكيداً للسطوة الاستحواذية والمعتلّة التي تفرضها سياسة الهوية على المثقفين العرب.

يشكّل هؤلاء المثقفون مجموعة شديدة التباين، معقدة، وذات وعي سياسي في مجملها. والمعيار الوحيد الذي اعتمدته لاختيار الأشخاص المذكورين هنا هو كونه، أو كونها، حقق شيئاً في مجاله بناء على مقاييس متبعة كونياً وعموماً (سواء كباحث،

مكتبة الفكر الجديد

مهنيّ، شاعر، أو فنان من نوع ما). وإذ أوافق وليد الخالدي على أنه رغم كل شيء فإن «من المفارقة ان العالم العربي ما زال يشكل منطقة واحدة تتخطى فيها الأصداء النفسية والعاطفية والفكرية الحدود بين الدول»[١٣]، فقد اعتمدت معياراً واحداً للاستشهاد بشخص ما، وهو أنه يكتب من موقع انتماء عميق إلى هذا العالم، مهما كان تحديده. ولا أحاول في أي مكان أن أشهّر بأي فرد كان، بل أريد أن أبرهن أن طريقة معيّنة للنظر إلى العالم، وإن ترافقت غالباً مع أطيب النوايا، إنما هي مفلسة أخلاقياً، وهي ذاتها المصدر الرئيسي لعجزنا عن التعامل مع مشكلات اختلقناها بأنفسنا. إنني أكتب لنفسي كما سبق وقلت، إلا أنني أكتب كذلك من وجهة نظر شخص يتمنى من أعماق قلبه أن يرى هذا الوضع المأساوي يتبدّل.

فعلى سبيل المثال، هشام جعيط، وهو متخرّج من السوربون، وحامل وسام جوقة الشرف الفرنسي وربما كان أشهر مثقفي تونس، كما انه خبير في التاريخ الإسلامي وناقد سابق للممارسات البعثية[١٤]. إلا أنه قال في مقابلة مع مجلة «الاكسبريس» ان صدام «يتقدّم» الدول العربية المشاركة في الائتلاف المناهض له لأن خطابه الإسلامي المبتكر «يوازي استعادة للذات وإحياء لهوية عميقة»[١٥]. ولا يجد جعيط أية صعوبة في الانتقال من اعتبار صدام حسين بطلاً إلى نعته بالأسطورة إلى الإشادة بالعنف:

ـ الاكسبريس: أنت تترأس منذ ١١ آب/ أغسطس ١٩٩٠ في تونس لجنة التضامن الوطنية التي تقدم الدعم للعراق وقائده. لماذا؟

ـ جعيط: العراق وصدام حسين يعطيان العالم العربي أملاً. عاش العالم العربي طوال عشرين سنة نظاماً فاتراً، كئيباً وفاسداً عملياً، نظاماً سعودياً ـ أميركياً لا تتعدّى رؤياه البترودولار. من الآن فصاعداً تنبسط آفاق جديدة، آفاق التوحيد. والعراق هو قطبها ومحرّكها.

ـ الاكسبريس: كيف تبرّر ضمّ الكويت؟

ـ جعيط: ليس علي أنا أن أقول لكم أنتم الأوروبيين، ان دولكم ولدت بعد حروب. صدام حسين، بضمّه الكويت، دخل ديناميكية التاريخ. كان يحاول تأمين مصدر ثروة لنفسه، موارد مادية، وإلى ذلك ان يضطلع بإطلاق عملية توحيد العالم العربي. أحياناً «تكون الشرعية أهم من القوانين».

ـ الاكسبريس: حتى ولو كان ذلك سيؤدي إلى نزاع معمّم؟

ـ جعيط: ميزة الحرب انها توضح الأمور، سواء بالنسبة إلى تناقضاتكم أو

مكتبة الفكر الجديد

بالنسبة إلى تناقضاتنا. وهذا التوضيح هو لمصلحتنا تماماً. ليس لدينا ما نخسره في هذه الحرب، ولو آلت إلى هزيمة. لأنها بفضل صدام حسين تجري على مستوى الوقائع: نفط، قوة عسكرية، إلخ.. وليس على مستوى الرموز كما في الماضي[١٦].

في مقدور هشام جعيط، تماماً مثل صدام حسين، أن يحوّل حتى أذلّ الهزائم إلى دليل على روح العروبة التي لا تقهر. وينجم عن ذلك بالتالي تحديد لمعنى كون المرء عربياً، الذي هو بحدّ ذاته تعزيز لتوكيد ميتولوجي سابق على «الهوية العميقة». والأساطير القديمة تغذّي «تنظيرات» جديدة تقوم على تأكيدات مستمدّة من الأمر الواقع، كأن يقال مثلاً «إن العنف يولد إيجابية تاريخية جديدة تجعل المرء ينسى الآلام القديمة والتضحيات الطوعية»[١٧]. فجعيط في غاية السعادة لرؤية عشرات آلاف العرب يقتلون من أجل استعادة أرض تاريخية. هل يمكن أن يكون قد اعتاد على أن ينظر إلى كتبه كتشريع نظري لما أراد صدام حسين إنجازه عملياً؟ إن التشكيك في الوقائع التي يقوم عليها صرح صناعة الخرافة هذا يتحوّل إلى عمل خيانة بمعنى ما، عمل ينم فقط عن كراهية الذات.

لقد غاصت الأمانة العامة لاتحاد الحقوقيين الفلسطينيين في العالم غير الواقعي ذاته عندما نشرت إعلاناً يحمل صورة صدام حسين في صحيفة «الدستور» الأردنية، بعد أسبوع كامل من انتهاء الحرب. وجاء في الإعلان «تأييد ومباركة بالنصر إلى سيادة الرئيس صدام حسين حفظه الله». وتابع الإعلان مشيداً بـ «صمودكم الأسطوري» للزعيم العراقي في وجه «مؤامرة الغزاة الأشرار»[١٨]. وكتب ناقد أدبي تونسي واصفاً الدمار الذي أنزله أوّل صاروخ سكود عراقي ببضعة مبانٍ في تل أبيب: «آه، يا لجمال هذا الدمار النبيل!»[١٩]. أما رئيس الوفد الأردني في محادثات السلام الجارية في ذلك الوقت كمال أبو جابر فكان أكثر تحفظاً وتنبوأ بأن الزعيم العراقي يسير نحو هزيمة عسكرية «لكنه سيظل بطلاً للسنوات الألف المقبلة. التلامذة سينشدون أغاني عنه والأمهات سيسمين أولادهن صدّام»[٢٠].

غير أن صدام لم يبق بطلاً لزمن طويل في نظر البعض. فقد قال الروائي والصحافي الأردني مؤنس الرزاز «إنها مأساة... ذلك الرجل خيّب ظني». إلاّ أنه أدرك ذلك متأخراً إذ أن والده منيف الرزاز، وهو بعثي أردني معروف، لقي حتفه في سجن عراقي بأمر من صدام حسين بتهمة مساندة «مؤامرة» مفتعلة عام ١٩٧٩[٢١]. وكان مؤنس الرزاز صرح خلال الأزمة وقبيل اندلاع حرب الخليج ان العالم العربي شهد منذ اتفاقية كمب ديفيد «كثيراً من الجبن... البطل دائماً يقدّم خيارين: إما أن يربح أو أن يخسر»[٢٢]. ويبدو أن

مكتبة الفكر الجديد

سمعة صدام حسين كانت تقوم على قوته المتصوَّرة الكاسحة ولم يتحوّل إلى خيبة كبيرة إلاّ بعد أن خسر المعركة.

لم يتحدّث الجميع عن قيم صدام الوحشية من دون أدنى تحفظ مثلما فعل جعيط وأبو جابر، بل ظل العديد من المثقفين متحفظاً حيال الزعيم العراقي[٢٣]. وكان الموقف الأكثر شيوعاً يقضي بدعم سياسته عملياً مع التبرؤ الشديد اللهجة من ممارساته الدموية. كتب رئيس تحرير صحيفة «جوردن تايمز» ومقدّم أحد أهم البرامج التلفزيونية الأردنية حيث تجري مناقشات حول الشؤون العامة وهو رامي خوري: «حتى لو ان العرب لم يدعموا بغالبيتهم اجتياح الكويت، إلا أن شجاعة صدام حسين في الوقوف في وجه أعدائنا... تناشد روح العالم العربي الجديدة ـ روح تقول إنه من الأفضل لنا أن نموت منتصبين بدل أن نعيش زاحفين على الأرض»[٢٤]. وفي سوريا كان عدد من مناصري الديموقراطية وإطلاق الحريات الأكثر حماساً، من أشد منتقدي المشاركة السورية في ائتلاف القوات المتحالفة[٢٥]. وبعد مضي فترة طويلة على انتهاء الحرب والانتفاضة واتضاح حجم الهزيمة التامة، أعلن المثقف اللبناني اليساري فوّاز طرابلسي باعتزاز أنه وقف إلى جانب النظام العراقي من غير أن يتنازل عن معارضته لـ «العلاقات القمعية» التي يقيمها مع شعبه[٢٦]. حتى المناضل الفلسطيني من أجل حقوق الإنسان جوناثان كتّاب وهو محام مسيحي من القدس الشرقية اعتبر صدام حسين حامل «نظام تحرير لاهوتي» جديداً. لقد رأى كتّاب ان صدام حسين بلا رحمة وهو لا يودّ أن يحكمه أبداً، إلاّ أنه يجسّد في نظره «شيئاً ثورياً ورائعاً يعبّر عنه بصرخة «الله أكبر» التي أفهمها كإيمان بإله عظيم، أعظم من الطائرات المتطورة... ومن كلّ قوّة للدول الثماني والعشرين التي هاجمت العراق»[٢٧].

غير أن أياً من ردات الفعل هذه لا تضاهي ردة فعل كمال أبو ديب، وهو أستاذ للأدب العربي في جامعة كولومبيا، والذي أدلى بدلوه في المعين العاطفي لعُدّة العقل الثقافية هذه. وأبو ديب واحد من أسرة تحرير المجلة النظرية الأدبية المجدّدة «مواقف»، وقد نقل إلى العربية كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد، إضافة إلى إنجازات أدبية عدة متميزة. نشر أبو ديب بعد انتهاء الحرب قصيدة نثرية بعنوان «صرخة في متاه» جاء فيها:

«لا نستطيع إلا أن نكون مع الوطن...

قد يكون الوطن طاغية متجبّراً... وقد يكون الوطن شرطياً تطاردنا كلابه الناهشة في كلّ شبر داخل الأسوار... وقد يكون الوطن كهف خيباتنا، ومذبح أحلامنا العذبة، وقبر توقنا لفضاء الكرامة والحرية والوعد. وقد يكون الوطن ألف شيء آخر فاجع وسيء.

مكتبة الفكر الجديد

غير أنه يظل، في جميع أحواله وأطواره، الوطن. ونظل لا نستطيع أن نكون إلا مع الوطن»[٢٨].

إن أسوار السجن هي استعارة ترمز إلى الحدود الوطنية. والمغزى الواضح أن هذا السجن هو العراق البعثي. ويحق لنا بالتالي الافتراض أن الكاتب لا تساوره أية أوهام حول نظام صدام حسين، وهذا هو بالتأكيد ما يريدنا أن نفهمه. لكن لماذا يرغب أي عربي في الوقوف إلى جانب مكان مريع كهذا، أو داخله، خصوصاً عندما يكون لديه هذا المقدار الضئيل من الأوهام حوله؟ لا يبدو من خلال القصيدة النثرية أن هذه الفكرة خطرت لأبو ديب. كان ملايين العراقيين ـ مثل أبي حيدر وعمر ومصطفى ـ يثورون على الطاغية أو يصوّتون بأقدامهم ويهربون من سجنه لحظة صدور تلك الأسطر في مجلة «الناقد» الثقافية الشهرية الصادرة من لندن. ويبدو أن أهدافهم والأسباب التي دفعتهم إلى التمرّد تبقى في نظر أبو ديب ورئيس تحرير هذه المجلّة ثانوية، بالنسبة إلى الحرص على البقاء على انسجام مع «الأمة».

ينمّ خطاب أبو ديب عن قلق ثقافي جوهري. ما هو ذلك الوطن الذي «لا نستطيع أن نكون إلاّ معه»؟ أبو ديب سوري وهو لا يقيم في العراق. كلنا يذكر انه كان يفترض بصدام حسين أن يقود الأمة العربية عندما احتل الكويت وعندما قصف إسرائيل بصواريخ سكود. أهذا هو الوطن العربي الذي كان يعنيه أبو ديب؟ لا، على الأرجح، لأن أبو ديب لا يحبّ صدام حسين. التفسير الأكثر منطقية أن وطن أبو ديب أسطورة. إنه سجن وحكاية خرافية في آن واحد. وبالتالي فإن حسّ أبو ديب بهويته الخاصة يبقى معلّقاً في فراغ اختلقه هو لنفسه.

تنطوي مقالة كهذه على حافز تصعيد موتي. فالمشاعر التي تعبر عنها تجمع بين القلق والإهتياج البدائي والانفصام الصريح في سياق تقليد لطم الصدور ذاته، كتب الشاعر الفلسطيني سميح القاسم عند اشتداد أزمة الخليج: «لن تحاول الأرض أن تنشق لتبتلعني. فلأحاول إذن أن أنشق لأبتلع الأرض»[٢٩].

أرى أن هذه مشاعر زائفة، مدمّرة للذات وقاسية في جوهرها. إنها زائفة لأنه ظهر جلياً أنها قائمة على كذبة، كذبة أثبتتها في لحظة الكتابة بالذات أعمال «السجناء» أنفسهم ـ شعب العراق ـ الذين أرغموا، بخلاف أبو ديب، على أن يكونوا داخل الوطن أو «مع الوطن». وهذا النوع من الكذب الفكري هو، إن استعرنا عبارة لميلان كونديرا، كالنظر «في مرآة الكذبة المجمّلة» والتأثر «حتى ذرف دموع من الرضا لرؤية صورتنا المنعكسة»[٣٠]. هذا التمسك بالكذبة العذبة التي يقوم عليها جميع الخلافات الحقيقية بين الناس هو أكثر ما يبعث على الحزن في ردّة فعل المثقفين العرب على أزمة الخليج.

مكتبة الفكر الجديد

والأهم من ذلك خطره العظيم. إن خطره عظيم لأنه يجري على حساب الحياة كما تعاش حقاً، وفي النهاية على حساب حياة الناس. كما لو أنّ خليل، أبو حيدر، عمر، مصطفى، تيمور وجميع الأشخاص الحقيقيين الذين نقلت كلامهم في القسم الأوّل من هذا الكتاب، غير موجودين، أو تم تحويلهم إلى أفكار نظرية مجرّدة. ذلك هو مصدر القسوة في هذه اللغة. ومثل شعر نزار قباني، فإن نسج الأساطير لدى أبو ديب وتعذيب الذات لدى سميح القاسم، يجريان على بعد مسافة هائلة من المشاعر الحقيقية للعراقيين والكويتيين، وهم يختبرون العالم الذي يكتب هؤلاء المثقفون عنه: كانت ثمة فظاعات تجري في كل مكان ولغة تتحدّث عن هذه الفظاعات، وكانت هوة سحيقة تفصل بينهما. تلك هي لغة قاسية، لغة لا تتخذ نقطة انطلاق لها آلام الناس المرغمين على العيش داخل سور السجن. بل على العكس، تعتبر معاناتهم ثانوية بالنسبة إلى أهمية ترك أسوار ذلك السجن بلد الأساطير، مصانة وتحت الحراسة.

لكن أكثر ردات الفعل إيلاماً في ما يتعلّق بأزمة الخليج صدرت عن أشخاص اتخذوا الدفاع عن حقوق الإنسان مهمة لهم. لقد شدد منصف مرزوقي رئيس رابطة حقوق الإنسان التونسية، وهي أهمّ منظمة من هذا النوع في العالم العربي، على أكاذيب وتحريفات «جنود الحرب النفسية» أي وسائل الإعلام الغربية «التي حسدناها وأعجبنا بها». وقال إن حديثها عن تدمير قوات التحالف لسلاح الجو العراقي «هو اليوم أضحوكة الجميع». ورأى أن الجيش العراقي خاض معركة شجاعة يمكن للعالم العربي استخدامها ليتبين بشكل أوضح حدود القوّة الغربية، كما رأى أن «عزم (الجندي العراقي) وتحديه وعنفوانه» صورة كلاسيكية لـ «الكائن البشري في مواجهة الآلة».

«إن سحق العراق الوحشي... لن يبدّل شيئاً. يمكن للواحد أن يتجرأ ويتحدّى التكنولوجيا. وإن لم تعد هذه الأخيرة ذات تأثير في النفوس، ماذا يمكن القول إذاً عن القيم؟

في حرب الخليج لم تخفق الاستخبارات والتكنولوجيا الغربية فحسب بل كذلك أخفقت مصداقية قيم الغرب الشهيرة. إن عقيدة [حقوق الإنسان]، لأنها بالتحديد عقيدة، تغرق على طول شواطىء جنوب المتوسط... ومن المفارقة أنه فقط بقدر ما نتمكن نحن العرب الديموقراطيين من الفصل بين المشروع الديموقراطي وقيم حقوق الإنسان وبين الحركة الوسطية الغربية يمكننا إنقاذ شيء ما من مدّ جميع الايديولوجيات»[٣١].

كلام مرزوقي ينبع من قلبه. إنه يكتب وكأنه على وشك الإقلاع عن جميع نشاطاته

مكتبة الفكر الجديد

والتخلّي عن مهنته. فبعد أن وضع نفسه وبالشكل التقليدي في موقع غير المؤيّد لصدام حسين، عمد إلى كتابة الفقرة تلو الأخرى لشتم الكويتيين الذين كانت مدينتهم قد نهبت للتو وحقولهم النفطية على وشك الاحتراق. كيفما نظرت إلى الأزمة، ومن أي الجهات، تظل مسألة «حقوق» الدول والشعوب مطروحة. هل يحرم الكويتيون الحقوق لمجرد أن مرزوقي يزدريهم؟ من الواضح أن أمراً ما معقداً للغاية يجري في ذهن هذا الرجل الذي كرّس حياته للدفاع عن الحقوق المدنية، وهو رغم ذلك عاجز عن إبداء ردة فعل تتلاءم مع هذا التعهد. قال جعيط إنه «أحياناً تكون الشرعية أهم من القوانين». هذه الحساسية المخيفة ذاتها هي وراء مفهوم مرزوقي لـ «الديموقراطية العربية». وخلال تظاهرة تأييداً للطاغية الأكبر في السياسة العربية الحديثة ناشد العراق أن يستخدم سلاحه الكيميائي(٣٢).

هشاشة الإنسان

يسود هذا الأسلوب في الكلام والتفكير وتحديد الأولويات السياسية الشرق الأوسط منذ وقت طويل. وقد بدأ يجتاح نطاق الإيديولوجيا بعد قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. في المشرق انقرض الليبراليون العرب، والشيوعية وهنت، فانحنت ثم ما لبثت أن انكسرت أمام هجوم القومية قبل فترة طويلة من انهيار النظام السوفياتي. من جهة أخرى لم تجد النضالية الإسلامية أية مشكلة مع اللغة في المقام الأوّل، ففكرة غرب جشع ينقضّ على العالم الإسلامي تعود إلى الحروب الصليبية. والقومية العربية والحركة السياسية الإسلامية لم تؤسسا أي تصوّر، ولو بدائي، لـ «الحقوق» السياسية، التي من أبسط أسسها الفصل المطلق بين مسائل المعتقد والحقوق والواجبات في الحياة العامة. ويبدو لنا أنى نظرنا ان مبدأ «حقوق الإنسان» في السياسة يضمحلّ في العالم العربي/ الإسلامي. لذلك كان شعار «المخطط الامريكي ـ الصليبي» في المنطقة منتشراً إلى هذا الحدّ في الخطاب الذي رافق الأزمة في الخليج(٣٣).

أثارت القومية العربية في تجليها الأخير مع أزمة الخليج لغز هوية أشد خطورة من الماضي، يتعارض كلياً مع حالة العرب الحقيقية، وخصوصاً المثقفين منهم. هذه الحالة هي في الواقع حالة شرذمة وتشظ، بغضّ النظر عمّا إذا كان المرء يكافح للبقاء على قيد الحياة تحت الحصار في جامعة بيرزيت، أو يكتب لمجموعة الصحف العربية في لندن وباريس، أو يلقي عظات من منابر الجامعات الغربية، أو يعيش في المنفى هرباً من أحد الأنظمة الكثيرة التي قضت على كلّ حس مدني في العالم العربي.

مكتبة الفكر الجديد

كتب الشاعر العراقي فوزي كريم عام ١٩٧٩، سنة هربه من عراق صدام حسين:

كلُّ شراع لمْ يعُدْ إليكِ يا مخافرَ الحدودْ،

لا باحثاً، سدى، عن المعنى

ولكنْ هرباً من المعاني السودْ،

فهو شراعي[٣٤].

قصيدة كهذه تسقط هاجس العروبة لدى جعيط وقلق أبو ديب البكّائي حول هويته، لأنها تقوم على احتفال الشاعر باختلافه وتفرّده. كريم تقبّل حالته كحالة «تشرذم». وقد فعل ذلك برقة بالغة. قصيدته فعل متواضع، فعل إقرار وتجدّد في آن. وفي غياب هذا التقبّل لطبيعة الحالة الإنسانية المركبة، الهزيلة وغير الأيديولوجية، تبقى كراهية مرضية متواصلة ومتفاقمة للغرب وإسرائيل محوراً تُعلّق عليه مفاهيم «عروبة» و«هوية إسلامية» أكثر وأكثر انحطاطاً. هذا ما يخيف في الورطة الحالية التي يعانيها العالم العربي. لا يهم في النهاية بأي طابع محلي تتسم الكراهية (مناهض للامبريالية، قومي عربي، قومي فلسطيني، أصولي ديني)، المهم أن كلّ هذه الأيديولوجيات قد انطبخت حتى التبخّر بتلك الكراهية الصافية لا يخالطها شيء.

قبل نصف قرن التقط ميشيل عفلق، الزعيم المؤسس لحزب البعث، جوهر ما أراد كريم الهروب منه بقوله ان «القومية حب قبل كل شيء»[٣٥]. وقد تحققت بعدها «جمهورية الحب» التي تحدّث عنها عفلق في عراق صدام حسين. فكروا بكريم كواحد من العراقيين العديدين الذين باتوا يسعون بائسين للهروب من معانقة هذا المقدار الكبير من الحب الخانق، وستدركون كيف ولدت حساسية عربية جديدة، حساسية يقوم منطقها على جحد النموذج القديم الذي ربط بين هويتي و«كيف أفكر» لابينها وبين «من أريدُ أن أكون».

كان الشاعر السوري الأصل أدونيس، ذلك المجدّد في أشكال اللغة العربية، أول من بدأ بتشييد دعائم أشكال أدبية جديدة لتبنى عليها عروبة من نوعية أخرى. ويعتبر أدونيس أحد أكثر الكتاب باللغة العربية تميّزاً اليوم. فقد تقصّى بكتاباته خلال الستينات المجال المعقّد بين الثقافة والسياسة. نقّب في تاريخ الفكر، شرقاً وغرباً، وسبر أغواراً نفسية وعاطفية حرص العديد من المثقفين العرب على تجنبها. عام ١٩٨٦ غادر بيروت ليعيش في باريس، بعد أن خالجه شعور بأن «شيئاً ما في العالم العربي قد مات» على ما قال[٣٦].

مكتبة الفكر الجديد

كان لصوته تأثير بالغ على شعراء أمثال كريم. هذا المقطع مثلاً هو من قصيدة كتبها عام ١٩٨٢ أثناء حصار بيروت:

... في زمانٍ

يُصارحني: لستَ مني

وأصارحهُ: لستُ منك، وأجهَدُ أن أفْهمَه

وأنا الآن طيفٌ

يتشرَّد في غابةٍ

داخل الجُمْجمَه[٣٧].

أن يدرك المرء أنه تحوّل إلى «طيف» لم يعد منتمياً في عالم يسوده العنف، إنما هي بداية الحكمة. وأوّل فعل إصلاح يكون الانتقال من إدراك وجود خلل ما إلى نوع جديد من التواضع العربي، تواضع يقوم على تقبّل الضعف البشري وهشاشة الطبيعة الإنسانية.

لقد اختار أدونيس طوال أزمة الخليج أن يلزم الصمت، معبّراً بذلك عن قلق أحسّ بوضوح أنه ينتاب الثقافة نفسها في ذلك الظرف العصيب. إنه بين قليلين من الذين شعروا أن أحداً لا يملك شيئاً جديداً يقوله، وهذا ما أثار فيه اضطراباً كبيراً.

إلاّ أنه نزولاً عند إصرار محرّر الصفحة الثقافية في صحيفة «القدس العربي» كسر صمته في ١١ آذار/ مارس ١٩٩١ في أعقاب حرب الخليج، فنشر مقالة بعنوان «الصلاة والسيف أو الديموقراطية المتوحشة».

يستهل أدونيس المقالة مؤكداً أن أزمة الخليج والحرب التي نجمت عنها ولدتا «خطاباً غربياً» جديداً حيال العالم العربي. ورأى أن هذا الخطاب «يستدعي إعادة التأمّل» في طبيعة العلاقة بين العرب والغرب. ولتصوير وجهة نظره استشهد أدونيس بمقالة لهانس ماغنوس انزنسبيرغر تنطوي على محاولة جريئة لإعادة إحياء المقارنة الشائعة بين صدام حسين وهتلر. كانت وجهة نظر انزنسبيرغر ان القاسم المشترك بين الرجلين حاجتهما الجامحة للتدمير الذاتي وعجزهما التام عن التمييز بين قدرهما الفردي الخاص وقدر مجموع العراقيين أو الألمان[٣٨].

خط التفكير هذا الذي عبر عنه أنزنسبيرغر، وهو كاتب ألماني من طليعة المثقفين الديموقراطيين اليساريين، لعب دوراً بارزاً في الحركة الطالبية الألمانية عام ١٩٦٨، رأى فيه أدونيس «درجة من المبالغة تصل إلى مستوى الخرافية». لا شك ان صدام حسين ديكتاتور

مكتبة الفكر الجديد

بغيض وكريه، لكن فكرة مقارنته بهتلر مبالغ فيها. والافتراض الضمني لحجة أدونيس أن هتلر «خاصتكم» كان بالتأكيد تجسيداً لكلّ الشرّ، لكن صدام حسين «خاصتنا» طاغية عادي. فضلاً عن ذلك، افترض أدونيس أن وحشية صدام حسين واقع معروف لكلّ العرب.

عندما تكون كلّ الأشياء بغيضة بشكل مماثل، عندها لا يعود أي شيء بغيضاً حقاً ويعجز المرء بكلّ بساطة عن التمييز. إلاّ أن التمييز هو جوهر الالتزام الإبداعي تجاه العالم.

أذكر أن شعوراً بالحزن اجتاحني لدى قراءة مقالة أدونيس، إذ كنت أنا أيضاً قد قرأت تحليل انزنسبيرغر. ومع أنه كان لدي بعض التحفظات (تصوّره للعراق كان «ألمانياً» جداً)، إلاّ أن انطباعاتي كانت معاكسة تماماً لانطباعات أدونيس. النقطة الأساسية في مقال انزنسبيرغر، والتي أخفق أدونيس في فهمها يقضي بدمج ظاهرة صدام حسين في تجربة بلاده الخاصة (ألمانيا) في ما يتعلّق بالشرّ السياسي. وهذا فعل تواضع. أن نقرأ انزنسبيرغر ونتقبّل في صميم كياننا واقع تجربة العراق في عهد حزب البعث كانت يعني أن نفهم الطابع المشترك والعام للوضع البشري، ونرفض تقسيمه السطحي إلى شرق وغرب، أو شمال وجنوب، أو عرب ومناهضين للعرب. أدونيس أخفق في هذا الاختبار. وواضح أن هذا الإخفاق لا علاقة له إطلاقاً بالنزاهة الشخصية ومعرفة النصوص الكلاسيكية أو الفكر الحديث، وهما مجالان يحظى أدونيس فيهما بإلمام كبير. أخفق أدونيس في تبيّن ما كان انزنسبيرغر يعنيه حقاً لأنه لم تكن مشاعره على استعداد لفهمها. إن عقداً عاطفية كهذه هي التي تشكل العقبة الكبرى في وجه ظهور تفكير سليم عن الهوية، يعانق «الآخر» بشكل تام.

العديد من العرب يدرك أن خطأً ما فظيعاً قد حصل في العالم العربي. يتحدّث جعيط عن نظام عربي «فاتر، كئيب وفاسد عملياً»؛ أبو ديب يكتب عن السجون، أما أدونيس، الذي ينتمي إلى فئة مختلفة تماماً، فاختار الصمت. لا يكفي لسوء الحظ أن يدرك المرء أن ثمة خطأ ما، لأن هذا الإدراك يمكن أن يؤدي إلى استنتاجات مثل أن «ميزة الحرب انها توضح الأمور». وكان عدد كبير من العرب ما زال يدافع عن تلك التفاهة المخيفة حتى بعدما كان من المفترض أن حقائق مريعة كثيرة اتضحت كلياً ومنذ وقت طويل. إن سياسة اليأس التي يتبعها جعيط وأبو ديب مشبعة بالعنف والكراهية والمرارة، ممّا يثير استنتاجات يائسة كأن يقال مثلاً «ليس لدينا ما نخسره في هذه الحرب»، ويؤدي إلى رفض حتى القواعد الأخلاقية البديهية المشتركة مع الأكراد أو اليهود أو السنّة أو الشيعية[٣٩]. والنتيجة هي دائماً المزيد من القتلى العرب والمسلمين.

مكتبة الفكر الجديد

إن قومية الكثيرين من المثقفين العرب «المناهضين للامبريالية» والمنفتحين على الثقافات الأخرى، لا تحاكي اليوم سوى المشاعر الأساسية المرتبطة بتلك الكومة المتزايدة من الجثث. إنها عاجزة في الوضع التاريخي الحالي ـ وليس دائماً أو طوال الوقت ـ عن تخطيها، لأنها معادية في العمق لتقبل مفهوم للحقوق الإنسانية الفردية في السياسة لا يقوم على مقاييس مزدوجة. وهذا النوع من القومية لم يظهر فجأة، من لا مكان، بل هو مزيج متشكل عبر التاريخ من المشاعر والتقاليد التي تعود إلى دور العرب التاريخي في ظهور الإسلام وانتشاره. والقومية العربية، كالإسلام، لن تزول.. إنها جزء مكوّن من الثقافة، وليست إيديولوجية سياسية صريحة. إنها «لا تعكس إرادة جمعية توافقية بقدر ما تعكس «ثقافة إجماع» ذات دلالات لاهوتية تكثيف اللاوعي العربي الجماعي»[٤٠].

عندما وصف الشيخ أسعد التميمي زعيم حركة الجهاد الإسلامي في الأردن (ومناصر قوي لإيران إبان الحرب العراقية الإيرانية) «عودة» صدام حسين للإسلام بأنها «نقطة حاسمة في اليقظة الإسلامية» التي عرفتها الثمانينات، فإنه التقى مع أشخاص مثل جعيط وأبو ديب وكتّاب وخوري على المستوى الثقافي ـ التاريخي ذاته[٤١]. أما أن يرتبك أشخاص منفتحون على الثقافات الأخرى ولا سيما الثقافات الغربية إزاء إعجاب الشيخ بالخميني ورغبته بإرجاع عهد الخلفاء وتنصيب صدام خليفة فذلك خارج عن الموضوع. فالثقافة هي الميدان الذي التقى على أرضه الشيخ أسعد والمثقفون القوميون خلال أزمة الخليج في سنتي ١٩٩٠ و١٩٩١، تماماً مثلما يلتقون مع نزار قباني في مجال الأفكار المقولبة، رغم موقف قباني الشخصي المشرّف إزاء المعاناة الكويتية أثناء الأزمة. ولطالما استمدت القومية قوة كبيرة من وجود ميادين مشتركة كهذه مع الإسلام أو مع تقليد عربي بدوي من عهد ما قبل الإسلام ألا وهو الهجاء. لذلك تمكنت من الاستمرار طيلة هذه الفترة ومن تجديد نفسها المرة تلو الأخرى.

كذلك فإن الثقافة هي الميدان الذي ينبغي فيه لهذه المشاعر والتقاليد إعادة التشكيل لتنسجم، مستقبلاً، مع صورة أقلّ قسوة للوضع العربي، صورة تقوم على فكرة حقوق سياسية فردية لا تنتهك.

يجب ألاّ نعتقد أبداً أن المشاعر التي تقوم عليها القومية الثقافية هي مشاعر العروبة وحدها (سواء الناصرية أو البعثية أو أي نوع آخر من القومية العربية). الأشكال السياسية التي تتخذها هذه المشاعر مطاطة جداً. في الأمس كانت تدور حول ساطع الحصري، أو ميشيل عفلق، أو عبد الناصر، والمثال الأعلى الرومنطيقي الذي تلخّص في شعار «أمة عربية واحدة». في أعقاب الثورة الإيرانية تحوّلت المشاعر والعواطف ذاتها التي ولّدت

مكتبة الفكر الجديد

الحركة البعثية إلى الدعوة لإعادة إحياء الإسلام، وإذا بمثقفين علمانيين سابقين يكتشفون من جديد الواحد بعد الآخر الإسلام السياسي (أذكر على سبيل المثال الماركسيين السابقين المصريين محمّد عمارة وعادل حسين). وإبان أزمة الخليج تمحور الشعور القومي الثقافي حول الكراهية للغرب والاعتزاز بتجسيد صدام القوة العربية ـ الإسلامية. ومن المحتمل أن تتحوّل هذه المشاعر غداً إلى كراهية ضارية لـ «الصنف السيء» العربي ذاته.

عالم المواقف وردّات الفعل العاطفية والصور الثقافية هذا ليس بحاجة إلى أيديولوجيا سياسية صلبة البنية ليظهر في الخطاب والحديث الفكري. كلّ ما يحتاجه الأمر هو «قضية» ما لينبجس هذا المزيج العاطفي العديم الشكل وينكشف علانية. في ١٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠ كانت الكويت هذه القضية. وفي أقلّ من أسبوعين التحمت، بفضل عملية «الربط»، الكويت بالمسألة الفلسطينية. إن الجملة الأكثر شؤماً في مقابلة جعيط ـ «الشرعية أهم من القوانين» ـ كانت شعوراً يشاطره إياه كلّ عربي لم يكن في مقدوره أن يرى مبرراً لكلّ هذه الجلبة حول الكويت، لكنه كان يرى فقط ظهور مخطط غربي ضخم جديد ضدّ العالم العربي.

مكتبة الفكر الجديد

٨ ـ خرافات قومية جديدة

شكّلت أزمة الخليج على حد تعبير المفكر العقلاني المصري فؤاد زكريّا «أزمة فضح»[1]. فهي كشفت الستار عن وهم الهوية القومية المتشكل على مدى التاريخ. حتى إقدام صدام حسين على اجتياح الكويت في آب/ أغسطس، كان الجزء الأكبر من قوة هذا المزيج من التقاليد والتاريخ والدين يبدو وكأنه تبدد في الاستياء المريض الذي عبّرت عنه المجموعات المتطرّفة المناهضة للغرب بسياساتها المفعمة بالتفتيت. كانت المظاهر خادعة لأن عناصر متقلّبة مختلفة لم تكن قد تماسكت بعد في شكل متجانس. إلاّ أن تحرّك الزعيم العراقي وردّ الرئيس جورج بوش أدّيا إلى بلورة هذه التيارات الخفية في انفجار عاطفي استثنائي. تلاشت الخلافات بين القوميين والإسلاميين والماركسيين والديموقراطيين أمام تهديد الغرب الذي شعر به الجميع. وبغض النظر عمّا كان يمكن أن يكونه رأي جميع هؤلاء المثقفين في اجتياح صدام حسين للكويت لو لم يتدخّل الغرب، فإن النقطة الأهم هي أن أحداً ما كان ليثور ويغضب بشأن الكويت مثلما فعل إثر تدخل الولايات المتحدة وأوروبا الغربية.

صدام كشف عن خطاب ينبغي التشديد على أنه ليس من ابتكار الفلسطيني العادي في الأراضي المحتلة المعاني من إذلال يومي على يد الجيش الإسرائيلي. وليس من ابتكار المواطن العراقي المتوسط الذي شُوّهت نفسيته بكاملها عبر الخوف، ولا من الكويتيين الذين عاشوا سبعة أشهر من الاحتلال المريع. هذا الخطاب ـ سواء كان مبتكروه يعون مفعوله أو لا ـ لا يكترث للمشكلات الحقيقية التي يواجهها الفلسطينيون تحت الاحتلال وهو غير مسؤول تجاهها، تماماً كما كان غير مبالٍ بأشخاص مثل خليل وأبي حيدر وعمر ومصطفى وتيمور الذين أبدى قسوة صريحة تجاههم.

هذا الخطاب ابتكره وأعاد ابتكاره أناس من أمثال كمال أبو ديب ومحمود درويش

وهشام جعيط وإدوارد سعيد ورامي خوري ومحمد عابد الجابري وجورج طرابيشي وعبد الرحمن منيف وعدد كبير من أشهر كتّاب وفناني العالم العربي وأكثرهم موهبة[٢]. ابتكره أشخاص ملتحقون بجامعات في داخل العالم العربي وخارجه، وآخرون هم صحافيون أو يكتبون لصحف تصدر في لندن وتظهر في اليوم التالي في شوارع الرياض وبيروت والجزائر وباريس وواشنطن. صدام حسين كشفنا جميعاً. وقد فعل ذلك بإرغام كلّ منا على تبنّي موقف سياسي حيال ما فعل. هذا ما فضح كلّ جهاز التهرّب والتخفي خلف القشور المعقّدة والذي نستخدمه كلّنا للاستمرار في الحياة اليومية. كشف المواطن العربي أمام أخيه في العروبة وهو في عريه التام، وذلك في ثقافة تشدّد على العار وتشمت بالعري.

إزاء ما تحوّل إلى طوفان قومي، وعلى ضوء ما نعرفه عن النظام في العراق، لا يسعني سوى أن أصف هذا الثوران بأنه انفجار هستيري جماعي يمثل أعمق المشاعر التي تساور معظم المثقفين العرب المكرّسين. وذلك ينطبق بصورة خاصة على أولئك الذين تشكلت آراؤهم السياسية إثر هزيمة الجيوش العربية المنكرة في حرب ١٩٦٧.

ومن ضروب السخرية أن العديد من هؤلاء الكتاب وواضعي الآراء بلغوا النضج الفكري عبر مهاجمة خطاب سابق في السياسة والثقافة أثبتت هزيمة ١٩٦٧ بطلانه وكان مرتبطاً بزعماء أمثال جمال عبد الناصر وأحمد الشقيري وميشيل عفلق. ورغم ذلك، فإن أساليبهم في وصف العالم سقطت في النموذج ذاته الذي كانوا يظنون أنهم تخطّوه. وذلك ينطبق بصورة خاصة على المثقفين الفلسطينيين، وخصوصاً من كان مقيماً منهم خارج الأراضي المحتلة (لأنها الأكثر حرماناً من جهة، ومن جهة أخرى بسبب انهيار بيروت، قلب الحداثة الثقافية في المشرق).

لقد رأى رشيد الخالدي من جامعة شيكاغو أن «الدعم الفلسطيني لاجتياح الرئيس العراقي صدام حسين للكويت في آب/ أغسطس ١٩٩٠... أكثر تدقيقاً والتباساً وغموضاً ممّا وُصف»[٣]. إلاّ أن مشهد ما كان يسمى بـ «طليعة» الثورة العربية وهو ينضمّ بحماسة إلى صفوف أكثر دكتاتور في العالم العربي الحديث بربرية، مسألة ينبغي مواجهتها بشكل قاطع ولا يمكن محوها بميول اعتذارية صادرة عن قلوب واهنة.

لقد تشكّلت في الخطاب المناهض للامبريالية خلال أزمة الخليج مجموعة من التأكيدات والافتراضات المنفصلة والمتشابكة. ولم يقم اثنان من مستخدمي هذا الخطاب يوماً بالتشاور أو الاتفاق في ما بينهما على الوزن النسبي الواجب تحميله لكل من هذه التأكيدات والافتراضات. إلاّ أن مجموع هذه المواقف يشكّل نظرة متماثلة للعالم،

مكتبة الفكر الجديد

والأهم من ذلك، طرقاً متشابهة لترتيب الأولويات السياسية. هذه اللغة لا تعتبر في أي من الأحوال مجرد نظرة عروبية للعالم، بل هي خطاب قومي حديث، يقوم على أسس عربية إسلامية على الصعيد الثقافي، لكن يمكن كذلك للمسيحيين العرب اعتناقه، كما قد يستخدمه الشيعة والسنّة من العرب على حد سواء. ويشارك في هذا الخطاب جميع العرب من مختلف الفئات، بغض النظر عن طول الفترة التي أمضوها في الغرب، وسواء كانوا من المتكلمين بالعربية أم لا، بمن فيهم حتى أولئك الذين يشدّدون على طموحات سياسية مختلفة تماماً (دولة فلسطينية، سوريا الكبرى، لبنان محرّر من الهيمنة السورية، أو امبراطورية إسلامية عربية جديدة).

هذا الخطاب أضاف مجموعة من الخرافات الجديدة إلى المعجم القومي العربي الذي تشكل وتطوّر منذ ١٩٦٧:

١ ـ الأزمة كابتكار أميركي

يعتقد سمير أمين الاقتصادي المصري اليساري أن قرار تدمير القدرات العسكرية العراقية «اتخذته واشنطن وتل أبيب حوالى شهر أيار/ مايو ١٩٩٠»، ونحن «نعلم على نحو شبه أكيد الآن أنّ (اجتياح الكويت) كان فخاً نصبته واشنطن»[٤]. ومن جهته اعتبر محمد حلاج، وهو نائب رئيس سابق لجامعة بيرزيت التي تتخذ من العاصمة الأميركية مقرّاً حالياً لها، ان «هناك دلائل توحي بأنّ الحملة لضبط العراق بدأت يوم انتهاء حربه مع إيران في ٨ آب/ أغسطس ١٩٨٨»[٥]. ولم يكشف أي من أمين أو حلاج مصادره. والمطلوب منا تصديق ادعاءاتهما بمجرّد الوثوق بهما. أما إدوارد سعيد، الأستاذ الجامعي في جامعة كولومبيا، فلم يقع في فخ اختيار التواريخ، وكتب ان صدام حسين «تلقى شبه دعوة لدخول الكويت»[٦].

في غياب أية دلائل داعمة، فإن الكلمات مثل «شبه» وجمل مثل «هناك دلائل توحي بأن» تبعث رائحة مؤامرات كبرى، في حين تدعي البراءة بصورة مخادعة. لكنّ برهة تفكير ينبغي أن تكون كافية لإقناعنا بأن صدام حسين لم يطلب إذناً من أحد عندما اجتاح الكويت في ٢ آب/ أغسطس. فهو قبل أي شيء مصاب بجنون العظمة مما لا يسمح له بالاستئذان. إلاّ أن قلوب هؤلاء السادة لا تدعهم يجهرون بما تنبئهم به عقولهم المتسرعة. من هنا تنبع التوضيحات والاستطرادات التي تكون أحياناً كافية، بحد ذاتها، ليتسم مطلقوها بانعدام المسؤولية.

ذهب مصطفى الفيلالي، وهو أحد كبار موظفي الدولة التونسيين، إلى أبعد من ذلك

مكتبة الفكر الجديد

بدرجة، إذ أكد تأكيداً جازماً جاء فيه «لعلّه سيتضح بالقرائن الثابتة [التي يقرّ بأنها غير موجودة بعد] ان جذور [حرب الخليج] راجعة إلى بداية الثمانينات وان التخطيط لتفجيرها نشأ غداة اتفاقية مخيّم داوود... ولا نغالي إذا اعتبرنا أن العراق كان مستهدفاً بالذات»(٧). يطلب منا الفيلالي هنا تقبل فكرة أن الولايات المتحدة منحت العراق مساعدة عسكرية خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية (بهدف مساعدته على الانتصار في هذا النزاع) وهي خططت في الوقت ذاته لتدمير الوحش الذي ولّدته(٨).

تلك ليست حججاً، بل هي مزاعم غير مدعّمة بالوثائق، تنبع من مفهوم تآمري للسياسة وتحرّكها كراهية عاطفية للغرب، مستمرة برغم الانتقاد الذي يوجهه الواقعون في أسرها للنظام العراقي. ولسوء الحظ، فإن إعطاء تواريخ وذكر تلميحات إلى أن زعماء «تلقوا دعوات» لاجتياح دول يستلزمان ممثلين فعليين وإرادة واعية. وقدرة الحجج على الإقناع هو في قيامها على وقائع، لا على نظريات حول مؤامرات كبرى أو مخططات معقدة لكيفية عمل الامبريالية في العالم. كذلك فهذه الحجج تقوم على الافتراض أن الزعيم العراقي إنما هو دمية أو أحمق، أو أن الولايات المتحدة تتمتع بسلطة مطلقة تفوق قوتها حماقته. وكلّ ذلك ينطوي على إنكار ضمني، إنما ثابت، لمدى القدرة على المبادرة التي يتمتع بها زعماء كصدام. وأي عراقي ناشط على الصعيد السياسي ويعيش في ظلّ النظام البعثي، سينتهي ميتاً إن قلل من شأن النظام على ذلك النحو.

إن المعنى الخلقي لمعارضة للسياسة الأميركية خلال أزمة الخليج على نحو هذه المعارضة، يتعارض تعارضاً مذهلاً مع مقالات كمقالة كريستوفر هيتشنز «لماذا نحن عالقون في الرمال». فالمقالة ترى إلى ما صرّحت به السفيرة الأميركية ابريل غلاسبي «إيحاء» لصدام حسين، خلال لقائهما الشهير المنعقد في ٢٥ تموز/ يوليو ١٩٩٠، بأن الولايات المتحدة لا تعارض إعادة رسم العراق حدود الخليج.

تقوم بنية هذه المناظرة عضوياً على انعدام مطلق وأوهام لدى هيتشنز تجاه النظام البعثي، وذلك يتعارض تماماً مع الأمثلة التي أوردتها سابقاً. (في حين يرسم هيتشنز تاريخ الاضطهاد العراقي للأكراد والخيانة الأميركية لهم، يشكّك إدوارد سعيد مثلاً في كون النظام العراقي قصف المواطنين الأكراد بالقنابل الكيميائية. إضافة إلى ذلك، اختار سعيد التشكيك في هذه المسألة في وقت كان العراقيون يثورون على نظامهم ويواجهون خطر القنابل الكيميائية من جديد)(٩). وبالتالي، فإن تحديد بداية قضية الخليج برمتها، بحسب هيتشنز، مرتبط بسؤال واقعي: ماذا حصل بالضبط خلال اللقاء بين غلاسبي وصدام؟

مع ذلك، أعتقد ان هيتشنز أخطأ بتحميل كلمات غلاسبي وصدام وزناً أكبر مما

مكتبة الفكر الجديد

تحتمل. ففي هذه الظروف الدبلوماسية، يقضي جزء من لعبة الإيماءات والتلميحات التي يحلّ هيتشنز خيوطها بأن يقوّل السفراء ما يريد الطرف الآخر سماعه، وأن «يسمع» رؤساء من نوع صدام ما يريدون سماعه.

تستند مناظرة هيتشنز على افتراض أن «غلاسبي كانت تتكلّم بموجب تعليمات»، مما يعني أن وزارة الخارجية الأميركية كانت على علم بنوايا صدام قبل الاجتماع. وإن كان ذلك صحيحاً، فإن قوانين اللعبة نفسها تقترح بالتأكيد طرقاً أقل تورطاً في إعطاء صدام «إذناً بالإيماءات والإشارات» من أن تقول له غلاسبي «أعتقد أنك تعلم جيداً أننا نحن كشعب لدينا تجربتنا الخاصة مع الاستعماريين»[١٠].

إن معارضة مبدئية لحرب الخليج لا تستلزم: (أ) نفي توجيه النظام العراقي أسلحته الكيميائية ضدّ مواطنيه، (ب) اختراع تواريخ لإثبات أن الولايات المتحدة لم تبدأ القتال على الأرض فحسب (وقد فعلت) بل كذلك أرسلت العراق إلى الكويت (وهذا ما لم تفعله)، (ج) إضفاء منطق على ما حصل في الكويت في حين كان خطوة مجرّدة من أي منطق[١١].

لماذا أدلى هذا العدد الكبير من العرب بتصريحات وتوكيدات لا تثبتها أية دلائل؟ في الأمر شيء يتعدّى تقدير الزعماء أو الاستخفاف بهم، شيء يدعى تحويل المسؤولية. يقوم المثقفون العرب بإزاحة المسؤولية بعيداً عن الطرف الذي يتحمّلها بشكل واضح، أي دولة العراق البعثية، إلى الولايات المتحدة. وبذلك يكون أولئك الناشطون المناهضون للحرب الذين تحرّكوا بدافع المعارضة لكلّ ما قررت الدولة الأميركية القيام به، وهي معارضة يمكن فهمها على الصعيد العاطفي لكنها كانت رغم ذلك ردة فعل لاإرادية، قد خدموا بغير علمهم أسوأ أنواع الاستبداد[١٢]. هل كانت أهداف الذين قاموا بإزاحة المسؤولية «موضوعية»، أم أنهم أرادوا تبرئة المذنب؟ و«مصالح» أي طرف خدمها هذا التحويل؟ يظهر جلياً أن مصالح المعتدي هي التي خدمها هؤلاء المثقفون سواء بقصد أو بغير قصد.

٢ ـ صدام كضحية

يتسع نطاق الرهان عندما يطرح شخص مثل فواز طرابلسي فكرة أن صدام «حتى كضحيّة، وافق على لعب دور المجرم». ماذا يعني طرابلسي بذلك؟ لقد قال في مقالة نشرت له عام ١٩٩١ ان «العراق كان خارجاً للتو من حربه مع إيران بطاقة عسكرية من النوع الذي يمكن أن يبدّل ميزان القوى الإقليمي في ما يتعلق بالدعامتين المحليتين للهيمنة الامبريالية: إسرائيل وأنظمة الخليج النفطية. بات من الضروري... تدمير قدراته العسكرية

مكتبة الفكر الجديد

والاقتصادية. ردّ الزعيم العراقي باجتياح الكويت»[١٣]. أي بكلام آخر، اختار صدام الانتحار السياسي، ملبياً بذلك إحدى أعمق رغبات الامبريالية الأميركية. هنا يصل إنكار أي قدرة عربية على المبادرة السياسية المستقلة إلى مستوى عبثي.

كلّ الدلائل، حتى أصغرها، يشير إلى العكس، إلى أن الولايات المتحدة بنت صدام حسين حتى اللحظة الأخيرة ليكون حليفاً استراتيجياً لها في المنطقة في وجه إيران. لم تكن هناك نية أميركية في تحجيم الدكتاتور العراقي، حتى مفاجأته الجميع بدخول الكويت. إلاّ أن طرابلسي يبقى رغم ذلك أعدل من بعض الكتاب والمثقفين الآخرين. فهو منح صدام على الأقلّ لحظة من القدرة على الخيار الحقيقي والمبادرة المستقلة، مهما اكتسبت حركته طابع ردة الفعل، واعتبر ان اجتياح الكويت كان خطأً. لا نجد أياً من ذلك لدى هشام أحمد، وهو أستاذ مساعد في العلوم السياسية بجامعة نورث داكوتا. فهشام أحمد أعتبر أن الولايات المتحدة كانت مصممة قبل ٢ آب/ أغسطس على حرمان العراق من «حس الكرامة وإحباط قوميته المزدهرة»، وهو يرى أن العراق كان سيستهدف سواء نشب خلاف مع الكويت أم لا[١٤].

لقد طرحت فكرة أن الغرب كان سيحطّم العراق في مطلق الأحوال لأنه بات قوياً جداً في سيناريوهات عدة، أكثرها شيوعاً أن الولايات المتحدة صنعت مغفّلاً عربياً يدعى صدام حسنين وأقامته حصناً في وجه إيران (أو لأهداف امبريالية استراتيجية أخرى). ثم بعد أن قرّرت وجوب رحيل الدكتاتور المحلي ـ والمنطق خلف ذلك يبقى ضبابياً مبهماً في أذهان مؤيدي الأسطورة ـ حولت مخلوقها إلى شيطان واعتبرته «تهديداً خارقاً عن الطبيعة يشكل خطراً على العالم بأسره»[١٥]. لا شك أن المبالغة إلى حد لا يصدّق في حجم القدرات العسكرية للنظام العراقي خدمت مصلحة الولايات المتحدة والدول المتحالفة. لكن في غياب أي نقاش حول التهديد العظيم الذي شكّله صدام حسين للمنطقة ـ خصوصاً للعرب الآخرين ـ فإن هذه النقطة تنقلب إلى نقيضها ويصبح الكلّ ضحية بمجرد أن أي طرف على علاقة بالولايات المتحدة.

في مجال الشعر، كتب الشاعر اللبناني أنسي الحاج «طبعاً غزو الكويت خطأ. والحكم العراقي ليس حبيباً على قلب الأحرار والديموقراطيين.... طبعاً طبعاً». ثم يلوم نفسه على طرح أسئلة غبية كهذه حول العدالة. ويقول «ما تساؤلاتنا هنا في الواقع غير برهان على سذاجتنا. على سخافة براءتنا في العصر الأميركي الذي يحتقر الحقيقة ويحتقر الضعفاء ويكره الأكثر منه عراقة والأعمق جذوراً في التاريخ. وما أغبانا نتساءل ونتألم عوض أن نقتل». واعتبر أن الأميركيين يقتلون بواسطة «القوة الغاشمة لا أية قوة

مكتبة الفكر الجديد

كانت. ولكننا نحن (العرب) نكتفي بالقتل في خيالنا. نكتفي بأن نلعن ونموت»[١٦]. شعور المرء بأنه ضحية هو كالبلسم المسكّن.

لقد عمل أنسي الحاج رئيس تحرير للصفحة الثقافية في صحيفة «النهار» اللبنانية. وهو فرنسي الثقافة، من فئة المسيحيين اللبنانيين الذين كانت مساهمتهم كبيرة في تحديث الفكر العربي في أواخر القرن التاسع عشر، لكنهم تحوّلوا عن خطاب القومية العربية بعد الحرب العالمية الثانية. وبحسب ما يعترف به، فهو يحسّ بإلفة مع بودلير، إدغار آلان بو، الحركة السوريالية، بروتون، نوفاليس، إيلوار، والت ويتمان، تشارلي تشابلن، وهنري ميلر. لكن في المقالة ذاتها حيث يعدّد كل «العظماء» الغربيين الذين تأثر بهم، يلقي الحاج تبعة الحرب الأهلية اللبنانية على السياسة الأميركية الماكيافيلية «التي تبيعنا في أسواق المقايضات والصفقات»، والتي «سجلت نجاحاً باهراً في إلحاق لبنان بركب البلدان المفلسة والجائعة والمدمّرة بعدما كان رغم مشكلاته الكثيرة زينة العرب والشرق»[١٧]. يبدو وكأن اللبنانيين لم يكن لهم أية علاقة بما حصل لبلدهم.

كلام كهذا يطلعنا على أمراض ثقافة أكثر مما يطلعنا على الحدث الخطير الذي أوحى به. والأعراض المرضية ذاتها تقيم في قصة مروان أرندس، وهو طالب جدّي في جامعة الأردن، لم يكن ينتمي إلى أي تنظيم فلسطيني. لكن بعد التخطيط الدقيق، وفي حين كانت حرب الخليج جارية على أشدّها، قام مروان بعملية انتحارية عبر نهر الأردن، كان هدفها قتل أكبر عدد ممكن من الإسرائيليين. ونجح هو واثنان من رفاقه بعدم قتل أحد، لكنهم قتلوا هم. فقال طالب آخر في حفل أقيم لإحياء ذكراه في قاعة غاصة بالحاضرين في عمان «على الأقل، لقد فعل شيئاً»[١٨].

لسوء الحظ، فإن اللغة التي ارتد إليها الحاج وجدت في الثقافة موطىء قدم راسخاً لها. فقد تحول الشعور بأن المرء ضحية إلى ما يشبه شكلاً فنياً عربياً جديداً، من غير أن يدرك أحد على ما يظهر أن هذا أخطر ما يمكن ابتكاره للقضاء على التضامن مع الآخرين (وإن تم تطويره إلى حدود أبعد، فهو يدمّر حتى احتمال قيام حكومة شرعية، ويحلّ التشكيك محل الثقة في كلّ أمر سياسي).

على أن ما حصل عام ١٩٤٨ من انتزاع للحقوق الفلسطينية يعتبر عاملاً أساسياً في تعميم هذه اللغة على الثقافة. فقد بات هذا الإنتزاع بالنسبة إلى السياسة العربية كالمحرقة اليهودية بالنسبة للسياسة الإسرائيلية: صورتان معكوستان لبعضهما البعض وأيضاً لأعراض يتبارى بموجبها الظالم والمظلوم في دوامة من الارتياب المتصاعد لا يمكن الفرار منها على ما يظهر.

مكتبة الفكر الجديد

تحوّلت المأساة التاريخية لكل من اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين العرب إلى إعلان وفاء لا نقاش فيه، يشكل عنصراً أساسياً من جوهر الهوية. والقوى ذاتها التي كانت تحرّك جميع الطوائف اللبنانية خلال الحرب الأهلية تنشط اليوم بين الأكراد والشيعة العراقيين. إلاّ أن الهوية يجب أن تتخطى الذاكرة حتى لا تغوص في مستنقع الماضي، فتتحوّل إلى نظرة مريضة للعالم لا تتسع لآلام الآخرين. فإن انحلّ العراق ككيان سياسي موحّد بعد رحيل صدام حسين، فذلك إنما ينجم عن أن القيمة السياسية العربية الجديدة، أضحت تتجسّد في انعدام التعاطف مع الآخرين.

٣ ـ صدام كبسمارك

خلال الأزمة اعتبر الرأي العام في الأردن والأراضي المحتلة والمغرب صدام حسين مخلصاً مثل صلاح الدين[١٩]. «علم الآثار يسارع لمساندة التحرّر»، كما قال جاك بيرك عندما كان جمال عبد الناصر يجسّد بدوره الخلاص[٢٠]. إلا أن جورج طرابيشي، مترجم أعمال فرويد وتروتسكي إلى العربية ومؤلف حوالي عشرين كتاباً هاماً، هو من اضطلع بتبيان كيف أن الطاغية العراقي هو بسمارك عربي. فجانوس[*] له وجهان: أحدهما ينظر إلى العالم بصفته «ضحية»، وفي الوجه الآخر هو رجله القوي «الحديدي القبضة».

فبعد أن ذكّر قراءه بتاريخ توحيد ألمانيا «تحت القبضة البسماركية»، تابع طرابيشي ان «ما حدث في الخليج (في ٢ آب/ أغسطس) لم يكن خياراً بين وحدة أوتوقراطية وتجزئة ديموقراطية، بل كان خياراً بالأحرى بين وحدة وتجزئة تحملان كلتاهما وصمة الأوتوقراطية. وليس لأحد أن يماري في أن وحدة ديموقراطية خير بألف مرّة من وحدة أوتوقراطية. ولكن أليست وحدة أوتوقراطية خيراً بمرّة واحدة على الأقل من تجزئة أوتوقراطية؟... ما حدث في الخليج إذن، أياً ما تكن البواعث الذاتية لفاعله القطري (العراق)، هو فعل قومي»[٢١].

إن مفهوم العروبة المعني هنا مرتبط بالرغبة في أن يكون المرء «متفوّقاً على» أو «أعلى من» أو «أكبر من» امرىء آخر. أما في حال الفيلسوف المغربي محمّد عابد الجابري أو المؤرخ التونسي هشام جعيط، وكلاهما يرفض أي نقد للبعثية، فتبدو العروبة لا أخلاقية بشكل كلّي وصريح[٢٢]. والأمر نفسه ينطبق على تفكير الياس خوري الروائي اللبناني

(*) ملاحظة المترجم: جانوس إله روماني، ولأن معبد جانوس كانت له بوّابتان، أصبحت هاتان البوابتان دلالتين رمزيتين على أي شيئين متناقضين معاً، وغالباً: الحرب والسلم.

مكتبة الفكر الجديد

المعروف بكتابه «الجبل الصغير». فهو برّر عمل صدام حسين مستخدماً فكرة لافتة هي أن الكويت قبل اجتياح صدام حسين لها كانت «محتلة» تماماً مثل فلسطين، لأن حكامها وظفوا ثرواتهم خارج العالم العربي و«تنفذ» سياسات القوى العظمى[٢٣]. ورأى خوري أن «القوة العربية» تكمن في إعادة الكويت، التي «احتلها» آل الصباح حسبما يفترض، إلى الحظيرة العربية.

خلال حرب الخليج، أعطيت اعتبارات القوة الخام كهذه الأولوية في أذهان العديد من المثقفين العرب، وحكموا على كل شيء حولهم بموجبها. ذلك هو مغزى الرمزية الكامنة في تشبيه صدام بصلاح الدين أو بسمارك. والمبدأ خلف ذلك أن سيادة الجزء (سواء كان هذا الجزء دولة كالكويت، أو تجمعاً قومياً كالأكراد، أو مواطناً عراقياً منفرداً) خاضعة لسيادة الكلّ (سواء كان هذا الكلّ عراق صدام حسين أو وحدة عربية وهمية ستقوم في المستقبل). وتُرفض للجزء (لنقل إنه كامل الكويت أو فرداً عراقياً) مطالبته بالحق في أن يترك وشأنه (ألاّ يضمّ، أو أن يسمح له بأن يفكّر أفكاره الخاصة). هكذا تتقلّص السياسة إلى الإمتداد خارج الحدود العراقية «المصطنعة» إلى العالم العربي برمّته (ابتداء بالكويت)، وهذه إنما هي القاعدة السائدة في داخل العراق. ومع هذا التعميم لما هو في داخل العراق فقد هؤلاء المثقفون كل معيار يتيح لهم إقامة مسافة عن أعمال قتل العراقيين الذين كان صدام حسين يقتلهم على أثر انتفاضتهم الفاشلة.

قال الكاتب المصري فؤاد زكريا في مقابلة حول دروس حرب الخليج انه لم يلتق مثقفاً عربياً واحداً مقيماً في الغرب إلاّ كان «متعاطفاً مع صدام حسين». ونقل حديثاً جرى بينه وبين أحد هؤلاء المثقفين الذي «ظل يمتدح صدام وما فعله بالغرب. كان ذلك قبل الحرب. وبعد أكثر من نصف ساعة سألته،قلت له: أنت تقول إن صدام صامد امام الغرب، ويلقنه دروساً وأنه نموذج لدولة من العالم الثالث... لكن ما هي القضية التي يدافع عنها صدام؟ لم يستطع الإجابة. المشكلة ليست فقط انه لم يستطع أن يجيب، المشكلة انه اتّضح لي أنه لم يفكّر في هذا السؤال من قبل. هذه هي الكارثة الكبرى. إن الإعجاب راجع إلى أن [صدام حسين] يحارب، وهو نفس نوع الإعجاب الذي تجده مثلاً عند المراهقين عندما يسمعون ان اللص الكبير استطاع بمفرده أن يصمد بمدفعه الرشاش أمام ٢٠٠ من قوات الشرطة. نفس نوع الإعجاب من دون أن يتوقف المرء عند حقيقة أن هذا الذي صمد هو في نهاية الأمر لص»[٢٤].

إن طرابيشي والجابري وجعيط ليسوا كالمثقفين الذين يتحدّث عنهم زكريا لأن الكراهية للغرب لا تشكّل القوة الدافعة لاهتماماتهم وقلقهم. فلو وافق الغرب على ضم

مكتبة الفكر الجديد

صدام حسين للكويت، لكان من المحتمل أن يناصروا الغرب تماماً مثلما ناهضوه. وبخلاف العرب الذين كانت تساورهم شكوك جدية حول ما فعله صدام حسين لكنهم كانوا عاجزين عن تمييز الغابة من الأشجار لأن الولايات المتحدة كانت معنية، فإن دعمهم لما فعله صدام حسين في ٢ آب/ أغسطس يقوم على قلة الإكتراث بحقوق الإنسان كمقياس سياسي في الشؤون العربية. إن مثقفين كهؤلاء (لا ينتمي أي منهم إلى حزب البعث) أيديولوجيون، بحيث انهم يدعمون أي شيء شرط أن يعزز مشروع الوحدة العربية. وهم مستعدون حتى لمساندة نسختهم الخاصة لبسمارك التي من «دم وحديد» وحيازته أسلحة كيميائية ونووية، رغم ان حديده يستخدم لهدر دماء عربية.

٤ ـ القوة «العربية» وجيش صدام

يقوم تشبيه صدام ببسمارك ـ النسخة «المثقفة» لصورة صلاح الدين العزيزة على قلب صدام ـ على أسس أخطر بكثير من مجرّد رفض مبدأ حقوق الإنسان في السياسة. أعني هنا اعتبار أن قوة صدام حسين العسكرية هي بطريقة ما مصدر قوة لكلّ العرب، وهي وجهة نظر الغالبية الساحقة من المثقفين العرب قبل حرب الخليج وخلالها وبعدها، سواء داخل العالم العربي أو خارجه.

من الأمثال العديدة التي يمكن ذكرها لتوضيح هذه النقطة، سأختار المثل الذي أعتبره فاضحاً أكثر من غيره بسبب المستوى الرفيع لبعض الأشخاص المرتبطين به. خلال المؤتمر القومي العربي الثاني المنعقد بين ٢٧ و٢٩ أيار/ مايو ١٩٩١ في عمان تم إصدار «بيان إلى الأمة» مؤلف من سبعة آلاف كلمة وتتخلله التنويهات المبتذلة الاعتيادية للسياسة العربية بالمؤامرات الصهيونية العالمية وبأن «العرب هم حملة رسالة الإسلام إلى العالم قاطبة»، إضافة إلى تأكيدات وإعلانات جديدة، منها أن هذا المؤتمر «لا يستطيع إلا أن يكون متفائلاً بل واثقاً وهو يستحضر تاريخنا الطويل الحافل»... وفي ظل كلّ هؤلاء القتلى العراقيين وكل آبار النفط الكويتية المشتعلة بدا إعلان النصر هذا مثيراً للسخرية[٢٥].

لكن دعونا لا نتوقف عند هذه النقطة وننظر في التركيز على «تدمير القوة العسكرية العراقية وفرض قيود غير متوازنة على نمو القوى العسكرية العربية» من قبل الغرب (لنهمل كذلك كلّ الإشارات إلى «التخطيط المسبق» الأميركي)[٢٦]. فقد لاحظ الإعلان ما وصفه بأنه «خلل في الميزان العسكري في المنطقة العربية» من شأنه أن «يحقق ويضمن التفوّق العسكري الإسرائيلي على القوى العسكرية العربية». ألم يظهر انعدام فاعلية الجيش العراقي خلال حرب الخليج رغم ضخامة حجمه (سبعة إلى عشرة في المئة من

مكتبة الفكر الجديد

إجمالي السكان) أن ثمة «خللاً» كذلك داخل العراق بسبب هذا الجيش بالذات، خللاً أكبر من ذلك الذي يمكن أن ينجم عن تدميره؟ يشير البيان في فقرته الأكثر شؤماً إلى أن التقدّم الصناعي «ضرورة لمواجهة المخاطر المقبلة، وهنا يذكر بصفة خاصة ضرورة الاستفادة وبسرعة من الأسلحة العراقية غير التقليدية، المفروض على العراق تدميرها (بموجب قرارات الأمم المتحدة)، بنقلها إلى بلدان عربية أخرى، وكذلك الاستفادة مما حققته الصناعة العسكرية العراقية قبل حرب الخليج والعمل على الاستفادة منها في تحديث القوات العربية الأخرى»[٢٧].

يبدو أن هؤلاء السادة يريدون التعاطي بالقنابل النووية والأبحاث المتعلّقة بالحرب البيولوجية والأسلحة الكيميائية[٢٨]. والفكرة الكامنة خلف تصريحات كهذه هي أن جيش صدام حسين المؤلف من مليون جندي ـ إضافة إلى صواريخه السكود وقدرته على إنتاج قنابل نووية، وأسلحة التدمير الشامل الأخرى خاصته ـ كلّ ذلك يمثّل بطريقة ما قوة حقيقية هي ملك لكلّ العرب في نضالهم ضدّ «العدو الصهيوني». وينتظر من مجموع كلّ العرب المسلّح بهذه القوة أن ينتزع تنازلات من إسرائيل حول المسألة الفلسطينية.

يتم تجاهل مسؤولية هذا الجيش في القضاء على الحياة السياسية النيابية داخل العراق عام ١٩٥٨، كما يتم التغاضي عن كون جيش صدام حسين دفع جيلاً بكامله من العراقيين خلال السنوات العشر المنصرمة إلى حتفه في حروب هدّامة. كذلك يتم التغاضي عن أن هذا الجيش لم يكن في أي وقت فاعلاً سوى ضدّ عراقيين آخرين، خصوصاً منهم الأكراد.

وهذه الفكرة الزائفة عن القوة، الفكرة القائلة ان بوسعكم، في صورة أو أخرى، بناء قوة على شكل أسلحة مع التخلّي عن المهمة الصعبة القاضية بإيجاد هذه القوة في الطاقات الإنتاجية الخلاّقة من مجتمعكم بالذات، تحتلّ محور السياسة العربية منذ وقت طويل، منذ ١٩٦٧ على أقلّ تقدير، حيث تمّ اختبارها وظهرت نقاط ضعفها. وعام ١٩٩٠ وجدت هذه الفكرة التجسيد المثالي لها في آلة صدام حسين العسكرية. غير أن صدام حسين ليس جمال عبد الناصر الذي كان على الأقل يتمتع بشعبية حقيقية. ورفضه التخلّي عن الفكرة القبلية ـ القومية هذه للقوة لم يجلب على الشرق الأوسط سوى البؤس والعنف.

لقد كان المنظم الرئيسي لمؤتمر أيار/ مايو ١٩٩١، هو **خير الدين حسيب**، وهو كذلك كان الروح المحرّك لمؤتمر سابق انعقد حول «أزمة الديموقراطية في الوطن العربي»، وقد نشرت مداخلاته وأبحاثه عام ١٩٨٤ في كتاب يقع في تسعمئة صفحة حمل

مكتبة الفكر الجديد

العنوان ذاته. فقد التقى أكثر من مئة مفكر وأكاديمي وسياسي ليبرالي عربي خلال خمسة أيام لبحث المسألة ومناقشة العقبات العملية في وجه تحقيق الديموقراطية في العالم العربي (إضافة إلى دراسات خاصة بعدد من الدول العربية).

عقد المؤتمر في قبرص بعد أن حظر في كل دولة عربية طلب منها المجتمعون استضافتهم. كان ينبغي أن يضفي ذلك قدراً كبيراً من الإثارة على محضر المؤتمر. في الواقع، تضمنت الندوات مداخلة أو مداخلتين نقديتين للممارسات العربية المعاصرة. إلاّ أنهما جاءتا عموماً في لغة نظرية مموّهة جداً، لغة من المستبعد أن تسيء إلى أي دكتاتور. لم يتحدّث أي من المشاركين عن تجاوزات ملموسة في بلده. وكان العديد منهم يسعى إلى برهنة ما يؤكد على وجود الديموقراطية الحديثة أو «ما يعادلها» في «التراث العربي الإسلامي». اتفق الجميع على هدف الوحدة العربية، مع أن بعض المشتركين اختلفوا حول الطريقة الديماغوجية التي كانت طرحت بها هذه المسألة في الماضي. غير أن أحداً لم يتطرّق إلى وجهات النظر الأخلاقية المختلفة تماماً التي على المواطنين العرب اكتسابها حول السيادة الفردية أو سيادة الدولة، الخصوصية الشخصية، التسامح، حق تقرير المصير، أو وضع الأقليات غير العربية. فكل هذه تتأتى بالضرورة من تبني مفهوم للحرية مختلف كلياً عن المفهوم الذي ساد الخطاب العربي طوال الحقبة الحديثة.

لقد شدّدت مقدّمة محضر المؤتمر على أن «السبب الموضوعي» المركزي لإعارة مسألة الديموقراطية انتباهاً متزايداً كان «تخلف الأنظمة العربية الخطير عن مواجهة العدوان الإسرائيلي». إلاّ أن شعار التحشيد الذي استخدم مرّات كثيرة في الماضي، وتحديداً للقضاء على الحرية الفردية أو حرية الاختلاف والحركة الشخصية إنما كان أيضاً «كلّ شيء من أجل المعركة» ضدّ إسرائيل. وهذه الصيغ القديمة جداً والميتة حول المسألة العربية الإسرائيلية تعتبر دائماً اختباراً يظهر درجة الاهتمام الحقيقي بالديموقراطية. فكلّما ارتبطت «أزمة الديموقراطية» في العالم العربي بـ «مكافحة إسرائيل» علمنا مسبقاً ان شيئاً لن يتغيّر نحو الأفضل في السياسة العربية. والنتيجة الحتمية لذلك ولع بأسلحة الدمار الشامل وبزعماء كصدام حسين.

لقد انبثقت من الأعماق المظلمة للتجربة العراقية في أعقاب حرب الخليج نظرة مختلفة إلى القوة والديموقراطية. ميثاق ٩١ هو حملة لجمع التواقيع، وقعه حتى الآن عدة مئات من بين الكتاب والفنانين العراقيين، وكذلك من رجال ونساء من جميع المستويات والاختصاصات. يدعو الميثاق إلى إلغاء الخدمة العسكرية الإلزامية ووضع حدّ أقصى للنفقات العسكرية قدره ٢ في المئة من الدخل القومي العراقي. إضافة إلى ذلك، يقول عن الحرب:

مكتبة الفكر الجديد

«إن القوة الحقيقية تنبع دائماً من الداخل، وتكون متمثلة في إمكانيات الشعب الخلاقة الثقافية المنتجة للثروة. إن القوة تكمن في المجتمع المتمدن، وليس في الجيش أو في الدولة. إن الجيوش غالباً ما تهدد الديمقراطية وتضعف المجتمع المتمدن، كلما تضخم حجمها كان ذلك على حساب المجتمع المدني. هذا ما حدث في العراق».

ويواصل «ميثاق ٩١» بالإقرار أن أي دستور عراقي جديد ينبغي أن تنص مادته الأولى على ما يلي:

«إن الشعب العراقي، في طموحه الصادق لتحقيق سلام دولي مستند على العدل والنظام، يتخلى إلى الأبد عن الحرب كحق سيادة الأمة، وعن التهديد بالقوة أو استخدامها كوسيلة لتسوية النزاعات الدولية، ولن يجري الاعتراف بحق الدولة العراقية في شن الحرب»(٢٩).

٥ ـ وهم «الربط»

في ١٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠ طرح العراق خطة سلام مزعومة تقوم على فكرة «الربط» أو الانسحاب المتزامن للعراق من الكويت ولإسرائيل من الأراضي المحتلّة ولسوريا من لبنان. بدت هذه الخطة ظاهرياً للغالبية العظمى من المثقفين العرب كطريقة معقولة لنزع فتيل أزمة الخليج. حتى المفكّرون العرب الأكثر نقدية شعروا أنها تمثل بشكل أو بآخر (بتضمنها مثلاً فكرة انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية مع انسحاب العراق من الكويت) حلة خلاّقة لنزاعات الشرق الأوسط المتداخلة. أعطى التبرير القياسي لهذه الخطة ابراهيم أبو لغد، وهو أستاذ في العلوم السياسية بجامعة نورثوسترن في ولاية إيلينوي الأميركية، وعضو في المجلس الوطني الفلسطيني. ولئن صدر هذا التبرير عن فلسطيني ذي خبرة طويلة في مجال الخيانة العربية للطموحات الفلسطينية، فقد كان من المقلق جداً أن يكتب أبو لغد أن العراق طرح «الربط وفقاً لمبادىء وقواعد العلاقات الدولية والقانون الدولي»، في حين «هزئت» إدارة بوش بـ «التزام» العراق حيال الفلسطينيين. واستبق أبو لغد الأمور على المتشائمين الساخرين أمثالي الذين قد تساورهم شكوك بأن «خطة السلام» هذه تنطوي على انتهازية، فأكّد أن «العكس صحيح». الحقيقة في نظر أبو لغد مرتبطة بـ «دعم العراق التاريخي للفلسطينيين»، وبعكسها الذي هو «النوايا الأميركية الحقيقية». وما هي هذه النوايا؟ أن «تشلّ أي قوة عربية محتملة قد تستخدم لصالح العرب»(٣٠).

مكتبة الفكر الجديد

محمّد حلاج، مدير مركز التربية والأبحاث حول فلسطين في العاصمة الأميركية، ذهب إلى أبعد من ذلك. فنظام صدام حسين لم يقم بـ «زيادة الرفاه العربي» فحسب، ولم يكن له «عهد لا يمكن إنكاره» حيال القضية الفلسطينية فحسب، بل ان نهوض العراق كقوة عسكرية كان «مبرّراً بحاجة عربية إلى إيجاد رادع عسكري عربي لإسرائيل... إن العراق... هو المشارك العربي الوحيد في حرب ١٩٤٨ بين العرب وإسرائيل الذي لم يوقع في أي وقت هدنة دائمة مع إسرائيل. لذا فإن ربط العراق بين أزمة الخليج والمسألة الفلسطينية ليس في نظر الفلسطينيين مجرّد غطاء لطموحات محلية»[٣١].

في حين كانت أزمة الخليج في أشدّها كانت كلمات كهذه تتردّد في الاجتماعات العامة والمقالات الصحافية. هذا الاسترسال بلا توقف في الوهم ملأني غضباً. رحت أتساءل باستمرار أي خلل حصل بحقّ الله؟ أليس لدى قراء الكتب ورؤساء تحرير الصحف المشهورة أي حسٍّ على الإطلاق بتاريخهم الخاص؟ أي نظام عربي قام بأدنى تحرّك من أجل القضية الفلسطينية، كم بالأحرى أكثر هذه الأنظمة وحشية واستحقاقاً للّوم على الصعيد الأخلاقي؟

قلت لنفسي ماذا كان حصل لو بادر الفلسطينيون أنفسهم إلى رفض فكرة «الربط» التي اقترحها العراق؟ لكانوا ابتكروا عندها مفهومهم الخاص للربط، مفهوماً أعظم ميزاته انه غير مقيّد بالطموحات التوسعية لدولة مجرمة. لو رفض المثقفون الفلسطينيون رفضاً شاملاً الطموحات العراقية الفعلية، لشكل ذلك تحدياً لبقية العالم لأن يرفض الاحتلال الإسرائيلي لأرض عربية، وذلك بإعطاء المثل، وليس بتوجيه عظات أخلاقية فارغة، ولكانت مكانة الفلسطينيين في محادثات السلام في الشرق الأوسط أرفع بكثير مما هي عليه. عوضاً عن ذلك أخذ المثقفون الفلسطينيون، الواحد تلو الآخر، يعلنون للعالم أنهم، طالما العالم يكيل بمكيالين، سيتبعون بدورهم الأمر نفسه، وهذا ما فعلوه باحتراف كبير. وبالتالي، فإن الجوهر الأساسي الأخلاقي السامي الكامن في عدالة قضيتهم، والذي يشكل القوة الحقيقية الوحيدة لمصلحتهم، هذا الجوهر قدم لصدام حسين على طبق.

على أن التزايد القوي في شعبية صدام حسين بين الفلسطينيين حصل قبل «الربط». لقد بدأ بالخطاب الشهير الذي ألقاه في ٢ نيسان/ أبريل ١٩٩٠ وتحدث فيه عن إضرام «نار ستبتلع نصف إسرائيل». كان صدام يشير بهذه الاستعارة إلى الصواريخ البعيدة المدى (ألفا ميل) التي طورها العراق عام ١٩٨٩ وأطلق عليها اسم تموز I أو حجارة أبابيل. وكانت الصحافة العراقية في تلك الحقبة تلمح باستمرار إلى أن العراق سيرد

مكتبة الفكر الجديد

بأسلحة كيميائية إن شنت إسرائيل هجوماً تقليدياً على العراق (مثل هجوم ١٩٨١ الذي استهدف منشآت نووية عراقية).

وفي الواقع عمت العالم العربي (بما فيه السعودية والكويت) حماسة هائلة لما اعتبر وثبة عسكرية عربية إلى الأمام رأس حربتها الرئيس العراقي.

ومع حلول تشرين الأوّل/ أكتوبر ١٩٩٠ كان شعور «رؤيوي» يعم القدس الشرقية، حسب ما أوضح مدير مدرسة فلسطيني، «كما لو أن أموراً هائلة حقاً تحدث حولنا ونحن لسنا سوى أدوات»[٣٢]. كانت مروحيتان أميركيتان اختفتا للتو فوق الصحراء العربية. «على الفور قال جميع الجيران انها إشارة من السماء». ثم وصف كيف روى فلسطينيون عائدون إلى منازلهم من السعودية انهم شاهدوا طيوراً أبابيل تتجمع مرّة جديدة فوق مسجد مكة المقدّس. الطيور التي أنقذت مكة من الدمار الذي كانت ستنزله بها القبائل الحبشية، فرجمتها بـ «حجارة من سجّيل»[٣٣]. كانت تلك التخيلات والصور حاضرة في ذهن صدام حسين عندما أطلق على صاروخه الجديد اسم «حجارة أبابيل». فكر الفلسطينيون العاديون ان شيئاً ضخماً كان يجري وان جورج بوش سينال جزاءه لأنه تجرأ وتحدّى صلاح الدين العربي الجديد. وفي النهاية عندما بدأ صدام يقذف إسرائيل خلال حرب الخليج بـ «حجارته الطائرة» على شكل صواريخ غير فاعلة عسكرياً، هرع الإسرائيليون إلى الملاجىء في حين انتظر الفلسطينيون صفارات الإنذار ليسرعوا إلى السطوح حيث كانوا يصفقون ويعزفون الموسيقى ويعلنون عن بهجتهم بالصواريخ، رغم ان هذه الصواريخ يمكن أن تسقط على عرب وعلى يهود على حدّ سواء.

في «رسالة من الضفة الغربية»، ذكرت أمل أبو العبد (اسم مستعار) وهي امرأة فلسطينية غربية الثقافة فرّت عائلتها إلى المنفى عام ١٩٤٨، وردت رؤوس الأقلام التالية من يومياتها عن الحرب:

> «الثلاثاء ١١ شباط/ فبراير: أيقظتني شمس في الساعة ١,٢٧ صباحاً... إستيقظت شمس على صوت صفارات الإنذار تدوي في الخارج وعلى جلبة ابتهاج ـ صفير وزغاريد. قد يشعر البعض ان هذا تصرّف غير مقبول. لكن الأمر ليس كذلك إن تم النظر إلى المسألة في السياق المناسب. هذا الابتهاج لم يكن يعني تمني الأذية لأفراد إسرائيليين، بل كان يعني التمني لهم أن يشعروا ولو بقدر ضئيل بالألم والعذاب الهائلين اللذين يفرضونهما على الفلسطينيين واللبنانيين منذ ٤٥ سنة أو ما يقاربها. كان هذا الابتهاج يعبر عن سعادتهم لكون زعيم عربي

واحد على الأقلّ تمكن من «مهاجمة» إسرائيل في وقت اعتدنا أن نتعرض نحن للهجوم.

السبت ٢٣ شباط/ فبراير:... أطلقت صفارات الإنذار قبيل الساعة السابعة وكان ينبغي أن تسمعوا صيحات الفرح والصفير وصرخات «الله أكبر» التي ترددت عند عبور الصواريخ فوق المدينة.

الأحد ٢٤ شباط/ فبراير:... يعتقد سكان الضفة الغربية ان في وسع الجيش العراقي الصمود ستة أشهر على أقل تقدير، وربما أكثر إن تمكن من الحصول على قطع غيار.

الثلاثاء ٢٦ شباط/ فبراير: لا أعرف من أين أبدأ بوصف مشاعر الاكتئاب التام التي سيطرت عليّ في الساعة الثالثة والنصف صباحاً عندما سمعت أن العراق ينسحب من الكويت ويطالب بوقف إطلاق نار وأن القوات المتحالفة ترد بقصف أعنف على بغداد والقوات العراقية المنسحبة»[٣٤].

استولت على الفلسطينيين من سائر الطبقات الاجتماعية طوال حرب الخليج حالة من اللاواقعية التامة الممتزجة بالخرافات، حيث تعاقبت البهجة العارمة واليأس. قال الأستاذ الثانوي الإسرائيلي الفلسطيني نجيب أبو رقية انه «بعد أن أكد الزعيم العراقي ان قوى غيبية تناصره، بدأت تتكاثر التقارير عن معجزات. كان فلاحون يسمعون الدجاجات تتلو آيات قرآنية. وتردد بكثرة ان وجه صدام حسين شوهد على سطح القمر. وأخذ المسلمون في كل أنحاء إسرائيل ينقبون بهوس في الأدب الديني المتصوّف والمتزمّت... التنبؤات أوصلت العديد من الناس إلى حافة الجنون»[٣٥].

غير أن أصحاب الإرتكابات الأسوأ لم يكونوا الفلاحين الفلسطينيين البسطاء، أو الأشخاص الذين من أمثال أمل أبو العبد، الذين كانوا على الأقل صادقين في مشاعرهم، بل كانوا أولئك المثقفين العلمانيين الكوزموبوليتيين الناشطين انطلاقاً من معاهد أكاديمية ومؤسسات أبحاث في الغرب، والذين ألبسوا دعمهم للخطوة العراقية رداءً نظرياً «مناهضاً» للامبريالية. وباستثناء وليد خالدي من جامعة هارفرد، لا يتبادر إلى ذهني اسم فلسطيني واحد بارز في الولايات المتحدة ـ من بين العديدين المقيمين في هذا البلد ـ لم يستسلم، على الأقل علناً، لأسوأ أنواع الهوس بالأساطير القومية (كان بعض الفلسطينيين يعبرون بوضوح في أحاديث خاصة عن عدم وجود أية أوهام لديهم حول الزعيم العراقي، غير أنهم شعروا كذلك ان إعلان هذه الانتقادات خلال أزمة الخليج كان بمثابة خيانة وطنية). صدام حسين اجتاح الكويت، وأعرب «خبراء» في السياسة العربية على الفور عن

مكتبة الفكر الجديد

قناعتهم بأنه مع قوته «العربية»، سيرمي في اتجاههم فتاتاً من العزاء على شكل تنازلات إسرائيلية. هذا ما كان يعنيه النضال ضد إسرائيل في أذهان المثقفين. ولم يكن المرء يدري ما إذا كان الأمر مضحكاً أو مبكياً.

غير انه داخل إسرائيل ظل فلسطيني واحد على الأقل بعيداً عن الهراء المتفشي من حوله. فالكاتب إميل حبيبي البالغ من العمر سبعين عاماً والمولود في حيفا شجب علناً فكرة «الربط» لحظة طرحها صدام حسين، واعتبر أنه لن ينجم عنها سوى ربط واحد وهو ربط القضية الفلسطينية بمصير القيادة العراقية[٣٦]. وتابع حبيبي محملاً الزعامة السياسية الفلسطينية وجميع المثقفين العرب مسؤولية زرع أوهام حول صدام حسين في أذهان الفلسطينيين العاديين[٣٧].

فخبرة حبيبي الطويلة كناشط سياسي داخل فلسطين/ إسرائيل بدءاً بثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ الفلسطينية علمته أن يكون متشائماً ومشككاً بعمق حيال أية محاولة تقوم بها الأنظمة العربية لمناصرة القضية الفلسطينية: «كلما حشرت إسرائيل في الزاوية وباتت معزولة وعلى وشك تقديم تنازلات، جاء ما ندعوه نحن في معجمنا الفلسطيني الفرج العربي». أيّد حبيبي قرار التقسيم الذي أصدرته الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧، وهو موقف صنف «خائناً» في ذلك الوقت وكان يمكن أن يكلّفه حياته. كما انه لم يعتقد ان الجيوش العربية خاضت الحرب عام ١٩٤٨ من أجل إقامة دولة فلسطينية. «بل العكس صحيح: الجيوش العربية جاءت من أجل الحؤول دون إقامة دولة أخرى في فلسطين. ومنذ ذلك الوقت، فإن الأنظمة العربية تقوم مع البريطانيين والأميركيين باستغلال المسألة الفلسطينية لمؤامراتها الخاصة، لتأجيج حروبها العربية»[٣٨]. عام ١٩٩١ جاء الفرج العربي كما قال حبيبي، على شكل «الفارس الأسمر على فرسه الأبيض»[٣٩].

إن الأشكال الأكثر تعقيداً لهذا النوع من اختراع الخرافات لم تستهو حبيبي في أي وقت. فهو رأى دائماً حقيقة أكاذيب الأنظمة العربية وخداعها حول المسألة الفلسطينية. لكنه لا يكتفي بالقول إن بوسعه إدراك ما وراءها - والكلّ يدّعي القدرة على ذلك بالطبع - بل يلتزم في الواقع موقفاً سياسياً مناسباً، وإن كان سيؤدي إلى عزله. لقد اعتبر حبيبي ان أي قبول فلسطيني لأي شكل من أشكال خطة «الربط» التي طرحها صدام حسين ينتقص فوراً من الزخم الديموقراطي للوطنية الفلسطينية[٤٠]. وبخلاف أبو لغد والحلاج، شعر حبيبي بوضوح انه لا يجدر بأي ديموقراطي فلسطيني حقيقي أن يقبل بدفع هذا النوع من الثمن، فقط لأنه يائس من احتمال امتلاكه دولة. فحبيبي تحدث بصوت

مكتبة الفكر الجديد

مرتفع، حتى عندما كان ذلك يشكل خطراً عليه، معلناً ان الدواء الذي اقترحه صدام لليأس الفلسطيني أسوأ بكثير من هذا اليأس نفسه.

الرهانات في هذا التجاذب بين شخص كحبيبي وباقي المثقفين الفلسطينيين مرتفعة جداً، وهي تصل إلى جوهر السياسة الفلسطينية. كذلك تتعلّق الرهانات بالشقاقات المتزايدة بين الفلسطينيين داخل إسرائيل والأراضي المحتلة، والتي تمثلها على الصعيد السياسي شخصيات سياسية جديدة لافتة مثل حنان عشراوي وفيصل الحسيني، في مواجهة أولئك الذين في الخارج، والذين ما زالوا متجمعين بشكل غير متماسك حول منظمة التحرير الفلسطينية وياسر عرفات. هذا الانقسام يؤدي إلى خيار أساسي بين مفهومين للحرية.

ومع ان الأمر يبدو غريباً، إلاّ أن الدولة البعثية وغالبية المثقفين العرب شعروا بصدق ان الضم العراقي للكويت امتداد للحرية الإجمالية المتوافرة للشعب العربي. فخطابا العروبة والوطنية الفلسطينية المناهضان للامبريالية يدوران معاً حول فكرة «التحرّر من» الامبريالية أو الصهيونية، بحسب الموضوع المطروح، من أجل وحدة تجمع كلاًّ مقسّماً تقسيماً اصطناعياً (العالم العربي)، أو دولة ما زال ينبغي إقامتها (دولة فلسطينية مقبلة في الأراضي المحتلة مثلاً). لذلك يتوجب على عاشقي الحرية في كل مكان أن يدعموا ضم الكويت ـ «عمل قومي» في نظر طرابيشي. ومن هذا المنظار تكون طبيعة نظام صدام حسين وما حصل للكويت أمراً ثانوياً تماماً. وحتى عندما يبدي هؤلاء المثقفون في أحاديث خاصة اشمئزازهم من النظام ـ وأنا واثق من أن شخصاً مثل أبو لغد يفعل هذا ـ فإن اعتمادهم هذا المفهوم للقومية يفسّر لماذا يناصرونه مناصرة ثابتة في العلن[٤١].

لقد كان اعتقاد القوميين الضمني ان ضم الكويت مشروع «يمكن تفهمه» من «منظار تاريخي»، وإن كان «غير قانوني» (أو على رغم استبداد صدام). و«الربط» في نظرهم كان يعني انه إن كان يتوجب التخلي عن الكويت ـ فصلها عن العراق ـ باسم شرعية أو إجراءات شكلية مثل «القانون الدولي» الذي كان يُفرض بشكل جلي على العرب عبر تلاعب الغرب بالأمم المتحدة، فمن الضروري بالتالي تقديم تعويض ما للعرب. ولماذا لا يكون هذا التعويض جزءاً من فلسطين؟ كما لو أنّ حوالى مئتي مليون عربي لا توحّدهم إلا دعامتان هما صدام حسين ومنظمة التحرير الفلسطينية. إن كانت الولايات المتحدة والائتلاف المتحالف يصرّان بشكل حاسم على إسقاط إحدى هاتين الدعامتين النفيستين (صدام حسين) فأقل ما ينبغي عليها القيام به هو دعم قوة الأخرى (منظمة التحرير). لقد استمدّ «الربط» قوته المعنوية لدى الفلسطينيين من هذا النمط من التفكير، وبدا من يرفض

مكتبة الفكر الجديد

«خطة السلام» التي طرحها صدام حسين والقائمة على الربط هذا، كأنه يعتمد مقياسين بالنسبة إلى مسألة الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي العربية المحتلة.

لهذه المعادلة القومية منطق معكوس مخيف. لنفترض أن الغرب مستعدّ لترك الكويت للعراق. فلماذا لا يطالب بـ «تعويض» على شكل ضمّ إسرائيلي دائم للضفة الغربية؟ إن هذا ينتج عن منطق الربط كما وضعه أبو لغد وحلاّج، والسبب الوحيد الذي لم يجعل هذه الفكرة تخطر في بالهما هو أنهما لا يظنان ان صدام حسين قد يكون غادراً إلى حدّ قيامه بصفقة كهذه مع الغرب.

أما الخيار الآخر الديموقراطي الذي قال به حبيبي فيسير في اتجاه معاكس لهذه القومية. ففي الطبقة العاطفية الأسفل التي منها تنبثق المواقف السياسية، يفهم الديموقراطي الحقيقي بالغريزة ان الشعبين الكويتي والفلسطيني الواقعين معاً تحت الاحتلال هما ضحية ظلم كبير. وبالتالي فإن الربط «الطبيعي» يقوم بين مصيريهما، وليس بمصير القيادة العراقية. فالتعاطف مع الكويتيين الواقعين تحت الاحتلال هو تأكيد تلقائي للمضمون الديموقراطي للنضال الفلسطيني، وهو نضال مبني على فكرة ان الحقوق، كلّ الحقوق وليس فقط حقوق الفلسطينيين الخاصة، لا ينبغي إخضاعها أبداً لمبدأ أرفع منها (مثل الوحدة العربية أو «الأمن» الإسرائيلي).

إن منطق المؤيدين لصدام هو ان الحقوق الفلسطينية مرتبطة بتحقيق الزعيم العراقي بعض أهدافه على الأقلّ، في حين أن منطق الموقف الديموقراطي معاكس تماماً لذلك: فالحقوق الفلسطينية تبدأ، تبعاً له، بهزيمة صدام حسين واستعادة الكويتيين حقوقهم. وكلّما كانت هزيمته مدوية، وكلّما تمت استعادة ما اغتصب بشكل كامل، كان المكسب الديموقراطي الفلسطيني النهائي أكبر.

فالدفع الديموقراطي للوطنية الفلسطينية لم ينبع في أي وقت من الرغبة المجرّدة في «تحرير» أراضٍ عربية، بل نبع بشكل ملموس من الرغبة في امتلاك حقوق مرفوضة اليوم من قبل الدولة اليهودية حصراً، وذلك لسبب بسيط هو ان المطالب بالحق عربي. وحق الفلسطينيين في أن يتركوا وشأنهم، في أن يعاملوا كما يعامل جميع الآخرين، في أن يتخلّصوا من أعمال العنف التي يمارسها جيش احتلال، كل هذه مطالب ديموقراطية مشروعة موجهة إلى الدولة الإسرائيلية التي تنكرها اليوم. وهذا الإنكار يفعل بالفلسطينيين (مع التفاوت في القسوة) ما تفعله الدولة العراقية بجميع العراقيين منذ حوالى ربع قرن. بكلام آخر، إن النداء الأخلاقي الفلسطيني الموجه إلى ضمير العالم ينبعث من الشيء نفسه الذي يريد صدام حسين أن يسلبه من عدد متزايد من العرب بضمّه الكويت.

مكتبة الفكر الجديد

٦ ـ «الحلّ العربي»

في كانون الثاني/ يناير ١٩٩١، عندما اندلعت حرب الخليج، كنت في القاهرة لحضور المعرض السنوي للكتاب العربي. كان الجميع ينتظر حدثاً هاماً جداً، وهو خطاب كان سيلقيه محمّد حسنين هيكل، رئيس تحرير صحيفة «الأهرام» المصرية، والذي كان صديقاً حميماً لجمال عبد الناصر. كانت القاعة مكتظة بالحضور حتى لتكاد تطفح بهم، وكنا جميعنا ننتظر سماع ما سيقوله هيكل الذي كان قد كتب في ١٢ أيلول/ سبتمبر: «وحده الحلّ العربي يمكن أن يناسب سيكولوجيا الذهن العربي»[٤٢].

بدأ هيكل يروي لنا قصصاً عن التجارب التي عايشها مع صديقه «جمال». أذكر جيداً قصة عن القذافي. كانت الملكية قد أطيحت لتوها في ليبيا وكان ذلك المجهول الذي برز فجأة يدعو إلى وحدة فورية مع مثاله الأعلى عبد الناصر. لم تكن لدى الرئيس المصري أية فكرة عن الزعيم الليبي الجديد، فأرسل ملازمه الموثوق هيكل لعقد اجتماع استطلاعي. عاد هيكل واستقبله عبد ناصر في المطار، فسأله فاقد الصبر ما ان سنحت الفرصة «قل لي، كيف هو هذا الرجل؟»، أجاب هيكل «لا تريد أن تعرف». لكن ناصر أراد أن يعرف، فقال هيكل «إنه كارثة!».

قهقهنا كلّنا ضاحكين. تابع هيكل عارضاً وجهات نظره حول موقف كلّ دولة من أزمة الخليج، غير أنه لم يتطرّق إلى الموقف المصري. تحدّث عن كلّ زعيم سياسي وعما فعله خطأً وصواباً، ومرّة جديدة جعلنا ننفجر بالضحك. كان ذلك في ما بعد ظهيرة أحد مشمس ولطيف في ١٣ كانون الثاني/ يناير، قبل يومين من انتهاء مهلة الإنذار الذي وجهته الأمم المتحدة إلى العراق للانسحاب من الكويت، وكان الجحيم على وشك الهبوط على رؤوس العراقيين. فقد الحاضرون بعضاً من صبرهم: «أهملتَ مصر، قل لنا ما رأيك بالموقف المصري؟». ابتسم هيكل ابتسامة عريضة، مستمتعاً بالأمر كثيراً. قال وهو بالغ السعادة بنفسه، ويتلاعب: «سأقول لكم فقط انني لا أفهم موقف مصر. كان بإمكاننا أن نلعب دوراً رئيسياً، لكننا لم نفعل». صاح الحضور مرحاً «ماذا كان يجدر بنا أن نفعل؟»، وكان هيكل يصل الآن إلى محور الأشياء: «لدي وجهات نظري حول هذا الموضوع، لكنني أفضل أن ألزم الصمت». ردّ الحشد صائحاً بصوت واحد «قل لنا! قل لنا!».

مزيد من المزاح ومزيد من الضحك. وفي النهاية كان الرجل ظريفاً جداً، حتى كدنا نقع أرضاً. كان هيكل يعلم انه هام جداً ومميّز، يفهم السياسة العربية أكثر من أي شخص آخر، فهو كان أقرب المقرّبين إلى عبد الناصر والمؤتمن على أسراره. وبالتالي فإن وجهات

مكتبة الفكر الجديد

نظره تحمل شحنة كهربائية. على كلّ حال، هذا ما يعتقده هو. اصطحبنا مشدودين إليه في دورة حول العالم العربي طوال ثلاث ساعات، ثم أعادنا إلى القاعة حيث كنا محشورين كأنما في علبة سردين. ومثّل هيكل أمام ألف شخص التمثيلية التي كانت ستطرح لو تم إيجاد حلّ خلال الشهرين الأوّلين للأزمة. وفي النهاية لم يقل شيئاً، تماماً مثلما ان الجامعة العربية ما كانت فعلت شيئاً. هذا هو هيكل. هذا هو أيضاً «الحلّ العربي» عند هذا المفصل التاريخي. وكان صدام حسين أفضل من فهم هذا الأمر، بل إنه راهن عليه في الواقع عندما اجتاح الكويت.

خلال أزمة الخليج، أكد نعوم شومسكي، مثل محمد حسنين هيكل، أن ثمة خياراً بديلاً للحرب هو التفاوض والحلّ الدبلوماسي، «غير أن الولايات المتحدة رفضت أي إشارة أو تلميح إلى احتمال وجود مسلك دبلوماسي وذلك منذ البداية... وقد قدم العراق مراراً عروضاً كهذه واقترح الأردن ومنظمة التحرير وفرنسا ودول أخرى تحاول إيجاد وسيلة لتفادي هذه الكارثة عروضاً»[٤٣]. وتضمنت البنود الرئيسية للتسوية التي كان شومسكي يفكر فيها تقديم ضمانة ما للعراق بمنحه منفذاً على الخليج، وهو «مطلب يوافق الجميع على انه ليس غير منطقي»، إلا أن العراق الذي وصفه شومسكي نفسه في ظروف أخرى بأنه «ربما كان أكثر دول العالم عنفاً وقمعاً»، أظهر الطابع المنطقي لمطالبه باجتياح دولة مجاورة أضعف منه بكثير وأقل عدوانية، ونهبها وضمّها[٤٤]. لماذا اختار شومسكي وقتاً كهذا للفت الانتباه إلى منطق صدام حسين؟ من بنود التسوية بالتفاوض، حسب شومسكي، اتخاذ قرار بشأن مطالبة العراق بحقل الرميلة النفطي «الذي يقع ٩٥٪ منه داخل العراق و٥٪ داخل الكويت، عبر حدود هي موضع نزاع غير مرسومة بشكل ثابت... لقد تم التفاوض في شأن خلافات جغرافية أعظم من هذه». ليست لدي أية فكرة عن المصدر الذي استقى منه شومسكي إحصاءاته، لكن إن كان الأمر على تلك الحال فينبغي أن تقلع الكويت عن تصرّفها غير المنطقي وتعطي العراق ببساطة ما يريده إذ لم يعد هناك ما يمكن التفاوض بشأنه. كذلك أيّد شومسكي إجراء «استفتاء عام أو طريقة أخرى للتعبير عن الإرادة الشعبية داخل الكويت»[٤٥] كجزء من التسوية. إلاّ أنه أهمل التوصية حول الأمر نفسه بالنسبة للعراق. لماذا؟

إن الطابع الفريد لتصوّر شومسكي للأشياء هو الافتراض انك إن سمحت لنفسك بالتفكير أن ثمة تحدياً أخلاقياً يطرحه استيلاء صدام على الكويت «فلديك بالتالي حجّة، حجّة معقولة ظاهرياً بأنه لا ينبغي عليك اعتماد خيار دبلوماسي، وكل ما علينا أن نفعله هو أن نذهب إلى الحرب»[٤٦]. من هنا استعرت الرغبة الجامحة في التنقيب عن هذا «الطابع المنطقي» للتصرّف العراقي والبحث في كلّ اتجاه عن تسويةٍ لم يكن ممكناً

التوصل إليها إلاّ بمنح «أكثر دول العالم عنفاً وقمعاً» انتصاراً معنوياً وسياسياً هائلاً. من هنا أيضاً الحاجة إلى التشديد على خبث الولايات المتحدة ومواقفها الوقحة، والتذكير باستمرار بغرانادا وبنما والسلفادور وفييتنام. إن موقف شومسكي، مثل «الحل العربي»، ينم عن عدم رغبة أو عجز عن التبصّر في خصوصيات الوضع من منظار الأشخاص الذين يعيشونه على الأرض والعواقب المتأتية عليهم من جراء فلاح صدام حسين في شيء يمكن تحويله بخدعة إلى انتصار.

إن التأكيد على أن المبادىء الأخلاقية لم تكن على المحك في المقام الأوّل أثناء اجتياح الكويت، إذ يصدر عن شخص مثل شومسكي، يعوق وجهة النظر المنطقية الوحيدة لمعارضة حرب الخليج. تقول وجهة النظر هذه انه حتى لو كانت مبادىء أخلاقية هامة على المحك، ينبغي التوصل إلى حلّ وسط بشأنها، بسبب النتائج الوخيمة على الصعيد الإنساني التي ستتأتى عن العمل بموجب هذه المبادىء. هذه حجة مشروعة تماماً وممتازة لمعارضة حرب الخليج، ولكانت ميزت شومسكي عن أشخاص مثل محمد حسنين هيكل. غير أنها لم تكن الحجة التي اعتمدها هو والعديد من الناشطين الأميركيين والأوروبيين الآخرين المناهضين للحرب.

٧ ـ النفط العربي بوصفه القوة المحرّكة للحرب

يظهر من قراءة محضر مؤتمر عقد بشمال أفريقيا في آذار/ مارس ١٩٩١ لتقييم تأثير أزمة الخليج على مستقبل العالم العربي ان جميع المشاركين في الاجتماع اتفقوا مع الاقتصادي عبد الجليل البدوي على أنه «من البديهي أن البترول العربي كان المحور الأساسي لحرب الخليج»[٤٧]. وكان البدوي يعني بذلك انه «عندما يطالب العراق بإعادة تقييم سعر النفط فإنه يضرب في الواقع الآليات القاعدية للاقتصاد العالمي ويهدد بضاعة حيوية ومصدراً لفوائد ضخمة محوّلة في أغلبها نحو الشمال... ولهذا السبب أصبح صدام الرجل المطلوب إسقاطه مثلما كان الأمر من قبل بالنسبة للدكتور مصدق في إيران وأللندي في التشيلي والقذافي في ليبيا»[٤٨].

أنا لا أشكك في كون الغرب يعلّق أهمية استراتيجية على إمدادات نفطية ثابتة تصله من الشرق الأوسط. لكن في مخيّلة شخص مثل البدوي، مثلاً، لا يزال الوهم قائماً بأن العلاقات الاقتصادية بين العراق والغرب محكومة بالإستغلال الذي يعمل بشكل محتوم لمصلحة الدول الرأسمالية المتقدّمة. وبالتالي فإن صدام حسين ليس شخصاً وحشياً بقدر ما هو روبن هود عربي كان يحاول بشجاعة أن يصلح الخلل في الميزان الاقتصادي

مكتبة الفكر الجديد

لمصلحة العرب قبل أن يضربه الغرب (تماماً كما كان على وشك تصحيح التنافر الجغرافي بين الثروة والسكان داخل العالم العربي لمصلحة الفقراء والمعدمين).

إن طرحنا أخطاء البدوي جانباً ـ لا يوجد نفط في التشيلي ـ فأول مسألة تتبادر إلى أذهاننا هي أن «عامل النفط» كان بالتأكيد أهم بالنسبة إلى الفريق الذي اجتاح الكويت، أي العراق، منه إلى الغرب. فلو تمكن صدام حسين من ضمّ الكويت نهائياً لكان ضاعف عائداته (حتى قبل أن يرفع الأسعار) مع زيادة طفيفة في النفقات. وبذلك كان أصبح العراق قوة إقليمية أكثر نفوذاً مما كان. ومن العدل القول إن هذا ما يريده مثقفون مثل البدوي وسمير أمين. وقد اختصر المصرفي العراقي أحمد الجلبي بشكل دقيق المعطيات الاقتصادية المرتبطة بأحلام العظمة هذه التي عرفتها تجربة الثمانينات العراقية:

«عام ١٩٨٠ كان العراق يملك ٣٠ مليار دولار نقداً و٣٥ مليار دولار من السلع المدنية و١١ مليار دولار على الأقلّ من الأسلحة. مع حلول عام ١٩٨٩ كان على العراق دين خارجي يزيد عن مئة مليار دولار في حين لم يكن لديه عملياً احتياطي نقدي. وبلغت العائدات النفطية الجديدة خلال الفترة ذاتها في العراق ١١٩ مليار دولار. إن قارنا الأرقام تبيّن لنا أن العراق أنفق مبلغاً مذهلاً قدره ٢٩٥ مليار دولار بين سنتي ١٩٨٠ و١٩٨٩. كيف أنفق هذا المبلغ؟ أنفق بصورة رئيسية في الدفاع عن الجانب الشرقي من العالم العربي ضدّ العدو الفارسي. ما معنى ذلك؟ معنى ذلك أن هذا المال أنفق لجلب الموت والدمار... ما هي كلفة قيمة استبدال البنى التحتية، المنشآت الإنتاجية، التجهيزات الرئيسية، المساكن، التحويلات النقدية للعمال الأجانب الذين استخدموا مكان العراقيين المنشغلين في الدفاع عن هذا الجانب الشرقي، والفرص التي ضاعت على البلد خلال هذه الفترة؟ كيف يبدو مبلغ ٢٠٠ مليار دولار؟ متواضع»[٤٩].

وخلص الجلبي إلى أنه تم تبديد حوالى ٤٩٥ مليار دولار من أجل أن يعود العراق إلى حيث بدأ عام ١٩٨٠ عندما أطلق أول مغامرة حربية خارجية له. إنها أرقام مريعة. ما الذي يجعلها معقولة؟ الدخل النفطي. لم يتوجب على صدام حسين في أي وقت خلال حياته السياسية ما بعد سنة ١٩٦٨ أن يتحدّى الغرب ليضع يديه على مبالغ كهذه (كما فعل الزعيم الإيراني مصدق في الخمسينات). فالعرب يملكون نفطهم اليوم ويحصلون مقابله على أسعار أعلى بكثير ممّا تبرّره كلفة إنتاجه الحقيقية. وسعر النفط اليوم في العالم لا علاقة له، في الواقع، بهذه الكلفة؛ إنه مثل هائل، يجمع على حساب جميع مستهلكي النفط، والعديد منهم في العالم الثالث.

مكتبة الفكر الجديد

إن كان صحيحاً أن الماضي أمر يهتدى به، فلماذا كان على الغرب أن يخشى شيئاً ن سياسة صدام حسين الرامية إلى تحديد أسعار جديدة للنفط، حتى لو ربح مغامرته لحربية الخارجية الثانية في الكويت. فحليف الغرب الأكبر ودعامته، شاه إيران، كان من اد من حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ لرفع أسعار النفط في أضخم زيادة شهدها ذا القطاع، مما أثار الاضطراب في العلاقات بين العالمين الأوّل والثالث (يذكر أن شاه إان أطاح رئيس الوزراء الإيراني مصدق في عملية جرت برعاية وكالة الاستخبارات ‌أميركية عام ١٩٥٣).

وتقف دولة كالعراق في الخط الأمامي للدول التي استفادت عام ١٩٧٣ من زيادة ـعار النفط بمعدل أربعة أضعاف، والزيادات تراكمت عبر السنوات لتصبح مصدر المبلغ ـذي تم تبديده والذي قدره الجلبي بـ ٤٩٥ مليار دولار.

إنْ تمكُّنَ العراق وإيران من الصمود طوال ثماني سنوات طويلة، مهلكين جيلاً بكامله ن الشبان العراقيين والإيرانيين، فذلك فقط بسبب الحجم الهائل لهذا الريع. فلم يكن كناً خوض حرب طويلة وبلا معنى كهذه باقتصادين آخرين «طبيعيين» - حيث يقوم خل الدولة على الضرائب الاجتماعية، وبالتالي على قدر معين من القدرة على إنتاج روات في شكل سلع وخدمات جديدة ذات إنتاج داخلي.

حينما كانت المعارك جارية، كان «الامبرياليون» الغربيون بالطبع يبيعون بكلّ سرور ـنادق للمقاتلين. ومع ارتفاع جبال الجثث الإيرانية والعراقية حققت شركات إنتاج ‌أسلحة الغربية، وكذلك العملاء، أرباحاً ضخمة. لا أحد يحاول إنكار ذلك، لكن، بلا ـك، كان مطلوباً أن يكون هناك من يريد شراء الأسلحة وخوض الحرب الدامية التي ‌دت بالعديد من العرب والإيرانيين.

دارت الحرب العراقية الإيرانية حول سعر برميل النفط ليس لأن طرفاً ما أرغم النظام ـعثي في العراق أو الجمهورية الإسلامية في إيران على سلوك هذه الطريق بالذات، بل ن كلاً من صدام والخميني مارس تعطّشه للدم من غير أن يتعرّض لأي انتقاد، ولا يما من قبل المثقفين العرب والمسلمين الذين شاركوا مثل البدوي في الهستيريا القومية ول صدام حسين خلال أزمة الخليج.

غير أن الماضي ليس أمراً يهتدى به دائماً. وهذا من الأسباب التي دفعت بهذا العدد كبير من الدول، بقيادة الولايات المتحدة، إلى التحرك لإرغام صدام حسين على الخروج ن الكويت. الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية هي قوى هرمة، محافظة وبيروقراطية ي عملية اتخاذ القرار. يهمها «الاستقرار» والعلاقات الثابتة أكثر مما تهمها المبادىء ـيموقراطية المتّقدة. تتمسّك بدول كالسعودية وإسرائيل فقط لأنها موجودة، لأنها تمثل

مكتبة الفكر الجديد

الوضع الراهن. وبناءً على المنطق ذاته، ظلت إلى جانب صدام حسين طوال الثمانينات. لكن عندما أثبت الزعيم العراقي انه صاحب مبادرات لا يمكن توقعها ولعين بالقدر نفسه، وعت القوى الغربية فجأة حقيقة أن المسألة مسألة وقت قبل أن يعيد الكرة من جديد، ثانيةً وثالثةً. لم تقم أية حكومة بتحرّك في أزمة الخليج بسبب قلق راسخ بشأن حق الكويتيين في تقرير مصيرهم، أو بسبب سحل صدام حسين في مجال حقوق الإنسان، بل بسبب قلقها بشأن أمور كسقوط «أحجار دومينو» عربية، مما يمكن على المدى الطويل أن يعطل وصول الإمدادات النفطية الثابتة إلى اقتصاداتها.

إن سلّمنا جدلاً بتحرّكات صدام حسين غير المتوقعة والأهمية الاستراتيجية لكلّ هذا النفط، فإنني ما زلت أعتقد أنه كان من غير المؤكّد أن تقوم الولايات المتحدة بأي شيء من أجل الكويت لو كان عليها أن تعتمد على مواردها الخاصة. فتحرير الكويت كان في الحقيقة مشروعاً باهظاً جداً (كلّف حوالى ٧٠ مليار دولار بحسب التقديرات التي أعلنها البيت الأبيض في آذار/ مارس ١٩٩١، وكان على الولايات المتحدة أن تدفع من هذا المبلغ ١٥ مليار دولار)[٥٠]. لم يكن العراق غرانادا، كما أن صدام حسين لم يكن يجلس على أبواب أميركا، مثل نورييغا في پنما. هل كان من الممكن للولايات المتحدة أن تدفع فاتورة طرد العراق، علماً أن العجز في الموازنة الأميركية ارتفع من ٢٢٠ مليار دولار عام ١٩٩٠ إلى ما يقدّر بـ ٣٤٨,٥٠ ملياراً عام ١٩٩١، وان الدين القومي الأميركي بلغ ٣,٥ تريليون دولار، أي ثلاثة أضعاف ونصف ضعف ما كان عليه قبل عشر سنوات؟[٥١]. ما كان ذلك ممكناً من غير أن تغرق الولايات المتحدة في ركود اقتصادي أخطر بكثير من ذلك الذي كانت تعيشه. لم يعد الاقتصاد الأميركي يتمتع بالموارد الكافية لخوض مغامرات كبيرة في الخارج. فهو يشهد منذ فترة طويلة، بحسب بعض المحللين، انحداراً حاداً تبعاً للمقاييس العالمية، وهذا الانحدار ما زال مستمراً بقوة[٥٢].

لا شك أن طرفاً آخر كان يرغب في تمويل المجهود الحربي في الخليج وإمداد الجيش الأميركي بالدعم اللوجستي الضروري لحرب التكنولوجيا المتطوّرة هذه القليلة الإصابات والمرتفعة الكلفة، وهي الحرب الوحيدة التي يحسن خوضها. قدمت اليابان وألمانيا بتردد وبعد ضغوطات كثيرة عليهما مساهمة بقيمة ثلاثة مليارات دولار في المجهود العسكري[٥٣]. وبذلك بقيت حصّة الأسد من النفقات، وقدرها ٥٢ ملياراً، لتسهم بها دول عربية أخرى بحماس وعن طيب خاطر. أمّنت السعودية بصورة خاصة الجزء الأكبر من المال، مستخدمة دخلها النفطي الواسع، فاشترت خدمات أكبر جيش في العالم، تماماً مثلما تشتري عملياً كلّ ما تستهلك (باستثناء الدين).

من هذا المنظار المختلف لحرب الخليج، يمكننا أن نوافق البدوي الرأي بأن النفط العربي كان حقاً «محورها الرئيسي».

٨ ـ الامبريالية الثقافية

كان إدوار سعيد من أوائل المثقفين العرب البارزين الذين أبدوا ردة فعل علنية على الوضع الجديد الذي أنشأه صدام حسين. ويبدو أن ردّة فعله كانت غريزية ـ ردّة فعل «من الأعماق العفوية» على الأزمة، جاءت متناغمة، حسبما كان متوقعاً، مع وجهة نظر عالمية عرضها في كتبه العديدة الكثيرة الرواج. كتب سعيد في صحيفة «ذي أنديبندنت» (لندن) بعد عشرة أيام من اجتياح الكويت، غير متطرق إلى صدّام حسين، مركّزاً مقالته على الذنب الغربي: «أمن المبالغ فيه ربط الإستقطاب السياسي والعسكري المتصلب [المتعاظم في الخليج] بالهاوية الثقافية القائمة بين العرب والغرب؟»[٥٤].

رددت عليه في ذلك الوقت فكتبت سائلاً «ما هذا الذنب الغربي؟ المسألة ليست مسألة تأميم قناة السويس، بل ضم دولة عربية لدولة أخرى قسراً. إنه صدام حسين، وليس جمال عبد الناصر. هل يرضى إدوارد سعيد أن يصبح مؤسس الجمهورية البعثية ومخلوقها محور كل السياسة العربية؟ هل يعتقد جدياً أن الفلسطينيين كانوا تمكنوا عندها من التفاوض مع إسرائيل من موقع قوة (ليس قوتهم الخاصة بالطبع، بل قوة صدام حسين؟)»[٥٥]. ومضى سعيد في مقالته مشدّداً على سكان الكويت «غير الكويتيين بغالبيتهم الساحقة»، مبرزاً واقعاً ذا مغزى على ما يظهر وهو انه «مع بعض الاستثناءات فإن حكومات المنطقة لا تتمتع سوى بقدر ضئيل من الشرعية التاريخية. إنها استمدت وضعها الشرعي من الاستعمار، ومن القوة، أو من مجرّد ابتياع السلطة»[٥٦].

غير أن «التاريخ» هو بالضبط ما يستخدمه زعماء مثل صدام حسين لتبرير أفعالهم الفظيعة. كما أن «الشرعية التاريخية» (أو غيابها) تمثل في الوقت ذاته تبريراً للقضاء على النظام الحديث السائد في الدول العربية. فالكويت من وجهة النظر هذه لا تختلف عن الأردن، أو سوريا، أو لبنان، أو العراق نفسه. لماذا لم يستطع رجال صدام حسين العثور على كويتي واحد يشارك في الحكومة الدمية التي ظلّ يدعي قيامها لبضعة أيام؟

إن مرور الوقت، وتطوّر آليات الدولة، وإصدار جوازات السفر، ونمو بضعة أجيال داخل كيان يدعى الكويت (مهما كان مصطنعاً، من المنظور التاريخي)، كلّ هذا له معنى في نهاية الأمر. ما كان على المحك في عمليات الجيش العراقي في الكويت هو السياسة، لا التاريخ.

مكتبة الفكر الجديد

غير أن الموضوع الرئيسي في ردّ فعل سعيد الأوّل هذا على أزمة الخليج كان الثقافة وليس التاريخ. وقد اعتبر ان اندلاع أزمة الخليج كشف عن أحكام مسبقة غربية عميقة الجذور ضدّ الثقافة العربية، تنبعث من تاريخ علاقتهما. ولم يكن سعيد المثقف الوحيد الذي شدّد على هذه المسألة. فقد عبّر العديد من المثقفين العرب الواحد تلو الآخر عن الرأي ذاته. اعتبر الروائي اللبناني الياس خوري أنّ أزمة الخليج تمثّل «استكمال للمشروع الاستعماري الذي تعرضت له المنطقة منذ سقوط محاولة محمّد علي» لتوحيد العالم العربي. وأبصر «مؤشرات الصلوبية الجديدة» تلوح في الأفق، متجذّرة في «عقدة تجاه الشرق» ما زالت متحكمة في السيكولوجيا الغربية[٥٧]. وكتب جورج طرابيشي عن «أزمة حضارية» تندرج في إطار «تنظيم حملة غزو «ثقافي» للعالم العربي»[٥٨]. ومن جهته تحدّث أستاذ علم الاجتماع في جامعة تونس الطاهر لبيب بمنتهى الجدية عن ظاهرة جديدة تدعى «البوشية»، لم تعد تكتفي بصون المصالح السياسية والاقتصادية الأميركية، بل تسعى لفرض «طابع التوتاليتارية الكونية» على العالم بطرح نفسها كحكم بين الخير والشرّ «على الصعيد الكوني»[٥٩]. كذلك كتب اليساري العلماني اللبناني فواز طرابلسي عن الجماهير العربية «التي لم تنس أن عدوها الرئيسي هو الولايات المتحدة»، بـ «ثقافتها العدائية» و«الازدراء الكبير الذي أظهرته حيال هويتها الدينية والثقافية ـ الإسلام»[٦٠]. وصدر كتاب يضم مقالات حول حرب الخليج بقلم مجموعة من أشهر الأسماء في الأدب العربي، لكن العنوان الفرعي الذي حمله كان «من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج»[٦١].

كان عبد الرحمن منيف، أحد أبرز الروائيين باللغة العربية اليوم، من المساهمين في هذا الكتاب. حرّر مقالته بعد انقضاء شهر كامل على انتهاء حرب الخليج، وفي حين كانت الانتفاضة ضد نظام بغداد تلقى قمعاً وحشياً، اختار العودة بالزمن إلى الحملات الصليبية والتأمل فيها، فتساءل لماذا يبدي الغرب هذا التصميم الثابت على «معاودة حروبه في هذه المنطقة». والردّ في نظر منيف هو رغبة الغرب في «إلغاء تاريخ المنطقة وحضاراتها وثقافاتها ودياناتها». واللافت بصورة خاصة هو مقدار التخيلات التي تُبتدع وتضاف إلى الوقائع. هكذا تطرّق منيف إلى نصب جواد سليم التذكاري لثورة ١٩٥٨ الواقع في إحدى ساحات وسط بغداد فكتب انه «من المحتمل أن يكون هذا النصب فجّر أو أن تكون قاعدته وحدها متبقية. والأمر ذاته ينطبق على نصب تاريخية عمرها آلاف السنين»[٦٢]. الحقيقة ان شيئاً لم يحصل لهذا النصب ولا لأي نصب تاريخي في العراق نتيجة قصف القوات المتحالفة، غير أن دبابات الحرس الجمهوري التي لم يأت منيف على ذكرها في مقالته، هي التي اتخذت، كما ذكرنا سابقاً، المقامات الدينية والتاريخية أهدافاً

مكتبة الفكر الجديد

لها وألحقت بها أضراراً جسيمة حين كانت منهمكة بتدمير مناطق سكنية كاملة في البصرة والنجف وكربلاء.

تعود صورة الثقافة العربية التي يغرقها الغرب إلى القلب العاطفي للنموذج القومي (كما تعود إلى قلب النموذج الإسلامي على شكل الخوف من «القيم الغربية» الغربية). ومقالة سعيد المنشورة في ١٢ آب/ أغسطس تصوّر بشكل جيد الإطار المشوّه الذي تنظر السياسة القومية العربية الحديثة من خلاله إلى العالم. كذلك يصور «الهاوية الثقافية القائمة بين العرب والغرب» سيل من عناوين كتب عربية، من المفترض أنها لم تلق سوى اعتراف ضئيل في الغرب بسبب عنصرية ملازمة للغرب تجاه العرب. إنّ العنصرية تجاه العرب موجودة بالتأكيد في الغرب (كما توجد العنصرية في كلّ مكان من العالم). والتاريخ الامبراطوري الغربي حدّد أشكال هذه العنصرية. غير أنه يظهر جلياً وبشكل مؤلم أن الثقافة الغربية اليوم (وإن لم يكن خلال تاريخها كله)، هي أكثر تسامحاً بكثير من الثقافة العربية حيال الاختلافات الثقافية والدينية والاثنية. لكنّ سعيد غير مهتم بالعالم العربي كما هو حقاً، فما يهمّه هو إلقاء اللوم على الغرب للفوضى التي ولّدها صدام حسين. والأسلوب الذي اتبعه للوصول إلى هذا الهدف في مقالة «ذي أنديبندنت» بالذات يرسم صورة مثالية عن نهضة أدبية عربية تغصّ بالكتب الجديدة والأفكار الجديدة المثيرة للاهتمام، وكلّها تصطدم بناشرين ورؤساء تحرير ونقاد غربيين عنصريين يتعمّدون استبعادها. هذه الصورة لوضع الثقافة العربية هي بكل بساطة غير صحيحة.

لننظر إلى وضع الكتاب العربي. عام ١٩٨٩ خصصت المجلّة الأسبوعية العربية «شذا» الجزء الأكبر من أحد أعدادها لـ «واقع الكتاب العربي وأزمته». ونشرت المجلة مقابلات أجرتها مع العديد من الناشرين وبائعي الكتب العربية، لتبيّن أسباب الانحطاط العميق في نوعية هذه الكتب الناطقة بالعربية وعددها وتوافرها ـ انحطاط اتفق الجميع على أنه بلغ حجماً خطيراً. تحدّث رياض الريّس، الناشر ذاته الذي أصدر الكتاب الذي عنوانه الفرعي «من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج»، عن عدد القراء المنخفض نسبياً بين العرب بالمقارنة مع الغرب. ولفتت مي غصوب، مديرة دار الساقي (لندن)، إلى قلة العناوين الجديدة، وإلى المستوى الثقافي المتدني والمتراجع للقارىء العربي المتوسط. أما هشام معاوية، صاحب مكتبة ابن سينا العربية في باريس، فأعرب عن اعتقاده بأن المشكلة تعود إلى الطفولة. وأجمع الكلّ، بمن فيهم محرّر المقالة، على أنهم يتناولون مشكلات عميقة الجذور، نشأت في الثقافة العربية نفسها (وليس في علاقتها بالثقافة الغربية).

وفي مقالة هامة نشرتها صحيفة «الحياة» العربية، استعرض اندريه كسبار، مدير دار

«الساقي»، بالتفصيل المشكلات المحبطة التي واجهها كناشر عربي في الغرب (من المصادفة أن كلّ دور النشر والمكتبات هذه خارج العالم العربي ظاهرة شهدتها الثمانينات، وهي نتيجة انتحار بيروت. وقد حلّت أوروبا محلّ بيروت كجنة للكتب الجيدة النوعية بالعربية حول الشرق الأوسط)[٦٣]. ذكر كسبار مشكلات مرتبطة برقابة الدولة وسيطرتها على جميع شبكات التوزيع، وعدم القدرة على الوصول مباشرة إلى القارىء العربي، والقرصنة المتفشية، وظاهرة الناشر الأمي (لا تزال سائدة)، وغياب مفهوم حقوق النشر وحقوق الكاتب المالية أو أية قواعد أخلاقية في إنتاج الكتب العربية، وضرورة أن يضحّي كل من الكاتب والناشر بالنوعية للتمكن من نشر أي شيء، الفساد المتشبث بنظام توزيع الكتب، والانحطاط في نوعية الكتاب المتوسط، إلخ... لم يكن من الممكن رسم صورة قاتمة أكثر.

لا يخطر أي من هذا لقارىء سعيد، طرابيشي، منيف، أو أي من المثقفين العرب البارزين العديدين الآخرين، كما لا يساور أياً منهم أن كلّ ذلك يمثل العقبات الهائلة التي تعترض يومياً العرب الذين امتهنوا صناعة ثقافتهم الخاصة. عوضاً عن ذلك تقودنا هذه القراءات إلى الاعتقاد بأن كلّ المشكلات (من سياسة أزمة الخليج إلى الثقافة العربية) ناجمة عن سياسة الغرب القاضية بـ «التقليص المتماسك الآحادي كلّما كان العرب والإسلام معنيين»[٦٤].

وإذ أعكس السؤال البلاغي الذي طرحه سعيد في مقالته حول الترابط بين الحشد العسكري في الخليج و«الهاوية الثقافية القائمة بين العرب والغرب»، اختتم بسؤال خاص بي: هل نبالغ إن ربطنا بين الإستقطاب السياسي والعسكري الشديد الذي ولّده صدام حسين والهاوية الثقافية القائمة اليوم داخل العالم العربي نفسه؟ إن أزمة الخليج لم تكشف عن أحكام مسبقة غربية ضدّ العالم العربي بقدر ما كشفت عن أزمة عميقة الجذور داخل الثقافة العربية الإسلامية عند هذا المفصل الحاسم من تاريخها.

لقد كتب وليد خالدي عن «فشل النظام السياسي العربي، حيث تطوّر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في كلا المشرق والمغرب، في أن يقترب في أي من الدول السيدة المشاركة فيه من أدنى مستويات المشاركة الفعلية في السلطة والمحاسبة ضمن الحكومة، وبقدر أقل من المؤسسات البرلمانية ذات الإدارة الذاتية العاملة ضمن شكليات وقيود ديموقراطية»[٦٥]. لم يعد من الممكن إلقاء مسؤولية هذا الفشل على الغرب أو إسرائيل، كما يحب المثقفون العرب أن يفعلوا. لا يمكن حتى إلقاء هذه المسؤولية على حكام العالم العربي وحدهم أو بشكل رئيسي. فرجال أمثال صدام حسين وحافظ الأسد والملا

مكتبة الفكر الجديد

وياسر عرفات لا يعرفون كيف يمكن التصرف بصورة مختلفة. إنهم ابتكارات خالصة للثقافة السياسية العربية الحديثة، التي فشلت حتى الآن في إنتاج شيء أفضل. والمشكلة الأعمق لا تكمن في سيكولوجيتهم بل في العدسات المشوّهة التي كان ينظر إليهم عبرها المصدر الحقيقي للفشل في الثقافة ـ المثقفون العرب الحديثون.

كنت في الواقع أحاول أن أثبت أن لغة حقوق الإنسان ولغة القومية العربية أو الإسلام السياسي أصبحتا متضاربتين تماماً. هذا لا يعني أنه لا توجد أشكال معتدلة من القومية، أو أنه من الصفات الملازمة للإسلام مقاومته التعايش مع سياسة تقوم على حقوق الإنسان. فالإسلام لا يختلف عن أية ديانة أخرى في العالم، من حيث قدرته على التأقلم مع سياسة تقوم على حقوق الإنسان، والقومية العربية يمكن أن تكون مرنة أو «قابلة لإعادة التفسير» مثل أي إيديولوجيا أخرى.

المشكلة هي أن أياً من القومية والإسلام السياسي في تطبيقاتهما الحالية، ليس مجهزاً فكرياً لإحداث انطلاقة ثقافية جديدة في سياسة المنطقة. فشلهما الأكبر، كما أراه، هو أنهما لم يتمكنا من تطوير لغة حقوق مقنعة فعلاً في السياسة. كلاهما بات متحجّراً، رجعياً، مسترسلاً في رومنسية «نضال» تؤدّي إلى العنف. هذه اللغة هي اليوم محتشدة أمام جدار من الآلام والمعاناة التي أنزلها العرب بأنفسهم. ولا يمكن لبداية جديدة أن تنطلق سوى من وقائع هذه المعاناة القاسية، وبموجة عربية جامحة في اشمئزازها من الوحشية في البيت العربي وفي الشارع العربي، موجة ترى في شخص مثل صدام حسين مصدر الوحشية وليس مصدر القوة العربية.

لم تكن تغطية وحشية النظام العراقي خلال أزمة الخليج مجرد «خطأ صغير» اقترفته حفنة من الأشخاص المضلّلين، بل كانت فشلاً متجذراً ينبغي الإقرار به إن كنا نرغب ببداية جديدة. فإن كان العرب يريدون وضع حد لدوامات العنف وهدر الدماء وفقدان الأمل فاليأس، عليهم أن ينظروا إلى الداخل ـ وليس إلى الخارج، إلى الغرب ـ ويدركوا أنهم يتحملون الجزء الأكبر من المسؤولية عن عالمهم البائس. وبعبارة أكثر تحديداً، لن يكون أي فكر سياسي جديراً بأن يطرح في المستقبل إن لم يكن محوره أشخاص أمثال خليل وأبي حيدر وعمر ومصطفى وتيمور.

مكتبة الفكر الجديد

٩ ـ مشاهد من القسوة والصمت

قد تعتبر قصص خليل وأبي حيدر وعمر ومصطفى وتيمور، من قبل البعض، بمثابة
ِافات غريبة عن سياق التاريخ العربي الحديث. والمرء ليتعاطف مع حالة الضحايا، غير
يس هناك أي شيء في أي من القصص يمكن أن يؤثر عموماً في بقية العالم العربي.
الممكن إذاً القول، «لم نكن نعرف» أو حتى، «لم يكن ممكناً لنا أن نعرف».

كان العراق في النهاية بلداً مغلقاً جداً. بعض الأصدقاء العرب، الذين يوافقون على
وراً فظيعة حدثت في العراق، يستسلمون لتفسير يتعلق بحالة مرضية عراقية وطنية،
ية فريدة من نوعها يفترض انها موجودة على الدوام، للاستسلام لحكم متسلّط
بدادي. ومن هنا فإن بقية العالم العربي، بحسب وجهة نظرهم، لا يمكن أن يعتبر
ولاً عما جرى في العراق.

يتعذر الدفاع عن ذلك الموقف لأسباب مختلفة. بداية، منذ أواخر الستينات تفشت
وة في كل بلدان المشرق التي عاشت تجارب الحروب، والحروب الأهلية،
حتلالات، وأشكال العقاب الجماعي، والمنظمات الميليشياوية المسلّحة، والعمليات
ابية، والإنتفاضات، والترحيل الجماعي، وبيروقراطيات الإدارات الحكومية الواسعة
شار التي تعتبر التعذيب بمثابة قاعدة. لا أقول هذا لإنكار فرادة التجربة العراقية،
س في نيتي بالتأكيد نزع العبء العاطفي لتلك الفرادة. بل على العكس، إذ فقط عبر
رنة بين البلدان يمكننا أن نفهم بالتحديد ما هو استثنائي في ما جرى في العراق.
تناول نفسه، فإن تلك المقارنة سوف تسمح لنا أن نفهم ما هو، على سبيل المثال،
س بالقسوة اللبنانيّة والفلسطينيّة والسوريّة.

كان العنف ينتشر داخل كل من البلدان العربية ليورط أعداداً أكبر وأكبر من الناس.
عظم من ذلك، انتقاله من بلد إلى آخر. لم يعد العنف يهدد الأقليات الدينية والإتنية

مكتبة الفكر الجديد

فقط، بل أصبحت اليوم الأكثريات الدينية (الشيعة في العراق والسنّة في سوريا) تشعر بأنها مهددة أكثر من أي وقت مضى، وهي ترد على ما تتعرض له بالمثل. الوطنية الفلسطينية صيغت وتشكلت، مجروحة ودفاعية على نحو ما نرى اليوم، في سياق الانكار الصهيوني المستمر لها. وكلّما هوجمت بشكل أعنف، باتت أقوى وأكثر نكوصاً. كل هذا طبيعي تماماً، وهو ردة فعل بشرية على إنكار الهوية بواسطة العدوان. هناك أيضاً لسوء الحظ أرض خصبة للتعصّب القومي والديني والإتني، المصحوبة كلها بهشاشة الروابط داخل الدولة والولاءات والانتماءات. ووحدة العراق اليوم، مثل لبنان في الأمس، مهددة بهذه القوى.

إن منطق العنف الذي تصاعد لولبياً في الشرق الأوسط خلال السنوات الماضية هو سبب ونتيجة معاً للعجز المتزايد لدى الأفراد والمجموعات السياسية عن ترسيخ هويّة لأنفسهم، هوية لا تكون حبيسة حركتها، ولا تكون في أساسها معادية للآخرين.

ولكن هل ينطوي ذلك على أن هناك فرادة عربية، أو حالة مرضيّة «قومية»، في ما يتصل بالعنف والقسوة؟ هذه الفكرة أقل وجاهة حتى من تلك التي تتحدث عن ميل عند العراقيين نحو العنف. والحق أن هنالك، في النهاية، تجانساً أقل بين التجارب داخل كامل العالم العربي، ممّا داخل حدود العراق. فالأمر الأهم بشأن العنف المأسس في العراق، مقارناً مثلاً بالفوضى السياسية والاجتماعية اللبنانية، هو كم أن أحدهما مختلف عن الآخر، وليس شبيهاً به. والأمر الأشد إثارة للإنتباه في شأن العنف والقسوة العربيين هو الأشكال العديدة التي يتخذانها، والتواتر الذي يخضعان له، والذي يفعلان من خلاله، والقوى التي تجعلهما يتقلصان، أو ينفجران بجنون في لحظة معيّنة على المسرح الشعبي. ففي الشرق الأوسط، جنح العنف إلى أن يصير معتقداً يملأ الحيّز العام، وملاحظة كهذه ليست بالضرورة إنتقاداً لميل العالم العربي نحو العنف والقسوة بالمقارنة مع بعض الأجزاء الأخرى من العالم. فمن الواضح أن هناك عنفاً في كل مكان في العالم. وهدف أي مقارنة هو على الدوام الوصول إلى ما هو على بساط البحث. أما هدفي هنا فيتمحور حول السؤال التالي: هل القسوة في خط متصاعد داخل العالم العربي، منظوراً إليه كإقليم واحد؟

المشكلة الأولى في الإجابة عن هذا السؤال هي عدم وجود توثيق وافٍ. التقارير التي تنشرها منظمات مثل منظمة العفو الدولية و«هيومان رايتس واتش» تشير إلى أن هناك تصاعداً في درجات التعدي على حقوق الإنسان في الشرق الأوسط. غير أن هاتين المنظمتين نظرتهما جزئية، وعموماً غير وافية في وصف المقياس العام لما يجري يومياً.

مكتبة الفكر الجديد

والأهم من ذلك، أن التقارير لا تعدّها منظمات عربية، هي في موضع من يمكن له الحصول على معلومات أكثر تفصيلاً. وهكذا يمكن بسهولة أن تواجه هذه المعلومات بلا مبالاة من قبل القوميين، والمعادين للامبريالية، والمثقفين المسلمين، وحتى منظمات الجاليات العربية في الغرب، التي، في المقابل، تعتبر استخدام هذه المعلومات، دليل على مدى رغبة العالم الخارجي بنقد العالم العربي[١].

يمكن أن يظهر تفاقم القسوة فقط حين نصبح في الواقع أكثر إدراكاً ووعياً لها. إن شيئاً كهذا يحدث الآن في العراق. إننا نكتشف يومياً معلومات جديدة عن فظاعات ماضية. ومهما كانت صعوبة ذلك، يجب أن لا ندع تلك المعلومات الجديدة تطغى على حكمنا على ما يجري في العراق اليوم وما الذي سوف يحدث غداً. فالوحشية تظهر على سبيل المثال بشكل متفاقم كأحد مواضيع الأدب العربي الجديد (غالباً في الروايات التي تكتبها نساء عربيات، خصوصاً النساء اللبنانيات)[٢]. حقيقة أننا نعرف أشياء أكثر عن الفظائع التي حدثت في الماضي، وهناك بشكل خاص مجموعة من الكاتبات يتحدثن عن ذلك، وهو أمر جيد عموماً. غير أنه من الوجه السلبي لتلك الموازنة النهائية يبرز السؤال التالي: هل كان في إمكان الدولة العراقية أن تقتل تلك الأعداد الكبيرة من الأكراد كما كانت فعلت طوال الثمانينات، لو لم يكن قد تشكّل في معظم بلدان المشرق مناخ عميق التجذّر من إنعدام الحساسية؟ لماذا ليست هناك بعد دراسة واضحة عن الحرب الأهلية في لبنان مكتوبة باللغة العربية؟ ولماذا ليست هناك واحدة عن المجزرة السورية في حماه عام ١٩٨٢ والتي قضى فيها ربما ما بين العشرة آلاف والأربعين ألف شخص؟[٣].

إن الإنتلجنسيا تَستدخل فيها حالة عالمها، سواء بنحو بيّن أو مضمر؛ وتتهيأ لغتها بهيئته سواء رفضته أم قبلت به. والتكيّف المتزايد مع الوحشية يصبح، في المدى الطويل، خطيراً كالوحشية ذاتها. فلو استطاعت التيارات الفكرية العربية المسيطرة أن تنجح في مشروعها سنة ١٩٩٠ ـ ١٩٩١، لكان العالم العربي اليوم سيواجه بالتأكيد صدّام حسين أقوى يعد العدة، بعدما هضم الكويت، لمهاجمة بلد عربي آخر. ما الذي منع إبان حرب الخليج كل المثقفين العرب تقريباً من التساؤل في شأن العواقب التي يمكن أن تتأتى على العرب الآخرين، إن قُدّر للبعث العراقي أن ينجح في ابتلاع الكويت؟

فالوحشيات الكابوسية التي أصبحت قاعدة داخل العراق كانت ستصدّر مرة جديدة إلى خارجه. وكم من الأشخاص الإضافيين مثل خليل وأبي حيدر وعمر ومصطفى

مكتبة الفكر الجديد

وتيمور، كانوا سيعيشون تحت الإحتلال، ويُذلّون، ويعذّبون، ويقتلون ويقصفون بالقنابل الكيميائية؟ إن كيل التهم للغرب وعدم المبالاة إزاء القسوة هما في هذا المنظار مظهران مشابهان لمنطق الرفض وعدم الرغبة في مواجهة المرء عواقب كلامه هو بالذات.

لا أستطيع أن «أثبت» ان القسوة تتفاقم في المشرق. غير اني أظن انها اصبحت «إعتيادية» جداً، ومقبولة لدى المثقفين العرب، خصوصاً لدى أولئك المقيمين في الغرب، لكنهم الأكثر غربة عنه، ولأجل هذا كان هذا الكتاب. ما سيلي منه سيكون رحلة وجيزة عبر المشاهد المنسيّة للقسوة والصمت في العالم العربي، إذ يوماً ما ستكون مواجهتها على نحو صحيح ممكنة. وهذه الرحلة ليست بديلاً عن التوصل إلى فهم عميق لظاهرة القسوة المتصاعدة في الشرق الأوسط. إنها مجرد رسمة أوّليّة مرسومة بضربات ريشة عريضة وسريعة. قد يعترض البعض ويقول إن رسم هذه الصور ليس بالفكرة الحسنة، بغض النظر عمّا إذا كان حقيقة أم لا. لكن، من جهة أخرى، تنمو القسوة وتزدهر في الظلمة، ومن أجل التخلّص منها وإبعادها، يتوجب على المرء أن يسلّط عليها أقوى الأضواء سطوعاً.

القسوة والمرأة العربية

هناك وجهان للقسوة: وجه عام، ووجه خاص. حتى عندما تنفّذ القسوة الجسدية علانية ـ سواء كانت، على سبيل المثال، موجّهة من جهاز الدولة، أو من قبل حشود ثائرة ـ فإنه يسبقها زمنياً شبكة من الإفتراضات الأخلاقية الخاصة، هي التي تجعل الإعتداء ممكناً. وانطلاقاً من وجهة النظر هذه، فإن تقصّي القسوة في العالم العربي ينبغي أن يبدأ من هدفها بأشمل معاني الكلمة، أي: المرأة العربية.

عزيز صالح أحمد هو إسم مكتوب على بطاقة تعريف قياسها ٣ × ٦ إنشات، حصلت عليها بواسطة الفاكس أولاً في صيف ١٩٩١. كان من الصعب قراءتها في بداية الأمر كونها صورة لفاكس مأخوذة عن فاكس آخر. هذه السلسلة كانت بدايتها في المبنى المركزي لقيادة الأمن في السليمانية.

كان **أحمد** شرطياً، موظفاً في مؤسسة الأمن العام في العراق. وفي ما يأتي صورة طبق الأصل عن تدوينات البطاقة (مع التدوينات المكتوبة بخط اليد الظاهر في حروف طباعية مائلة):

مكتبة الفكر الجديد

القيود السرية	نموذج رقم (٣) أمن العام

بطاقة فهرست عام

الشهره

ملف رقم ٤٣٣٠٤

الاسم الثلاثي: عزيز صالح أحمد

تاريخ الميلاد: [تركت فارغة]

المهنة: مقاتل في الجيش الشعبي

نشاطه: الاعتداء على شرف النساء

السيد **عزيز صالح أحمد** موظف مدني يدفع له راتب شهري ليغتصب نساء عراقيات[٤].

إن بربرية دولة تستخدم أناساً كمغتصبين، وما يجري في ذهن رجل مثل **عزيز أحمد** هما سؤالان هامان، غير أن ما يهمني في الوقت الحاضر هو ما تنبئنا به وثيقة من هذا النوع.

فممارسة الاغتصاب كانت منتشرة بشكل كبير، حتى يُعمل على إصدار بطاقات كهذه. وعندما جرى اقتحام سجون المخابرات والجيش إبان انتفاضة آذار/ مارس ١٩٩١ أُطلق سراح أعداد كبيرة من النساء مع أطفال كن ولدنهنّ في السجن[٥]. ويبدو أن كلاًّ من السجون الرئيسية كان يحتوي على غرفة للاغتصاب جهّزت خصيصاً لهذا الغرض (كانت إحداها مليئة بصور بورنوغرافية من النوع الخفيف ملصقة على الحائط المواجه). في الكويت المحتل، روي لي انه داخل مركز للإغتصاب كان مقاماً في الشويخ، ومدهوناً باللون الأخضر الزيتوني كتبت بالدم على الجدران عبارة «حرّروا فلسطين»[٦]. الأطفال الذين ولدوا ضحايا عمليات الإغتصاب تلك انتهى بهم الأمر في ميتم دار الطفولة في ضواحي العاصمة الكويتية، فيما تُقدّم أيضاً استشارات طبية خاصة لضحايا الإغتصاب ـ من الرجال والنساء ـ في عيادة **الراجعي**، والتي أسسها مؤخراً الدكتور **رحمن العصفور** لهذا السبب بالذات[٧].

ومن بين القصص التي سمعتها وأنا في العراق، والتي ما فتئت تتسرّب منذ اندلاع حرب الخليج وتشيع حيثما يحلّ اللاجئون، يتبيّن من غير شك أن الإغتصاب «الرسمي»

مكتبة الفكر الجديد

كان منتشراً في العراق، وربما أيضاً خارج إطار السيطرة، ومن دون أي نوع من الكبح[8]. فكيف في وسع الدولة أن تفلت من فعلة شنيعة كهذه؟ إن الجواب لسوء الحظ لا يكمن فقط في قذارة صدّام حسين، وهو ما يود كل العراقيين ـ بمن فيهم أنا ـ أن يصدقوه، بل في الزواج بين ذلك النوع من البشر الذي يمثّله، وأحد أقدس إدعاءات الهوية الثقافية العربية، والذي تعبّر عنه كلمات هذه الجملة: «الاعتداء على شرف النساء». إن أرباب عمل **عزيز أحمد** ينتهكون شيئاً يصفونه رسمياً بأنه «الشرف».

إن الثقافة العربية الإسلامية ترى شرف العائلة في أجساد نسوتها وفي عذريتهن بالدرجة الأولى، وأيضاً في الملابس التي يرتدينها، وفي إحتشام تصرفاتهن. ويكتسب الحجاب أهميته في الثقافة لأنه يمثل رمزياً حماية للشرف من أنظار العامة، وبالتالي يعمل ظاهرياً على تعزيزه. هذا كان الدافع لفتوى الخميني بارتداء الحجاب وذلك في السنة الأولى من ثورة إيران الإسلامية. وعندما يمزّق **عزيز صالح أحمد** «حجاب» إمرأة عربية أو كردية ويعتدي عليها جنسياً، يكون في الواقع قد اعتدى على أقدس أقداس شرف العائلة بأكملها. إنهم لا يدفعون له أجراً كي يشبع رغباته الجنسية الخاصة، أو لمهاجمة ضحاياه كونهم أشخاصاً منفردين (لاستخراج معلومات منهم على سبيل المثال)، إنهم يدفعون له أجراً لكي يلحق العار باسم عائلة بأكملها. فضحايا السيد **عزيز صالح أحمد** لا يملكون حتى شرف انهن اغتُصبن لكونهن كائنات حساسة، تملك أفكاراً ومشاعر ومعتقدات خاصة بهن. فهن اغتصبن، في المقابل، كأدوات لتحقيق شرف كيان آخر وكرامته.

ومشاعر العار ـ بخلاف بالذنب ـ مرتبطة تقليدياً بالإعتداء على الشرف. فـ «إن كان الشعور بالذنب يتعلق بتصرف أدى إلى إيذاء الآخرين»، كما يشرح العالم النفسي **روبرت كارين**، «فإن العار هو الشعور بأن المرء ليس صالحاً بما فيه الكفاية»[9]. نموذجياً، العار هو شعور «مماثل للإنكشاف بشكل مفاجىء في العراء، والرغبة في الإختباء بأي ثمن»، فجأة يوضع لبّ هوية الشخص الذاتية على المحك، ولكن ليس بالضرورة بسبب شيء ما فعله هو. وفي حين أن الشعور بالذنب حكم تأمليّ ذاتي متعلّق بقصور أخلاقي واضح، فإن العار يتعلّق بأحاسيس كالتواطؤ، والقبول، وحكم الآخرين على أخلاقك. «الشعور بالعار هو توقّع التعرض للنبذ، ليس بسبب فعلة ارتكبها المرء، بقدر ما هو بسبب من هو، أو ماذا هو». وهذا النوع من الإحساس الباعث على الوهن والضعف لدى أقرب أنسباء الضحية هو ما يعوّل عليه أرباب عمل السيد **عزيز صالح أحمد**. وإنطلاقاً من هذا فإن بذور الفكرة غير القابلة للتصوّر (استخدام موظفين مدنيين كمغتصبين) مزروعة بالدرجة الأولى هنا: في تنظيم المجتمع التقليدي حول مبادىء الشرف والعار[10].

مكتبة الفكر الجديد

«كسر عين أحدهم»، هو تعبير بدوي قديم، تحوّل إلى سياسة للدولة في العراق، من خلال توظيف مغتصبين أمثال **عزيز صالح أحمد**. كان التكريتيون مشهورين أيام الحكم العثماني بالطريقة التي «يكسرون بها عين» أي حاكم غير تكريتي تفرضه عليهم الحكومة المركزية. كان الحاكم المعيّن حديثاً يدعى مع زوجته وأولاده إلى حفل استقبال في منزل الوجيه المحلّي. في طريق العودة، تتعرّض المجموعة لكمين أعدّته بضعة من الرجال المقنّعين والمسلّحين. وكان الحاكم يجبر على مشاهدة زوجته وهي تتعرّض للإغتصاب من قبل رجال العصابة. بعد ذلك كان الرجال ينزعون أقنعتهم، ويظهرون للحاكم وجوههم، ثم يتوارون في الليل من غير أن يقتلوا أحداً، لكن لا يعود بوسع ذلك الحاكم أن يدير شؤون تكريت.

خلال أواخر السبعينات كسرت أعين أشهر عائلات بغداد الارستقراطية، وقام بذلك حكام البعث الجدد الحديثو النعمة، على الرغم من أنه لم يعد لتلك العائلات، منذ زمن بعيد، أي تأثير سياسي، أو حتى قوة اقتصادية في البلاد. جرى اختطاف فتيات شابات من تلك العائلات من الشوارع وهنّ في طريقهن ذهاباً أو إياباً من أندية بغداد المشهورة. كن يتوارين طوال بضعة أسابيع ثم يظهرن من جديد. وكان الجميع يدرك ماذا حلّ بهنّ، غير أن أحداً ما كان يجرؤ (أو يرغب) في التحدث عمّا يتعلق بذلك. (حدث ذلك لعائلات سنّية وشيعيّة على حدّ سواء. وكانت مستهدفة بشكل خاص تلك العائلات السنيّة المدينية الشهيرة التي بنت العراق الحديث ولم تكن من تكريت)[11]. ينبغي على المرء أن يتذكر في هذا السياق ذلك العمل الشيطاني الذي قام به الجيش العراقي في مخيم **غشتابا** للتوطين بجنوب أربيل عام ١٩٨٢. فتلك المفاسد التي فرضت على نسوة **عشتابا** من قبل الجيش الذي كان يحاصرهنّ، وطوال عشر سنوات، كان هدفها الأساسي الرمز الأعظم للشرف الكردي القومي، وهو اسم **البرزاني**[12].

إن القسوة السياسية تبدأ عموماً في البيت. وإحدى الطرق الموصلة إلى هذه القسوة تمر عبر العار، الذي تذهب الأبحاث الجارية الآن إلى اعتباره «عاملاً هاماً في الاعتداء»[13]. **أمل مصيراتي** فتاة فلسطينية من الرملة في السادسة عشرة من عمرها، ضربها شقيقها حتى الموت في شتاء ١٩٩١ بعد أن ملأه شعور بالعار لكونها تقيم علاقة مع رجل. ثم ألقى جسدها المسحوق والمشوّه خارج **كيبوتز غان شمول** ليبدو الأمر وكأن يهودياً قتلها. **سارة أبو غنّام** وهي ابنة عائلة معروفة جداً في الرملة، تجرأت على الوقوع في غرام عربي «أسود»، ما اعتبر غير مناسب «لشرف العائلة». جرى تزويجها بسرعة إلى ابن عمّها. وجدت جثتها في بئر عميقة داخل بستان حمضيات قرب **ريشون ليزيون** وهي ضاحية في **تل أبيب**. كان القاتل زوجها الجديد[14]. في كل أنحاء المشرق

مكتبة الفكر الجديد

وحول المتوسط (شمالاً وجنوباً) هنالك نسوة مثل **أمل** وسارة، يتعرّضن للضرب، والوحشية، والقتل في معظم الأحايين، من أجل المحافظة على «شرف» عائلاتهنّ. وذلك الشرف تصل أهميته أحياناً إلى درجة أن الأمهات والجدّات يصبحن كذلك مشاركات فاعلات، إذ يقمن بحثّ رجال العائلة على قتل بناتهنّ بالذات. مي، وهي امرأة فلسطينية شابة عضو في «الفنار» (منظمة نسائية عربية)، كانت تظاهرت مرات خارج مركز شرطة الرملة، وكرّست نفسها لكشف هذا النوع من العنف للعيان، وتعرضت هي نفسها للضرب عدة مرّات: «قتلت جدتي بسبب شرف العائلة منذ خمس عشرة سنة، ومنذ أن ولدت لا تتوقف أمّي عن تحذيري بأن مصيري سيكون كمصير جدتي»[١٥].

لقد جرى الإستيلاء على وثائق أخرى من مراكز الشرطة العراقية أظهرت بالتدريج أن تقاليد الشرف والعار، تلك بالذات التي أدت إلى جريمتي القتل المذكورتين، وضعت في الخدمة «العامة» في عراق صدّام حسين، الذي ناصره العديد من المثقفين العرب خلال أزمة الخليج اعتقاداً منهم انه سيسترد «الشرف» العربي في الصراع مع إسرائيل. فعلى سبيل المثال، تظهر إحدى الوثائق التي استولى عليها الحزب الشيوعي العراقي في بلدة شقلاوة، أن شرطة بغداد كانت تضع كاميرات ڤيديو في متاجر بيع وخياطة الملابس التي تتردد إليها النساء الثريات. إحدى السيدات كان اسمها مكتوباً على الوثيقة، وكانت قد صوّرت وهي تقوم بنزع ثيابها لتجرّب ثوباً جديداً. كان الفيلم يستخدم لإبتزازها كي تعمل كمخبرة لدى البوليس (أخبرتني فتاة شابة من منطقة ملاصقة لبغداد أنها كانت تفترض منذ سنوات أنه كانت توجد كاميرات من ذلك النوع في المراحيض العامّة، ولهذا لم تكن لا هي ولا رفيقاتها تستخدماها البتة)[١٦]. في هذه الحالة فقط قبلت المرأة العمل لصالح البوليس. لماذا؟ من الذي كان يخيفها أكثر، زوجها، أم المخابرات العراقية؟ من الواضح أنه كان زوجها، وإلاّ لما تكبّدت الشرطة مشقة تسجيل مشهد خلعها لملابسها. إن أزواجاً مثل هذا هم، إذن، عن عمد أو غير عمد، متورطون، كما المخابرات العراقية، في تحويل النساء في العراق ضحايا.

وثيقة أخرى رأيتها في السليمانية تكشف حالة ممرضة موظفة لدى المخابرات. كانت هذه تقود شبكة كاملة من النساء «العذراوات»، كن جميعهن قد عملن مع المخابرات تحت تهديد الإبتزاز، وذلك بعد أن قُدّمت لهن التطمينات بأن تلك الممرضة سوف تخيط لهن مجدداً غشاء بكارتهن ليستعدن عذريتهن. ويبدو واضحاً أن الخوف من أن تكتشف عائلاتهن أمرهن كان يسيطر عليهن بشكل كبير، إلى درجة انه أجبرهن على التعاون مع الشرطة (ويصدف أنه معروف أيضاً أن الجيش والشرطة الإسرائيليين يستخدمان تلك المخاوف نفسها عند النساء الفلسطينيات السجينات خلال الإستجواب،

مكتبة الفكر الجديد

ولكن من دون التمادي واستخدام الوسائل التي يطبّقها البوليس العراقي)[١٧]. الكاتب العراقي **عصام الخفاجي** روى قصة مشابهة بعيد زيارته شمال العراق في ١٩٩١:

«**كفاح** شابة متعلمة بالكاد من **المشخاب**، وهي بلدة في جنوب بغداد، كمؤتمنة (منخرطة في صفوف الحزب الدنيا) في حزب البعث كانت قد أمرت بأن تتظاهر أنها ممرضة، وأن تتوجه إلى كردستان بعد هزيمة إنتفاضة آذار/مارس. كانت مهمتها اكتساب ثقة أولئك الذين يسيطرون على المنطقة، ومن ثم دعوة عملاء آخرين للإنضمام إليها كعاملين في مجال الصحّة. كانوا قد قالوا لها بأن الوجود المسلح الوحيد في كردستان هو لجيش الولايات المتحدة. وحين وجدت نفسها وسط طوفان من الأكراد المسلحين، أصيبت بالذعر واستسلمت على الفور... أخبرتني **كفاح** كيف طوّعوها عام ١٩٨٨، ولم يكن قد مضى على زواجها وقت طويل، أوقفها أربعة ضباط من أمن المخابرات كانوا في سيارة، وأمروها بالتوجّه معهم للإجابة عن بضعة أسئلة بخصوص زوجها. غير أنهم أخذوها عوض ذلك إلى أحد البساتين، حيث أجبروها على شرب الخمرة، ثم اغتصبوها واحداً تلو الآخر. وكان كل ذلك مسجلاً على شريط ڤيديو. هددها المخبرون بإرسال الشريط إلى زوجها، الذي سيقتلها بالتأكيد. ورأت كفاح انه لا خيار لها إلاّ التعاون مع إدارة جهاز الأمن. بدأت نشاطها المهني «بتطويع» ثلاث صديقات لها بالطريقة نفسها، وبحجة اصطحابهنّ لزيارة صديقة ما، ودائماً كان ضباط الأمن في الانتظار»[١٨].

عندما كنت في شمال العراق، سمعت انه جرى إلقاء القبض على مجموعات من النسوة المخبرات، احتجزهن الأكراد في منطقة زاخو. غير أنه جرى إعدامهنّ قبل أن تتسنّى لي مقابلتهنّ.

إن مبادىء الشرف والعار التقليدية أمنت الظروف المناسبة لتعمل من خلالها سياسة الإغتصاب الرسمية بطريقة فعّالة، كوسيلة للسيطرة على كل من المجتمعين الكردي والعربي. لكن تلك الظروف، إن تناولناها على حدة، لا تمثّل، بمفردها، إتساع وعمق ظاهرة الإعتداءات الجنسية في العراق الحديث. فالاستخدام الواسع النطاق للإغتصاب رافق تلك الطرق الخاصة التي بموجبها أصبح العراق حديثاً تحت حكم البعث. إنه جزء من الانهيار الشامل للأعراف الاجتماعية، ومن بينها تقاليد مساواة كانت قد قدمت الحماية للمرأة في الماضي (إلى حد ما ومن ضمن دونية النساء للرجال والمفترضة سلفاً). إن التقاليد القبلية المهيمنة لا تزال تشكل رادعاً جزئياً للإعتداءات الجنسية في مجتمعات

مكتبة الفكر الجديد

أكثر محافظة مثل السعودية والأردن[١٩]، ويبدو أن هناك مشكلة تواجه الإستطراد في هذه الحجّة، وهي أنه لا توجد أية معلومات يعوّل عليها بشأن ما يجري فعلياً للنساء في مكان كالسعودية، لأن التقاليد الموازية تلقي هي ذاتها غطاءً من الصمت على الموضوع. فهل هناك ما يقارب أو يوازي الحجم نفسه الموجود في العراق البعثي من الاعتداءات الجنسية على الأطفال في السعودية، مثلاً؟ لا أحد يعرف بالتأكيد.

من جهة أخرى، توجد فروقاتٍ مهمّة في الواقع. روت النساء بسجن **جويدة** الأردني، أن هناك ركناً في السجن أُطلق عليه اسم **غرفة الزنى**. ويبدو أن للشرطة التي تجوب شوارع **عمان** الحق بإلقاء القبض على الشابات الأردنيات إن كنّ بصحبة رجال غير مرتبطين بهنّ. يصطحب الاثنان إلى مكتب ضابط الصحّة، حيث يجري فحص طبي لعذرية الفتاة، فإن كانت غير عذراء يُعلم البوليس على الفور كلا العائلتين، ثم تناقش العائلتان بعدئذ إحتمال تزويجهما، فإن رفض الرجل الزواج من المرأة التي كان بصحبتها، وبذلك يعرّض شرف العائلة للعار، يحكم عليهما ويعاقبا معاً. والعقوبات غير شديدة، إذ يطلق سراح الرجل خلال شهرين. غير أن الفتاة تستبقى إلى ما بعد فترة عقوبتها.

أخبرتني المساعدة الاجتماعية انه خلال فترة عملها هناك كان ما يزيد عن نصف السجينات محجوزاً بغرفة الزنى في سجن **جويدة**، بالرغم من انهنّ تجاوزن فترة أحكامهن، وبعضهنّ كن ما يزلن هناك منذ خمس سنوات. لماذا كانوا يبقونهن هناك؟ لأنهنّ محتاجات للحماية من عائلاتهنّ بالذات، فالشرطة الأردنية لم تكن مستعدّة لتحمّل مسؤولية أن يُطلق النار على الفتاة أو تطعن حتى الموت على درجات السجن يوم إطلاق سراحها (وهذا ما حدث كثيراً بالفعل).

في نهاية الأمر تبدأ الشرطة البحث عن أزواج يقبلون الزواج من النساء المحتجزات لديها. والمرشحون لذلك رجال عجائز من قرى بعيدة يبحثون عن فرصة حياة جديدة. وفي حالات أخرى كانت تزوّج الفتيات إلى شبّان يظهر لاحقاً أنّهم قوّادون يبحثون عن عاهرات[٢٠].

من الواضح أن نظام الشرف والعار ناشط في الأردن «المحافظ» مثلما هو في العراق «الراديكالي»، والفرق بينهما هو العلاقة بين السلطة والمجتمع في كل من الحالتين. إن السلطات الأردنية هي في آن معاً شريك في نظام الشرف والعار، وتحاول بشجاعة أن تتوسط لاصلاح ذات البين أو لإيجاد تسوية إن تعذّر التوسط. إنها قائمة إذن في مكان ما وسط بين الحالة الفلسطينية (حيث لا تدخّل للدولة) والتطرّف العراقي (استخدام

مكتبة الفكر الجديد

مغتصبين كموظفين رسميين). غير أن ما يبقى أقل وضوحاً هو القدر الذي يمكن أن تفيد منه النساء من تلك الإختلافات.

فالبعث الثوري يختلف عن الملكية الحاكمة في السعودية، في أنه مزّق إرباً نسيج التقاليد الاجتماعية الموروث، ليبعث نوعاً جديداً مشوّهاً من الحداثة العراقية، التي لا هي تقليدية، ولا هي حديثة (بمعنى البناء على قيم جديدة للفرد وللجماعة، كما أصبح العرف في الغرب مع حركة التنوير). كيف يمكن أن نقارن المفاسد الجنسية في ظل حكم حزب البعث العراقي، مع ما يجري اليوم في جمهورية إيران الإسلامية؟ ومرة جديدة، نجد أننا لا نعرف. من جهة أخرى، يمكن للمرء أن يستنتج أن بلداً كالعراق تردى فيه كل شيء؛ بات مجتمعه معلّقاً في الفراغ، إذ لم يعد يمتلك أية تقاليد حقيقية (إسلامية أو غير ذلك) يستطيع من خلالها أن يحقّق راحة مؤقتة، على الأقل. وهذا الاستنتاج ينطوي على معانٍ سياسية هائلة بالنسبة لما ستكون عليه الأمور الآتية في مرحلة ما بعد صدّام[٢١].

إن الإغتصاب كفعل إخضاع واستعباد لمجتمعات بأكملها، يتضمّن إذلالاً قومياً متعمّداً بهدف القمع والسيطرة الاجتماعية، وهو ما كان غالباً رديف الحروب والإنهيار الاجتماعي. ويبدو على سبيل المثال انه كان منتشراً بين بعض المنظمات شبه العسكرية في يوغسلافيا السابقة إبان صيف ١٩٩٢[٢٢]. وقبل نصف قرن، خلال ما دعى باغتصاب نانكينغ، وهي مدينة صينية مسالمة إحتلها الجيش الياباني عام ١٩٣٧، قُدّر حدوث ٢٠ ألف حادثة إغتصاب خلال الشهر الأول من الإحتلال[٢٣]. وطوال تسعة أشهر من ١٩٧١، وبعد إعلان بنغلادش الاستقلال عن باكستان ودخول فرق الجيش الباكستانية لقمع الثورة، قدّرت جهات موثوقة أن الجنود الباكستانيين اغتصبوا ما بين ٢٠٠ و٤٠٠ ألف امرأة بنغالية، ٨٠ بالمئة منهنّ مسلمات:

«بعدما عرف حجم الفظائع التي ارتكبت، عاد أولئك الذين حاولوا إيجاد تفسيرات منطقية أو عسكرية، مراراً وتكراراً إلى اللغز الكامن وراء حدوث تلك الإغتصابات الجماعية. «وهل تتضمّن حملة الإرهاب اغتصابات؟»، سأل أوبري ميني سياسياً بنغالياً، لكنه تلقى سؤالاً عكسياً من السياسي: «ما الذي يتحدث عنه الجنود في الثكنات؟ النساء والجنس»، ثم أضاف: «ضع بنادق في أيديهم وأطلب منهم أن يخرجوا ويلقوا الرعب في قلوب شعب بأكمله، وماذا سيكون أول ما يجول في خواطرهم؟»... كانت الإغتصابات منظّمة وشاملة إلى الحد الذي لا يمكن أن تكون فيه إلاّ نتيجة لسياسة واعية طبّقها الجيش، «خطط لها الباكستانيون الغربيون في سعي منهم متعمّد لتوليد عرق جديد»، أو لإضعاف القومية البنغالية.

النظرية والحدس عملا معاً على تفسير هذا الأمر، وكانت الاستنتاجات مرتكزة على الإفتراض المغلوط بأن عمليات الإغتصاب الجماعي في بنغلادش جريمة بلا سابقة في التاريخ الحديث.

لكن الإغتصاب الجماعي لبنغلادش لم يكن فريداً من نوعه. إذ أن عدد الإغتصابات بالنسبة للفرد الواحد... لم يكن أكبر من حوادث الاغتصاب... في مدينة نانكينغ عام ١٩٣٧، وليست النسبة للفرد الواحد أكبر من مجموع حوادث الإغتصاب في بلجيكا وفرنسا عندما تقدّم الجيش الألماني غير منضبط خلال أشهر الحرب العالمية الأولى الثلاثة، وليس كذلك أعلى نسبة من الإعتداءات على النسوة في قرى روسيا السوفياتية في الحرب العالمية الثانية[٢٤].

على أية حال هناك ثمة ما هو فريد في الإغتصاب العراقي «الرسمي». فالمسألة هنا أن الدولة تقوم بشنّ حرب وسخة ضد مواطنيها بالذات، وليس فقط عبر استخدام أسلحة كيميائية ضد القرى الكردية، لكن أيضاً عبر اطلاقها مغتصبين لنساء العراق. غير أن الإغتصاب لم يكن أمراً حلّ بالنساء العراقيات فقط، انه الوجه الآخر لما جرى في الكويت، وهو بمجازية مثلى، صورة عما حلّ بالمجتمع المدني العراقي كله على يد دولته بالذات. ان الإغتصاب هو الشكل الشامل لطريقة عمل حزب البعث في السياسة.

في سياق هذا الموضوع، هل سوف نكتشف أن الإعتداءات على النساء تزايدت خلال القيام بتحديث البلدان العربية والإسلامية الأخرى (حيث تنتشر مبادىء الشرف والعار نفسها على الرغم من التحديث)؟. فحرب الخليج كشفت عن العفن في العراق، وهذا هو السبب الوحيد الذي جعلنا نعرف ذلك الكمّ مما جرى وما يزال يجري منذ السعبينات. وإن كنت قد استخدمت أمثلة فلسطينية، فلسبب وحيد هو انه كان في استطاعة منظمة نسائية إسرائيلية ـ عربية، هي منظمة «الفنار»، أن تكون فاعلة داخل إسرائيل وتقوم بجمع المعلومات ونشرها في الصحافة العبرية. فإسرائيل أكثر انفتاحاً من أي بلد آخر في المشرق. وقد كان ذلك الإنفتاح أيضاً سبب الضجيج والسخط العام الذي ظهر بعد نشر كتيّب «نساء لنساء سجينات سياسيّات ـ القدس»، في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٩. فقد جمعت منظمة للنساء الإسرائيليات وثائق عن حالات الإعتداء والاستغلال الجنسي التي تعرّضت لها نسوة فلسطينيات من قبل الشرطة الإسرائيلية (تفتيش وتعرية أمام العامة، تلميحات جنسية متواصلة، تهديدات بالاغتصاب، استخدام صور فوتوغرافية لضباط من البوليس يغازلون فلسطينيات كوسيلة للضغط وإنتزاع اعترافات وإلخ...)[٢٥]. هل يعني توافر هذه المعلومات، وعدم توافرها في

مكتبة الفكر الجديد

السعودية والأردن، على سبيل المثال، أن الوضع في هذين البلدين العربيين تحديداً، أفضل؟ المشكلة هي أننا لا نزال نجهل إلى أي درجة من السوء وصلت الأمور في هذين البلدين، إذ أن جدار الصمت الهائل، كذاك الموجود في العراق، مرتفع في ما يتعلق بمسألة إساءة التعامل مع النساء. إن الصمت في النهاية هو الذي ابتكر الإغتصاب «الرسمي» داخل العراق.

نعود إلى المغتصب «الرسمي». فأي نوع من الرجال هو **عزيز صالح أحمد**؟ إن غضباً عميقاً ومريعاً يمسك أجزاء حياة المغتصب العادي المنحرفة. فقد توصّلت دراسة أُجريت على مجموعة من المغتصبين الأميركيين إلى أن ٨٠ بالمئة منهم تعرضوا وهم أطفالاً لإعتداءات جنسية[٢٦]. وأولئك الرجال كبروا مع إحساس بكونهم شهداء، وأحاسيس أخرى باحتقار الذات، وعدم الثقة، والانعدام الكلي لمشاعر التعاطف مع الآخرين[٢٧]. لماذا يقوم هؤلاء الرجال بعمليات إغتصاب؟ إنهم يغتصبون في محاولة منهم مأسوية وضالة، لاسترجاع حد ما من السيطرة على حيواتهم المدمّرة. حرب العراق ـ إيران، والحرب الأهلية اللبنانية، ومجزرة حماه سنة ١٩٨٢، وكل أشكال التعصّب القومي والطائفي، خلّفت العديد من هؤلاء الرجال المنحرفين في الشرق الأوسط[٢٨]. في **خان يونس**، وهي بلدة في قطاع غزة، قام رجل اكتشف مؤخراً جذوره الإسلامية، باحتجاز شقيقاته الأربع، وقد كان مقتنعاً بأنهنّ عاهرات. ثم أضرم النار في الغرفة بينما جلس هو في الخارج يتلو مقاطع من القرآن[٢٩]. ثمة احتمال بأن ذلك الرجل كان مختلاً عقلياً. ولكن ما الذي جعل سلوكه الخَبِل يستخدم تلك الطريقة بالذات للتعبير عن نفسه؟ هذا هو السؤال الاجتماعي والسياسي الموضوع على المحك هنا.

عزيز صالح أحمد، في المقابل، موظف مدني، وهو في أغلب الظن غير مختلّ. يمكن أن يكون شخصاً عادياً، ورجلاً غير استثنائي، مثل نظرائه في الوظائف الحكومية الأخرى. الدكتور **هاريتوس فاتوراس**، الذي قضى ١٥ سنة يبحث عن عقول الجلادين الذين خدموا إبان الديكتاتورية اليونانية بين ١٩٦٧ و١٩٧٤، مقتنع اقتناعاً جازماً بأن الجلادين «الجيدين» ينبغي أن يكونوا قد نُظّموا ودُرّبوا للقيام بوظيفتهم من خلال عمل نظام سلطة كامل. إن الطاعة للسلطة، لا الدوافع السادية، هي ما يبحث عنه أولئك، الساعون لأن يكونوا جلادين[٣٠].

خلال عملية الإغتصاب المنظّم لأربعين امرأة شابة مسلمة في بلدة **توزلا بالبوسنة الهرسك** صيف ١٩٩٢، قال رجال **القوّات الصربية** لضحاياهم إنهم ينفّذون أوامر صارمة. أحد المغتصبين اعترف لضحيته بأنه «يخجل من كونه صربيّاً». على أية حال فقد

مكتبة الفكر الجديد

نفّذ هو ورفاقه مهمّتهم، مقوّين عزائمهم بتناول حبوب دواء خاص[٣١]. فهل أن المغتصب العراقي «الرسمي»، كانت تقوّي عزيمته الدول العراقية بشكل مشابه كي يتوجّه بعد نهار منهك من العمل إلى زوجته وأولاده، تماماً مثلنا جميعاً؟ إن هذه الفكرة بالذات هي الأكثر رعباً وهي أسوأ من تصوّرنا له بأنه مختلّ عقلياً. من المؤكد أن **عزيز صالح أحمد** ليس مختلفاً البتة عن الآلاف من الشبان في معظم العالم العربي. وبحسب **هاريتوس فاتوراس** يمكن أن يكون المغتصب أياً كان، وفي كافة الأحوال من ذا يقول إنه عربي؟ ثمة صديق كردي قال لي ان الاسم كردي.[٣٢]. لست متأكداً من الأمر. وفي مطلق الأحوال فإن الرجل المختلّ عقلياً في **خان يونس** والذي كان يعتقد أنه مسلم صالح حتى وهو يحرق شقيقاته الأربع وهنّ أحياء، يملك قواسم مشتركة مع **عزيز صالح أحمد**. إنهما معاً مخلوقان مريضان من صنيع قساوة السياسة العربية الحديثة، يعتبران أنهما ينتقمان لذلّ ماض، حتى وهما يقومان بتعذيب النساء العربيات والكرديات أو اغتصابهنّ أو الاعتداء عليهنّ.

وبدورهن ليست النسوة أنفسهنّ محصّنات أو مستثنيات من دوّامة العنف. بحسب **ليا تسيمل**، وهي محامية إسرائيلية كرّست حياتها للنضال من أجل الحقوق الفلسطينية، فإن أحد الأساليب التي كانت تستخدمها النسوة الفلسطينيات لمحاولة الهرب من دائرة الاضطهاد في العائلة، كان ارتكاب جريمة أو فعل شيء ما باسم الإنتفاضة، وذلك من أجل أن يستعدن القبول الاجتماعي الذي كنّ خسرنه نتيجة توكيدهن شخصيّاتهن الخاصة. على سبيل المثال «كانت هناك ثمة حادثة أُجبرت فيها امرأة على الزواج برغم ارادتها. حبلت ولاذت بالفرار. ثم أعادها والدها بالقوّة إلى منزل زوجها. ثم حاولت بعدها أن تحرق باصاً، كان في داخله، بقنبلة مولوتوف. كانت تلك طريقة لوضع حد نهائي لوضعها الذي لم تكن قادرة على تحمّله. لربما كانت تريد أن تموت هي نفسها. كانت تلك طريقة بطولية للخلاص من عائلة قامعة، وهي طريقة يمكن أن تؤمن للمرأة حصانة اجتماعية»[٣٣].

وفي شريط سينمائي تسجيلي إسرائيلي عرض مؤخراً بعنوان «وراء حجاب الإحتلال»، من إخراج **ديفيد بنشتريت**، تروي فلسطينية شابة من **مخيم شاطىء** للاجئين، كانت الشرطة الإسرائيلية ألقت القبض عليها لكونها ناشطة في المقاومة، قصة إستثنائية عمّا جرى لها في السجن. كانت وضعت في زنزانة وهي «عارية تماماً»، كما تقول، مع رجل ضخم، خاطبه ضباط الأمن بالعربية من خلف بوابة الزنزانة، وقالوا له إنه حرّ في أن يفعل بها كل ما يشاء. كان الرجل فلسطينياً مثلها وكان دوره في السجن غير محدّد. بعدها راحت تتجادل مع ذلك الرجل، وقالت له: «إن كنت سوف تفضّ

مكتبة الفكر الجديد

عذريتي، هيّا افعل. سوف لن تأخذ شرفي، وشرف فلسطين معه». ينتهي الفيلم تاركاً السؤال مشرعاً حول ما إذا كان الرجل اعتدى عليها في النهاية أم لا.

إلى جانب تأكيد الاستخدام الواضح والواسع لنظام الشرف العربي، من قبل قوى الأمن الإسرائيلية، لإجبار النسوة العربيات المحتجزات على الإعتراف (كما ذكرنا سابقاً)، فإن القصة هذه مهمة ومأسوية مرتين، لأنها تظهر لنا أيضاً الربط في ذهن الضحية ما بين «شرف» فلسطين، وعذريتها هي بالذات. إن نظام التقاليد يظل غير ممسوس، بإستثناء أن موضع الشرف انتقل بالنسبة للمناضلة الضحيّة من عائلتها، صعوداً ليشمل كل فلسطين والنضال من أجلها. وذلك الإستخدام «الثوري»، هو بطريقة أو بأخرى، خطاب مصقول، وكان شائعاً جداً بين المثقفين العرب الذين ساندوا النظام العراقي إبان أزمة الخليج.

في واحدة من تلك الإستثناءات المنعشة، ولكن النادرة التي تهبنا الأمل، يشجب الشاعر الفلسطيني **سلمان مصالحة** وبعنف فكرة «الشرف العربي الضائع» خلال حرب الخليج، في مقالة حملت ذلك العنوان. وجوهر مناظرته أن العرب بحاجة إلى إخضاع فكرة شرفهم لفكرة حريتهم، وهي حرّية «لا تعني فقط حريتي الشخصية، ولكن بشكل أكثر حسماً حرّية الآخر»[٣٤].

وحين تنكشف بلدان عربية أخرى كما انكشف العراق، وتصبح الصحافة العربية منفتحة كمثيلتها الإسرائيلية، أو عندما يصبح المثقفون العرب على استعداد للاعتراف بوجود الحوافز القائمة وراء تلك الممارسات وشجبها عوضاً عن مدحها باعتبارها أفعالاً بطولية من النضال ضد العدو «الصيهوني» أو الامبريالية، قد نكتشف عندها أن أبشع أنواع القسوة في العالم العربي ابتدعها الرجال والأنظمة الأكثر «ثورية»، و«تقدمية»، و«رفضية» و«عداء للامبريالية». فالنسويّة اللبنانية مي غصوب حدّدت الأمر كالتالي: «فقد بدا من بالغ السهولة دمج «الامبريالية» بالكفر، أو تعبئة «الجماهير» كي تثأر من الإهانات التي يقال إن الحضارة الغربية أنزلتها بالهوية الإسلامية... في هذا السياق من المصالحة مع «الداخل» لمواجهة «الخارج» به، لم يوجد ما هو أفضل من حجب النساء عن النشاط العام دلالةً على الاستمرارية الثقافية للعالم الإسلامي... فإن صرامة الموقع الذي احتلته وتحتله المرأة ضمن العائلة العربية، كانت ولا تزال، الحرم الأبعد والأوغل الذي تمتلكه الهوية العربية ـ الإسلامية»[٣٥].

وكلما كانت تلك الهوية تشعر أنها مهدّدة، كانت تجعل من وضع المرأة حصنها المنيع والأخير. وهكذا يصبح موضع المرأة هو الموضع الذي يسكنه أفظع أنواع القسوة،

مكتبة الفكر الجديد

والصمت. ذلك هو بالتحديد ما يدور حوله فيض القصص الطالعة من العراق والمتعلقة بالنساء. حتى الأطفال ينالون من الحياة أفضل مما تنال النسوة العربيات. وثمة ناحية تقليدية «خاصة» لتلك الوحشية، وأخرى معاصرة «عامة». ولا شك في أن الاثنتين مترابطتان، غير أنهما منفصلتان نظرياً وينبغي دراستهما إنطلاقاً من هذا. فالقسوة التقليدية تجاه النساء مصدرها على الدوام عجزهنّ ومكانتهن الثقافية الضعيفة. تقول تمام فحيلا وهي ممرضة فلسطينية في الثلاثين من عمرها من عكا: «عندما تولد بنت في منزل عربي، إنها الكارثة، فالتمييز يبدأ من لحظة ولادة البنت، والرسالة التي يتم تشريبها لها هي أن جسدها خطيئة. التحريمات تبدأ من الطفولة. يحظّر عليها اللعب مع الصبية، وتمنع من ارتداء السراويل القصيرة والجلوس بارتياح. ينبغي أن تكون محتشمة وصامتة كي لا تثير الغرائز الجنسية. إنه خوف فظيع»[٣٦]. وأجساد النساء تعتبر في آن معاً الينبوع الذي يستمد منه كل الشرف، ومصدر الفتنة. لهذا تجد التقاليد نفسها مهدّدة جداً باستقلالية المرأة. فعجز النساء هو إذاً المصدر الأساسي لكل القسوة الممارسة ضدهنّ.

تبدأ القسوة المعاصرة، من ناحية أخرى، حين تفرض نساء كأمل وسارة أنفسهنّ، كما يفعلن الآن في معظم العالم العربي، من خلال تحديد خياراتهنّ التي تهدّد المجتمع التقليدي: يغادرن بيوتهن، يرفضن الانصياع لآبائهن، ويصررن على اختيار أزواجهن، يتزوّجن بدافع الحب، ينضممن إلى منظمات سياسية، يقمن بنشاطات اجتماعية، إلى ما هنالك. في العراق لم يكن هناك البتة جنس من المغتصبين أمثال عزيز صالح أحمد قبل أن يتبكرهم حزب البعث. وإغتصاب نسوة ناشطات من قبل رجال من أمثال عزيز صالح أحمد ـ رجال مختلّين ومشوّهين لكنهم في الجوهر نوع مستحدث من الرجال خلقهم حزب البعث ـ هو نوع إضافي جديد من القسوة، وهو يجري على أرضية إتفاق صامت وغير مكتوب بين الثقافة التقليدية العربية ذات السيطرة الذكورية، والحياة العامة «الحديثة»، التي يشكل مثالها الأشد قسوة النظام البعثي في العراق.

فمنذ أن أعلن الجنرال ضياء الحق قانون العقوبات الإسلامي الجديد في باكستان عام ١٩٧٩، والمعروف باسم قانون الحدود، راحت ظاهرة الإغتصاب السياسي إياها تتزايد في تلك البلاد. ويقدّر أن ٨٠ بالمئة من النساء الباكستانيات اللواتي اعتقلن لدى الشرطة بتهمة الزنى، تعرّضن لاعتداءات جنسية داخل السجن[٣٧]. ويتساءل المرء ان لم تكن تلك الظاهرة تحدث كذلك في جمهورية إيران الإسلامية. وفي الهند عام ١٩٨٦ أشارت صحيفة «تايمز أوف إنديا» في افتتاحيتها إلى ازدياد خطير في حوادث الإعتداء الجنسي للمحتجزات[٣٨]. والأكثر من ذلك، وعلى الرغم من الإهتمام الرسمي ومن أعلى المستويات في الحكومة الهندية، ظهر أن النسوة اللواتي يعملن منظّمات اجتماعيات

مكتبة الفكر الجديد

وفي حقل حقوق الإنسان هنّ الأكثر استهدافاً[٣٩]. فإن كان الوضع على هذه الدرجة من السوء في بلدان كالهند وباكستان، اللّتين تتمتعان نسبياً بدرجة واسعة من الحماية القانونية والحرية السياسية، ماذا بحق الله ينبغي أن يكون عليه الوضع في العالم العربي حيث لا تحكم سوى الأنظمة الاستبدادية والملكيات المتداعية الشائخة؟ لا يمكن أن يتقلّص هذا النوع من القسوة، إلاّ عندما ينفسخ ذلك العقد الرهيب ما بين التقاليد والحداثة داخل المجتمع العربي بالذات، وهذا ما تمهّد له نساء عربيات شجاعات مثل أولئك اللواتي أسّسن منظمة «الفنار»[٤٠].

إن أكثر ما تتميّز به القسوة في العالم العربي الحديث يتصل بالدرجة الأولى بالعنف ضد النساء. ذلك ينشأ من الأهمية التي للانقسام الذكري ـ الانثوي في الثقافة. وفرضيتي هذه تقوم على اعتبار أن تعاظم الوحشية ضد النساء العربيات إنما رافق تحديث العالم العربي. فإن كان هذا صحيحاً، فإنه استنتاج مربك للغاية في تضميناته العامة للمستقبل. لقد ناقشت الفرضية في هذه الصفحات انطلاقاً من الدلائل المحدودة التي توافرت لي، والتي لم أذهب في اثباتها إلى الحد الذي «يتعدى الشك المعقول». فكم عدد أشباه **عزيز صالح أحمد** الذين وظّفتهم الحكومة العراقية؟ عشرة؟ مئة؟ الأمر بالكاد يهم، لأن **عزيز صالح أحمد** هو واحد من تلك الاستثناءات غير الاعتيادية التي تلقي الضوء على القاعدة. أما نوع قسوته فهي في العالم العربي رأس الوتد المشدود إلى أنواع القسوة الأخرى كلها.

القسوة السياسية

إن الإنتقال من القسوة المنزلية إلى القسوة العامة في الشارع، أو الممارسة من قبل الدولة، هو في كل مكان أمر سهل جدا. سوف أبدأ بالإسراف في القسوة أو نسبة ممارسة القسوة بواسطة آلية المراقبة والقمع في الدولة الحديثة، التي نشأت في معظم العالم العربي خلال السبعينات والثمانينات. فالتعذيب يمارس بشكل روتيني وفي طريقة شديدة التعقيد في كل تلك البلدان. في سوريا، على سبيل المثال، جرى تحويل مركز اعتقال في دمشق إلى «مركز أبحاث» من أجل تطوير تقنيات تعذيب جديدة[٤١]. منظمة العفو الدولية سجّلت ممارسة ٣٥ أسلوباً مختلفاً من التعذيب داخل غرف معدّة لذلك خصّيصاً ومجهزة. المستهدفون الأساسيون بالتعذيب سنة ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ كانوا أعضاء المنظمات الإسلامية، أو مناوئي سياسة حافظ الأسد خلال حرب الخليج.

واقع الأمر أن التوغل في مستنقع التفاصيل هذه، يحملنا دائماً على الاعتصام بحبل الرضى، عندما يتعلق بالقسوة. فالمرء يعيش خطر الانغماس في المرارة، والإشمئزاز، إلى

مكتبة الفكر الجديد

درجة الرغبة في الإنعزال عن الطريق الذي يسلكه العالم. لكن صورة واحدة غير عادية، على أية حال، يمكن أن تعيد المسألة كلها إلى قلب الضوء وتفصيله.

هذا ما حدث لي عندما تحدثت إلى **سعيد**، وهو مهندس سوري في أوائل ثلاثيناته، بعد وقت قليل من قيامه بزيارة مسقط رأسه حماه. ففي شباط/فبراير ١٩٨٢ تحوّلت **حماه** إلى موضوع لدراسة القسوة، موضوع خصّص بهدف أن يترك إنطباعاً لا يُمحى عند كل السوريين. فقد قتل الجيش السوري خلال فترة أسبوعين عدداً يتفاوت بين العشرة آلاف والأربعين ألف شخص من المدينة، وكان ذلك أثناء سحق ما زعمت الحكومة السورية أنه تمرد ألهمته منظمة الإخوان المسلمين. وبقلق كبير مفعم بالهواجس، بعد أن كان أمضى عشر سنوات في الخارج، عاد **سعيد** إلى مدينة أجداده. كان المكان في ذلك الوقت قد تقلّص عدد سكّانه ليصبح نصف الـ ٢٥٠ ألفاً الذي كان سابقاً، وذلك بعد فرار العدد الضخم ولجوء الفارين، مثل سعيد، إلى بلدان الخليج والسعودية وأوروبا، أو أميركا. إن صورة نموذجية عن إستمرار القسوة، إلى وقت طويل بعد تخثر الدم وانطماره، تحجّرت في ذهني من خلال ما قاله **سعيد**: [٤٢].

«صعقتني الحقيقة عندما ذهبت إلى هناك. قبل تلك الزيارة، كنت مسجوناً داخل مخاوفي. ذلك النوع من الصمت الذي يأمرك بأن لا تفتح فمك، بأن لا تلتقط صوراً فوتوغرافية، وألا تفعل شيئاً، وأن لا تنظر حتى إلى الدمار، لأنك إن وقفت هناك محدقاً، يمكن أن يلقى القبض عليك. كان الناس في **حماه** منذهلين وفي حال الصدمة. كانت الأولوية الأولى بالنسبة إليهم؛ «لا تفعلوا شيئاً لأنه يمكن أن يحصل أي شيء. نحن نريد فقط أن ننتهي من القصة». تشبه المسألة واحداً أُصيب بجرح فبات أوّل ما يهتم به الجميع السبيل إلى وقف النزف.

كانت ردة فعل أهل دمشق الإنكار التام. حتى أن بعضهم ذهب إلى حد القول إن الحمويين كانوا هم المحرّضين. واعتبر العديد من المثقفين انهم كانوا يستحقّون ذلك لأنهم كانوا من الإخوان المسلمين، وانهم لو وصلوا إلى السلطة لتخلّفت البلاد كثيراً. شيء مثل الجزائر [وانتخابات ١٩٩٢]. أعتقد أن تسمية الإخوان المسلمين استخدمت كثيراً من قبل أولئك الناس لتبرير ما كانت الحكومة تقوم به. وحتى لو كان هناك حقاً إخوان مسلمون في المدينة، فمن غير المعقول أن يكونوا منظّمين إلى تلك الدرجة. أعرف الكثير من الناس في **حماه**، قتلوا خلال المجزرة دون أن يكونوا منظّمين من قبل أحد. بدا الأمر وكأن السوريين الآخرين كانوا بعيدين كلياً عمّا جرى لأهل **حماه**. وحقيقة أنهم لم يعيشوا ويختبروا الألم

مكتبة الفكر الجديد

هم أنفسهم جعلتهم أبعد. ذلك الخوف، أو الحس بالإنكار، هو وسيلة سهلة للتهرّب من الأمور. عندها لا يعود من الواجب أن يشعروا أنهم مسؤولون عمّا جرى.

ولمدينة **حماه** شخصيتها الخاصة. أهلها معروفون بكونهم محافظين، معاندين، وفخورين بأنفسهم. كانوا على الدوام شديدي التماسك القرابي ومفتخرين بمدينتهم. كانت لدينا أحياء مجاورة، وكانت تلك الأحياء كثيرة السخرية من بعضها البعض، ولكن بطرق مهذّبة. كانت المدينة مؤلفة أساساً من قسمين: الحيّ المسيحي مع كنيسته الجميلة جداً، والحيّ المسلم وهو من حيث أتيت أنا.

عندما عدت إلى سوريا بعد كل تلك السنوات، سافرت متنقلاً في أرجائها ملتقطاً صوراً فوتوغرافية. شعرت كما لو أن كل صورة قطعة صغيرة من الذاكرة المتجلّدة القابلة للإنقراض. كل صورة بمثابة إضافة إلى ذكرياتي. لذلك سافرت وتجوّلت في كل الأنحاء. قضيت بعض الوقت في دمشق، ثم سافرت بعيداً إلى الجنوب، وزرت بعض المدن القديمة في الشمال. وأمضيت يوماً كاملاً في **حماه**.

صدمتي الأولى كانت أهلها. ناسها أكثر من أبنيتها، لأنني كنت أتوقع مشاهدة الدمار المادي أولاً. كان الناس يعيشون أمواتاً، كالأشباح. إنهم هم بالذات أولئك الذين كانوا يطفحون بالحياة وبالغبطة، وكانوا عاطفيين إلى درجة كبيرة كما أذكرهم قبل ١٩٨٢. كانوا يغضبون في لحظة وفي اللحظة التالية يضمونك ويقبلونك. غير أنهم باتوا الآن يجرّون أنفسهم جرّاً في الشوارع. لم يعد الأولاد يركضون، وكانت وجوههم عديمة الإنفعال وعيونهم بلا عمق وبلا روح.

صدمتي الثانية كانت من مرأى الأبنية. كنت قد أخبرتك أن مشاعري كانت مرتبكة بشأن العودة إلى **حماه**. استطعت الإستمرار عشر سنوات بالذكريات وحدها، من خلال التمسّك ببعض الصور. في الواقع كل مرة كنت أجلس وأرسم شيئاً، أجد أنني أرسم **حماه** بالذات، نواعيرها، شوارعها، وتلك العمارات القديمة التي تراودني على الدوام ذكريات عنها شديدة التأثير. هكذا بتّ خائفاً جداً من العودة. لم أكن واثقاً من قدرتي على السيطرة على تلك المشاعر. وفي الوقت نفسه أردت العودة. أحسست أنه كان ينبغي أن أواجه الأمر بشجاعة. لذلك ذهبت لقضاء يوم واحد.

تقع **حماه** في واد، وهناك ثمة هضبة كان عليك أن تتسلقها لتهبط منها إلى

مكتبة الفكر الجديد

داخل المدينة. غير أن الأوتوستراد تبدّل مساره الآن فصرت تدور حول الهضبة ولا ترى المدينة التي تظهر فجأة أمامك. أول ما تراه تمثال ضخم للأسد عند مدخل المدينة. أذكر أنه كان يقف مشرّع الذراعين، كما لو في إيماءة ترحيب. عبرت بالسيارة بين العديد من الأبنية الحجرية والبيضاء اللون الجديدة، كلها شيّد بعد المجزرة. لم تعد الأقسام القديمة من المدينة تلقى العناية التي كانت تلقاها في السابق. ثمة تصدعات هنا، وقرميدات ساقطة هناك. لم يعد الناس يتطابقون مع مدينتهم. أعتقد أنهم يريدون فقط محو الذكريات القديمة ببناء عمارات جديدة.

تقدمت في السيارة داخل حيّ **الكيلانية**، والذي كان في ما مضى مليئاً بالأشجار وأجمل أقسام المدينة. أدركت على الفور أن نهر العاصي الذي كان يجري عبر المدينة توقّف عن الجريان. النواعير لا تدور. كانت في ما مضى خضراء، وهي الآن صفراء اللون عفنة متوقفة داخل نهر جاف ليس فيه سوى بقع مياه راكدة. فكرتُ، ما الذي يمكن أن أصوّره بكاميرتي؟ التقطت بعض الصور، في أي حال، ولكني عندما ظهّرت الفيلم لاحقاً اكتشفت أن معظم الصور احترقت. أؤكد لك أن **حماه** أصبحت مدينة أشباح.

وصلت إلى الجسر الذي يعبر بنا إلى داخل الكيلانية. خرجت من السيّارة، ونظرت من هناك إلى ما وراء النهر. لم يكن ثمة أي شيء. ثم عاودت النظر لأني بدأت أرتبك بشأن تحديد موضعي، وصرت أرى الأشياء مزدوجة: صورة كانت تخرج من عيني الداخلية، من ذكرياتي، وأخرى من شيء آخر، جديد كان ماثلاً هناك. ردة فعلي الأولى، كانت أني أدرت ظهري إلى المكان الذي كان يفترض أن الكيلانية قائمة عليه، وأغلقت عينيّ. غير أني في النهاية استدرت مجدداً وفتحتهما. كنت أنظر إلى هضبة جرداء، هي الكيلانية. كان هناك في ما مضى، أمام هذا الموضع بالذات حيث أقف الآن، منظر بانورامي رائع من البيوت القديمة المتلاصقة، مع قباب وممرّات وسراديب كانت تؤدي إلى مجمّع كالقلعة من المتاجر والبيوت. كان الناس قد فرّوا إلى داخل ذلك الحيّ عندما بدأ هجوم الجيش على المدينة. الذي حدث بعدئذ أن الدبّابات والمدفعية حاصرت ذلك الحيّ ودمّرته كلياً ليصبح لا شيء سوى التذكار. لقد سووه بالأرض كلياً ليصبح تلك الهضبة التي أراها، هضبة جرداء ينبثق منها برج مبنيّ فوق عظام كل أولئك الموتى الذين لا يزالون مطمورين تحت أساساتها. إن ذلك البرج هو فندق **الميريديان** الجديد».

متنقّلين عبر مشاهد القسوة والصمت هذه، نصل إلى السعودية التي توقفت عن الجلد

مكتبة الفكر الجديد

وبتر الأعضاء وقطع رؤوس الناس علناً طوال عشرة أشهر خلال أزمة الخليج. غير أن ذلك لم يكن بسبب نشوء إهتمام جديد لديها بمسألة حقوق الإنسان. لم يكن السعوديون يودّون أن يكشفوا بشكل مباشر وعلني أمام مئات آلاف الأميركيين تفسيرهم الخاص وتطبيقهم للتقليد الإسلامي في ما يتعلق بالعقاب. بعدما غادر الأميركيون، وفي مسعى من السعوديين لتعويض الوقت الضائع، قام هؤلاء بقطع رؤوس ١٦ شخصاً وسط «ساحة السوق» في الرياض، خلال ثلاثة أسابيع من حزيران/يونيو ١٩٩١. كتب مارتين أميس من «الاسوشياتد برس»، إنه «حتى الليبراليون السعوديون، الذين يرغبون بقدر أكبر من الديمقراطية والحرية للنساء، قالوا إنهم يؤيدون العقاب الإسلامي الصارم»[٤٣]. أولئك الليبراليون قالوا إن تلك الأشكال الوحشية من العقاب يقضي بها القرآن ولا تمكن مناقشتها، مهما كانت آراء المرء منفتحة في المواضيع الأخرى. وبمطلق الأحوال، شعروا أنه من الضروري التحدث بشأن الموضوع لكن بشرط أن تبقى أسماؤهم مجهولة. لقد قامت السعودية في النهاية بطرد ٧٥٠ ألف يمني مسالم ومطيع للقانون خلال فترة ٦ أسابيع في أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠، لا لسبب سوى أن الحكومة اليمنية كانت امتنعت عن التصويت لصالح القرار الذي اتخذه اجتماع القمة العربية والقاضي بإرسال جنود للدفاع عن السعودية[٤٤]. كان العديد من أولئك الأشخاص قد عاشوا في السعودية طوال حياتهم. وعلى الرغم من ذلك صودرت مدخراتهم الضئيلة عند الحدود، وتقول منظمة العفو الدولية كذلك إن عدداً كبيراً منهم اعتُقل وتعرض للتعذيب من قبل قوات الأمن السعودية[٤٥].

يصدف كذلك أن الكويتيين فعلوا أسوأ من ذلك بكثير بالفلسطينيين. قبل أن يطردوا الجالية الفلسطينية القويّة المؤلفة من ٣٠٠ ألف فلسطيني، من الكويت ـ ومعظمهم لم يعرف البتة فلسطين، أو أي بلد آخر ـ جرى اصطياد المئات منهم، إن لم يكن الآلاف، بعد التحرير، بأن اعتقلوهم اعتباطاً. ومن منهم لم «يختف»، فذلك لأنه اصطيد ورمي بالنار في مكان عام، أو لأنه عُذّب بوحشية وقُتل[٤٦]. كان الأمر كما لو أن الكويتيين كانوا مصمّمين على أن يفعلوا بالفلسطينيين ما كان النظام العراقي قد فعله بهم.

والبلد الذي طرد إليه العمال اليمنيّون لم يكن أفضل من ذاك الذي طردوا منه للتوّ. في رأي المثقفين الطليعيين، يعتبر اليمن الجنوبي مثالاً في القومية «التقدميّة» الماركسية القائمة في شبه الجزيرة العربية الممعنة في التخلف. لقد بذلت جهود هناك من أجل تأسيس العناية الصحّية والتعليم وترسيخهما، وتأمين الشروط الضرورية لعمل المرأة، وبدرجة تفوق أي سعي آخر في البلدان العربية الأخرى. غير أنه في صباح ١٣ كانون الثاني/يناير ١٩٨٦، وبينما كانوا يقدّمون الشاي إلى ١٥ عضواً من المكتب السياسي

مكتبة الفكر الجديد

الحاكم بدأت مجزرة على طريقة عصابات الزعران قام بها الرئيس علي ناصر ضد كل منافسيه. أحد الحرّاس، وكان يحمل حقيبة القائد **السامسونايت الصغيرة**، انتشل مسدسه الأوتوماتيكي من طراز سكورپيون، وبدأ يطلق النار على ظهر وزير الدفاع صعوداً ونزولاً، وتلا ذلك أسبوعان من الحرب في الشوارع، شهدت إعدامات جماعية، و١٣ ألف قتيل تركت جثثهم المنتفخة مرمية في الشوارع.

مفسّراً سبب ضراوة القتال قال يمني جنوبي: «أعدموا عدداً كبيراً من الناس، وليس فقط السياسيين، حتى أن المرء بات يشعر أن عليه الاختيار: إما المواجهة والقتال، وإما الموت المحتم»[٤٧]. والأشد رعباً من الحوادث بحد ذاتها ـ والتي لم تكن أكثر من نقطة في محيط مقارنة بما كان يحدث في البلدان الأكثر «تطوّراً» في الهلال الخصيب ـ هو واقع أن معظم العرب نسي الأمر، هذا إن كانوا علموا به أولاً بأول. قتل ١٣ ألف شخص خلال أسبوعين، منذ أقل من ست سنوات في بلد «تقدّمي» جداً، والكل متوافق على أنه لم تكن هناك على المحكّ مسائل مبدئية كبرى. هل كانت المسألة تتعلق بردّة إلى القبلية؟ غير أنه كانت هناك قوانين لحروب القبائل، قوانين سلوك متعلقة بالعنف هي التي استطاعت الحفاظ على نوع من التوازن في النظام القديم للغزو من أجل السلب. النقطة الرئيسية في شأن ما حدث في أمكنة مثل اليمن عام ١٩٨٦، ولبنان أثناء حربه الأهلية، والعراق أثناء إنتفاضة آذار/مارس ١٩٩١، أنه لم تعد هناك أية قوانين. إنهارت ببساطة السياسة، وكذلك المجتمع انهار بشكل كلّي، وسادت الفوضى.

رافق إنتشار القسوة المؤسساتية في بلدان مثل العراق وسوريا والسعودية، تغيّرات نوعية في أشكال العنف. لقد اتجهت النزعة السائدة وبشكل ثابت نحو المزيد من الأشكال الوحشية. في مطلع الحرب اللبنانية الأهلية، على سبيل المثال، اكتشفت السيّارة المفخّخة كسلاح فعال لإثارة الرعب الجماعي في بيروت. ثم جرى رفع مستواها إلى مكيدة تعرف بانفجار السيارة المزدوج، تلك التي تؤمّن حشد الناس عبر إحداث تفجير خفيف نسبياً، ليتبعه بعدئذ الإنفجار الحقيقي[٤٨]. جرى تفجير ٣٦٤١ سيارة مفخّخة خلال الحرب اللبنانية الأهلية، تسببت بمقتل ٤٣٨٦ شخصاً وجرح ٦٧٨٤ آخرين[٤٩]. إن الإحصاء الرسمي للخسائر التي وقعت خلال السنوات الخمس عشرة من تلك الحرب يشير إلى ١٤٤,٢٤٠ قتيلاً و١٩٧,٥٠٦ جريحاً، و١٧,٤١٥ لا يزالون مفقودين. ولسبب غير مفسّر فإن هذه الأرقام تضم آلاف اللبنانيين الشيعة والفلسطينيين الذين قتلوا في المعارك التي اندلعت بينهما، ولا تضم آلاف الفلسطينيين الذين قتلوا في المخيمات

مكتبة الفكر الجديد

وهم يقاتلون بعضهم بعضاً. كما لا تشمل الإحصاءات الفلسطينيين المدنيين الذين ذبحهم عام ١٩٨٢ رجال الميليشيات المسيحية تحت أنظار ومراقبة الجيش الإسرائيلي. إن تقديرات أشد تحفظاً تقدّر عدد القتلى الذين سقطوا خلال سنوات الحرب اللبنانية الخمس عشرة بـ ١٢٠ ألف شخص وعدد الجرحى بـ ٣٠٠ ألف، وبكلام آخر ٤,٥ بالمئة من عدد سكّان لبنان عام ١٩٧٥ قتلوا، وما يزيد عن ١١,٥ بالمئة أصيبوا بعاهات جسدية[٥٠].

ينبغي أن لا نتناسى كل الأذى النفسي الذي لا يقاس كمّياً، أو التفسّخ الثقافي المتمثّل في واقع أن ما بين ٨٠٠ ألف و٩٠٠ ألف من الأفراد الأكثر كفاءة هاجروا من البلد الذي كان يعتبر، على الصعيد الثقافي، الأكثر نشاطية في الشرق الأوسط. إلى أين توجّه أولئك الأشخاص؟ إلى الغرب بالطبع، وهل ثمة مكان آخر؟ يمكن أن ترى كل المتاجر الجديدة لملاّكين لبنانيين وفلسطينيين على طول شارع برودواي وفي المنطقة الغربية العليا في مدينة نيويورك، والتي لم يكن أي منها هناك منذ عشر أو خمس عشرة سنة. هؤلاء المهاجرون غادروا قطعة حاسمة من الجغرافيا من وجهة نظر تاريخ العلاقات العربية ـ الغربية. أما لبنان الذي أُجبروا على مغادرته ونسيانه، فهو الآن راكد بكل ما للكلمة من معنى.

لم يُترك شكل من العنف إلا اختُبر أو جرّب على المدنيين خلال الحرب الأهلية، هناك. وفي الواقع أضيفت أشكال جديدة إلى معجم ذاك العالم الفوضوي (العمليات الانتحارية المجنونة بالشاحنات، القنص المديني المجهول الهوية، الخطف العشوائي مقابل فدية، طريقة «لنقتل العائلة كلها» كتسوية لمشكلة). وأفضل مادة لدينا عن «الأحداث» كما يحلو للّبنانيين أن يدعوها (وهو تعبير شعبي عن شيء بغيض، يتعدى قليلاً ما تقصده تسمية «المشاكل» في إيرلندا، لجهة تأكيد عجز اللبنانيين عن التسليم بالكارثة)، يقدّمها لنا صحافي غربي من الطراز الأول مثل روبرت فيسك، كما تقدمها أيضاً نساء من لبنان. (على حد علمي، فإنه لم يكتب بعد أي وصف محدّد للدينامية الثقافية ـ السياسية التحتية لتلك الحرب باللغة العربية، أو من قبل أي ذكر عربيّ). فوحشيات الحرب الأهلية ملتقطة بشكل متعذّر الإمحاء في هذا المشهد الكابوسي المأخوذ من نهاية كتاب جين سعيد المؤثر، «شظايا بيروت: مذكرات حرب»:

«منذ عدة سنوات، وخلال إحدى المحاولات التي جرت لإستعادة القانون والنظام، كان ينبغي نصب مثال لزرع الخوف في قلوب المجرمين العاديين الذين ازداد نشاطهم بفعل الظروف الفوضوية... ألقوا القبض على رجل وحاكموه

وحكموا عليه بالإعدام بسبب جريمة كان ارتكبها. حملوه وهو يصرخ ويركل برجليه، إلى المشنقة المرفوعة في الحديقة العامة... لم يكن هناك أي شك في كونه مذنباً. كان قد اعترف بقيامه بقتل صاحبة المنزل وابنها المقيم معها في المنزل. لم يقتلهما فقط، بل شوههما كذلك.... كان مختلاً عقلياً حسبما قالت الشرطة....

حملوه، ربطوه، وقيّدوه بالأغلال، وغطّوا بالقوة رأسه المعاند بغطاء أسود. احتاج الأمر إلى خمسة رجال أو ستة للإمساك به ولجمه ثم وضع عنقه داخل الأنشوطة. كان يصرخ ويركل ويقاوم، وتوجب الإمساك به حتى آخر إنتفاضة انتفضها جسمه التعس المحطّم... فيما كان ضوء الفجر ينسل قادماً من خلال شجيرات الحديقة.

إنتشرت الصور في كل الصحف... كان استعراض القانون ذاك قد تمّ. لم تسمع حتى أي تمتمة اعتراض: لم يكن يستأهل أن يعارض أحد بشأنه. كان حثالة الإنسانية المشوّهة كمثل جسدي ضحيتيه. وسط حرب قاسية... اختير رجل مختل مثير للشفقة للتكفير عن كل الجرائم، وجُرّ عنوة إلى ميتة مخزية مذلة في حديقة عامة عند الفجر، واعتبر ذلك عدالة.

كان هذا نوعاً من العدالة، في عالم معدوم العدالة، وتلك العدالة ينبغي إذاً أن يُعاد تمثيلها»[٥١].

من سوريا إلى شبه الجزيرة العربية، إلى لبنان، ثم إلى الإنتفاضة الفلسطينية، التي كانت قد بدأت بآمال كبيرة في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧. كم عدد الفلسطينيين الذين قتلوا على يد فلسطينيين آخرين خلال الإنتفاضة لكونهم «متعاونين»؟ بعد واحد وعشرين شهراً من الإنتفاضة، أصدرت وزارة الدفاع الإسرائيلية إحصاء يزعم أنه بين الـ ١٨٠٠ حادثة قام بها فلسطينيون في المناطق المحتلة بين حزيران/ يونيو، وأيلول/ سبتمبر ١٩٨٩، كان ٦٠ بالمئة منها هجمات واعتداءات موجّهة ضد فلسطينيين آخرين، ونتج عن ذلك ٧٠ قتيلاً. كانت تلك غالباً حوادث قتل وحشية، تضمّنت تشويه الجثث، وتعذيب الضحايا قبل إعدامهم، وكل تلك الأنواع من التفاصيل التي تحمل الطحين إلى مطحنة آلة الدعاية الإسرائيلية. حوادث القتل السبعون خلال فترة أربعة أشهر تنبغي مقارنتها، بحسب زعم الإسرائيليين، بالعشرين فلسطينياً الذين قتلهم فلسطينيون آخرون طوال فترة الـ ١٨ شهراً السابقة[٥٢]. بكلام آخر، فيما راحت تنسدّ الآفاق السياسية للإنتفاضة، بدأت هذه تأكل نفسها بنفسها. وتلك ظاهرة شائعة جداً وإعتيادية كنا رأيناها سابقاً في جنوب أفريقيا (حرق الدواليب حول أعناق من يسمون المتعاونين) وفي

مكتبة الفكر الجديد

إيرلندا الشمالية (إطلاق النار على عظم أعلى الركب وهو تكتيك الجيش الجمهوري الإيرلندي).

هل هي صحيحة تلك التقارير الصادرة عن وزارة الدفاع الإسرائيلية؟ وإن كانت صحيحة، لماذا لم يقم المثقّفون الفلسطينيّون المقيمون في كل أنحاء الغرب بشجب ذلك العنف الفلسطيني الداخلي، كما فعل تماماً وبقوة نلسون مانديلا شاجباً «حرق الدواليب حول الأعناق»، وكما فعل غيره من الزعماء السود في جنوب أفريقيا؟[٥٣] في مقالة طويلة تتناول ذلك الموضوع كتبها جوست هيلترمان، الذي كان عمل مع منظمة حقوق الإنسان الفلسطينية، «الحق»، لم ينكر جوست الوقائع التي نشرتها وزارة الدفاع الإسرائيلية. بل على العكس قام بتصويب العدد الذي قتل من كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧ إلى ١٦ أيار/مايو ١٩٩٠ ليجعله ٢٠٧ قتلى[٥٤]. غير أنه على أية حال لم ينتقد عمليات القتل تلك، بل اختار أن يبررها: «إن الذي تناساه سرد الأخبار (في التغطية الإعلامية لحوادث القتل) هو التعريف الفلسطيني للمتعاونين، والذين يعتبرون أُناساً يعملون مع العدو ضد شعبهم بالذات، فاقدين بذلك حقّهم في الإنتماء إلى المجتمع الفلسطيني». قد لا يكون كاتب المقالة يعي ذلك، غير أن هذا هو تفسير حزب البعث الكلاسيكي «للخيانة»، والذي استخدم لحرمان مئات ألوف العراقيين من جنسيتهم ومن حياتهم على حد سواء. يتّهم هيلترمان وسائل الإعلام الغربية «بإنتزاع مفهوم العقوبة من سياقه التاريخي والسياسي» والقيام عوض ذلك بجعله أمراً مميّزاً «للتركيبة الاستشراقية اللغوية لـ «النزاع داخل المجموعات» «بين العرب»»[٥٥]. يضع هيلترمان «نزاع داخل المجموعات» و«العرب» داخل مزدوجات، لماذا؟ هل يعتقد إن هناك شيئاً ما «شرقياً» بشأن هاتين الكلمتين؟ هل إن وضع الجريمة داخل سياقها «التاريخي» يبرّر القيام بها؟ أي صنف من حقوق الإنسان هو هذا؟

ثمة أمر مهم، وهو أن هناك أصواتاً فلسطينية جديدة طالعة من المناطق المحتلة، لم تعد توافق على ذينك المعيارين المزدوجين اللذين يمارسهما المثقفون «المناصرون للعرب» في الغرب. الدكتور حيدر عبد الشافي، وهو رئيس المفاوضين الفلسطينيين في محادثات السلام للشرق الأوسط، شجب في صحيفة «القدس» اليومية الصادرة في القدس الشرقية، عمليات القتل ذاتها التي بررها هيلترمان[٥٦]. كتب أن هناك حاجة ملحّة إلى إعادة تقييم للسنوات الأربع والنصف من عمر الإنتفاضة الفلسطينية، قائلاً إنه من الضروري أن يتفهّم الفلسطينيون أنفسهم حقيقة أنها أصبحت متميّزة بالعنف العشوائي. باسم عيد، وهو صحافي فلسطيني يعمل في صحيفة «القدس» اليومية نفسها، قرر أن يجري تحريات حول مقتل امرأة حبلى وأم لأربعة أطفال كان عُثر عليها مشنوقة على

مكتبة الفكر الجديد

شجرة داخل مقبرة، بعد أن اتهمها شبّان فلسطينيون بالتعاون مع السلطات العسكرية الإسرائيلية. وما توصل إليه في تحرياته أظهر أنها لم تكن متعاونة، فيما خطا باسم عيد خطوة شجاعة جداً بنعت قاتلها بـ «الإرهابي القذر». يوم نشرت المقالة، تلقى **عيد** اتصالاً هاتفياً مجهولاً يطلب منه القيام بتصحيح. رفض **عيد**. رغب المتكلم بتفسير، ووافق **عيد** على الالتقاء به شخصياً، وهو أيضاً تصرف شخصي شجاع جداً إذا ما أخذت الظروف بعين الاعتبار. في النهاية أمضى **عيد** خمس ساعات كاملة وسط خمسين شاباً فلسطينياً جعلوا يهاجمونه بعنف بسبب ما كان كتبه، ويمدحون القاتل (الذي رفضوا أن يسمّوه) وكانوا يطلقون عليه تعبير «أحدنا»[٥٧]. ومثل منظمة «الفنار»، وبروز قيادة أكثر إنسانية بين الفلسطينيين الذين يعيشون داخل حدود ما قبل ١٩٦٧ في إسرائيل، أو في الأراضي المحتلّة (وهي واضحة في شخصيات مثل **حنان عشراوي وفيصل الحسيني**)، إن مقالة **عبد الشافي**، ومثال **باسم عيد** هما كذلك شاهدان على سعي لإنشاء حساسية فلسطينية سياسية جديدة تمتلك حسّ النقد الذاتي.

في النهاية، وكي ننتهي مع العراق الذى هو، بالنسبة لي شخصياً، منشأ كل شيء، ثمة مجلدات بأكملها تنتظر أن تكتب بشأن القسوة هناك، وكذلك عن صمت العرب والمثقفين «المعادين للامبريالية» عن تلك الوحشية. في الوقت الحاضر سوف أشير إلى كم كان مقتل ما بين ٥٠٠ ألف ومليون عراقي وإيراني غير مثير لإهتمام أولئك الأشخاص بالذات الذين تحدثوا فقط عن جرائم الغرب خلال حرب الخليج. «تدعي الحكومة الامريكية أنها حامية حقوق الإنسان... ولكنها في حربها الوحشية في الخليج دافعت عن قلة من الملوك والأمراء، بينما ساهمت في قتل وتشريد ملايين من البشر الكادحين.... أين حقوق الإنسان في مدن البصرة وكركوك وكربلاء وغيرها حيث الدمار الشامل؟» هذا ما كتبه الباحث الفلسطيني المقيم في واشنطن الدكتور حاتم حسيني متفجعاً على «الشعوب العربية والإسلامية» التي دفعت «أكبر ثمن في حرب الخليج الأمريكية»[٥٨]. لكن الشاعر العراقي سعدي يوسف الذي ولد في البصرة، لا يقاسمه الشعور نفسه. يقول يوسف:

> «أقول: الآلاف الخمسون من أهل البصرة لم يقتلهم الأميركيون إلاّ بواسطة الوحش الذي خنق في دقيقةٍ واحدةٍ، الآلاف من بلدة كردية، اسمها حلبجة.
>
> القطيعة العظمى أغلقت دائرتها. الخليفة العباسي، الموفق، سار بجيشه إلى البصرة ليذبح الزنج، وليحتفظ حتى اليوم بشارعٍ في المدينة يحمل اسمه. لكن الوحش الذي وجّه مدافع دباباته الـ T 72 إلى بيوت المدينة، وصدور أطفالها، أبناء اللون النادر في حضارة العرب، لم يترك ولو شارعاً واحداً قد ترتفع عليه،

مكتبة الفكر الجديد

ذات يوم، مسلّة تطلُّ علينا، منها، اسماء شهدائنا، أطفال البصرة»[٥٩].

تضررت مدينة البصرة من جراء الحملة الجوّية الأميركية أكثر من أي مدينة عراقية أخرى، وعلى الرغم من ذلك اختار شاعرها البارز **سعدي يوسف** أن يكتب عمّا فعله بها «وحش» حلبجة. من جهة أخرى، فإنها دمّرت عدة مرّات خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية، من دون أن يجد الدكتور **حسيني** ما يقوله بصدد ذلك. «الشيطان الأكبر» المدعو في **معجم حسيني**، «الشركات الغربية الاحتكارية»، لم يكن هو من يقوم بالتدمير إذ ذاك، وكان ذلك هو المهمّ في اعتباره. إن **حسيني** ساخط على سياسة الولايات المتحدة حيال الشرق الأوسط. وهذا حق. ولكن هل هو يأبه حقاً بحقوق الإنسان في البصرة، هذا كي لا نشير إلى كربلاء التي شاءت الأمور أن لا تُمس ولا تقصفها القوات المتحالفة طوال شهر شباط/فبراير ١٩٩١؟ لقد تركت سليمة ليدمّرها صدّام حسين في آذار/مارس. إن جثث أولئك العراقيين الذين قتلهم الحرس الجمهوري في أعقاب إنتفاضة آذار/مارس لم تكن قد تعفّنت بعد حين كان حسيني يكتب ما كتبه.

لكن فيما كان القتلى العراقيون والإيرانيون يتكدّسون خلال سنوات القتال الثماني، كان بعض أشهر الأسماء في الأدب العربي، إضافة إلى آلاف المثقفين الأقل مستوى، يقومون بزيارة بغداد، وتلقّي الجوائز، وحضور مهرجانات الشعر (أسماء شهيرة مثل **نزار قبّاني، محمود درويش، عبد الوهاب البياتي، غادة السمّان، سعاد الصبّاح، كاريس مهدي، توفيق يوسف عوّاد**). كان بعضهم يحضر المهرجانات التي يموّلها العراق، كمجرد سيّاح مدفوعة مصاريفهم. ليس هناك أي اعتراض على ذلك. بيد أن آخرين سمحوا لأنفسهم أن يُستخدموا لغرض تقديم الدعم لسياسات النظام. وخلال الوقت الذي كانت توزّع فيه الميداليات الذهبية في بغداد، كانت تجري إزالة آلاف القرى الكردية من قبل الحكومة العراقية في منطقة تبدأ على بعد ٧٠ ميلاً من حيث كانت تجري مهرجانات صدّام حسين الأدبية الباهرة. فبين ١٩٨٦ و١٩٨٨ دمّر ما لا يقل عن ألفي قرية. وعام ١٩٨٨ (كما رأينا في الفصل الخامس)، قتل مئة ألف كردي مسالم في أقل تقدير، وجرى ذلك بشكل روتيني منظّم في حملة تدعى «الأنفال»، والتي تحمل كل سمات الإبادة الجماعية، وقد قام بذلك النظام نفسه الذي دعمه أُناس مثل الدكتور **حسيني** خلال أزمة الخليج، لأنهم اعتقدوا أن ذلك سيساعدهم على تحرير فلسطين. هل كان أولئك المثقفون يعلمون بما كان يجري في كردستان العراقية؟ إن كانوا يجهلون كل التفاصيل الرهيبة، فقد كان ينبغي أن يتوقّعوا الأسوأ.

في مقالة تحمل عنوان **«محمود درويش والطريق المسدود»** توجّه الكاتب العربي العراقي **أمين العيسى** (الذي فرّ من العراق خلال الحملة الضخمة ضد الشيوعيين التي

مكتبة الفكر الجديد

سبقت مباشرة شن الحرب الشاملة على إيران) إلى بطله **درويش**، وهو أشهر اسم في الأدب الفلسطيني، وبألم المطعون في ظهره:

«لقد عمّ الرعب يا محمود الآن كل زوايا الوطن وإذا كان الصمت لم يعد ممكناً فإن التواطؤ خيانة ـ كيف يتحوّل القاتل إلى وطني؟ وكيف تسمح لنفسك أن تردد معزوفة النظام البعثي (حول الوطنيين الذين يتركون بلدهم في وقت الشدة). أنت تعرف الحقائق جيداً. لقد بدأ النظام حربه عليهم قبل أن يبدأ حربه على إيران. هل يمكن أن تكون الفاشية موضع اجتهاد؟ لقد حمل الوطنيون العراقيون وطنهم في القلوب وفي حدقات العيون وما زالوا يرسمون بدمائهم الطاهرة لوحة الغد الزاهية»[٦٠].

ما سبب استياء الكاتب العراقي العيسى من الشاعر الفلسطيني الكبير درويش؟ لأنه في العام ١٩٨٦، وقبل خمس سنوات كاملة من حرب الخليج، كان درويش خطيب صدّام الأساسي خلال مؤتمر بارز للكتّاب العرب أُقيم في بغداد وحضره آلاف المعنيين بالكتابة. أثناء خطابه تحدث **درويش** عن **«جريمة الصمت»** وعن **«خيانة الصمت»**. غير أنه لم يكن يتحدث عن صمت المثقفين العرب حيال ما كان يحلّ بشعب العراق ـ الأكراد والعرب على حد سواء ـ على يد نظام بلدهم بالذات. كان ينتقد عراقيين مثل **العيسى** لبقائهم في المنافي فيما بلدهم يحارب العدو الفارسي ولتوجيههم خناجرهم «إلى كبد العراق، وإلى روح فلسطين معاً». عند نهاية خطابه، الذي كان يلقيه أمام مجلس قيادة حزب البعث الأعلى، اختتم الشاعر مقدماً المديح والشكر لـ **«قمر بغداد** [صدّام حسين؟]» وأرض العراق العظيم، «الذي يحرس البوابة الشرقية للأمل العربي، والذي ينزل البطولة من الميتولوجيا إلى الراهن»[٦١]. هذه القصّة الحزينة تكتسب مغزاها الكامل في ضوء إدراك أن **محمود درويش** كان يعرف تماماً ماذا كان يفعل عندما اختار أن يمدح نظام صدّام حسين. كان درويش هو نفسه قبل ثلاث وعشرين سنة، خلال تجربة البعث الأولى في السلطة بالعراق عام ١٩٦٣، كتب هذه السطور القاسية، بشأن ما كان فعله حزب البعث بالأكراد العراقيين:

في أرض كردستان

حيث الرعب يسهر والحرائق

وتقول الآن فلْتَحيا العروبه

مري إذن في أرض كردستان

مري يا عروبه[٦٢].

مكتبة الفكر الجديد

١٠ ـ تعريف الصمت

الحياة البشرية لم تكن دائماً قليلة الاعتبار في العالم العربي. حتى حرب ١٩٦٧ لم تكن حساسية العرب تجاه الاعتداءات على حقوق الإنسان أسوأ منها لدى أي شعب آخر في العالم النامي. هذا لا يعني أنها كانت كافية، بل جل ما في الأمر أنها كانت تجاري أجزاء أخرى من آسيا أو أميركا اللاتينية. منذ ١٩٧٥ وبداية الحرب الأهلية في لبنان أصبح العالم العربي شرقي مصر مكاناً بغيضاً بشكل استثنائي. إن العوارض في لبنان من تمجيد العنف، والنزاع المسلّح، وأفكار الثورة، كانت كلها ولدت قبل عقود في العراق وسوريا. والنتيجة أن حساسيات حقوق الإنسان العربية اليوم، تتخلّف إلى ما وراء أجزاء أخرى من العالم النامي مثل الهند وأميركا اللاتينية. استبدادات جبّارة وانعدام شعبوي للقانون مصحوبان بإنتلجنسيا لا تملك مطلق نقد ليبرالي أو نقد «متمحور حول الحقوق» لأي من الاثنين. في هذه الأثناء تتدفق إلى الشرق الأوسط ثروات بضخامة لم يسبق لها مثيل. حتى فيما كان العرب أنفسهم يفرّون من المنطقة بأعداد متزايدة باستمرار، فإنهم يفرّون، لا بسبب انعدام الفرص الاقتصادية، بل لأن القسوة أمست في كل مكان هي القانون.

هذه القسوة ظاهرة خاصة حصراً بالسبعينات والثمانينات، ولا تحتوي أية تضمينات عامة متعلقة «بالعرب» أو «الإسلام». لقد كانت المفارقة أن اللحظة الحاسمة في التحوّل من مجموعة من الهموم السياسية والثقافية النموذجية في معظم العالم الثالث، إلى القسوة الحالية غير الاعتيادية في المشرق، إحدى الفترات الفاصلة الأكثر تجدداً وابتكاراً ثقافياً في السياسة العربية الحديثة. تتبادر إلى ذهني الفترة الواقعة ما بين ١٩٦٧ و١٩٧٥، ما بين حرب الأيام الستة، واندلاع الحرب الأهلية اللبنانية.

خلال سنوات قصيرة وقليلة تلت ١٩٦٧ قامت قبضة من المثقفين أمثال صادق

مكتبة الفكر الجديد

جلال العظم وأدونيس، إلى جانب مجلات مثل «مواقف»، بإخضاع كل شيء للنقد الثاقب. إن عناوين كتب العظم تحكي وحدها القصة: «نقد الفكر الديني»، «النقد الذاتي بعد الهزيمة»، «نقد الفكر المقاوم» الفلسطيني. وأهمية هذه الكتب ليست في أنها كانت «صحيحة» بحسب مفهوم ما لا زمنيّ، إذ ليس هناك شيء كهذا في الثقافة. وهي لم «تقبل» أية تدخلات إسرائيلية أو غربية في شؤون المنطقة، بل كانت لا تزال أعمالاً «رفضية»، بحسب المعجم السياسيّ العربي. إن أهمية هذه الكتب هي في كونها نظرت داخلياً إلى الشوائب السياسية ـ الثقافية العربية والإسلامية، من غير أن تسعى إلى إلقاء اللّوم على الغرباء. كان ثمة تيار ينبثق في الفكر العربي من دون أن يتأرجح بين النزعة الانتصارية ولطم الصدور، وهما القطبان التوأمان للخطاب العربي المعاصر. ومقاطع كثيرة من تلك الكتابات لا تزال تحتفظ بمقاربات مثيرة للدهشة:

> «إن مجرد استخدامنا لمصطلح «النكبة» في الإشارة إلى حرب حزيران ونتائجها ينطوي على الكثير من منطق التبرير والتهرب من المسؤوليات والتبعات، لأن من تحل به النكبات لا يعتبر مسؤولاً عنها وعن وقوعها، وإن كان كذلك فإن مسؤوليته تعتبر جزئية جداً بالقياس إلى هول النكبة وعظمها. لذلك درجنا على نسبة النكبات إلى الدهر والزمان والطبيعة أي إلى عوامل لا سيطرة لنا عليها ولا يمكن أن نحاسب على مجاري أحداثها»[1].

إن الإرث المديد والأهم من فترة ١٩٦٧ ـ ١٩٧٥ كان نشوء حركة المقاومة الفلسطينية. خلال تلك السنوات الحاسمة (والتي لم تجر بعد دراستها بشكل واف) تناوبت في الخطاب السياسي دورات من الابتهاج، والتجدد، والبحث عن أفكار جديدة، تبعتها دورات من فقدان الأمل واليأس، وبدايات لجوء إلى خنادق التقاليد. لكن حرب ١٩٦٧ كانت اختباراً أخفق حتى عنده كل من **العظم وأدونيس** ومعهما نظرتهما من الداخل ومواقفهما العلمانية الفكرية. كانت إسرائيل لا تزال هناك، أقوى من أي وقت آخر، ولا تزال كياناً متعذر الفهم في نظر العرب. والنقد الذاتي ما بعد الهزيمة لم يذهب بعيداً بما يكفي، بل بقي واقعاً في شرك تحديدات من الافتراضات الضمنية مثل: ما هي علّتنا حتى تمكنوا من أن يهزمونا تلك الهزيمة المنكرة؟ كيف بمقدورنا أن نتغيّر حتى نستطيع أن نفعل «بهم» ما «فعلوه بنا»، في المرّة القادمة؟

كانت الساحة قد تركت آنذاك خالية تماماً للإيديولوجيات الراديكالية بشتى أنواعها: البعثية، الماركسية المبتذلة، الإسلام السياسي النشط، الاشتراكية العربية، والقوميات المحلية النضالية (فلسطين ولبنان وسوريا الكبرى، إلخ). أي من تلك الإيديولوجيات ـ إلى

مكتبة الفكر الجديد

جانب اختلافاتها الهامة الأخرى - لم تستطع تطوير نظرة إلى العالم متمحورة حول تصوّر لحقوق الإنسان، أو مناعة الشخص البشري كمبدأ أساسيّ في رؤية حديثة للعروبة. أكثر من ذلك، وعلى الرغم من ضخامة الأصوات ما قبل ١٩٦٧، ثبت في النهاية أن ما كان مشتركاً لدى الجميع هو فقط «المعاداة للإمبريالية» و«المعاداة للصهيونية». يمكنك على الدوام أن تذهب إلى أبعد ما تستطيع في السياسة العربية بمجرد إلقاء اللوم على الغرب أو على إسرائيل. كانت هنالك في ما مضى أفكار معتدلة في التجربة السياسية العربية قبل الاستقلال، وقد عقَّدت تلك الأفكار هذه السذاجة. من المهم أن نتذكر أنه كان هناك ليبراليون وديمقراطيون في العالم العربي خلال الأربعينات والخمسينات. لكن من المأسوي أن حرب ١٩٦٧ بدّدت نهائياً ما كان تبقى من أفكارهم. فيما انتشرت القسوة، وهي ظلت تغتذي من ذاتها طوال فترة الثمانينات، حيث جرى التخلّص من كل أنواع التنويع في السياسة العربية. كان كل ما تبقى مجرد امتعاض مَرَضيّ قاتل للفكر. يبدو الأمر كما لو أننا انكفأنا وتراجعنا منذ كتب العظم كتابه «النقد الذاتي بعدَ الهزيمة»(٢).

إن خطاب الإنتلجنسيا العربية المعادي للغرب خلال أزمة الخليج ١٩٩٠ - ١٩٩١، هو استعادة للتصريح المتحجّر الخاص بالتملّص من المسؤولية الذي كان العظم قد انتقده في أعقاب حرب ١٩٦٧. ازداد الخطاب مرارة وتشاؤماً مع مرور الزمن، ليفقد الأمر الوحيد الذي كان يحاول الحصول عليه وهو: الأمل في نظام جديد أفضل، وحماسة الاعتقاد بأن المرء قادر على التغيير. مضى ربع قرن على حزيران ١٩٦٧، وبات جيل جديد من الكتاب والمفكرين العرب أرفع ثقافة يشرف على الصحف والمجلاّت، ويحتلّ مقاعد في جامعات شهيرة في كل أنحاء العالم الغربي. إنهم ظاهرياً مختلفون جداً عن **أحمد الشقيري ومحمد حسنين هيكل** اللذين من الجيل السابق. يتناقشون بشأن الحداثة والتقاليد، وفي الديمقراطية والإسلام، وعن المزاعم والمزاعم المضادة للشرق والغرب. يكتبون بالإنكليزية والفرنسية والعربية، وينشرون في وقت واحد في كل أنحاء العالم. ولكن عندما يتعلّق الأمر بالقسوة القائمة في محيطهم، والتي يرتكبها أهلهم «بالذات»، فإنهم يبدون، ويا للغرابة، أكثر صبيانية في تصرفاتهم حيال ذلك من أسلافهم. فالإنكار المستديم للقسوة المتفاقمة باستمرار قد أحدث فجوة يتعذّر الدفاع عنها، بين أسلوب كلام أولئك المثقفين وحقيقة سير أمور عالمهم من حولهم. فعندما غزا صدّام حسين الكويت، سقط كل أولئك المثقفين على رؤوسهم في الفجوة التي هي في، التحليل النهائي، من صنيعهم هم بالذات.

لقد تشكّل سياسياً جيلي الذي يضم العديد من المثقفين الذي استشهدت بكتاباتهم

مكتبة الفكر الجديد

في هذا الكتاب، في بوتقة حرب ١٩٦٧ .**إدوارد سعيد** على سبيل المثال، وعلى الرغم من أنه المولود في **القدس**، أصبح واعياً بحدّة لهويّته الفلسطينية ـ العربية بعد هزيمة جيوش **عبد الناصر** وبزوغ الأمل الفلسطيني. عشنا جميعنا أنواعاً متشابهة وواسعة من التجارب، سواء كنّا نعيش في **بيروت**، في **لندن** أو في **نيويورك**. بدأت في السياسة كمناضل مؤيّد للمنظمة الفلسطينية نفسها التي كان يؤيدها كل من **سعيد والعظم**. عندما عملت في النهاية مكرساً كل وقتي لدعم الحركة الفلسطينية، وعيت كوني عربياً للمرة الأولى. وحتى بينما كان حزب البعث يعطي سلطته في العراق شرعيتها على أرضية إيديولوجيا وحدة العروبة الشاملة، كنت منجذباً إلى فكرتهم القديمة حول «الثورة العربية». لكن ما شدني ليس صيغة ميشيل عفلق الأربعينية، بل النسخة الجديدة التي تحدث عنها المثقفون الفلسطينيون، وأطلقها مثال الحركة الفلسطينية الناهضة. أما حسّي الذاتي كعراقي، والذي لم يكن أبداً شيئاً عانيت قلقاً بشأنه، فتراجع إلى الخلفية. لم أكن أيضاً أتغيّر في معزل عن الجميع. ففي أي مكان كنت تنظر، كنت ترى كيف تجري إعادة تخييل للهويات وتغليفها بأفكار جديدة لمّاعة. كانت هذه قد اندفعت من الظلام مثل صواعق برق.

عند بداية الحرب الأهلية اللبنانية اختبرت ذلك العالم الذهني الجاهز عند الشبّان العرب، في مواجهة الواقع، الذي هو امتحانها الحقيقي. إبان هذا الامتحان خسرت هالة المنظّمات الفلسطينية بريقها كلياً. مارست تلك المنظمات سلطة في لبنان، والنتيجة الطبيعية لذلك انها توقفت عن كونها مجرد منظمات «مقاومة». أصبحت فاسدة وقذرة في ممارساتها مثل جميع من هم حولها.

امتهنت المنظمات الفلسطينية مثل الجميع فرض الحماية والضرائب والابتزاز والتهديد. نهبت ومارست القنص والخطف وتمرجل مسلحوها على اللبنانيين العاديين وعلى المدنيين الفلسطينيين الضعفاء. ابتكرت أساليب جديدة بارعة في قتل وإيذاء عرب آخرين، تماماً مثلما سبق للجميع أن فعلوا. هل ثمة من فرق بالنسبة للّبنانيين العاديين بين رجل «مافيا» فلسطيني، ونظيره من «المرابطون» أو «الكتائب»؟ لقد سلبتهم الأرض من تحت أقدامهم عصابات من قطّاع الطرق. هل ثمة فرق إن كان من يفعل ذلك ينتمي إلى هذه العصابة أو إلى أية عصابة أخرى؟ في لبنان اختصر الأمر في النهاية إلى القتل فوق أجزاء صغيرة من تراب ناس آخرين. باع الجميع أرواحهم إلى «مافياتهم» الصغيرة من أجل بعض الحماية. وهكذا طغى الركود واليأس، والتشاؤم وفقدان الأمل حيثما كانت تلوح مرّة حقائق كبيرة منكشفة.

مكتبة الفكر الجديد

مع بداية الحرب الأهلية اللبنانية، أدرك التجدّد الثقافي الذي كان بدأ على أرضية ١٩٦٧ نهايته التامة. لم يكن الركود ليبلغ عند أي فريق ما بلغه عند **الإنتلجنسيا** الفلسطينية. نفهم ان تلك **الإنتلجنسيا** كانت منشغلة بتحديد مصطلح «الفلسطينية» المكتشف حديثاً، إزاء إسرائيل التي كانت تجربة الاحتلال قد أفسدتها هي (احتلال المناطق والناس الذين تم الاستيلاء عليهم سنة ١٩٦٧). كان السياسيون الإسرائيليون خلال ذلك الوقت قد اكتشفوا خدعة أو اثنتين قذرتين من نظرائهم العرب وكانتا: الإنكار التام لوجود ما يدعى االفلسطيني، وتسمية المناطق المحتلّة **«يهودا والسامرة»**.

في المشرق طوال فترة الثمانينات، قام الجميع بأسوأ الخيارات، بمن في ذلك المثقفون الفلسطينيون. فإبان الزواج الذي جمعهم إلى قيادة تلك المنظمات بالذات والتي تصرفت بشكل مقيت في لبنان، لم يحاولوا حتى المطالبة بالمكانة المعنوية العالية التي كانت مشرعة لهم طوال السبعينات والثمانينات. في وقت كانت فيه جنوب أفريقيا تبرز قائداً كنلسون مانديلا، وتشيكوسلوفاكيا **فاكلاف هافل**، وبولونيا **ليش فاليسا**، كان المثقفون الفلسطينيون متمسكين **بياسر عرفات** «هم». وخيارات كهذه تلخّص إخفاقات وفشل جيل بأكمله. هل أن شعباً موهوباً كالفلسطينيين ـ الأكبر، والأوسع انتشاراً، والأفضل ثقافة في العالم العربي ـ عاجز عن إيجاد من هو أفضل من **ياسر عرفات** كقائد له، طوال كل تلك السنوات من النضال السياسي المنظّم؟

إن مجرد طرح سؤال كهذا على ورقة يخيفني. لست أملك أي جواب. كل ما أستطيع أن أفعله هو الإشارة إلى الفشل الجماعي المتوهّج **لإنتلجنسيا** عاجزة عن تطوير خطاب إنساني وديمقراطي داعم للغة الوطنية. كما لو أن الأمرين متناقضان نظرياً في رؤية العرب، أو كأنه يصعب وجودهما معاً في المشرق. كلمات مثل «حرّية»، «ديمقراطية»، «عدالة»، «كرامة إنسانية» و«حقوق الإنسان»، فقدت كل معانيها على يد أولئك المثقفين بالذات المتذمرين على الدوام من الرياء الغربي. إنهم ما عادوا يؤمنون بالأشياء نفسها التي يهاجمون الغرب صاخبين لعدم إيمانه بها.

تلك المعاني القديمة الضائعة تحتاج إلى أن تُكْتَسَبْ وأن يجري التلاؤم معها من جديد. ولكن ليس على شكل تفسيرات «بديلة»، وليس كذلك على شكل مجرد القول «إننا كلّنا» ضد قذارة البعث. فهذا ليس جيداً إلى درجة كافية. غالباً ما تكون لغة الرفض والإنكار عذراً للكسل والقصور، وأسوأ من ذلك أنها يمكن أن تصبح حتى مبرراً للقسوة. ذلك ما جرى إثباته في «أزمة الفضح» التي بدأت يوم غزا صدّام حسين الكويت. فلا يمكن لغير أساليب جديدة من التفكير، تنشأ فوق أعمق أنواع الاشمئزاز الذي لا يساوم،

مكتبة الفكر الجديد

من الوحشية والتعصّب اللذين ارتكبهما العرب ضد عرب آخرين، أو ضد الأكراد وأقليات قومية أخرى في الشرق الأوسط، أن تقنع وتهب الأمل للشعوب المعانية من أمد طويل في ذلك الجزء من العالم. ثمة حاجة إلى خطاب جديد فحواه النقد الذاتي، خطاب متجذر بإصراره المتطرف على مسألة القدسية المنيعة للحياة البشرية، وخضوع كل الأمور الأخرى لذلك المعيار. بقدر ما يتوقع المثقفون الفلسطينيون، وعن حق، أن يضم كل العرب جهودهم في النضال ضد اضطهادهم، ينبغي أن يبدأوا هم بفهم أنهم خذلوا أخلاقياً ومعنوياً كل العرب في هذا السياق، أكثر مما فعل أي طرف آخر.

ففي وقت راحت معه أجزاء ضخمة من سائر العالم (أوروبا الشرقية، أميركا اللاتينية، الصين، جنوب أفريقيا) تكتشف حقوق الإنسان/ الديمقراطية، وتناضل ضد الطغيان فيها وضد البيروقراطيات الستالينية، كان الأفضل والأكثر موهبة بين الفلسطينيين يكتبون كتباً متفقّهة تقوم على تعابير كهذه:

«... إن كل المعرفة الأكاديمية بشأن الهند ومصر هي بطريقة ما، مشوبة ومدموغة، ومنتهكة، بالواقع السياسي الفاضح [للامبريالية]... هذا ما أقوله في هذه الدراسة عن الاستشراق...

وما هو صحيح بالتالي، ان كل أوروبي، بناء على ذلك، عنصري في ما يمكن أن يقوله بشأن الشرق، وهو أيضاً إمبريالي، ومتمحور حول ذاته بالكامل تقريباً»(٣).

إن كتاب «الاستشراق» مشروع ثقافي كان له تأثير على جيل كامل من الطلاّب العرب الشبّان، وقد طبع بطابعه مجمل الدراسات الشرق أوسطية في الثمانينات. ولم يهدف الكتاب الأساسي إطلاقاً إلى انتقاد السياسة العربية المعاصرة، إلا أنه عمل على تغذية سياسات شعبوية متجذرة بعمق في عدائها للغرب. والتشويهات التي حلّلها جاءت من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، غير أن تلك التشويهات أدرجها طلاّب عرب شبّان وطلاب مناصرون للعرب داخل البرنامج الثقافي ـ السياسي الذي يقع خارج الحاجات الحقيقية للعرب المقيمين في عالم متميز بقسوة سريعة التفاقم، وليس بسيطرة إمبراطورية دائمة التزايد. إن الوجهة الممتدة بين كتاب «الاستشراق» لسعيد وكتابه «تغطية الإسلام» تسير في بلورة الفكرة التالية: «كيف تحدد وسائل الإعلام والخبراء طريقتنا في رؤية بقية العالم»، وهذه تتقدمها فكرة أخلاقية مغلوطة بأنه ينبغي إلقاء اللوم على الغرب هنا وهناك بسبب تاريخ ارتباطه الشائن الطويل بالشرق الأوسط. وهكذا تكون قد انحرفت بطريقة غير فطنة عن المشاكل الحقيقية للشرق الأوسط، في وقت

مكتبة الفكر الجديد

أسهمت بزيادة المرارة في الترسانة الانفعالية للشبان العرب، في حين أن المتوافر من ذلك كثير جداً[٤].

فيما تفاقمت القسوة، كانت الأسباب الموضوعية للمرارة تتضاءل أكثر وأكثر مقارنة بالفترات الأخرى في التاريخ الطويل الشائك للعرب والغرب. ثمة غرب عجوز وفي طور الانحطاط هناك، وليس غرباً غازياً أو امبراطورياً. السياسة الخارجية الأميركية منيت بهزيمة حاسمة في فييتنام، وهزمها الخميني في إيران هزيمة منكرة، بدت كأنها صنيع مهرّجين في لبنان (حيث استطاع انتحاري وحيد أن يقتل أكثر من مئتي جندي أميركي من المارينز في انفجار واحد). أجبرت إسرائيل على الانسحاب من الأراضي المصرية. إيران «فقدها» الغرب لفترة تاريخية طويلة. قوة العرب المالية لم يسبق لها مثيل.

في هذه الظروف لم يعد السؤال الثقافي الأهم كم هي القوة الأميركية في العالم كلية القدرة والنفوذ، بل كم انها أصبحت غير فعّالة في كل شيء تفعله (وكان ذلك نادراً) في مواجهة تعقيدات المشاكل المتعسرة الحلول في بلدان الشرق الأوسط المستقلّة سياسياً. إن المثال الممتاز على ذلك هو حرب الخليج ـ حرب موّلتها الدول العربية لحل نزاع عربي ـ عربي. إن كانت تلك قد تركت من دون نهاية حاسمة، فإن هذا، من وجهة النظر العراقية، لم يكن بسبب فقدان المبادرة عند الأميركيين. كان العراق قد دمّر، وبقي صدّام حسين في السلطة، ليس لأن الغرب أراده أن يستمر، بل لأن القوات المتحالفة كانت مرتعبة من فكرة وراثة المسؤوليات التي ستترافق بالضرورة مع إنهاء تلك المهمّة.

الحجّة الكامنة في برنامج المثقفين العرب و«المناصرين للعرب» المقيمين في الغرب، كانت ان «الغرب وحده» يستطيع أن يفعل شيئاً ما بشأن مشكلة إقليمية مثل النزاع العربي الإسرائيلي، لأن المشكلة هي «تاريخياً» من صنعه. «نحن الفلسطينيين غير مسؤولين». وتتابع فكرتهم «لأننا على الدوام لم نكن إلا ضحايا التاريخ». إن الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان، ومقتل ما يقارب العشرين ألف مدنيّ لبنانيّ وفلسطيني بريء من جرّاء القصف العشوائي، اعتبره العرب الفلسطينيون، و**الإنتلجنسيا** المناصرة للعرب، نتيجة للسياسات الأميركية، تماماً مثل غزو صدّام حسين للكويت. لم يكن في الإمكان قبل نهاية حرب الخليج أن تتحدث إلى الإسرائيليين أو تناضل للحصول على حقوقك داخل إسرائيل، بل كان عليك أن تتوجه باستمرار إلى الأميركيين. ومجرد فكرة القيام بحملة للمطالبة «بالحقوق» موجهة بشكل مباشر إلى الرأي العام الإسرائيلي (حيث تشير الدلائل انه كان يمكن أن تلقى الدعم) كانت تعتبر بمثابة تسوية مذلّة ومشبوهة. لماذا

مكتبة الفكر الجديد

يستطيع نلسون مانديلا التحدث مع بيك بوتا، بينما لا يستطيع مثقف فلسطيني أن يتحدث إلى نظرائه الإسرائيليين الذين لا يحجم الأفضل بينهم عن الفرصة المتاحة؟ وعوض التمسك بجوهر المشكلة الداخلي، انغمس المثقفون الفلسطينيون خلال الثمانينات في حروب فاشلة متتالية موجّهة ضدّ «تحيّز» الحكومة الأميركية، أو شبكات وسائل الإعلام الأميركية. والواقع ان الفلسطيني الذي ناصر إعادة توجيه راديكالي للأولويات السياسية كان يعيش داخل إسرائيل ـ فلسطين، وكان منبوذاً بشكل فعلي وحقيقي من قبل نظرائه الرافضين لذلك(٥).

مثل قصيدة نزار قبّاني: «أبو جهل يشتري فليت ستريت»، فإن كتاب «الاستشراق» يعمل من خلال المزاج الشعبوي للتحامل العربي القائم منذ زمن طويل. إنه لا يفعل شيئاً من أجل إعادة تشكيل التصورات حول الغرب في أذهان العرب، على الرغم من أن كاتبه هو، كعربي، في الموقع الأكثر ملاءمة للقيام بهذه المهمة. إن الكتاب يمنح العرب الطمأنينة ويخلق عندهم الرضى، عوض أن يدفعهم إلى إعادة التفكير بالافتراضات الأساسية التي ظهر بجلاء انها لم تكن فعّالة. لربما لم يكن ذلك هدف الكتاب الأساسي، غير أن للكتب حياة خاصة بها، مستقلّة عن نوايا كاتبيها. إني أتوجه بالكلام إلى قراء «الاستشراق» العرب الشبّان، والذين لا يزالون إلى اليوم أكثر المعجبين به. إنهم في حاجة ماسة إلى عدم تعلّم أفكار مثل التي تقول «إن كل أوروبي»، في كل ما قاله أو يقوله عن عالمنا، كان «عنصرياً».

واعتماد الكتاب في مؤسسات التعليم الأكاديمي في الغرب ـ في الوقت الذي انهارت الإمبراطوريات منذ وقت طويل (بريطانيا وفرنسا) أو باتت في حالة انحطاط نهائي (الولايات المتحدة) ـ يوحي بانعدام العلاقة بين فرضيته الموجهة والتعليم الغربي الحديث في موضوع الشرق الأوسط. ومن سخرية الواقع ان هذا الكتاب حظي بالاهتمام الواسع في الغرب «المتمحور حول ذاته بالكامل تقريباً»، أساساً لأن كاتبه فلسطيني، تماماً مثلما أخذ على محمل الجد كتاب «جمهورية الخوف»، إثر غزو صدام حسين للكويت، كون كاتبه عراقياً. لقد حان الوقت الذي يتوجب علينا فيه أن نواجه حقائق داخلية كهذه.

لقد كان القصد من كتاب «الاستشراق» أن يصبح مشروعاً ثقافياً ـ سياسياً ينسج على منوال عمل نعوم شومسكي عن العلاقات بين حرب فييتنام والتصوّرات الموضوعية للتعليم الجامعي(٦). واللافت للنظر في المسألة ان الإشارة الوحيدة فيه إلى الشرق الأوسط الحديث موجودة في الجملة الافتتاحية من المقدّمة: «خلال زيارة لبيروت خلال الحرب

مكتبة الفكر الجديد

الأهلية الرهيبة في ٩٧٥ ـ ١٩٧٦ كتب صحافي فرنسي متأسفاً لتدمير وسط بيروت التي «كانت تنتمي مرة... إلى شرق شاتوبريان ونرفال». كان محقاً في كلامه عن المكان بالطبع، وخصوصاً إن كان المعني بالكلام أوروبياً. كان الشرق تقريباً اختراعاً أوروبياً...»[٧]. من هناك فصاعداً، يختفي عالم العرب الحقيقي في كتاب يصوغ كيفية نظرة الشبان العرب حيال العالم. ما يحزن في النهاية أن معظم اللبنانيين يفتقدون في الواقع رؤية شرق **شاتوبريان ونرفال**، وعلى الأقل بدرجة توازي الصحافي الفرنسي الذي جرى الاستشهاد بكلامه.

قبل أربع سنوات من استسلام **أدونيس** يائساً ومشمئزاً من «مناطق وسط بيروت المقتلعة الأحشاء» و«الحروب الأهلية»، ليغادر ويعيش في باريس، كتب هذه السطور:

غَيّرَ القتْل شكْل المدينة، ـ هذا الحجرُ

من عظام،

وهذا الدخان زَفيرُ البشرْ[٨].

إن سطوراً كهذه تدوي حقيقة، كما تفعل كذلك ملاحظة **أدونيس** عام ١٩٨٦ «لقد مات شيء في العالم العربي»[٩]. قال **وليد خالدي** شيئاً مماثلاً عندما كتب: «ثمة غياب منذ أواسط السبعينات لمحور جاذبية أخلاقيّ في العالم العربي»[١٠]. هذه التعليقات على مرآة حرب الخليج تعكس مشاهد القسوة المرسومة في الفصول السابقة، لكننا الآن نجد أننا نحتاج إلى ما هو أكثر. كان هناك انفجار داخلي، انهيار أخلاقي في العالم العربي ـ وليس مجرد انجراف أو انعدام محورية. وعواقب ذلك الانهيار سوف ترافقنا طوال أجيال قادمة، مهما حصل في العراق أو في لبنان، وبصرف النظر عمّا إذا كان سيُرفع كأس التسوية المقدس بين العرب والإسرائيليين أم لا.

«داء اللي بينا مِنّا وفينا»، غنى **عزيز علي وهو توم ليهرر** الموسيقى الشعبية العراقية في الأربعينات والخمسينات. **وعزيز علي** من نوع المثقفين العرب الذين ما عادوا مؤثرين حالياً، لا داخل العالم العربي ولا خارجه. وإن ظهر، بضربة حظّ، واحد مثله، فإنه يهمّش ولا يُحمل على محمل الجد من قبل المثقفين أنفسهم. طوال هذا الكتاب حاولت أن ألفت الانتباه إلى ذلك النوع من الاستثناءات النادرة، الشاذة عن خطاب القطيع السياسي الراعد الذي وسم الحياة الثقافية العربية في السنوات الأخيرة. الكاتب **إميل حبيبي** والصحافي ورئيس التحرير **لطفي مشهور** والشاعر **سلمان مصالحة**، هم، على سبيل المثال، من بين المجموعة الصغيرة من الفلسطينيين الذين عبّروا، علناً، عن مواقف من

مكتبة الفكر الجديد

حرب الخليج يمكن أن يحترمها العراقيون المعارضون للنظام في بغداد، بغض النظر عما إذا كان المرء يوافق أو يعارض التفاصيل الدقيقة لهذه المواقف. وللمصادفة وحدها، فإن الثلاثة إسرائيليون عرب تلتقي في تجاربهم الشخصية النزاهة والواقعية على نحو لا نجده لدى معظم المثقفين العرب الذين تناولهم هذا الكتاب بالنقد. إني أشدد على الطبيعة «العلنية» للمواقف التي اتخذتها هذه الاستثناءات الفلسطينية لأن العديد من الفلسطينيين اتخذو في أحاديثهم الخاصة مواقف ممتازة. غير أنهم شعروا بأن القول الفصل لتلك القومية الثقافية العربية يهدّدهم ويتسلّط عليهم: لا تنشروا غسيلكم الوسخ على السطوح، وخصوصاً حيث يستطيع غربيّ أن يراها.

عام ١٩٣٩، من إذاعة بغداد، غنّى **عزيز علي** هذه الكلمات واصفاً مرضنا العربي:

يا ناس مصيبة مصيبتنا

نحجي تفضحنا قضيّتنا

نسكت تقتلنا علّتنا

بس وين نولّلي وجهتنا

دلّينا يا دكتور[١١].

ثقافة **عزيز علي** الرسميّة لم تتجاوز الصفوف الثانوية، إلا أنه رغم ذلك كان ضليعاً بالعربية والكردية والإنكليزية والروسية والألمانية. كان موظفاً رسمياً، وفي وقت فراغه مغنياً شعبياً وكاتب أغان، وكان ناقداً قاسياً حاداً للحكومة ولتخلّف العرب. كان يهزأ إلى حد كبير بالخرافات والتطيّر، ويعتبر عقلية الفرد العراقي في أغلب الأحايين مسؤولة عن وضعه. غير أنه قضى سنوات في السجن نتيجة نشاطاته ضد الملكية إبان النفوذ البريطاني في مرحلة ما قبل ١٩٥٨. ولدى **عزيز علي** نظراء مثل **علي الوردي** في حقول السوسيولوجيا الأكاديمية، و**كامل الجادرجي** السياسي الديمقراطي العراقي الكبير.

في جلسات خاصة كان **عزيز علي** يقص على الدوام هذه النكتة عن سبب «تقاعده» وتوقفه عن كتابة الأغاني: «في الأيام الماضية كانوا يزجونني في السجن لبضعة أيام، يصفعونني بعض الشيء، ثم يعطونني خمسة دنانير ويرسلونني إلى البيت. بعد ذلك جعلوا يصفعونني أكثر قليلاً، ويحتجزونني لوقت أطول قليلاً، وتوقفوا عن منحي الدنانير الخمسة. غير أنهم لم يتوقفوا عن السماح لي بالعودة إلى منزلي. هؤلاء الناس اليوم، كما تعلمون، لا يبدو أنهم يحسنون تقبّل النكتة».

مكتبة الفكر الجديد

وعدم القدرة على تقبّل النقد أو تلقّي النكتة ينشأ من عدم الرغبة في النظر إلى الذات، وعدم الخجل ولو قليلاً قبل الوقوع في المأزق المرعب كالذي وجد العالم العربي نفسه فيه. وآلية الدولة أينما وجدت في العالم تفتقد حسّ النكتة، كلنا ننشأ متوقعين ذلك، لكن الضيق الخاص بالعالم العربي يكمن على أية حال ـ مقارنة بزمن **عزيز علي** ـ في إنتلجنسياه أساساً وليس في أنظمته. كتب شومسكي في مقالة كلاسيكية عام ١٩٦٦، «إن اهتمامنا الجوهري ينبغي أن ينصبّ على دورهم في ابتكار وتحليل الايديولوجيا»[١٢]. والمسؤولية تكبر، كما يحاجج شومسكي محقاً، استناداً إلى الامتيازات التي يتمتع بها المثقفون: الراحة، التسهيلات، الخبرة، وحرّية الوصول إلى المعلومات. مع هذا، غالباً ما يظهر أن أولئك المثقفين العرب بالذات، الذين درسوا في الغرب، هم أكثر المعتدين أذى، وهم، بنتيجة ذلك، الأكثر تسبباً بما حصل. لقد عبّأوا إيديولوجية قومية تتسم بالشطارة، معادية للاهتمام الحقيقي بحقوق الإنسان، وذلك على نحو أفضل مما يفعل أشباه صدّام حسين في هذا العالم. فالجميع يتوقّع أن تصدر الدعاية عن الناطقين باسم حزب البعث، غير أن المثقفين الذين كنت أستشهد بهم يتم التعاطي معهم، بمقتضى المواقع التي يحتلّونها، بوصفهم منطقيين يترجمون بمسؤولية العالم العربي لكل من الغربيين والعرب أنفسهم على حد سواء، وهؤلاء لسوء الحظ لا يزالون يتطلعون إلى مصري يدرّس في جامعة لندن أكثر ممّا يهتمّون بنظير له يدرّس في جامعة عين شمس بالقاهرة.

المفارقة أن الأكثر نفاقاً بين الكتّاب العرب المعاصرين و«المناصرين للعرب» هم أولئك الذين يحتلّون مواقع تسمح لهم أن يعرفوا الحقيقة بشأن عالمهم، وأيضاً التأثير على الجيل الأصغر من العرب لكي يتبنّوا أسلوباً أسلم وأفضل في النظر إليه وتفحّصه، فلماذا آلت الأمور إلى ما آلت إليه؟ الظاهرة هذه ليست ناشئة من عدم ملاءمة هؤلاء المثقفين كأفراد أو، وهذا أسوأ، من ميزة غامضة في العقل العربي (كما تقول النظرة العنصرية للأمور). كما أنها لا تنشأ من ينابيع قديمة داخل تاريخ التقاليد العربية أو الإسلامية. إنها ناشئة من المنطق الداخلي للنموذج الإيديولوجي الحاكم ـ القوميّة الثقافيّة ـ والذي يضم في مجموع ما يضم الماركسيات، والقوميات، والإسلاميات، وحتى بضعة من الذين زعموا أنهم جعلوا من نصرة حقوق الإنسان مهمتهم.

إنها تنشأ من تلك الطريقة الاستثنائية التي عبرها زوّر أناس الهوية، وهم الذين أدركوا فجأة أنهم في حاجة ماسة ويائسة إلى واحدة. فأثناء بحثهم ذاك، شعروا أنه من الضروري أن ينحّوا جانباً كل ما هو معقّد وفردي، وبالتالي مرتبط بالحياة ومشدود إليها، لصالح لغة «الضحيّة» الفاقدة اللون، والتي يمكن أن تقدم فقط حساً مغلوطاً بالطمأنينة

مكتبة الفكر الجديد

الجمعية. في ظل ظروف التشتت، والتشظي والتذرية، تكمن المأساة المزدوجة في أن هذا النوع من الأسطرة القومية ليس حتى لغة منتخبة ومختارة من التجربة الفعلية للعيش ضمن مجموعة بشرية. ذلك هو سر حدّتها وتعصّبها. وأولئك الساعون دائماً إلى معرفتهم هوياتهم هم غالباً الأكثر حيرة وارتباكاً أمام أسئلتها. إن لديهم السبب الوجيه ليكونوا كذلك خاصة عندما يتعلّق الأمر ببلدان المشرق ما بعد ١٩٦٧. فاللبنانيون والعراقيون والفلسطينيون ومعهم آخرون وجدوا جميعاً أن مفهومهم للهوية انهار كلياً، أو أعيد تجميع أجزائه بسرعة، نثراتٍ وكسراً من هنا وهناك. وكانت الحصيلة منظراً ذابلاً لكل ما يجمع المرء ببقيّة العالم.

في العراق، أسس حزب البعث أكثر الأنظمة ثباتاً في تاريخ البلاد الحديث. فعل ذلك بإصرار متصلّب على كون الحدود العراقية اصطناعية، مفسداً بذلك ومبطلاً عقوداً استغرقها تشكل وعي جديد لشيء ما اسمه العراق. وعواقب ذلك الأمر تمكن رؤيتها في الحركات السياسية التي نشأت كردّة فعل على استبداد حزب البعث: إنهم إمّا «أكراد» أو «شيعة» أو «سنّة» أو «مسلمون» أو «عرب». أيّ من هذه التسميات لن يحلّ مشاكل العراقيين، أو العرب أو الأكراد أو الشيعة أو السنّة. فمن الذي سوف يتحدث باسم كل العراقيين بعد ذهاب صدّام حسين؟ أو هل ينبغي علينا أن نبدأ كل مرة من اللاشيء.

في لبنان، الجيل الذي هرع بالمئات والآلاف لنجدة القضية الفلسطينية بعد ١٩٦٧، فعل ذلك نابذاً فكرة لبنان الذي كان أنشأه آباؤه وأجداده. ثم هاجر أولئك الذين عاشوا سنوات الستّينات الذهبية، لأن الحياة أضحت لا تطاق. ولبنان يسكنه اليوم جيل لا يعرف بلده موحداً حتى في الذاكرة. كبر الأولاد في مدينة مقسومة تحكمها عصابات من قطّاع الطرق. عاشوا تجربة حرب أهلية طوال ١٥ سنة ثم أجبروا بحكم الظروف وضرورات الاستمرار على أن يعتبروا أنفسهم «مسلمين»، «مسيحيين»، «موارنة» أو «شيعة» ـ وإلى درجة أقل فأقل «لبنانيين». الجيل الشاب، الذي ينبغي أن يدخل اليوم إلى ميدان العمل، كان قد سُلخ مرتين عن الجيل الذي أسس كياناً واحداً. لا تواصل بين الأجيال، وهو الشرط الأساسي الذي لا غنى عنه لتشكيل حسّ بالهوية.

المضحك في المسألة أن خطاب ما بعد ١٩٦٧ «المعادي للإمبريالية» والذي فشل فشلاً ذريعاً في ١٩٩٠ ـ ١٩٩١، انبعث هو نفسه كردة فعل على الخطاب العربي السابق في السياسة والثقافة (خاصة لدى **محمد حسنين هيكل**، **وجمال عبد الناصر وأحمد شقيري**). وبمساعدة المعرفة المتأخرة واللاحقة فإن الخطابين يبدوان اليوم متشابهين بشكل مخيف. ما الذي حدث لجيلي، جيل المثقفين العرب الذي نشأ في مناخ النكسة؟

مكتبة الفكر الجديد

ربما لم نذهب بعيداً في انتقاد العالم العربي في الفترة الفاصلة بين ١٩٦٧ و١٩٧٥. ربما تكمن المشكلة في أننا أسرفنا قليلاً في الابتعاد، محطمين قدراً من المحرمات لا طاقة للمجتمع على تحمله؟ في الواقع لا أعرف. كوننا نتكلم العديد من اللغات المختلفة في الوقت نفسه ـ الماركسية، الناصرية، البعثية، الفلسطينية، القومية وكذلك العربية والإنكليزية والفرنسية ـ لم يساعد كثيراً في نهاية الأمر، لأن هذه الطرق في تناول العالم ظلت، مثل دوائر متداخلة، تتقاطع في جزء من الأرضية المشتركة. حين بدأت أطر الدوائر تتعفّن وتتقوّض، لم يبق إلا «نحن عرب»، أو «نحن مسلمون» أو «هناك إسرائيل» و«هذه هي القضيّة الفلسطينية». هذا كل ما في الأمر، وان توقف المرء عن التفكير بشأنه، فهو لا يخسر الكثير. بالتأكيد هذا لم يكن كافياً. وفي النهاية ظهر ان تلك اللغات كلها لم تكن مختلفة البتة، كما ظهر انها ليست سوى ضحالة في الأفكار وخواء في اللغة.

ففي آخر المطاف ضاع لبنان، وتقلّب العراق على جمر ثماني سنوات من المذابح، وتعرضت الكويت للغزو ونهبت وضُمّت، وناصرت المنظمات الفلسطينية زعيم طغاة السياسة العربية بشكل كامل، ولكن بدا أكثر المثقفين العرب انفتاحاً وشمولية، العماد الثقافي لنوع من الأنظمة كانوا يزعمون أنهم، بالتحديد، هو ما يرفضونه. المثقفون الذين ينتجون الأفكار ـ لا تلك المجموعة القميئة من الطغاة والملكيين والأوتوقراط التي تستخدم المدافع ـ هم من ينبغي أن يعتبرهم جيل شبان العرب التالي مسؤولين عن الانهيار الأخلاقي لعالمه.

الصمت لا يولد من الخوف، بل من فقر الأفكار وضحالتها. لقد ظهر أن خواءنا خواء روحيّ، ولكنه ليس من النوع الذي يعوّضه الإيمان الديني وحده. فالصمت هو ما سّماه **سلمان رشدي** في روايته «**أطفال منتصف الليل**»، «ثقباً في قلبي». وسياسة الصمت هي تلك الحالة الغريبة من الأمور التي سمحت لليساري اللبناني (**طرابلسي**)، ورئيس تحرير الصحيفة الأردنية (**خوري**) والمؤرخ التونسي (**جعيط**)، والناقد الأدبي السوري (**أبو ديب**)، والمناضل في مجال حقوق الإنسان الفلسطيني (**كتّاب**)، أن يلتقوا جميعهم تحت مظلّة واحدة دفاعاً عن «حقوق» طاغية لا يحلم أي واحد منهم في العيش تحت سلطانه. ولأن مكان الالتقاء هذا ليس موجوداً فقط بل هو آخذ في الاتساع، يضم في عناق واحد مخيف عدداً كبيراً ومختلفاً من العرب الواسعي الثقافة، فذلك هو العائق الأساسي دون قيام سياسة أقل عنفاً وأكثر تسامحاً في هذا الجزء من العالم.

مكتبة الفكر الجديد

أما أزمة الخليج فكشفت ان الصمت العربي يعني أولاً وبشكل رئيسي انعدام التعاطف مع الآخر، والانسحاب من المجال العام المشترك إلى عناق مريح ولكن خانق مع مجموعات أصغر وأصغر متطابقة الهوية، مثل االقبيلة والديانة والطائفة والولاءات العائلية.

الصمت مرادف لموت التعاطف في العالم العربي، إنه سياسة عدم نشر غسيلك الوسخ أمام الناس، فيما تنكشف للعيان من حولك وحشيات رهيبة وعوالم كاملة من الرعب. والصمت اختيار شبيه بتصرّف النعامة، اختيار عدم معرفة ما يفعله العربي بأخيه العربي، وكل ذلك بسبب خلجة عصبية لمعاداة الغرب تحولت إلى مرض. يكتب أوليفر ساكس أن الصحة «لامتناهية وتجنح إلى أن تتسع»، ليصل إلى أنها «ينبغي أن تملأ بامتلاء العالم». إن كان ذلك صحيحاً فإن صمت العرب يشبه علّة قوامها «التناهي والجنوح إلى الانكماش»[١٣].

الصمت هو لغة النرجسيّة الداخلية، الساعية على الدوام إلى اختصار العالم وإحالته إلى تأملات ذاتية، وهو، في العالم العربي، الصمت عن القسوة.

في الختام، ما يسعى هذا الكتاب إلى قوله بسيط جداً: إن سياسة التزام الصمت حيال تفاقم القسوة داخل العالم العربي، وهي قسوة يمارسها على الأغلب عربي ضد عربي آخر، مسؤولة بشكل أساسي عن الانهيار الأخلاقي العربي الذي بلغ الآن دركاً وبائياً. فقادة مثل صدّام حسين يزدادون قوة مع صمت الإنتيلجنسيا العربية حيال القسوة. إنهم بدورهم «مخلوقون من هذا الصمت». فالمثقفون هم من ابتكروا خطاب الصمت.

والصمت هو طريقة في الكلام، في الكتابة، وفوق كل هذا طريقة في التفكير تغطّي القسوة وتعتّم عليها، القسوة التي ينبغي أن تكون الشاغل الرئيسي لأولئك الأشخاص الذين جعلوا من الكتابة والكلام والتفكير مهنتهم. والتخلّي عن هذا الصمت واجب أخلاقيّ على كل عربي، خصوصاً «المثقفون» بيننا. فما من شيء يوازي هذا أهميّة ـ ليس حتى «النضال ضد إسرائيل». وبالنسبة إلينا كلنا، نحن الذين نحبّ هذا الجزء من العالم ونتماهى معه، ليس سهلاً أو محبّباً قول أشياء كهذه. غير أن ذلك لا يجعلها البتة أقل حقيقة.

لم أسع إلى التشبث بذلك السؤال المعقد حول كيفية توصلنا إلى هذه الحالة الفظيعة. فذلك النوع من المشاريع يحتاج إلى الابتعاد مسافة كافية ويستغرق سنوات. لكن في غضون ذلك، لا يزال الموتى يتكدسون في العالم العربي، ورائحة جثثهم تطغى. وأنا،

مكتبة الفكر الجديد

بدوري، لم أعد أتحمّل «الدراسات العلمية» في شأن هذا السؤال. وهذا الكتاب لم تكن مسألته البحث العلمي بالدرجة الأولى.

ربما ليس في مقدور أحد أن يتعد المسافة المناسبة الآن. تكفي معرفتنا بأن الوجهة التي سارت إليها الأمور كانت خاطئة، كما تكفي معرفتنا اننا لا نزال نمسك بأيدينا المفتاح الذي به نعكس الصمت. والخطوة الأولى للخروج من المستنقع، هي الخطوة الأقسى والأعصى على الاستئصال، لأنها كامنة في أعماق حساسياتنا. ذاك أن السلطان الثقافي والأخلاقي الذي يلقي باللائمة على الآخرين ما زال فاعلاً بيننا نحن العرب. وإن كنت قد لويت ذلك العود، بقدر ما أعرف، نحو الجهة المعاكسة، فذلك يعود إلى إيماني الراسخ أن ليّه فقط هو ما يمكن أن يولّد للرابطة العربية المعنى الصحيح، المتعدد الأبعاد، والتعددي.

أما الخطوة الثانية فهي «وضع القسوة أولاً». هذا القول المأثور الرائع البساطة، يمتلك الخاصة العظيمة في إهماله فكرة الخطيئة، سواء في شكلها الديني (انتهاك القوانين المقدّسة)، أو في شكلها الحديث وهو «اللوم التاريخي». إن الشكلين مترابطان داخلياً ويطاولان جذور الضيق العربي المعاصر. فالمرء يستطيع فقط أن يلحق الألم الجسدي بمخلوق حيّ، بفرد أضعف منه. **جوديث شكلار** أوضحت هذا التصرف وحكمت عليه بأنه «الشر الأعظم»:

> «إنه يستحق هذا الحكم بذاته ولذاته، وليس لأنه يعني إنكار الله أو أي مبدأ آخر كبير. إنه حكم مصاغ في داخل العالم الذي تجري فيه القسوة كجزء من حياتنا الطبيعية الخاصة وممارساتنا اليومية العامة. بإحلاله أولاً دون شروط، ومن غير أن يكون ثمة من هو أعلى منّا ليسامحنا أو يغفر لنا أفعالنا الوحشية، يغلق المرء الطريق على أي احتكام لأي قانون سوى ذلك المتعلّق بالواقع. أن نكره القسوة بأقصى ما هناك من حدّة هو أمر متناغم تناغماً كاملاً مع... التديّن [وكل الإيديولوجيات]، ولكن، لنقل قبل ذلك... إنه حكم إنساني خالص على السلوك البشري»[١٤].

إن التغيير نحو الأفضل لا يمكن أن يحدث في العالم العربي إلا عندما يأتي جيل جديد من الشبّان العرب، ساخط على القسوة غير المقبولة التي تحيط به. وهو ينبغي أن يكون جيلاً ثائراً إلى حدّ تخلّصه من كل آثار الخجل، وأن يجهر بما يريد قوله غير مكترث بمن يسمع، أو لأي استخدام شائن لهذه الكلمات التي قد يسخّرها البعض لمصالحه.

مكتبة الفكر الجديد

إنه زمن رهيب ومقلق أن تكون فيه شاباً عربياً. فالعروبية الشاملة، كعقيدة سياسية، ماتت، لكن «العروبة» تعيش الآن حالة تمزق تفوق ما كان في أي وقت آخر. ولئن لم تكن الدراسة العلمية هدف الكتاب الأول لهذا الكتاب، فهذا لأننا عثرنا على تحديد العلّة ومحاولة إيجاد طرق جديدة لوصفها. فالتأريخ والبحث والدراسات الأكاديمية يمكن لهما أن ينتظرا أياماً أفضل، أنا واثق من قدومها. لكن متى؟

مكتبة الفكر الجديد

الهوامش

المقدمة

(١) سمير الخليل «الغرق في خليج الأكاذيب» صحيفة «الأنديبندنت» ٢٥ آب/ أغسطس ١٩٩٠، ص ٢٨.

(٢) من أجل نعي لفرج فودة، أنظر عادل درويش، صحيفة «الأنديبندنت» ١٠ حزيران/ يونيو ١٩٩٢.

(٣) عنوان الكتاب «المدارس اليهودية والإيرانية في العراق» (بغداد ١٩٨٤). كتاب فاضل البرّاك مناقش في الفصل الأول من كتابي «جمهورية الخوف».

(٤) كما نقلت مصادر من العراقيين من بغداد، ثم نشرته لاحقاً في تشرين الأول/ أكتوبر صحيفة لندنية شهيرة لا تسمح بأن تشير إليها المراجع.

(٥) إن نسخة إيرانية مقرصنة من نوعية ممتازة ومثيرة للدهشة، كانت قد ظهرت تحت عنوان «جمهوري وحشت»، ترجمة أحمد تدّين (طهران ١٩٩٢) وإني مدين إلى صديق هوشانغ شهابي لحصوله لي على نسخة وترجمته لي مقاطع منها. في مقدمة المترجم، جرى تحذير القارىء من أنه فيما أملك أموراً كثيرة هامة أقولها عن العراق، ونتيجة لثقافة القارىء الإيراني الرفيعة، لم يشعر بأنه من الضروري التعليق على جهلي الواضح بكل الأشياء التي تتعلّق بجمهورية إيران الإسلامية. ولهذا، على سبيل المثال، كلّما كنت أقوم بمقارنة بين قسوة صدّام وقسوة الخميني خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية، وعلى الرغم من أن الفكرة كانت مترجمة بأمانة وبشكل كامل، كانت تقحم كلمة «إمام» داخل هلالين معقوفين قبل أي ظهور لاسم الخميني. تجدر هنا الإشارة إلى حال النشر السيئة في العالم العربي، مقارنة بالاهتمام المبذول في ترجمة هذه النسخة الإيرانية، ومن ثم نوعية إنتاج الكتاب وهي تفوق نوعية الكتب العربية الثلاثة.

(٦) أنظر مقالة حبيبي في صحيفة «القدس العربي» العربية الصادرة في لندن، في ٢٠ آذار/ مارس ١٩٩١.

(٧) سمير الخليل «النيويورك تايمز» ٢٧ آذار/ مارس ١٩٩١.

(٨) أنظر الفصل ٦ «تذكّر القسوة» حاشية ١.

(٩) صدر الفيلم عن سلسلة الأفلام التوثيقية في شبكة الـ بي.بي.سي التي تحمل عنوان «إثري مان»، قام بإخراجه غوين روبرتس، وعرض لأول مرة في بريطانيا في ١٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢. وعرض في الولايات المتحدة على برنامج «فرونت لاين» في ٣١ آذار/ مارس ١٩٩٢ تحت عنوان «حقول قتل صدّام حسين».

مكتبة الفكر الجديد

(١٠) «القدس العربي» الجزء الأول «كيف أصبح كتاب «جمهورية الخوف» أسطورة؟» نشر في ٥ شباط/ فبراير ١٩٩٢. علامات الاقتباس حول عنوان الكتاب هي من الأصل. الجزء الثاني «ومن اليأس ينبثق الجحيم الذهني» نشر في ٦ شباط/ فبراير ١٩٩٢، وبشأن عنوانه يعترف حديدي انه استعارة من نقد لمواقفي السياسية كان كتبه في آذار/ مارس ١٩٩٢ ألكسندر كوكبرن في مجلة «نيو ستايتسمان أند سوسيتي».

(١١) أنظر مقابلة سعيد مع بربرا هارلو، بعنوان «المثقفون والحرب»، تقارير ميريب MERIP رقم ١٧١ (تموز/ يوليو وآب/ أغسطس ١٩٩١) صفحة ١٦ و١٨.

(١٢) إني مدين إلى لطيف رشيد لأنه كان أول من زوّدني بتلك النسخ عن ملفات الشرطة السرية العراقية المتعلقة بحملة «الأنفال»؛ وبرهم صالح الذي زودني بوثائق أخرى أثبتت هي أيضاً أنها هامة جداً في تأكيد ما جرى لتيمور، وشورش رسول الذي ترجم لي كلام تيمور عن الكردية، كما كان شورش من قام بتحضير لائحة الـ ٧٥٥٨ كردياً الذين يعتقد أنهم اختفوا خلال حملة الأنفال في ١٩٨٨. قام بالعمل بسرّية داخل العراق متعرضاً شخصياً لخطر عظيم. قبل غزو صدام حسين للعراق هرّبت اللائحة بطريقة سرّية وقدّمت إلى منظمة العفو الدولية، وأقام شورش في نهاية الأمر في لندن وقص روايته شخصياً على منظمة العفو، لكن لا بد أن وقْع روايته بدا غرائبياً، حتى حين يؤخذ في عين الاعتبار مستوى قسوة البعث، لهذا لم يحضر لقاء كانون الثاني ١٩٩١ مع منظمة العفو شاعراً بأن أحداً لم يصدّقه. كان الأمر وكأنما أثرت فداحة الجريمة وعملت ضد أولئك الذين يمتهنون معرفة تلك الأشياء مصدّقين انه من المعقول أنها حصلت. ونتيجة صدفة غير اعتيادية، تذكر شورش أن اسم تيمور عبد الله المولود في ١٩٧٨ في قرية قلعة جو، كان ضمن اللائحة الأصلية للسكّان المتوارين. أكثر من ذلك، كان في حوزتي سجل رسمي عن «القرى المزالة» وكان اسم قلعة جو ضمن أسماء السجل. كان الولد ضحية شيء أكبر بكثير مما كان يعي. وقد نجا بطريقة عجائبية من حملة حزب البعث في ١٩٨٨، تلك التي قامت على الإبادة الجماعية وحملت اسماً شفرياً هو «الأنفال».

(١٣) بريمو ليفي «الغرقى والناجون» (نيويورك: ڤينتاج بوكس ١٩٨٩) ص ١٢.

الباب الأول

١ ــ خليل

(١) أجريت المقابلة مع خليل في لندن صيف ١٩٩١.

(٢) «السانداي تلغراف» ٣ آذار/ مارس ١٩٩١، ص ١٧.

(٣) في الفصل الثاني رواية قصة الثورة في العراق، أو «الانتفاضة» كما تعرف بين العراقيين، والتي بدأت في مدينة البصرة بالجنوب يوم انتهت حرب الخليج في ٢٨ شباط/ فبراير ١٩٩١.

(٤) الاستشهادات مصدرها ثلاثة تقارير هامة: ملف «أوتوستراد الجحيم» أو الذي نشرته مجلة «نيو ستايتسمان» في ٢١ حزيران/ يونيو ١٩٩١، ومقال جولي فلينت «وجه الحرب الحقيقي» في صحيفة «الأوبزرفر» ٣ آذار/ مارس ١٩٩١، ومقالة مايكل كيلي «مجزرة فوق طريق منسيّ» صحيفة «الغارديان» ١١ نيسان/ أبريل ١٩٩١.

(٥) كيلي «مجزرة فوق طريق منسيّ».

(٦) روبرت فيسك «رعب، تدمير، وعار، طوال طريق صدّام إلى الدمار» صحيفة «الأندبندنت» ٢ آذار/ مارس ١٩٩١.

(٧) مأخوذ من مقالة بعنوان «جثث محروقة تكسو الأوتوستراد....»، «الغارديان» ٢ آذار/ مارس ١٩٩١.

(٨) جملة «العراقية الماجدة» ابتكرت لأول مرّة خلال الحرب العراقية الإيرانية، لتمجيد النساء العراقيات المنجبات اللواتي يقدّمن أطفالهن طائعات ليموتوا من أجل العراق. أحد العراقيين الساخرين، وقد لاحظ أن النساء العراقيات غير المتزوجات اللواتي كن بحاجة ماسة إلى المال، تدفقن إلى عمّان بعد نهاية حرب الخليج ليجمعن بعض المال عبر امتهان البغاء، ردّ قائلاً: «العراقية الماجدة صارت بدينار للأردني». عالجت الحكومة العراقية المشكلة في النهاية مصدرة قانوناً بمنع كل النساء من السفر بمفردهنّ إلى خارج البلاد. خلال أزمة الخليج، اعتبر «الشرف العربي الضائع» مسألة على المحك من قبل العديد من العرب، واستخدم كتبرير لدعم النظام العراقي. جملة صدّام حسين «العراقية الماجدة» مشتقّة من نظام الشرف والعار التقليدي، والذي نناقش أعماله الوحشية ضد النساء العربيات في الفصل ٩، بعنوان «مشاهد من القسوة والصمت».

(٩) بعض أفضل التقارير الصحافية بشأن هذا الموضوع كتبه روبرت فيسك، الذي لا يمكن بالتأكيد اعتباره «لطيفاً» مع القوات المتحالفة. «خلال الأيام التي تلت مباشرة تحرير الكويت، صدم العديد من الصحافيين بمن فيهم أنا، بالسلوك الشرير والشيطاني للسلطة العسكرية العراقية في الكويت بالذات. كان النهب قائماً بأقصى الدرجات. كانت الإعدامات والتعذيب على أشدها. كانوا قتلوا أطفالاً أمام أهلهم. استخدموا المثقاب لصلب الناس. يبدو ذلك للوهلة الأولى أشبه بدعاية حربية نموذجية. لم أصدّق ذلك حتى وصلت إلى هناك ورأيت جثثاً في مستودع أعد لذلك مع فجوات مثقاب في أيديها وأقدامها وداخل أعينها كذلك»، مأخوذة من مجلة «نيو ستاتسمن وسيوسيتي» ٢١ حزيران/ يونيو ١٩٩١، ص ٢٧. أنظر أيضاً مقالته «شيء ما شرير زار مدينة الكويت» صحيفة «الأنديبندنت»، ٢٨ شباط/ فبراير /١٩٩١.

(١٠) إسحق بن نير «تا تو أون» «Ta' to' on» (تل أبيب: تساد هاتفير Tsad Hatefer ١٩٨٩) ص ٨٠ - ٨١. أتوجه بشكري لإيمانويل وأليزا فرجون ولميس خوري لاكتشافهم هذه الرواية وترجمة مقاطع منها.

(١١) مقالة منصف مرزوقي نشرت إبان الحرب تحت عنوان «الغرب المضلل» في صحيفة «اللوموند» في ٦ شباط/ فبراير ١٩٩١.

(١٢) من كتاب كيفن دويرز الممتاز عن مناظرة حقوق الإنسان في الشرق الأوسط «أصوات عربية» (بيركلي: مطبوعات جامعة كاليفورنيا ١٩٩١) ص ١٦٦ - ١٦٧.

(١٣) عبد الرحمن منيف، «أي عالم سيكون؟ المثقفون العرب والنظام الدولي الجديد»، نشر في «عودة الاستعمار: من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج»، بقلم مجموعة كتّاب (لندن. منشورات رياض الريّس ١٩٩١) ص ٤٠.

(١٤) لم يكن هذا التحامل حكراً على العرب. بعض المناضلين ضد الحرب في الولايات المتحدة كانوا منغمسين في ذلك. أنظر على سبيل المثال الكاريكاتور المشين في مجلة «زد» «Z Magazine» (حزيران/ يونيو ١٩٩١) ص ١٩. ثمة كويتي سمين بشكل نافر وشرير السمات ينحني إلى سيّارته المرسيدس بنز، وفي المنظر من خلفه آبار بترول (زوجة وابنة محجبتان داخل السيّارة) وإلى جانبه كردي أعجف بشع السمات، يرتدي أسمالاً، مع زوجته وابنته في المؤخرة. مهما يكن قصد الرسّام، فإن الرسم الكاريكاتوري مهين للكويتيين والأكراد على حد سواء.

(١٥) راجع ما كتبه الكاتب العراقي خالد قشطيني في كتابه «السخرية السياسية عند العرب» (لندن كورنت بوكس ١٩٨٥) ص ٥٩.

(١٦) حازم صاغيّة، كاتب وصديق، علّق على هذه النقطة، ملاحظاً، أن ثمة حاجة إلى رابط سوسيولوجي وسيط لتحليل الظاهرة، رابط يحدد النمو التلقائي السريع «للكراهية» التي أظهرها العديد من العرب تجاه الكويتيين خلال أزمة الخليج. والهجاء من تعابير الظاهرة التاريخية ـ السوسيولوجية «للعصبيّة»، التي تتفاقم بشكل بالغ في أوقات الأزمات أو الضعف. و«العصبية» كان استخدمها بشكل باهر المؤرخ العربي العظيم ابن خلدون في تحليله لصعود الامبراطوريات الإسلامية وسقوطها في قرون ماضية. وفي رسالة شخصية أضاف صاغيّة هذه الملاحظات إلى البرهان المقدّم في هذا الفصل: الهجاء أساساً، قبل المتنبي، وحتى قبل الإسلام. فقد ولد مع تعبير العصبيات عن نفسها، ثم بات غرضه لاحقاً حشد الزخم بعد ضعف «الوحدة» التي نتجت عن الإسلام (الشاعران الفرزدق والأخطل في فترة بني أميّة ظاهرة نموذجية). أكثر من ذلك، أظن أن العصبية ضد الكويتيين كانت ظاهرة مركّبة انبعثت في زمن وجود فرق شاسع في الثراء سببته أموال البترول. إنها إذن عصبية بضع مجموعات تجاه مجموعات أخرى في ظل ثقافة تشدّد على الأصل والقبيلة. وماذا لو أضفنا الحسد إلى هذه المعادلة المتفجرة؟ إن الهجاء في العالم العربي اليوم يرشح من هذه المياه الآسنة.

(١٧) لهذا التقييم لقبّاني، أنظر سلمى خضراء الجيّوسي، «اتجاهات وحركات في الشعر الحديث» (ليدن: أ. ج بريل ١٩٧٧) مجلد ٢ ص ٦٦٤.

(١٨) نزار قبّاني «أبو جهل يشتري فليت ستريت» في مجلة «الناقد» الشهرية الصادرة في لندن. العدد ١٠ نيسان/ أبريل ١٩٨٩، ص ١٠.

(١٩) من قصيدة، «لماذا أكتب؟» من كتاب نزار قبّاني «قصائد مغضوب عليها» (القدس: وكالة أبو عرفة ١٩٨٧) ص ١٤.

(٢٠) من أجل مثل آخر، أنظر مقالة نزار قبّاني في «الحياة» في ١١ تموز/ يوليو ١٩٩٢. في تلك المناسبة يودّ الشاعر أن يشير إلى كم أصبح كل العرب موضع سخرية في النظام العالمي الجديد. غير أن الصورة التي تفرقع في ذهنه لوصف العنصرية الغربية أهم من كل ما لديه ليقوله بشأن الموضوع بالذات. «آخر ما توقعه العرب، بعدما أنفقوا على حرب الخليج.. تحويشة (عمرهم) ودفعوا ما فوقهم وتحتهم.. أن يصبحوا في آخر عمرهم سيرلانكيين... ربما حلموا أن يصيروا أميركيين أو بريطانيين بالتجنس أو يصيروا فرنسيين، أو سويديين، أو دانمركيين، أو في أضعف الإيمان قبارصة». عوض ذلك فالعالم الأول يصرّ على معاملتهم كسيرلانكيين هم في اعتبار الشاعر أحطّ المنحطّين لأنهم «يمسحون الأرض» و«ينظفون الصحون»، ويضيعون وقتهم في تربية الأطفال. في منتصف المقال يعلّق الشاعر على كيف ان «رائحة الإنسان، قد أصبحت سبباً مبرراً لطرده أو اعتقاله، أو محاكمته»، في بلد كفرنسا على سبيل المثال. كان قبّاني يتهكّم بالطبع، لكنه يتابع لإثبات فكرته، ملاحظاً أنه بينما يعيش نصف الأوروبيين «مع كلابهم في غرفة واحدة.. ويأكلون معهم في طبق واحد، وينامون معهم في فراشٍ واحد»، يقوم الدين الإسلامي «على نظافة الجسد ونظافة الروح».

رداً على مقالة قباني كتب الكاتب السعودي غازي القصيبي مقالة جيدة مشبعة بسخرية خفيفة النبرة في جريدة «الحياة» في ١٣ تموز/ يوليو ١٩٩٢.

(٢١) أنظر كمثال، المقالة الممتازة للباحث الأميركي الأسود هنري لويس غايتز، «الديماغوجية السوداء والعلماء المزيّفون»، «النيويورك تايمز» في ٢٠ تموز/ يوليو ١٩٩٢.

(٢٢) نزار قبّاني، «الناقد» رقم ٣٣ (آذار/ مارس ١٩٩١) ص ٦ ـ ٧. إن استخدام قبّاني كلمة «الوطن» يصعب نقل دلالتها إلى الإنكليزية. في الاستخدام الكلاسيكي، تحمل كلمة الوطن معنى الكلمة الإنكليزية «هوم»، وهي مرتبطة بتذكارات العائلة ومكان الولادة. في القرن التاسع عشر تحولت لتحمل معنى الكلمة الفرنسية «پاتري»، أو الكلمة الألمانية «فازرلند»، أو البلاد بمفهوم واسع. إن الإشارة الضمنية

مكتبة الفكر الجديد

هي على الدوام إلى مكان يتعلّق به المرء بطريقة عاطفية جداً، وليس لأسباب دينية. ذلك المكان يمكن أن يكون سوريا أو مصر ولكن يمكن أن يكون أيضاً معظم العالم العربي، «الوطن العربي». من الفحوى يبدو واضحاً أن قباني يقصد هذا التفسير الأخير. (الاستخدام نفسه يستعمله أولئك الكتّاب والمحللون الذين نوقشت آراؤهم حيال أزمة الخليج في الباب ٢).

(٢٣) نزار قبّاني «الناقد» عدد ٣٥، (أيّار/ مايو ١٩٩١)، ص ٤ ـ ٧.

(٢٤) «ألف باء» رقم ٨١٤، ٢ أيار/ مايو ١٩٨٤. في العدد نفسه، نشرت كذلك رسائل خنوعة بالقدر نفسه من سعاد الصبّاح، وهي إحدى أفراد العائلة الحاكمة في الكويت ومدافعة عن القضايا القومية اليسارية «التقدّمية». عبد الوهاب البيّاتي الشاعر العراقي وهو أحد أهل القلم العرب مثل قبّاني، وروجيه غارودي، الكاتب الفرنسي اليساري والاختصاصي في شؤون الشرق الأوسط.

(٢٥) أجريت المقابلة مع حنان (اسم مستعار) في الولايات المتحدة في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٢.

٢ ـ أبو حيدر

(١) أعطاني خليل دفتر يوميات ضابط البوليس هذا، غير أني لأسباب بيّنة لا أشعر بأنني حرّ في نشر اسم ذلك الرجل. من المهم أن أشير إلى أنه كتب أن وزير الداخلية قال لهم في ٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠، إبان لقاء خاص مع كل ضباط الأمن الذين أرسلوا إلى الكويت: «سوف تتوجهون إلى محافظة الكويت وهي محافظة كمثل كل محافظات العراق». بكلام آخر كان في نية حزب البعث طوال الوقت ضمّ الكويت. وذلك لم يكن قراراً متسرعاً ووضيعاً قام به صدّام حسين بعدما تطوّرت الأزمة. عن سياسة البعث في نقل عرب الأهوار إلى مستوطنات شبيهة بالتي نقل إليها مئات ألوف الأكراد طوال الثمانينات، أنظر مقالة باتريك كوكبرن، «التيار يتحوّل ضد عرب الأهوار في العراق» صحيفة «الأنديبندنت» ٧ أيار/ مايو ١٩٩٢.

(٢) وارد في كتاب جون سيمبسون «من منزل الحرب» (لندن: آرو بوكس، ١٩٩١) ص ٣٥٧.

(٣) حبيب (اسم مستعار) أجريت المقابلة معه في صيف ١٩٩١ في أوروبا بواسطة مساعد لي يفضل أن لا يعرّف باسمه. كتبت المقابلة، بعد اللقاء، انطلاقاً من التدوينات.

(٤) مأخوذة من كرونولوجية الانتفاضة التي وضعتها مؤسسة الخوئي القائمة في لندن. بحسب هذه الكرونولوجيا، بدأت أحداث ساحة سعد عند الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر ٢٨ شباط/ فبراير (وهذا يعني قبل إعلان وقف إطلاق النار بشكل رسمي). بحسب روايات أخرى، بدأت في الساعات الأولى من صباح الأول من آذار/ مارس ١٩٩١.

(٥) من تقرير باتريك بيشوب في صحيفة «الدايلي تلغراف» ٢ آذار/ مارس ١٩٩١.

(٦) إني مدين لزهير حمادي لأنه عرفني على كاظم الريسان الذي قمت بإجراء مقابلة معه في ڤيينا في ١٨ حزيران/ يونيو ١٩٩٢.

(٧) بدأ ترحيل الشيعة العراقيين إلى إيران عام ١٩٧١. يبدو أن أول المرحّلين هم أولئك الأشخاص الذين كانوا لا يزالون يحملون جوازات سفر إيرانية، على الرغم من أن آباءهم وأجدادهم ولدوا في العراق وعاشوا وعملوا هناك تحت حماية الامبراطورية العثمانية. عشرات الآلاف من الأشخاص (ربما ما يزيد عن ٩٨٠ ألفاً) بمن فيهم بشكل خاص عدد كبير من الأكراد الفيليين (أكراد شيعة)، رُحّلوا إبان تلك الموجة الأولى. الموجة التالية استهدفت المناطق المتاخمة لبغداد وهي: قنبر علي، **القشلة، باب الشيخ، قهوة شكر، الخلاني، عقد الأكراد**. ثم خفّ زخم الحملة شيئاً فشيئاً، وربما توقفت نهائياً. في ٦ نيسان/ أبريل ١٩٨٠ بدأ الترحيل مجدداً فجأة، ولكن على مستوى كبير جداً. كانوا ينقلون يومياً

مكتبة الفكر الجديد

بالشاحنات بين الخمسة والستة آلاف شخص إلى الحدود الإيرانية حيث يرمون هناك. في تلك الموجة رحّلوا كذلك كل حاملي جوازات السفر العراقية المصنّفين في أوراق جنسيتهم على أنهم «من أصل إيراني». رُحّل مئات الآلاف من العراقيين الذين تتوافق مواصفاتهم مع ذلك التحديد، وبالطريقة نفسها مع بدايات الثمانينات (الأرقام تتراوح بين ٢٠٠ ألف و٤٠٠ ألف). كانت الحكومة الإيرانية تصدر إحصاءات حول ذلك غير أنها توقفت بعد فترة، لكن يقال إن العدّ الرسمي الإيراني وصل إلى ١٦٥ ألفاً. العديد من الآلاف الآخرين فرّوا قبل أن تستطيع الحكومة محاصرتهم، ويقدّر أن هناك مليوني عراقي يحملون جنسية عراقية تحمل إشارة «من أصل إيراني». إني مدين إلى ضياء كاشي الذي أمّن لي تفاصيل عن حملة الترحيل هي، لسوء الحظ، غير متناولة علمياً حتى بشكل أقل من عادي.

(٨) «الأنفال» هو الاسم الشفري للحملة التي قادتها الحكومة العراقية في ١٩٨٨ مستهدفة المناطق الريفية في كردستان العراقية. إن قصة الحملة مرويّة بأكملها في الفصل ٥، «تيمور».

(٩) فاطمة (اسم مستعار) قابلتها في لندن في صيف ١٩٩١.

(١٠) لقائي مع أبي حيدر (اسم مستعار) قدر له أن يحدث نتيجة لمسعى غانم جواد، الذي جهد باحثاً من أجلي عن مصادر معلومات بشأن الانتفاضة. من غير ثقة غانم جواد بي، لم يكن بالمستطاع أن يكتب هذا الفصل، وأنا أقدم له أعمق الشكر. أجريت المقابلة مع أبي حيدر في لندن صيف ١٩٩١.

(١١) من الأناشيد الأخرى العامة التي استطعت الحصول عليها من مصادر مختلفة: «الله أكبر» و«يا حسين». من الشعارات المكتوبة على الجدران: «لا زعيم إلاّ الحكيم» (محمد باقر الحكيم، زعيم المجلس الإسلامي الأعلى الكائن في إيران)، «ثورة إسلاميّة، لا شرقيّة ولا غربيّة». خلال الانتفاضة كان غالباً ما يدعى صدّام «بالطاغية»، وهو تعبير قرآني أصبح شعبياً بعدما استخدمه الخميني خلال الثورة الإيرانية ضد الشاه.

(١٢) نقلت الحكومة العراقية وحدات من الجيش والحزب من مراكزها إلى داخل أبنية المدارس غير المستهدفة من قبل القوات المتحالفة. لهذا السبب كانت هذه المدرسة في النجف مسرحاً لتلك المعركة الطاحنة. هذه القصة والاستشهادات هي من حوار مسجّل مدّته خمس ساعات بين مجموعة من الثوّار النجفيين وهم يسترجعون أحداث الانتفاضة وهم في مدينة إيرانية. سجّل الحوار بعد وقت قصير على الأحداث بهدف تسجيل ما جرى وتوثيقه. وصلتني ثلاثة أشرطة مسجّلة وكلها أصليّة من دون أدنى شك، ومن أعطاني الأشرطة، وهو عراقي شيعي، يفضّل أن يبقى اسمه مجهولاً. من هنا فصاعداً سوف نشير إلى هذا المصدر بتعبير «الأشرطة الإيرانية».

(١٣) الاقتباس من الأشرطة الإيرانية.

(١٤) من أجل مزيد من المعلومات عن عزيز علي أنظر الفصل ١٠، «تعريف الصمت».

(١٥) من الأشرطة الإيرانية. رضا الفحّام شاعر شعبيّ آخر، كان ألقي القبض عليه وحوكم في النجف، ولست أعرف ما آل إليه مصيره.

(١٦) أنظر مقالته الممتازة «تقارير ترفع الحجاب عن الانتفاضة الشيعية في العراق». صحيفة «ول ستريت جورنال» ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١.

(١٧) العبارة التي استخدمها المنتفضون هي «أعلن عن توبته». هذا ما قاله أحد المنتفضين: «صدر أمر من السيّد... بأن كل من يسلّم سلاحه ويعلن التوبة ينبغي أن لا يقتل. وهكذا بدأ الناس يتوافدون. ويشهد عليّ الله كان أحد أولئك الناس ملازماً أول أحضرته زوجه وابنه. أحضرت كذلك أحد أولاد عمّه الذي كان أيضاً بعثياً. سلّم سلاحه ثم وقّع تعهداً يقول بأنه أصبح الآن مع الانتفاضة. بالطبع بقي ذلك الرجل تحت الكفالة من قبل آخرين» ـ من الأشرطة الإيرانية. هذا هو المعجم البعثي للجريمة والعقاب وصولاً إلى أصغر التفاصيل، كمثل فرض كفالة على أفراد العائلة الآخرين بشأن سلامة سلوك الضحية المتكلّم عنه.

مكتبة الفكر الجديد

(١٨) هذه القصص وغيرها موجودة في الأشرطة الإيرانية.

(١٩) فاطمة (اسم مستعار) ـ أنظر هامش رقم ٩.

(٢٠) من الأشرطة الإيرانية.

(٢١) هذا السيّد من النجف، أجريت مقابلة معه في صيف ١٩٩١، وتابع ليلعب دوراً قيادياً في الانتفاضة. رتّبت هذا المونولوج انطلاقاً من تدوينات دوّنتها على الفور بعد المقابلة.

(٢٢) إن ظاهرة البصق على الجثث، أو على الأشخاص الذين هم على وشك أن يعدموا، يمارسه بشكل واسع النظام في بغداد، وقد بدأ عندما شنقوا السبعة عشر عراقياً أمام العموم في كانون الثاني/ يناير ١٩٦٩ ـ كان من بينهم ١٣ عراقياً يهودياً ـ ومؤخراً حين جرى إعدام ٤٢ تاجراً في ٢٥ تموز/ يوليو ١٩٩٢، إذ أجبر البعثيون الناس على المرور قربهم والبصق عليهم. المقابلة مع حميد (اسم مستعار) جرت في العراق صيف ١٩٩١ وأجراها طوني هورفيتز وهو مؤلف كتاب، «بغداد من دون خارطة» وأنا مدين إليه لأنه سمح لي باستخدام تدويناته. يقول حميد إن «بعض الأشخاص أصدروا صحيفة صغيرة، من ثلاث صفحات أو أربع، تتضمن آخر الأخبار عن الانتفاضة، ومقاطع ملهمة من القرآن». سمعت عن هذه الصحيفة من أكثر من مصدر واحد ولسوء الحظ لم أستطع الحصول على نسخة منها.

(٢٣) تاريخ الفتوى هو ١٨ شعبان ١٤١١ هجرة وهذا يوافق ٥ آذار/ مارس ١٩٩١ ميلادية.

(٢٤) من الأشرطة الإيرانية.

(٢٥) الاصطلاح العاميّ العراقي الذي استخدمه حبيب ليصف كيف بدا صوت صدّام على الراديو هو «ماكل قازوق».

(٢٦) الإشارة هي إلى محمد باقر الحكيم، الزعيم السياسي للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق والمقيم في طهران، المجلس الذي لعب دوراً هاماً خلال الانتفاضة، كان قد شُكل عام ١٩٨٢ وكان مركزه على الدوام طهران. والمنظمة تصف جمهورية إيران الإسلامية بـ «قاعدة الثورة الإسلامية العالمية» وقد عملت لفترة كمنظمة ـ مظلّة، جامعة عدداً مختلفاً من المجموعات الإسلامية، غير أنها في السنوات الأخيرة أصبحت مرتبطة فقط بشخص الحكيم. أنظر جويس. ن. وايلي «الحركة الإسلامية للشيعة العراقيين»، (لندن: منشورات لين راينر ١٩٩٢) ص ٦٠.

(٢٧) المقابلة مع حميد (اسم مستعار) جرت في صيف ١٩٩١ وكان المحاور طوني هورفيتز. أنظر حاشية رقم ٢٢.

(٢٨) أجريت هذه المقابلة في لندن في آب/ أغسطس ١٩٩١ مع قائد رفيع الشأن في الجبهة الكردستانية، وهو يفضّل أن يبقى اسمه مجهولاً.

(٢٩) هادي (اسم مستعار) وهو مقاتل ميليشيا كردي شاب، شارك في الحادث ووصف ما جرى إلى نبز كمال، الذي قابله من أجل هذا الكتاب في أيلول/ سبتمبر ١٩٩١ في ڤينا. بشأن معلومات أكثر عن هذه المجتمعات السكنية أنظر الفصل ٥، «تيمور».

(٣٠) لا بد أن المذكرة كانت قد أعدّت خلال الوقت الذي رميت فيه من الطوّافات الوريقات التي تهدد بحملات كيميائية على مدن الجنوب. ويزعم العديد من اللاجئين من الجنوب أنهم شاهدوا تلك الوريقات ووصفوا وثيقة شبيهة بالفعل بواحدة عُثر عليها في دهوك موجّهة لمدن النجف وكربلاء والبصرة والعمارة والناصرية. البند رقم ٧ يبدو أنه يحتوي معلومات عامة صادرة إلى كل مكاتب الأمن في العراق وهي متعلقة بـ «القسم الفني» الذي يقوم «باستخدام الوسائل الفنية وحسب التعليمات وبإشراف ضابط القسم» وهذا التعبير الملطّف يعني استخدام الأسلحة الكيميائية ضد المتظاهرين المدنيين. كل الاستشهادات هي من نسخة الوثيقة الموجودة بحوزتي.

مكتبة الفكر الجديد

(٣١) أجرى المقابلة مع سروار من أجل هذا الكتاب نيز كمال في النمسا في أيلول/ سبتمبر ١٩٩١.

(٣٢) في خطوة دعائية استثنائية، قام مجاهدو الشعب بإرسال شريط ڤيديو غير متقن التسجيل إلى أعضاء في الكونغرس الأميركي، يزعم بأن مقاتلين من حراس الثورة الإيرانيين تنكروا بلباس أكراد وهاجموا مدناً عراقية شمالية، ومن ضمنها السليمانية. يزعم المجاهدون في شريط الڤيديو أنهم ردّوا ذلك الهجوم الإيراني وصوّروا جثث أولئك العراقيين الأكراد الذين قتلوهم دفاعاً عن نظام صدّام حسين. بشأن هذا، وعن منابع الانتفاضة في شمال العراق، أنظر التقرير الذي يحمل عنوان، «الحرب الأهلية في العراق» لكاتبه بيتر غالبرايت، المكتوب للجنة العلاقات الخارجية، مجلس الشيوخ الأميركي أيار/ مايو ١٩٩١.

(٣٣) المقابلة مع المستشار الكردي أجراها في شمال العراق نيل كونان من «ناشونال پابليك راديو» في أيار/ مايو ١٩٩١. أنا شاكر جداً له لتأمينه لي كل مخطوطات أشرطته التسجيلية. ومن أجل حماية كل هويات المحاوَرين نزعت كل الأسماء.

(٣٤) هناء (اسم مستعار) امرأة عربية شابة من بغداد عاشت مع زوجها الكردي في السليمانية، أجرى المقابلة معها من أجل هذا الكتاب نيز كمال صيف ١٩٩١ داخل مخيّم للاّجئين العراقيين في أوروبا. في بغداد شوّهت صور صدّام ليلاً. إحدى سكان الأعظمية أخبرتني أنها استفاقت ذات صباح لتجد ثغرة صغيرة حيثما كان يوجد فم صدّام حسين في الصورة، وكان يطلع منها حذاء موضوع بعناية (كانت طريقة بصرية لقول: «صدّام ماكل قازوق» راجع هامش (٢٥).

(٣٥) أخذت كلمات مسعود برزاني من مخطوطة فيلم «حلم تعرّض للخيانة»، من إخراج غوين روبرتس، عرض للمرّة الأولى في بريطانيا على القناة ٤ في نيسان/ أبريل ١٩٩١.

(٣٦) هذا الحادث شهده هادي (اسم مستعار) وهو مقاتل كردي شاب من المجمع السكني الذي بنته الحكومة في خباط قرب رانيّة. قام بمقابلة هادي من أجل هذا الكتاب نيز كمال في أيلول/ سبتمبر ١٩٩١ في ڤيينا. قصة شبيهة كانت رويت لجيرالدين بروكس خلال زيارتها شمال العراق: «رأيتهم يمسكون أحد المعذِّبين، همس لي مضيفي للعشاء، رموه في الشارع وتجمع حشد من حوله، حين شققت طريقي بينهم، كانوا على وشك أن يقطعوا أذنه. رجاهم مضيفي لكي يتوقفوا. نظر إليه الرجل الساخط الذي يحمل السكين وقال: «هل اختفى لك ابن؟ لا؟ إذاً ليس لديك ما تقوله هنا». صحيفة «ول ستريت جورنال». ٢٠ نيسان/ أبريل ١٩٩٢.

(٣٧) هذه الرسالة كتبها باسل (اسم مستعار)، وهو مقيم في بغداد، إلى شقيقه عمر (اسم مستعار) المقيم حالياً في الولايات المتحدة. فرّ باسل مع عائلته إلى السليمانية هرباً من القصف الجوّي للقوات المتحالفة. هناك رأى المشاهد الموصوفة في الرسالة، قبل أن يهرب ثانية، لكن من عهدة الحرس الجمهوري هذه المرّة. الرسالة أرسلت من إيران، حيثما انتهى الأمر بباسل وعائلته لفترة وجيزة. كنت قد رأيت فيلماً صوّر في مبنى مقر الأمن المركزي بعد وقت قصير من الأحداث التي رواها باسل. الجثث التي وصفها كانت لا تزال هناك لم ترفع بعد، والزميل الكردي الذي أتاح لي مشاهدة الفيلم زعم أنه جرى إحصاء لعدد القتلى الذين سقطوا خلال المعركة التي دامت ٤٨ ساعة وأنه يفوق التسعمائة شخص. إثر الأحداث المخيفة في السليمانية، عاش باسل تجربة جهنمية أخرى وهو يحاول أن يخرج عائلته بسلام وينقذها من غضب الحرس الجمهوري. قصة عمر، شقيق باسل، تشكل الفصل التالي من الكتاب.

(٣٨) أنظر سيمبسون، «من منزل الحرب» ص ٣٥٩. مقابلاتي مع مواطنين عاديين من البصرة تؤكد قصة سيمبسون.

(٣٩) بكلام آخر، الردة في الخطاب الاسلامي السياسي المعاصر هي ذاتها الخيانة في الذهنية البعثية. غير أن الخيانة موجّهة ضد العروبة، والولاء المطلق هو لحزب البعث وهو الوكيل الشرعي لنشر العروبة. أقام ميشيل عفلق بشكل صريح في كتاباته التي تعود إلى الأربعينات هذا الترابط مع الإسلام. وهذا ما يشدّد

مكتبة الفكر الجديد

على الحاجة الملحّة إلى تفكير ليبرالي جديد بين المفكرين المسلمين من أجل «إعادة تفسير» أو إعادة النظر في هذا الخطاب.

(٤٠) أجريت مقابلة أم حسين في لندن بعيد وصولها من العراق، وكانت أمضت فترة الحرب في الناصرية والبصرة، وهي تنظر إلى الانتفاضة نظرة سلبية للغاية رغم كونها عانت من الحرس الجمهوري بعد استعادته السيطرة.

(٤١) مقابلة مسجّلة على شريط مع أم حسين من البصرة أجراها كنعان مكيّة.

(٤٢) قام نبز كمال بمقابلة ساسان من أجل هذا الكتاب خلال صيف ١٩٩١ في مخيّم للاجئين العراقيين بأوروبا.

(٤٣) نهب وأحرق ما مجموعه تسعة متاحف في شمال العراق وجنوبه خلال الانتفاضة، وفقد ما يقدّر بأربعمئة تحفة. نقل جزء من مجموعة المتحف العراقي في بغداد إلى كركوك لإفساح المكان للمجموعة الرائعة من التحف الإسلامية التي سرقتها الحكومة العراقية من الكويت أثناء الاحتلال. ومن ضروب السخرية انه في حين عادت هذه التحف الإسلامية الى مالكيها الشرعيين (في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١) سلبت مجموعة المتحف العراقي بكاملها من كركوك خلال الانتفاضة الكردية. واكتشفت لاحقاً بالصدفة بعض التحف في صناديقها على جانب الطريق. أمّا الباقي فبدأ يظهر في أسواق الفن العالمية يعرضه عملاء إيرانيون على جامعي تحف ومدراء متاحف في لندن ونيويورك. أنظر المقالة التي نشرتها عالمة الآثار العراقية سلمى الراضي في مجلة «نايشن» في ١١ أيار/ مايو ١٩٩٢ ص ٦٢٤ - ٦٢٥.

(٤٤) الحسينيات أمكنة شيعية متواضعة للصلاة والتجمّع، ينشئها غالباً محسنون أثرياء.

(٤٥) مقابلة مسجّلة على شريط مع فاطمة (اسم مستعار) من السماوة، أجراها كنعان مكيّة.

(٤٦) الإمام المنتظر، مثل جميع الأئمة، هو من سلالة النبيّ. أنظر مقالة برنارد لويس «الشيعة» في «نيويورك ريفيو أوف بوكس» ١٥ آب/ أغسطس ١٩٨٥.

(٤٧) مصدر هذه القصة غير الاعتيادية أحد الثوّار النجفيين في الأشرطة الإيرانية.

(٤٨) أشير إلى السيرة شبه الرسمية التي تحمل عنوان «صدّام حسين: الرجل، القضيّة والمستقبل» (لندن: مركز العالم الثالث ١٩٨١) كتبه الصحافي اللبناني، والمؤلف والاختصاصي في شؤون الشرق الأوسط فؤاد مطر.

(٤٩) الشهادة التي بصفحتين مكتوبتين بخط اليد وغير موقّعة، كانت كتبت داخل إيران، ولربما خطّها أحد الموظفين العاملين في المجلس الإسلامي الأعلى. أنا مدين إلى حيدر حمّودي لجمعه هذه الشهادة إضافة إلى مواد أخرى من إيران من أجل هذا الكتاب.

(٥٠) أنظر تقرير ليز ثيرغود في «الغارديان» في ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٩١.

(٥١) أنظر جولي فلينت في صحيفة «الأوبزرفر» ١٠ آذار/ مارس ١٩٩١، ص ١٤. وتقرير في «الإنديبندنت» Indepedent ١٧ آذار/ مارس ١٩٩١، ص ١٦. أنظر أيضاً ملخّص الـ بي.بي.سي B.B.C لأخبار العالم ٤ نيسان/ أبريل ١٩٩١، الشرق الأوسط.

(٥٢) أسماء العائلات النجفية التي قتلتها القنابل الصاروخية الباليستية، مأخوذة من «القتل الجماعي خلال انتفاضة آذار/ مارس ١٩٩١ وما بعدها في العراق» (لندن. منظمة حقوق الإنسان في العراق ١٩٩١) ص ١٠. (سنشير إلى هذا المصدر من الآن فصاعداً «بالقتل الجماعي»). الاقتباس من صدّام حسين هو من خطبة ألقاها في ٢ نيسان/ أبريل ١٩٩٠ حول أسلحة العراق السرية الجديدة. أنظر أيضاً الفصل ٨: «خرافات قومية جديدة».

مكتبة الفكر الجديد

(٥٣) صوت العراق الثائر ١٩٥٧ جي أم تي GMT ٢٦ آذار/ مارس ١٩٩١، تقرير من الـ بي.بي.سي BBC. أنظر ملخّص إذاعات العالم. الشرق الأوسط، ٢٨ آذار/ مارس ١٩٩١.

(٥٤) «عذاب بلا نهاية: انتفاضة ١٩٩١ في العراق وما بعدها» (نيويورك: ميدل إيست واتش ١٩٩٢) ص ٥٢ (نشير إليها من الآن فصاعداً بـ «عذاب بلا نهاية».

(٥٥) بنتيجة إصرار الحكومة العراقية، دفن آية الله الخوئي فجر النهار التالي وسمح فقط لستة أشخاص بحضور الدفن. لم يسمح بإجراء أية مظاهر حداد. نعيان يلخّصان حياة آية الله وأعماله كتبهما كل من مايكل وود في «حوار»، والنص رسالة إخبارية نشرتها لجنة الشؤون العامة للمسلمين الشيعة (أيلول/ سبتمبر ١٩٩٢) ص ٨. وشبلي الملاّط في «الإندبندنت» في ١٠ آب/ أغسطس ١٩٩٢.

(٥٦) «قتل جماعي». ص ٥.

(٥٧) بوب دروغين، «العراق: صدام حسين يعرض جوائز على الجنود مقابل قتل الأطفال ـ الشيعة يواجهون القصاص» صحيفة «الغارديان» ٢٩ آذار/ مارس ١٩٩١.

(٥٨) «عذاب بلا نهاية» ص ٥١. أنظر أيضاً «أحداث آذار ١٩٩١ كما يرويها شهود عيان»، الذي أصدره المركز الوثائقي لحقوق الإنسان في العراق، طهران ١٩٩١، ص ١٧. (يشار إليه من هنا فصاعداً بـ «أحداث آذار»). هذه الوثيقة الممتازة، التي أصدرها إبان ظروف صعبة عراقيون في إيران، تقوم على شهادات وتقارير عدد كبير من الشهود العيان، وهي جمعت بعد وقت قصير من الانتفاضة. إني مدين لحيدر حمّودي في حصولي عليها.

(٥٩) «قتل جماعي». ص ١١.

(٦٠) أنظر «أحداث آذار»، ص ١٥ لأجل ما جرى على امتداد طريق هنديّة. الوثيقة نفسها تقدّم أمثلة عن عائلات قصفت أثناء فرارها من حاكمية العمارة ص ٢١ ـ ٢٢. أنظر أيضاً «عذاب بلا نهاية»، ص ٥١، دروغين، «العراق: صدّام حسين» و«القتل الجماعي» ص ١٦ و١٨.

(٦١) دروغين «العراق: صدّام حسين».

(٦٢) أم حسين أجرى المقابلة معها في لندن كنعان مكيّة بعد وقت قليل من وصولها من العراق.

(٦٣) أنظر «عذاب بلا نهاية» ص ٥١، جولي فلينت، «العراق: صدّام يعلن الحرب على الشيعة فيما ينزل عدد أكبر من الأكراد من الجبال»، صحيفة «الأوبزرفر»، ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٩١، و«قتل جماعي» ص ٦. أسماء المستشفيات الـ ١٢ في جنوب العراق التي هوجمت بالطريقة التي وصفت في هذا المقطع مقدّمة في «أحداث آذار»، ص ٦٧ ـ ٦٨.

(٦٤) «قتل جماعي»، ص ٧.

(٦٥) أنظر «قتل جماعي» ص ٩، ٦، ١١. من أجل أسلوب القتل بواسطة القالب الاسمنتي، أنظر «أحداث آذار» ص ٤٢. أنظر أيضاً ص ١٦ ـ ١٧ عن تقارير دفن الناس أحياء، والعبور عليهم بالآليات المدرّعة، ورميهم من الطوّافات والطائرات.

(٦٦) نورا بستاني «أثر موت في العراق»، «الواشنطن بوست» ٢٦ آذار/ مارس ١٩٩١.

(٦٧) «قتل جماعي» ص ٢١ و٢٣.

(٦٨) «أحداث آذار» ص ٣٧.

(٦٩) تقرير من رويتر في ٨ نيسان/ أبريل ١٩٩١ وكرونولوجية الثورة التي نظّمتها مؤسسة الخوئي الكائنة في لندن.

(٧٠) «عذاب بلا نهاية» ص ٥٢.

(٧١) سيمبسون، «من منزل الحرب» ص ٦.

مكتبة الفكر الجديد

(٧٢) أنظر صحيفة «الغارديان» Guardian، السبت ٩ آذار/ مارس ١٩٩١، ص ٧. تقرير كيم فلتشر في صحيفة «الصنداي تلغراف» Sunday Telegraph ٢٤ آذار/ مارس ١٩٩١، ص ١٩، وفلينت، صحيفة «الأوبزرڤر» ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٩١.

(٧٣) ثمة قائمة جزئية برجال الدين الذين قتلوا أو اختفوا من عائلة السيد بحر العلوم تضم السادة: السيد علاء الدين، السيد علي السيّد، السيد مصطفى السيّد، السيد أمين السيّد، السيد محمد حسين السيّد موسى، السيد محمد صفاء موسى، السيد محمد ابراهيم الشيرازي، والسيّد باقر (ابنه)، السيد عمّار السيّد عبود، والسيد جعفر بحر العلوم. أنظر «قتل جماعي» ص ٢٣. «أحداث آذار» ص ٥١ ـ ٥٦. وفلينت، «الأوبزرفر» ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٩١.

(٧٤) الرواية الأشمل للتدمير الماديّ موجودة في «أحداث آذار»، ص ٤٤ ـ ٤٦ تشير إلى أن عشرة جوامع وحسينيات، و١١ مكتبة وحوزة دينية كانت دمّرت في النجف. لحقت بكربلاء أضرار أكبر ودمّر النظام كلياً ١١٧ حسينيّة وجامعاً، وحوزة، ومقاماً دينياً هاماً، وكلها محدّدة بأسمائها ومواقعها في الصفحات ٥٧ ـ ٦٣. قدّمت إليّ كذلك لوائح بجوامع مدمّرة، عبر منظمة حقوق الإنسان في العراق، القائمة في لندن. أنظر أيضاً ليز ثرغود، «العراق: الرئيس صدام حسين يطلق حملة ضدّ الأماكن الشيعية المقدّسة»، صحيفة «الغارديان»، ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٩١، وكاثي إيفانز عن نبش القبور في كربلاء، «أنشوطات معلّقة في النسيم في مقام الشيعة المقدّس»، صحيفة «الأوبزرڤر» ٢٦ أيار/ مايو ١٩٩١.

(٧٥) «قتل جماعي» ص ١٩.

(٧٦) كتبت ليز ثرغود أن خطط الحكومة في صيف ١٩٩١ كانت تهدف إلى إزالة جدران مقام الإمام عليّ القديمة واستبدالها بسياج من السلاسل. كان السياج الجديد سيجعل من الأسهل على الحكومة أن تسيطر على المقام، ومن الأصعب تحويله إلى قلعة حصينة. صحيفة «الغارديان» ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٩١.

(٧٧) الاقتباس من حفيد آية الله الخوئي والناطق باسمه، وكما قدمته مقالة باتريك كوكبرن، بعنوان «كنوز إسلامية مسروقة» صحيفة «الإندبندنت» ١٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢، ص ١٢. أنظر أيضاً باتريك كوبرن، «كنوز العراق القديمة في مصائب الحرب الخبيثة». «الإندبندنت» ١٥ تموز/ يوليو ١٩٩١، ص ١٢.

(٧٨) بدأت السلسلة في ٣ نيسان/ أبريل ١٩٩١. استطعت الحصول على نسخ عن المقالات الأربع الأولى، ومنها اقتبست هذه الاستشهادات.

(٧٩) أنظر على سبيل المثال، شبلي تلحمي، «إبقوا خارج الحرب الأهلية العراقية»، «النيويورك تايمز» ٥ نيسان/ أبريل ١٩٩١، ص ٢٥. تلحمي أستاذ في العلاقات الدولية وسياسة الشرق الأوسط في جامعة كورنل وعمل كمستشار للبعثة الدبلوماسية الأميركية إلى الأمم المتحدة خلال أزمة الخليج. لم يكن موقفه، بحسبما أقرّ هو، قائماً على أساس المبدأ. في حديث أجراه معه تيد كوبل على شبكة أي.بي.سي ABC نيوز نايتلاين في ٢ نيسان/ أبريل ١٩٩١، قال البروفسور تلحمي «لست مدافعاً عن الإدارة الأميركية. أنا على سبيل المثال أعتقد أنه على الولايات المتحدة إيقاف ما يجري في الكويت ضد الأطراف الثالثة في الصراع». بكلام آخر ان تدخلاً أميركياً ضد الكويتيين لمساعدة الفلسطينيين هو أمر مقبول وضروري. ولكن تدخلاً لمنع صدّام حسين من ذبح عشرات آلاف المدنيين العراقيين، ليس كذلك.

(٨٠) مقتطفات مأخوذة من مخطوطة كاملة لكلمته التي ألقاها بلندن في ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١ في مؤتمر نظّمته «رابطة أهل البيت»، وهي منظمة إسلامية عالمية مقرها لندن.

مكتبة الفكر الجديد

٣ ـ عمر

(١) هناك ١٦ شعبة في الاستخبارات العسكرية العراقية، كل منها مسؤول عن نوع مختلف من الجرائم. الشعبة السادسة عشرة هي الأكثر سرّية، ولديها السلطة الفعلية لاعتقال أي مسؤول حتى من أعلى مستويات السلطة في الحكومة. يبدو أن هذه الشعبة كانت مسؤولة عن اعتقال عمر.

(٢) اقتباسات من رسالة باسل تبرز في الفصل ٢. «أبو حيدر».

(٣) عمر اسم سنّي، تماماً كما هو أبو حيدر اسم شيعي. والمقاصد الضمنية من وراء اختياري للأسماء متعمدة بقدر ما هما قصتا عمر وأبي حيدر حقيقيتان.

(٤) في عراق ما قبل ١٩٥٨، كانت «القوة النهرية» عبارة عن سفن دوريات عسكرية، وكان مركزها منطقة الأهوار في جنوب العراق، وكانت مهمتها مراقبة القبائل الشيعية والسيطرة عليها. كانت تمثل كل ما تملكه الملكية العراقية مما يسمى بالقوّة البحرية.

(٥) خلال حرب الخليج، كانت وحدات من الجيش العراقي تدعى القوات الخاصة، ترسل دوريات من فرق إعدام كانت وظيفتها زرع الرعب في قلوب الجنود العراقيين على الجبهة كي لا يجرؤوا على الفرار. كان ينبغي أن يكون أعضاء تلك الفرق، بحسب جندي عراقي كانوا اعتقلوه، من حزب البعث، وأن «يبدّلوا أسماءهم كي لا يمكن التعرّف إليهم البتة. إن كان الرجل يدعى محمّد كانوا يدعونه حسين. كانوا عديمي الإحساس، وعديمي الشفقة». كما جاء في مقالة روبرت فيسك، «المحتجز ما بين القنابل وفرق الإعدام» صحيفة الإندبندنت» Independent ١ آذار/ مارس ١٩٩١.

(٦) مدينة الثورة، المعروفة رسمياً بمدينة صدّام، ضاحية شيعية فقيرة من بغداد نشأت خلال الخمسينات والستينات من هجرات من المناطق الريفية والمدينية في الجنوب. إنها شهيرة بنضالها السياسي. ثمة مليون شخص على الأقل يسكنون هناك حالياً.

(٧) العرق هو المشروب الكحولي العراقي الوطني، وهو مصنوع من التمر. كان عمر وصديقه قد أنهيا قنينة منه في وقت مبكر من العشيّة.

(٨) التسمية العامية العراقية للسلاح النموذجي الذي يستخدمه الحرّاس في سجن عمر هي «الصاوندة» أو «الكايبول». وهو عبارة عن سلك كهربائي مكسوٌ بغلاف بلاستيكي أسود، قطره حوالى الإنش الواحد وطوله حوالى القدم. اللهجة العامية في السجن طوّرت التعبير إلى «مات جوا [تحت] الكيبولات».

٤ ـ مصطفى

(١) جرى الهجوم على غبطابة خلال حملة عراقية عام ١٩٨٨ دامت ثمانية أشهر، وكانت تحمل اسماً شفرياً هو «الأنفال». كانت الحملة تهدف إلى إزالة الحياة الريفية من مساحات كبيرة صنّفتها الحكومة «منطقة محظورة أمنياً». جرت حملة الأنفال خلال أربع مراحل استهدفت كل منها منطقة مختلفة. هوجمت غبطابة خلال «حملة الأنفال الثانية» كما سبق أن أشارت الحكومة العراقية ذاتها.

(٢) المقابلة مثبتة بنصها الكامل في نهاية الفصل رقم ٥.

(٣) «طريقة» النقشبندية كما تدعى في العربية، أتت أصلاً من طاجكستان في آسيا الوسطى، ثم انتشرت في الهند وإيران وكردستان. غير أنها استقبلت بحماسة في كردستان العراقية عبر نشاطات الهداية لمولانا خالد النقشبندي، الذي ولد في قرية قره داغ عام ١٧٧٩ على بعد بضعة أميال جنوب المدينة العراقية السليمانية.

(٤) أنظر الفصل ٢ لمعرفة دور أحد هؤلاء المستشارين الأكراد خلال انتفاضة آذار/ مارس ١٩٩١.

مكتبة الفكر الجديد

(٥) زرت حصني دهوك وكوراتو في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١. وصف حصن كوراتو يرد في بداية الفصل ٥.

(٦) جرت هذه المقابلة في شمال العراق. أنظر الفصل ٢. الحاشية رقم ٣٣.

٥ ــ تيمور

(١) أنظر المقدّمة والحاشية رقم ٢١، ص ٣٣٠ لاستيضاح كيف عرفت بشأن تيمور.

(٢) الأكراد هم هنود ــ أوروبيون ومعظمهم من المسلمين السنّة، يبلغ عددهم الآن أكثر من عشرين مليوناً. إنهم منتشرون بصورة خاصة عبر القوس الجبلي الذي يطوّق جنوب شرق تركيا، وشمال غرب إيران، وشمال شرق سوريا، وأذربيجان إضافة إلى شمال شرق العراق. لغة الأكراد وعاداتهم وتقاليدهم مختلفة عن الأتراك والفرس والعرب الذين يسيطرون على البلدان التي تقيم ضمن حدودها أعداد كبيرة من الأكراد، وهم يؤلفون أكبر أقلية غير عربية في العراق، وما يعادل ١٥ إلى ٢٠ بالمئة من عدد سكّانه.

(٣) مع انهيار الامبراطورية العثمانية عند نهاية الحرب العالمية الأولى وُعد الأكراد، بموجب معاهدة سيفر (١٩٢٠) «بمشروع حكم ذاتي» في شمال العراق. لكن تلك الفقرة من المعاهدة لم تقر أبداً وحذفت كلياً من معاهدة لوزان، التي وطّدت حدود كل من تركيا وسوريا والعراق الحديث عام ١٩٢٣. في ذلك الوقت كانت قبائل عراقية كردية مسلّحة تقوم بثورة مفتوحة في الشمال ضد حكومة الملك فيصل الأول المنتدبة من قبل البريطانيين في بغداد. كانت الحكومة العراقية تضع نصب أعينها المنطقة الغنيّة بالأراضي الزراعية وبغري بترول كبيرين، ولم تكن مستعدة لأن تسمح لشمال العراق بفرض هويته الكردية. في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٥ أقنعت بريطانيا عصبة الأمم بأن تعلن انه لا مجال نهائياً لقيام دولة كردية. وبغداد من جهتها كانت قد صرّحت بما يوازي ذلك، وفي عام ١٩٢٤ قامت حكومة الانتداب بقمع الثورة الكردية بوحشية.

(٤) رواها شوريش رسول في مقابلة مع أياد رحيم في لندن، شباط/ فبراير ١٩٩٢.

(٥) أول مرة استخدم فيها حزب البعث كلمة «أنفال» كما استطعت أن أكتشف كان في بلاغ عسكري رسمي بدأ في نهاية شباط/ فبراير ١٩٨٨ وهو يشير إلى شيء ما يدعى «أول عملية أنفال». «عملية الأنفال الثانية» قادها شخص يدعى اللواء أياد خليل زكي، بحسب البلاغ العسكري الرسمي رقم ٣١٠٩ الذي أذاعته إذاعة بغداد في ٢ نيسان/ أبريل ١٩٨٨. تحدثت الإذاعة عن «خونة» في منطقة كارداغ وأنه جرت معالجة الأمر بحزم. تلك الحملات العسكرية مضى الراديو العراقي يزعق معلناً عنها طوال الصيف، إلى أن بلغت الأمور أوجها مع شيء دعي «خاتمة الأنفال»، وهو الأنفال الأخير الذي بدأ بشكل جدّي في آب/ أغسطس ١٩٨٨.

(٦) في اللغة الفارسية تستخدم كلمة «أنفال» أيضاً لتعني «غنيمة» غير أنها تطوّرت كذلك لتعني «بخشيش»، إذ تحمل الكلمة نفسها معنيين متناقضين ظاهرياً، فهذا يرد بشكل ما إلى أصلها. الغنيمة المشرّعة ليست سرقة، إنها هدية من الله لأولئك الذين انتصروا وإلى المجتمع الإسلامي برمته. إبان معركة بدر، حصل المقاتلون المسلمون على الغنيمة. عن البقية تقول سورة الأنفال: «واعلموا إنما غنمتم من شيءٍ فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتمى والمشكين وابن السبيل» (٨:٤١). إضافة إلى ذلك في المعجم الجديد الذي بدأ ينبعث بعد جمهورية إيران الإسلامية على أثر ١٩٧٩، تحوّل معنى الأنفال ليصبح الأملاك العامة. بكل بساطة التطوّر هو من غنيمة إلى هدية إلى أملاك عامة. اليوم عندما يستخدم رجال الدين في إيران كلمة «أنفال» فإنها تشير إلى الأرض والغابات والأنهار وحتى الجبال. أمر مماثل لذلك يحدث للكلمة في العراق حين تستخدم مثلاً كاسم لمركز بريد.

مكتبة الفكر الجديد

(٧) كتب الصحافي جيم موير كذلك قصصاً مشابهة عن أطفال، ونسوة كن «بعن بالمزاد العلني إلى أثرياء سعوديين وكويتيين كزوجات»، وكان سمع عن ذلك في شمال العراق. واتضح ان جنوداً أكراداً «تعرّفوا إلى قريبات لهن كن قد بعن ليتزوجن هناك». أنظر مقالته «ما وراء الهرب الكردي المروّع» في مجلة «ذي كريستيان سيانس مونيتور» في ١٨ نيسان/ أبريل ١٩٩١، ص ١. بحسبما استطعت أن أتبيّن، فإن موير في مقالته، كان أول صحافي ذكر كلمة «أنفال» كاسم شفري لحملة القمع الضخمة التي قامت بها الدولة العراقية.

(٨) لديّ شريط مسجّل لصدّام وهو يتحدث إلى قادته العسكريين وقد نقلت عنه هذا المقطع. جزء أساسي من النص الكامل نشر في صحيفة «الحياة» العربية الصادرة في لندن.

(٩) أنظر أيضاً الفصل ٨ «خرافات قومية جديدة».

(١٠) مقتبسة من الدراسة الممتازة والشاملة لمارتين ڤان بروينسّين: «الأكراد بين إيران والعراق»، «ميدل إيست ريبورت» (تموز/ يوليو - آب/ أغسطس ١٩٨٦) ص ٢٧.

(١١) مصادر كردية تزعم أن ثمة أمراً بتعليمات وتوجيهات رسمية، كان قد صدر عن مكتب علي حسن المجيد لتنظيم الشمال، وتحدث عن القضاء على كل الحياة الموجودة في تلك المناطق، التي صنّفت «محظورة»، لأسباب إدارية أو أمنية. قيل لي على وجه التحديد، إن التعليمات تنص على أنه ينبغي «قتل الأشخاص الموجودين داخل تلك المناطق». التعليمات - الموجّهة إلى كل فروع الحزب، وكل قطاعات أجهزة الأمن المختلفة، والاستخبارات العسكرية، وفيالق الجيش الأولى (المتمركزة في كركوك)، وفيالق الجيش الخامسة (المتمركزة في أربيل) - حددت سياسة حملات الأنفال من قبل مجلس قيادة الثورة، وكان ينبغي أن تنطلق بعد وقت قليل من ٢٩ آذار/ مارس ١٩٨٧. لم أستطع على أية حال أن أحصل على نسخة من هذا الأمر الرسمي المزعوم.

(١٢) المقابلة مع الدكتور جعفر أجراها غوين روبرتس بحضوري، في أربيل في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١. بعد وقت قليل من الهجوم على شيخ ويسان، هرب الدكتور جعفر من الجيش العراقي واستطاع الوصول إلى لندن.

(١٣) أنظر تقرير آلن كويل «العراقيون يواجهون حرباً متفاقمة من الداخل» (النيويورك تايمز)، ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٧، ص ٦. وكما يشير عنوان المقالة كانت النظرة الغربية، وهي نظرة من طرف واحد قدمها إليهم حلفاؤهم العراقيون (في تلك الأيام غير البعيدة)، مؤداها أن العراق كان يردّ على مقاومة رجال حرب العصابات الأكراد. الدلائل، بحسب وجهة نظري، لا تشير إلى ذلك. الأشخاص الذين كانوا يبادون كانوا أناساً مسالمين مغلوبين على أمرهم. أنظر أيضاً مقالة باتريك تايلر «رجال حرب العصابات الأكراد يشكلون خطراً متفاقماً على العراق» في صحيفة «الواشنطن بوست» ١٩ شباط/ فبراير ١٩٨٨ ص أ ١٥، والتي أشارت إلى اعتداءات واسعة على حقوق الإنسان ترافقت مع «إزالة ومحو مئات القرى وإعادة توطين آلاف الأكراد بالقوّة».

(١٤) أياد رحيم أجرى مقابلة جمال (اسم مستعار) بلندن في شباط/ فبراير ١٩٩٢.

(١٥) بعد المقابلة، والمقابلات التي تلتها مع منظمات لحقوق الإنسان، تم اللقاء مع المحقق الخاص لدى الأمم المتحدة (ماكس ڤان دير ستول)، وعدد كبير من الصحافيين طوال شتاء ١٩٩٢، ويبدو أن تيمور قد وفى بغرضه. وقد تُرك الفتى، مذ ذاك، كما هو واضح، ليعيل نفسه مع قريب له ولكن من دون حماية من قبل البشمرغا. هذا على الأقل ما لاحظه أحد الصحافيين عندما عاد إلى كردستان خلال الانتخابات الكردية، وحاول من غير طائل رؤية الصبي والاستعلام عن مصيره وحالته.

(١٦) المقابلة بأكملها صوّرها غوين روبرتس الذي كنت مسافراً برفقته. وعرض مقتطفاً منه على شبكة الـ بي.بي.سي BBC «إفريمان» فيلم، بعنوان «الطريق إلى الجحيم».

مكتبة الفكر الجديد

٦ ـ تذكر القسوة

(١) أنظر «لماذا نحو عالقون في الرمل» بقلم كريستوفر هيتشينز في مجلة «هاربرز Harper's» عدد ٢٨٢، الرقم ١٦٨٨ (كانون الثاني/ يناير ١٩٩١). أنظر أيضاً التقرير الخاص المميز بعنوان «عراق غايت: كيف ساعدت إدارة بوش صدّام حسين في شراء أسلحته الحربية، ولماذا وقع دافعو الضرائب الأميركيون في فخ دفع الفاتورة؟». «يو.أس.نيوز إند وورلد ريبورت»، ١٨ أيار/ مايو، ١٩٩٢.

(٢) السؤال كان سأله كينيث روث، المدير المساعد لمنظمة «ميدل إيست واتش» Middle East Watch، في رسالته إلى «النيويورك تايمز»، ١٣ تموز/ يوليو ١٩٩٢، ص أ ١٤.

(٣) أنظر الملخص التنفيذي، «الصحة والخدمات الاجتماعية في العراق بعد أزمة الخليج: تقييم في العمق». قام به فريق دراسة عالمي (كامبردج)، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١، ص ٣.

(٤) المصدر السابق ٤ ـ ٥، ١٢ ـ ١٣. الوضع أصبح أسوأ بشكل مضطرد في جنوب البلاد في الأشهر التي تلت نشر هذا التقرير، على الرغم من أنها تحسنت في وسط البلاد، حيث استعادت الطاقة الكهربائية أجزاءها التعويضية، وفي الشمال الذي أصبح مذ ذاك منطقة «محرّرة» ومفتوحة على المساعدات الخارجية.

(٥) مجلة «نيوزويك» Newsweek، ٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢، قدّرت عدد القتلى المدنيين خلال الحرب الجوية بما بين ٢٥٠٠ و٣٠٠٠ شخص. حتى ١١ شباط/ فبراير ١٩٩١ كانت الحكومة العراقية الرسمية تضع رقماً هو ٦٥٠ قتيلاً و٧٥٠ جريحاً. في ذلك النهار عدّل وزير الشؤون الدينية الرقمين ورفعهما، وتحدث عن «آلاف» من الإصابات المدنيّة. أنظر «النيويورك تايمز» ١٢ شباط/ فبراير ١٩٩١. التقديرات الأولية تحدثت عما بين ٥٠٠٠ و١٥٠٠٠ قتيل. أنظر «ذي بريتيش ميديكال جورنال» ١٩٩١، عدد ٣٠٣: ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦.

(٦) ذكرت مجلة «يو.أس. نيوز أند وورلد ريبورت» في عدد ٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢ انه يوم بدأت الحرب «أدخل العراق ما لا يزيد عن ٣٠٠ ألف جندي إلى الساحة الكويتية وهو عدد أقل من نصف العدد الذي ذكره الجنرال شوارزكوف وهو ٦٣٢ ألفاً، وأقل من تقديرات البنتاغون: ٥٤٠ ألفاً. وبشكل مماثل فإن الإصابات العراقية كانت لربما أقل بكثير من المئة ألف التي قدّرتها وكالة استخبارات وزارة الدفاع. وربما سقط ما لا يزيد عن الثمانية آلاف جندي عراقي فوق ساحة المعارك الكويتية طوال ٤٣ يوماً من القتال».

(٧) طردت ديونت بعد إصدارها تقديراتها. الحملة الإعلامية التي تلت ذلك أجبرت موظّفيها على إصدار أرقام جديدة. وهذه الأرقام الأخيرة رجحت كفة الميزان إلى صالح الحجة القائلة بأن عدد الإصابات الحقيقي في الحرب جاء بعدما انتهت وليس بينما كانت تجري. بعد ذلك قام «اتحاد الحريات المدنية» بالتحرك، لكن على الرغم من إعادة ديونت إلى منصبها في نيسان/ أبريل ١٩٩٢، اتهم الاتحاد على الفور مكتب الإحصاء الرسمي الأميركي بمحاولة «كتم وتأخير نشر معلومات تسبب الارتباك للإدارة الحاليّة». أنظر «الواشنطن بوست» ٦ آذار/ مارس ١٩٩٢، ص أ ٦، و«البوسطون غلوب» ١٤ نيسان/ أبريل ١٩٩١.

(٨) «جورنال أوف أميركان ميديسين» مجلد ٢٦٦ العدد ٥ ٧ آب/ أغسطس ١٩٩١، ص ٦٣٩. أنظر أيضاً «بريتيش ميديكال ريبورت» ١٩٩١ عدد ٣٠٣: ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦.

(٩) مقتبسة عن موراي كمبتون من «نيويورك نيوزداي» ٣ آذار/ مارس ١٩٩١. أنظر أيضاً التقرير الذي

مكتبة الفكر الجديد

نشرته رئاسة الأمم المتحدة في نيويورك، «هو/ يونيسف (WHO/ Unicef) مهمة خاصة إلى العراق» شباط/ فبراير ١٩٩١.

(١٠) منشورة في «نيو إنغلند جورنال أوف ميديسين» ٢٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٩١، ص ٩٨٠. «الجوع ومعدل نسبة وفيّات مرتفع بين الأطفال في العراق هما الآن معزّزان جيداً بالوثائق» هكذا كتبت المجلة الطبّية البريطانية الممتازة «ذي لانسيت» في عدد ٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١ (مجلد ٣٣٨. ص ١١٨٠). «لا يستطيع أي منّا في المستقبل أن يقول إنه لم يعرف».

(١١) «إثر حرب الخليج في وفيات الأطفال والأولاد بالعراق» مركز الدراسات السكّانية، «هارفرد سكول أوف بابليك هيلث». هذا التقرير الممتاز والذي بقي إلى الآن غير منشور، كتبته سارة زائدي، وهو قائم على عيّنة تمثيلية عن العائلات العراقية.

(١٢) إني أستشهد بمسودّة لا تزال غير منشورة لمقالة بعنوان «غذاء الأطفال والصراعات المسلّحة في العراق» وقد قدّمها لي متلطفاً كاتبها وليد الدوري، وهي قائمة على معطيات جمعها وحلّلها كل من نجيب. أ.، أرميجو حسين، وفائي فوزي، وج. هيريرها ـ أكينا ـ وكلهم من مدرسة هارفرد للصحّة العامة.

(١٣) هذا ما ذكرته صحيفة «الغارديان» ٢٨ آذار/ مارس ١٩٩١.

(١٤) من «تأثير حرب الخليج على الأطفال في العراق: دراسة حول سيكولوجيا الطفل» كتبها كل من الدكتورين آثيل ديريغروف ومابن راوندالين في ٢٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٩١. أنظر أيضاً، الملخص التنفيذي، «الصحة والخدمات الاجتماعية في العراق بعد أزمة الخليج: تقييمات في العمق»، ص ٢٤ ـ ٢٥.

(١٥) «ميثاق ٩١» حملة نظّمت من حول وثيقة مؤلفة من ١٤٠٠ كلمة تدعو، بين أشياء أخرى، إلى إيقاف عقوبة الإعدام وإلغاء التجنيد الإجباري. وجعل ٢ بالمئة حدّاً أعلى للنفقات العسكرية من مخصصات الناتج القومي الإجمالي وأن يكون هذا مثبتاً في الدستور. لقد وقّعها عدد يقارب الأربعماية عراقي من المنفيين والمبعدين من كل المجموعات الإتنية والدينية، ومن كل المراتب الاجتماعية والانتماءات السياسية المختلفة جداً، ووضعوا أسماءهم تحت «ميثاق ٩١» الذي نشر في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٢. نسخة من الميثاق بخمس لغات (العربية، الكردية، الأشورية، والإنكليزية والتركمانية) مع نسخة بلائحة التواقيع نشرت في ميثاق ٩١. ص.ب ٢٧٢٤ لندن W24XS.

(١٦) مقتبسة عن «الواشنطن بوست»، ٢ آذار/ مارس ١٩٩١، ص أ ١٣.

(١٧) «النيويورك تايمز»، ١١ حزيران/ يونيو ١٩٩١.

(١٨) أنظر سمير الخليل: «النصب التذكارية في العراق» (لندن. اندريه دويتش ١٩٩١).

(١٩) أنظر الفصل ٤.

(٢٠) «وضع القسوة أولاً هو.... مسألة مختلفة جداً عن الإنسانية المجرّدة. إن كره القسوة أكثر من أي شر آخر يقتضي رفضاً متطرفاً لكل الأعراف الدينية والسياسية. وهذا يحكم على المرء بحياة مليئة بالشك، وعدم القرار والاشمئزاز وغالباً كراهية البشر. إن وضع القسوة في المقام الأول لم يجر اختباره إلا نادراً، وهو لم يناقش غالباً. إنه، في حال تأمله الفلاسفة، تهديد عميق جداً للمنطق». جوديث شكلار، «شرور عادية» (كامبردج. هارفرد يونيفرستي برس. ١٩٨٤) ص ٨٠.

(٢١) «نيوزويك» ١٨ آذار/ مارس ١٩٩١. أنا مدين لصديقي لورنس وشلر لأنه لفت انتباهي إلى هذا الموضوع ودلالاته. حوارنا عن موضوع نصب مايا لين التذكاري لحرب فيتنام، والنصب التذكارية عموماً، وحرب الخليج، قدمت لي الحافز لأكتب هذا الفصل بالطريقة التي كتبته بها.

مكتبة الفكر الجديد

العراق إلى أين؟

(١) معظم المثقفين العرب غير العراقيين أدركوا ماذا كان يجري بالعراق في آذار ١٩٩١ على غرار وزير خارجية الأردن، ورئيس بعثه في محادثات السلام في الشرق الأوسط، كمال أبو جابر الذي أفشى من غير تفكير في إحدى المقابلات: «بحق الله ان العملاء الإسرائيليين موجودون في كل مكان في شمال وجنوب العراق» و«العملاء الإيرانيون هم في كل مكان... تحت غطاء مساعدة العراق». إن كان أبو جابر غير فطن إلى درجة كافية ليقول أشياء كهذه علناً، فإن آلافاً آخرين كانوا يفكرون كذلك في السر. كانوا يفكرون بهذه الطريقة، لأنها كما سوف نرى، تتعايش تعايشاً حميمياً مع كل ما كانوا يقولونه خلال أزمة الخليج. استشهادات أبو جابر مأخوذة من مقابلة أجراها معه جون بلايك لشبكة بي.بي.سي BBC «أفريمان» فيلم بعنوان «الشيطان الذي نعرفه»، والذي بث في المملكة المتحدة صيف ١٩٩١. أنا مدين لجون بلايك للسماح لي باستخدام النص الذي اقتبست عنه هذا الهامش.

(٢) إن اعتماد البعثيين على التكريتيين في أعلى مراتب السلطة لا يكفي ليجعل الدولة التي بنوها طائفية. فميزة أي دولة تتصل ببنيتها «الشرعية» والبرنامج الإيديولوجي الذي تخدمه. وفيما القومية العربية تجمعها صلة ما بالتقاليد السنّية، لا يوجد، نقولها للمرة الثانية، في القومية العربية أي شيء يستثني الشيعة، ولهذا السبب أصبح العديد منهم عروبيين في الستينات والسبعينات. من وجهتي النظر الإيديولوجية والكيانية على حد سواء، ليس هناك إذاً ما يسمى بالخاصيّة «السنّية» في الدولة البعثية التي يرئسها صدّام حسين. إن المشكلة هي في الطبيعة البعثية بحدّ ذاتها، وفي كل أولئك الأعضاء من المعارضة العراقية الذين يصرّون على اعتبار الدولة البعثية سنّية، أو علمانية، وهم بتصرفهم هذا يغذّون نار الطائفية المستقبلية التي يمكن أن تمزق العراق إرباً.

(٣) هذه المجموعة الخاصة من القرى والكنائس والأديرة المدمرة كانت وصفت بدقّة في مذكرة، بتاريخ ١٨ نيسان/ أبريل ١٩٨٨ وزّعتها، في الأمم المتحدة ومنظمة العفو الدولية، الحركة الديمقراطية الأشورية. من أجل تقرير عن إعدام العراقيين المسيحيين أنظر «ضحايا كردستان الآخرون»، مجلة «نيوزويك»، ١٧ حزيران/ يونيو ١٩٩١، ص ٣٣.

(٤) الحملة الإعلامية الإيرانية في بداية الحرب العراقية - الإيرانية تحدثت عن «عرب يطعنون بالظهر» وهي إشارة إلى «خيانة» الحسين من قبل أهل العراق سنة ٦٠ هجرية. أنظر مقالة أمير طاهري في «الإنترناشيونال هيرالد تريبيون» في ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٠.

(٥) هذه الشكوى ليست فقط مضحكة ومضخّمة، بل هي كذلك من دون أي أساس. لقد قمت بدراسة مجموعة من المقالات التي نشرت في الصحافة الغربية عن أمور تتعلّق بالأكراد ما بين ١٩٨٦ و١٩٨٩ كانت جمعتها جمعية إنسانية كردية في باولو ألتو بكاليفورنيا تحت عنوان «كردستان تحترق». حتى العام ١٩٨٨ كانت المقالات التي تتناول معاناة كردستان قليلة، ومعظمها يتعلّق بالحرب العراقية - الإيرانية، ولم يكن هناك مطلق تلميح إلى الإبادة الجماعية. عام ١٩٨٨ جذبت المسألة الكردية انتباه الصحافة الغربية - ويعود ذلك بنسبة كبيرة إلى الهجوم الكيميائي في آذار/ مارس على حلبجة والذي قتل خمسة آلاف شخص. كلمة إبادة جماعية ذكرت للمرّة الأولى في ٣ نيسان/ أبريل ١٩٨٨ في صحيفة «سان خوسيه مركوري نيوز». عام ١٩٨٨ قام صحافي أو اثنان بمقارنة المحنة الكردية بالمحرقة اليهودية. ذكرت المقالات ترحيل القرويين الأكراد إلى جنوب العراق، غير أن وجهتهم لم تعرف، وكذلك مصيرهم. خلال أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨ كتبت مقالات حول كردستان أكثر من أي وقت مضى. مع بداية تشرين الأول/ أكتوبر انخفض عدد المقالات مرة جديدة بشكل دراماتيكي. لست أمدح أو أنتقد أحداً بسبب هذا، انه بوضوح حال الدنيا.

مكتبة الفكر الجديد

(٦) أنظر على سبيل المثال مقالة محمّد عبد الجبار «الديمقراطية مجموعة آليات لتنظيم الحياة السياسية» في «البلاد» رقم ٩٠، ص ٤٨ ـ ٥٠.

(٧) أنظر «تأسيس البعث العراقي» الفصل ٦ «جمهورية الخوف»، من أجل فكرة «الإيمان» في العقيدة البعثية في الأربعينات.

(٨) اكتشفت أن الزعيم الكردي مسعود برزاني يمتلك حكمة استثنائية، وذلك عندما أجريت مقابلة معه في شمال العراق في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١. قليلة هي العائلات العراقية التي تعرضت لمعاناة شبيهة بتلك التي تعرضت لها عائلة برزاني. غير أنه كان واضحاً ان الحد الذي وصل إليه الانهيار الأخلاقي داخل العراق، وفقدان الثقة بين العراقين، كما أوضح قائلاً، هي مسائل أشد إلحاحاً في ذهنه: «إن الألم عميق بيننا وبين الحكومة، وحتى بين بعض الجماعات العراقية، والشفاء من هذا أمر صعب جداً. ولكن لو اتخذنا طريق التسامح، وحاولنا فتح صفحة جديدة، فسوف نعيش للجيل القادم. يجب أن يكون هناك تسامح من أجل أطفالنا، وإلاّ سوف نغرق في بحر من الدماء». غادرت ذلك اللقاء وأنا أفكر أن العراقيين لا يمكن أن يقوموا بأفضل من الإتيان بشخص كهذا ليشرف على إعادة تأسيس عراق ما بعد صدّام حسين.

(٩) ت. س. إليوت «بيرنت نورتون» ـ «رباعيات أربع» (نيويورك: هاركورت بريس جوفانوفيتش، ١٩٨٨) ص ١٤.

(١٠) كان حميد قد قرأ بيكيت وهو يشير إلى عمله «بانتظار غودو». ولكن، في خلفية ذهنه، هل كان يفكّر أيضاً بالإمام الشيعي الثاني عشر «المهدي المنتظر»؟ بحسب العقيدة الشيعية، أن الإمام الثاني عشر لم يمت، بل اختفى، وظهوره مجدداً سوف يكون علامة لبدء عصر مبنيّ على الحق. إن ما أودّ قوله أن حميد ينتظر «غودو» خاصته كما ينتظر شيعة العراق «المهدي» خاصتهم. إن الأمل الحقيقي بالمستقبل يبدأ مع هكذا انتقالات ثقافية متداخلة، وعلى وجه أخص عندما تدخل في نسيج ذهن منفتح من نوع الذهن الذي يمتلكه حميد.

الباب الثاني

٧ ــ من أنا؟

(١) أسامة واثق «بعد أن انكشفت الغمامة»، «العرب» يومية سياسية تصدر في لندن، ٢٢ نيسان/ أبريل ١٩٩١.

(٢) كوني مولوداً في بغداد فهذا ما يزال يشكل قيداً، بغض النظر عن جواز السفر الذي يحمله المرء. في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١، وفيما كنت عائداً من رحلتي إلى شمال العراق من طريق تركيا، رفضوا أن أدخل مجدداً إلى الولايات المتحدة الأميركية في مطار لوغان، وأعادوني إلى لندن. لم يستطع ضابط الهجرة أن يتقبّل واقع اني ولدت في بغداد، وعلى جواز سفري سمتا دخول إلى تركيا ليس بينهما، زمنياً، أي بلد آخر، وكنت أحمل حقيبة مليئة بالصحف العربية والوثائق. ولحسن الحظ، وبمساعدة مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفرد، وكينيث روس من منظمة حقوق الإنسان «واتش»، لم يكن علي أن أنتظر أشهراً في لندن حتى أوضح الأمر برمته.

(٣) أنظر «قانون الإصلاح في ١٩٧٧» المناقش في الفصل ٤ من «جمهورية الخوف». أنظر أيضاً الجذور التاريخية لتلك القوانين في الإيديولوجية البعثية للأربعينات. الفصل ٦.

مكتبة الفكر الجديد

(٤) أستطيع أن أفكر باستثناءات شخصية لهذا القانون مثل هشام ملحم، مراسل «السفير» في الولايات المتحدة، الذي ينظر إليه العراقيون بتعاطف، وحازم صاغية الصحافي في «الحياة» الذي كتب عن الأكراد عندما لم يفعل ذلك أي عربي آخر. أما وضّاح شرارة، أستاذ العلوم السياسية في الجامعة اللبنانية، فوعى على الدوام كم كانت محورية بالنسبة للأزمة، تلك الميزة المنفّرة للنظام العراقي، وكذلك حال صلاح زغيدي الباحث السوسيولوجي والمدير السابق للاتحاد العام للعمّال التونسيين، ووليد خالدي من جامعة هارفرد، ولطفي مشعور رئيس تحرير «الصنارة» وهي مجلة أسبوعية عربية للعرب الإسرائيليين، تصدر في حيفا، وسلمان مصالحة الشاعر الإسرائيلي ـ العربي، والكاتب الفلسطيني الساخر إميل حبيبي وشبلي الملّاط من مؤسسي اللجنة الدولية من أجل عراق حر. لا شك أن هناك آخرين قد أغفلتهم.

(٥) واصفاً المشهد إياه في المغرب، كتب صلاح زغيدي عن المثقفين المغاربة ممن «يبدو أنهم أدركوا أخيراً تلك «الصلة بالجماهير» ممن كان بعضهم ـ الأكثر التزاماً ـ يأمل به... في تونس... معظم المثقفين أيّدوا كلياً سياسات صدّام حسين. أصبح العديد منهم مقاتلين عاديين، مندفعين بحماسة وأحياناً بانفعالية كبيرة في تظاهرات مؤيّدة لعراق صدّام حسين، ومن غير أي تأمل أو تردد». من «من نضج الفكر إلى الانحراف السياسي: رسالة مفتوحة إلى هشام جعيط» في «دفاتر الشرق» Les Cahiers de l'Orien (حزيران/ يونيو ١٩٩١) ص ٣٢. إني مدين إلى البروفسور أفرام إيدوفيتش الذي لفت انتباهي إلى هذه المقالة الهامة.

(٦) «الحافز الحقيقي الضمني للانفجار العاطفي الذي أثارته حرب الخليج يستحقّ أن يدرس بعناية لكن يمكن للمرء أن يكون واثقاً من ان «رفض الغرب» وهو الموضوع الأساسي للمدرسة «الأصولية» الفكرية في السنوات القليلة الماضية، وعلى الأخص في تونس والجزائر، والكراهية العضوية لعرب الخليج، الذين يعتبرون آخر الأثرياء الجدد «نوفو ريش»، والمتغطرسين كما يفترضونهم، قد لعبا دوراً أساسياً في ذلك. أضاع المثقفون المغاربة أنفسهم كلياً في حرارة المشاعر العامة الصافية التي تغذّوا منها... أما المنطق والبصيرة، والتحليل الموضوعي، والحس النقدي فقد اختفت كلها وكأنما بسحر ساحر». راجع المصدر السابق، ص ٣٢ ـ ٣٣.

(٧) حادثة حقيقية في قصة قصيرة غير منشورة لكاتبها أحمد تيتنشي (اسم مستعار) وتدعى «ذي يسترو».

(٨) إن قومية تعليق واثق في «العرب» والذي افتتحت به هذا الفصل هي من هذا النوع. إن سمير الخليل لا يملك صفة «العروبة» لأنه لا يضع اللوم على الشيطانين الحقيقيين: الولايات المتحدة وإسرائيل.

(٩) «العرب» ٢٤ حزيران/ يونيو ١٩٩١.

(١٠) ساطع الحصري المفكّر القومي العربي الكبير في سنوات مرحلة ما بين الحربين، شدّد على أهميّة اللغة كأساس في النظرية القوميّة.

(١١) إدوارد سعيد «المثقفون والحرب» «ميريب ريبورتز» Merip Reports رقم ١٧١ (تموز/ يوليو ـ آب/ أغسطس ١٩٩١) ص ١٦. أنظر المقدّمة. أن أُدعى بـ «كاره نفسه» وهذا ما تعرضت إليه في عدة مناسبات، هو اشتقاق منطقي من طريقة سعيد في تصوير أفكار الغير. إن مناقشة لهذه المواضيع التي طرحتها مقابلة سعيد، كتبتها أفسانه نجم آبادي بعنوان «حرب سعيد على المثقفين» وتبعها جواب سعيد، ونشره كلاهما في «ميريب ريبورتس» عدد رقم ١٧٣ (تشرين الثاني/ نوفمبر ـ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١) ص ٢.

(١٢) من رواية جون سيمبسون في «من منزل الحرب» ص ١٠.

(١٣) وليد خالدي، «أزمة الخليج: مصادر وعواقب» (واشنطن: مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٩١) ص ٤.

(١٤) «تقدم البعثية الأمّة العربية كمعطىً ينبغي أن يُجعل واقعاً ملموساً في التاريخ، وأن يترجم إلى حقيقة

مكتبة الفكر الجديد

سياسيّة. إن الأمة العربية ليست واقعاً. إنها ليست موجودة الآن كما كانت موجودة من قبل... فشلت البعثية في كسب جمهور كبير بين الجماهير العربية. ولم يكن لديها أي تأثير على الإنتجلنسيا الأكثر انفتاحاً ووعياً لاتجاهات الفكر في كل أنحاء العالم... إن المثقفين لا يستطيعون من دون خيانة أنفسهم، أن ينتموا إلى إيديولوجية قومية محكومة بالفقر، وتحتوي بذوراً للفاشية». هشام جعيط كما استشهد به صلاح زغيدي «في نضج الفكر...» ص ٤٠ ـ ٤١.

(١٥) هشام جعيط في مقابلة مع مجلة «الإكسبرس» ٧ شباط/ فبراير ١٩٩١. بين كتب جعيط الكثيرة، «الهوية والمستقبل العربي ـ الإسلامي».

(١٦) مجلة «الإكسبرس» ٧ شباط/ فبراير ١٩٩١.

(١٧) استشهاد من صلاح زغيدي «في نضج الفكر...» ص ٤٠.

(١٨) «الدستور» ٧ آذار/ مارس ١٩٩١.

(١٩) أحمد حاذق العرف يكتب في الصحيفة التونسية «الشعب» حيث له عمود أسبوعي. وقد استشهد به زغيدي في «في نضج الفكر...» ص ٣٤.

(٢٠) استشهاد من «الفاينينشيال تايمز» ٢٧ شباط/ فبراير ١٩٩١.

(٢١) الاستشهاد من مؤنس الرزاز، من الأسوشيتيد برس في عمّان، كما هو مقتبس في «البوسطن غلوب» ٢٧ شباط/ فبراير ١٩٩١.

(٢٢) أنظر «نيوزويك» ٧ كانون الثاني/ يناير، ص ٢٢.

(٢٣) الكاتب ومترجم أعمال فرويد إلى العربية جورج طرابيشي، هو مثال على هذا النموذج من التفكير. إني أتبنى منطقه حول أزمة الخليج في الفصل التالي.

(٢٤) رامي. ج. خوري «فاكهة الحرب المرّة» معاد طبعها في «ذي غالف ريدر: تاريخ، وثائق، آراء». حرره ميخا. ل. سفري وكريستوفر سيرف (نيويورك: راندوم هاوس ١٩٩١) ص ٤٠٣ (سنوف نشير إليه من الآن فصاعداً بتسمية «ذي غولف ريدر»).

(٢٥) أنظر مقالة جوديث ميلر «لعبة سوريا: ضع وجهاً غريباً» في «النيويورك تايمز ماغازين» ٢٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢، ص ١٩.

(٢٦) فوّاز طرابلسي «حصاد الحرب» في «ميريب ريبورتس» (تموز/ يوليو ـ آب/ أغسطس ١٩٩١) ص ٣٢.

(٢٧) استشهد به في مقالة بقلم داني روبنشتاين في «هآريتز» ٤ آذار/ مارس ١٩٩١. استخدمت ترجمة إسرائيل شاهاك في مجموعته من الصحافة العبرية.

(٢٨) نشر في لندن في مجلة «الناقد»، عدد ٣٣ (آذار/ مارس ١٩٩١) ص ٤ ـ ٥ كلمة «متاه» تجمع معاني الافتخار والتسامي والانقياد بلا هدى، وانعدام الوجهة، والضياع في أرض مقفرة بلا دروب. إن العنوان إذاً يضع يده بشكل ممتاز على شعور الغضب والقلق العميق اللّذين يميّزان الرفض العربي واللذين رأيناهما سابقاً في شعر نزار قباني (الفصل ١).

(٢٩) سميح القاسم «نحن الآن وثيقة تاريخية» منشورة في «الناقد»، عدد ٣٠ (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٠) ص ٤ ـ ٥.

(٣٠) ميلان كونديرا، «فن الرواية» (نيويورك: غروف برس ١٩٨٨) ص ١٣٥.

(٣١) مقالة منصف مرزوقي نشرت إبان الحرب تحت عنوان «المشرق الضال» «لوموند» ٦ شباط/ فبراير ١٩٩١. يبدأ «وأنت تراه من شواطىء المتوسّط الجنوبية، فإن حرب الخليج تتشكّل كمقدّمة لطلاق ما بين الغرب والعالم العربي...». في المقالة يشكر مرزوقي السيد شفينمان وهو اليساري في الحزب الاشتراكي الفرنسي، والذي كان وزير دفاع في حكومة ميتران، وهو شهير ببيعه أسلحة إلى العراق على

مكتبة الفكر الجديد

نطاق واسع طوال الثمانينات. لماذا؟ لأن شفينمان استقال من منصبه كوزير للدفاع تأييداً للعراق. من أجل المزيد عن منظمة «رابطة حقوق الإنسان التونسية» أنظر الفصل ١.

(٣٢) كما كتب صلاح زغيدي في مقالته «في نضج الفكر...» في «دفاتر الشرق» Les Cahiers de l'Orient ص ٣٥.

(٣٣) أنظر على سبيل المثال مقالة الكاتب السوداني الدكتور حسن مكي محمد أحمد، التي نشرت في صحيفة «القدس العربي» الصادرة في لندن في ٢ أيار/مايو ١٩٩١. المقالة تستعرض الحجة القائلة ان «الغرب هو الخاسر الأكبر» في «أم المعارك» لأنه «ومهما كانت نتائجها الآنية من تدمير واحباط إلاّ أنها في نتائجها النهائية تمثّل إضافة إلى مشروع الإحياء الإسلامي». هذه هي بالطبع نسخة أكثر فجاجة لموقف جعيط. كذلك لم تكن الإشارة إلى الحملات الصليبية بأية حال حصراً على الكتّاب المسلمين. أنظر على سبيل المثال مقالة بعنوان «ليس لنا خيار سوى قتال أميركا» بقلم الفيلسوف حسن عصفور «القدس العربي» ١٨ - ١٩ آب/ أغسطس ١٩٩٠.

(٣٤) من مجموعته بعنوان «عثرات الطائر» (بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥) ص ٧.

(٣٥) هذا عنوان مقالة بقلم ميشيل عفلق، نشرت للمرة الأولى في «في سبيل البعث» (بيروت. دار الطليعة ١٩٥٩) ص ٢٩ - ٣٠.

(٣٦) جزء من مقابلة مع فؤاد عجمي، منقولة في مقالة عجمي، «الصمت في الثقافة العربية»، «ذي نيو ريبابليك» ٦ نيسان/أبريل ١٩٨٧.

(٣٧) الاقتباس من «يوميات حصار بيروت ١٩٨٢»، قصيدة لأدونيس عن بيروت، منشورة في أنطولوجيا للشعر العربي بعنوان «ضحايا الخريطة» (لندن: دار الساقي ١٩٨٤) ص ١٣٤.

(٣٨) نشرت أساساً في «دير شبيغل» مقالة أنزنسبرغر في الإنكليزية في «اللوس أنجلس تايمز» ١٤ شباط/فبراير ١٩٩١، جزء ب، ص ٧.

(٣٩) ذكر صلاح زغيدي أن ٣٦ مثقفاً فرنسياً قاموا بنشر بيان في آب/اغسطس ١٩٩٠ يشجبون فيه ضم الكويت من قبل العراق والتحركات العدائية الأميركية في الخليج، على حد سواء. لقّبوا بـ «مناصري الأغراب» و«الطابور الفرنسي الخامس» و«عملاء الامبريالية والصهيونية»، «لوكاييه دو لوريان» (حزيران/ يونيو ١٩٩١) ص ٣٤.

(٤٠) كلمات عبد الرحمن حفيدي في «ليبراسيون» ٢ آذار/مارس ١٩٩١، كما هي مقتبسة في «لوكاييه دو لوريان» (حزيران/يونيو ١٩٩١) ص ٣٤.

(٤١) من مقالة طوني واكر «المناضلون المسلمون يريدون صدّام خليفة» «الفاينتشيال تايمز» (١٠ كانون الثاني يناير ١٩٩١).

٨ ــ خرافات قومية جديدة

(١) فؤاد زكريّا «الثقافة العربية وأزمة الخليج» (لندن: «كويت ريسرتش كومباني» ١٩٩١) ص ٣٠.

(٢) أشير إلى وجهات نظر هؤلاء المفكرين على مدى هذا الكتاب.

(٣) رشيد خالدي «الفلسطينيون وأزمة الخليج» في «ذي غولف ريدر» ص ٤٢٣.

(٤) سمير أمين «الرهانات الحقيقية في حرب الخليج»، «مونثلي ريفيو» (تموز/يوليو - آب/أغسطس ١٩٩١) ص ١٥.

(٥) أنظر فصليّة «أراب ستاديز كوارترلي» المجلد ١٣ الرقم ١ و ٢ (شتاء وربيع ١٩٩١) ص ٥.

(٦) إدوارد سعيد «عن الربط، اللغة، والهويّة» في «ذي غولف ريدر» ص ٤٣٩.

مكتبة الفكر الجديد

(٧) من محضر مؤتمر عقد في آذار/مارس ١٩٩١ وحضره أكاديمي لبناني وأكاديمي عراقي، و١٣ أكاديمياً من شمال أفريقيا وهم أكاديميون في علوم الاجتماع. نشر بعنوان «حرب الخليج ومستقبل العرب: حوار ومواقف» (تونس: دار سراس ١٩٩١). (من هنا فصاعداً سوف أشير إليه بتسمية «حرب الخليج») ص ٩٣. لمراجعة وجهة النظر نفسها، لكن بمجموعة ثالثة من التواريخ، أنظر مقالة فتح الله والفلو وهو أستاذ في علم الاقتصاد بجامعة محمد الخامس في الرباط. ص ٥٠.

(٨) لا شك أن الولايات المتحدة دعمت صدام حسين بشكل تام حتى إجتياح الكويت، وهذا الدعم شجّع بالتأكيد الزعيم العراقي على المضي في خططه. ولكن لماذا ينبغي أن يكون هذا الدعم السبب الذي دفعه إلى إجتياح الكويت بالدرجة الأولى؟ ظهر مدى الدعم الأميركي للعراق حتى ٢ آب/اغسطس ١٩٩٠ في التقرير الخاص النهائي بعنوان «عراق غايت: كيف ساعدت إدارة بوش صدّام حسين على شراء أسلحته الحربية، ولماذا ألزم دافعو الضرائب الأميركيون بالفاتورة؟». (يو.إس.نيوز اند وورلد ريبورت). ١٨ أيار/مايو ١٩٩٢.

(٩) كتب إدوارد سعيد في مقالة نشرت في ٧ آذار/مارس ١٩٩١ عندما كان الهجوم المضاد العراقي على الإنتفاضة التي إندلعت في ٢٨ شباط/فبراير على أشدّه، «إن الزعم بأن العراق قصف مواطنيه بالقنابل الكيميائية تكرر غالباً، وهذا الزعم هو في أفضل الأحوال غير أكيد. هناك على الأقل تقرير حربي واحد صادر عن كلية الحرب، War College، أعدّ في حين كان العراق حليفاً للولايات المتحدة وهو يزعم ان إيران هي من قصف الأكراد في حلبجة بالأسلحة الكيميائية. عدد قليل من الأشخاص يأتي على ذكر تقارير كهذه في وسائل الإعلام اليوم». ـ لندن ريفيو أوف بوكس. (٧ آذار/مارس ١٩٩١) ص ٧. منذ متى كان سعيد من المعجبين بتقارير «وار كوليدج» الأميركية. إنه أمر جدير بالثناء سحب وثيقة كهذه عديمة المصداقية من الخزانة بهدف إظهار تاريخ الرياء الأميركي في ما يتعلق بأمر العراق. غير أن سعيد يختار أن يصدّق أن في إمكانها حقاً أن تزرع الشك في حقيقة، لا تقبل الجدل نهائياً ـ ومعروفة منذ سنوات ـ وهي أن العراق كان قد بدأ قصف القرى الكردية بقنابل الغاز بهجوم على القرية الكردية شيخ ويسان في نيسان/أبريل ١٩٨٧. في تلك الأيام، كان النظام لا يزال يختبر ألعابه الجديدة: جرت عمليات قصف شاملة ومنظّمة بالأسلحة الكيميائية طوال ١٩٨٨ وقد غطّت أخبارها كل الصحافة العالمية.

(١٠) مثل هيتشنز، أعتقد أنه من الأفضل الاستنباط منطقياً على قاعدة افتراض نوايا شائنة لكل الدول والحكومات. ولكن إنطلاقاً من البراهين التي يقدّمها لنا، من غير المنطق أن نستنتج أن ما عنته غلاسبي «فعلياً» كان «إن مشكلة كبيرة مع حدود الخليج غير السويّة هي حقيقة أنها كانت رسمت إنطلاقاً من رسم تخطيطي للاستعمار البريطاني قديم العهد»، أنظر هيتشنز، «لماذا نحن عالقون في الرمل؟»، «هاربرز ماغازين» (كانون الثاني/يناير ١٩٩١). إن رواية مختلفة عن هذا اللقاء يقدّمها جون سيمبسون في «في منزل الحرب» ص ١٠١ ـ ١٠٥. يبرهن سيمبسون بقوة انه خلال وقت اللقاء، كان صدّام هو نفسه: «لا يملك أية فكرة واضحة عمّا ينوي أن يفعله» ص ١٠٢.

(١١) أنظر أيضاً نقدي لنعوم شومسكي في قسم آخر من الفصل.

(١٢) خلال رحلة إلى شمال العراق في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١، أعطاني مثقف كردي نسخة من المجلّة البعثية الموازية لـ «تايم ماغازين». كانت تحتوي مقالاً يحيّي «المفكّر الأميركي شومسكي» على أساس أنه «فضح ممارسات الغرب المنافية لمبادىء الديمقراطية»، وتجاهلت المقالة كل ما قاله شومسكي في الماضي عن قذارة البعث، وشددت على «الفجوة بين القول والفعل» التي احدثها شومسكي في صفوف الليبراليين الغربيين. ومن المثير للسخرية أنه تحديد جيد للمهمّة التي وضعتها نصب عيني في هذا الكتاب،

مكتبة الفكر الجديد

إنما مع استبدال الليبراليين الغربيين بالمثقفين العرب. «ألف باء» العدد ١٢٠٨ ـ ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١. ص ٦.

(١٣) فوّاز طرابلسي، «ميريب ريبورتس» (تموز/يوليو ـ آب/أغسطس ١٩٩١) ص ٣٠.

(١٤) فصلية (أراب ستاديز كوارترلي). الصفحتان ١٤ و٢٠.

(١٥) إدوار سعيد في «ذي غولف ريدر» ص ٤٣٩.

(١٦) مأخوذة من نص/قصيدة بعنوان «خواطر تحت دعس الخيل» نشر في «عودة الاستعمار: من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج». بقلم مجموعة من الكتّاب. (لندن: منشورات رياض الريّس ١٩٩١)، ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

(١٧) المرجع ذاته ص ١٧٢.

(١٨) روى فيل ريفس القصة بالتفصيل في «المنطق القاسي للقرآن والكلاشينكوف»، صحيفة «الإندبندنت» ١٢ شباط/فبراير ١٩٩١.

(١٩) أنظر استطلاع الرأي العربي لديفيد هيرست «إذلال صلاح الدين يضيء على مؤيديه»، صحيفة «الغارديان» ٢٧ شباط/فبراير ١٩٩١.

(٢٠) جاك بيرك، «ولادة العرب الجديدة: الألم والنشوة». (لندن: دار الساقي ١٩٨٣)، ص ٤٩. يشير بيرك إلى ان صلاح الدين أوحى، في ١٩٧٠، بخمسين كتاباً أدبياً جديداً.

(٢١) جورج طرابيشي، «جريمة الغرب المزدوجة»، في كتاب «عودة الاستعمار» ص ١٦٢ ـ ١٦٣. خطرت المقارنة ذاتها مع بسمارك لمحمّد سيد أحمد: «ليس سراً لدى أي عربي أن نظام صدام حسين هو من أشدّ الأنظمة قمعاً في العالم... [لكن] لماذا لا يمكن لصدام أن يفعل من أجل الأمة العربية ما فعله بسمارك من أجل ألمانيا؟ «ميريب ريبورتس» (كانون الثاني/يناير ـ شباط/فبراير ١٩٩١) ص ١٧.

(٢٢) في مجموعة من خمس مقالات نشرتها صحيفة «القدس العربي»، قام محمّد عابد الجابري، واضع الدراسة الذائعة الصيت التي بعنوان «تكوين العقل العربي»، بتأييد المشروع السياسي لحزب البعث العراقي ودعمه بالحجج. وفي مقالة حول موضوع «من هو صدّام حسين: تجربة الماضي وآفاق المستقبل»، قدّم الجابري الزعيم العراقي على أنّه قائد صاحب رؤى وله «مشروعه القومي في التحرر والتقدم والوحدة بما في ذلك تمكين الشعب الفلسطيني من حقه في أرضه وتقرير مصيره». غير أنّه لم يذكر حتى مرّة واحدة سجلّ النظام العراقي الحافل في مجال حقوق الإنسان. نشرت المقالات في ٣١ كانون الثاني/يناير ١٩٩١، ٢ ـ ٣ شباط/فبراير ١٩٩١، ٥ شباط/فبراير ١٩٩١، ٩ ـ ١٠ شباط/فبراير ١٩٩١ و٣ آذار/مارس ١٩٩١.

(٢٣) الياس خوري «الحقيقة والوهم»، صحيفة «السفير»، ١ أيلول/سبتمبر ١٩٩٠، ص ١٠.

(٢٤) أجرى المقابلة حازم صاغية ونشرت في صحيفة «الحياة» في ٤ نيسان/أبريل ١٩٩١.

(٢٥) انتخب المؤتمر خير الدين حسيب، مدير مركز «دراسات الوحدة العربية» وهو مدير سابق للمصرف المركزي العراقي، أميناً عاماً له، مع أمانة سر مؤلفة من ٢٥ عضواً ذوي توزّع جغرافي واسع لإنجاز العمل (عراقيان، أردني واحد، ثلاثة فلسطينيين، ثلاثة لبنانيون، سوري واحد، يمني واحد، عشرة من شمال أفريقيا، وأربعة من دول الخليج). من بين الموقّعين الأهم هشام شرابي وهو أستاذ في جامعة جورجتاون، والفيلسوف المغربي محمد عبد الجابري. كل الاستشهادات من نسخة مصوّرة عن البيان الذي أصدره المؤتمر.

(٢٦) لماذا على سبيل المثال، يتوجب على مفكر نقدي مثل هشام شرابي أن يغضب ويسخط مما فعلته القوات المتحالفة بالجيش الجمهوري الصدّامي؟ في مقالة كتبت بعد وقت طويل من قيام الحرس الجمهوري

مكتبة الفكر الجديد

بسحق إنتفاضة آذار/مارس بوحشية، وبقتل عدد كبير من المواطنين العراقيين الأبرياء، وهو عدد يفوق كل الذين قتلهم الأميركيون من جنود الحرس الجمهوري، اختار أن يركّز على خسائره، كبرهان على الإجرام الأميركي في حرب الخليج. أنظر «الجريمة الأميركية ومبادرة المستر بيكر». «القدس العربي» ٢٩ نيسان/ أبريل ١٩٩١.

(٢٧) «بيان إلى الأمّة» نسخة، ص ٤.

(٢٨) راجع أيضاً صلاح زغيدي في مقالته «في نضج الفكر...» في «لوكاييه دو لوريان» (حزيران/ يونيو ١٩٩١) ص ٣٥.

(٢٩) من «ميثاق ٩١». البند ٥. أنظر أيضاً الفصل ٦ والحاشية ١٥.

(٣٠) إبراهيم أبو لغد «سياسة الربط» في «ما بعد العاصفة: قراءة لأزمة الخليج»، حررها ا.ب.بنّيس وم. مشبّك (نيويورك: أوليف برانش برس ١٩٩١) ص ١٨٤، ١٨٨ - ١٨٩.

(٣١) محمد حلاّج: «إتخاذ مواقف: الفلسطينيون وأزمة الخليج». في «جورنال أوف پالستين ستاديز»، مجلد XX رقم ٣ (ربيع ١٩٩١) ص ٤٥.

(٣٢) استشهاد من «هاداشوت» ١٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠.

(٣٣) يستخدم صدّام حسين من الحين والآخر آيات قرآنية. أنظر الفصل ٥.

(٣٤) من «ذي وومنز ريڤيو أوف بوكس» **The Wamen's Reviews of Books** مجلد VIII الأعداد ١٠ - ١١ (تموز/يوليو ١٩٩١) ص ١١ - ١٢.

(٣٥) استشهاد من يزهار بر من «هآريتز» ٢٢ آذار/ مارس ١٩٩١. لقد استخدمت الترجمات التي أمّنها لي إسرائيل شاهاك في تقريره رقم ٦٧ بعنوان «الفلسطينيون في إسرائيل يناقشون الديمقراطية في مناخ من النقد الذاتي».

(٣٦) أنظر مقابلة حبيبي الهامة مع هدى الحسيني في صحيفة «الشرق الأوسط» - ٣ أيار/مايو ١٩٩١.

(٣٧) في كلمة قدمها في غاليري الكوفة في لندن في ١٧ أيار/مايو ١٩٩١، انتقد حبيبي مجمل المثقفين العرب لعجزهم عن ملء «الفراغ» الذي نشأ بفعل أزمة الخليج. سأل في مقالة لاحقة، لماذا حدث هذا؟ إني أرى أن الخطيئة تكمن في إهمال المثقفين العرب المبدعين، بإستثناء مجموعة صغيرة هامشية، الدور الذي وجدوا أصلاً من أجله، وهو بالتحديد حماية ضمير شعبهم من الفساد. «القدس العربي» ٢٢ أيار/ مايو ١٩٩١.

(٣٨) أنظر مقابلته مع ي.الغازي في «هآريتز» ٣٠ أيار/مايو ١٩٩١.

(٣٩) أنظر مقالته في «القدس العربي» ٢٠ آذار/مارس ١٩٩١.

(٤٠) إن الفحوى الديمقراطية للوطنية الفلسطينية، غير موجودة كلياً بالطبع في العروبة - الشمولية عند واحد مثل هشام جعيط أو محمد عابد الجابري.

(٤١) طوّرت الحجة نفسها في علاقتها بالخطوة العراقية ضد الكويت وبشكل أوسع في مقالة نشرت في «نيو ستايتسمن أند سوسيتي»، ٣١ آب/أغسطس ١٩٩٠.

(٤٢) محمد حسنين هيكل، «أخرجوا أيها الأميركيون وادخل أيها النظام العربي الجديد» صحيفة «التايمز» ١٢ أيلول/سبتمبر ١٩٩٠. لسبب غير مبرّر خرج هيكل عن صمته الأوّلي الذي دام ستة أسابيع بشأن أزمة الخليج، ونشر رأيه الأول في صحيفة «التايمز» اللندنية.

(٤٣) نعوم شومسكي «عن سياسة الولايات المتحدة في أزمة الخليج» جامعة هارفرد. كامبريدج ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠، سلسلة الكتيبات أوبن ماغازين، وست فيلد ن.ج. ١٩٩١) ص ٢.

مكتبة الفكر الجديد

(٤٤) نعوم شومسكي «نظام العالم الجديد» بايتز كولدج ٣٠ كانون الثاني/يناير ١٩٩١ سلسلة الكتيبات «أوبن ماغازين، وست فيلد ن.ج.» ١٩٩١ ص ٥.

(٤٥) شومسكي «عن سياسة الولايات المتحدة في أزمة الخليج» ص ٢.

(٤٦) المصدر السابق. في الكتيب يبرهن شومسكي أن الولايات المتحدة هي على الدوام ضد الديبلوماسية والمفاوضات، لأن سياساتها غير مقبولة شعبياً في العالم الثالث، وانها سوف تخسر كلياً إذا ما أقلعت عن لجوئها الدائم للقوة والعنف. هذا التأكيد الدوغمائي غير المدعوم بالدلائل نقضته تجربة الإنتفاضة العراقية في آذار/مارس ١٩٩١، عندما قام كل الثوار العرب والأكراد بطلب مساعدة من القوات المتحالفة لاسقاط النظام البعثي.

(٤٧) «حرب الخليج» ص ٢٩.

(٤٨) المصدر السابق ص ٣٤. الحجّة نفسها حاضرة في مقالة سمير الأمين المذكورة سابقاً «الرهانات الحقيقية...»، «مونثلي ريفيو» (تموز/ يوليو ـ آب/اغسطس ١٩٩١) ص ١٦ ـ ١٩.

(٤٩) من نسخة مصوّرة غير منشورة لأحمد الجلبي بعنوان «المال والسلطة في العراق» ٢٠ شباط/ فبراير ١٩٩٠.

(٥٠) أرقام من دونا سميث، «قلق المحللين الأميركيين حيال تكاليف نظام بوش الجديد» رويتر ١٨ آذار/مارس ١٩٩١.

(٥١) أرقام من مارك سومر «ما لا تستطيع الولايات المتحدة أن تتحمّل تكاليفه»، «كريستيان سيانس مونيتور»، ٦ آب/اغسطس ١٩٩١، ص ١٨.

(٥٢) أنظر على سبيل المثال مقالة لإدوارد لوتواك، «هل أميركا على طريق الهبوط؟» في «كومانتري» (آذار/ مارس ١٩٩٢) ص ١٥ ـ ٢١.

(٥٣) أرقام من جايمس ريسن «بوش لن يرفع الضرائب لتمويل الحرب»، «لوس انجليس تايمز» ٢٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٩١، قسم الأعمال، ص ١.

(٥٤) إدوارد سعيد، «بصورة مأسوية، كتاب مغلق إلى الغرب»، «الإندبندنت»، ١٢ آب/أغسطس ١٩٩٠. يوم بدأت حرب الخليج انتقد سعيد الخطوة العراقية بكلام قاس. أنظر مقالته «إمبراطورية الرمل» في «ويك أند غارديان» ١٢ ـ ١٣ كانون الثاني/يناير ١٩٩١. وبينما تضم هذه المقالة نقداً للنظام العربي الحديث من وجهة نظر سعيد للعالم، وهو أمر نرحب به، نراها لا تقدّم أيّة استنتاجات. إن الأولويات الأساسية، في اعتقادي، بقيت هي نفسها، وقد برهنت ذلك معارضة سعيد لمبدأ تدخل التحالف لمصلحة الإنتفاضة العراقية ضدّ صدّام حسين.

(٥٥) سمير الخليل «الغرق في خليج الأكاذيب»، «الإندبندنت»، ٢٥ آب/اغسطس ١٩٩٠.

(٥٦) سعيد «بصورة مأسوية، كتاب مغلق...».

(٥٧) الياس خوري «الدرع الأميركي!» في «السفير» ١٨ آب/أغسطس ١٩٩٠. ص ١٠.

(٥٨) طرابيشي «عودة الاستعمار» ص ١٥٩ و١٦٤.

(٥٩) «حرب الخليج» ص ١١٢.

(٦٠) طرابلسي «حصاد الحرب»، «ميريب ريبورتس» (تموز/يوليو ـ آب/أغسطس ١٩٩١) ص ٣٢.

(٦١) العنوان كاملاً هو «عودة الاستعمار: من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج» بقلم مجموعة من الكتّاب، ومنهم كمال أبو ديب، سميح القاسم، محمد برادة، أنسي الحاج (لندن: منشورات رياض الريّس ١٩٩١).

مكتبة الفكر الجديد

(٦٢) أنظر مقالته «حرب ضد حضارة» التي نشرت في «الغارديان» في ١ نيسان/أبريل ١٩٩١. صدرت المقالة بشكل منقّح ومطوّل في «عودة الاستعمار» صفحة ٣٣ ـ ٤٤.

(٦٣) أنظر المقابلة الطويلة مع كسبار في «الحياة» ٣٠ أيار/ مايو ١٩٨٩ بعنوان «إنهم يقتلون الكتاب [العربي]».

(٦٤) سعيد «بصورة مأسوية، كتاب مغلق...».

(٦٥) خالدي: «أزمة الخليج: مصادر وعواقب» ص ٢.

٩ ـ مشاهد من القسوة والصمت

(١) أحياناً، حتى حين يعدّ عرب تقارير كهذه، فإنها تتعرّض للتجاهل. خلال المؤتمر الوطني ١٩٩١ للّجنة الأميركية ـ العربية المضادة للتمييز (ADC) والتي تزعم انها «منظمة غير متحيّزة مكرّسة للدفاع عن حقوق... الأميركيين العرب»، أعاقت هذه اللجنة مساعي منظمة حقوق الإنسان العراقية التي مركزها واشنطن، ومنعتهم من الحصول على طاولة لعرض كتب أدبهم. (في المؤتمر نفسه كانت معروضة للبيع كدسة أوراق من ٩٢ ورقة تشكل مجموعة من ٣٠ خطاباً، وتصريحاً، ومقابلة، ورسالة من المسؤولين الرسميين في الحكومة العراقية وكانت بعنوان «العراق يتحدث» ـ كان أكثر من نصفها لصدّام حسين. كان هدف المجموعة بحسب ناشرها فرد مور، «تقديم وجهة النظر العراقية». كانت تزيّن غلاف الكتاب خارطة خضراء تجمع الكويت والعراق والحدود ممحوّة بينهما، إضافة إلى كتيّب في الداخل يشرح أن مجموع عدد السكّان في العراق هو ٢٠ مليون نسمة (بما في ذلك المحافظة الـ ١٩). الـ ADC كانت تأسست عام ١٩٨٠ «رداً على التشويه والإفتراء والتعصّب مما كان يتعرض إليه الأميركيون من أصل عربي» (المعلومات من تقرير المنظمة عن نشاطاتها لعام ١٩٩١). وبمطلق الأحوال نادراً ما تهتم بالإعتداءات على حقوق الإنسان في العراق أو في العالم العربي بشكل عام. إن الـ ADC تهتم عوض ذلك بالإعتداءات الإسرائيلية على حقوق الإنسان، والحقوق المدنية للأميركيين العرب. في مقابلة بخصوص هذا الموضوع بالذات في ١١ أيار/مايو ١٩٩٢ مع ألبرت مخيبر رئيس لجنة الـ ADC أجراها الصحافي الأميركي ـ العراقي أياد رحيم، قال مخيبر إن كل الأنظمة في العالم العربي تتعدى على حقوق الإنسان، وإن كانت الـ ADC ستبدأ بالكلام عن تلك الإعتداءات، فأين ستتوقف؟ وهل من المفترض أن يقيموا ٢١ جدولاً للأعمال في كل مؤتمر؟ ذلك عمل لا نهاية له. إني أكشف هذا الحادث لأن الـ ADC أكبر منظمة أميركية ـ عربية في الولايات المتحدة، وتمثّل ما يقارب العشرين ألفاً من الأميركيين العرب، ووجهات نظرها واسعة التمثيل.

(٢) إن المرء يفكر على سبيل المثال بنتاج كاتبات لبنانيات مثل حنان الشيخ، أندريه شديد، وإيتيل عدنان. إن الكتّاب الذكور لا يزالون عالقين في قناة «الرفضية» والقومية والمعاداة للامبريالية. للمزيد من هذا الاختلاف أنظر دراسة إفلين عقّاد «الجنسانيّة والحرب: الأقنعة الأدبية في الشرق الأوسط» (نيويورك: نيويورك يونيفرستي برس ١٩٩٠).

(٣) الكتاب الوحيد عن حماه، الذي علمت بشأنه هو بعنوان «حماه: مأساة العصر التي فاقت صبرا وشاتيلا» (القاهرة: دار الاعتصام) ولا يحمل اسم مؤلف، وهو ربما نتيجة مجهود جماعي للإخوان المسلمين. إن أفضل رواية لما جرى موجودة في كتاب توماس فريدمان «من بيروت إلى القدس» (نيويورك: فرار،

مكتبة الفكر الجديد

شتراوس إند جيرو ١٩٨٩) الفصل ٤، «قوانين حماه». الرقم الأعلى وهو ٤٠ ألف قتيل كان نشره سوريّون من حماه. منظمة العفو الدولية نشرت تقريراً تخمّن فيه رقم القتلى بما بين عشرة آلاف و٢٥ ألفاً. لا أحد يعرف الرقم الحقيقي.

(٤) مذ تلقيت الفاكس، تحقّقت عدة مرات من صحة هذه البطاقة ـ المؤشر. وعلى الرغم من أني لم أستطع رؤية الوثيقة الأصلية التي كان قد استولى عليها الأكراد خلال إنتفاضة آذار ١٩٩١، كنت رأيت شريط فيديو يصور بطاقة التعريف لعزيز صالح أحمد على مقربة من غرفة الاغتصاب من مقر الأمن في مدينة السليمانية. وكان الشريط قد صوّر في الوقت الذي نهبت فيه المكاتب. لم يكن هناك وقت يسمح لأي واحد بتزوير وثائق. من هنا ومن شهادات أخرى من أكراد ومن صحافيين غربيين كانوا حاضرين آنذاك، ليس لديّ أي شك في أن هذه الوثيقة حقيقية وغير مزوّرة.

(٥) هذا بحسب شهادة قدّمها أحمد برني في ٢٦ أيلول/سبتمبر ١٩٩١ في باريس، خلال إجراءات محكمة «إتهموا صدّام»، وكل من نظمها عراقيون ليكتشفوا إن كان في الوسع توجيه تهم بجرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية ضد القيادة البعثية في بغداد. في تلك المحاكمة بالذات قال الدكتور هشام الحسن، وهو طبيب ممارس في المملكة المتحدة، في شهادة مؤثرة للغاية، إن العديد من النسوة العراقيات من مرضاه كان اغتصبهن رجال الأمن في العراق خلال الثمانينات. أنظر أيضاً مجموعة تقارير شهود عيان بعنوان «أحداث آذار ١٩٩١ كما يرويها شهود عيان» (طهران: المركز الوثائقي لحقوق الإنسان في العراق ١٩٩١) ص ٣٣.

(٦) إني مدين إلى هيلاري مان بهذه المعلومة. كانت زارت غرفة الإغتصاب بعد وقت قصير من تحرير العاصمة الكويتية. حصلت أيضاً على شريط فيديو يظهر غرفة الإغتصاب في مقر الأمن المركزي في السليمانية بعد وقت قصير من الإنتفاضة، مع كدسات من ملابس النسوة المرمية والبالية المشقوقة إلى جانب جدار قريب.

(٧) أنظر مقالة أندرو هوغ من العاصمة الكويتية بعنوان «ميراث حرب صدّام: أطفال بلا ماض»، «الصنداي تايمز» The Sunday Times ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٩٢. بعد زيارته لدار الأيتام كتب هوغ، «كان دار الحضانة، المزدان بصور شخصيات من الصور المتحركة وأثاث ملوّن، لا يشبه البتة مكاناً لأطفال يفضّل الكويتيون أن ينسوهم. غير أنه لواقع غير مريح أن معظم الأطفال الموجودين هنا هم تذكارات حيّة للغزو العراقي، وقد ولدتهن نسوة كويتيات اغتصبهن جنود صدّام حسين. التقديرات تختلف، ولكن خلال فترة الإحتلال التي دامت سبعة أشهر يُقدّر انه جرى اغتصاب خمسمئة امرأة، وبعضهن بشكل متكرر». الأطفال في دار الحضانة هم أولئك الذين ولدوا لنسوة لم تتوفر لهن فرصة القيام باجهاض سرّي أو أي مساعدة من عائلة متفهّمة. إنهن يواجهن حياة من العار.

(٨) أنظر على سبيل المثال شهادة أم حسن البياتي، وهي سيدة تركمانية تعرّضت لأشكال مختلفة من الإعتداءات الجنسية بينما كانت قيد الإحتجاز. قدمت شهادتها خلال جلسة شهادات أو تحقيق في إعتداءات ضد حقوق الإنسان في العراق. الجلسات عقدت في طهران في ٢٣ أيار/مايو ١٩٩٢ ونشرت مادتها في «صوت الكويت» في ١٣ حزيران/يونيو ١٩٩٢. أنظر أيضاً تقرير جيم موير «ما وراء الهرب الكردي المريع» في «كريستيان ساينس مونيتور» Christian Science Monitor ـ ١٨ نيسان/ أبريل ١٩٩١، ص ١. حيث يكتب «يقول العديد من المصادر، إنه حيال معاندة بعض السجناء السياسيين، كان بمثابة الممارسة الشائعة أن يحضروا قريباتهن ويغتصبونهن أمامهم ليستخرجوا منهم اعترافات». كانت نسوة «تتوارى» في العراق في ظروف غامضة منذ أواخر

مكتبة الفكر الجديد

السبعينات عندما بدأ القمع يسيطر بطريقة فعلية. منظمة ضئيلة الشهرة قائمة في لندن تدعى «اللجنة الدولية لإطلاق سراح النساء المعتقلات والمختفيات في العراق»، قامت بمجهود كبير في الثمانينات لجمع معلومات، وتقديم لوائح، والقيام بحملات إعلامية بخصوص مأزق هؤلاء النسوة في الغرب.

(٩) روبرت كارن «عار» الموضوع الغلاف في «الاتلانتيك» The Atlantic مجلد ٢٦٩ رقم ٢، (شباط/فبراير ١٩٩٢) ص ٤٧. ان استشهادات لاحقة في هذا المقطع هي من هذه الدراسة التي من ثلاثين صفحة.

(١٠) اني مدين لحوارات مع مي غصوب عبر السنوات للأفكار الموسّعة هنا، على الرغم من انها غير مسؤولة بالطبع وبأي شكل من الأشكال عما هو مكتوب هنا. أنظر على الأخص كتابها «المرأة العربية وذكورية الأصالة» (لندن: دار الساقي ١٩٩١). إن نسخة سابقة عن الفكرة نفسها ظهرت في مقالتها «النسوية والذكر الأبدي في العالم العربي»، «نيو ليفت ريفيو» **New Left Reviews** عدد ١٦١.

(١١) أنا مدين لفالح عبد الجبار، لأنه أخبرني بشأن هذا العرف التكريتي، الذي يعود إلى زمن العثمانيين، وعن ذلك الكره الغريب الذي نما في حلقات الحكم البعثي منذ أواخر السبعينات فصاعداً، وهدفه النيل من العائلات الارستقراطية الشهيرة في العراق.

(١٢) للرواية الكاملة أنظر الفصل ٥.

(١٣) أنظر كارين «عار»، «ذي أتلانتيك» **The Atlantic** ص ٤٠.

(١٤) إن قصّتي أمل مصيراتي وساره أبو غنّام، إضافة إلى الأخريات، مذكورتان في مقالة بعنوان «كفالة للجريمة» بقلم ماتي ريفيف في «كول هاير» ٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١. كان ريفيف كتب سابقاً عن هذا الموضوع سنة ١٩٨٨ عندما كشف تسامحاً غير مألوف لدى السلطات الإسرائيلية حيال العرب الذين قتلوا نساء في «جرائم شرف». إني مدين إلى مجموعة مقالات إسرائيل شاهاك في موضوع جرائم «شرف العائلة»، ومعظم المعلومات التي استخدمتها مصدرها النشاطات الجريئة لمنظمة «الفنار» النسائية الفلسطينية، التي تركّز على هذا الموضوع. أنظر أيضاً التقرير الممتاز رقم ٨٣ «بدايات الحركة النسوية الفلسطينية» المؤرخ في ٢٣ آب/أغسطس ١٩٩١. في ٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١ نظّمت «الفنار» مظاهرة خارج مركز الشرطة في بلدة الرملة الذي كان سلّم أمل مصيراتي مجدداً إلى قاتليها. المتظاهرات الفلسطينيات اتهمن السلطات الإسرائيلية بالتواطؤ مع «العادات المتخلّفة» والخضوع لها. أنظر الرسالة الإخبارية الصادرة عن «الفنار» باللغة العربية والمنشورة في حيفا، إسرائيل، والمؤرخة في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١، ص ٢.

(١٥) استشهاد من ريفيف في «كول هاير» ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١.

(١٦) أخبرني بشأن هذه الوثيقة الخاصة أبو علي (اسم مستعار) في شقلاوة (شمال العراق) في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١. كان أبو علي مسؤولاً عن تنظيم وتبويب ثمانية آلاف وثيقة استحوذ عليها الحزب الشيوعي العراقي في آذار/مارس ١٩٩١. لم استطع أنا نفسي رؤية النسخة الأصلية. ثمة كاتب كردي مرموق، وشاعر ومناضل سياسي يستطيع أن يؤكد من قوائم استولت عليها منظمات كردية خلال الثمانينات «إن تصوير أشرطة ڤيديو بواسطة كاميرات سرّية أصبح صناعة حقيقية» في العراق. ذكر حالات معينة عن أشرطة ڤيديو جنسية فاضحة كان يوزّعها النظام بالذات، بغرض إذلال شخصيات كردية معيّنة، كانت على الأغلب قد سبق وتعرّضت للاشتباه بسبب تعاونها. أنظر المقابلة التي قامت بها آنالي ڤان إميلروي وإسماعيل زاير في مجلة حقوق الإنسان الهولندية «منسن رشتن ماغازين» Mensen Rechten Maqazine أيار/ مايو ١٩٩٢). إن منظمة ميدل إيست واتش Middle East

مكتبة الفكر الجديد

Watch تمتلك أيضاً وثائق للشرطة العراقية تبيّن استخدام التهديد بكشف خيانات جنسية كوسيلة لتجنيد مخبرين.

(١٧) أنظر تقرير تيريزا ثورنهيل، «اجبار النساء على الكلام: استجواب النساء الفلسطينيات المحتجزات من قبل أجهزة الأمن العام الإسرائيلية» (لندن: محامون من أجل حقوق الإنسان في إسرائيل، ١٩٩٢) ويظهر من خلال حالات جرت دراستها كيف أن جهاز الأمن الإسرائيلي «طوّر تقنيات معينة خاصة بالنساء. وتتضمن هذه مضايقات جنسية، [و] توظيفاً للمفهوم العربي عن «شرف المرأة» (ص ١٧) أنظر أيضاً الحاشية رقم ٢٥ في الأسفل.

(١٨) من عصام الخفاجي «رعب الدولة وإنحطاط السياسة في العراق»، «ميريب ريبورتس» (أيار/مايو - حزيران/يونيو ١٩٩٢) ص ١٦.

(١٩) إني مدين لمي غصوب كونها أشارت إليّ بضرورة أخذ هذا التمييز بعين الاعتبار بين بلد مثل السعودية وبلد مثل العراق.

(٢٠) إن مخبرتي، الذي تتمنّى أن تبقى هويتها مجهولة كنت قابلتها في لندن صيف ١٩٩٢.

(٢١) إستخدام الإسلام في سياسة بعض العناصر في المعارضة العراقية تبرره الحاجة إلى العودة إلى «الجذور» و«التقاليد» بعد كل جيشانات سنوات البعث. النقطة الأولى هي أن هذه التبريرات تتجاهل دوماً أن هذه الجذور لم يعد لها نفس الوجود. لا يهم عدد الناس الذين انشدوا شعارات إسلامية خلال إنتفاضة آذار/مارس ١٩٩١ لأن الحشود نفسها التي هتفت «الله أكبر» كانت تمزق وتدمّر كل شيء حولها. العدمية بإسم الإسلام هي أيضاً ميراث بعثي، وهو لا يمت بصلة إلى الإسلام التقليدي. لا يمكن أن يحدث شيء ما كالعودة إلى الإسلام «الحقيقي» في العراق لأن العراقيين قد أصبحوا منذ وقت طويل «معصرنين» وعلى نحو عميق لا عودة عنه (في المعنى السيىء للكلمة وليس العكس). يمكن أن يستخدم الإسلام فقط كإيديولوجية سياسية حديثة لتحل محل الإيديولوجية البعثية، وستنتج عنها بشكل مساو نتائج مهلكة، (وفي المدى الطويل مؤذية للإسلام بالذات). إن العراقيين بحاجة ماسة اليوم إلى تجنّب كل أشكال الفكر الإيديولوجي في السياسة، بما في ذلك الأشكال الإسلامية.

(٢٢) أنظر تقرير روي غوتمان من خلال مقابلات مع عشرين ضحيّة في «نيويورك نيوزداي» New York Newsday ٢٣ آب/ أغسطس ١٩٩٢، ص ٧ و٣٩.

(٢٣) هذا هو الرقم الذي تم التوصل إليه رسمياً بعد تقديم شامل لبراهين في محاكمات عسكرية دولية عقدت في طوكيو عام ١٩٤٦. من دراسة سوزان براون ميلر المتازة عن الموضوع بعنوان «ضد ارادتنا: رجال، نساء وإغتصاب» (نيويورك: بانتام بوكس ١٩٨٠) ص ٥٨.

(٢٤) المصدر السابق، ص ٨٦ - ٨٧.

(٢٥) إن ملخّصاً عن هذه القضايا، إضافة إلى تعليق موجز عن ردات الفعل على كتيّب كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٩، موجود في «نسوة من أجل نسوة سجينات سياسيات - القدس» (القدس - تقرير نصف سنوي، كانون الثاني/يناير - حزيران/يونيو ١٩٩٠) أنظر صفحة ١٢ - ١٣ لقضايا الإعتداءات الجنسية.

(٢٦) دراسة ١٩٨٢ أجريت في أوريغون Oregon (الولايات المتحدة). أنظر «عقل المغتصب»، «نيوزويك» Newsweek، ٢٣ تموز/يوليو ١٩٩٠، ص ٤٦.

(٢٧) «أحد أكثر العناصر ثباتاً في الإغتصاب هو إنعدام التعاطف، لدى المهاجمين القدرة على إقناع انفسهم بأن الضحيّة رغبت أو استحقّت أن تغتصب». المصدر السابق ص ٥٠.

(٢٨) المقابلات مع النسوة العراقيات والتي تشكل المادة الخام لكتاب سناء الخيّاط «الشرف والعار» (لندن، دار الساقي ١٩٩٠) كانت أجريت خلال الحرب العراقية - الإيرانية. العنف الموجود في علاقاتهن الشخصية

مكتبة الفكر الجديد

والتي بين الأشخاص (ولكن غير السياسية) يظهر عبر تصويرهن للعلاقات العائلية والجنسية، والتي هي نتاج سنوات عديدة من العيش تحت حكم حزب البعث. لو أن مقابلات مماثلة أجريت في الخمسينات والستينات، قبل أن يصبح العنف مؤسساتياً إلى هذه الدرجة، لم تكن، حسبما أظن، لتُظهر النتائج نفسها.

(٢٩) أنظر ريفيف «كول هاير» ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١.

(٣٠) أنظر مقالة إيما دايلي عن مقابلة مع الدكتور هاريتوس فاتوراس بعنوان «الأناس العاديون القادرون على الشر» في «الإندبندنت» ١٠ آب/أغسطس ١٩٩٢.

(٣١) من تقرير مطوّل عن الحادثة بقلم روي غوتمان في «نيويورك نيوزداي» New York Newsday ٢٣ آب/أغسطس ١٩٩٢ ص ٧، و٣٩.

(٣٢) أحمد تيتشي، هو مؤلف القصة القصيرة التي استشهدت بها في الفصل ٧.

(٣٣) استشهاد من ريفيف في «كول هاير» ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١.

(٣٤) سلمان مصالحة «عن الشرف العربي الضائع» «هآريتز» ٢٧ آذار/مارس ١٩٩١. الاستشهاد مأخوذ من ترجمة إسرائيل شاهاك في تقريره رقم ٦٧ بعنوان «الفلسطينيون في إسرائيل يناقشون الديمقراطية في مناخ من النقد الذاتي».

(٣٥) مي غصوب «المرأة العربية» ص ٩ - ١٠.

(٣٦) الاستشهاد في مقالة «مع احترامي الكلّي لعائلتي، أريد أن أعيش» بقلم آمي غينسبرغ في «هاداشوت»، ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١. هذه المقالة موجودة كذلك في مجموعة شاهاك المذكورة في الهامش الرقم ١٤.

(٣٧) هذا الرقم مأخوذ من مقالة بقلم المحامية أسما جهنغير «وجوه الاغتصاب الكثيرة» في الطبعة الباكستانية لـ «هيرالد أنيول» The Herald Annual (كانون الثاني/يناير ١٩٩٢) ص ٥٢. كرّست «الهيرالد» ١٨ صفحة لمقالات مختلفة عن «سياسة الاغتصاب» في باكستان. وقد تبع ذلك حادثتان شهيرتان لتسوية حسابات سياسيّة عن طريق الإغتصاب، وشمل الأمر نسوة من الأطراف النقيضة في السلّم الاجتماعي. أنا مدين إلى ساره زيدي التي لفتت انتباهي إلى هذه المادة. إن خطورة الوضع في باكستان، والطريقة التي تتضارب فيها قوانين «الحدود» بوضوح مع أسس حقوق الإنسان، مستعرضة في تقرير من ١٥٣ صفحة أصدرته منظمة «هيومن رايتس واتش» Human Rights Watch بعنوان: «خطر مزدوج: إعتداءات الشرطة على النساء في باكستان» (نيويورك ١٩٩٢).

(٣٨) «تايمز أوف إنديا» Times of India مستشهد به في «نسوة في الخطوط الأماميّة»، وهو تقرير لمنظمة العفو الدولية في آذار/مارس ١٩٩١، ص ١٩، جاء فيه: «يبدو أن الإغتصابات أثناء الاعتقال تحدث بشكل مطرد إلى حد أن عنوان «شرطي يتحرش بامرأة»، أصبح طعاماً يومياً لقرّاء الصحف. إن اعتبرنا أن ٩٧ بالمئة من قضايا الاغتصاب إمّا تلغى أو تردّ على أساس أن البوليس لم يستطع تقصيها، بحسب اعتراف البوليس بالذات، فإن الصعوبات التي تعترض معالجة اغتصابات الاحتجاز هذه لا يمكن التقليل من شأنها».

(٣٩) أنظر «رغماً عنهن» في «فوكاس» Focus وهي منشورة لمنظمة العفو الدولية، شباط/فبراير ١٩٩٢، ص ٤.

(٤٠) «الفنار» تأسست في ربيع ١٩٩١ بحسب إحدى أعضائها سوزان نصر، عندما قابلها أياد رحيم في أيار/

مكتبة الفكر الجديد

مايو ١٩٩٢. تأسيسها كانت شرارته قضيّة شابة فلسطينية في العشرين من عمرها من قرية في الجليل تدعى إكسال، كان والدها يغتصبها منذ كانت في الخامسة عشرة من العمر. في النهاية حملت الشابة ووجدت محروقة ميتة في سيّارة. الشرطة الإسرائيلية اطلقت سراح الأب وبدأت النساء الفلسطينيات يجمعن عريضة تناشد السلطات محاكمته. اليوم تحاضر نساء «الفنار» في القرى العربية وفي المدارس الثانوية في موضوع الشرف والعار في المجتمع العربي المسلم. عندما قال الشيخ محمد حسين غدير في مقابلة على الراديو إن «شرف العائلة ينبغي أن يصان»، وأن المرأة إن قامت «بإلحاق العار بعائلتها، يجب أن يجري التصرف بشأنها، وحتى قتلها»، طالبت نساء «الفنار» النائب العام في إسرائيل بأن يتهم الشيخ بالتحريض على القتل. أنظر أيضاً غينسبرغ في «هاداشوت» ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١.

(٤١) «بيان منظمة العفو الدولية حول حقوق الإنسان في سورية» واشنطن ٢٤ نيسان/أبريل ١٩٩١.

(٤٢) أنظر الهامش الرقم ٣ من أصل مصادر أخرى عن قصة حماه، إلى جانب هذه المقابلة مع سعيد التي جرت في الولايات المتحدة في ربيع ١٩٩٢. سعيد هو بالطبع اسم مستعار.

(٤٣) أنظر مقالة مارتين أميس في الأسوشيتد برس Assochated Press المنشورة في «ناشوا تلغراف» Nashua Telegraph (في نيوهامبشاير New Hampshire) في ١٤ حزيران/يونيو ١٩٩١. أنظر أيضاً «بوسطن صنداي غلوب» Boston Sunday Globe ٩ حزيران/يونيو ١٩٩١.

(٤٤) أنظر تقرير جوديث ميلر، «ذي نيويورك تايمز» The New York Times ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠.

(٤٥) أنظر تقرير منظمة العفو الدولية كما يستشهد به في «التايمز» The Times (لندن) ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠.

(٤٦) أنظر تقرير «ميدل إيست واتش» Middle East Watch، بعنوان: «انتصار تحوّل بغيضاً» أيلول/سبتمبر ١٩٩١. ونشرة صادرة عن منظمة العفو الدولية عن التعذيب والقتل في الكويت مؤرخة في ١٨ نيسان/أبريل ١٩٩١.

(٤٧) استخرجت كل التفاصيل من ثلاثة تقارير كتبها جون كيفنر في «نيويورك تايمز» The New York Times في ٢٢ كانون الثاني/يناير و٣٠ كانون الثاني و٩ شباط/فبراير ١٩٨٦.

(٤٨) إن انفجار السيّارة المزدوج، في ممارسة تشبه، الممارسة الإسرائيلية في لبنان والتي تقوم على قصف الموقع ذاته في مخيم اللاجئين مرتين وفي توال سريع.

(٤٩) أرقام نشرت في «النهار» البيروتية في ٦ آذار/مارس ١٩٩٢. أول أرقام رسمية عن عدد ضحايا الحرب الأهلية في لبنان، كما أكّدها مكتب المعلومات في إدارة الشرطة في بيروت، نشرت في العدد نفسه من «النهار». إن لم تكن قد ظهرت بشكل آخر، فإني أعتمد على هذا مصدراً لي.

(٥٠) الأرقام من بحث لسليم نصر، بعنوان: «لبنان: حقائق اجتماعية جديدة وقضايا إعادة بناء» أعيد طبعها في «بريسي» Precis، منشورات مركز الدراسات الدولية في جامعة MIT، المجلد ٣ رقم ١ (شتاء ١٩٩١ - ١٩٩٢) ص ١٣.

(٥١) جين سعيد مقدسي، «شظايا بيروت» مذكرات حرب» (نيويورك: برسيا بوكس ١٩٩٠) ص ٢١٣ ٢٤٤.

(٥٢) كل الإحصاءات مأخوذة من مقالة بعنوان، «الإنتفاضة تتحول ضد نفسها» في «إيكونوميست» The Economist ١٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٩ ص ٤١.

مكتبة الفكر الجديد

(٥٣) الفلسطيني الذي تحدث علناً محطماً جدار الصمت بشأن هذه الجرائم كان الكاتب اميل حبيبي، أنظر مقالتيه في «القدس العربي»، ٢٠ آذار/مارس و٢٢ أيار/مايو ١٩٩١.

(٥٤) بوست هيلترمان «ذي نايشن» The Nation ١٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٠. حبيبي يشير بالصدفة إلى ثلاثماية حادثة قتل لمتعاونين مزعومين، في نقده اللاذع للتطرّف الفلسطيني في «القدس العربي» ٢٠ آذار/مارس ١٩٩١.

(٥٥) «ذي نايشن» The Nation ١٠ أيلول/سبتمبر ١٩٩٠. عنوان المقالة هو «العدو داخل الإنتفاضة».

(٥٦) كما نشرت في تقرير في «بوسطن غلوب» Boston Globe ٣٠ أيار/مايو ١٩٩٢.

(٥٧) غادر عيد الاجتماع يائساً، وقال في مقابلة لاحقة، انه يمكن أن يكون الثاني في السلسلة. أنظر الرواية في «بوسطن غلوب» Boston Globe، ٢٠ حزيران/يونيو ١٩٩٢.

(٥٨) من مقالته في «القدس العربي» ٩ نيسان/أبريل ١٩٩١.

(٥٩) القصيدة بعنوان «مدينة القرن الأول» كتبت في ٧ آذار/مارس ١٩٩١، بينما كانت تسحق الإنتفاضة العراقية ضد النظام البعثي التي كانت بدأت في البصرة. إنها مطبوعة بالعربية مع ترجمة إنكليزية قام بها الكاتب الفلسطيني انطوان شمّاس في «ميديتيرانيان» Mediterraneans، مجلة فصلية، عدد مزدوج الرقم ٢ و٣ ص ٧٨ - ٨١.

(٦٠) أمين العيس كتب مقالته تحت اسم مستعار هو، م. يحيى، بعنوان «محمود درويش والطريق المسدود». نشرت في «عراق الغد» ٢٦ آذار/مارس ١٩٨٧.

(٦١) كل الاستشهادات من النص الكامل لتعليقات محمود درويش التي كانت نشرت في أسبوعية «الطليعة العربية» الرقم ١٥١ وهي تصدر في باريس. في ٣١ آذار/مارس ١٩٨٦، ص ٣٨ - ٣٩.

(٦٢) قصيدة درويش بعنوان «كردستان» مستشهد بها في مقالة العيسى، مذكورة في حاشية رقم ٦٠.

١٠ - تعريف الصمت

(١) صادق جلال العظم، «النقد الذاتي بعد الهزيمة» (عكا: دار الجليل ١٩٦٩) ص ٢٠.

(٢) الاستثناء هو وضّاح شرارة، أستاذ العلوم السياسية في الجامعة اللبنانية، الذي كتب مقالة ممتازة، للتوّ على أثر غزو الكويت، وهي تسترجع نوع المواضيع التي كانت تشغل نتاج العظم المبكر وتتلاعب على عناوينها. أنظر مقالته، «النقد الذاتي في أثناء الهزيمة» المنشورة في «الحياة» في ٢٥ آب/ أغسطس ١٩٩٠. هاجم شرارة بصراحة نواة الخطاب القومي والجماهيري حتى حين كان هذا الخطاب يحيط به من كل جانب في بيروت، ونظراً للظروف كان ذلك تصرفاً شجاعاً.

(٣) إدوارد سعيد، «الإستشراق» (نيويورك: راندوم هاوس ١٩٧٩)، الإستشهادات هي من المقدّمة ص ١١، تحدد ماذا سيكون موضوع الكتاب، ومن «الإستشراق الآن» (ص ٢٠٤) يتحدد ماذا يفكر فيه سعيد بشأن إستشراقي «كامن»، وحاضر، كما يقول، في «كل» أوروبي.

(٤) لنقد عربي لهذا الكتاب، أنظر صادق جلال العظم، «الاستشراق والإستشراق معكوساً»، منشور في المجلة العربية «الحياة الجديدة» العدد الثاني (كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير ١٩٨١). نشرت هذه في الإنكليزية بالعنوان نفسه في «خمسين» Khamsin عدد ٨ (إيثاكا برس، لندن ١٩٨١).

(٥) راجع الغضب الذي سبّبه قبول أميل حبيبي الجائزة الأدبية الأكثر تميّزاً في إسرائيل في أيار/مايو ١٩٩٢. شجب المثقفون العرب البارزون الواحد تلو الآخر قبوله الجائزة (على سبيل المثال، محمود درويش، عبد

مكتبة الفكر الجديد

الرحمن منيف، سميح القاسم، جورج طرابيشي، عزيز العظمة، جابر عصفور، هشام شرابي، وعدد كبير آخر). من أجل تعليقات قصيرة من قبل هؤلاء وآخرين عن سبب معارضتهم لقبوله الجائزة، أنظر «الحياة» ٢٤ آذار/ مارس ١٩٩٢. تعرّض حبيبي للانتقاد أيضاً من قبل اتحاد الكتّاب والصحافيين الفلسطينيين. تنبغي الإشارة إلى أن حبيبي كان مدعوماً من جيل جديد من القادة الفلسطينيين داخل إسرائيل والأراضي المحتلة، أشخاص مثل حنان عشراوي وفيصل الحسيني. دفاعاً عن خطوة حبيبي، أنظر النقد الممتاز بقلم حازم صاغيّة «مسألة إميل حبيبي» صحيفة «الحياة» ٣٠ آذار/مارس ١٩٩٢.

(٦) أنظر «الإستشراق» ص ١١.

(٧) المصدر السابق، ص ١.

(٨) من قصيدة أدونيس عام ١٩٨٢ عن بيروت، نشرت في أنطولوجيا الشعر العربي الصادرة باللغتين العربية والإنكليزية بعنوان «ضحايا الخريطة»، (دار الساقي)، ص ١٣٨.

(٩) أنظر فؤاد عجمي «الصمت في الثقافة العربية» «ذي نيو ريبابليك» The New Republic ٦ نيسان/ أبريل ١٩٨٧.

(١٠) خالدي «أزمة الخليج: مصادر وعواقب» ص ٣.

(١١) الأغنية التي تبدأ بهذه السطور تدعى «دكتور»، كانت وضعت سنة ١٩٣٩ وسجّلت تلك السنة في راديو بغداد.

(١٢) نعوم شومسكي «مسؤولية المثقفين»، صدر مرة ثانية في «قارىء شومسكي» (نيويورك بانتيون بوكس ١٩٨٧).

(١٣) أوليفر ساكس، «نهضات» (لندن: بيكادور ١٩٩١) ص ٢٣٤.

(١٤) شكلار «شرور عادية» ص ٨ - ٩. الجملة الرائعة «وضع القسوة أولاً» كان ابتكرها مونتانيه Montaigne، وهو ما اكتشفته بعد قراءة شكلار. أبشع شر سياسي بين كل الشرور، كما تبرهن شكلار في كتابها، هو القسوة.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

المحتويات

مقدمة ٥

الباب الأول
القسوة

١ ـ خليل ٢١
٢ ـ أبو حيدر ٤٧
٣ ـ عمر ٩٥
٤ ـ مصطفى ١٢٧
٥ ـ تيمور ١٤٣
٦ ـ تذكّر القسوة ١٩٩
العراق إلى أين؟ ٢١٣

الباب الثاني
الصمت

٧ ـ من أنا؟ ٢٣١
٨ ـ خرافات قومية جديدة ٢٥١
٩ ـ مشاهد من القسوة والصمت ٢٨١
١٠ ـ تعريف الصمت ٣٠٩
الهوامش ٣٢٥

مكتبة الفكر الجديد

هذا الكتاب

يتناول كنعان مكية، في هذا الكتاب، الثنائية الثقافية التي نهض عليها الاستبداد، وتغذّت بها أعمال الاعتداء على حقوق الإنسان. إنها ثنائية القسوة والصمت التي بموجبها يغض البعض أنظارهم عن البشاعات التي تنزل بالشعوب والأفراد، بالنساء والأقليات.

ففيما يساق أبطال مكية (أبو حيدر وعمر وتيمور والآخرون من الرموز التمثيلية للمجتمعات العربية) إلى أقدار جحيمية، تمضي الكتابة السائدة في وجهة مغايرة.

لقد لقي «القسوة والصمت»، الذي نال جائزة ليونيل غيلبر للعام ١٩٩٣ كأفضل كتاب في العلاقات الدولية، الاستقبال نفسه الذي لقيه كتاب مكية السابق «جمهورية الخوف»، فرأى مايكل ماسنغ في «ذي نيويوركر»، مثلاً، أنه يفضح التكوين الاستبدادي في العالم العربي، ووصفه عباس ميلاني في «سان فرنسيسكو إيكزامينر أند كرونيكل» بأنه شجاع ولامع. . . وعمل لا غنى عنه لأي مهتم بالسياسة في الشرق الأوسط.

مكتبة
الفكر الجديد